أحمد علي اسماعيل علي

تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي

الحالة السياسية الحربية



المجلد الثاني

الجزء الثاني

أحمد علي اسماعيل علي
ماجستير تاريخ

تاريخ بلاد الشام

في

العصر الأمـــوي

المجلد الثاني

(الجزء الثاني)

مقدمة

الزمن خالد، رمز الوقت، وشاهد على فعل الإنسان فيه، أي أن الإنسان هو الذي يفعل الأحداث وينفعل بها خلال الزمن. فالعرب الأمويون شكلوا دولة ذات حضارة راقية إذا ما قيست بزمن حكمهم القصير، وآثار هذه الحضارة مازالت شامخة معبرة عن رقي هذه الحضارة، فالجامع الأموي بدمشق اعتبر أحد عجائب الدنيا، وقصور الأمويين في بلاد الشام ما زالت آثارها باقية تدل على الذوق الرفيع في فن العمارة والبناء.

في البدء كانت الكلمة، والكلمة عند الإنسان مصدرها الذات، والإنسان في الزمن يقاس بالكلمة، ونظراً لأهمية الكلمة فقد جاء عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: «الكلمة الطيبة صدقة»، وقال المسيح: ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما معناه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان إنما بكل كلمة من كلمات الحق. أي أن الحياة البشرية مرتبطة بالكلمة، والكلمة المنقذة خالدة مع الزمن معنى هذا أن عمر الإنسان مرتبط بالكلمة، وعمره يقاس بالكلمة وحضارة الشعوب مرتبطة بالكلمة، فبقدر ماتسمو الكلمة تسمو الشعوب لأن الكلمة تسبق الحركة ولأن الكلمة أس الحركة ونهاية السكون الصمت.

التاريخ ميدان واسع من ميادين المعرفة، وهو أهم فروعها الإنسانية، وهو الوحيد الذي يظهر الإنسان على حقيقته، وهو الوسيلة الرئيسة لمعرفة الذات البشرية، إذاً التاريخ كلمة، التاريخ هو الإعلام بالوقت أو تعريف الوقت، وتاريخ كل شيء غايته و وضعه الذي ينتهي إليه زمنه، أي أن التاريخ عبارة عن فن يبحث فيه عن وقائع الزمن من حيث المكان والزمان، وموضوع التاريخ الإنسان والزمان وفائدته معرفة الأمور على حقيقتها. والتاريخ كما هو أحد الأدلة لضبط الراوي

حيث يقول في المروي. أخيراً هو علم يستمتع به العالم والجاهل إذا اعتمد العدالة، إذا ميز بين المقبول والمردود، بين الرفيع والوضيع، إذا ابتعد عن المحابات، عن العصبية والتعصب وإذا اعتمد العقل، إذا اعتمد الصدق والأمانة، إذا اعتمد أسلوب البحث العلمي بعدالة.

وليست قراءة التاريخ حصراً على الاختصاصيين، بل العكس فقراءة التاريخ ضرورة لكل مواطن، لأن من يجهل تاريخه يجهل حق الوطن عليه، ويكون ارتباطه بأرضه وأمته ناقصاً، وتاريخ أمتنا العربية ابتداءً من عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى نهاية العصر الأموي فيه الكثير من المغالطات والتشويهات، وفيه الكثير من التزوير والوضع والمبالغة، فيه التمجيد للحكام لدرجة أن بعضهم وصفوا بأنهم خلفاء الله على الأرض.

من المعروف أن تدوين التاريخ بدأ بشكله الأساسي والرئيسي بعد العصر الأموي، وبدأ هذا التدوين من أساسه على أنه تاريخ الدولة الإسلامية، أي أنهم تناسوا جنسية الدولة، ونسبوها إلى الدين متجاهلين بقصد أم غير قصد. أن العرب هم الشعب الوحيد الذي تكونت منه الدولة العربية من القمة إلى القاعدة، واستمرت حتى الوقت الحاضر. أضف على ذلك أن الذين دونوا التاريخ ركزوا على الجوانب السلبية في تاريخ العرب منذ بدايته، وأقصد بذلك تلك الأحداث التي وجد المتكلمون فيها مرتعاً خصباً لآرائهم، فكثر الحديث فيها وكثرت الآراء وتشعبت، فكان لذلك أثر سلبي على أبناء الأمة عانوا منه ومازالوا يعانون أكثر.

مثلاً حدث سقيفة بني ساعدة التي ما زالت في ذهن الناس من تاريخها إلى يومنا هذا، لقد أكثر المؤرخون وأفاضوا الكثير على هذا الحدث وما زالوا، علماً أنه لا يستحق كل هذه الأقوال، وكان بالإمكان الاستغناء عن أكثرها لأن الحدث كان طبيعياً في حينه وسارت أمور الدولة بعده طبيعية، لكن لماذا ركز عليه المؤرخون وأعطوه هذه الأهمية، بالغوا في تصويره وتعصبوا واختلفوا في تفسيره فانعكس كل ذلك سلباً على واقع الأمة العربية.

وحروب الردة أيضاً من الأحداث التي ذهب فيها المؤرخون كل مذهب، لماذا طغت على هذه الأحداث عند تدوينها النواحي الدينية؟ لماذا اعتبرها المؤرخون صراعاً دينياً وأخفوا الجانب المهم هو السياسي والإقتصادي؟ والحدث الآخر والمهم هو مقتل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، حيث أسهبوا فيه من الناحية الدينية، والفقهية، وتجنبوا الناحية السياسية والإقتصادية والإجتماعية.

لقد اعتمد المؤرخون كما أرى تاريخ الدولة الديني ـ فالطبري مثلاً كمؤرخ واسع المعرفة في العلوم الدينية جاءت نظرته للتاريخ متأثرة بثقافته كمحدث وفقيه ـــ وتجنبوا تدوين التاريخ العربي السياسي والحضاري وأهميته العالمية آنذاك، لماذا تجاهل المؤرخون العرب كجنس وأمة؟ لماذا أرّخوا للدولة على أنها إسلامية أولاً علماً أنهم عرب لهم وجودهم السياسي والحضاري والديني قبل الإسلام.

وتاريخ الدولة الأموية كما هو معلوم مزدحم بمثل هذه الأحداث التي تناولها المؤرخون حتى ضاعت الحقيقة في خضم هذه الأحداث، وخاصة فيما يتعلق بالناحية الحضارية بمختلف أشكالها وألوانها، ففي هذا العصر اختلطت المصالح من جهة، وتعارضت من جهة أخرى واختلفت الاتجاهات والتيارات السياسية وتباينت.

امتاز العصر الأموي بأنه كان ميداناً واسعاً لنفوذ الأسر من جهة، والأفراد المنتمية إلى ماض عريق من جهة أخرى لإثبات وجودهم، وتولدت الصراعات القبلية، وانفجرت الثورات الداخلية، وتطورت حركة الخوارج عسكرياً وفكرياً، إلا أن قوة الدولة سياسياً وعسكرياً استطاعت الاستمرار، والقضاء على هذه المنازعات والصراعات، و وحدت الدولة العربية وحررتها سياسياً واقتصادياً، وحققت انتصارات عسكرية على كافة الجبهات، وامتد نفوذها في كافة الاتجاهات، وتطورت علاقاتها السياسية داخلياً وخارجياً، وبلغت الذروة من سعة الملك والنفوذ.

ولدراسة التاريخ الأموي يصادف الباحث الكثير من العقبات، وخاصة من الناحية الإقتصادية والفكرية، وهذا بدوره ينعكس على دراسة الناحية السياسية وتحليل أوضاعها الداخلية والخارجية. ورغم ذلك فقد أقدمت على دراسة هذا الموضوع محاولاً قدر الإمكان تذليل العقبات، وحاولت جهدي دراسة الحياة السياسية في هذا العصر مبتعداً عن المبالغة والخيال، حاولت بما أتيح لي إظهار الحقيقة التاريخية وأرجو من القارئ الكريم ألاّ يتسرع بالحكم على مادة الكتاب إذا لم توافق ما ألفه من آراء أو صور عن هذه الفترة.

عندما بدأت بكتابة هذا الموضوع أخذت بعين الاعتبار الواقعية والصدق في التعامل مع الأحداث مبتعداً عن العصبية أو التعصب، فالموضوع دراسة سياسية حضارية في مرحلة كانوا فيها سادة الدنيا، واعتمدت النصوص التاريخية لإثبات ما أريد قوله من جهة، ورداً على كل من يتهمني

لأنه مخالف لما ألفه في الحياة اليومية. بدأت بكتابة هذه المرحلة بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية مظهراً بعض الجوانب الإيجابية وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، ومظهراً بعض الجوانب السلبية وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الداخلية، وهذه حقائق تاريخية.

* * *

أهم خطوة أوصلت معاوية إلى السلطة هي ولايته دمشق ثم التوسع فيها حتى أصبح في عهد الخليفة عثمان يسيطر على كامل إقليم بلاد الشام، ثم إن سياسة الخليفة عثمان كانت على عكس سياسة من سبقه، وأكد ذلك عندما قال في مجلس الستة: «لأن نعين حجراً خير من أن تولوا رجلاً آخر مثل عمر».

فالخليفة عمر شدّد الرقابة على الصحابة، وفرض عليهم عدم التغيب عن المدينة بغير إذن، ولأجل غير محدود، فكانت عبارة الخليفة عثمان ثورة كامنة في نفسه عبّر عنها في الوقت المناسب، علماً أن مثل هذه السياسة المتشددة أفادت معاوية كثيراً لأنه لو سمح لهم بحرية الحركة والتجوال لكانت بلاد الشام قد عرفت حقيقة السيرة النبوية، والمغازي، وسيرة القادة الذين كان لهم دور هام فيها، أضف على ذلك كان هؤلاء القادة علّموا أبناء البلاد حقائق التشريع الجديد وتاريخه كونهم الأجدر لمثل هذه المهمة، وفي ذلك هدم للمصالح الأموية.

عندما وصل الخليفة عثمان إلى السلطة اعتمد سياسة مخالفة عمن سبقه، فأطلق الحريات نسبياً وركّز على حرية العنصر الأموي، وغير ولاة الأمصار فكان أكثرهم أمويين، و لم يكتف بذلك بل منح الولاة الحرية في إدارة شؤون أقاليمهم، فكانوا يأمرون وينهون دون العودة إلى العاصمة المركزية.

خلال فتنة عثمان حاول معاوية الابتعاد عنها ضمنياً، و لم يعمل بأي شكل من الأشكال على حلها، وانصرف بكل ثقله إلى توطيد اقدامه في بلاد الشام، ولا يستبعد أن يكون معاوية راغباً في أحداث الحجاز وتطورها لأنه كان يحسب حساب نتائجها العائدة بالنفع والفائدة له، وهذا ما كان فقد قتل الخليفة، واتخذه ذريعةً يطالب بدمه، ورفض مبايعة الخليفة الإمام علي، فعمل على تأليب سكان البلاد ضدّه، و زرع في نفوسهم حبّ الانتقام، وكان أول ما فعله أن رفع قميص عثمان المخضب بالدم على منبر المسجد.

وبينما وسائل إعلام معاوية تعمل على التحريض والثأر ظهرت حركة أخرى كان هدفها الظاهر المطالبة بقتلة عثمان، إلا أن مضمونها كان عدم الإذعان للخليفة الجديد، ومعارضته، وقاد هذه الحركة السيدة عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير. واعتمدت هذه الحركة الإعلام الذي اعتمده معاوية، ولطالما الحركتان لهما هدف واحد، فلماذا لم تتحد قواهما ضدّ الطرف الآخر؟ لماذا لم يتحرك معاوية لنصرة الحركة الثانية وكان لديه «مائة ألف يأخذون العطاء مع ولدانهم، وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته؟».

لقد كان هدف معاوية أبعد مما أظهره عندما استقل ببلاد الشام، كان هدفه غير المعلن هو الخلافة لا سواها لأنه لو انضم إلى الحركة الثابتة وتم قتل قتلة عثمان، فبأي شيء يطالب. إذاً كان معاوية يخطط لأمر آخر، من أجل ذلك أخذ يحافظ على قواته جاهزة، لذلك لم يتدخل بهذا الصراع وكانت موقعة الجمل وقتل قادتها، وفقد الكثير من الجانبين. كل ذلك كان كسباً لمعاوية من الناحية العسكرية لأن قوته بقيت كما هي.

ولكي تكتمل استراتيجية معاوية السياسية في الداخل فكر في عقد صلح مع الامبراطورية البيزنطية، وفعلاً وقع معاهدة صلح مع الامبراطور قنسطانز، وبذلك اطمأن على جبهته الشمالية، وتمكن من سحب بعض قواتها هناك استعداداً لأي مجابهة قد تكون في الداخل. في هذه المرحلة التحق به عمرو بن العاص، وبايعه على أن تكون مصر طعماً له ما بقي حياً، وبذلك ازدادت قوته المادية والعسكرية والمعنوية.

وتمر الأحداث سريعة وتحدث معركة صفين، وترفع المصاحف ـ علماً أنها لم تكن أول مرّة فقد رفعت في موقعة الجمل ـ ويحدث التحكيم، ويحدث الانقسام في صفوف قوات الإمام علي فخرجت الخوارج، وفي كل ذلك كان كسب لمعاوية لأن قواته بقيت متحدة تحت قيادته، وكان رفع المصاحف مكيدة ناجحة، فأهل العراق فيهم الكثير من الصحابة الذين لازموا النبي صلى الله عليه وسلم، وصاحبوه أي أنهم تشربوا الإسلام من منابعه الأصلية على عكس أهل الشام الذين أخذوا الإسلام عن طريق رجال الدولة أي الولاة الذين نجحوا وبرعوا في اكتساب طاعة الناس منهم عمرو بن العاص في مصر، والمغيرة في الكوفة، ومعاوية بالشام إلا أن أكثرهم نجاحاً كان معاوية لأنه الوحيد الذي بقي منهم والياً إلى هذا الوقت.

وبعد نجاح عمرو بن العاص في التحكيم أخذ معاوية في استكمال مخططه فوجه قواته إلى أطراف خصمه. في الوقت نفسه تمردت الولايات الشرقية وطردت ولاتها، واعتمد معاوية كل الوسائل التي تحقق له هدفه، ثم تابع مخططه مع السنين فتمكن من البيعة لابنه يزيد بولاية العهد، وبذلك انتقلت الخلافة إلى الأمويين يتوارثونها حتى كانت نهايتهم.

* * *

في العصر الأموي اختلف شكل الدولة عما كان عليه في العصر الراشدي، فالحكومة آنذاك كانت دستورية التزمت بمبادئ الدستور السماوي المستمد من القرآن الكريم من جهة، والسنة النبوية بها من جهة ثانية، علماً أن النظام الإسلامي بمجمله لم يفرض أسلوباً معيناً أو قانوناً مسنوناً لممارسة الشورى، إنما ترك الأمر لظروف كل مرحلة حيث مرّت الشورى بمراحل متفاوتة.

والخليفة في العصر الراشدي لم يكن يستمد سلطته من الله تعالى، إنما كان يستمدها من الشعب معتمداً قانوناً لا يجوز له تجاوزه هو «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، ثم أن الخلافة آنذاك لم تكن وراثية ولا سعى الخلفاء إلى هذا الاتجاه إلا ما كان من الخليفة عثمان عندما حول وظائف الدولة كلها إلى أيدي الأمويين يتصرفون بها وكأنها ملك لهم، فعندما يقول أحدهم إن السواد بستان لقريش كان يؤكد ذلك، وعندما قال مروان بن الحكم حينما رأى الثائرين حول دار عثمان: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب شاهت الوجوه! أجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا». علماً أن مروان هذا كان بمنزلة مستشار و وزير لعثمان، وحتى يمكن القول إنه هو الذي كان يرسم سياسة الدولة بما يتفق ومصالح الأمويين التي عبّر عنها قبل ذلك أبو سفيان، عندما قال لبني أمية: «تلقفوها و والله ما من جنة ولا نار». إذاً أطماع الأمويين بالخلافة والملك لها جذور قبل معاوية ومعاوية استغل كل ما يمكن استغلاله لتحقيق ذلك.

أما ممارسة الحكم، فقد مارسه الأمويون و ولاة الأقاليم بما يتناسب وحالة المجتمع، ففي هذا العصر اختلف الأمر فالحكومة جعلها معاوية ملكية وراثية رأس الدولة هو المشرع وإليه كل شيء حيث يمكننا القول إنها أصبحت ديكتاتورية، يؤكد ذلك قول معاوية: «من شئنا أعطينا ومن شئنا منعنا»، وعندما أصبحت الخلافة وراثية أضفى الأمويون عليها صفة الجبرية والقدرية أي أنهم خلفاء

الله على الأرض اختارهم الله كما اختار أنبياءه، وبهذه النظرية ربط الأمويون كل المؤسسات مهما كان نوعها بهم، فأصبحوا المرجع الأول في كل شيء، ثم إن الأمويين كانوا يشغلون أعلى المناصب في الدولة يضاف لهم الولاة الذين كانوا أداة طيعة في أيديهم، من هذا حصل بعضهم على استقلال شبه إداري في أمصارهم، كالحجاج، وابن العاص، وابن القسري، وزياد بن أبيه، وابن هبيرة وغيرهم الكثير.

أما السمة الظاهرة والمميزة للدولة آنذاك فهي الإسلام حيث كانت الشريعة الإسلامية قوام هذه الدولة من الناحية الشكلية أما مضمونها فكان جزء كبير منه مصدره الخلفاء، وما يصدر عنهم (كونهم خلفاء الله على الأرض) يعتبر أساساً لكل تشريع، لذلك غير الخلفاء كل ما يتعارض مع مصالحهم وأوجدوا البديل، واستمر ذلك طيلة العصر الأموي أي أنهم في النهاية خرجوا على نظام الحكم والشريعة الذي كان سائداً قبلهم، أي أن أفعال الخلفاء الأمويين أصبحت سنة يجب الاقتداء بها، ولا يجوز معارضتها فالشرع ما يشرعون، وعلى الناس الاقتداء بهم.

واتسمت الدولة الأموية بأنها عربية، السؤال: هل كان عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعصر الراشدين غير عربي حتى عرّبه الأمويون، بالتأكيد كانت الدولة في العصر الراشدي، وعهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر عروبة من أي مرحلة مرّت منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر. ففي هذه المرحلة كانت الأمة العربية أمة واحدة نبذت العصبيات القبلية، و وحدت القلوب ضد أعدائها، كانت العدالة والحرية والمساواة شعارهم.

إذاً كانت الدولة الأموية عربية استمراراً لما كانت عليه من حيث الجنس إلا أنهم مزقوا الشعب بزرع العصبية القبلية داخل كل قبيلة، وتعصبوا لبعضها ضد بعضها الآخر، تعاملوا مع خصومهم السياسيين وكلهم من العرب الأقحاح بأقسى أنواع الشدة من القتل، والتمثيل، والبطش والهدم، والتدمير، حتى وصلت أفعالهم إلى ضرب بيت الله الحرام (الكعبة) مرتين، هل كان هناك قسوة أكبر من قسوة عبد الملك بن مروان في تعامله مع عمرو بن سعيد الأشدق؟ وهل كانت قسوته تفوق قسوة الحجاج في تعامله مع الآخرين مهما كانوا؟ هل دعاهم أصلهم العربي إلى مثل هذه القسوة أم دعتهم عروبتهم ودينهم الجديد إلى العدالة والتسامح إلى حرية العيش المشترك؟ هل كان العرب في العصر الراشدي يفعلون فعلهم حتى أن العرب قبل الإسلام كانوا أشد ألفةً منهم؟.

وفي مجال السياسة المالية اعتمد الأمويون سياسة مالية غير السياسة التي كانت معتمدة قبلهم حين تصرفوا بها بحرية فائقة، فاستخدموها في كسب ودّ الرجال، وأنفقوها في وسائل الترف الخاصة كما كانوا يكبحون جماح المعارضة بالعطاء الجزيل، وكانوا يتصرفون بأموال الدولة كأنها أموالهم الخاصة، هم أصحاب الحق الإلهي في تصريفه لا رقيب عليهم ولا ضابط و لا رادع. واختلفت أسس السياسة الإقتصادية، فالأموال كانت توزع من قبلهم، ونهجوا منهجاً جديداً عكس ما كان سائداً في أن المال مال الله ولكل فرد في الدولة حق فيه فالأمويون اعتبروا المال مالهم من أرادوا أعطوه ومن غضبوا عليه منعوا عنه العطاء.

وفي العهد الراشدي كان اكتناز المال محرماً شرعاً أما في العصر الأموي فقد اكتنزوا المال وأثروا ثراءً فاحشاً، والإسلام فرض المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ومنع التمييز بين الناس إلا بالتقوى، أما في العصر الأموي فالمساواة بين المسلمين كانت حسب رغبة السلطة الحاكمة والعاملين معها، وكل ذلك بما يتناسب مع أهدافها وتحقيق رغباتها، وخضعت الحريات العامة في العصر الأموي لرقابة شديدة، وخاصةً المعارضة، ففي عهدهم كثر الرق وازدادت السخرة والسخرية، وتنوعت وكثر التسرى بالاماء، حتى حرية الرأي كبتت.

* * *

عندما نتحدث عن التاريخ يجب أن نبحث ونحلل ونعرف تاريخنا كشعب وأمة فمثلاً نحن عرب عندما نتحدث عن تاريخنا يجب أن نتحدث عن تاريخ العرب دون سواهم، والمطلع على التاريخ العربي يلاحظ وبدقة عروبته، إلا أن كتابة التاريخ العربي وتدوينه وجدت في مرحلة انتشرت فيها الشعوبية، فكان أكثر المؤرخين من حيث الجنس غير عربي، فدونوا التاريخ العربي على أنه تاريخ إسلامي ودمجوا العرب بالشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام، لذلك تراهم عند ذكر الأحداث كانوا يذكرون الإسلام والمسلمين دون تمييز الأجناس سياسياً.

إذاً امتازت الدولة في بداية عهدها بأنها كانت عربية صرفة في هيكلها العام واستمرت هذه صفتها، وكلمة العرب كجنس وأمة وردت في القرآن الكريم في أماكن متعددة، واستمرت الدول في طابعها العام والخاص في العصر الراشدي، ففي عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب تجلت أول وحدة لتراب الأمة العربية حيث كانت العاصمة المركزية المدينة منها قائد الأمة العربية

يتمتع بكل السلطات على أقاليم الدولة، فاللغة واحدة هي اللغة العربية والشعب واحد، والهدف واحد، والرسالة خالدة خلود الزمن. لقد دأب المؤرخون على أن العرب كانوا بدواً وكانوا أعراباً وكانوا في جاهلية سوداء، وكانوا حفاةً عراة، الحقيقة إن العرب كانوا عكس هذا الوصف لعدة عوامل، منها:

١- أن العرب أصحاب حضارة راقية في الجزيرة العربية.

٢- أن العرب أصحاب أرقى حضارة ولدت في الكون هي حضارة المصريين العرب القدماء.

٣- العرب أصحاب حضارة بدء التاريخ تلك الحضارة التي تمثلت في العراق (وادي الرافدين).

٤- العرب أصحاب حضارة جابت البحار والمحيطات قبل الميلاد بقرون طويلة، وقبل روما بحدود عشرين قرناً.

٥- العرب أصحاب أكبر حضارة ثقافية وعمرانية شهدتها البشرية.

٦- العرب هم أصحاب الديانات السماوية ومن على أرضهم انتشرت إلى العالم.

٧- العرب هم قلب العالم، وهل يعيش أي كان بدون قلب.

٨- في أرض العرب وجِدَ أول بيت لعبادة ربّ العالمين، وكان الذي بناه وأشرف على بنائه عربي.

٩- العرب هم أصحاب اللغات الأولى في التاريخ.

بعد هذا كله نقول على أن العرب أهل بدو وأعراب أو غير ذلك من هذه المعاني. أعود للقول: هل ينكر العالم عروبة مصر الفرعونية؟ وما يقال عن الفراعنة يقال عن الفينيقيين، عن الآراميين، عن الكلدانيين، عن البابليين، عن الآشوريين الذين مازال لهم بقية على الأرض العربية إلى يومنا هذا، وهم يفخرون بأنهم عرب.

هل اعتقد المؤرخون المتحاملون على العرب أن مجرد سيطرة اليونان اعتباراً من الاسكندر ومن تلاهم من الرومان على الأرض العربية ولعدة قرون فقدوا حقهم في وطنهم، وأنهم أصبحوا أصحاب حقّ على الأرض العربية؟ نسي بعضهم أن حركة التاريخ غير ثابتة لا تقف عند حدّ إنما تتغير وتتبدل بفعل الشعوب متى وجدت وسائل التبديل والتغيير. فمثلاً اليونان بقيادة الاسكندر

غيّروا وبدّلوا في العالم إلا أن ذلك لم يستمر، فجاء الرومان فحلوا محلهم، ثم قيض الله للعرب قائداً استطاع أن يغير ويبدل العالم إلى عالم جديد وبجغرافية جديدة، سياسة جديدة قوامها السموّ بالإنسان، والارتقاء به إلى درجة عالية من التطور.

* * *

يمكن القول إن العرب أشد شعوب الأرض جهلاً لتاريخهم، والجاهل لتاريخه يغرق في التخلف والفساد، ولا أدل على ذلك من واقعنا الحالي حيث مقدساتنا تنتهك أمامنا، ولا حول ولا قوة لنا للدفاع عنها، إن البحث عن الحقيقة واجب مقدس، ولكي يبحث الإنسان عن الحقيقة لابد له من تحرير النفس من المخلفات المتوارثة المزورة، التي وضعت بقصد أم بغير قصد لشلّ حركة الأمة. أكثر المؤرخين الذين نعتمدهم غير عرب، وأكثر رجال الفقه غير عرب، أما لهؤلاء جنسيات؟ أما لهم أمة ينتسبون إليها؟ وهل صحيح أن الأمة الإسلامية أصبحت في عهدهم عقيدةً دينيةً وسياسية؟ أنا لا أعتقد أن الأمة الإسلامية المطروحة لا في الماضي، ولا في الحاضرة كانت عقيدةً راسخة لا سياسياً ولا دينياً.

لماذا تخلى العرب عن عروبتهم، و لم يؤرخوا لجنسهم ابتداءً من وجود الدولة؟ لماذا سقطت لفظة العرب والعروبة وفجأة حلت محلها الأمة الإسلامية؟ أما ينطوي هذا على معانٍ؟ لماذا أسقط المؤرخون القدامى الأمة العربية وأحلوا الأمة الإسلامية؟. أرى أن هؤلاء المؤرخين كان لهم الحق في ذلك، فهم أولاً غير عرب، وينتمون إلى أمم غير عربية، لها تاريخها وجنسيتها، والمطلع على تاريخ ابن الأثير (الكامل في التاريخ) يلاحظ التعصب الواضح عنده لجنسيته عندما يتحدث عنها.

لقد كتب هؤلاء المؤرخون تاريخهم في مرحلة كان فيها العرب آخذين في التراجع في مرحلة ساد فيها حكام غير العرب، فأخذ الجميع بنظرية الأمة الإسلامية، وأخذوا يؤرخون بهذا التعبير اعتباراً من بداية الدولة العربية متجاوزين العرب، معتبرين أن العرب شعب من الشعوب التي تجمعها الأمة الإسلامية، إلا أن بعض المؤرخين عندما كانوا يأتون على ذكر شعوبهم كانوا يمدحون يمجدون يثنون على دورهم ومكارمهم، وبذلك صبغت الحضارة بكل مفاهيمها بالحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، والسياسة أيضاً إسلامية،

ولو استطاعوا أن يحوّلوا اللغة من لغة عربية إلى لغة أخرى لفعلوا.

السؤال: هل للتاريخ علاقة بالفقه؟ أرى أن للتاريخ علاقة بكل العلوم النظرية والعملية، لأنه ليس هناك علم إلا وله تاريخ، من ذلك كانت العلاقة بين الفقه والتاريخ، أي تدوين الفقه وتاريخه وعلاقته بالتاريخ، وعلاقة التاريخ بالفقه عند العرب واضحة لأن بعض المؤرخين هم أنفسهم كانوا فقهاء فالطبري مؤرخ غير عربي، له علاقة بالفقه، وعلاقة مباشرة وابن كثير أيضاً مؤرخ وله علاقة مباشرة بالفقه، وابن عساكر أراه فقيهاً أكثر منه مؤرخاً.

ثم إن أهل الفقه استمدوا أقوالهم من الرواة، وأكثر هؤلاء الرواة عملوا في مجال التاريخ والفقه، لذلك عند قراءتنا للتاريخ بتمعن ودقّة نلاحظ الكثير من التعارض، فعندما يدرس مؤرخ ما شخصية ما من الناحية التاريخية، نلاحظ أنها تتعارض مع ما يذكر عنها رجال الفقه، علماً أن الرواية التاريخية اعتباراً من المغازي والسير سبقت في التدوين الفقه وغيره.

والسياسة السائدة في عهد تدوين الفقه لم تكن عربية بحتة، حيث كثر فيها رجال الفقه غير العرب، والمؤرخون أيضاً غير عرب، لذلك كان من مصلحتهم كتابة التاريخ على أنه إسلامي ولهم فيه أكبر نصيب، واستمروا في هذا الاتجاه فيما بعد حتى ضيّعوا الحضارة العربية، وجعلوها حضارةً إسلامية وغايتهم كما أرى مسح الدور الريادي والأساسي للعرب في حضارتهم، وجعلها حضارة إسلامية.

السؤال: هل كل ما فعله هؤلاء المؤرخون لخدمة الإسلام أم لخدمة شعوبهم، وجعلها صاحبة دور بارز في هذه الحضارة؟ الحقيقة التاريخية أن التاريخ هو تاريخ العرب، والحضارة حضارة العرب، وحضارة الشعوب تسمو بلغتها، فحضارة الاغريق كتبت بلغتهم، وحضارة الرومان كتبت بلغتهم، لماذا زورت حضارة العرب وتاريخهم ومحي من التاريخ ليصبح التاريخ إسلامياً والحضارة إسلامية؟

أليست الأرض التي قامت عليها من أساسها عربية؟ أليست لغتها منذ الأزل عربية؟ أليس الشعب عربياً؟ أليس قائد الأمة عربياً؟ أليس هو القائل: من تكلم العربية فهو عربي؟ أليس هو القائل: أحب العرب لثلاث: لأني عربي، ولأن العربية لغة أهل الجنة، ولأن القرآن نزل باللغة العربية.

أليست الدولة في شكلها ومضمونها في عهد الخلفاء الراشدين عربية؟ أما استمرت في العصر الأموي عربية لا تشوبها شائبة حيث اتصفت بأنها عربية أولاً ثم إسلامية ثانياً؟ أليست الدولة في العصر العباسي عربية؟ أجل كانت عربية وستبقى عربية، إلا أن السياسة والقائمين عليها في العصر العباسي المتأخر أصبحوا غير عرب، فغيروا وأرخوا كما يحلو لهم، فوصل التاريخ على أيديهم إلى مرحلة لم يكن للعرب فيها إلا التشويه والتزوير.

لم ينكر العرب تأثرهم بالحضارات الأخرى المجاورة لكنهم كانوا في قديمهم سادة الدنيا والبوابة الواسعة للحضارة البشرية، وآثارهم باقية للعيان إلى وقتنا الحاضر، فحضارة العرب في مصر وبلاد الشام والعراق خير مثال على نضوج الحضارة العربية وشفافيتها معبرة عن قدرة الإنسان العربي وريادته في الحضارة الإنسانية، لذلك يجب على كل المؤرخين والباحثين والمفكرين في كل اتجاه العمل على إحياء التاريخ العربي والمناداة بأمة عربية أولاً، وبذلك تحيا العروبة، فالعروبة هي تاريخنا، والإسلام دين الأكثرية من أبناء أمتنا، والدين ما كان ولن يكون في أي زمن عنصراً من عناصر تكوين الأمة فكيف نقبل أن يكون الدين هو كل مقومات الأمة.

العروبة حتمية تاريخية، الجنسية حتمية تاريخية، الأمة العربية حتمية تاريخية، واستمرارية ذلك حتمية أيضاً، و لم تكن الأديان كذلك عبر تاريخ البشرية، العروبة فطرة والدين ليس كذلك إنما هو اكتساب، يولد الإنسان فنقول هذا عربي هذا فرنسي هذا ألماني، أي أن الإنتماء يكون بالفطرة وبعد الولادة يكتسب الدين.

لماذا يجعل بعضهم من أنفسهم أوصياء على الدين محاولين فرض آرائهم على الآخرين وبالقوة؟ هل هذا هو أساس الدين؟ أهل الدين يعني الإكراه، اكراه الآخرين على ما تحب وترغب؟ هل فعل الأنبياء ذلك مع شعوبهم، أم كان شعارهم لا اكراه في الدين؟ الدين وأي دين اخاء بين أبناء الدين، هل نسينا كيف آخى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المهاجرين والأنصار العرب بعد هجرته من مكة إلى المدينة، الاخاء هنا يعني أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، يعني التضحية لمعاني الأخوة السامية.

نحن العرب بحاجة إلى صيحة إلى نهضة بحاجة إلى الحقيقة المطموسة المهجورة في كتب التاريخ

في الحضارة العربية الراسخة على الأرض العربية، العـرب بحاجة وهـم بأشـد الحاجـة إلى الحـب إلى التضحية الفردية لخدمة الأمة العربية، العرب بحاجة إلى نبذ الأحقاد والضغائن التي زرعها في نفوسـنا الجهل، زرعها في نفوسنا تاريخنا المكتوب بأحرف تجلب الفرقة والبغضاء، تجلب الفقر والجهل، علينا أن ننبش بقية تلك الحروف المضيئـة ونجعلهـا تاريخنـا نعتز ونفخـر بـه، ونناضل لاستعادته، وقـرار الشعوب إرادة، وإرادة الشعوب لا تقهر.

أحمـد علـي

دمشق في ٢٠ / ٧ /١٩٩٩

القسم الأول
السفيانيون

الفصل الأول : معاوية قبل الخلافة

الفصل الثاني : معاوية بعد الخلافة

الفصل الثالث : معاوية و ولاية العهد

الفصل الرابع : السياسة الداخلية

الفصل الخامس : السياسة الخارجية

الفصل السادس : السفيانيون بعد معاوية

الفصل الأول

معاوية قبل الخلافة

الفَصل الأوّل

معَاوِيَة قَبلَ الخِلاَفَة

نسبه: ينتمي معاوية إلى عبد شمس بن عبد مناف[1]، و ولد لعبد شمس[2]: حبيب وبه يكنى أمية الأكبر وفيه البيت والعدد، أمية الأصغر، وعبد أمية ويسمى أبناؤهما العبلات - نوفل ـ عبد العزى ـ ربيعة ـ عبد الله ـ وله بنات منهن رقيّة، وهي أم أمية بن أبي الصلت الشاعر الثقفي.

أما أمية الأكبر بن عبد شمس[3] ويكنّى أبا عمرو، ولد له عدد من الذكور، وهم: أولاً ـ الأعياص: العاص، أبو العاص، العيص، أبو العيص، العويص، أبو عمرو، كلهم أعقبوا إلا العيص والعويص فلا عقب لهما. ثانياً ـ العنابس[4]: عمرو بن أمية لا عقب له، سفيان بن أميّة، أبو سفيان ابن أميّة لا عقب له، حرب بن أمية وصف بأنه كان شريفاً وكان ينادم عبد المطّلب، ثم جرى بينهما خلاف وكلام فتنافرا فنفّر عليهِ عبد المطّلب وقد وَرَدَ ذلِك[5] أبو حرب عنبَسَة، لم يعقب منهم أحد سوى حربٍ.

---

[1] ذكره هشام بن الكلبي في كتابه مثالب العرب بأنه كان دهاناً وكان معلماً وخياطاً، ص(٤٠-٤٤).

[2] ابن حزم الأندلسي: أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ـ جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق لجنة من العلماء بإشراف الناشر ـ محمد علي بيضون ـ طبع بيروت ـ دار الكتب العلمية سنة ١٩٩٨ ـ ص٧٤.

[3] المرجع نفسه ـ ص٧٨ وما بعدها.

[4] قيل صبروا على الحرب فسموا العنابس.

[5] أحمد علي اسماعيل ـ تاريخ بلاد الشام في صدر الإسلام ـ طبع دمشق ١٩٩٨م ـ المجلد الثاني ـ الجزء الأول ـ ص١٩-٢٠.

حـرب بن أمية ولد له[1]: أبو سفيان بن حرب[2] واسمه صخر الفارعة، عمرو بن حرب لا عقب له، أم جميل بنت حرب (حمّالة الحطَب) وهي معروفة بعدائها مع زوجها للإسلام، أميمة أم الحكم، فاختِة، الحارث بن حرب لا عقب له.

أبو سفيان صخر بن حرب: ولِد له، معاوية، عُتبة، جويرِية. حنظلة ـ قتل يوم بدر كافراً. أم حبيبة زوج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، آمنة، عمرو لا عقب له، هند، عنبسة، محمد، يزيد سمي يزيد الخيّر ولّي بعض الشام لا عقب له ـ رملَة الصغرى، ميمونة، هلالية، صخرة. تحدثنا عن ابي سفيان في الجزء الأول بما فيه الكفاية، ومع ذلك فهو قائِد قريش في حروبها ضدّ النّبي ـ صلى الله عليه وسلم، أسلم عام فتح مكة سنة ثمانٍ للهجرة، وليّ نجران[3]، وقبض الرسول وهو عليها، وقيل وليّ للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدقات الطائِف[4].

قال البلاذري: «مرّ حَمزة بن عبد المطّلب على نفر من بني مخزوم فلاحاه رجل منهم، فذكر المخزومي نساءً من نساء بني عبد مَناف فضربه حمزة فقتله، وأتى أبا سفيان فأخبره، فأتى أبو سفيان بني مخزوم فعرض عليهم ثلاث ديات بصاحبهم فلم يقبلوها، فانصرف عنهم يومَه، فلما كان من الغد جاؤوا يطلبون الديات الثلاث، فقال أبو سفيان: القوم يأْبون أنْ يعطوا أكثر من ديَتين، فأبوا ورجعوا، فلما كان الغد جاؤوا يطلبون الديَتين فقال: إنّ القوم أبوا أنْ يعطوا إلاّ ديةً واحدة، فأبوا ورجعوا، فلما كان الغد عادوا فطلبوا الدية فقال أبو سفيان: إنَّ القوم قد أبو الدية، وهذا قتيل لا دية له، فطُلّ دَمُه»[5].

و روي أن أبا سفيان قدِم على عمر بن الخطّاب فسأله شيئاً، فقال: «أتسألني وأنت حميت ينطف»[6]. أصيبت عين أبي سفيان مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالطائف، وعمِيَ قبل أن يموت. وعندما «حجَّ أبو بكر رضي الله عنه حجَّ معه أبو سفيان، فكلّمه أبو سفيان فرفع أبو بكر

---

[1] ابن حزم الأندلسي ـ جمهرة أنساب العرب ـ ص١١.

[2] ذكره هشام الكلبي في كتابه مثالب العرب ـ بأنه ممن شهر بالزنا ـ ص٦٣.

[3] نجران: في عدة مواقع منها نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٦٦.

[4] الطائف هو وادي وج وهو بلاد ثقيف بينها وبين مكّة اثنا عشر فرسخاً ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٩.

[5] **البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ـ كتاب جمل من أنساب الأشراف ـ تحقيق سهيل زكار رياض زركلي ـ طبع بيروت ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ١٩٩٦ ـ ج٥ ـ ص١٣.**

[6] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٧.

صوته، فقال أبو قُحافة لأبي بكر: يا بُنيّ اخفِضْ صوتك عند ابن حرب، فقال أبو بكـر: إنَّ الله قـد هدم بالإسلام بيوتاً، وبيت أبي سفيان ممّا هدم، وبنَى بالإسلام بيوتاً مهدومة في الجاهليّة، وبيتك ممّا بناه»[1].

وقال عتَبَة بن ربيعة بن عبد شمس لأبي سفيان: أنت أعزّ أهل الوادي، فقال أبـو سفيان: مـن تَكن عمه يا أبا الوليد يكن أعزّ أهل الوادي، وهو الذي قال عندما دخل على الخليفـة عثمـان وهـو مكفوف: «تلقفوها يا بني أميّة تلقف الكرة فما الأمر على ما يقولون»[2]، وقيـل: قـال حـين قبض الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «تلقفوها الآن تلقف الكرة فما من جنّة ولا نَار». وقيـل حجـب عثمان أبا سفيان فقيل له: حجبَك أمير المؤمنين، فقال: لا عدمت من قومِي مـن إذا شـاء حَجَـب، ومات أبو سفيان بن حرب سنة ثلاثِين للهجرة، وهو ابن ثـلاث وتِسعينَ سنة، و ولـد قبـل الفِيـل بعشرِ سِنِين، وقد اختلف في ميلاده وعمره وموتِهِ.

معاوية بن أبي سفيَان: هو ابن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبـد مَنَـاف، يكنّـى أبـا عبد الرحمن. أمه هند[3] بنت عتبة بن ربِيعة بن عبد شمس بـن عبـد مَنَـاف. لـه مِـن الأولاد يزيـد، لا يعرَف ميلاده بدقّة، وأيضاً هناك اختلاف في وفاتِهِ، له دار بالمدينة تشرَع على بلاَط الفاكِهة، يصِفـه ابن عساكر بأنّه كان طويلاً أبيض جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليَا ـ يخضّـب بالحنَـاء والكتَـم. اختلِف في إسلامه، فقال: أسـلمت يـوم القضيّة، وكتمت إسلامي خوفـاً مـن أبـي، والأصح أنـه أسلم يـوم الفتح[4]، ويؤكِد ذلك مجمل المؤرخين. ذكـر أن بعض متفرسِي العرب رأى معاوية وهو صبِي صغير فقال: إني لا أظـن هذا الغـلام سيسود قومه، فقالت أمه هند: ثكلته إن كـان لا يسـود إلا قومَه.

---

(1) المقريزي: تقي الدين المقريزي ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أميّة وبني هاشم ـ تحقيق حسين مؤنس ـ طبع دار المعارف بمصر ـ ١٩٨٨ ـ ص ٥٥. البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص١٣.

(2) البلاذري: كتاب جمل من أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص١٩.

(3) هشام الكلبي ـ مثالب العرب ـ تحقيق نجاح الطائي ـ طبع بيروت ١٩٩٨ ـ ص٧٣ـــ٧٤، قال هشام الكلبي: «كانت هنـد مـن المغتلمات، وكان معاوية يعزى إلى أربعة: إلى مسافر بن أبي عمرو، وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة، وإلى العباس بـن عبـد المطلب، وإلى الصباح مغنى كان لعمارة، وكان أبو سفيان دميماً قصيراً».

(4) ابن عساكِر ـ أبي القاسم علي بن الحسن بن هِبة الله بن عبد الله المعروف بابن عساكِر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ تحقيق محي الدين أبي سعيد بن غرامة العمروي ـ طبع بيروت ١٩٩٧ ـ ج٥٩ ـ ص٦٢.

أعطى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة (٨هـ ـ ٦٢٩م) المؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتآلفهم ويتآلف به قلوبهم، فأعطَى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطَى إبنه معاوية[١] مائة بعير، وفي سنة (١١ هـ ـ ٦٣٢م) يذكر الطبري أن معاوية كان قد كتب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول العقّاد[٢]: «وتتّفق الأخبار على كتابته للنبي عليه الصلاة والسلام، ولا تتّفق على كتابتِهِ للوحي»، وأنا أعتقد وأرى رأي العقاد لأن معاوية آنذاك كان صغيراً في عمره إذا ما قيس بالصحابة الكبار أي أن عمره كان بحدود عشرين سنة حسب رأي المؤرخين. ثم إن عمره في الإسلام كان قليلاً لا يتجاوز ثلاث سنوات، وأرى أن موضوع كتابته للرسول من أصله كان غير صحيح وأن المؤرخين (كتاب السير) يذكرون هذا الخبر في أحداث سنة (١١ هـ ـ ٦٣٢م) وهي السنة التي مات فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فماذا كتب خلال هذه السنة. ولا ندري توقيت كتابته حتى في هذه السنة.

عندما اجتمع سنة (١٣هـ ـ ٦٣٤م) إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه أناس أمّر عليهم معاوية، وأمره اللّحاق بأخيهِ يزيد[٣]، وبالسنة نفسها اجتمع مَعَ الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، وثلاثَةُ آلاف من فِلال خالد بن سعيد، أمّر عليهم أبو بكر معاوِية، وشَرحبيل بن حسنَة[٤]. وفي السنة نفسها أيضاً استخلف أبو عبيدة بن الجرَاح، يزيد بن أبي سفيان، على دِمَشق، وسَار هو إلى فَحل[٥]، أما يزِيد بن أبي سفيان فتوجه إلى مدينة صيدا[٦]، وعَرقة[٧]، وجبيل[٨]،

---

[١] الطَبري ـ محمد بن جرير الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبع دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية ١٩٧١م ـ ج٣ ـ ص٩٠.

[٢] عبّاس محمود العقاد ـ معاوية بن أبي سفيان في الميزان ـ طبع مصر ـ الطبعَة الأولَى ١٩٥٦ ـ ص١٦٣ ـ ١٦٤.

[٣] ابن الأثير ـ عزّ الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرَم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحِد الشيباني ـ الكامِل في التاريخ ـ طبع بيروت ـ ١٩٦٥ ـ ج٢ ـ ص٤٠٦.

[٤] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٣٩٢.

[٥] فحل: جبل بتهامة يصب منه وادٍ يسمى شجوه، وقيل فحل جبل لهذيل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٣٧.

[٦] صيدا: مدينة من أعمال دمشق شرقي صور ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٤٣٧.

[٧] عرَقَة: بلد في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دِمشق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٠٩.

[٨] جبيل: بلد مشهور شرقي بيروت ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٠٩.

وبيروت[1]، وهي سَواحِل دِمَشق[2]، وعلى مقدّمتِهِ أخوه معاوِيَة، ففتحهَا فتحَاً يسيراً وجلا أكثر أهلها، وتولى معاويَة بنفسِهِ فتح عَرقَة.

وعِندما غلب الروم على السواحِل في آخر خلافة عمَر، وأوّل خلافة عثمان قصدها معاويَة ففَتَحَهَا ثم رمّمها، وشحنها بالمقاتِلة وأعطاها القطائِع[3]، وتم فتح حصن أنطرسوس[4] فَجَلا أهله عنه، فبنى معاوية مدينة أنطرسوس ومصرها، وأقطَعَ بها القطائع للمقاتِلة، وكذلك بانياس[5] وفتحت السلمِيّة[6].

عند فتح قِيسارِيّة[7] كتَبَ الخَلِيفة عمر رضي الله عنه كما يذكر الطبري: إلى يزيد بن أبي سفيان بأن يدفئ ظهورَهم بالرجَال، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية، وكتب إلى عمرو بن العاص يأمره بصد الأرطبون، فكتب إلى معاوية: أما بعد فإنِي قد ولّيتك قيسارية، فسِر إليها واستخرِ الله عليها، وأكثر من قول لا حولَ ولا قوة إلا بالله. فسار معاوية إلى قيسارية ففتحها[8]، وكان أمر الخليفة أن يبدأ بقيسارية، وقتال أهلها لكي يشغِلهم عن عمرو بن العاص، وذلِك قبل معركة أجنادين[9]، فجعل معاوية قبل الفتح وبعده يحبس الأسرَى عِندَه، وقِيلَ كانَ فتح قيسارية سنَة (١٩ هـ - ٦٤٠م)، وأمِيرها معاويَة بن أبي سفيَان، وبالسنة نفسها يذكر الطَبري أن معاوية بن أبي سفيان شَهِدَ على صلح إيلياء[10] الذي أعطَاه الخَلِيفة عمر رضي الله عنه لأهلِها.

---

(1) بيروت: بيروت مدينة مشهورة تعد من أعمال دمشق، بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٥٠٥.

(2) دمشق: قصبة الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٦٣.

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص٤٣١.

(4) أنطرسوس: بلد في سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دِمشق من البلاد الساحِلِيّة و أوّل أعمال حمص - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٧٠.

(5) بانياس: كوره ومدينة صغيرة وحصن بسواحِل حمص على البحر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٨٩.

(6) السّلمِيّة: بليدَة في ناحية البريّة من أعمال حَماه - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٤٠.

(7) قيسارية: على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٢١.

(8) الطبري: تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص٦٠٤ - ابن الأثير - الكامِل في التارِيخ - ج٢ - ص٤٩٧ - ابن أعثم الكوفي - الفتوح - المجلد الأول - ص٢٤٤.

(9) أجنادين: موضع معروف بالشام من نواحي فِلسطين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٠٣.

(10) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس معناها بيت الله - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٩٣.

بعدَ موت أبي عبيدة بن الجَراح في طاعون عَمواس فوّض الخليفة عمر الإمارة لـيزيد بـن أبي سفيان على سائر المدن، التي فَتَحَها المسلمون، وجميع الجيوش المَوجودَة في الشَام، وأن يفعل ما يَراه صالِحاً[1]، ثم مَاتَ يزيد بن أبي سفيَان في الطَاعون. عِند ذلك أقرّ الخليفة عمر رضي الله عنه معاوِية[2] على جند دِمشق وخَراجها. وقيل: إن معاوية[3] كان على الأردن[4]، وكانَ أخوه يزيد على دِمشق، وقيل إن معاوية كان على البلقاء[5]، والأردن وفِلسطين[6]، والسواحل[7]، وأنطاكية[8]، ومعرّة مصرِين[9]، وقاليقية[10].

وغـزا معاويَـة الصائِفة سنة (٢٢ هـ ـ ٦٤٢م)، فدخَلَ بـلاد الـروم في عشـرة آلاف مـن المسـلمين[11]، وفي هـذِهِ السنة وِلـد يزيـد بـن معاوية، وعبـد الملك بـن مـروَان واختلِـف في ذِلك، فـابن الأثِير يقـول: وِلـد يزيـد بـن معاوِية سنة (٢٥ هـ ـ ٦٤٥م)[12]، ومعاويـة هـو الـذي جنّـد قنسرين[13] ممّـن أتاه مِـن أهـل العراقَـين أيـام الإمـام علـي، وكـانت قنسـرِين رسـتاقاً من رسـاتيق حِمص[14]، فـأخذ لـه معاوِية حين ولّي بنصيبهم من فتوح العراق

---

(1) ابن أعثم الكوفي: الفتوح ـ طبع بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ١٩٨٦ ـ المجلد الأول ـ ص٢٤٤.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٥٦٠.

(3) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٥٣٥.

(4) الأردن: اسم كوره، وهي إحدى أجناد الشَام الخمسة وهي كوره واسعة منها الغور وطبريا وصور وعكّا وما بين ذلك ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص١٤٧.

(5) البلقاء: كوره من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤٨٩.

(6) فلسطين: هي آخر كور الشام من ناحية مصر فيها بيت المقدس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٧٤.

(7) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٢١.

(8) أنطاكية: من أعيان البلاد وأمهاتها ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٦٦.

(9) معرّة مصرين: بليدة وكوره بنواحي حلب ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١٥٥.

(10) قاليقية: هي أرزن الروم ـ ابن شداد ـ الأعلاق الخطيرة ـ ج١ رقم٢ ـ ص٣٢٧.

(11) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٣٨.

(12) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٨٦.

(13) قنسرين: سميت قنسرين لأن ميسرة بن مسروق العبسي مرّ بها فلما نظر إليها قال: ما هذه، فسميت بالرومية فقال: والله لكأنها قن نسر فسميت قنسرين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٠٣.

(14) حمص: بين دمشق وحلب في نصف الطريق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٠٢.

وأذربيجان[1] والموصل[2]، والبَاب[3] لأنّه من فتوح أهلِ الكوفة[4]، وكان أهل الجزيرَة آنذاك ناقلةً فأعطاهم معَاوية مِن ذلك نصيباً، وكَفر أهل أرمينية[5]، أيّام معاويَة، فأمّر حبيب بن مَسلمَة على الباب[6].

وكان معاويَة بن أبي سفيَان قد غَزا الصائِفة فبلَغَ عموريّة[7]، ومعَه من أصحابِ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبادة بن الصّامت، وأبو أيوب الأنصَاري، وأبو ذر الغِفارِي، وغيرهم، وفَتَحَ معاوية عسقَلان[8]، وكتَب الخليفة عثمان إلى معاوية سنة (٢٤ هـ ـ ٦٤٤م)، يأمره أن يبعث حَبيب بن مسلمَة فِي أهل الشام لِغزو أرمينية، فوجه إليها، فبلغَه أن العدو قد توجَهَ نحوه في ثمانين ألفاً من الروم والترك، فكتبَ بذلكَ إلى معاوية، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان، فكتب عثمان إلى سعيد ابن العاص[9]، وكان أميراً للكوفة[10] يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة، فأمدّه بستة آلاف يقودهم سلمان بن ربيعة الباهلي.

معاوية وغزو البحر: وغَزا معاوية الروم سنة (٢٥ هـ ـ ٦٤٥م)، فبلغَ عموريّة فوجد الحصون، بين أنطاكية وطرسوس خالِيَة فجعل عندها جماعةً كثيرة من أهل الشام[11]

---

(1) أذربيجان: حد أذربيجان من برذعة مشرقاً إلى ارزنجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، والطرم، وهو إقليم واسع ومن مشهور مدنها تبريز ـ ياقوت الحموي ـ ج١ ـ ص١٢٨.

(2) الموصل: سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٢٣.

(3) الباب: بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٠٣.

(4) الكوفة: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤٩٠.

(5) أرمينية: اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان بينها وبين البحر ثلاثة أميال ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص١٥٩.

(6) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٣١.

(7) عمورية: بلد في بلاد الروم غزاها المعتصم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٥٨.

(8) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٦٢٢.

(9) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ٢٤٨.

(10) اختلف في ذلك ابن أعثم الكوفي ـ يذكر أن الوليد بن عقبة كان عامله على الكوفة ـ ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ ج١ ـ ص٣٤٢.

(11) الشام: سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض، وقيل سميت بذلك لأن قوماً من كنعان بن حام خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها أي أخذوا ذات الشمال فسميت بالشام لذلك، وقيل سميت الشام بسام بن نوح لأنه أول من نزلها، وقيل: كان اسم الشام الأول سورى، وقيل: سميت بذلك لانها شامة القبلة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٣١٢.

والجزيرة[1]، وعلى يدي معاوية فتحت قبرص[2] سنة (٢٨ هـ ـ ٦٤٨م)، يقول الطَبري: «ألحّ معاوية في زمانِهِ على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في غزو البحر وقرب الروم من حمص، وقال: إن قَرِيَةً من قرى حِمص ليسمع أهلها نباح كلابِهِم وصِياح دجاجِهِم، حتى كاد ذلِك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمَر إلى عمرو بن العاص: صِف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتَب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركنَ خرّق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة، والشّك كثرة، هم فِيهِ كدودٍ على عود، إن مال غرِق، وإن نجا برِق[3]».

كتب الخليفة عمَر رضي الله عنه إلى معاوية: «إنا سمِعنا أن بحر الشام[4] يشرِف على أطول شيء على الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمِل الجنود في هذا البحر الكافِر المستصعِب، وتا لله لمسلِم أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرّض لي، وقد تقدّمت إليك، وقد علِمت ما لقِي العلاء منّي و لم أتقدّم إليهِ في مثل ذلِك[5]».

إذاً قيل إن معاوية كان أول من غزا البحر في عهد الخليفة عثمان، وقد رفض الخليفة عمر ذلك في عهدِهِ، فألح على الخليفة عثمان بذلِك حتى عزمَ ووافق، فقال لمعاوية: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله ابن قيس الجاسي حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، و لم يغرق فيه أحد و لم ينكب»[6].

أي أن معاوية غزا قبرص فتم له فتحها وصالح أهلها على جزية قدرها: سبعة آلاف دينار يؤدونها للعرب المسلمين كل سنة، وكانوا يؤدون مِثلها إلى الروم ـ وليس للعرب أن يحولوا بينهم

---

[1] الجزيرة: أعتقد أن المقصود بها المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات بمجاورة الشام تشتمل ديار بكر وديار مضر سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٣٤.

[2] قبرص: جزيرة في البحر المتوسط ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٠٥.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٥٨.

[4] البحر الأبيض المتوسط: قيل أن بحر الأندلس، وبحر المغرب، وبحر الاسكندرية، وبحر الشام، وبحر القسطنطينية وبحر الإفرنج، وبحر الروم كلها واحد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٤٥.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٢٨ هـ ـ ج٤ ـ ص ٢٥٩ وما بعدها.

[6] المرجع نفسه ـ سنة ٢٨ هـ ـ ج٤ ـ ص٢٦٠ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٩٦.

وبين ذلك ـ ألاّ يغزوهم ولا يقاتلوا من ورائهم ممن أرادهم من خلفهم، وأن يعلموا العرب بمسير عدوّهم من الروم إليهم، وأن يعين العرب أحدهم بطريقاً عليهم، وألاّ يتزوجوا من الروم إلا بإذنهم.

معاوية وأبو ذر: ومعاوية هو الذي أمر سنة (٣٠ هـ ـ ٦٥٠م)، بإشخاص أبي ذر من الشام إلى المدينة، يقول ابن الأثير: وقد ذكر في سبب إشخاصهِ إياه منها وإليها أموراً كثيرة، كرهت ذِكر أكثرها «من سبّ معاوية إياه وتهديده بالقتل، وحمله من المدينة إلى الشام بغير وطيء، ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع لا يصلح النقل بهِ، ولو صَحّ لكان ينبغي أن يعتذر عن عثمان، فإن للإمام أن يؤدّب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، ولا أن يجعل ذلك سبباً للطعنِ عليه»[1]، فقال: أما العاذِرون لمعاوية في ذلك حسب رواية سيف بن عمر أنه لما ورد ابن السوداء[2] الشام لَقِيَ أبا ذر فقال ابن السوداء: يا أبا ذر ألا تعجب لمعاوية يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأن يريد أن يحتجبه دون الآخرين، فجاء أبو ذر إلى معاوية فقال له: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله، قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله والخلق خلقه، والأمر أمره، قال أبو ذر: فلا تقل، قال: فإني لأقول.

ثم أتى ابن السوداء، أبا الدرداء، فقال له: من أنت أظنك والله يهودياً، فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به، فأتى به معاوية، فقال عبادة بن الصامت لمعاوية: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر، ثم يذكر سيف بن عمر: أن أبا ذر قام في الشام وجعل يقول: «يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء، بشّر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم»[3]، فأثار بذلك الفقراء ضد الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون من الناس، فأعلم معاوية الخليفة أمر أبي ذر، فكتب إليه يأمره بإرساله إلى المدينة، حيث سيره الخليفة إلى الربذة[4]، ثم إن معاوية أخرج أهله من بعده.

معاويـــة أمير بلاد الشام: وكانت الشـام قـد جمعت لمعاوية لسنتين من إمارة الخليفة

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص١١٣.

(2) المقصود بابن السوداء عبد الله بن سبأ.

(3) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص١١٤.

(4) الربذة: من قرى المدينة قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٤.

عثمان، وخرج أهل الشام، وعليهم معاوية وعلى أهـل البحر عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، وخرج الروم بقيادة الامبراطور قنسطانز، فكانت معركة الصواري[1]، وقيل كانت غزوة الصواري سنة (٣٤ هـ - ٦٥٤م)، ويذكر ابن الأثير أن الأردن ودمشق كانتا لمعاوية، ثم ضمت حمص، وقنسرين. كما ضمت له فلسطين، كل ذلك كان في عام (٣١ هـ - ٦٥١م). وكان معاوية قد غزا القسطنطينية[2] ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة[3]، سنة (٣٢ هـ - ٦٥٢م)، ثم أن معاوية غزا حصن المرأة[4] سنة (٣٣ هـ - ٦٥٣م)، من أرض الروم من ناحية ملطية[5]، وبالسنة نفسها سير الخليفة بعض أهل الكوفة إلى معاوية بدمشق، وقد ورد ذلك في الجزء الأول.

معاوية والخليفة عثمان: دعا الخليفة عثمان ولاته، سنة (٣٤ هـ - ٦٥٤م)، ومن ضمنهم معاوية بن أبي سفيان للتشاور في أمر الفتنة، فكان رأي معاوية في هذا الاجتماع قوله: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك قبلي»[6]، وقيل قال: «أشير عليك أن تأمر أمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام»[7].

كتب الخليفة عثمان إلى ولاته يأمرهم القدوم عليه إلى المدينة ومن ضمنهم معاوية، فقال لهم: ويحكم ما هذه الشاكية وما هذه إذاعة، إني والله لأخاف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يغضب هذا إلا بي، وسأل معاوية عن رأيه في الأحداث العامة فقال: «قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما، قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب»[8].

بعد ذلك قيل: ما زال معاوية يطمع بالخلافة بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم، وكان معاوية قد قال لعثمان غداة وداعه، وخرج: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام[9] قبل أن يهجم

---

[1] ارشيالد . د... لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠هـ - ١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى - طبع مصر ١٩٥١ - ص٩١-٩٢.

[2] القسطنطينية: مدينة كانت دار ملك الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٢٧.

[3] وقيل كانت زوجته فاختة في هذه الغزوة - ابن الأثير - ج٣ - ص١٣١.

[4] المرأة: من أرض الروم - بناحية ملطية - ابن شداد - الأعلاق الخطيرة - ج١ قسم ثاني - ص٢٠١.

[5] ملطية: بلده من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام وهي للمسلمين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٩٢.

[6] الطبري - تاريخ الطبري - ج٤ - ص٣٣٤ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص١٤٩.

[7] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص١٤٨ - ١٥٠.

[8] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٣٤٢.

[9] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٩ - ص٣٠٨.

عليك من لا قيل لك به، فإن أهل الشام على الأمر ما زالوا. في معنى طلب معاوية للخليفة المسير معه إلى الشام، نقل العاصمة من المدينة إلى دمشق، وفي ذلك انتصار لسياسة معَاوية فيصبح صاحب القرار المطلق والفعلي في الدولة ولا جَدَلَ بعد موت الخليفة سيكون معاوية هو صاحِب الحقّ الشَرعي بالخلافة في مثل هذه الحالة.

يقول ابن قتيبة[1]: إن الخليفة عثمان جمع أرباب دولتِهِ ومنهم معاوية وتشاوروا حول موضع المعارضة والثّورة فتكلّم معاوية وهدد بالقتل وغيرَ ذلك وحذّر، ثم خرجوا من عندهِ وبقي ابن عباس ومعاوية، فتكلم الخليفة عثمان مع ابن عبّاس معاتباً له كونه لم يعلمه بالأحداث، ولم يقَدم له النصح، فاعتَذَرَ ابن عباس ثم خرج وبَقِيَ معاويَة.

«فقال عثمان لمعاوية: ما ترى، فإن هؤلاء المهاجرين قد استعجلوا القدر، ولا بد لهم مما في أنفسهم، فقال معاوية: الرأي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم. قال: من؟ قال: علي وطلحة والزبير، قال عثمان: سبحان الله! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه، ولا ذنب ركبوه؟ قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك. قال عثمان: لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء.

قال معاوية: فاختر مني إحدى ثلاث خصال؟ قال عثمان: وما هي؟ قال معاوية: أرتب لك ها هنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام، يكونون لك ردءاً وبين يديك يداً قال عثمان: أرزقهم من أين؟ قال: من بيت المال. قال عثمان: أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي؟ لا فعلت هذا.

قال: فثانية، قال: وما هي؟ قال: فرقهم عنك فلا يجتمع منهم إثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث والندب، حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته؛ قال عثمان: سبحان الله؟ شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله، وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟ لا أفعل هذا.

قال معاوية فثالثة، قال: وما هي؟ قال: اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت، قال عثمان. نعم

---

[1] ابن قتيبة ـ أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري ـ الإمامة والسياسة ـ تحقيق طه محمد الزيني ـ طبع مؤسسة الحلبي وشركاه، بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص٣٣ ومابعدها.

هذه لك إن قتلت فلا يطل دمي»[1].

في النص يتحدث معاوية عن مجموعة من الحلول يطرحها على الخليفة عثمان، الأول: أن يأذن له بقتل علي وطلحة والزبير. يرفض الخليفة هذا الطرح لأن هؤلاء من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وأنهم لم يحدثوا ما يستوجب قَتلَهم ولا ذَنب لهم، فقال معاوية: إنهم سيقتلونك، فردّ الخليفة عثمان: لا أكون أول من يعمل بإهراق الدّماء.

يتحدث معاوية بقتل هؤلاء الصحابَة وكأنّه قادِر على فِعل ذلِك، الحقيقة إن معاوية كان عاجزاً عن تنفيذ ذلك حتى ولو أمر الخليفة بذلِك، وقد وضّح الخليفة هذا الاتجاه عندما أكّد أنه لا ذنب لهم، ولم يحدِث أي منهم أي حدث يستوجِب ذلِك أضف على ذلك أنهم أصحاب رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم، والأهم من ذلك أن معاوية يدرك من هو الإمام علي في ميدان الحرب والنزال، ومن هو الزبير بن العوام وطلحة. ولو حاول لأحدثَ فتنةً لا يستقر لها قرار، وأرى أن رأي معاوية حول ذلك. كان دهاءً منه لأن في ذلك انتصاراً لاستقلاليته بالشام وطلبه الخلافة. أي أن سياسته هذه كانت الغاية منها التمهيد لاستِلامه الخلافة، وكل الطرق مشروعة له لتحقيق أهدافِهِ. بعد ذلك قال معاوية للخليفة عثمان: إختر إحدى ثلاث خصال، وكلها كما سنرى تؤدي إلى تحقيق مطامحه.

الأولى: قوله أرتب لك ها هنا أربعة آلاف فارس من خيل الشام يكونون لك رِدءاً، وبين يديك يداً. فسأله من أين أرزقهم؟ قال معاوية: من بيت المال، رفض الخليفة أن يرزق هذا الكم من الجند من بيت المال ليحرز دمه. لو أمعنا النظر في هذا الرأي الذي طرحه معاوية على الخليفة عثمان نلاحظ أن أربعة الآلاف من خيل الشام، التي يرغب معاوية أن يخصصها لحراسة الخليفة هي في بعدها تسليم الحِجاز إلى معاوية في حياةِ الخِليفة وبعد حياتِهِ[2]، وبذلك يكون هو الخليفة الظلّ لأن الأوامر، التي تصدر إلى هذه القوة تكون من الناحية العملية من معاوية، وليس من الخليفة، ثم أن وجودها وبأمر الخليفة يضفي عليها الشّرعيَة. أضِف على ذلك أن الولاة بالحجاز سيكون نصيبهم منوّط بمعاوية. في النهاية لو وافق الخليفة على هذا الطرح لكانت الغاية منه تحقيق مطامح معاوية، وليس حماية الخليفة.

[1] ابن قتيبة ـ كتاب الإمامه والسياسة ـ ج١ ـ ص٣٤.

[2] العقاد ـ معَاوِيَة في المِيزان ـ ص١٤٦.

الثانيـة: قول معـاوية للخليفـة فرقهـم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث والندب، حتى يكون دبر بعير أحدِهِم أهم عليه مِن صلاتِهِ. رفض الخليفة أيضاً هـذا الطلب قائِلاً: شيوخ المهاجرين، وكبار أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وبقيّة الشورى أخرجهم. لا أفعل هذا. السؤال: هل كان بالإمكان تبديد مثل هؤلاء الصحابة، وهم كما وصفهم الخليفة، لا أعتقد أنه كان بالإمكان إلا بحرب أهلية لا تحمد عقباها لأن سلطة الأمويين في الحجاز وخارجها عدا الشام لم تكن أفضل من سلطة هؤلاء الصحابة ورغبة الناس فيهم. وخاصةً في مثل هذِهِ المرحلة، التي وصلت إليها الدولة من التمزّق والاختلاف.

الثالثة: قال معاوية للخليفة: إجعل لي الطلب بدمك إن قتلت، فوافق الخليفة على طلب معاوية هذا، وبذلك يؤكد بطريق غير مباشر طلبه للخلافة، ولم يتطرّق لدعم عسكري قد يقوم بِهِ في حالة الحاجة إليه. وقد حَدَثَ أن طلب الخليفة منه ذلك وامتنع.

ولتأكيد ما ورد كان بعض القادة من ذوي الجرأة والشجاعة يلقون اللّوم على معاوية ويحملونه مسؤولية مقتل الخليفة عثمان لأنه لم يقدم له أي دعم أو مساعدة، يذكر السيوطي: أن الصحابي أبا الطفيل عامِر بن واثلة دخَلَ على معاوية، فقال له: ألست من قتلة عثمان؟ قال: لا، ولكنّي ممّن حضره فلم ينصره؛ قال: وما منعك من نصره؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار؛ فقال معاوية: أما لقد كان حقه واجباً عليهم أن ينصروه؛ قال: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره، ومعك أهل الشّام؟ فقال معاوية: أما طلبي بدَمه نصرة له؟ فضحك أبو الطُّفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر [1]:

لا ألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي مازوّدتني زادي [2]

ما ورد يؤكد أن معاوية تقاعس عن تقديم العون للخليفة، وأن مجمل أفعاله كانت الغاية منها الوصول إلى السلطَة. ثم أن مروان بن الحكم كان له دور أيضاً في فتنة الخليفة عثمان، فمثلاً أن مروان كما يذكر ابن قتيبة دخل على الخليفة بعد أن قدّم توبته، فقال للخليفة أتكلّم: فقالت نائِلة زوجة الخليفة اسكت فو الله لئِن تكلمت لتغرنه ولتوبقنّه ثم

---

[1] السيوطي ـ جلال الدين السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ تحقيق إبراهيم صالح ـ طبع دمشق ١٩٩٧ ـ ص٢٣٦.

[2] عبيد بن الأبرص ـ ديوانه ـ تقديم كرم البستاني ـ طبع بيروت ١٩٦٤ ـ ص ٤٨.

سمح له، فقال: «وا اللهِ لو قلت الذي قلت وأنت في عزّ ومِنعَة لتابَعتك، ولكنك قلت الذي قلت وقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحِزام الطّبيين، فانقض التوبة ولا تقِر بالخطِيئة»[1]، ويكفي هذا التأكيد على أهميّة دور مروان بن الحَكَم في فتنة الخليفة عثمان.

كتب الخليفَة عثمان إلى أهل الأمصار يستمدّهم، فبعث معاوية، حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد، معاوية بن خديج السكوني، وخرج من الكوفَة القعقاع، إلا أنهم لم يقدموا للخليفة أي دعم لأن الثائرين قتلوه قبل أن يصلوا، فعادوا دون جدوى، وقيل لما رأى عثمان ما قد نزل بِهِ، وما قد انبعث عليهِ مِن الناس كتب إلى معاوية، أما بعد فإن أهل المدِينة قد كفروا وأخلفوا الطّاعَة، ونكثوا البيعة، فابعَث إليّ من قِبَلِكَ من مقاتلةِ أهل الشام على كل صعب وذلول، فلما جاء معاوية الكتاب تربّص بِهِ، وكرِهَ إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، وقد علِمَ إجماعهم[2]، على مخالفة عثمان.

والحقيقة أن ذلك لم يكن سبباً مقنعاً من معاوية لِعَدم تقديم الدعم العسكري للخليفة عثمان إنما كان لا يرغب في بعثرة جندِهِ خارج بلاد الشام ومصيرها مجهول، وقد يكون في إرسالها خسارتها، وفي خسارتها إضعاف لموقعه، ومخططه الذي يطمع في تحقيقه وهو الخلافة، وخاصةً أن ما صار إليه الخليفة عثمان كان قد أصبح حرجاً لا مجال فيه للمساومة، فالخصوم قرروا إما اعتزال الخليفة السلطة وإما قتله، فرفض الأولى، ولم يلق الدعم حتى من أبناء الحجاز لأن المعارِضين لسياسته هم من خارج الجزيرة (من مصر ــ والكوفة والبصرة)، ولو جمع أبناء الحِجاز قواتهم لكانوا قادرين على التغلب على الخصوم لقلّة عددِهِم إذا ما قيسوا بقدرة الجزيرة البشرية، لكن الخليفة نفسه والأسرة الأموية كانَ لها معارضة شديدة حتى في الجزيرة العربية، وهذا ما لاحظناه بعد مَقتَل الإمام علي وتسلم معاوية السلطة. حيث كان جل اهتمامه القضاء على المعارضة التي قاوَمها بشدة، وكلها من الجزيرة العربية.

وفي النهاية قتل الخليفة عثمان، وعامله على بلاد الشام معَاوِيَة، وعلى حِمص عبد الرحمن بن

---

[1] ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة ـ ص ٣٥.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج ٤ ـ ص ٣٦٨.

خالد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي، وعلى فلسطين علقم بن حكيم الكناني، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري، بعد مقتل الخليفة عثمان، أخذ النعمان بن بشير[1] أصابع زوجته نائلة، التي قطعت، وقميصه الذي قتل فيه، وهرب فلحِق بالشام، فكان معاوية يعلّق قميص عثمان، وفيه الأصابع فازداد أهل الشام غيظاً.

أرى أن معاوية وبعض الولاة الآخرين لو أرادوا لكانوا قدّموا الدعم العسكري الكافي لِحماية الخليفة عثمان، علماً أنه كان ينتظر منهم ذلِك في البِدايَة. إلا أنهم تخاذلوا، ولو كان يعلم حقيقة موقفهم لكان كما أرى تصرّف بشكل أفضل، ولكانت النهاية غير ما كانت عليه. وأرى أيضاً أن الخليفة كان أمَله كبيراً في الدّعم العسكري من عمّالِهِ وإلا لكان اعتزل السلطة، ويعتقد أن مروان بن الحكم هو الذي كان يزيّن له ذلِك، ويقوّي فكرة التشبّث بالسلطة.

الإمام علي ومعاوية: بعد أن استلم الإمام علي السلطة قال له المغيرة: «إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحوز به ما في الغد، وإن المضياع اليوم تضيع به ما في غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت، قال: حتى أنظر»[2].

وكان الإمام علي قد قال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتك لها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي لأن معاوية من بني أمية، وهو ابن عم عثمان، وعامله على الشام، وأخشى أن يضرب عنقي لعثمان، وقال: اكتب إلى معاوية فمنه وعده، فأبى الإمام علي، ورفض أن يبقي معاوية أو أن يستعمله. كان الإمام علي قد وزع عماله، فكان سهل بن حنيف على الشام، فلم يستطع دخولها، ورد من تبوك[3]، ثم كتب إلى معاوية وأرسل له رسولاً فقدم على معاوية، فلم يكتب معاوية له بشيء و لم يجبه.

---

[1] ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ ج١ ـ ص٤٥.

[2] **المسعودي ـ أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق عبد الأمير مهنا ـ طبع بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩١ ـ ج٢ ـ ص٣٧١،** الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٤٣٨، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص١٩٧.

[3] تبوك: موضع بين وادي القرى والشام ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ ج٢ ـ ص١٤.

بعد ذلك دعا معاوية أحد بني عبس واسمه قبيصة، فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه من معاوية إلى علي، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم سرح معه رسول الإمام علي، وخرجا فقدما المدينة في ربيع الأول سنة (٣٥ هـ - سبتمبر ٦٥٥م)، وعندما دخل رسول معاوية إلى الإمام علي، دفع إليه الطومار، ففضه فلم يجد به شيئاً، فقال للرسول: ما وراءك، قال: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون بالقود، وقد تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق. علماً أن أهل المدينة كانوا قد علموا أن معاوية معترض على خلافة الإمام علي.

بعد أن أظهر معاوية الخلاف بايعه عمرو بن العاص، وكان الإمام علي قد ولى قيس[1] بن سعد مصر فتمكن من دخولها، واستقامت له، وبعث عليها عماله، وكان قيس بن سعد أثقل خلق الله على معاوية، فحاول معاوية في البداية استمالة قيس بن سعد، وعمل مع عمرو بن العاص ضده لإخراجه من مصر، واصطنعا الكتب على لسانه، وأشيع أن قيس بن سعد قد بايع معاوية، ثم أن الإمام علياً قرّر عزله عن مصر، واستبداله بالأشتر، وأرسل الأخير. فلما كان بالقلزم[2] شرب شربة عسل فمات مسموماً فقال عمرو بن العاص: إنّ لله جنداً من عسل[3]، فلما بلغ الإمام علياً قتل الأشتر أرسل محمد بن أبي بكر والياً على مصر[4].

ذكرنا أن عمرو بن العاص كان قد بايع معاوية سنة (٣٦ هـ - ٦٥٦م)، ووافقه على محاربة الإمام علي، وعندما دخل على معاوية وجد أهل الشام يحضونه على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو لمعاوية: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، ومعاوية لا يتلفت إليه، فقال عمرو لمعاوية: «أما وا لله ان قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة أن في النفس من ذلك ما فيها، حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكن إنما أردنا هذه الدنيا»[5]، عند ذلك صالحه معاوية.

أرسل الإمام علي جرير بن عبد الله البجلي[6] إلى معاوية يدعوه إلى بيعته بعد فراغه من

---

[1] ابن عبد البر القرطبي - ابي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق: علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - طبع بيروت - ١٩٩٥ - ج٣ - ص٣٥٠.

[2] القلزم: بلد على ساحل بحر اليمن قرب ايلة، والطور، ومدين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٨٧.

[3] ابن كثير - أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي - البداية والنهاية - تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين طبع بيروت - دار الكتب العلمية - بدون تاريخ ج٧ - ص٣٢٤.

[4] ابن عبد البر القرطبي - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ج٣ - ص٤٢٢.

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٥٦١.

[6] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص .

موقعة الجمل، وكتب إليه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير، ويدعوه إلى الدخول في الطاعة، فلما وصل جرير إلى معاوية [1]، ورأى إجماع أهل الشام إلى الحرب عاد إلى الإمام علي بذلك، ثم إن جريراً البجلي خرج والتحق بمعاوية.

لم تمضِ أكثر من ستة أشهر حتى تمكن الإمام علي من السيطرة على العراق، وكان معاوية يطالب بدم عثمان بن عفان، ويدعو أهل الشام إلى قتال أهل العراق. عند ذلك بايع أهل الشام معاوية أميراً غير خليفة، وبعد مقتل الخليفة عثمان بأربعة عشر شهراً خرج الإمام علي بأهل العراق لمحاربةِ معاوِيَة.

ثم كانت معركة صفّين [2] والتحكيم [3] بدومة الجندل [4] في شعبان من سنة ٣٧ هـ ــ ٦٥٧م، وموادعة الحَرب، ثم ظهور الخَوَارِج، وحربهم للإمام علي، في هذه المرحلة بايع أهل الشام معاوية، فلم يزدد بهم إلا قوّة، واختَلَف الناس في العراق على الإمام علي، في الوقت نفسِهِ أخذ معاوية يفكِر بمصر لأنه كان كما يذكر الطبري خائفاً هائباً لأهلها.

سيطرة معاوية على مصر: دعا معاوية من كان معه من قريش، عمرو بن العاص، حبيب بن مسلمة، بشر بن أبي أرطأة، الضحاك بن قيس، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومن غير القريشيين: أبو الأعور عمرو بن سفيان السّلمي، حمزة بن مالك الهمذاني، شرحبيل بن السمط الكندي، فتشاوروا بأمر مصر، وكيفية السيطرة عليها. علماً أن عمرو بن العاص كان قد صالح معاوية حين بايعه، على أن له مصر طعمة [5] ما بقي، فأقبل معاوية على أصحابه، فقال: إن هذا ــ يعني عمراً ـ قد ظَنّ ثم حقّقَ ظنه. قالوا: لكنا لا ندري، قال معاوية: فإن أبا عبد الله قد أصاب، قال عمرو: وأنا أبو عبد الله، قال: إن أفضل الظنون ما أشبه باليقين [6].

---

(1) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح المعروف باليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ـ طبع بيروت ــ دار صادر بدون تاريخ ـ ج٢ ـ ص١٨٤.

(2) ابن مزاحم ـ نصر بن مزاحم المنقري ـ وقعة صفين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ طبع مصر ١٩٦١ ـ ص .

(3) المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ج٢ ـ ص٤١٠ ومابعدها.

(4) دومة الجندل ـ من أعمال المدينة ـ وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ــ وقيل دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٨٧.

(5) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ ج٢ ـ ص١٨٦.

(6) الطبري ـ تاريخ الطبري ـ ج٥ ـ ص٩٨.

خاطب معاوية الحضور واعتبر الإمام علياً وأتباعه أعداءً، وذكر لهم التحكيم ونتائجه، وتمنى السيطرة على مصر، وتمّ الإتفاق على ذلك، وتقرّر حسب رواية الطبري أن يكاتب معاوية مِن بها مِن شيعته، ومن بها من عدوه، والأمر لشيعته بالثبات على أمرهم، ثم إعلامهم بإرسال النجدات إليهم. أما من بها من عدوّهِ فيكون بدعوتهم إلى الصلح. كتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وإلى معاوية بن خديج الكندِي، وكَانَا قَد خَالفَا الإمام علياً، فَقَال:

«أمَا بعد، فإنّ ا لله قد ابتَعَثكما لأمر عظيم أعظمَ به أجرَكما، ورفع به ذِكركما، وزيّنكُما به في المسلمين؛ طَلبكما بدمِ الخليفةِ المظلوم، وغضبكما لله إذ تُرِك حكم الكتاب، وجاهدتما أهلَ البغي والعُدوان، فأبشروا برضوان ا لله، وعاجِل نصر أولياءِ ا لله، والمواساة لكما في الدنيا وسلطاننا حتى يُنْتَهيَ في ذلك ما يرُضيكما، ونؤدّي به حقّكما إلى ما يصير أمرُكما إليه. فاصبروا وصابروا عدوّكما، وادعوا المدبِر إلى هُداكما وحفظِكما، فإنّ الجيش قد أضلّ عليكما، فانقشع كلّ ما تكرهان، وكان كلّ ما تَهوَيان؛ والسلام عليكما»[1].

قتل محمد بن أبي بكر: أرسل معاوية رسولاً يحمل الكتاب الوارد ذكره إلى مصر ـ وأميرها محمد بن أبي بكر ـ فدفعه إلى مسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج، فلما اطلعا على مضمونه كتبا إلى معاوية بن أبي سفيان جواب كتابه فقالا:

«أما بعد، فإنّ هذا الأمر الذي بذلنا له نفسَنا، واتبّعْنا أمرَ ا لله فيه، أمرٌ نرجو به ثوابَ ربّنا، والنصرَ ممن خالفنا، وتعجيلَ النِّقمة لمن سَعَى على إمامنا، وطأطأ الرّكض في جهادنا، ونحن بهذا الحَيّز من الأرض قد نَفَينا مَن كان به من أهل البغي، وأنهَضْنا من كان به من أهل القسْط والعدل، وقد ذكرتَ المواساة في سلطانِك ودنياك، وبا لله إنّ ذلك لأمرٌ ما لهُ نهضْنا، ولا إيّاه أردْنا، فإنْ يجمع ا لله لنا ما نطلب، ويؤتنا ما تمنينا.

فإنّ الدنيا والآخرةَ لله ربِّ العالمين، وقد يؤتيهما ا لله معاً عالماً من خلقه، كما قال في كتابه، ولا خلفَ لموعوده، قال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، عجّل علينا خيَلَك ورَجْلك، فإنّ عدوّنا قد كان علينا حرباً، وكنا فيهم قليلا، فقد

---

[1] الطبري ـ تاريخ الأنبياء والرسل ـ ج٥ ـ ص٩٩.

[2] سورة آل عمران ـ الآية ١٤٨.

أصبحوا لنا هائبين، وأصبحْنا لهم مقرنين، فإن يأتنا الله بمَدَد من قِبَلك يفتح الله عليكم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل؛ والسلام عليك»[1].

تسلم معاوية الكِتاب وهو آنذاك بفلسطين، عند ذلك أمر عمرو بن العاص أن يتجهز إليها فأرسله على قوة قوامها ستة آلاف رجل، وأوصاه اعتماد كل الوسائل للسيطرة عليها، وأرسل كتاباً إلى محمد بن أبي بكر يقول له فيه: «أما بعد، فتنحَ عني بدمك يابن أبي بكر، فإني لا أحبّ أن يصيبَك مني ظَفَر، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، ورفض أمرك، ونَدِموا على اتبّاعك، فهم مُسلِموك لو قد التقت حَلْقتا البِطان، فاخرج منها، فإني لك من الناصحين؛ والسلام»[2].

ثم بعث عمرو بن العاص بكتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر وهو ما يلي: «أما بعد، فإنّ غبّ البغي والظلمِ عظيم الوَبال، وإنّ سَفْك الدم الحرام لا يسَلمُ صاحبه من النّقمة في الدنيا، ومن التَّبِعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أعظم على عثمانَ بغياً، ولا أسوأ له عيباً، ولا أشدّ عليه خلافاً منك؛ سعياً عليه في الساعين، وسفكتَ دَمه في السافكين، ثم أنت تظنّ أني عنك نائمٌ أو ناسٍ لك، حتى تأتي فتأمّر على بلاد أنتَ فيها جاري، وجُلّ أهلِها أنصاري، يرَون رأيي، ويَرقُبُون قولي، ويَستصرخوني عليك.

وقد بعثتُ إليك قوماً حِناقاً عليك، يستسقون دمَك، ويتقربّون إلى الله بجهادك، وقد أعطَوا الله عهداً ليمثّلنّ بك، ولو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك، ولأحببتُ أن يقتلوك بظُلمك وقطيعتك وعَدْوك على عثمان يوم يُطعَن بمشَاقِصك بين خُشَشائه وأوداجه، ولكن أكرَه أن أمثّل بقرَشيّ، ولن يُسلِمك الله من القصاص أبداً أينما كنت. والسلام.

قال: فطوى محمد كتابيْهما، وبعث بهما إلى الإمام عليّ، وكتب معهما: «أما بعد، فإنّ ابن العاص قد نزل أدانيَ أرضِ مصرَ، واجتمع إليه أهلُ البلد جلُّهم ممن كان يَرى رأيَهم، وقد جاء في جيش لجِب خرّاب، وقد رأيت ممن قِبَلي بعضَ الفشل، فإن كان لك في أرض مصرَ حاجة فأمدّني بالرجال والأموال؛ والسّلام عليك»[3].

---

[1] الطبري - تاريخ الأنبياء والرسل - أحداث سنة ٣٨ هـ - ج٥ - ص١٠٠.

[2] المرجع نفسه - أحداث سنة ٣٨هـ - ج٥ - ص١٠١.

[3] المرجع نفسه - ج٥ - ص١٠١.

فكتب إليه الإمام علي:

«أمّا بعد، فقد جاءني كتابُك تذكُر أنّ ابن العاصِ قد نـزل بـأداني أرضِ مصرَ في لجـبٍ مـن جيشِه خُرّاب، وإنّ مَن كان بها على مثِل رأيه قد خرج إليه، وخروجُ مَن يرى رأيـه إليـه خـيرٌ لـك من إقامتهم عندَك. وذكرتَ أنك قد رأيتَ في بعض مَنْ قِبَلك فَشَلاً، فلا تَفشَل، وإن فشلوا فحصِّنْ قريَتك، واضممْ إليك شيعتَك، واندُب إلى القوم كنانَة بنَ بشر المعروفَ بالنصيحة والنّجدة والبـأس. فإني نادبٌ إليك الناسَ على الصَّعب والذّلول، فاصبر لعدوّك، وامض على بصيرتك، وقـاتلْهم على نيّتك، وجاهِدْهم صابراً محتسباً.

وإن كانت فئتُك أقلَّ الفئتين؛ فإنّ الله قد يُعـزّ القليـل، ويَخـذُل الكثـير. وقـد قـرأتُ كتـابَ الفاجر ابن الفـاجر معاويـة، والفـاجر ابـن الكـافر عَمـرو، المتحـابَّيْن في عمـل المعصيـة، والمتوافِقَـين المرتَشِيينْ في الحكومة، المنكَرَيـن في الدنيـا، قـد استَمتَعوا بخَلاقهـم كمـا استمتَع الذيـن مـن قبلهـم بخلافهم، فلا يَهُلْك إرعادُهما وإبراقُهما، وأجبْهما إن كنتَ لم تجبْهما بما هما أهله، فإنك تجد مقـالا ما شئت؛ والسلام»[1].

كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان جواباً لكتابه، فقال: «أما بعـد، فقـد أتـاني كتابُك تذكِّرني من أمرِ عثمانَ أمراً لا أعتذر إليك منه، وتـأمُرني بـالتنحي عنـك كـأنك لي نـاصح، وتُخوّفني المُثْلَة كأنك شفيق، وأنا أرجو أن تكون لي الدائرةُ عليكم، فأجتاحَكم في الوقعة، وإن تُؤتَوا النصرَ ويكن لكم الأمر في الدّنيا، فكَم لَعمري من ظالم قد نَصرتم، وكم من مؤمن قَتلتم ومثّلتم بـه! وإلى الله مصيرُكم ومصيرُهم، وإلى الله مَرَدُّ الأمور، وهو أرحـم الراحمـين، والله المستعان علـى مـا تصفون. والسلام»[2].

ثم كتب ـ محمد بن أبي بكر ـ إلى عمرو بن العاص، فقال: «أمّا بعد، فقد فهمتُ ما ذكـرتَ في كتابك يابنَ العاص، زعمتَ أنك تكره أن يصيبَني منك ظَفَر، وأشهدُ أنك مـن المبطِلـين. وتَزعـم أنك لي نصيح، وأقسم إنك عندي ظَنين، وتَزعم أنّ أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري، ونَدموا علـى اتّباعي، فأولئك لك وللشيطان الرجيـم أوليـاء، فحسـبُنا الله ربّ العالَمين، وتوكّلنا على الله ربّ

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٠٢.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٠٢.

العرش العظيم؛ والسلام»[1].

في الوقت الذي قصد فيه عمرو بن العاص مصر، كان محمد بن أبي بكر قد خاطب قواته ومؤيديه، وقد زرع في نفوسهم التضحية وحب الجهاد، وأن لهم الجنة والمغفرة، ثم انتدب لمحاربتهم كنانة بن بشر[2]، وأكد لهم أن عمرو بن العاص، ومعاوية ومن معهم ينتهكون الحرمة، وأنهم على ضلال وفتنة، وأنهم قوم يتسلطون بالقوة والجبرية، وقد اعتمدوا أسلوب العداوة والحرب وهم في طريقهم إليكم.

خرج كنانة بن بشر بألفين من القوات، وخرج محمد بن أبي بكر بألفين أخرى، علماً أن كنانة كان على مقدمة محمد بن أبي بكر فاستقبله عمرو بن العاص، وجرى بينهما اشتباك، استطاع كنانة في البداية تبديد قوات عمرو بن العاص، مما اضطره إلى الاستنجاد بمعاوية بن حديج. تحرك معاوية بن حديج السكوني بمن معه، فأحاط، وعمرو بن العاص بكنانة من كافة الجهات، فقاتل كنانة حتى قتل شهيداً، ثم تقدم عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر، وقد تفرق عنه بعض أصحابه. عندما علموا بمقتل كنانة، وبقي كما يروي الطبري وحيداً يمشي حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها.

أما عمرو بن العاص فدخل الفسطاط، وخرج معاوية بن حديج[3] في طلب محمد بن أبي بكر، فالتقى ببعض المارة فسألهم، هل مر بكم أحد تنكرونه؟ فقال أحدهم: إن في هذه الخربة رجلاً جالساً، فقال معاوية بن حديج: هو، فذهبوا إليه واستخرجوه، وقد كاد يموت عطشاً، فأخذوه إلى فسطاط مصر، فلما رآه أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان في جند عمرو بن العاص فقال لعمرو ابن العاص: أتقتل أخي صبراً ابعث إلى معاوية بن حديج فانهه عن قتله، فأرسل عمرو بن العاص إلى معاوية المذكور أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، فقال معاوية بن حديج عند ذلك: قتلتم كنانة بن بشر، وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر هيهات، ثم قال قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ

---

[1] المرجع نفسه - ج٥ - ص ١٠٢ - ١٠٣.

[2] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٢٧.

[3] ابن عبد الحكم: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها - يطلب من مكتبة المثنى ببغداد - طبع في مدينة لبدن ١٩٣٠ م - ص١٢٢.

﴿بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[1].

في هذا الوقت طلب محمد بن أبي بكر الماء فرفض معاوية بن حديج طلبه، وقال: منعتم عثمان بن عفان الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً، فقال له محمد بن أبي بكر: «يا بن اليهودية النساجة، ليس ذلك إليك وإلي ما ذكرت. إنما ذلك إلى الله عز وجلّ يسقي أولياءه، ويظمىء أعداءه، أنت وضرباؤك ومن تولاه، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا»[2].

ثم إن معاوية بن حديج قال لمحمد بن أبي بكر: بلى سأدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار، فقال محمد بن أبي بكر: «إن فعلتم بي ذلك، فطالما فُعِل ذلك بأولياء الله! وإني لأرجو هذه النارَ التي تُحْرِقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله إبراهيم، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه. إنّ الله يحرقك ومن ذكرته قبل وإمامك - يعني معاوية، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنار تلظّى عليكم، كلمّا خبت زادها الله سعيراً. قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان، قال له محمد: وما أنتَ وعثمان! إن عثمان عَمِلِ بالجور، ونبذ حكمَ القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3]، فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسنت أنت له ذلك ونظراؤك، فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله»[4].

عند ذلك غضب معاوية بن حديج، فقتل محمد بن أبي بكر[5] رضي الله عنه سنة (٣٨ هـ ـ ٦٥٨م)، ظلماً وجوراً، وألقاه في جوف حمار، ثم أحرقه، وفي ذلك تمثيل وخروج عن الشرع، وخاصةً لمن كان مثل محمد بن أبي بكر. وعندما علمت السيدة عائشة بمقتله جزعت عليه، وقنتت عليه في دبر الصلاة تدعو على معاوية، وعمرو، ثم كتب عمرو بن العاص إلى معاوية بما ورد.

---

(1) سورة القمر - الآية ٤٣.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٠٤.

(3) سورة المائدة - الآية ٤٧.

(4) الطبري - تاريخ الطبري - ج٥ - ص١٠٤-١٠٥.

(5) ابن عبد البر القرطبي - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ج٣ - ص٤٢٢.

المعروف أن عمرو بن العاص كان داهية فلماذا سمح بقتل محمد بن أبي بكر مع معرفته بما يجلبه عليه ذلك من سبة وعار، كان عمرو بن العاص أمام موقفين حرجين، وكان لابد له من اختيار الأفضل الذي يتجانس مع سياسته.

الموقف الأول: هو موقف معاوية بن حديج الصلب الذي يرفض فيه الإبقاء على حياته، وقد ظهر موقفه واضحاً كما ورد فنفذ ما أراد دون أن يتدخل عمرو بشكل مباشر أو غير مباشر، كما أرى لأنه خاف من معاوية بن حديج كونه كان صاحب الكلمة العليا في مصر، وفي غضبه إخفاق لسياسته بدمشق، من ذلك قتل محمد بن أبي بكر دون اعتراض إلا من أخيه الذي لا يملك الدفاع عنه، رغم أن كلاً منهما كان ضد الآخر أي أن كلاً منهما كان في معسكر يحارب الآخر.

الموقف الآخر: هو أن في قتل محمد بن أبي بكر تحقيق لرغباته التي استجاب لها منذ بايع معاوية لذلك طغت عليه مصالحه الدنيوية رغم معرفته أن قتل محمد بن أبي بكر سيجلب عليه العار كما ذكرنا، إلا أنه سيعوض عن ذلك كسب معاوية بن حديج إلى جانبه، وتحقيق مآربه الشخصية في حكم مصر مدى حياته.

قتل محمد بن أبي حذيفة: توجه عمرو بن العاص، ومعاوية بن حديج إلى محمد بن إبي حذيفة، وهو بمصر كما يذكر الطبري قد ضبطها، ونزل بعين شمس[1]، وعندما عجز عمرو عن دخولها لجأ كعادته إلى الحيلة والمكر، وهو أن يخرج محمد بن حذيفة في ألف رجل إلى العريش[2]، وأن يخلف الحكم بن الصلت على مصر، فلما خرج محمد بن أبي حذيفة إلى العريش، تحصّن بها، ثم جاء عمرو في أصحابه فنصبا المجانيق، وتمكنوا من أخذ محمد بن أبي حذيفة، ومعه ثلاثون من أصحابه فقتلوا.

ويختلف هشام بن محمد الكلبي في روايته عن الطبري، فيذكر أن محمد بن أبي حذيفة أخذ بعد محمد بن أبي بكر، وغلب عمرو على مصر، وقيل: إن عمرو بن العاص عندما غلب على مصر أخذ محمد بن أبي حذيفة، فأرسل به إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بفلسطين فحبسه في سجن له،

---

[1] عين شمس: اسم مدينة فرعون موسى بمصر بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٧٨.

[2] العريش: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١١٣.

ثم هرب من السجن ـ وهو ابن خال معاوية بن أبي سفيان[1] ـ فأرى معاوية الناس بأنه كره هروبه، فقال لأهل الشام: من يطلبه علماً أن معاوية كان يرغب حسب رواية ابن هشام في أن ينجو، فقال عبد الله بن عمرو بن ظلام من بني خثعم وكان عثمانياً شجاعاً: أنا أطلبه، فخرج في طلبه فلحقه بأرض البَلقَاء بحوران[2]، وقد دخل في غار هناك، فاستدلّ عليه فأخرجه من الغار، وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلي سبيله، فقتله وقَبرهُ هناك معروف إلى اليوم.

عندما علِمَ الإمام علِي بمقتل محمد بن أبي حذيفة. قرّر إرسال مالك بن كَعب[3] والياً على مصر، فانتدب معه ألفين من المقاتلين. بعد ذلك قدِم عليه الحجّاج بن غزية الأنصاري من مصر[4]، وكان مع محمد بن أبي بكر، وعبد الرّحمن الفزاري[5] من الشام، وكان الأخير عينه بالشَام، فأخبراه بمقتل محمد بن أبي حذيفة، وقال عبد الرحمن بن شبيب الفزاري: ما رأيت قوماً قَط أسرّ من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر، فقال الإمام علي: «أما أن حزننا عليه على قدر سرورهم بهِ، لا بَل يزيد أضعافاً»[6]، ثم أمر بمالك بن كعب بالعودة من بعض طريقه.

توزيع معاوية عماله: بعد مقتل محمد بن أبي بكر، وجه معاوية بن أبي سفيان إلى البصرة سنة (٣٨ هـ ـ ٦٥٨م)، عبد الله بن عمرو الحضرمي[7] يطلب تنفيذ قرار التحكيم، فدخلها في الوقت الذي كان فيه ابن عباس قد خرج منها إلى الكوفة، واستخلف عليها زياد بن أبيه، فلما وصل عبد الله بن عمرو إلى البصرة نزل في بني تميم.

أرسل زياد بن أبيه إلى الحصين بن المنذر، ومالك بن مسمع، وهما من بكر بن وائل، فطلب منهما أن يمنعاه، فقال الحصين: نعم، أما الآخر فقال: استشر وانظر، ثم أرسل إلى صبرة بن شيمان

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٢٦٨.

[2] حوران: كوره واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣١٧.

[3] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٧ ـ ص٣٢٨.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٠٨.

[5] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٣٥٩.

[6] الطبري ـ تاريخ الطبري ـ ج٥ ـ ص١٠٨.

[7] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٧ ـ ص٣٢٨-٣٢٩.

الحداني[1]، يطلب منه أن يجيره، وبيت المال، فوافق علـى شرط أن ينتقـل هـو وبيـت المـال إلى بيتـه وداره، فنقل زياد بن أبيه بيت المال والمنبر فوضعه في مسجد الحدان.

كتب زياد بن أبيه إلى الإمام علي يعلمه أن ابن الحضرمي نـزل البصـرة في بـني تميـم، وقـد بايعوه، فوجـه أعين بن ضبيعة المجاشعي[2] ليفـرق قومه عن ابن الحضرمي، فلمـا قـدم البصـرة نـزل عند زيـاد بن أبيه، ثم قدم قومـه فجمـع منهـم رجـالاً، ونهـض بهـم إلى ابـن الحضرمـي فدعـاهم، فشـتموه وناوشـوه، فتراجع عنهم ثم دخل عليه قوم فقتلوه، فـأعلم زيـاد بـن أبيـه الإمـام علياً بمـا حدث.

استدعى الإمام علي جارية بن قدامة السعدي[3]، فوجهه في خمسين - وقيل في خمسمائة رجل - وكتب إلى زياد بن أبيه يأمره بتقديم العون والمساعدة له، توجـه جاريـة إلى البصـرة، فـأتى قومـه، فقرأ عليهم كتـاب الإمام علـي، فأجابه أكثرهم، فتوجـه إلى ابـن الحضرمـي، فحصـره في دار ثـم أحرق عليه الدار وعلى من معه (وهم سبعون رجلاً وقيل أربعون) ثم أعلم زياد بن أبيه الإمـام علياً بالخبر.

بعد ذلك فرق معاوية جيوشه في أطراف الإمام علي، وذلك سنة (٣٩ هـ ــ ٦٥٩م)، فوجـه النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر[4]، وبها مسلحة للإمـام علـي في ألـف رجـل، فتمكـن قائد المسلحة من هزيمة النعمان ومن معه، كما وجه معاوية، وبالسـنة نفسـها سفيان بـن عـوف في ستة آلاف رجل إلى هيت[5] ليغير عليها، ثم يتوجه إلى الأنبار[6] والمدائن.

توجه سفيان بن عوف إلى هيت فلم يجد بها أحداً فتوجـه إلى الأنبـار، وبهـا مسـلحة للإمـام علي قوامها خمسمائة رجل إلا أنهم كانوا متفرقين، فقتلوا صـاحب المسـلحة، وأخـذوا مـا كـان في الأنبار من الأموال ورجعوا إلى معاوية.

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج - ص٣٦١.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ٣٦٢.

[3] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٦٢.

[4] عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٧٦.

[5] هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٤٢١.

[6] الأنبار: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٥٧.

كما وجه معاوية إلى تيماء[1] عبد الله بن مسعدة الفزاري[2]، وأمره أن يجمع الصدقات من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع، وأمره أن يتوجه بعدها إلى مكة[3] ومنها إلى المدينة[4]، لجمع الصدقات أيضاً. علم الإمام علي بذلك فوجه المسيب بن نجبية[5] الفزاري في قوة قوامها ألف رجل، فلحق ابن مسعدة الفزاري في تيماء فاقتتلوا، وحوصر ابن مسعدة ثلاثة أيام داخل الحصن، ثم ألقى المسيب بن نجبية النار في الحصن فاحترق وهرب من نجا إلى الشام.

وجه معاوية سنة (٣٩ هـ - ٦٥٩م)، الضحاك بن قيس[6]، وأمره أن يمر بأسفل واقصة[7] ومعه ثلاثة آلاف رجل، وأمره أن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة الإمام علي من الأعراب. توجه الضحاك إلى ما أمر به، فقتل من لقي من الأعراب، ومرّ بالثعلبية[8]، فأغار على مسالح الإمام علي فأخذ أمتعتهم، ثم توجه إلى القطقطانة[9] فحجز عمرو بن عيسى بن مسعود، وكان في خيل للإمام علي وأمامه أهله، وهو يريد الحج. علم الإمام علي بالأحداث، فوجه حجر ابن عدي الكندي[10] في أربعة آلاف مقاتل، وأعطاهم خمسين خمسين، فلحق الضحاك بتدمر[11]، وجرت بين الطرفين اشتباكات، وفي الليل هرب الضحاك إلى معاوية.

ووجه معاوية بشر بن أبي أرطأة[12] سنة (٤٠ هـ - ٦٥٩م)، في قوة قوامها ثلاثة آلاف

---

(1) تيماء: بلد في أطراف الشام بين الشام، و وادي القرى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٦٧.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٣٥ - ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج٣ - ص٢٥٦.

(3) مكة: مكة اسم المدينة - وبكة اسم البيت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٨١.

(4) المدينة: هي مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٨٢.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٣٤.

(6) **ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - طبع بيروت - دار إحياء التراث - بلا تاريخ - ج٣ - ص٣٧،** الطبري - تاريخه - ج٥ - ص١٣٥.

(7) واقصة: منزل بطريق مكة بعد القرعاء، نحو مكة وقبل العقبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٥٤.

(8) الثعلبية: من منازل طريق مكة من الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٧٨.

(9) القطقطانة: موضع قرب الكوفة - من جهة البرية بالطف - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٧٤.

(10) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ ص٣٣٢ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٣٥.

(11) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٧.

(12) ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج١ - ص١٧٩ - ١٨٠ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٣٩ - ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٣٤.

إلى الحجاز[1]، وعند وصولهم إلى المدينة فر عاملها من قبل الإمام علي أبـو أيوب الأنصـاري[2] إلى الكوفة، وأعلم الإمام علياً بما حدث، في الوقت نفسه دخلها بشر بن أبي أرطأة، فبايع له أهلها، ثـم هدم دور المدينة وقال: وا لله لولا ما عهد إلى معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته، لقد كان تصرّف بشر في مجمل أعمالِهِ من القتـل والتدمير خـلال حركتـه هـذه مـا يعـود عليـه وعلـى ولاتـه بـالخزي والعار.

توجه بشر بعدها إلى مكة[3] وعاملها أبو موسى الأشعري[4] فدخلها وبايعه أهلها، ثـم توجـه إلى اليمن[5] وعليها عبيد ا لله بن عباس[6] عاملاً للإمام علي، ففر عبيد ا لله بن عباس إلى الكوفة، بعد أن استخلف على اليمن عبد ا لله بن عبد المدّان الحارثي[7]، فلما وصلها بشر قتـل عبـد ا لله الحـارثي ثم ذبح ابنين لعبيد ا لله بن عباس[8]، بعد ذلك رجع بشر إلى الشام، فـأعلم معاويـة بأخبـاره الـواردة الذِكر، علماً أن الإمام علياً كان قد وجه في طلب بشر بن أبي أرطـأة أحـــد قادتـه هـو جارِيـة بـن قدامة، فتمـكن من مكة والمدينة، فبايعوا للحسـين بن علي لأن الإمام علـياً كـان قـد طعِـن مـن قبـل عبد الرحمن بن ملجم.

---

(1) الحجاز: من تخوم صنعاء إلى تخوم الشام، وسمي حجاز لأنه حجز بين تهامة ونجد، وقيل الحجاز: جبـل ممتـد حـال بـين الغـور، غـور تهامة ونجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حـاجز بينهمـا، وقيـل: سمي الحجـاز حجـازاً لأنـه فصـل بـين الغـور والشام، وبين البادية، وقيل: الحجاز من معدن النقرة إلى المدينة، وقيل: الحجاز اثنـا عشـر داراً (المدينـة، خيـبر، تبـوك، وذو المروه، داريلي، ودار أشجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ونفر من هوازن، وجل سليم، وجل هلال، وظهر حرة ليلى) - يـاقوت الحمـوي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢١٩.

(2) ابن الأثير - الكامـل في التاريـخ - ج٣ - ص٣٨٣، الطـبري - تاريخـه - ج٥ - ص١٥٦، ابـن كثـير - البدايـة والنهايـة - ج٧ - ص٣٣٤.

(3) مكة: سميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم، ويقال سميت مكة لازدحام الناس بها ويقال مكه اسـم المدينـة، وبكـة اسـم البيت، وقيل مكه هي بكه، وقيل سميت مكه لأنه العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى تأتي مكـان الكعبـة فتمـك فيـه أي تصفر صفير المكاء حول الكعبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٨١.

(4) ابن كثير - البداية والنهـاية - ج٧ - ص٣٣٤، الطـبري - تـاريخه - ج٥ - ص١٣٩، ابـن الأثـير - الكامـل في التـاريخ - ج٣ - ص٣٨٣.

(5) اليمن: حدودها بين عمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشحر حتى يجتاز عمان فينقطع من بينونه، وبينونـه بـين عمان والبحرين وليست من اليمن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٤٤٧.

(6) ابن الأثير - الكامل - ج٣ - ص٣٨٤ - ابن الأثير - أسد الغابة - ج٣ - ص٣٤٠.

(7) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٣٩.

(8) ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج١ - ص١٨٠.

في سنة أربعين للهجرة جرت بين الإمام علي، ومعاوية بن أبي سفيان مهادنة[1] على وضع الحرب بينهما، فتكون العراق[2] للإمام علي، والشام[3] لمعاوية، ثم استقر كل منهما حسب رواية الطبري على عملِهِ، واستمر أمرهم حتى كان مقتل الإمام علي في ١٧ رمضان سنة (٤٠ هـ - يناير ٦٦١م).

قتل الإمام علي: وعن سبب مقتل الإمام علي[4]، أن عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي السعدي، كانوا قد اجتمعوا فعابوا عمل ولاتِهم، ثم اتفقوا كما يذكر المؤرخون أن يقتل عبد الرحمن بن ملجم - وأصله من أهل مصر - الإمام علياً[5]، والبرك بن عبد الله، معاوية، وعمرو بن بكر، وعمرو بن العاص، وتعاهدوا وتواعدوا على ما ورد، ثم أخذوا سيوفهم فسمموها، وحددوا يوم ١٧ رمضان سنة (٤٠ هـ - يناير ٦٦١م)، موعِداً لتنفيذ ما اتفقوا عليه، فتوجه كل منهم إلى الجهة التي فيها هدفه.

توجه عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة، وهناك يروى أنه التقى بعض أصحابِه من تَيّم الرّباب، فتذاكروا قتلى النهر، ومعهم امرأة اسمها قطام، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان، وكانت فائِقة الجمال، فلما رآها ابن ملجم أعجبته فخطبها فوافقته على شروط هي: ثلاثة آلاف، وعبد وقينة، وقتل الإمام علي، فقال لها: لكِ ما سألتِ، ثم إن قِطام - حسب هذه الرواية - طلبت إلى رجل من قومها اسمه وردان، وأمرته أن يساعد ابن ملجم في مهمّته، وطلب ابن ملجم إلى رجل من أشجع اسمه شبيب بن بجرة أن يساعده أيضاً فوافقه.

فلما كان الموعِد المتّفق عليه أعد ابن ملجم أتباعه وجلسوا مقابل السدّة التي كان يخرج منها الإمام علي إلى الصلاة، فلما خرجَ ضربه ابن ملجم، وقال كما يذكر ابن الأثير: «الحكم لله لا لك

---

[1] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٣٤، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٤٠.

[2] العراق: سمي العراق عراقاً لأنه دنا من البحر وفيه سباخ وشجر، وسمي العراق عراقاً لأنه على شاطىء دجلة والفرات، مدّاً حتى يتصل بالبحر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٩٣.

[3] الشام: سميت بذلك لأن قوماً من كنعان بن حسام خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها أي أخذوا ذات الشمال فسميت بالشام، وقيل سميت الشام بسام بن نوح لأنه أول من نزلها، وقيل كان اسم الشام الأول سورى، وقيل: سميت بذلك لأنها شامة الدنيا، وبها أمهات المدن وفيها خمسة أجناد، وفيها ثغور تسمى الثغور الشامية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣١٢.

[4] الحديث يرويه الطبري - عن موسى بن عثمان بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن الحراني أبو عبد الرحمن - عن اسماعيل بن راشد - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٤٠ هـ - ج٥ - ص١٤٣.

[5] السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٠٨.

يا علي ولا لأصحابك»، وهرب وردان فقتله رجل من قومه، كما هرب شبيب، أما ابن ملجم فأخذه الناس.

قتل عبد الرحمن بن ملجم للإمام علي حقيقة تذكرها كل كتب التاريخ ولا جدل فيها، ويكفيه من الله حسابه لقاء ما اقترفه من القتل، لكن ما أعتقده أن رواية عبد الرحمن بن ملجم وقطام وهذه المؤامرة التي يرويها الطبري وغيره تحتاج إلى تدقيق وتعليل لأن هدف ابن ملجم كان قد قرّره مع أصحابه قبل قدومِهِ الكوفة. ثم أن كتب التاريخ لا تذكر له نشاطاً ضمن حزب الخوارِج.

اختلف المؤرخون في أصله فابن الأثير[1] يذكره مصرياً، والطبري[2] يذكره في عداد كنده[3]، أخيراً إن ابن ملجم كان يعلم من هو خصمه الذي يعمل لقتله، أما فكر بنهايته كيف ستكون، وما قطام وغيرها بالنسبة له في مثل هذه الحالة التي ينتهي إليها.

أما البرك بن عبد الله فقصد معاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شدّ عليه بسيفه فوقع السيف في إليته، فأخذ، فأمر بقتله، وكان معاوية قد أحضر طبيباً فقال الطبيب لمعاوية[4] أن يختار إما أن يحمي حديدة، فيضعها موضع السيف، وإما أن يسقيه شربةً تقطع منه الولد، فاختار الثانية، بعدها اتخذ معاوية المقصورات، والحرس، وأقام الشرطة على رأسِهِ إذا سجد.

أما عمرو بن بكر، فجلس لعمرو بن العاص فلم يخرج لمرض ألَمَّ بِهِ، فأمر خارِجة بن حذافة[5] صاحِب شرطتِهِ أن يصلي بالناس، فشد عليه عمرو بن بكر، وهو يرى أنه عمرو بن العاص، فضربه فقتله فأخذه الناس إلى ابن العاص فأمر به فقتل.

الحسن بن علي وصلحه لمعاوية: بعد مقتل الإمام علي بويع الحسن بن علي

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٣٨٩.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٤٤.

(3) كندة: مخلاف باليمن: اسم قبيلة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٨٣.

(4) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٤٢.

(5) ابن الحكم - فتوح مصر وأخبارها - ص١٠٥.

بالخِلافة[1]، وكان أول من بايعه قيس بن سعد ثم بايعه الناس، و لم يكن الحسن يرى القِتال، وكان يعلم أن قيس بن سعد لا يوافِقه فنزعه من عمله، و ولى عِوضَه عبيد الله بن العباس، فما كان من الأخير إلا أن طلب من معاوية الأمان، واشترط لنفسه فوافقه معاوية على ما أراد، ثم إن الحسن خرج بالناس حتى نزل المدائن، وعلى مقدمته قيس بن سعد في إثني عشر ألفاً، أثناء ذلك أشيع أن قيس بن سعد قتل، فانتفض أنصار الحسن بن علي، ونهبوا سرادِقه حتى نازعوه بساطاً كان تحته، فخرج حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن، فلما رأى تفرق الناس عنه. بعث إلى معاوية يطلب الصلح، فأرسل إليه معاوية عبد الله بن عامر[2]. وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، فأعطيا الحسن ما أراد، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف، وأموراً أخرى اشترطها.

بعد ذلك دخل الناس في طاعة معاوية، ودخل معاوية الكوفة فبايعه أهلها، و قيل إن الحسن ابن علي كتب إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان، فقال له أخوه الحسين: «نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية، وتكذب أحدوثة علي، فقال له الحسن: اسكت، فأنا أعلم بالأمر منك»[3]، فلما وصل الكِتاب إلى معاوية أرسل عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة، فقدِما المدائِن، وتم الصلح على أن جعل له ما في بيت مالِهِ وخراج دار أبجرد[4]، فكان في بيت ماله بالكوفة خمسة آلاف ألف، وعلى أن لا يشتم معاوية الإمام علياً. وفي النهاية أجمع المؤرخون أن الحسن بن علي كان قد بايع معاوية بقصد حقن دِماء المسلمين، وصلاح الأمّة العربية الإسلامِيّة[5].

بعد ذلك بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[6]، أما الحسن بن علي فخطب بعد إلحاح معاوية وكانت مكيدةً مِن عمرو بن العاص، فقال: «أما بعد، يا أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأوّلنا، وحقن دِماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدّة، والدنيا دوَل، وإن الله تعالى قال لِنبيه ــ صلى الله عليه

---

[1] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص١٦ ـ الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص١٥٨ ـ ابن الأثير ـ الكامل ـ ج٣ ـ ص٤٠٢.

[2] المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص١٦ ـ الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص١٥٩، ابن الأثير ـ الكامل ـ ج٣ ـ ص٤٠٥.

[3] **ابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول ـ تحقيق أنطون صالحاني ـ طبع بيروت ـ ص ١٨٦.**

[4] دار أبجرد: ولاية بفارس ـ وقيل هي قرية من كورة أصطخر، وقيل: هي موضع بنيسابور ـ ياقوت الحموي معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤١٩.

[5] اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ ج٢ ـ ص٢٥٦.

[6] إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، معناه بيت الله ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٩٣.

وسلم: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]، فلما قالها، قال معاوية: اجلس، فلم يزل ضَرِماً على عمرو، وقال: هذا من رأيك، ولحِق الحسن عليهِ السلام بالمدينة»[2].

ثم صالح معاوية قيس بن سعد، وكان مع الأخير كما يروي الطبري أربعون ألف فارس، فأرسل معاوية إلى قيس بن سعد بسجل قد ختِم بأسفله، وقال: اكتب في هذا السجل ما شئت فهو لك، وقال معاوية له: على طاعة من تقاتل، فاشترط قيس بن سعد الأمان له ولشيعة علي[3] على ما أصابوا من الدِماء والأموال فأعطاه ما طلب. عند ذلك دخل قيس بن سعد، ومن معه في طاعة معاوية، وقيل إن الصلح بين الحسن بن علي، ومعاوية كان قد حدث في شهر ربيع الآخر من سنة (٤١هـ ـ يوليه ٦٦١م)، فدخل معاوية الكوفة في غرّة جمادى الأولى من هذه السنة، وقيل في ربيع الآخر.

بعد الصلح وقف الحسن بن علي، فقال: «يا أهلَ العراق، إنه سَخّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلُكم أبي، وطعنكم إيّاي، وانتهابُكم متَاعي. قال: ثم إن الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر خرجوا بحَشَمهم[4] وأثقالهم حتى أتَوا الكوفة، فلما قدَمها الحسن وبَرىء من جِراحته، خرج إلى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم، وفي أهل بيتِ نبيِّكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين أذهبَ الله عنهم الرجسَ وطهّرهم تطهيراً. فجعل الناسُ يبْكون، ثم تحمَّلوا إلى المدينة. قال: وحال أهلُ البصرة بينه وبين خَراج داراً بجرد؛ وقالوا: فيئنا فلما خرج إلى المدينة تلقّاه ناسٌ بالقادسيّة[5] فقالوا: يا مُذِلّ العَرَب[6]».

أما ابن أعثم الكوفي: فيذكر الخبر عن صلح الحسن بن علي ومعاوية، فيروي رواية تختلف عن رواية الطبري، وغيره من المؤرخين، يقول: إن معاوية خرج من دمشق في ستين ألفاً يريد العراق. أما الحسن بن علي فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالاحتراس والحذر ثم ندب الناس إلى حرب معاوية في الوقت نفسه استخلف المغيرة بن نوفل بن الحارث على الكوفة، وخرج في زيادة على

---

[1] سورة الأنبياء ـ الآية ١١١.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٦٣.

[3] كان صلح الحسن بن علي مع معاوية قد نصّ على الأمان لأتباعه.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٦٥.

[5] القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً وبينها وبين العزيب أربعة أميال ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٩١.

[6] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٥٩.

أربعين ألفاً، فنزل دير الجماجم[1]، وهناك دعا قيس بن سعد بن عبادة فضم إليه ألف رجل، وجعله على مقدمته وتوجه قيس لتنفيذ مهمته فسار على طريق الفرات يريد الشام، ثم خرج الحسن حتى قدم ساباط[2]، فأقام بها أياماً، ثم خاطب أتباعه بقوله: «أيها النّاس إنكم بايعتموني على أن تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت، والله لقد أصبحت وما أنا محتمل على أحد من هذه الأمة ضغنة في شرق ولا غرب ولما تكرهون في الجاهلية والألفة والأمن وصلاح ذات البين خير مما تحبون من الفرقة والخوف والتباغض والعداوة والسلام»[3].

بعد أن استمع النّاس إلى كلام الإمام الحسن ظهر لهم أنه خالع نفسه من الخلافة، ومسلم الأمر لمعاوية، فغضبوا لذلك، فنهبوا كافة أثقاله، وخرقوا ثيابه، وأخذوا مطرفاً كان عليه، وتفرق النّاس عنه، فقال عند ذلك: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم إن رجلاً من بني أسد هو سنان بن جراح[4]. تمكن من ضربه بمعول فجرحه عدة جراح. عند ذلك حمل عبد الله بن الأخطل، وعبد الله ابن ذبيان فقتلا الأسدي، ثم عولج الإمام الحسن من جراحه، وتوجه إلى المدائن، وعاملها آنذاك سعد بن مسعود الثقفي[5]، فنزل في القصر الأبيض[6].

أما معاوية فتوجه إلى منبج[7] فعبر جسرها ثم عبر الفرات، ونزل مقابل قيس بن سعد، وأمر أتباعه بمبادرة الحرب، علماً أن قيس بن سعد كان لا يعلم بما جرى للحسن، بعدها علم قيس بن سعد بالحدث إلا أنه استمر بالحرب ـ ثم إن معاوية أرسل إلى قيس بن سعد يقول له على ماذا تقاتلنا، وذكر له أن الحسن قد طعن وخلعه أصحابه. عند ذلك أوقف قيس بن سعد القتال. في هذا

---

(1) دير الجماجم: بظاهر الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٥٠٣.

(2) ساباط: بليدة معروفة بما وراء النهر قرب اشروسنه ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان، ج٣ ـ ص١٦٦.

(3) ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ المجلد الثاني ـ ص٢٨٩.

(4) قيل اسمه جراح بن سنان الأسدي ـ لم يرد اسمه عند الطبري ولا ابن الأثير ولا عند ابن كثير.

(5) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٧ ـ ص١٩٩.

(6) القصر الأبيض ـ من قصور الحيرة ـ ذكر بالفتوح أنه مكان بالرقة، وأظنه من أبنية الرشيد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٥٤.

(7) منبج: ذكر أن أول من بناها كسرى لما غلب على الشام ـ والرشيد أول من أقر العواصم كما ذكرنا في العواصم وجعل مدينتها منبج وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي وكان عليها سور مبني بالحجارة ـ وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٠٦.

الوقت أخذ أهل العراق ينضمون إلى معاوية قبيلة قبيلة، حتى قلَّ أهل العراق مع قيس بن سعد، فأعلم الحسن بن علي بذلك، فجمع سادة أهل العراق، ثم قال: «يا أهل العراق! ما أصنع بجماعتكم معي وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية، أما وا لله ما هذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين، فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم، ثم دعاكم إلى قتال معاوية ثانية فتوانيتم، ثم صار إلى ما صار إليه من كرامة ا لله إياه، ثم إنكم بايعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذت بيعتكم وخرجت في وجهي هذا، وا لله يعلم ما نويت فيه، فكان منكم إلى ما كان، يا أهل العراق! فحسبي منكم لا تعزوني في ديني فإني مسلّم هذا الأمر إلى معاوية.»[1]. فقال له أخوه الحسين: يا أخي أعيذك با لله من هذا، فقال الحسن: وا لله لأفعلن ولأسلمن هذا الأمر إلى معاوية.

دعا الحسن بن علي، عبد ا لله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وهو ابن أخت معاوية، وأمره بالمسير إلى معاوية، وأمره أن يقول له: «إنك إن أمنت الناس على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونسائهم بايعتك وإن لم تؤمنهم لم أبايعك»، قدم عبد ا لله بن نوفل على معاوية وأبلغه رسالة الحسن، فرد معاوية: سل ما أحببت، فقال الحسن: إني مسلم إليك هذا الأمر على أن ولاية الأمر لي من بعدك، وفي كل سنة خمسة آلاف ألف درهم من بيت المال، وخراج دار أبجرد من أرض فارس[2] والناس آمنون كلهم بعضهم من بعض.

بعد أن وافق معاوية على ما ورد دعا بصحيفة بيضاء فختمها بخاتمه، وقال: خذ هذه الصحيفة إلى الحسن، وقل له: فليكتب فيها ما شاء على أن يشهد أصحابه على ذلك. عاد عبد ا لله ابن نوفل إلى الحسن، مع بعض من أشراف قريش فدخلوا على الحسن فقالوا: إن معاوية قد أجاب إلى ما أحببت، فاكتب الذي تحب، فقال الحسن: أما ولاية الأمر من بعده فما أنا براغب في ذلك.

ثم أمر الحسن فكتب: «هذا ما اصطلح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المؤمنين على أن يعمل فيهم بكتاب ا لله وسنة نبيه محمد

---

[1] ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ المجلد الثاني ـ ص٢٩١.

[2] فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح أول حدودها من جهة العراق أرجان، ومن جهة كرمان السيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة الهند مكران ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٢٦.

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة الخلفاء الصالحين، وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم.

وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء بما أعطى الله من نفسه، وعلى أنه لا ينبغي للحسن بن علي ولا لأحد من أهل بيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غائلة سراً وعلانية، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق، شهد على ذلك عبد الله بن نوفل بن الحارث، وعمر بن أبي سلمة وفلان وفلان»[1].

ثم رد الحسن بن علي هذا الكتاب إلى معاوية، فلما بلغ قيس بن سعد ما حدث من الصلح قال لأصحابه اختاروا الآن واحدةً من اثنتين: قتالاً مع غير إمام، أو بيعة لضلال، فقالوا: بل البيعة ثم انصرف قيس بن سعد في من بقي معه من أصحابه إلى الكوفة، والحسن بن علي بها.

أما معاوية فتوجه إلى الكوفة، فنزل بدار الإمارة، فأرسل إلى الحسن بن علي، فدعاه للبيعة فقال له الحسن: أبايعك على أنّ الناس كلهم آمنون، فوافق معاوية، ثم بايعه الحسن ورفض الحسين بيعته، ثم أرسل إلى قيس بن سعد فرفض أن يبايعه[2]، وقيل دعاه الحسن بن علي وأمره أن يبايعه، فبايعه، ثم رحل الحسن، ومن معه من أصحابه إلى المدينة، وعاد معاوية إلى الشام مع أصحابه.

بعث معاوية (سنة ٥٠هـ ـ ٦٧٠م)، إلى جعدة بنت الأشعث[3] بن قيس زوجة الحسن بن علي أن سمّي الحسن ولك مائة ألف درهم وأزوجك يزيد فسمته، فلما مات الحسن بعثت إليه لتنجز وعده، فبعث إليها المال، وقال: أما يزيد فإني أحب حياته.

---

(1) ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ المجلد الثاني ـ ص٢٩٣.

(2) ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ج٣ ـ ص٣٥١.

(3) ابن قتيبة ـ أبي محمد عبد الله بن مسلم ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ طبع مصر ١٩٩٢م ـ ص٢١٢.

الفصل الثاني

معاوية بعد الخلافة

الفصل الثاني

معاوية بعد الخلافة

ذكرنا أن الصلح الذي تم بين الحسن بن علي، ومعاوية كان قد تم في ربيع الآخر سنة (٤١ هـ - يوليه٦٦١م)، معنى هذا أن خلافة معاوية تبدأ من هذا التاريخ تحديداً. بعد أن استقر الأمر لمعاوية خرجت الخوارج، التي اعتزلت أيام الإمام علي بشهر زور[1] على معاوية يقودهم فروة ابن نوفل الأشجعي[2]، فتوجهوا إلى الكوفة[3] لمجاهدة معاوية، فاستعمل معاوية على الكوفة عبد الله ابن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة بن شعبة، وقال لمعاوية: «استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة، وعمراً على مصر فتكون أنت بين لجمي الأسد»[4]، فعزل عبد الله بن عمرو، واستعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة.

علم عمرو بن العاص بمكيدة المغيرة بن شعبة فدخل على معاوية فقال له: استعملت المغيرة على الكوفة، فقال له: نعم، فقال: أجعلته على الخراج، فقال: نعم، قال: تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال، استعمل على الخراج رجلاً يخافك ويهابك ويتقيك، فعزل المغيرة عن الخراج، واستعمله على الصلاة.

استلحاق زياد بن أبيه: لما صالح الحسن بن علي عليه السلام معاوية أول سنة إحدى

---

(1) شهر زور: كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان - ياقوت الحموي - المعجم - ج٣ - ص٣٧٥.

(2) **نايف معروف - الخوارج في العهد الأموي، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم - طبع بيروت ١٩٨٦م - ص١١٥ وما بعدها.**

(3) الكوفة: الحصن المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خد العذراء - وسميت الكوفة لاستدارتها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٩٠.

(4) الطبري - تاريخ الطبري - ج٥ - ص١٦٦.

وأربعين، وثب حمران بن أبان[1] على البصرة فأخذها، وغلب عليها، فبعث معاوية بشر بن أبي أرطأة على البصرة، وزعم أنه أمره بقتل بني زياد فأخذ بعض بني زياد فحبسهم وزياد يومئذ بفارس كان الإمام علي قد بعثه إلى أكراد خرجوا بها فظفر بهم زياد، وأقام بأصطخر[2]، فركب أبو بكرة إلى معاوية وهو بالكوفة، فكلمه بأمر زياد وبنيه، فكتب معاوية بالكف عنهم، وقيل: أخرج بشر بني زياد ينتظر بهم غروب الشمس ليقتلهم إذا وجبت، فأقبل أبو بكرة يسعى حتى أدرك بشراً، قبل أن يقتلهم، فدفع إليه كتاب معاوية فأطلقهم[3].

وقيل: «خطب بشر على منبر البصرة، فشتم علياً عليه السلام، ثم قال نشدت الله رجلاً عَلِم أنّي صادق إلاّ صدقني، أو كاذب إلاّ كذبني، قال: فقال أبو بكرة: اللهم إنا لا نعلمك إلا كاذباً، قال: فأمر به فخنق، قال: فقام أبو لؤلؤة الضبي فرما بنفسه عليه، فمنعه، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب، قال: وقيل لأبي بكرة، ما أردت إلى ما صنعت، قال: أيناشدنا بالله ثم لا نصدقه، قال: فأقام بشر بالبصرة ستة أشهر، ثم شخص لا نعلمه ولّى شرطته أحداً»[4].

وقيل: «بعث معاوية بشر بن أبي أرطأة إلى البصرة[5] في رجب سنة إحدى وأربعين، وزياد متحصن بفارس، فكتب معاوية إلى زياد: إن في يدك مالاً من أموال الله، وقد وليت ولايةً فأدّ ما عندك من المال، فكتب إليه زياد، إنه لم يبق عندي شيء من المال، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعت بعضه قوماً لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين[6] رحمة الله عليه.

فكتب إليه معاوية: أن أقبل إلّي ننظر فيما وليت، وجرى على يديك، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك، وإلا رجعت إلى مأمنك، فلم يأته زياد، فأخذ بشر، بني زياد الأكابر منهم، فحبسهم (عبد الرحمن، وعبيد الله، وعباداً)، وكتب إلى زياد: لتقدمن على أمير المؤمنين أو لأقتلن بنيك، فكتب إليه زياد: لستُ بارحاً من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك، فإن قتلت من في

---

[1] البصرة: بالعراق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤٣٠.

[2] أصطخر: بلد بفارس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢١١.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

[4] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٦٨.

[5] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤١٤.

[6] الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

يديك من ولدي فالمصير إلى الله سبحانه، ومن ورائنا وورائكم الحساب، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]، فهمّ بقتلهم، فأتاه أبو بكرة فقال: أخذت ولدي وولد أخي غلمان بلا ذنب، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل.

قال: إن على أخيك أموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها، قال: ما عليه شيء، فاكفف عن بني أخي حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليتهم، فأجّله أياماً، وقال له: إن أتيتني بكتاب معاوية بتخليتهم وإلا قتلتهم أو يقبل زياد إلى أمير المؤمنين، قال: فأتى أبو بكرة معاوية فكلمه في زياد وبنيه، وكتب معاوية إلى بشر بالكف عنهم، وتخلية سبيلهم، فخلاهم».

وقيل: «خرج أبو بكرة إلى معاوية بالكوفة، فقال له معاوية يا أبا بكرة، أزائراً جئت أم دعتك إلينا حاجة؟ قال: لا أقوال باطلاً، ما أتيت إلا في حاجة، قال: تشفّع يا أبا بكرة ونرى لك بذلك فضلاً، وأنت لذلك أهل، فما هو؟ قال: تؤمن أخي زياد، وتكتب إلى بشر بتخلية ولده وبترك التعرض لهم، فقال: أما بنو زياد فنكتب لك فيهم ما سألت، وأما زياد ففي يده مال المسلمين فإذا أدّاه فلا سبيل لنا عليه.

قال: يا أمير المؤمنين، إن يكن عنده شيء فليس يحبسه عنك إن شاء الله، فكتب معاوية إلى بشر ألا يتعرض لأحد من ولد زياد، فقال معاوية لأبي بكرة: أتعهد إلينا عهداً يا أبا بكرة؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين «أن تنظر لنفسك ورعيتك، وتعمل صالحاً، فإنك قد تقلدت عظيماً خلافة الله في خلقه، فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، فأوشك أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هي محاسبة وتوقيف، فلا تؤثرون على رضا الله عز وجل شيئاً».

وقيل: «كتب بشر إلى زياد: لئن لم تقدم لأصلبن بنيك، فكتب إليه: إن تفعل فأهل ذلك أنت إنما بعث بك ابن آكلة الأكباد[2]، فركب أبو بكرة إلى معاوية، فقال: يا معاوية، إن الناس لم يعطوك بيعتهم على قتل الأطفال، قال: وما ذاك يا أبا بكرة؟ قال: بشر يريد قتل أولاد زياد، فكتب معاوية

---

[1] سورة الشعراء ـ الآية ٢٢٧.

[2] المقصود فيه معاوية بن أبي سفيان وآكلة الأكباد هي أمه هند التي أكلت كبد حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء.

إلى بشر: أن خلِّ من بيدك من ولد زياد».

وقيل: «كتب معاوية حين قتل علي عليه السلام إلى زياد يتهدده، فقام زياد خطيباً فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب، كتب إلّي يتهددني وبيني وبينه ابنا عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم، - يعني ابن عباس، والحسن بن علي - في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم، لا يثنون، لئن خلص إلي الأمر ليجدني أحمزَ ضراباً بالسيف، فلم يزل زياد بفارس والياً حتى صالح الحسن عليه السلام معاوية، وقدم معاوية الكوفة، فتحصن زياد في القلعة التي يقال لها قلعة زياد»[1].

وقيل: كان عبد الرحمن بن أبي بكرة يلي ما كان لزياد بالبصرة، فبلغ لمعاوية أن لزياد أموالاً عند عبد الرحمن، فبعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة لينظر في أموال زياد، فكتب إلى معاوية: إني لم أصب في يد عبد الرحمن شيئاً، يحل لي أخذه، فكتب معاوية إلى المغيرة أن عذبه، فكتب إليه: إني عذبته فلم أصب عنده شيئاً.

ثم إن المغيرة بن شعبة استأذن معاوية في القدوم على زياد، فوافقه، فلما دخل عليه قال له: أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه، فقال زياد: أرى في ذلك رأياً، وبعد جدل طويل ومراسلات كثيرة قرّر زياد التوجه إلى معاوية، فعفا عنه، وسأل زياد معاوية السماح له بالعودة إلى الكوفة فوافقه، وكان المغيرة بن شعبة أميراً عليها فكان يكرمه ويعظمه. بعد ذلك وفي سنة (٤٣ هـ ـ ٦٦٣م)[2] استلحق معاوية نسب زياد (ابن سمية) بأبيه أبي سفيان[3].

ولى معاوية أواخر سنة (٤١ هـ ـ ٦٦١م)، عبد الله بن عامر البصرة[4] وحرب سجستان[5]، وخراسان[6] كما ولى مروان بن الحكم سنة (٤٢ هـ ـ ٦٦٢م) المدينة، وبهذه السنة أيضاً تحرك

---

(1) الطبري ـ تاريخ الطبري ـ ج٥ ـ ص١٦٨ وما بعدها.

(2) وقيل استلحق معاوية زياد بن أبيه سنة ٤٣ هـ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٢٩.

(3) ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ج٢ ـ ص٩٩.

(4) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٢٣.

(5) سجستان: اسم للناحية واسم مدينتها زرنج ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٩٠.

(6) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٥٠.

الخوارج الذين انحازوا عمن قتل منهم بالنهروان[1]، ومن كان ارتثّ من جرحاهم بالنهروان يقودهم حيان بن ظبيان السلامي[2]. وبالسنة نفسها سار بشر بن أبي أرطأة العامري إلى المدينة ومكة واليمن، كما يذكر الطبري[3] فقتل من قتل في مسيره هذا من المسلمين وقد اختلف المؤرخون بذلك.

قتل عبد الرحمن بن خالد: يذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[4] كان قَد عَظمَ أمره وشأنه بالشام، ومال إليه أهلها حتى خافه معاوية، وخشي على نفسِهِ منه لميل الناس إليه، فأمر ابن أثال[5] أن يحتال في قتلِهِ وإذا فَعَلَ ذلك ولاّه جباية خراج حمص وأن يضع عنه خراجه ما عاش، فدس إليه ابن أثال شربةً مسمومة مع بعض مماليكه، فمات بحمص[6] فوفى معاوية لابن أثال ما وعَدَه.

محاولة معاوية نقل منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: أمر معاوية بن أبي سفيان سنة (٥٠ هـ ـ ٦٧٠م)، بمنبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحمل إلى الشام، فعندما حرّك كما يذكر الطبري كسفت الشمس، فقال معاوية: «إني رأيتُ أنّ منبرَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعصاه لا يُتركَان بالمدينة، وهم قَتَلة أميرِ المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلمّا قدم طلب العصا وهي عند سعد القَرظَ، فجاءه أبو هريرة وجابرُ ابن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين؛ نذكّرك الله عزّ وجلّ أن تفعلَ هذا، فإنّ هذا لا يصلح، تُخرِج منبرَ رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من موضع وضعه، وتُخرِج عصاه إلى الشأم؛ فانقل المسجد؛ فأقصر وزاد فيه ستّ درجات، فهو اليوم ثماني درجات، واعتذر إلى الناس مما صنع»[7].

معاوية وتوحيد مصر وأفريقية: عزل معاوية عن مصر معاوية بن حديج سنة خمسين

---

[1] النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٢٥.

[2] نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ـ ص١١٧.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٧٦.

[4] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٣٢.

[5] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٥٣.

[6] حمص ـ بين دمشق وحلب في نصف الطريق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٠٢.

[7] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٢٣٩.

للهجرة وولى عوضه مسلمة بن مخلد، وأضاف إليه أفريقية[1]. علماً أن معاوية كان قد بعث — قبل أن يولي مسلمة ـ عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية. فافتتحها واختط قيروانها[2]، فكان أول الناس اختطها وأقطعها للناس مساكن ودوراً وبنى مسجدها، فعزل معاوية بن حديج كما ذكرنا، وولى مصر وأفريقية كلها مسلمة فولى مسلمة، أبا المهاجر أفريقية[3]، فعزل عقبة بن أبي نافع عنها.

مقتل حجر بن عدي[4]: عندما ولى معاوية بن أبي سفيان الكوفة للمغيرة بن شعبة في جمادى الأولى سنة (٤١ هـ ـ سبتمبر ٦٦١م)، دعاه معاوية فقال له: «أمّا بعد فإن لـذي الحِلْم قبل اليومِ ما تُقَرع العَصَا، وقال المتلمسّ:

لِـذِي الحِلْم قبلَ اليـوم ما تُقْرَعُ العصا   وما عُلِّـمَ الإنسـانُ إلاّ ليعْـلَم

وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياءَ كثيرة، فأنا تاركُها اعتماداً على بَصرك بما يرضيني ويُسعِد سلطاني، ويُصلَحُ به رعيّتي، ولست تاركاً إيصاءك بخَصْلة: لا تتحمَّ عن شتمِ عليّ وذمّه، والترحّم على عثمانَ والاستغفار له، والعيب على أصحاب عليّ، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم؛ وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه، والإدناء لهم، والاستماع منهم. فقال المغيرة: قد جَرّبْتُ وجُرّبتُ، وعملتُ قَبْلك لغيرك، فلم يُذمَمْ بي دَفْع ولا رفع ولا وَضْع، فستبلو فتُحمِد أو تُذمِّ. قال: بل نحمد إن شاء الله»[5].

أقام المغيرة على الكوفة سنتين وهو من أحسن الناس سيرة وأشد حباً للعاقبة، غير أنه لا يدع ذم الإمام علي والعيب لقتلة عثمان، واللعن لهم والدعاء لعثمان، فكان حجر بن عدي الكندي عندما يسمع ذلك يقول: بل إياكم فذمم الله ولعن، ثم قام فقال: إن الله عزّ وجل يقول: ﴿كُونُوا

---

[1] أفريقية: اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٢٨.

[2] حسين مؤنس ـ تاريخ المغرب وحضارته ـ من قبيل الفتح إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ـ طبع بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٢ ـ ج ـ ص٨٨، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٦٥.

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٦٦.

[4] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٥١، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٢٥٣، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٧٢.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٥١هـ ـ ج٥ ـ ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[1]، والمغيرة يؤنبه على قوله، ثم يكف عنه ويصفح.

فلما كانت آخر أيام المغيرة بولاية الكوفة قام فقال في علي وعثمان كما كان يقول حسب أوامر معاوية، فقام حجر بن عدي فصاح صيحة قوية بالمغيرة، وقال له: «إنك لا تدري بمن تولع من هرمك أيها الإنسان، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنك قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، و لم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين، وتقريظ المجرمين». ووافق مع حجر أكثر من ثلثي الناس يصدقون قوله ثم نزل المغيرة عن المنبر فدخل عليه قوم فقالوا له: علام تترك حجراً يقول ما قاله، ويجترئ عليك، فرد المغيرة موضحاً سياسته حيال هذه الأحداث:

«إنه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسَبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أوّل وهلة فيقتله شرّ قتلة؛ إنه قد اقترب أجلي، وضَعُف عملي، ولا أحبّ أنْ أبتدئ أهلَ هذا المِصر بقتل خيارهم، وسَفْكِ دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعزّ في الدنيا معاوية، ويذلّ يوم القيامة المغيرة؛ ولكني قابلٌ من محسنهم، وعافٍ عن مسيئهم، وحامدٌ حليمَهم، وواعظٌ سفيهَهم، حتى يفرّق بيني وبينهم الموت، وسيذكرونني لو قد جرّبوا العمّالَ بعدي»[2].

لكن بعد أن مات المغيرة. جمعت الكوفة والبصرة، وأعمالها لزياد بن أبيه كما ذكرنا، فأظهر زياد ما كان يظهره المغيرة مما ورد، وكان حجر يرد على ذلك، وكان حجر تجتمع إليه شيعة الإمام علي ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه، كما يذكر الطبري، ثم هاجموا خليفة زياد على الكوفة عمرو بن حريث، فخرج الأخير إلى زياد بالبصرة فأعلمه بما حدث.

وقيل إن زياد بن أبيه كان يخطب يوم الجمعة[3]، فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر ابن عدي: الصلاة، فلم يرد عليه، ومضى في خطبته، فكرر حجر الصلاة فلم يرد عليه، ثم كررها مرةً ثالثة فلم يرد عليه، فتوجه حجر إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس، فلما فرغ كتب إلى معاوية يعلمه بأخبار حجر بن عدي.

كتب معاوية إلى زياد بن أبيه أن شده بالحديد ثم احمله إليّ، فشد حجراً ثم حمله إلى معاوية

---

(1) سورة النساء - الآية ١٣٥.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٥٥.

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٤٧٣، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٥٦.

فلما دخل عليه سلم عليه فأمر معاوية بضرب عنقه، عند ذلك قال حجر: دعوني حتى أصلي ركعتين[1] ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة، ثم قدم فضربت عنقه.

وقيل: إن زياداً أمر قائد شرطته شدّاد بن الهيم الهلالي أن يذهب ويأتيه بحجر، فتوجه إليه فمنعه قومه، فبعثه مرةً أخرى، ومعه بعض رجاله فمنعوه مرةً أخرى، ثم ان زياداً جمع أشراف أهل الكوفة فقال لهم: يا أهل الكوفة إن أبدانكم معي، وأهواءكم مع حجر، وقال لهم: وا لله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم، فردوا عليه: معاذ ا لله أن يكون لنا هذا وما لنا إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، فأمرهم زياد أن يفرقوا الناس عن حجر ففعلوا، عند ذلك أمر زياد قائد شرطته أن يتوجه إلى حجر ويأتيه به، وكان الأمويون قد اعتادوا عندما يريدون أحد الخارجين على سياستهم التأثير على سادة قومه وتهديدهم.

عند ذلك توجه حجر بن عدي إلى قومه في كندة[2]، فحاولوا منعه إلا أنهم لم يقدروا على ذلك فسار في بعض الطرق، ودخل دار رجل من بني حرب، وأتباع زياد يطلبونه، فخرج إلى دار عبد ا لله بن الحارث، أخي الأشتر فدخلها، ثم أعجزهم وهو يتوارى عنهم.

بعد ذلك دعا زياد بن أبيه، محمد بن الأشعث بن قيس، وأمره بإحضار حجر وهدده، ثم أمهله ثلاثة أيام لإحضاره، عندما علم حجر بن عدي بذلك أرسل إلى محمد بن الأشعث يقول: إنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد، فلا يهولنك شيء من أمره، فإني خارج إليك، اجمع نفراً من قومك، ثم ادخل عليه فاسأله أن يؤمنني حتى يبعث بي إلى معاوية فيرى في رأيه.

جمع محمد بن الأشعث وجوه الكوفة، وقدم بهم على زياد فكلموه، وطلبوا منه أن يؤمن حجر بن عدي، وأن يبعث به إلى معاوية، فوافق فبعثوا إليه يعلمونه بذلك، فأقبل فدخل على زياد فأرسله إلى السجن وهو يؤكد أنه ما زال على بيعته، فبقي في السجن عشرة أيام، خلال هذا الوقت كان زياد بن أبيه يجمع أصحاب حجر. ثم إن زياداً أخذ شهادة سبعين رجلاً من أشراف أهل الكوفة على أن حجر بن عدي كان قد خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة معاوية، ودعا

---

(1) ابن كثير البداية والنهاية - ج٨ - ص٥٤.

(2) كنده: مخلاف كنده باليمن اسم قبيلة - إسماعيل بن علي الأكوع - البلدان اليمانية - ص٢٤٢.

إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وخلع معاوية وغير ذلك.

بعد ذلك أرسلهم زياد إلى معاوية[1] وكتب إليه يخبره بأمورهم، فلما نزلوا بمرج عذراء[2] حبسوا بها، فلما وصل الكتاب إلى معاوية، وقرأه على من حضره، سأل الحضور عن رأيهم، فقال يزيد بن أسد البجلي: أرى أن تفرقهم في قرى الشام فيكفيهم طواغيتها. كما وصل إلى معاوية كتاب من شريح بن هاني يذكر له فيه أن حجر بن عدي كان ممن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويديم الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. وبعد أخذ ورد أمر معاوية بتخلية ستة، وقتل ثمانية، وقيل إن رسول معاوية إليهم كان قد قال لهم: أن أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، فرفضوا فأمر بقبورهم فحفرت، وأوتيت أكفانهم، وقاموا الليل كله يصلون.

وفي الصباح قال أصحاب معاوية لهم ما قولكم في عثمان، فقالوا: هو أول من جار في الحكم وعمل بغير الحق، عند ذلك أخذ كل رجل من أصحاب معاوية رجلاً من أصحاب حجر بن عدي ليقتله. أما حجر بن عدي فطلب أن يصلي ركعتين، ثم قتل وقتلوا ستة، وأرسل معاوية عبد الرحمن العنزي وهو أحد أصحاب حجر إلى زياد بن أبيه، وأمره أن يعاقبه عقوبةً شديدة وأن يقتله شر قتلة، فلما قدم على زياد أرسله إلى قس الناطف فدفن هناك حياً، فأما الذين قتلوا فسبعة[3] ونجا منهم سبعة[4].

وقيل: إن السيدة عائشة بعثت رسولاً إلى معاوية في حجر وأصحابه، فقدم على معاوية وقد قتلهم ولما اجتمعت به عندما حج، قالت له: يا معاوية أأمنت أن أخبأ لك من يقتلك، قال: بيت

---

[1] حجر بن عدي ـ الأرقم بن عبد الله ـ شريك بن شداد ـ صيفي بن فسيل ـ قبيضة بن ضبيعة ـ كريم بن عفيف ـ عاصم بن عوف ـ ورقاء بن سُمَيٍّ ـ كدام بن حيان ـ عبد الرحمن بن حسان ـ محرز بن شهاب ـ عبد الله بن حوية السعدي. ثم أرسل زياد رجلين هما: عتبة بن الأخنس ـ سعيد بن نمران.

[2] عذراء: قرية بغوطة دمشق وإليها ينسب مرج ـ بها قتل حجر بن عدي الكندي وقبره معروف بها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٩١.

[3] الذين قتلوهم: حجر بن عدي الكندي ـ شريك بن حداد ـ صيفي بن فسيل ـ قبيضة بن ضبيعة ـ محرز بن شهاب ـ كدام بن حيان ـ عبد الرحمن بن حسان.

[4] الذين نجوا هم: كريم بن عفيف ـ عبد الله بن حوية ـ عاصم بن عوف ـ ورقاء بن سُمَيٍّ البجلي ـ الأرقم بن عبد الله الكندي ـ عتبة ابن الأخنس ـ سعيد بن نمران.

الأمن دخلت؛ قالت: يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟ قال: لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم من شهد عليهم، قال الطبري: «أربع خصال كنّ في معاوية؛ لو لم يكن فيه منهنّ إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير مَشُورة منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذوو الفضيلة؛ واستخلافه ابنه بعده سكّيراً خِمّيراً، يلبس الحرير ويَضرب بالطنابير؛ وادّعاؤه زياداً؛ وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: الولد للفِراش، وللعاهِر الحَجَرُ» وقتله حُجْرا، ويْلاً له من حُجْرٍ! مرّتين»[1].

معاوية يولي أهل بيته: عزل معاوية سعيد بن العاص سنة (٥٤ هـ - ٦٧٣م) عن المدينة، وولى عوضه مروان بن الحكم، وبالسنة نفسها ولى معاوية عبيد الله بن زياد خراسان، وعزل عبد الله بن عمرو بن غيلان سنة (٥٥ هـ - ٦٧٤م) عن البصرة ووليها عبيد الله بن زياد، فولى الأخير شرطته عبد الله بن حصن، كما عزل معاوية خالد بن أسيد عن الكوفة - و ولاها الضحاك بن قيس الفهري.

دعا معاوية الناس سنة (٥٦ هـ - ٦٧٥م) إلى بيعة ابنه يزيد من بعده، وجعله ولي العهد[2]، وفي هذه السنة «سأل سعيد بن عثمان معاوية أن يستعمله على خراسان، فقال: إن بها عبيد الله بن زياد، فقال: أما لقد اصطنعك أبي ورقّاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا يسامى فما شكرت بلاءه ولا جازيته، بآلائه، وقدمت عليّ هذا - يعني يزيد بن معاوية - وبايعت له، والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً».

فقال معاوية[3]: أما بلاء أبيك فقد يحقّ عليّ الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى تكشفت الأمور، ولست بلائم لنفسي في التشمير، وأما فضل أبيك على أبيه فأبوك والله خير منّي، وأقرب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وأما فضل أمك على أمه فما ينكر امرأةً من قريش خيراً من امرأة من كلب، وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة[4] دُحِسَتْ ليزيد رجالاً

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٥١ هـ - ج٥ - ص٢٧٩.

[2] سنتحدث عن ذلك في بحث مستقل.

[3] الطبري - تاريخ الطبري - ج٥ - ص٣٠٥.

[4] الغوطة: الكورة التي منها دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢١٩.

مثلك، فولّى معاوية سعيد بن عثمان خراج خراسان وحربها.

موت معاوية: مات معاوية بن أبي سفيان بدمشق سنة ستين للهجرة، واختلف في وقت مماته، وفي مدّة خلافتِهِ، فقيل: كانت مدّة خلافتِهِ تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. وقيل بايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان في ذي القعدة سنة (٣٧هـ ـ ابريل ٦٥٨م) وذلك حين تفرّق الحكمان، وكانوا قد بايعوه على الطلب بدم الخليفة عثمان، وبعد الصلح مع الحسن بن علي بايع الناس معاوية، وقيل بويع لمعاوية بالخلافة في جمادى الأولى سنة (٤١هـ ـ سبتمبر ٦٦١م) فولي تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر إلا أياماً، ثم مات لهلال رجب سنة (٦٠هـ ـ ابريل ٦٨٠م).

واختلف أيضاً في مدّة عمره[1] فقيل مات وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل مات ابن ثلاث وسبعين، وقيل ابن ثمان وسبعين سنة، وقيل ابن خمس وثمانين، وذكر ابن عساكر أن معاوية أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، وإسلامه كان عام فتح مكة (ثمانية للهجرة) فيكون عمره على ما ورد سبعين سنة فقط، وحين ثقل معاوية في مرضه وتحدث الناس أنه الموت قال لأهله.

«احشُوا عيني إثِمداً، وأوسِعوا رأسي دُهناً، ففعلوا، وبرّقوا وجهَه بالدّهن، ثم مُهِّدَ له، فجلس وقال: أسندوني، ثم قال: ائذنوا للناس فليسلّموا قياماً، ولاَ يجلس أحدٌ، فجعل الرجل يدخل فيسلّم قائماً فيراه مكتحلاً مُدّهناً فيقول: يقول الناس: هو لمآبه، وهو أصحّ الناس، فلما خرجوا من عنده قال معاوية:

وتَجَلُّدِي للشامِتينَ أُريهِمُ   أَنّي لِرَيبِ الدهرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وإذا المَنيَّةُ أَنشَبَتْ أَظْفارَها   أَلفَيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنفعُ».

وقال في مرضه الذي مات فيه: «إنّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كساني قميصاً فرفعتُه. وقلّم أظفاره يوماً، فأخذتُ قُلامتَه فجعلتُها في قارورة، فإذا متّ فألبسوني ذلك القميصَ، وقطّعوا تلك القُلامةَ، واسحَقوها وذُرُّوها في عيني، وفي فيّ، فعسى الله أن يرحمني ببركتها! ثم قال متمثلاً بشِعر الأشهب بنِ رُمَيلة النّهشلي يمدح به القُباع:

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٢٥؛ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٧، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص١٤٤.

إذا مُتّ ماتَ الجُودُ وانقطعَ النّدَى ... من الناس إلاّ من قليل مصَرَّدِ
ورُدَّتْ أكُفُّ السائلينَ وأمْسَكوا ... من الدّينِ والدنيا بخِلفٍ مُجدَّدِ

فقالت إحدى بناته ـ أو غيرها: كلاّ يا أمير المؤمنين، بل يدفع الله عنك؛ فقال متمثلاً:

وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفعُ

ثم أغمِيَ عليه، ثم أفاق، فقال: لمن حضره من أهله: اتقوا الله عزّ وجلّ، فإنّ الله سبحانه يقي من اتّقاه، ولا واقيَ لمن لا يتقي الله؛ ثم قضى»[1].

عندما مات معاوية، صعد الضحاك بن قيس المنبر وأكفان معاوية في يديه، فذكر معاوية وأكد موته، وحدد للناس موعد دفنه، وكان الضحاك قد أرسل إلى يزيد ابنه في مرضه، فقال يزيد ابن معاوية[2]:

جاءَ البريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بهِ ... فأَوْجَسَ القلبُ من قرطاسهِ فَزَعَا
قلنا: لكَ الويلُ ماذا في كتابكُمُ؟ ... قالوا: الخليفةُ أمْسَى مُثْبَتاً وجعا
فمادتِ الأرضُ أو كادَتْ تَميدُ بنا ... كأنَّ أغْبَرَ من أركانها انقطعا
من لا تَزَلْ نفسُهُ تُوفي على شَرَفٍ ... تُوشكْ مقاليدُ تلكَ النفسِ أن تقعا
لمّا انتهيْنا وبابُ الدار مُنْصَفِقٌ ... وصوتُ رَملةَ ريعَ القلبُ فانصَدَعا

إذاً مات معاوية بن أبي سفيان ويزيد بحوارين[3] فأقبل وقد دفن؟ وقال ابن عساكر[4]: كان عند معاوية قميص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وإزاره ورداؤه وشعره، فأوصاهم عند موته فقال: كفنوني في قميصه، وأدرجوني في ردائه، وآزروني في إزاره، واحشوا منخري وشدقي بشعره، وخلوا بيني وبين رحمة أرحم الراحمين.

بعض أفعال معاوية: لما بويع لمعاوية بالخلافة جعل على شرطته قيس بن حمزة

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٧، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٤ ـ ص٨، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٢٧.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٢٨، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٩، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص١٤٦.

[3] حوارين: من قرى حلب، وحوراين: حصن من ناحية حمص: ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣١٥.

[4] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص٢٢٩.

الهمذاني[1]، ثم عزله واستعمل زامل بن عمرو العذري، ويقال السكسكي. وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور[2] الرومي على ديوان الخراج، وكان يكتب له عبيد الله بن أوس الغساني على ديوان الرسائل، كما كتب له كما يذكر الجهشياري[3] عبد الرحمن بن دراج، وكان أخوه عاملاً له على خراج العراق، وكان عمرو بن سعيد بن العاص على ديوان الجند، كما كتب له سليمان بن سعيد مولى الحسين، وكتب له أيضاً على بعض الدواوين عبيد الله بن نصر بن الحجاج السلمي، وذكر أن حبيب بن عبد الملك بن مروان كان قد كتب له على ديوان المدينة، وكتب له سليمان المشجعي على فلسطين، وكتب له على ديوان خراج حمص ابن أثال. وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار، وقيل: هو أول من اتخذ الحرس، وكان على حجابه سعد مولاه، وعلى القضاء فضالة بن عبيد الأنصاري، فلما مات الأخير استقضى أبا ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني[4].

وكان أول من اتخذ ديواناً للخاتم[5] وسبب اتخاذه للخاتم أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في مؤنته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه وهو على العراق، فلما أخذ عمرو الكتاب زوره وصير المائة مائتين، فنفذ زياد بن أبيه أمر معاوية، فلما وقع زياد حسابه أنكره معاوية، وعلم بما فعله عمرو بن الزبير فأمره بردها وحبسه، فأدّاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، عند ذلك أمر معاوية بإحداث ديوان الخاتم وأسند رئاسته إلى عبد الله بن محصن الحميري، وقيل ولاه عبد الله ابن أوس الغساني، وكان نقش خاتمه (لا قوة إلا بالله) وقيل (لا حول ولا قوة إلا بالله).

وقيل إن معاوية هو الذي استحدث ديوان الرسائل والأصح أنه أول ديوان أنشيء في الإسلام. ومهمة صاحبه الإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية أو الموجهة من

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٣٠.

(2) المقريزي ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ـ ج١ ـ ص١٥٩.

(3) الجهشياري ـ ابي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ـ تقديم: حسن الزين ـ طبع بيروت ١٩٨٨ ـ ص٢٢-٢٣.

(4) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٣٠.

(5) ابن الطقطقي ـ الفخري ـ الآداب السلطانية ـ طبع باريس ١٨٩٥ ـ ص ، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص١٨٤، ابن الأثير ـ الكامل ـ ج٤ ـ ص١١، السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص١٨٧.

الخليفة إلى عماله، وكان يختار صاحبه من الأشراف الموثوقين، ثم تعددت مهام هذا الديوان وكثر موظفوه لأهميته[1] وذكر أيضاً أن معاوية هو الذي استحدث ديوان البريد[2]. وأرى أنه كان قبل ذلك بكثير أي أنه وجد منذ عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم.

ومعاوية هو أول من خطب جالساً[3] يوم الجمعة وذلك حين كثر شحمه وعظم بطنه، وهو أول من جلس على المنبر حيث استأذن الناس في القعود فأذنوا له، وهو أول من أذن وأقام يوم الفطر والنحر، ولم يكن قبل ذلك أذان ولا إقامة، وهو أول من أخذ الزكاة من الأعطية، وهو أول من بوب، وأول من قضى بأن المسلم يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم، وكانت دية المعاهد كدية المسلم، فكان معاوية أول من قصرها إلى نصف الدية، وأخذ النصف الآخر لنفسه[4]. ومعاوية هو الذي ضرب البعث (الجيش) أرباعاً، وهو أول من جعل الأرباع بالشام[5].

وهو أول من وضع شرف العطاء فصيرها عشرين ألفاً، وهو أول من قتل صبراً، وهو أول من جعل وليّ العهد خليفةً من بعده، وأول من اتخذ المقاصير بالجوامع، وأمر بهدايا النيروز والمرجان، وأول من أقام على رأسه حرساً، وأول من قيدت بين يديه الجنائب، وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر في عهده خمس عشرة، وهو أوّل الملوك، وآخر الخلفاء[6].

ومن الأحداث التي يذكرها المؤرخون، والتي تظهر لنا سياسة معاوية وحنكته وكيفيّة تعامله مع الولاة وغيرهم من ذلك: قال البلاذري[7]: «كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: أظهر شتم علي وتنقّصه، فكتب إليه ما أحب إليك يا أمير المؤمنين أن كل ما عتبت تنقصّت، وكلما غضبت ضربت، ليس بينك، وبين ذلك حاجز من حلمك، ولا تجاوز بعفوك»، معنى هذا أن معاوية كان ينقصه الحلم.

---

(1) عبد المنعم ماجد - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى - طبع القاهرة - ٣٦.

(2) ابن طباطبا - ص١٠٦، السيوطي - تاريخ الخلفاء - ١٨٧.

(3) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٣٦.

(4) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٨ - ص١٤٨، ابن عبد البرّ القرطبي - الاستيعاب - ج٣ - ص٤٧٣.

(5) ابن شداد - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - تحقيق يحيى زكريا عبارة - طبع سوريا ١٩٩١ - الجزء الأول - القسم الثاني - ص٢٠٢.

(6) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٢٧٦.

(7) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص٣٠.

وصية السيدة عائشة[1] لمعاوية: وقيل كتبت السيّدة عائشة زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى معاوية: اتّق الله فإنك إذا اتّقيته كفاك الناس، وإذا اتّقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً.

الرشوة في عهد معاوية: في عهده قدم الأحنف بن قيس والمنذر بن الجارود الشام، فرشا المنذر حاجب معاوية بأربعة آلاف درهم على أن يدخله قبل الأحنف، فدخل المنذر قبل الأحنف، أي أن الجهاز الإداري في عهده كان قائماً على الرشوة والفساد اعتباراً من القصر أي من رأس السلطة إلى أسفل السلّم الإداري.

تعامل معاوية مع الولاة: كتب معاوية إلى عمرو بن العاص والمُغيرة بن شُعْبة في القدوم عليه، فقدم عمرو من مصر والمغيرة من الكوفة، فقال عمرو للمغيرة بن شعبة: ما جَمَعَنا إلاّ ليعزلنا، فإذا دخلتَ عليه فأشكُ الضعْف واستأذنْه في إتيان المدينة أو الطائف، فإني سأسأله إتيان مكّة أو المدينة، فسيقع في قلبه أنّا إنّما نريد إفساد الناس عليه، ففعل المغيرة ذلك، ثم دخل عمرو فسأله أن يأذن له في إتيان مكّة أو المدينة فقال: قد توطأتما على أمرٍ، وإنّكما لتريدان شرّاً فارجعا إلى عملكما[2]. يؤكد هذا النّص أن معاوية لم يكن بأدهى من عمرو بن العاص، والمغيرة على العكس.

وكان الخلفاء الأمويون يرغبون في الرجل القوي القادر على قمع الفتن، وضبط الأموال ولنا من زياد بن أبيه والحجاج أكبر مثال، وقد استعمل الخلفاء الأمويون أبناءهم وأقرباءهم[2] على البلاد لأن وجود هؤلاء كان مضموناً لأن الأمويين كانوا ينظرون للدولة بأنها إرث لهم، وكان الولاة في العهد الأموي يفتتحون عملهم بخطبة يلقونها في المسجد تلخص طريقتهم في السياسة والإدارة ومعاملة الرعية ومن أشهرهم في هذا الميدان أيضاً: زياد بن أبيه والحجاج، أما عن راتب الأمراء في العصر الأموي فقد وصل إلى ثلاثة آلاف دينار في الشهر[3]، كما كانوا يأمرون بالإنفاق على بيت المال في إطعام الناس ويمنحون الهبات لمن يريدون، وقد يستغل بعضهم منصب الإدارة في جمع المال

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص٣٠.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٥٠.

[3] منير العجلاني ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم ـ طبع مطبعة النضال بدمشق بلا تاريخ ـ ص٢٣.

من ذلك عبد الرحمن بن زياد أمير خراسان سنة (٥٨ هـ ـ ٦٧٧م)، وكان الأمراء يقتلون الناس على الهبة ويأخذون البريء بجريرة المذنب.

معاوية والقضاء: ظل القضاء في عهد معاوية قريباً مما كان عليه سابقاً حيث كان القضاة يتم اختيارهم على يد الخليفة لكن ليس ذلك قاعدة فالولاة في بعض الحالات كانوا يختارون القضاة لكن بتفويض من الخليفة والقضاء في العصر الأموي كان قسمين[1]، الأول: شرعي يستمد أحكامه من مصادر الشريعة، والثاني: مدني وكثيراً ما كان القاضي الشرعي يجمع السلطتين معاً.

كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة في قاعدة ملكه، فضلاً عن قضائه في الأمصار، وسار بقية الخلفاء على نهجه من بعده، وكان القضاء شفهياً حتى عهد معاوية، حيث اختصم إلى قاضي مصر سليم بن عتر في ميراث، فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم، وكتب كتاباً بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند فكان أول تسجيل للقضاء[2]. تعصب الأمويون لأقربائهم وآثروهم بالكثير من المناصب، وكان لهم حقوق وامتيازات كمنع القضاة من محاكمتهم أو منع الولاة من إقامة الحد عليهم[3].

عمر بن الخطاب ومعاوية: كان الخليفة عمر بن الخطاب قد رفع سهم المؤلفة قلوبهم[4] ومن المعلوم أن معاوية وأهل بيته كانوا في مقدمتهم، وفي هذا الإجراء خدمة كبيرة لمعاوية لأن ذلك جعل الناس ينسون موقف بني أمية من الإسلام وكيفية الدخول فيه. وقيل: خرج عمر بن الخطاب إلى الشآم، فرأى معاوية في موكب يتلقّاه، وراح إليه في موكِب، فقال له عمر: «يا معاوية، تَروحُ في موكب وتغدو في مثِلِه؛ وبلغني أنك تُصبِح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إنّ العدوّ بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردتُ يا أمير المؤمنين أن يَروْا للإسلام عزّاً؛ فقال له عمر: إنّ هذا لكيدُ رجل لبيب، أو خُدْعَةُ رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مُرْني بما شئتَ أصِرْ إليه؛ قال: ويْحك! ما ناظرتُك في أمر أعِيب عليك فيه إلا تركتَني ما أدري

---

[1] الصولي ـ أبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ـ أدب الكتاب ـ تحقيق: أحمد حسن لبج ـ طبع بيروت ـ ١٩٩٤ ـ ص١٩٢.

[2] مصطفى الرافعي ـ حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهية ـ طبع بيروت ١٩٦٨ ـ ص١٤٩.

[3] منير العجلاني ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم ـ ص٥٨.

[4] نوري جعفر ـ فلسفة الحكم عند الإمام علي ـ طبع القاهرة ١٩٧٨م ـ ص١٤٨-١٤٩.

آمرك أم أنهاك!"[1]. وكان الخليفة عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية بن أبي سفيان قال: هذا كسرى العرب"[2].

بعض أقوال معاوية: استعمل معاوية بن أبي سفيان النعمان بن بشير على الكوفة فكتب إليه معاوية يأمره أن يلحق لأهل الكوفة في أعطياتهم زيادة عشرة دنانير. فكان يتّخذ بعضاً ويردّ بعضاً، ويقول: أنا قفل مفتاح الشام[3]، وكتب معاوية إلى زيّاد بن أبيه أن حولك مضر، وربيعة، واليمن فأما مضر فولهم الأعمال، وأحمل بعضهم على رقاب بعض، وأما ربيعة فأكرم أشرافهم فإن أتباعهم منقادون لهم، وأما اليمن فأكرمهم في العلانيّة وتجافَ عنهم في السرّ. وقال أعنت على عليّ بكتماني سرّي، وبطاعة أهل الشام لي، ومعصية أصحابِهِ له، وبذلِ مالِي، وإمساكِهِ إياه"[4]. وقال عن النساء: إنهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

وقال: «الأرض لله وأنا خليفة الله فما أخذت فلي، وما تركته للناس فبالفضل منّي، فقال صعصعة بن صوحان: ما أنت وأقصى الأمة في ذلك الأسوأ، ولكن من ملك استأثر، فغضِب معاوية وقال: لهممت، قال صعصعة: ما كلّ من همّ فعل، قال: ومن يحول بيني وبين ذلك، قال: الذي يحول بين المرء وقلبه»[5]، بهذا يكون الخليفة قد أضفى على شخصهِ صفة لم يختصّ بها إلا الأنبياء ورفضها من سبقه وقالوا نحن خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقال إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

وكان معاوية كما يذكر ابن عساكر قد بنى الخضراء[6] وسكنها أربعين سنة، ومعاوية من الطبقة الثالثة، وصِفَ بأنّه كان أبيض اللّون، طويلاً أجلح، أبيض الرأس واللّحية، أصابته اللّقوة في آخر عمره، فكان يقول رحم الله عبداً دعا لي بالعافية وقد أصبت في أحسني وما يبدو منّي، كما

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص١٥٥.

[2] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص١١٤.

[3] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص٢٢.

[4] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٢٤.

[5] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٢٧.

[6] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص٥٥.

وصِفَ بأنه كان حليماً وقوراً وكان من أدهى العرب.

وكان يقول: إن المال مالنا، والفيء فيئنا من شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه[1] من هـذا، امتـاز معاوية بكثرة العطاء، يذكر ابن عساكر أن بعث إلى السـيّدة عائِشَـة زوج الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمائة ألف، وقيل قدمت السيدة عائِشة إلى مكّة فأرسل إليها معاوية بطوق قيمتـه مائـة ألـف فقبلته. وقيل دخل الحسين على معاوية فقال معاوية له: لأجيزنّك بجـائِزة لم يجزهـا أحـد كـان قبلـي فأعطاه أربعمائة ألف، وأمر معاوية لعبد الله بن الزبير بمائة ألف، وأمر لعبد الله بن جعفر بمائة ألف، ومروان بن الحكم بمائة ألف، ولعبد الله بن عمرو بمائة ألف، وأعطى ابن عباس ألف ألف درهم.

---

[1] ابن عسـاكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص١٦٨.

الفصل الثالث

معاوية و ولاية العهد

الفصل الثالث

معاوية و ولاية العهد

بعد أن غلب معاوية بالدهاء والحنكة والسياسة واستقر أمره كان أهم ما اهتم به أن يبايع لابنه يزيد بولاية العهد، لكي تبقى متوارثة في أسرته لا تخرج منها، وبعض الروايات التاريخية تذكر أن المغيرة بن شعبة الثقفي هو الذي أوحى إلى معاوية بفكرة ولاية العهد، فها هو الطبري[1] يذكر الخبر في أحداث سنة (٥٦ هـ - ٦٧٥م).

كان المغيرة بن شعبة أوّل من أوحى إلى معاوية بفكرة ولايَة العهد، وكانت مكيدة منه عندما علم أنه سيعزله عن الكوفة فعمل في بيعة يزيد، وأوفد في ذلك وفداً إلى معاوية. وقال المغيرة بعد فكرة ولاية العهد وتأكيدها لقد: وَضَعت رِجَل معاوية في غرزغي.

و عندما أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد بولاية العهد كتب إلى زياد بن أبيه يستشيره فأرسل زياد إلى عبيد الله بن كعب النميري فلما حضر أطلعه على الأمر، فقال زياد بن أبيه إن يزيد صاحب رسلة وتهاون، وهو مولّع بالصيد وما إلى غيرِ هذا، فقال له عبيد الله بن كعب لا تفسد على معاوية رأيه ولا تمقت إليه ابنه وأسرِع إلى يزيد فأعلِمه أن معاوية كتب إليك يستشيرك في هذا الأمر وإنك تخاف عليه لهنات ينقمونها عليه، وإنك ترى له أن يترك كل ما ينقم عليه من الآخرين.

توجّه عبيد الله بن كعب إلى يزيد فأعلمه بالأمر. في الوقت نفسِهِ كتب زياد إلى معاوية يطلب إليهِ التؤدة وعدم العجلة. أما يزيد بن معاوية فكفّ عن كثير مما كان ينقم عليه كما أن معاوية قَبِل نصيحة زياد بن أبيه بعدم العجلة والتأنّي في ذلك. بعد أن مات زياد بن أبيه دعا معاوية

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٥٦ هـ - ج٥ - ص٣٠١.

بكتاب فقرأ على الناس باستخلاف يزيد، وإن حدثَ لمعاوية الموت فيزيد وليّ عهدِهِ. أخذ معاوية لابنِهِ بيعة على الناس إلا خمسة[1] نفر من المسلمين هم الحسن بن علي، عبد الله بن عمر، عبد الله ابن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر، عبد الله بن عباس.

استدعى معاوية الحسن بن علي - وقد توجه إلى المدينة لأجل بيعة ابنه - فلما اجتمعا قال معاوية له: لقد بايع الناس ليزيد إلا خمسة أنت أحدهم وأنت رأسهم، وأمرهم إليك وأنت تقودهم. فقال له الحسن: ادعهم فإن بايعوا كنت رجلاً منهم. ثم أرسل إلى عبد الله بن الزبير فخاطبه بمثل ما خاطب الحسن، وأجابه بمثل جواب الحسن، ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر، وخاطبه أيضاً بمثل ما خاطب به من سبقه فقال له عبد الله بن عمر: هل لك في أمر يذهب الذم ويحقن الدم وتدرك به حاجتك؟ قال معاوية: وددت قال عبد الله بن عمر: تبرز سريرك، ثم أجيء فأبايعك على أني أدخل بعدك فيما تجتمع عليهِ الأمّة فوالله لو أن الأمّة اجتمعت بعدك على عبد حبشي لدخلت فيما تدخل فيهِ الأمّة.

وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له: يا بن أبي بكر، بأيّة يد أو رِجل تقدِم على معصيتي قال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيراً لي، فقال له معاوية: والله لقد هممت أن أقتلك، قال له عبد الرحمن: لو فعلت لأتبعك الله به لعنة في الدنيا، وأدخلك به في الآخرة النار. أما ابن عباس فلم يتعرّض له الطبري ولم يذكره. بعد ذلك عهد معاوية لابنه يزيد[2] رغم المعارضة العنيفة التي لم تستسلم لضغط معاوية عليها.

بعد أن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد من الذين وفدوا إليه مع عبيد الله بن زياد[3]، وعهد إليه. قال له: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب إلا أربعة نفر من قريش.

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد أخذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره، بايعك. وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً وحقاً عظيماً. وأما عبد الرحمن بن أبي بكر، فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس

---

[1] اختلف في ذلك فالبعض لا يذكر ابن عبّاس واختلف في موت عبد الرحمن بن أبي بكر.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ستّين - ج٥ - ص٣٢٢.

[3] المرجع نفسه - ج٥ - ص٣٢٢.

له همة إلا النساء واللهو. وأما عبد الله بن الزبير فهذا هو الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب، وإن فعل بك هذا فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً.

وقيل إن معاوية عندما حضرته الوفاة، كان ابنه يزيد غائباً، فدعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته، ومسلم بن عقبة المري، فأمرهما أن يبلغا وصيته لإبنه يزيد وهي قوله: ١ ـ إن أهل الحجاز هم أصلك فأكرمهم.

٢ ـ أما أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، لأن عزل عامل أهون من أن تشهر عليك مائة ألف سيف.

٣ ـ وأهل الشام فاجعلهم بطانتك وعينيك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، لأن أهل الشام إذا أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم.

٤ ـ أوصاه بثلاثة من قريش: فأما عبد الله بن عمر فقد وخذه الدين، وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه فاصفح عنه[1]، وأما ابن الزبير، فإنه خب ضب، فإذا شخص لك فالبد له.

أما ابن الأثير[2] فيذكر: أن معاوية كان قد بايع لابنه يزيد أيضاً في سنة (٥٦هـ ـ ٦٧٥م) وفي عهد أبيه حيث يؤكد أن المغيرة هو أول من أثار هذا الموضوع وبحثه مع يزيد كما ذكر الطبري إلا أن ابن الأثير يوضح الأمور أكثر من الطبري ويضيف أموراً أخرى لا يذكرها الطبري من ذلك: أن المغيرة عندما عاد إلى الكوفة جمع من شيعة بني أمية وحدثهم في أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته ثم أوفد منهم عشرة[3]، وقيل أكثر وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى[4] فقدموا على معاوية

---

[1] ان قتل الحسين بن علي بأمر يزيد بن معاوية جلب عليه متاعب كثيرة وفرقت الأمة إلى أحزاب متنازعة، ولو أراد يزيد لما قتل الحسين بن علي لأن ذلك لم يكلفه إلا كتاب لعبيد الله بن زياد، وبذلك يكون يزيد خالف أباه بقتل الحسين.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٥٠٣ـ٥١١.

[3] قيل أرسل أربعين رجلاً وجعل عليهم ابنه عروة.

[4] وقيل: أرسل أربعين رجلاً وجعل عليهم ابنَه عُرْوَة، فلمّا دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنّما أشخصهم إليه النظر لأمّة محمّد ـ صلى الله عليه وسلم، وقالوا: يا أمير المؤمنين كبرت سنّك وخفناانتشارَ الحبل فانصبْ لنا عَلَماً وحُدّ لنا حدّاً ننتهي إليه. فقال: أشيروا عليّ. فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين. فقال: أوَقد رضيتموه؟ قالوا: نعم. قال: وذلك رأيكم؟ قالوا: نعم، ورأي مَنْ وراءنا. فقال معاوية لعُرْوَة سراً عنهم: بكَمِ اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينَهم عندهم رخيصاً. وقال لهم: ننظر ما قدمتم له ويقضي الله ما أراد، والأناة خير من العجلة. فرجعوا ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٥٠٣ وما بعدها.

فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها، فأمرهم معاوية بعدم العجلة من هذا الأمر.

بعد هذا قوي عزم معاوية على البيعة ليزيد، فأرسل إلى زياد بن أبيه، فلم يتخذ قراراً حول ذلك، يضيف ابن الأثير أن معاوية عندما مات زياد بن أبيه عزم على البيعة ليزيد فأرسل إلى عبد الله ابن عمر مائة ألف درهم فقبلها، فلما ذكر البيعة ليزيد امتنع عن أخذها.

ثم كتب معاوية لمروان بن الحكم وأمره أن يجمع أصحاب الرأي ويستشيرهم في بيعة يزيد، فلما جمعهم أعلمهم بما عزم عليه معاوية فوافقوه، ثم كتب مروان بن الحكم إلى معاوية بذلك، ثم أعاد إليه معاوية قوله بأن يذكر يزيد، فقال مروان للناس: إن معاوية قد استخلف ابنه يزيد، فرد عليه عبد الرحمن بن أبي بكر بقوله: كذبت يا مروان وكذب معاوية[1].

سمعت السيدة عائشة من وراء الحجاب الحديث الذي دار بين مروان بن الحكم وأخيها عبد الرحمن فقالت: يا مروان وكررت اسمه: أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه القرآن؟ كذبت والله ما هو به ولكنه فلان بن فلان، ولكنك أنت قطعة من لعنة نبي الله. وأنكر الحسن بن علي ذلك، ووافقه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فكتب مروان لمعاوية بذلك.

كان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأمرهم أن يوفدوا إليه الوفود من الأنصار ويعلموه رأي الناس في ابنه يزيد فكان ممن قدم عليه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة. فلما اجتمعت الوفود عند معاوية تحدث إليهم وذكر يزيد وفضله وعمله وعرض بيعته على الحاضرين، فقال الضحاك وكان معاوية قد أمره أن يتحدث للناس ببيعه يزيد - إنه لابد للناس من وال بعدك...، وقال: ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علماً وحلماً،وأبعدنا رأياً، فوله عهدك، واجعله لنا علماً بعدك ومفزعاً نلجأ إليه ونسكن في ظله.

وتحدث عمرو بن سعيد الأشدق بمثل ذلك ثم تحدث يزيد بن المقنع، فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا وأشار إلى سيفه. فقال معاوية

---

[1] هنا تأكيد على أن بيعة معاوية لابنه يزيد لم تكتمل عملياً لأنها لم تكن عن رغبة شعبية إنما كانت تحت الضغط، والكل يؤكد أن يزيد لم يكن آهلاً للخلافة لذلك ألغى المعارضة في كل مكان حتى في مجلس معاوية نفسه.

للأحنف بن قيس: فما رأيك يا أبا بحر، فقال: أنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضى فلا تتشاور فيه، وإن كنت تعلم غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الأخره، وأن علينا أن نقول سمعنا وأطعنا ثم تفرق الناس فكان حديث الأحنف هو ما يتكلمون فيه.

وعندما استوثق معاوية لابنه وبايعه أهل العراق والشام قرر التوجه إلى الحجاز في ألف فارس فلقي الحسن بن علي فقال له: لا مرحباً ولا أهلاً، وقال لابن الزبير: مثل ذلك، وقال لعبد الرحمن ابن أبي بكر، ولعبد الله بن عمر نحو ذلك، وعندما دخل معاوية المدينة لم يأذن لهؤلاء بالدخول عليه فخرجوا من المدينة إلى مكة، أما معاوية فخطب بأهل المدينة وقدم ابنه يزيد وذكر فضله، والبيعة له ثم قابل السيدة عائشة.

خرج معاوية من المدينة إلى مكة فتلقاه الناس، ومن ضمنهم الأربعة الوارد ذكرهم، فكان أول من لقيه الحسن بن علي، فقال له معاوية: مرحباً وأهلاً، وفعل بالآخرين مثل ذلك. كان الأربعة المذكورون متفقين على جواب واحد يكون على لسان ابن الزبير، وقبل أن يغادر معاوية مكة جمعهم وتحدث إليهم، وذكر ابنه يزيد فقال عبد الله بن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال، قال: اعرضهن قال: تصنع كما صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وكما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر، وكان رأيهم واحداً على ما ذكره عبد الله بن الزبير، فقال معاوية: إنه قد أعذر من أنذر. بعد ذلك أمر معاوية صاحب حرسه وبحضرتهم، وقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، وأمره أن يضرب كل من يرد بكلمة تصديق أو تكذيب، ثم بايع له في مكة، وعاد إلى المدينة، فبايع له أهلها، وعاد إلى الشام.

ويذكر المسعودي[1] في أحداث سنة (٥٩هـ - ٦٧٨م) قدوم وفد الأمصار من العراق وغيرها فمن العراق وفد الأحنف بن قيس ويذكر بنحو ما ذكره ابن الأثير إلا أنه يذكر أن أول من بايع ليزيد أبوه بعدها نفذت الكتب بالبيعة إلى الأمصار، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم، فأمره معاوية بمبايعة يزيد، وأخذ البيعة له. ويذكر أيضاً أن مروان بن الحكم عندما قرأ الكتاب غضب، وتوجه مع بعض أهله إلى دمشق ودخل على معاوية فتكلم بكلام يوبخ به معاوية فقال لمعاوية: اعلم

---

[1] المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٣٧.

أن لك من قومك نظراء، وأن لك على مناوأتهم وزراء، فرد معاوية: أنت نظير أمير المؤمنين وعدته وعضده، وأنت الثاني بعد ولي العهد وجعله ولي عهد يزيد ثم رده إلى المدينة وعزله بعد ذلك، وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وتناول ابن عبد ربه[1] الموضوع فقال: إن معاوية بعد موت زياد بن أبيه سنة (٥٣ هـ - ٦٧٢م) أظهر عهداً مفتعلاً فيه عهد الولاية لابنه يزيد، فقرأه على الناس وغايته بذلك ترويض الناس والاستسلام لهذا الأمر فبقي سبع سنوات حتى استوثق له الأمر. واستشار معاوية عبد الله بن الزبير في هذا الموضوع، فقال له: إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم، وتفكر قبل أن تندم، وسأل الأحنف أيضاً عن رأيه، فقال نخافك إن صدقناك، ونخاف الله إن كذبنا.

في سنة (٥٥ هـ - ٦٧٤م) كتب معاوية إلى الأمصار أن يفدوا عليه، فقدم عليه من كل مصر من الأمصار وفد، فكان ممن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم، فسأله معاوية عن رأيه في بيعة يزيد، فقال: «اتق الله وانظر من تولي أمة محمد»، ثم تحدث الضحاك بن قيس فحرض على بيعة يزيد وكان الضحاك آنذاك والياً على دمشق مخلصاً وفياً لمعاوية لا يعمل إلا برأيه، ثم تحدث عمر بن سعيد، فأكد على بيعة يزيد أيضاً أما يزيد بن المقنع فكان أشدهم صرامة في قوله وأكثر تحمساً لبيعة يزيد حيث هدد من لم يبايع بالسيف، وتحدث الأحنف بن قيس، فقال: أنت أعلم بيزيد منا فإن كنت تراه أهلاً فوله، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. وتمت البيعة ليزيد، ويذكر ابن عبد ربه توجه معاوية إلى المدينة بما تحدث به ابن الأثير وغيره ممن سبق، المهم أن بعض المصادر اتفقت على أن المغيرة هو أول من أوحى إلى معاوية بولاية العهد، وأن ولاية العهد تمت كما ذكرنا، لكن يجب أن نذكر أن هذه البيعة لم تكن عن رضى فما عدا أهل الشام نلاحظ أنهم بايعوا مكرهين، وخاصةً أهل الحجاز. معنى هذا أن استقرار البيعة بولاية العهد كانت في أكثر جوانبها قد تمت بالدهاء لدى بعضهم، والحنكة لدى الآخرين، وبالسيف لدى بعضهم بعضاً.

---

[1] ابن عبد ربه - أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد - تحقيق مفيد محمد قميحه - طبع بيروت - بدون تاريخ - ج٥ - ص١١٧.

أما ابن قتيبة[1] فقال: «لما استقامت الأمور لمعاوية، استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة[2]، ثم هم أن يعزله ويولي سعيد بن العاص، فلما بلغ ذلك المغيرة قدم الشام على معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف، وفي عنقك الموت، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان، فاجعل للناس بعدك علماً يفزعون إليه، واجعل ذلك يزيد ابنك.

قال: فدخل معاوية على امرأته فاختة بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس، وكان ابنها منه عبد الله وكان قد بلغها ما قال المغيرة، وما أشار به عليه من البيعة ليزيد وكان يزيد بن الكلبية ميسون ابنة عبد الرحمن بن بحدل الكلبي. فقالت فاختة، وكانت معادية الكلبية: ما أشار به عليك المغيرة؟ أراد أن يجعل لك عدواً من نفسك، يتمنى هلاكك كل يوم، فشق ذلك على معاوية، ثم بدا له أن يأخذ بما أشار عليه المغيرة بن شعبة.

قال: فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار بدمشق، وفيهم الأحنف بن قيس، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري فقال له: إذا جلستُ على المنبر، وفرغتُ من بعض موعظتي وكلامي، فاستأذني للقيام، فإذا أذنت لك، فاحمد الله تعالى، واذكر يزيد، وقل فيه الذي يحق له عليك، من حسن الثناء عليه، ثم ادعني إلى توليته من بعدي فإني قد رأيت وأجمعت على توليته، فأسأل الله في ذلك، وفي غيره الخيرة وحسن القضاء. ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وثور بن معن السلمي، وعبد الله بن عصام الأشعري، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله، ويدعوه إلى بيعة يزيد».

وقال أبو علي القالي: «لما أراد معاويةُ البَيْعة ليزيد ولده، كتب إلى مروانَ وهو عامله على المدينة، فقرأ كتابه وقال: إن أمير المؤمنين قد كَبِرَ سنُّه ورَقَّ عَظْمُه، وقد خاف أن يأتيه أمرُ الله تعالى فَيَدَع الناس كالغنم لا راعي لها، وقد أحب أن يُعْلِم عَلَماً ويُقيم إماماً. فقالوا: وفَّق الله أميرَ المؤمنين وسَدَّده ليفعل. فكتب بذلك إلى معاوية، فكتب إليه: أن سَمِّ يزيدَ. قال: فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد.

---

[1] ابن قتيبة الدينوري - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص١٤٢-١٤٣.

[2] يذكر بعض المؤرخين أن المغيرة يعتبر أحد اثنين الذين عملوا على إفساد الأمة العربية الإسلامية بسبب إشارته على معاوية ببيعة يزيد، ولولا مشورته لكانت الخلافة شورى إلى يوم القيامة، السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ٢٤٢.

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقال: كذبتَ والله يا مروان وكَذَب معاويةُ معك! لا يكون ذلك! لا تُحْدِثوا علينا سُنَّة الروم! كلما مات هِرَقلٌ قام مكانه هِرَقْل! فقال مروان: إن هذا الذي قال لوالديْه: أُفٍّ لكُما أتعدانني أن أخْرَج، قال: فسمعتْ ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها فقالت: الإبْنِ الصِّديق يقول هذا! استُرُوني، فستروها فقالت: كَذَبْتَ والله يا مروان، إنَّ ذلك لَرَجُلٌ معروف نَسَبُه. قال: فكتب بذلك مروانُ إلى معاوية، فأقبل، فلما دنا من المدينة استقبله أهلها فيهم عبدُ الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر رضوان الله عليهم أجمعين.

فأقبل على عبدِ الرحمن بن أبي بكر فَسَبَّه وقال: لا مَرحَباً بك ولا أهلاً، فلما دخل الحسين عليه قال لا مرحباً بك ولا أهلاً، بَدَنَةٌ يترقرقُ دَمُها والله مُهَرِيقُه. فلما دخل ابن الزبير قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً، ضَبُّ تَلْعةٍ مُدْخِلٌ رأسه تحت ذنبه. فلما دخل عبد الله بن عمر قال: لا مرحباً بك ولا أهلاً وسبَّه، فقال: إني لست بأهل لهذه المقالة، قال: بلى ولما هو شرٌّ منها.

قال: فدخل معاوية المدينةَ وأقام بها، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين، فلما كان وقتُ الحج خرج معاوية حاجاً، فأقبل بعضُهم على بعض، فقالوا: لَعَلَّه قد نَدِم، فأقبلوا يستقبلونه. قال: فلما دخل ابنُ عمر قال: مرحباً بك وأهلاً يابن الفاروق، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابةَ. وقال لابن أبي بكر: مرحباً بابن الصِّديق، هاتوا له دابةً. وقال لابن الزبير: مرحباً بابن حوَاريَ رسول الله، هاتوا له دابة، وقال للحسين: مرحباً بابن رسول الله، هاتوا له دابة. وجعلتْ ألطافُه تَدْخُل عليهم ظاهرةً يراها الناس ويُحْسِن إذنهم وشفاعتهم.

قال: ثم أرسل إليهم فقال بعضُهم لبعض: مَنْ يُكلمُه؟ فأقبلوا على الحسين فأبى، فقالوا لابن الزبير: هات فأنت صاحبُنا. قال: على أن تعطوني عهدَ الله ألاَ أقولَ شيئاً إلا تابعتموني عليه، قال: فأخذ عهودَهم رَجُلاً رجلاً ورضي من ابن عمر بدون ما رضي به من صاحبيه. قال: فدخلوا عليه، فدعاهم إلى بيعة يزيد، فسكتوا. فقال: أجيبوني، فسكتوا. فقال: أجيبوني، فسكتوا. فقال لابن الزبير: هات فأنت صاحبهم. قال: اختَرْ منّا خَصْلة من ثلاث. قال: إن في ثلاث لَمَخْرَجا. قال: إما أن تفعل كما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم. قال: ماذا فعل؟ قال: لم يستخلف أحدا. قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل أبو بكر. قال: فعل ماذا؟ قال: نظر إلى رجل من عُرض قريش

فَوَلاّه. قال: وماذا؟ قال: أو تفعل كما فعل عمر بن الخطاب. قال: فعل ماذا؟ قال: جعلها شُورَى في ستة من قريش.

قال: ألا تسمعون! أنّي قد عودتكم على نفسي عادةً وإني أكره أن أمنعكموها قبل أن أبيِّن لكم، إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون عليَّ فيه وتردّون عليّ، وإني قائم فقائل مقالة، فإياكم أن تعترضوا حتى أتمهَّا، فإن صَدَقْتُ فعليَّ صدقي، وإن كذبت فعلي كذبي، وا لله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه. ثم وَكَّل بكل رجل من القوم رجلين يَحْفَظانه لئلا يتكلم، وقام خطيبا فقال: إن عبد ا لله بن عمر وعبد ا لله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا فبايِعُوا. فانْجَفَل الناسُ عليه يبايعونه، حتى إذا فرغ من البيعة ركب نجائبه فَرمَى إلى الشام وتركهم، فأقبل الناس على الرهط يلومونهم، فقالوا: وا لله ما بايعْنَا، ولكن فَعَلَ بنا وفَعَل»[1]. لم يضف القالي أي جديد في الرواية عما سبق وهو يتفق مع ابن الأثير في سرده للخبر.

وقال ابن خلدون: «والذي دعا معاوية لا يثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق، واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع.

وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعة، وفرار عبد ا لله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً كما هو معروف عنه، ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف.

---

[1] القالي البغدادي: أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي - كتاب الأمالي مع الذيل - طبع بيروت ١٩٩٦ - ج٣ - ص١٧٥ - ١٧٦.

ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك، وسليمان من بني أمية، والسفاح، والمنصور، والمهدي، والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم، وحسن رأيهم للمسلمين، والنظر لهم ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك. فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً فعند كل أحد وازع من نفسه.

فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك وازعه، وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني ضعف، واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني فلو عهد إلى غير من ترضيه العصبية لردت ذلك العهد، وانتقض أمره سريعاً، وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف»[1].

في النص الوارد وردت جملة من الأمور لابد من مناقشتها:

١ـ إن إيثار معاوية لابنه يزيد بولاية العهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، إن ما ورد صحيحاً وقد عبر عنه معاوية بوضوح إلا أن إيثاره لمثل هذا المنصب يجب أن يراعي فيه المصلحة الخاصة والعامة معاً لا أن تكون الهواية والإيثار هي الحل النهائي حتى لو كان في غير المصلحة العامة.

ويزيد بن معاوية هو الأفضل والأوحد عند معاوية إلا أنه ليس الأفضل بين أفراد البيت الأموي ولو اختار الأفضل في البيت الأموي لكان ذلك مراعاة المصلحة العامة في اجتماع أمر الناس، إذاً إن عاطفة معاوية تجاه ابنه وهواه تجاهه جعله لا يبصر الحقيقة، وقد أكد معاوية ذلك عندما قال: لولا هواي في يزيد لأدركت رشدي، علماً أن بعض أفراد البيت الأموي كانوا يرون في أنفسهم أنهم الأفضل من يزيد وقد عبر عن ذلك مروان بن الحكم وغيره.

٢ـ إن بني أمية هم أهل الحل والعقد وهم لا يرضون بغيرهم كونهم عصابة قريش، وأهل الملة وأهل القوة والغلبة. هذا لا يمنح معاوية الفصل في هذا الأمر باختيار المفضول عن الفاضل حرصاً منه على الاتفاق والاجتماع فلو أن معاوية بايع مروان بن الحكم أو غيره من القادة الأمويين لكان أفضل لأن اختيار الأفضل فيه المصلحة العامة والخاصة، إذاً كان من أفراد البيت الأموي، وعن كون

[1] ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون ـ (فصل في ولاية العهد) ـ بدون مصدر للطباعة ـ بدون تاريخ ـ ص١٦٦-١٦٧.

الأمويين هم أهل القوة فهذه حقيقة واقعة فالخليفة معاوية هو رأس السلطة وبيده مقاليد الدولة يأمر فيطاع يقول فيفعل لذلك كان قراره بولاية العهد قراراً غير قابل للجدل، وعندما وجدت المعارضة كان معاوية يخفف من قدرها بالمقابل كانت ضعيفة أمام قوته الهائلة لذلك استكانت حتى كانت نهايته، فلما وجدت الفرصة المناسبة ثارت في كل مكان كما هو معروف. أما قوله إن بني أمية عصابة قريش، وأهل الملة فهذا كما أرى ليس صواباً وهذا تعصب لبني أمية ودفاع عنهم، والأمر غير ما ورد يحتاج إلى تحقيق وتدقيق.

٣ـ يذكر ابن خلدون أن مثل ذلك حدث بعد معاوية، وذكر أمثلةً، وقال: ان هؤلاء لا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وخروجهم عن سنن الخلفاء. بالطبع لا يعيب عليهم ذلك لأن معاوية قد وضع قانون وراثة العرش وحدد فيه أهدافه.

٤ـ يذكر ابن خلدون الخلفاء الراشدين ويؤكد أن هؤلاء ليسوا كغيرهم من الخلفاء لأنهم وجدوا في وهلة لم تحدث بعد طبيعة الملك، وكان وازعهم دينياً لذلك عهد الشعب آنذاك، إلى من يرتضيه الدين فقط، وفضلوه على غيره، أما ما حدث بعد ذلك في العهد الأموي فكانت العصبية والوازع الديني قد ضعف، والدولة وصلت إلى مرحلة تحتاج فيه إلى وازع سياسي اعتمد العصبية، فكان لمعاوية بذلك ما أراد، ولو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لانتقض الأمر، وحدثت الفرقة والاختلاف. وذكر ابن خلدون في مقدمته أموراً تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها:

أولاً: منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته آنذاك، حيث كانت مذاهبهم فيه مختلفة فمنهم من رأى الخروج عليه، ونقض بيعته كما فعل أبناء الصحابة الخمسة، ومنهم أباه لما فيه من آثار الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصابة بني أمية، وجمهور أهل الحل والعقد من قريش، وتستتبع عصبية مضر أجمع وهي أعظم من كل شوكة ولا تطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك، وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه.

ثانياً: يتحدث ابن خلدون عن العهد وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعهد، ويذكر بعد ذلك كيف عهد الخليفة أبو بكر إلى الخليفة عمر بوازع ديني، وكيف عهد الخليفة عمر إلى ستة من أصحاب الشورى، ويذكر كيف لم تكن الخلافة لعهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير مهمة، فلم يعهد فيها، ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء، بما دعت الضرورة إليه في الحماية

والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والترك، ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح، فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

ثالثاً: الحرب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين، قال إن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة، ثم يذكر ما حدث من ذلك. اختلافهم حول بيعة الإمام علي فيذكر أن بعضهم رأى أن بيعته كانت قد تمت، وبعضهم الآخر يرى أنها لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق، وأصحاب هذا الرأي معاوية، وأنصاره، كعمرو بن العاص، السيدة عائشة، وطلحة، والزبير، وغيرهم.

وقال ابن خلدون: إذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين، في مثل هذه الأحداث. المهم أن هذا الخلاف أودى بحياة الخليفة عثمان كما هو معروف وقد ورد ذلك، ويذكر ابن خلدون الحسين بن علي واعتراضه على يزيد بن معاوية عندما ظهر وشربه الخمر وغير ذلك، ويعتبر الطرفان مجتهدين كما يذكر خلاف ابن الزبير ويصف أهل الآراء هذا بأنه اجتهاد، لكل منهم وجهة نظر خاصة به، واعتبر كل هذه الخلافات كانت رحمة لمن يعتبرهم من الأمة، ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله إمامه وهاديه ودليله.

ولاية العهد ومصلحة الدولة: كل المصادر التاريخية تشير بشكل مباشر إلى بحث الأمويين والعمل المتواصل للوصول إلى السلطة وتلقفها ومن يكرس جل وقته لهدف ما فعندما يصل إليه لابد له من التفكير في كيفية المحافظة عليه. مثل ذلك ما فعله معاوية الذي بحث عن الخلافة، واعتمد كل الطرق في سبيل الحصول عليها. إذن لا يمكن أن نتصور تخليه عنها بالأمر السهل لذلك أرى أن معاوية بمجرد حصوله على الخلافة أخذ يفكر باستمرارها في النسل الأموي، وبما أن يزيد ابن معاوية أحبهم إليه، لذلك أخذ يحرص ويعمل لأخذ البيعة له، وقد أكد معاوية ذلك بقوله: لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي[1].

ذكرنا أن معاوية اعتمد مجموعةً من الأسس لاستخلاف ابنه يزيد منها: أن الأمويين كانوا من سادة قريش، وكانوا مولعين بالسيادة، وعندما هدم الإسلام سيادتهم لم يستسلموا للواقع الجديد بل

---

[1] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٥٩ - ص٦١.

ثاروا وحاربوا للمحافظة على مالهم من السلطات، لكنهم استسلموا في فتح مكة سنة (٨ هـ ـ ٦٢٩م) ودخلوا في الدين الجديد، إلا أن ذلك لم يجعلهم يتخلون عما كانوا يتمتعون به من السيادة، فبقيت هذه النزعة عالقة في نفوسهم، وقد عبروا عنها في عدة مواقف.

بعد فتح مكة لم تخمد عصبية الأمويين، على العكس بقيت متأججة، حتى نرى أن كتب التاريخ تذكر أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد ولى الصدقات عدداً من الأمويين منهم أبو سفيان، ومعاوية، وخالد بن سعيد بن العاص، وغيرهم، وبعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهر دورهم واضحاً بارزاً في سياسة الدولة، حتى وصلوا إلى مكانة كانوا فيها أساس سياسة الدولة. ونلاحظ رغم وجود العصبية الأموية والانقسام والتخريب داخل البيت الأموي أن معاوية كان يعمل على التفريق بين الناس حتى أقربهم إليه، يقول البلاذري نقلاً عن الواقدي.

«كان معاوية يُغري بين سعيد بن العاص بن أميّة، وبين مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة، فكتب إلى سعيد وهو على المدينة يأمره بهدم دار مروان فلم يفعل، فأعاد عليه فلم يفعل، فلما ولي مروان أقدم على هدمها..

قال له سعيد: يا أبا عبد الملك أتهدم داري؟! قال: كتب أمير المؤمنين إليّ في هدمها، فبعث سعيد فجاء بكتب معاوية إليه في هدم دار مروان.

فقال مروان: يا أبا عثمان كتبَ إليك بهذه الكتب فلم تُعلمني؟! قال: ما كنتُ لأمرر عليك عيشك، وإنّما أراد أنْ يُغري بيننا، فقال مروان: فِداك أبي وأميّ فإنّك أكرمنا ريشاً وعقباً، وأمسك عن هدم داره»[1].

مما ورد نلاحظ أن معاوية قاد الأسرة الأموية بالطريقة نفسها التي قاد بها الدولة، ونلاحظ شبه صراع بين السفيانيين والمروانيين، وحتى بين الفرع الواحد وسنأتي على ذلك عند انتقال السلطة إلى المروانيين. وأعتقد أن السلطة لم تكن ستصل إلى الأمويين لولا حنكة معاوية ودهائِهِ خلال إمارته الطويلة لبلاد الشام، وخاصةً فيما يتعلّق بالمرحلة، التي ابتدأت بخلافة عثمان بن عفان، علماً أن إمارته لبلاد الشام دامت بحدود عشرين سنة، وأن الخليفة عثمان قدّم لمعاوية الدعم المادي

---

(1) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ تحقيق سهيل زكار ـ ج٥ ـ ص٣٩.

والبشري الكافي لمطالبتِهِ بالسلطة.

كما أن عاطفة معاوية تجاه ابنه يزيد، وهواه فيه جعلته لا يبصر الحقيقة والرشد في موضوع ولاية العهد، لأن في أبناء الصحابة كان يوجد الكثير من الذين كانوا يمتازون على يزيد بن معاوية، أضف إلى ما ورد نلاحظ أن بعض الأبناء الأمويين كانوا يرون في أنفسهم بأنهم الأحق بالسلطة من يزيد بن معاوية، لذلك نلاحظ أن المروانيين عندما وجدوا فرصةً انقضوا على الخلافة فتوارثوها.

يتحدّث بعض من المؤرخين المعاصرين أن من بين الأسس، التي دعت معاوية لبيعة ابنه يزيد العروبة والإسلام، وهذا إذا اعتبرناه يعود إلى سقيفة بني ساعدة، عندما أرسيت قاعدة الخلافة من قريش وثبتت هذِهِ القاعدة، وأرى أن هذا الموضوع لم يكن مطروحاً من قبل معاوية، ولم يكن مجال بحث، لأن معاوية عندما كان يفاخر بابنهِ يزيد أكثر مما كان يذكره للذين عارضوه، والذين عارضوه كلهم عرب مسلمون وكانوا عرباً قبل أن يكونوا مسلمين، أضف على ذلك هم من أبناء خيِرة الصحابة إسلاماً ونسباً وأصالة.

كما يزعم بعض أن معاوية كونه خليفة كان من واجبه أن يفكّر في ولاية العرب المسلمين، وتفكيره في ولاية العهد تجنّب العرب المسلمين الاختلاف والفرقة، أرى أن هذا الأمر يحتاج إلى تدقيق لأن ما فعله معاوية في إحداث منصب وليّ العهد، وفرض ابنه يزيد، وفي العرب المسلمين الكثير من الذين يتفوّقون عليه في كلّ اتجاه، كل ذلك زرع بين العرب المسلمين الفرقة والاختلاف، كما أدّى إلى وجود الحزبيّة السياسية في الدولة الأمويّة، وكان من نتائجها الحروب الداخليّة، كما حدث في ثورة الحسين من جهة، وثورة عبد الله بن الزبير من جهة أخرى، يضاف لما ورد الخوارج، وغيرهم الذين كانوا عنصراً هاماً في تشتيت المجتمع العربي الإسلامي وضعفه سياسياً واقتصادياً.

وأرى أن الذي ساعد معاوية على البيعة لابنه يزيد هو ما حدث قبله من بيعة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة، وأيضاً ما فعله الخليفة أبو بكر عندما عَهِدَ بالخلافة إلى عمر ابن الخطّاب رضيَ الله عنه، وأيضاً ما فعله الخِليفة عمر بن الخطّاب عندما عَهِدَ بالخلافة إلى أحد ستّة. وكلّ ذلك ساعد وشجّع معاوية على اختيار وليّ العهد.

أرى أن اختيار الخلفاء الراشدين ابتداءً من الخليفة أبي بكر رضي الله عنه للأمويين عنصر هام في قيادة الجيوش والفتوحات يعود لسبب واحد، هو أن الدين الجديد لم يكن قد أصبح عقيدةً راسخة في نفوس أبناء هذه الدولة، ولم يكن وحده عامل جمع وألفة، لذلك اعتمد على الزعامات السياسية القديمة التي سادت قبل الإسلام دون سواها، لأن رئاسة هذه الزعامات بقيت في نفوس الناس ولم تتخل عنها بهذه السرعة، وأكبر هذه الزعامات هم الأمويون وعلى رأسهم أبو سفيان ومن بعده أبناؤه، ولا أذكر الهاشميين لأنه كان هناك معارضة شديدة لقيادة هؤلاء لمثل هذه الحملات، وهذا يعود إلى الصراع الذي استمر طويلاً قبل الإسلام وبعده بين الأمويين وأنصارهم والهاشميين.

نعود إلى الأمويين فنقول إنهم تسلموا قيادة القوات، لأن الخلفاء الراشدين اعتمدوا زعامتهم السياسية السابقة وانقياد الناس لهم أكثر من غيرهم مهما كان أثرهم الديني واضحاً، ثم إن الأمويين كانوا يرغبون في اعتلاء المناصب السياسية وهذا هدفهم منذ البداية، يؤكد ذلك البلاذري: «لما حجّ أبو بكر رضي الله عنه حجّ معه أبو سفيان، فكلمه أبو سفيان، فرفع أبو بكر صوته، فقال أبو قحافة لأبي بكر: يا بني اخفض صوتك عند ابن حرب». في ما ورد تأكيد على تأثير الأمويين وزعامتهم في مجتمع قريش، وأثره حتى بعد أن استلم الخليفة أبو بكر الخلافة، أي بعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم، ورغم ذلك بقي هذا الأثر ظاهراً واضحاً.

أما السياسة العامة التي اعتمدها الأمويون اعتباراً من معاوية فكانت ذات شقين، الأول: ديني، والآخر: سياسي، وكان الأول كما أرى في خدمة الشق الثاني، ولتأكيد ذلك نعود لتاريخ معاوية أول من تسلم الخلافة في الدولة الأموية، نلاحظ أنه بعد أن استلم السلطة، قال: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[1]. إذاً كان معاوية يقاتل ويحارب من أجل السلطة السياسية وليس الدينية.

وقال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمعاوية: «والله لقد بلغني أذاك هنا وبالشام»[2]،

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص١٥٠.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥٩ ـ ص١١٤.

ووصفه بأنه كسرى العرب، وكان معاوية يقول: «أنا أول الملوك»، وكان معاوية قد أحدث الكثير في خلافته كما يذكر ابن عساكر، من ذلك:

- أنه كان أول من خطب جالساً.
- أول من أذن وأقام يوم الفطر والنحر ولم يكن قبل ذلك أذان ولا إقامة.
- أول من أخذ الزكاة من الأعطية.
- أول من قضى بأن المسلم يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم، وكانت السنة الأولى أن ديّة المعاهدة كدية المسلم، فكان معاوية أول من قصرها إلى نصف الدية وأخذ نصف الدية لنفسه[1]، وكان معاوية أول من قتل صبراً.
- أول من أسقط الحد عن السارق، فكان أول حد ترك في الإسلام[2].

ثم إن النظام السياسي الذي كان سائداً قبل معاوية طوره معاوية بما يتناسب مع الواقع الجديد للدولة الجديدة، فعندما حقق هدفه في استلام السلطة أخذ يعمل على تغيير نظام الحكم السياسي إلى نظام سياسي وراثي يتناسب مع الواقع كما ذكرنا لذلك كان جهده وصبره في هذا المجال حتى وصل إلى ما وصل سواءً تعارض هذا مع الشريعة والتشريع أم لا، فكان له ما أراد.

إذاً كان معاوية سياسياً بارعاً، خطط، صبر، نفذ، وصل إلى ما يريد، وكان كما يذكر ابن عساكر عنه أن كل شي أمامه يمكن معالجته إلا السلطة والتدخل بها. إلا أن ابنه يزيد لم يكن على المستوى نفسه الذي كان عليه أبوه، حيث نلاحظ أن يزيد من الناحية الشرعية لم يكن مؤهلاً للخلافة لأن كل المؤرخين يصفونه بأنه كان يشرب الخمر وهو محرم وعليه حدّ، حتى يدع الصلاة، وكان يلعب بالكلاب، وتعزف عنده القيان، ويضرب بالطنابير، ويسامر اللصوص، وغير ذلك مما يؤكد بأنه لم يكن فقيهاً في الدين.

اعتمد يزيد السياسية اللادينية أسلوباً للحكم، يؤكد ذلك قتله الحسين بن علي رغم وصية أبيه له بألاّ يقتله، إذا تمكن من ذلك، كما أرسل جيشاً إلى المدينة فاستباحها كما هو معلوم، وختم الصحابة، وكل ذلك بأمره، ورمى جيشه الكعبة، وغير ذلك من الأمور التي أثرت على السياسة

---

[1] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٨ - ص١٤٨.

[2] منير العجلاني - عبقرية الإسلام في أصول الفكر - ص٣٤٩.

العامة للدولة الأموية، حتى نرى أن الدولة بعده قد اهتزت وتفرقت، واستقل كل وال بولايته ينتظر إجماع الناس على من يرتضونه، و لم يبق للأمويين من الدولة إلا الأردن كما ورد، لكن مروان بن الحكم ـ ابن طريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمكن من استعادة بلاد الشام ومصر إلى حظيرة الدولة.

أما عبد الملك بن مروان فالمعروف عنه أنه كان رجلاً فقيهاً قبل الخلافة، فلما جاءته الخلافة طلق كل ما عداها حيث قال والكتاب كتاب الله بين يديه: «هذا آخر العهد بك»[1] وقال ابن الأثير: إن عبد الملك بن مروان كان أول من غدر بالإسلام، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف وهو الذي يقول: «لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»[2].

أما من الناحية السياسية فقد كان عبد الملك قائداً سياسياً بارعاً استطاع بحنكة فائقة إعادة الدولة إلى وضع أفضل مما كانت عليه وبرع في سياسته الداخلية والخارجية عندما جعلها عربية في سياستها وإدارتها في اقتصادها، أي أنه طبع الدولة بطابع عربي صرف.

وسار أبناؤه على السياسة نفسها فالوليد كما يصفه المسعودي وغيره من المؤرخين كان جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً، وقصصه مع سلامة وحبابة، ورغبته في الزواج، حيث يذكر البلاذري في أنساب الأشراف أنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة، فكان يطلق الثلاث والاثنتين والواحدة، ومع ذلك كله كان الوليد من أفضل الخلفاء الأمويين[3] ففي عهده كانت الحضارة والعمران، وكانت في عهده الفتوحات وامتداد الدولة شرقاً وغرباً.

واستمرت الدولة الأموية في سياستها الدنيوية حيث مثلها سليمان بن عبد الملك أفضل تمثيل من ترف في المآكل والمشارب والملابس والملاهي، وزهوه بنفسه، حيث كان يقول أنا الملك الشاب نتجاوز في هذه المرحلة عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي عرف عهده بسياسة شرعية مميزة، وكانت على حساب السياسة الدنيوية. وازداد الترف والتردي في السياسة الدنيوية في عهد يزيد بن الوليد، فله أفعال وأقوال أتينا على ذكر بعضها لا داعي لذكرها حيث تجعله بعيداً كل البعد عن

---

(1) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٣٧ ـ ص١٢٧.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٥٢٢.

(3) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٥ ـ ص١٧١.

السياسة الدينية والشرعية، فهو الذي مزق القرآن ورماه بسهم، وهو الذي قال عن القرآن متحدياً بأنه هو الذي مزقه وأنه هو الجبار العنيد، وغير ذلك، فلما جاء هشام حاول جاهداً إصلاح الأمور إلا أنه عجز عن تحقيق ذلك، لأن الأمور كانت قد وصلت إلى مرحلة شبه الانهيار إلا أنه كان يعمل بجد ونشاط واجتهاد، فكان له الفضل في استمرار الدولة لفترة أطول.

وفي عهد بقية الخلفاء نلاحظ الخلافات حتى بين أفراد البيت الأموي وقتل بعضهم بعضاً دون وازع ديني، حتى أن بعضهم انتسب إلى الخوارج وبايعهم من أمثال عبد الله ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام بن عبد الملك وغيرهم، متجاوزين كل القيم الدينية والعصبية والسياسية، واختلطت الأمور وتفرق المجتمع شيعاً وأفراداً فكان في ذلك نهاية الدولة.

يقول السيد عبد العزيز سالم: «والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أن يعين للمسلمين خليفةً لهم، أو ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس لا لأبي بكر ولا لعلي، وكأنما أراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم جرياً على النظام القبلي الذي ألفه العرب، خاصةً وأنه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه من بعده، وهكذا وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة على النحو الذي كان مألوفاً لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم، وتم انتخاب خليفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أساس السبق إلى الإسلام، وعلى أساس الانتماء إلى قبيلة قريش»[1]. فيما ورد ثلاث نقاط هامة يجب الانتباه لها وهي:

١ ـ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعين خليفة ولم يحدد أحداً بشكل مباشر للخلافة ضبعاً هذا الكلام كان نتيجة صراع مرير كان حلاً وسطاً بين طرفي نزاع الأول ذكر أن هناك نصاً بالخليفة أبي بكر، وفريق آخر ذكر أن هناك نصاً خاصاً بالإمام علي، فكان بذلك انقسام الأمة العربية الإسلامية إلى شيعة وسنة إلى آخر الدهر، وكان في ذلك التاريخ صراع مرير ما زال إلى يومنا هذا.

---

[1] السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ تاريخ العرب من عصور الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية ـ طبع بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٧١ ـ ص٤٢٠.

٢ ـ يذكر النص نقلاً عن السيوطي أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعهد بالخلافة لأحد وأنه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه بعده، أرى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لو كان له ولد لم يستخلفه على المسلمين لأنه لم يكن يؤمن بالوراثة في الحكم، ويعتبرها من صفات الملك، هو بعث نبياً ورسولاً من الله وكان خاتم الأنبياء، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان ينطق عن الهوى إنما كان وحياً من الله تعالى لذلك أعتقد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو كان له ولد عندما مات لما استخلفه حتى أنه قليلاً ما استخدم أحداً من أهل بيته.

٣ ـ يذكر النص أن في سقيفة بني ساعدة بايعوا الخليفة أبا بكر على النحو الذي كان مألوفاً لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم. والمطلع على سقيفة بني ساعدة يلاحظ أن ما جرى في السقيفة يختلف اختلافاً كبيراً عما كان سائداً لدى العرب في الجاهلية، فما كان سائداً في الجزيرة لدى القبائل كان يتم اختيار سادة القبيلة في أكثر الأحيان وراثياً و في حالة عدم وجود الابن كان يتم اختيار الأفضل من الأسرة التي تمتلك السيادة.

وما حدث في سقيفة بني ساعدة كان العكس، ففي السقيفة انقسم المجتمع الإسلامي بين مرشحين كما ذكرنا وتحدث الناس، ولا أنكر فقد ظهرت العصبية القبيلة إلا أن المصالح السياسية لدى الأرستقراطية كانت واضحة ومسيطرة، وكان لها الدور الفعال في السقيفة، إذاً لا يمكن مقارنة اختيار الخليفة أبي بكر للخلافة في سقيفة بني ساعدة، بما كان سائداً عند العرب قبل الإسلام، لأن العقيدة الدينية والسياسية كانت قد أبطلت ما كان سائداً قبل الإسلام، وخاصةً العصبية القبلية، ووراثة الحكم فيها من جهة وانتقلت إلى إيجاد تشريع سياسي جديد يقوم على أسس ومبادىء متطورة ظهر فيها خدمة الإنسان والمجتمع.

تلك التجارب التي مرّت بها تجربة الخلافة لم تستقر على نموذج أو صورة واحدة بل تعدّدت طرق اختيارها وأشكالها، فأراد معاوية بذلك أن يوجد صورة مستقرة للخلافة عن طريق الوراثة، فكان له ما أراد و رغم المعارضة فقد تمكن في النهاية من فرضها، واستخدم في ذلك القوة[1] كما لاحظنا. إذاً لاقى معاوية في فرض ولاية العهد المعارضة، وكانت شديدة وأشدّها ما كان في الحِجاز. ورغم ذلك فقد حَصَلَ على ما يريد بالمكايدة والدهاء.

---

[1] أبو الفداء ـ الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ـ المختصر في أخبار البشر ـ طبع بيروت ـ دار المعرفة ـ بلا تاريخ ـ ج١ ـ ص١٨٦.

نعود إلى الأربعة الذين عارضوا معاوية في ولاية العهد، وهم من الحِجاز. الملاحظ أن ثلاثةً منهم ثبت أنهم بقوا على قيد الحياة إلى ما بعد معاوية، فالحسين بن علي كما هو معلوم شهد بيعة يزيد إلا أنه لم يبايع وفي عهده قتل كما سنرى، وابن الزبير استمر حتى عهد عبد الملك بن مروان، وسنأتي على ذكره، وعبد الله بن عمر أيضاً توفي في سنة (٧٣هـ ـ ٦٩٢م). يبقى عبد الرحمن بن أبي بكر فهذا اختلف المؤرخون في معارضتِه لمعاوية، فابن قتيبة مثلاً يذكر أنه توفي سنة (٥٣هـ ـ ٦٧٢م)، يقول: «عبد الرحمن بن أبي بكر شهد يوم بدر مع المشركين، ثم أسلم وحسن إسلامه، ومات فجأةً سنة ثلاث وخمسين بجبل قرب مكّة فأدخلته عائِشة بنت أبي بكر الحرم، ودفنته وأعتقت عنه»[1].

أما ابن الأثير[2] فيذكر أن عبد الرحمن بن أبي بكر مات بطريق مكة في نومةٍ نامها، وقيل توفي بعد ذلك، ويتفق خليفة بن خياط في تاريخه مع ما ورد، وأيضاً ابن خلكان في وفيات الأعيان، وغيرهم كابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب وبعض المؤرخين قالوا إن عبد الرحمن بن أبي بكر توفي سنة (٥٤هـ ـ ٦٧٣م)، وقال بعضهم سنة (٥٨هـ ـ ٦٧٧م) وقال آخرون توفَي سنة (٥٩هـ ـ ٦٧٨م) فمثَلاً الطبري يذكره حيّاً سنَة ستّين للهجرة، يقول: «أما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صَنَعَ مِثلهم، لَيس لَه همّة إلا في النِساء واللّهو»[3].

وينقل الطبري عن عبد الله بن مخرَمَة ويؤيّده ابن الأثير في الكامل في التاريخ يقول: قلت[4]: ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر لا يستقِيم على قول مَن يَجعَل وفاتَه سنة ثلاث وخمسِين، وإنما يَصِحّ على قول من يجعلها بعد ذلك الوقت، أخيراً مهما يكن من اختِلاف المؤرخين حَول وفاتِهِ فإنّه كان من المعارِضين لوِلايَة العهد التي فرضها معاويَة، وأرجّح موته بعد عام ستة وخمسين للهجرة.

أخيراً لقَد اختلف المؤرخون فِي ولايَةِ العهد، فبعضهم اعتبرها أمراً جَدِيداً لا عَهد للعَرب فيه، وأنه أحدثَ تغيِيراً كَبِيراً في نظام الحكم، وبذلك يكون معاوية أوّل خليفة بَايَع لِولده في الإسلام،

[1] ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص١٧٤.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٣هـ ـ ج٣ ـ ص٩٤٦.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٦٠هـ ـ ج٥ ـ ص٣٢٢.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٦هـ ـ ج٣ ـ ص٥١١.

كما يذكر ابن الأثير[1] وغيره مِنَ المؤرخين، وبعضهم اعتَبر العاطفة ودوافِعها، والتي كان أساسها التعصب هي العامِل الحاسِم في ولاَية العهد. ويؤيد ابن خلدون هذا الإتّجاه حيث يرى أن العصبية هي التي أفضت إلى انقِلاب الخِلافة إلى المُلك.

وبعض المؤرّخِين المحدثِين يشيرون إلى أن ما صنعه معاوية كان بِدعةً لا سابقة لها في تاريخ العَرب المسلِمين، وبعضهم الآخر اعتبر أن معاوية كان قَد سنّ سنّة قبيحة، إلا أن بعض المؤرخين ذكَروا محاسِن هذا التصرّف ومساوِئه، ومِنهم من اعتَبَر أن ما فعله معاوية كان انتصاراً لِلتقالِيد العربيّة على المبادِىء الإسلامِيّة، وبِذلك قضى على فِكرة الإنتخاب، وألغى ما كان سائِداً في السابقة والقدمة في الإسلام، وأظهر أن القوّة هي الأساس في اختِيار نِظام الحكم. ثم أن معاوية مات سنة ستّين لِلهجرة، واختلِف كما ذكِر في وقت وفاتِهِ، واختلِف أيضاً في مدّة ملكهِ كما وَرَدَ، واختلِف في مدّة عمرِهِ أيضاً، وفيها بويعَ أيضاً لابنِهِ يزيد.

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٦٠هـ ـ ج٤ ـ ص١٣.

الفصل الرابع

السياسة الداخلية

أولاً - عوامل كسب السلطة.

ثانياً - السياسة والتعامل مع الآخرين.

الفصل الرابع

السياسة الداخلية

أولاً ـ عوامل كسب السلطة:

كيفية الوصول للسلطة: بدأ معاوية حياته في أسرة أرستقراطية، وتربى على هذا المنهج، وكان لأسرته وغيرها من أسر مكة دور فعال في مقاومة الرسالة الإسلامية والدولة الجديدة، وظلت تقاوم حتى تم إخمادها في فتح مكة، ثم دخلت هذه الأرستقراطية الإسلام عن قناعة أم عكس ذلك لقد استمرت، وحاولت منذ البداية أن تبقى على نفوذها وظهورها في المجتمع الجديد، وهكذا كان. ففي عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أبو سفيان من عمال الصدقات، وعمل ابنه معاوية كاتباً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم، وتولى عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد، الأعمال السياسية والإدارية وفي عهد الخليفة أبي بكر تولى يزيد بن أبي سفيان، وأخوه معاوية، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم الكثير، قيادة الجيوش واستمر معاوية في عهد الخليفة عمر، والخليفة عثمان، وخالف الإمام علياً، وتولى السلطة المركزية ونقل العاصمة إلى دمشق.

إذاً لم يكن معاوية بالشخصية العادية حتى وصل إلى ما وصل إليه. والسؤال: لماذا لم يتقدم أحد القريشيين للخوض فيما خاض به معاوية، والوصول إلى ما وصل إليه. الحقيقة لقد حاول الكثير من أبناء أرستقراطية مكة التشبه بمعاوية إلا أنهم كانوا يصطدمون بعقبات صعبة، فمثلاً خالد ابن الوليد لو أنه لقي رعاية من الخليفة عمر كما لقي من الخليفة أبي بكر لكان له نصيب أكبر في قيادة الدولة. وأبو عبيدة بن الجراح لو أطال الله عمره لكان له نصيب من الخلافة، وطلحة والزبير

حاولا إلا أنهما فشلا، وعمرو بن العاص الداهية المشهور لو لقي ما لقية معاوية من الدعم المباشر لكان له من السلطة أكثر ما كان لمعاوية. إذاً ما الذي جعل معاوية متفرداً من بين أبناء أرستقراطية قريش يصل إلى ما وصل إليه من السلطة المطلقة. الحقيقة إن وراء ذلك أموراً كثيرة.

من أهم هذه الأمور التي ساعدته للوصول إلى السلطة كونه من أسرة أرستقراطية كان لها دور هام في السيادة والقيادة قبل الإسلام، وأبو سفيان والد معاوية هو الذي قاد المعارضة ضدّ الإسلام منذ البداية حتى استسلامه في فتح مكة، ثم إن الأمويين لم يبتعدوا عن السلطة بعد فتح مكّة على العكس كان لهم دور فعّال. أي أن دورهم استمر على ما كان عليه قبل الإسلام من السيادة والجاه فلقد شغلوا أكبر الوظائف.

نعود إلى معاوية فقد شغل أميراً نحواً من عشرين سنة على بلاد الشام، وهذا بحد ذاته لم يزده إلا قوةً وأماناً واطمئناناً في السلطة، فقد روّض البلاد على ما يريد، فأصبح وكأنه دولة ضمن دولة فأموال بلاد الشام كانت مسخّرة لمصالحه في بلاد الشام، وكسب ودّ أهلها كما سخّرها لكسب الرجال من خارج بلاد الشام أيضاً. وكان معاوية يلقى الدعم والتأييد من الخلفاء، حيث قدموا له كل مستلزمات استمراره، وأكبر دعم له كان من الخليفة عثمان، وهذا معروف لا داعي للخوض فيه.

عند البحث في عهد معاوية وخاصةً في المرحلة التي كان فيها أميراً يلاحظ المدقّق أن وضعه كان مميزاً ابتداءً من عهد الخليفة عمر رضي الله عنه ذلك الخليفة الذي كان يعارض الأرستقراطيّة بشدة وعنف، وله مواقف غاية في الشدة مع أبي سفيان قبل إسلامه وبعد إسلامه.

السؤال: لماذا لم يقف الخليفة من معاوية موقفه من خالد بن الوليد، علماً أن خالداً كان أيضاً من أرستقراطية قريش، وكان يمتاز بشجاعة وقدرة عسكرية وشخصية فاق بها معاوية. مع العلم أن الخليفة عمر حاسب خالداً وعزله، وأنبه أكثر من مرة، وعمل في عهد الخليفة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على عزله إلا أن الخليفة نفسه كان متمسكاً به، ومن المعلوم أيضاً أن الخليفة عمر كان يعلم أن معاوية كان يخرج على القواعد العامة، التي كان يتمتع بها الولاة الآخرون، وكان يصفه بكسرى العرب، وكان يوجه إليه بعض الملاحظات وخاصةً عندما كان يراه في أبهة الملوك، وفي تصريفه للأموال وملاحظات أخرى كان يأخذها عليه.

لماذا لم يقدم الخليفة عمر على عزل معاوية علماً أنه كان من بين الصحابة من هو أفضل منه لولاية بلاد الشام لماذا كان يعزل الولاة لمجرد ظهور بعض التقصير منهم. و لم يتعرض المؤرخون لهذا الموضوع، و لم أجد تفسيراً لمثل ذلك، إلا أني أقول فبمجرّد عداء الخليفة عمر لأبي سفيان كما تذكر المصادر التاريخية، ولأرستقراطية قريش، ومحاولاته المتكررة الإيقاع بأبي سفيان كل هذا كان كفيلاً بأن ينال من معاوية إلا أنه لم يفعل، وكل ما تذكره المصادر أنه كان يوجّه إليه اللوم والتأنيب لا غير.

هل تغيّر الخليفة عمر ـ رضي الله عنه؟ لا أعتقد بل بقي الخليفة العادل الحازم القوي الذي يملك السيطرة على البلاد، فيعزل ويولي كما يرغب ويريد، وليس معاوية بالذي يستطيع أن يقف في وجهه في أي صورة كانت، ونلاحظ أن معاوية عندما كان على بلاد الشام كان أجرأ من بقية الولاة حتى على الخليفة و لم يكن أجرأ من القادة الآخرين في مواقف أخرى. هل تغيّر معاوية؟ لا أعتقد إنما بقي الرجل الذي يظهر نفسه أنه الأقوى الذي يحاول أن ينال السلطة المطلقة في الدولة، وكانت كل الأمور تجرى حسب ما يشتهي، وكل الدلائل تشير على أن معاوية كان يعمل على أن يكون خليفة وهو يخطط لذلك. وكل من حوله يقدم له الدعم والمساعدة المباشرة، وفي بعض الأحيان غير المباشرة.

ومن المعلوم أن المهاجرين حتى فتح مكة كانوا أقليّة، وكانت قريش في حرب مستمرة لا هوادة فيها ضدّ المسلمين، فلما رأى سادة قريش، وعلى رأسهم أبو سفيان أنهم غير قادرين على الاستمرار في القتال ـ عند فتح مكة ـ قرّروا الانخراط في الإسلام لأنهم رأوا أنهم قادرون على تحقيق مآربهم من خلال المجتمع الجديد بعد أن فشلوا في ذلك عن طريق الصراع المسلح. علماً أن بعض المصادر تؤكد أن مكّة فتحت حرباً فإذا اعتمدنا هذا الكلام يفترض أن أكثرهم كان قد أسلم تحت السيف، أو بالقوة أو أسلم وهو مجبر على ذلك أو أظهر إسلامه لتحقيق مآربه.

ومن المعروف أن مكة وأهلها كان لهم الدور الفعال في مجتمع الجزيرة، فمنها كانت الرحلات رحلتا الشتاء والصيف، وفيها كانت الكعبة ـ بيت الله الحرام ـ قبل الإسلام وبعده، وإليها كان الحج. ومجتمع مكة مجتمع قبلي تجاري كان لهم معرفة دقيقة بطرق الجزيرة الداخلية والخارجية، وكان لتجار قريش معرفة أيضاً بقبائل الجزيرة، وعلى علاقة تجارية مع هذه القبائل، أضف على ذلك

ان مكة كانت تشكل قوّة لا يستهان بها يحسب لها حِساب، لذلك عندما دخلوا الإسلام شكلوا قوّةً ذات أهمية في المجتمع الجديد، وهنا لا ننسى الصراع الذي دام طويلاً بين الهاشميين والأمويين لأنه استمرّ بعد الإسلام. لكن الأمويين تسلموا مناصب قيادية في الدولة الجديدة على عكس الهاشميين الذين أبعدوا عنها منذ بداية الإسلام.

ويجب أن نلاحظ أن مجتمع مكة كان على خلاف وعداء مع الأنصار، وبعض المهاجرين قبل فتح مكة، فاستمر هذا العداء بشكل غير مباشر بعد فتح مكة إلا أنه اتخذ شكلاً جديداً، فبعض المهاجرين إلى المدينة كانوا على علاقة جيدة ووطيدة مع المكّيين سواءً قبل الفتح أو بعده لذلك انقسم المجتمع إلى فئات الفئة الأولى: وسيلها بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإمام علي، ومن انضم إليه وعلى رأيه وهم قلّة، الفئة الثانية: المعارضون له ويقودهم الأمويون ومن كان على رأسهم من المهاجرين، وبعض الأنصار وكانوا الأكثريّة. ومعارضة قريش لبني هاشم كانت قبل الإسلام وبعده، وكلنا يعلم مقاطعة قريش وأحلافها وتجمعاتها وأحزابها، التي كان هدفها الأساسي القضاء على الرسول، وعلى الدين الجديد من جهة، وإضعاف بني هاشم من جهة أخرى، وكتب التاريخ التي تتحدث عن هذا الموضوع كثيرة منها النزاع والتخاصم بين بني أمية، وبني هاشم للمقريزي.

والمعلوم أن هذه الأحلاف والأحزاب استمرت فلما كان فتح مكة لم يزُل أثرها لأن أهل مكّة أسلموا عام الفتح دفعة واحدة معنى هذا أن نظمهم الاجتماعية والسياسية استمرت حتى بعد الفتح، وعملوا ضمن المجتمع الجديد في سياسة الدولة، فتولى بعضهم بعض الوظائف فيها. إلا أن المطّلع على تاريخ صدر الإسلام يلاحظ أن المجتمع كان مقسماً إلى تحالفات كما ذكرنا وكان للعصبيّة والتعصب دور هام في إبراز هذه التحالفات، ولتأكيد ذلك نلاحظ أن بعض القادة كانوا لا يصلون خلف الأمير، وقد ورد مثل ذلك في عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبعده. كما حدث بين عمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح. إذاً كان المجتمع الإسلامي الجديد رغم كونه مسلماً كان مجتمعاً فتوياً قاده بعض قادة قريش، وأكثرهم كان همّه التقليل من أهمية الهاشميين، وإبعادهم عن مسرح السياسة فحققوا بعد عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل ما أرادوه.

تروي بعض المصادر التي تؤكد ذلك وثيقةً يرويها محمد باقر المجلسي[1] يقول: أجاز لي بعض

[1] محمد باقر المجلسي - بحار الأنوار - طبع بيروت المجلد ٣٠ - ص٢٨٧ وما بعدها.

الأفاضل في مكة - زاد الله شرفها - رواية هذا الخبر، وأخبرني أنه أخرجه من الجزء الثاني من كتاب دلائل الإمامة، وكتاب دلائل الإمامة لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الأملي المازنداراني يقول: حدثنا أبو الحسين محمد بن هارون بن موسى التلعكبري قال: حدثنا أبي رضي الله عنه، قال: حدثنا أبو علي محمد بن همّام، قال: حدثنا جعفر بن مالك الفزاري الكوفي قال: حدثني عبد الرحمن بن سنان الصيرفي، عن سعيد بن المسيب، ولا داعي لذكر النص ومن أراد العودة إليه فبإمكانه ذلك. المهم أن النص يذكر كيف أن الأمويين وغيرهم تعاضدوا وتعاونوا ضد الهاشميين محاولين إبعادهم عن السلطة.

والإسلام قد يكون وحّد أبناء الجزيرة من الناحية الدينية ولو نسبياً إلا أنه لم يوحدهم سياسياً، حيث بقيت العصبيات بشتى أشكالها وألوانها موجودة، فكانت تظهر بين الحين والآخر عندما تجد إلى ذلك سبيلاً، وكانت هذه المواقف بداية لتشكيل أحزاب سياسية عمّت الدولة العربية الإسلامية وكان لها أثر فعال، و واضح في العصر الأموي. وخاصةً عندما انتقلت الخلافة إلى المروانيين.

لم يكن معاوية بقادر على الاستمرار لولا اعتماده قادة كان لهم الدور الأول في استمرارية الدولة فكان يشاورهم رغم كونهم كانوا يملكون حقّ المعارضة في الأمور التي تعود على الدولة بالمصلحة التي ينعم بها معاوية، وكان حين استلامه السلطة أبقى على نظام الحكم الذي كان سائداً على عهد الخلفاء الراشدين من اعتماد ولاة ثقة يشاورهم في الأمور الهامة. كما أبقى على ديوان الجباية (الخراج)، وديوان العطاء (الجند)، ويعتقد بعضهم أن معاوية هو أول من أنشأ ديوان البريد في الإسلام[1] ونظّمه معاوية مستفيداً من النظم، التي كانت سائدة عند الدول المجاورة، فأقام الخيول على الطرقات لنقل البريد، ورتب له الخيل والمحطات، وأبقى عمّال الدواوين من غير المسلمين على رأس عملهم، وأهمهم سرجون بن منصور الذي كان يعمل كاتباً لمعاوية، وصاحب أمره وكبير مستشاريه نفوذاً، وعمل ابنه لدى يزيد بن معاوية في هذا المجال، واستحدث ديوان الخاتم، وأعاد ضرائب النوروز والمهرجان، التي كان الدهاقنة يدفعونها في مناسبات الأعياد، واستعمل الأموال

---

[1] العسكري - أبي الهلال العسكري - الأوائل، تحقيق محمد المصري - وليد قصّاب - طبع وزارة الثقافة السورية ١٩٧٥ - ج١ - ص٣٤٤-٣٥٨.

وتصرف بها كما يشاء لا على النظام الذي ألفه الناس في توزيع الأموال في عهد الخلفاء الراشدين، وكان أوّل من كان له الصوائف في الدولة بمكة والمدينة، وأعاد تنظيم جباية الخراج والجزية بما يكفل زيادة الموارد، أي أنه اعتمد سياسة مالية جديدة.

أثر المال في سياسة معاوية: كوّن الأمويون حضارة راقية ففعلوا وتفاعلوا، وأثروا وتأثروا مع الحضارات المجاورة، وساعدهم ما وصلوا إليه من الترف في مختلف المجالات، فبنوا القصور، وأكلوا بالأواني الذهبية والفضية، ولبسوا الثياب الراقية واستخدموا أنواع الطيب. إذاً تطور العرب كما يذكر ابن خلدون في مقدمته، فاستجدوا المطاعم والملابس والمباني والأسلحة والفرش. كيف لا يحدث هذا الترف ودمشق حاضرة الدولة العربية وقد أخذت سيول الذهب والفضة تتوافد إليها من كل قطر ثم يتم توزيعها.

ومن الأقوال التي تؤكد ذلك ما قاله معاوية (حسب رواية الطبري)، يقول: إننا تمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً[1]، وظهر أثر ذلك واضحاً في ابنه يزيد الذي كان يشرب الخمر ويضرب بالطنابير، وتعزف عنده القيان وغير ذلك، ولا ننسى المروانيين الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك سواء في قصورهم التي فرشت بالطنافس وازدانت جدرانها بالفسيفساء وصفائح الذهب، وفي أفنيتها النافورات، والحدائق، فها هو يزيد بن عبد الملك كما يذكر الجاحظ في البيان والتبيين يشرب الخمر ويلبس الحلة التي قيّمت بألف دينار... حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره تغنيانه حتى أخذ الشراب منه كل مأخذ، وبلغ الترف أقصاه في عهد الوليد ابن يزيد، الذي عاش كما هو معروف للهو والغناء حتى تحول قصر الخلافة في عهده إلى دار لهو.

ولم يقف الترف عند حدود البيت الأموي بل تعداه إلى الولاة والحكام، وذوي النفوذ فبنوا القصور وتنافسوا في ذلك، فمثلاً يروي المبرد في كتابه الكامل أن عبيد الله بن زياد قد أنفق على داره في البصرة (البيضاء) ألف ألف درهم، وملأها بالرياش والطنافس وزخرفها بصور الحيوانات، وأحيطت القصور بالحدائق والبساتين، وأخذ الترف في المطعم والملبس دوره الباهر عندهم.

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٤٧.

وزيادةً في الحياة الرغيدة واللهو وجدت أنواع كثيرة من التسلية كسباق الخيل[1]، والصيد والقنص[2]، ولعبة الشطرنج والنرد، ويحدثنا الجهشياري[3] عن عبد الرحمن بن زياد الذي ولاه معاوية أعمال خراسان أنه سئل في أثناء ولايته عما يملكه من أموال، فقال: إني قدّرت ما عندي لمائة سنة، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم، وكان يزيد بن المهلب يتخذ ألف خوان يطعم عليها الناس، وشمل الترف النساء، حيث تفننن في زينتهن، كما كان للمال دور كبير في اصطناع العمال وكسب ود الآخرين.

يذكر اليعقوبي[4] أن خراج العراق وما يضاف إليه كان قد استقر في أيام معاوية على ستمائة ألف ألف وخمسة وخمسين ألف ألف درهم، أي ٦٥٥ مليون درهم.

فكان خراج:

السواد	١٢٠ مليون درهم.	الري	٣٠ مليون درهم.
فارس	٧٠ مليون درهم.	حلوان	٢٠ مليون درهم.
الأهواز	٤٠ مليون درهم.	الموصل	٤٥ مليون درهم.
اليمامة والبحرين	١٥ مليون درهم.	اذربيجان	٣٠ مليون درهم.
كور دجلة	١٠ مليون درهم.		

- نهاوند
- ماه البصرة (همذان)
- ماه الكوفة (الدينور)

← ٤٠ مليون درهم

هذا بعد أن كان معاوية يخرج من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستضيفه لأنفسها من الضياع العامره وجعله صافياً لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته، وقال: كان صاحب العراق يحمل إليه من مال صوافيه في هذه النواحي مئة وعشرين مليون درهم، منها كانت صلاته وجوائزه. أما

---

(1) الجاحظ - أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - طبع مصر ١٩٨٥ - ج٣ - ص٢٥٧.

(2) عبد الرحمن رأفت باشا - الصيد عند العرب أدواته وطرقه حيوانه الصائد والمصيد - طبع بيروت ١٩٨٣ - ص٣٣.

(3) الجهشياري - كتاب الوزراء والكتاب - ص٢٩.

(4) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٣٣.

خراج بقية الأقاليم فكان كالتالي:

١ـ مصر: استقر خراجها في أيامه على ثلاثة ملايين دينار، وكانت مصر لعمرو بن العاص، فلما مات حمل المال إلى معاوية.

٢ـ فلسطين: استقر خراج فلسطين على ٤٥٠ ألف دينار.

٣ـ الأردن: استقر خراج الأردن على ١٨٠ ألف دينار.

٤ـ دمشق: استقر خراج دمشق على ٤٥٠ ألف دينار.

٥ـ حمص: استقر خراج حمص على ٣٥٠ ألف دينار.

٦ـ قنسرين: استقر خراج قنسرين على ٤٥٠ ألف دينار.

٧ـ الجزيرة: استقر خراج الجزيرة على ٥٥ ألف دينار.

٨ـ اليمن: استقر خراج اليمن على ٢٠٠٫٠٠٠ر١ مليون ومئتي ألف دينار.

إذن بعد أن تسلم الأمويون السلطة أثروا بسبب تدفق الأموال عليهم كما ورد، فانتهى عهد التقشف في العهد الأموي، حيث انطلق الناس إلى حياة الترف وحب الحياة ومباهجها، وحرصوا على الاستمتاع بها، يقول ابن خلدون إن الأمويين: «بلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب، والملابس والمباني، والأسلحة والفرش، والأبنية وسائر الماعون والفرش، وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس»[1].

واستمتع الأمويون بفن الغناء والموسيقى حتى أن الأصفهاني يذكر أسماء ثلاثين مغنياً من الرجال، وخمسين مغنية من أشهرهن: سلامة القس وحبابة في عهد يزيد بن عبد الملك. هذا ويرجع الفضل في ازدهار فن الغناء والموسيقى إلى الوليد بن يزيد حيث أطلق عليه كما يذكر المسعودي[2] خليع بن مروان، فكان أول من حمل المغنين إليه، وأول من أظهر الشرب والملاهي. أما هشام بن عبد الملك، فكان أول من أنشأ حلبة لسباق الخيل، حيث يذكر المسعودي أنه اجتمع لديه أربعة آلاف فرس.

---

[1] ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون ـ ص٣٠٥.

[2] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٢١٦.

نظرية وراثة العهد: عمل معاوية وحارب لكي يصل إلى الخلافة، وكان يعتمد في حربه على أن الخليفة عثمان قتل مظلوماً وحركوا مشاعر الناس حول هذا الاتجاه، واستطاعوا كسب العطف من جهة، والوقوف إلى جانبهم من جهة أخرى أي أن وسائل الإعلام الأموية اتخذت من مقتل الخليفة عثمان وسيلةً لنقل الخلافة إلى البيت الأموي، ونجحت هذه الوسائل في دعايتها وأساليبها وتجربتها، وساعدها على ذلك وحدة الصف من جهة والقيادة السياسية الناجحة التي مثلها معاوية في تعامله مع أنصاره ومع خصومه، واستخدم المال لكسب الخصوم، كما استخدم العصبية بكل أشكالها وأبعادها، واستخدم الحيل والتشهير بالخصوم كما استخدم وسائل القتل غير المباشر كما فعل مع ابن الأشتر عندما أرسل له من سقاه السم.

وكان معاوية يعمل جاهداً وهو أمير على دمشق على إبعاد أهل الشام عن تداول ومعرفة كل الروايات التي تتصف بالمغازي والسير[1]، معتمدين أن الصحابة الأوائل قد انتهوا أو شارفوا على الانتهاء، وما بقي منهم كان قد اندمج بالواقع الجديد للدولة الجديدة. ثم إن معاوية بعد أن استلم السلطة أراد أن يغير في أسلوب الحكم ويطوره وفق الواقع الجديد الذي رسمه أي أن نظام الحكم الذي كان قبله ليس ثابتاً ويجب تطويره حسب مقتضيات الحاجة.

وكان سبب منع أهل الشام من الإطلاع على كتب المغازي و السير خشية الأمويين من معرفة الواقع و الحقيقة، و بذلك يندد أهل الشام بسياستهم و يثورون عليهم، و لتأكيد ذلك نستمع لقول ابن منظور: إن عبد الملك بن مروان كان قد أشرف على أصحابه و هم يذكرون سيرة الخليفة عمر فغاظه ذلك فقال: «أيها" عن ذكر عمر فإنه إزراء على الولاة مفسدة للرعية »[2]، و قال ابن كثير إن عبد الملك بن مروان قال: «أنهى عن ذكر عمر فإنه مرارة للأمراء مفسدة للرعية »[3].

و سار الوليد على نهج والده فحاول كما يذكر السيد حسين عطوان طمس سيرة الخليفة عمر بن الخطاب و إخفاءها، و يذكر البلاذري في كتابه أنساب الأشراف أن المدائني قال: إن الوليد

---

[1] حسين عطوان ـ الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي ـ طبع ذر الجبل ١٩٨٦ ـ ص٦٧.

[2] ابن منظور ـ أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ـ لسان العرب ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بلا تاريخ ـ مادة تسد.

[3] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٦٦.

ابن عبد الملك كان قد قال: «لا تحدثونا عن عمر بن الخطاب، فإن حديثه طعن علينا» والأسباب كثيرة لدى الأمويين لمنع تداول المغازي و السير، لأنهم ناصبوا الإسلام العداء، و حاربوا الإسلام حتى ملوا القتال و عجزوا عن المقاومة فاستسلموا للواقع الجديد على مضض، إلا أنهم أخفوا في صدورهم أمورا" كثيرة ترجموها إلى واقع في الوقت المناسب.

و ساعدهم على هذا المنع أن أشاعوا في الشام منذ البداية أحقيتهم بالخلافة لقرابتهم من الرسول وأشاعوا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن له من يرثه غيرهم، ولتأكيد ذلك يقول هشام ابن الكلبي إن مشيخة من أهل الشام قالوا لأبي العباس السفاح: «وا لله ما علمنا أن للرسول - صلى الله عليه وسلم - قرابة يرثونه إلا بني أمية حتى وليتم»[1].

أدرك معاوية منذ البداية أن كل ما ورد لا يعطيهم الحق بالخلافة وخاصةً قرابتهم من الخليفة عثمان[2] ولا أي ادعاء آخر مهما كان، لذلك اعتمد نظرية جديدة على غرار أصحاب النظريات الأخرى كنظرية حصر الخلافة في قريش، ونظرية الشورى المطلقة عند الخوارج الذين أسقطوا شرط النسب والقرشية، ونظرية وراثة الخلافة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند الشيعة من جهة والعباسيين من جهة أخرى.

أمام هذا الزخم من النظريات اعتمد معاوية نظرية الجبر في الخلافة، وتعلقوا بها لإثبات حقهم فيها، وراحوا ينشرون هذا المذهب في كل مكان، وسخروا لذلك كل وسائلهم وعلى رأسها الشعراء، فمنذ البداية اعتمد الأمويون نظرية أن الله اختارهم للخلافة وأحاطوا الخلافة بهالة من القداسة وفخموا الخليفة، وكان أول من أعلن هذا المبدأ معاوية، عندما قال لأهل الكوفة: «قاتلتكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[3]، وقال: «الأرض لله وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وما تركت للناس فبالفضل مني»[4]، وقال إنه لملك آتانا الله إياه.

---

(1) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ - ص١٥٩، المسعودي - مروج الذهب - ج٤ - ص٤٣، المقدسي - البدء والتاريخ - ج٦ - ص٧٣.

(2) حسين عطوان - الشورى في العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٩٠ - ص٢٩.

(3) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٨ - ص١٣١.

(4) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٥ - ص٢٧.

وتحدث الولاة بمثل ذلك، فها هو زياد بن أبيه يقول إن الله اختار الأمويين للخلافة وإنهم يؤمنون بقضائه ويعملون بتوفيقه[1]، وقال الحجاج بن يوسف إن عبد الملك بن مروان خليفة الله على الأرض[2]، وبهذا يعتبر الحجاج الخلفاء بمثابة الأنبياء الذين جعلهم الله خلفاءً في الأرض كآدم أبي البشرية الذي خاطب الله سبحانه ملائكته بأنه جاعله في الأرض خليفة يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي أن الأمويين و ولاتهم رفعوا الخلفاء إلى مرتبة الأنبياء وبذلك يكون الأمويون أول من أوجد مذهب القدرية والجبرية بهذا الشكل.

اعتماد الولاة: عندما آلت الخلافة إلى معاوية أصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية الإسلامية، فبنى بها قصراً أسماه الخضراء[3]، واتّخذ فيه السرير وأحاط نفسه بالحجاب، وجعل الحرس والشرطة[4] لحراسته عندما كان يصلي بالمقصورة، وكانت كل أقاليم الدولة وولاتها تخضع لسلطته المركزية. إذاً حارب معاوية وصبر طويلاً للوصول إلى السلطة، وهادن امبراطور بيزنطة، وصالح الجراجمة، وعندما وصل اختار أو عقد صفقات مع بعض القادة الذين كان لهم دور فعال في استقرار الدولة لما لهؤلاء الحكام من حنكة سياسية، فمنحهم سلطات واسعة من أهم هؤلاء الذين كان لهم الفضل في توطيد دعائم الدولة:

- عمرو بن العاص.
- المغيرة بن شعبة.
- زياد بن أبيه.

ومن خلال الدراسة نلاحظ أنهم لم يكونوا من طبقة اجتماعية واحدة بل على العكس كانوا من طبقات مختلفة، ومن قبائل متعددة ومن أنساب مختلفة، ومع ذلك كانوا يتفاوتون في المنزلة والرتبة، فمثلاً عمرو بن العاص أو المغيرة أو زياد كانوا بمنزلة وزراء لمعاوية يستشيرهم في الأمور الجسام، لذلك كان دورهم فعّالاً في مختلف المجالات، ومثل هؤلاء كانوا يتمتعون بميزات واسعة ويتولون أفضل الأعمال. وكان لهم حريّة التصرف ضمن أعمالهم على ألا تتجاوز مصالح السلطة المركزية بدمشق.

---

(1) الجاحظ - البيان والتبيين - ج٢ - ص٤٩، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٢٠، ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٤ - ص١١٢، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٤٤٩.

(2) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص٣٢.

(3) المسعودي - التنبيه الأشراف - تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي - طبع مصر - بدون تاريخ - ص٢٦١.

(4) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٢٧٤، ابن سعد - طبقات ابن سعد - ج٧ - ص١٠٨.

أولاً ـ عمرو بن العاص[1]: هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ابن عمرو الهصيص بن كعب بن لؤي بن غالب أمه النابغة[2] وهي من ذوات الراية في الجاهلية[3] كنى أبو عبد الله، ويقال: أبو محمد القرشي السهمي، له صحبة، قدم مصر في الجاهلية بتجارة. أرسلته قريش إلى الحبشة للإيقاع بالمسلمين المهاجرين إليها. أسلم عام الفتح حسب أكثر الروايات، قال ابن عساكر: أرسله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على غزوة ذات السلاسل والياً لعلمه بالحرب والمكيدة، وكان أحد دهاة العرب، وقال: بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جيش ذات السلاسل إلى لخم وجذام، وقال: بعثه رسول الله على غزوة ذات السلاسل، وعقد له لواءً على سراة أصحاب الرسول.

وجهه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشام، وأمره أن يدعو أخوال أبيه العاص من بلي[4] إلى الإسلام ويستنفرهم إلى الجهاد، ومن هناك طلب من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإمداد فأمدّه بجيش فيه أبو بكر، وعمر، والأمير أبو عبيدة بن الجراح. فقال عمرو: أنا أميركم فقال أبو عبيدة: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد إليّ فقال: إذا قدِمت على عمرو فتطاوعا ولا تختلفا فإن خالفتني أطعتك، قال: فإني أخالفك فسلم أبو عبيدة وصلى خلفه. وبعثه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والياً على عمان، وقيل: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثه إلى البحرين، وشهد اليرموك أميراً على كردوس، وأرسله الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أميراً على أحد جيوشه الموجهة إلى الشام تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح.

دخل دمشق قبل الفتح برسالة من أبي بكر، وشهد فتحها، وله بها أربعة دور الأول: عند سقيفة كرمس في جيرون[5]، والثاني: في ناحية باب الجابية[6] ما بين دار الشعارين وزقاق الهاشميين،

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤٦ ـ ص١٠٨ ومابعدها.

[2] قال ابن هشام الكلبي: النابغة من ذات الرايات هي أم عمرو بن العاص كان قد وقع عليها عدة من قريش وعندما ولدت عمرو احتلف عليه أبو سفيان، والعاص بن وائل فنسبت إلى العاص.

[3] ابن هشام الكلبي ـ مثالب العرب ـ ص٧٨.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٣٢.

[5] جيرون ـ أحد أبواب مدينة دمشق ـ وقيل جيرون عمود عليه صومعة والأصح أنه أحد أبواب الجامع الأموي بدمشق، وقيل جيرون اسم مدينة دمشق ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص١٩٩.

[6] باب الجابية ـ أحد أبواب مدينة دمشق.

والثالث: في رحبة الزبيب، والرابع: تعرف بالمارستان، عند عين الحمى. تمكن من فتح مصر سنة عشرين هجرية بأمر الخليفة عمر رضي الله عنه، وبقي والياً عليها إلى أن عزله عنها الخليفة عثمان. ذكر عنه أنه قال: لقد قعدت مقعدي هذا، وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت وإن شئت بعت، وإن شئت حميت، إلا أهل أنطابلس[1]. فإن لهم عهداً نوفي به. وتمكن عمرو ابن العاص من فتح طرابلس[2].

بعد أن عزله عن مصر أخذ يحرض الناس على الخليفة عثمان حتى قتل الأخير. بعد ذلك استشار عمرو بن العاص ابنيه عبد الله، ومحمد أي الفريقين يقصد؟ معاوية أم الإمام علياً فقال له ابنه الأكبر عبد الله: إن كنت لابد فاعلاً فإلى علي، فرد عليه عمرو: ثكلتك أمك إني إن أتيت علياً قال لي: إنما أنت رجل من المسلمين. وإن معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره فأتى معاوية. علماً أن ابنه الآخر محمداً كان قد قال له: أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أرى أن تختلف العرب في جسيم أمورها، وأنت لا يرى مكانك.

أخيراً قال عمرو لابنه عبد الله: أما أنت فأشرت علي ما هو خير لي في آخرتي، وأما أنت يا محمد فأشرت عليّ بما هو أنبه لذكري، وقيل: استشار غلامه وردان حول ذلك فوافقه على التوجه إلى معاوية، وقيل: إن عمرو بن العاص دعا غلامه وردان فقال: ارحل يا وردان، حط يا وردان، فقال وردان: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت علي معه الآخرة، وفي الآخرة عوض عن الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بلا آخرة، وليس في الدنيا عوض عن الآخرة فأنت متخيّر بينهما، ثم قال: أرى أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك.

عند ذلك أرسل عمرو إلى معاوية، وارتحل إليه وقيل إن عمراً قال ذات يوم لمعاوية: يا معاوية أحرقت كبدي بقصصك، أترى إذا خالفنا علياً لفضل منا عليه، لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايم الله لتقطعنّ لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك، فأعطاه مصر، يعطي أهلها عطاءهم وأرزاقهم، وما بقي فله.

---

[1] انطابلس - مدينة بين الاسكندرية وبرقة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٦٦.

[2] طرابلس - معناها ثلاث مدن على شاطيء البحر غزاها عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٥.

خلال اجتماع معاوية، وعمرو بن العاص أخذ كل منهما يكايد صاحبه فقال عمـرو لمعاويـة أعطني مصر، فتلكأ معاوية وقال: ألم تعلم أن أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علـي. أثنـاء ذلـك دخـل عتبة بن أبي سفيان، فقال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصـر، إن هـي صفـت لـك، فأعطـاه مصر[1]. واشترك عمرو بن العاص مع معاوية في صفين، وهو صاحب فكرة رفع المصـاحف فيهـا[2]، وبذلك قيل هو أول من أفسد أمر الناس.

وعند التحكيم دعا معاوية عمرو بن العاص، وحوله إخوته وأناس من قريش فقال: يا عمرو: إن أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى الأشعري، وهو لا يريده، ونحن بك راضون، فإذا قـال، فدعه فليقل، ثم قل و أوجز وأقطع المفاصل، ولا تلقه بكل رأيك، فإن خوفك بأهل العـراق فخوفـه بأهل الشام، وإن خوفك بعلي فخوفه بمعاوية، وإن خوفك بمصر فخوفه بـاليمن وإن أتـاك بالتفسـير فأته بالجمل. فقال عمرو بـن العـاص: والله لأفتين عللـه، ولأستخرجن خبيئتـه، ولكـن إذا جـاءني بالإيمان والهجرة ومناقب علي فما أقول، فقال معاوية: قل ما تـرى، قـال عمـرو: فهـل تدعـني ومـا أرى. وقصة التحكيم ودور عمرو بن العاص فيها معروف.

لما صار الأمر إلى معاوية استكثر مصر على عمرو ما عاش، وعمرو كان يـرى أن الأمـر كلـه كان قد تم وصلح بتدبيره وسعيه. وكان يظن أن معاوية يستزيده الشام مع مصر فلـم يفعـل فتنكـر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا، فدخل بينهما معاوية بن خديج فأصلح أمرهما، وكتب بينهما كتاباً، وشرط فيه شروطاً لمعاوية وعمرو خاصة وللناس عامـة. وأن لعمـرو ولايـة مصـر مـا عـاش، وعلـى عمرو السمع والطاعة لمعاوية، ثم مضى عمرو إلى مصر والياً.

معاوية وعمرو بن العـاص: ذكـر أن معاويـة كـان قـد عـزل عمـرو بـن العـاص عـن مصـر، فاستدعى عمرو مولاه وردان وأخبره الخبر فقال وردان من يستعمل قـال: أبـا الأعـور، قـال: دعـني وإياه أصنع له طعاماً ولا ينظر في كتابه حتى يأكل، فلما دخل أبو الأعور على عمرو أخرج الكتاب فقال عمرو ما تصنع بالكتاب لو جئتنا برسالة قبلنا منك، فقال وردان: ضع الكتاب وكل، فقال أبو

---

(1) الإسحاقي - محمد بن عبد الله المعطي بن أبي الفتح بن أحمد ابن عبد الغني بن علي الإسحاقي - كتاب أخبار الأوّل فيمـن تعـرف في مصر من أرباب الدول - نسخة مصورة عن الطبعة المصرية ١٣٠٠ هـ - ص٤١-٤٢.

(2) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٤٢.

الأعور لعمرو: انظر في الكتاب، قال: ما إن ينظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه وجعل يأكل فاستدار وردان فأخذ الكتاب، فلما فرغ أبو الأعور من غذائه طلب الكتاب فلم يجده، فقال: أين كتابي، فقال له عمرو: أو ليس جئتنا رأى التحسن إليك، قال: بل استعملني أمير المؤمنين وعزتك، قال: مهلاً، لا يظهر هذا منك، فإنه قبيح ونحن نصلك ونحسن إليك فرضي الصلة، فبلغ معاوية فضحك وتعجب من فعل عمرو ثم أمره على عمله[1].

وقيل: «وفد عمرو إلى معاوية ومعه أهلُ مصر، فقال لهم عَمرو: انظروا، إذا دخلتم على ابن هند فلا تُسلّموا عليه بالخلافة، فإنه أعظم لكم في عينه، وصغّروه ما استطعتم. فلما قدموا عليه قال معاوية لحجّابه: إني كأني أعرف ابن النابغة وقد صغّر أمري عند القوم، فانظروا إذا دخل الوفد فَتعتعوهم أشدّ تعْتَعَة تقدرون عليها، فلا يبلغني رجل منهم إلاّ وقد همّته نفسه بالتّلف. فكان أوّل مَنْ دخل عليه رجل من أهل مصرَ يقال له ابن الخيّاط، فدخل وقد تُعتِع، فقال: السّلام عليك يا رسولَ الله، فتتابع القومُ على ذلك، فلما خرجوا قال لهم عمرو: لعنكم الله! نهيتكم أن تسلّموا عليه بالإمارة، فسلّمتم عليه بالنبوّة!»[2].

يذكر ابن عساكر: أن عمرو بن العاص كان كثيراً ما يتهجّم على بني هاشم. من ذلك قوله لعبد الله بن عباس في مجلس معاوية: يا بني هاشم، أما والله لقد تقلّدتم بقتل عثمان قرم الإماء العوارك أطعتم فساق أهل العراق في عتبة وأجزرتموه مُرّاق أهل مصر، وأوتيتم قتله، وإنما نظر الناس إلى قريش، ونظرت قريش إلى بني عبد مناف، ونظرت بنو عبد مناف إلى بني هاشم.

فقال ابن عباس لمعاوية: يا معاوية ما تكلم عمرو إلا عن رأيك، وإن أحق الناس ألا يتكلم في أمر عثمان لأنتما، أما أنت يا معاوية فزينت له ما كان يصنع حتى إذا حصر طلب نصرك، فأبطأت عنه وأحببت قتله وتربّصت به، وأما أنت يا عمرو فأضرمت المدينة عليه، وهربت إلى فلسطين تسأل عن أنبائه فلما أتاك قتله، أضافتك عداوة عليّ إن لحِقت بمعاوية، فبعت دينك بمصر.

---

(1) البيهقي ـ إبراهيم بن محمد البيهقي ـ المحاسن والمساوىء ـ طبع بيروت ـ دار صادر بلا تاريخ ـ ص١٣٠.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٣٠ ـ ٣٣١ ـ يذكر البلاذري أن أهل حمص هم الذين أمرهم عمرو بن العاص بما ورد (البلاذري ـ كتاب جمل من أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص٣٧).

وقال عمرو بن العاص: أربعة لا أملهن أبداً جليسي ما فهم عنّي، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملتني، وامرأتي ما أحسنت عشرتي، وقال: ليس الحليم من يحلم عمّن يحلم عنه ويجاهل من جاهله، ولكن الحليم من يحلم عمّن يحلم عنه ويحلم عمن جاهله. المهم أن عمرو بن العاص كان كما ذكرنا من أكبر دهاة العرب، وكان في تعامله مع معاوية الرابح الأوّل.

ثانياً ـ المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس ـ وهو من ثقيف ـ كنيته أبو عيسى وقيل أبو عبد الله، ويقال: أبو محمد ـ الثقفي. له صحبة، وصف بأنه كان طويلاً، أصهب الشعر ـ أجعد ـ ضخم الهامة ـ عبل الذراعين، أقلص الشفتين، يخضّب بالحمرة، وكان أعور أصيبت عينه يوم اليرموك، وكان يفرق رأسه فروقاً أربعة، بعيد ما بين المنكبين. أمه امرأة من بني نضير بن معاوية، وقيل هي أسماء بنت الأفقم بن عمرو بن طويلم بن جعيل بن عمرو بن دهمان بن نصر. كان يقال له مغيرة الرأي، وكان داهية، لا يشتجر في صدره أمران إلا وجد في أحدهما مخرجاً، شهد المشاهد مع رسول الله، وقدم وفد ثقيف فأنزلهم عليه، أسلم عام الخندق[1] وصف بأنه كان قبيحاً[2].

بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أبي سفيان بن حرب إلى الطائف[3]، فهدموا الصخرة التي كانت ثقيف تعبدها بالطائف. وقيل: كان يحمل وضوء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وشهد الحديبية مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل: أصيبت عينه يوم الطائف. ذكر عنه أنه في الطبقة الثالثة، وليّ البصرة نحواً من سنتين كما يذكر ابن عساكر. وله بالكوفة دار في ثقيف. وقيل كان يلزم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مقامه وأسفاره، دفن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان آخرهم عهداً به لدهاء كان منه.

يذكره ابن عساكر ويروي قصّة إسلامه[4] عندما توجه وفد من بني مالك إلى المقوقس حاكم

---

[1] ابن الأثير ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ج٤ ـ ص٤٠٦.

[2] ابن قتيبة ـ أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ عيون الأخبار ـ نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب ـ بدون تاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٧.

[3] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٢ ـ ص١٧٨ ـ ج٥ ـ ص٢٩.

[4] ابن سعد ـ محمد سعد بن منيع البصري الزهري ـ الطبقات الكبرى ـ طبع بيروت ١٩٦٠ ـ ج٤ ـ ص٢٨٥، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٠ ـ ص١٩.

مصر، وكان واحداً من الوفد، وكان من الأحلاف. فكان كما يروى عن نفسه أهون القوم عند المقوقس. ثم أمر المقوقس لهم بهدايا وجوائز، وفضّل بعضهم على بعض، وقصّر مع المغيرة فلم يعطِهِ إلا شيئاً قليلاً لا ذكر له، ثم خرجوا وحملوا معهم الخمر، وفي الطريق قرّر قتلهم بعد أن سكِرِ الجميع وأخذ ما معهم، ثم قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم و روى قصّته للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال له: «أما إسلامك فنقبله ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمسه لأن هذا غدر، والغدر لا خير فيه».

بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أرسله أبو بكر إلى أهل النيجر، وشهد اليمامة، كما شهد فتوح الشام مع المسلمين، وشهد اليرموك وبها أصيبت عينه[1]، ثم شهد القادسية، وكان رسول سعد بن أبي وقّاص إلى رستم[2]، و ولي للخليفة عمر بن الخطاب البصرة، ففتح ميسان، ودست ميسان، ولَقِيَ العجم بالمرغاب فهزمهم وفتح سوق الأهواز، وغزا نهر تيري ومناذر الكبرى فهرب من فيها من الأساورة إلى تستر، وفتح همذان، وشهد نهاوند. وكان على ميسرة النعمان بن مقرن، وكان الخليفة عمر قد كتب: إن هلك النعمان فالأمير حذيفة فإن هلك فالمغيرة، والمغيرة أول من وضع ديوان البصرة[3]، ولي الكوفة للخليفة عمر فقتل الخليفة وهو عليها، ثم وليها بعد ذلك لمعاوية فمات وهو وال عليها. و ولي البحرين للخليفة عمر وقيل بعثه الخليفة عمر على اليمن ثم عزله عنها، وبعثه إلى الكوفة.

عندما كان والياً على البصرة كان بها امرأة من بني هلال بن عمرو يقال لها أم جميل، وكانت امرأة بدينة، ولها زوج من ثقيف يقال له الحجاج بن عبيد الله فهلك الزوج، فكان المغيرة يدخل عليها فعلِم أهل البصرة به، فأعظموه حتى أساء به الظن أناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعلوا يرصدونه، فخرج المغيرة يوماً فدخل عليها، فانطلق أبو بكرة الثقفي، ومسروح بن يسار، وزياد بن عبيد (ابن أبيه) وشبل بن معبد البجلي، ونافع بن الحارث بن كلدة، فأتوا الباب فكشفوا الستر، والمغيرة مع المرأة فشهدوا أنه قد واقعها.

---

(1) ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج٤ - ص٤٠٧، يذكر ابن عساكر أن عينه أصيبت بالطائف.

(2) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ - ص٣٩.

(3) ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج٤ - ص٤٠٧.

توجه أبو بكرة إلى العاصمة المركزية المدينة فدخل على الخليفة عمر فقص عليه القصة فوجه الخليفة أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) أميراً على البصرة، وأمره أن يسرح المغيرة والذين يشهدون عليه، وأرسل معه أنس بن مالك في نفر من الأنصار، فلما قدم أبو موسى البصرة سير المغيرة والشهود إلى الخليفة عمر. فلما قدموا عليه سألهم فشهد ثلاثة، فأثبتوا الشهادة على المغيرة وتقدم الرابع وهو زياد بن أبيه، فقال: رأيت منظراً قبيحاً، ونفساً عالياً، وما رأيت الذي فيه ما فيه الأمر.

وكان الخليفة عمر قد قال عندما تقدم ابن زياد إلى الشهادة: «إني لأرى وجه رجل لا يخزي الله به رجلاً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ثم إن الخليفة عمر جلد أبا بكره وأصحابه الثلاثة، فقال أبو بكرة: أما والذي بعث محمداً بالحق لقد رأى زياد مثل الذي رأيت، ولكنه كتم الشهادة، وإن المغيرة لزان، فأراد الخليفة عمر أن يعيد عليه الحد مرةً أخرى، فقال له الإمام علي: إذاً تكمل شهادته أربعة، ويحل على صاحبك الرجم فتركه.

وذكر عنه أنه قال: «أنا أول من رشا في الإسلام، وقال: كنت آتي فأجلس في الباب أنتظر الدخول على عمر، فقلت ليرفأ حاجب عمر: خذ هذه العمامة فالبسها فإن عندي أختاً لها، فكان يدخلني حتى أجلس وراء الباب، فمن رآني قال إنه ليدخل على عمر في ساعة لا يدخل عليه فيها أحد»[1].

ومن دهائه: لما قبض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال المغيرة بن شعبة للإمام علي: قم فاصعد المنبر، فإنك إن لم تصعد صعد غيرك، قال: فقال: والله إني لأستحي أن أصعد المنبر، ولم أدفن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قال: فصعد غيره. وقال المغيرة أيضاً للإمام علي: لئن لم تطعني لأعتزلنك، ابعث إلى معاوية عهده ثم اخلعه بعد ذلك، فلم يفعل، فاعتزله المغيرة باليمن، فلما حدث الخلاف بين الإمام علي ومعاوية لم يبعث أحداً إلى الموسم، فجاء المغيرة فصلى بالناس ودعا لمعاوية. وقيل افتعل كتاباً عام الجماعة بإمارة الموسم فحجّ، وتخلّف عنه ابن عمر.

وقصته مع معاوية في ولاية العهد معروفة وقد وردت، وكان معاوية يرغب كثيراً في أن يرى المغيرة، وعمرو بن العاص على نقيض، والمغيرة هو الذي قال لمعاوية: «أتؤمر عمرو بن العاص على الكوفة، ويؤمر ابنه عبد الله على مصر، وتكون كالقاعد بين لحي الأسد»[2]، وقيل قال له: جعلت

[1] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٠ ـ ص٤٠، ابن الأثير ـ أسد الغابة ـ ج٤ ـ ص٤٠٧.

[2] المرجع نفسه ـ ج٦٠ ـ ص٤٦.

الأسد بين يديك وشبليه بين كتفيك.

وذكر ابن عساكر: أن المغيرة كان اعتزل في الصراع الدائر بين الإمام علي، ومعاوية فلما صار الأمر إلى معاوية كتب إليه المغيرة: إني أشكو إلى الله وإليك كبر سني، ونفاذ أهل بيتي، وجفوة قريش عني، فرد عليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فإنك لم يكن يشركك فيما ذهب منك أحد، وأما ماذكرت من نفاذ أهل بيتك فقد توفي أبو سفيان، فما عدمت منهم شيئاً، وأما جفوة قريش عنك، فهم حملوك على رقاب الناس.

وقال ابن عساكر: عندما كتب ما ورد إلى معاوية كان عنده زياد فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زياد فطلب زياد الرد عليه فقال: أما ما ذكرت من ذهاب عمرك فإنه لم يأكله أحد غيرك، وأما ما ذكرت من فناء أهل بيتك فلو أن أمير المؤمنين قدر أن يقي أحداً الموت لوقى أهل بيته، وأما ما ذكرت جفوة قريش إياك، فإن يكون ذاك وهم أمّروك.

قيل عن المغيرة إنه لم يأخذ عقدة إلا حلها، وقيل: لو أن المدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر ليخرج المغيرة من أبوابها كلها، وقال: ما خدعني أحد في الدنيا إلا غلام من بني الحارث خطبت امرأة منهم، فقال الغلام: أيها الأمير لا خير لك فيها، إني رأيت رجلاً يقبلها، ثم تزوجها الغلام، فسأل المغيرة الغلام لماذا فعلت ما فعلت؟، قال: ما كذبت، رأيت أباها يقبلها فخدع المغيرة. وقال المغيرة من لم يغضب لم يعرف حلمه.

وقيل للمغيرة: ما بقي من لذتك، قال: الأفضال على الإخوان، قيل: فمن أحسن الناس عيشاً؟، قال: من عاش بعيشة غيره، قيل: فمن أسوأ الناس، قال: من لا يعيش بعيشه أحد، وكان يقول لنسائه: إنكن لطويلات الأعناق، كريمات الأخلاق، ولكني رجلٌ مطلاق[1]، وقيل أحصن المغيرة سبعين امرأة، وقيل[2]: إن المغيرة أحصن ثلاثمائة امرأة في الإسلام، وقيل ألف امرأة، وكان المغيرة بن شعبة نكاحاً للنساء، يقول ابن عساكر إن المغيرة كان يقول: «أحصنت ثمانين امرأة، فأنا أعلمكم بالنساء، كنت أحبس المرأة لجمالها وأحبس المرأة لولدها، وأحبس المرأة لقومها، وأحبس المرأة لمالها، فوجدت صاحب الواحدة إن زارت زار، وإن حاضت حاض، وإن نفست نفس، وإن

---

[1] الأصفهاني - أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني - كتاب الأغاني - تحقيق مجموعة - طبع بيروت ١٩٩٢ - ج١٦ - ص٨٧.

[2] ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - ج٤ - ص٤٠٦

اعتلت اعتل معها بانتظاره لها، ووجدت صاحب التنتين في حرب همـا نـاران يشتعلان، ووجـدت صاحب الثلاث في نعيم، وإذا كن أربعاً كان في نعيـم لا يعدلـه شـيء، ولا يقتصـرن أحدكـم علـى الواحدة فيكون مثله مثل أبي جفنة وامرأته أم عقّار أنه قال لها:

إذا كنت خاطباً فإياك وكل بجفرة، مبخرة منتفخة الوريد، كلامها وعيـد، وبصرهـا حديـد، سفعاء فوهاء، قليلة الإرغاء، دائمـة الدعـاء، سـلفع، لا تـروى ولا تشبـع، دائمـة القطـوب، عاريـة الظنبوب، حديدة الركبة، سريعة الوثبة، شـرّها يفيـض، وخيرهـا يغيـض، لا ذات رحمـة قريبـة، ولا غريبة نجيبة، إمساكها مصيبة، طلاقها حريبة، فضول مثناث، حبلهـا رفـات وشـرها ديـات، واغـرة الضمير عالية الهدير، شثنة الكف، غليظة الخف، لا تعتذر من علـة، ولا تـأوي مـن قلـة، تـأكل لمّـا، وتوسع ذما، تفشي الأسرار، وتؤذي الأخيار، وهي مع ذلك من أهل النار.

فأجابته امرأة فقالت: بئس لعمرو الله ما علمت، زوج المرأة المسـلمة، قضمـة حطمـة، أحمر المأكمة، محزون اللهزمة، جلد عنز هرمة، وسرة متقدمة، وشعره صهباء، وأذن هدباء، ورقبة هلبـاء، لئيم الأخلاق، ظاهر النفاق، صاحب حقد وهم وحزن، رهين الكاس، زعيم الأنفاس، بعيد من كل خير، يسأل الناس إلحافاً، وينفقه إتلافاً، ووجهه عبـوس، وشـره ينـوس، وخـيره محبـوس، أشـأم مـن البسوس، لا ألوف مفيد، ولا متـلاف قصـود، فهـو شر أشنع، وبطـر أجمـع، ورأس أصلـع، بجمـع مضفدع، في صورة كلب، وبدن إنسان، هو الشيطان، بل هو أم صنبان[1] ».

وقال الحسن البصري: «أفسد الناس اثنان: عمرو بـن العـاص يـوم أشـار علـى معاويـة برفـع المصاحف فحملت وقال: أين القراء؟ فحكـم الخـوارج، فـلا يـزال هـذا التحكيـم إلى يـوم القيامـة؛ والمغيرة بن شعبة، فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتـب إليـه معاويـة: إذا قـرأت كتـابي فـأقبل معزولا ؛فأبطأ عنه، فلما ورد عليه قال: ما أبطأبك ؟ قال: أمر كنت أوطئه و أهيئه ؛قال: وما هو ؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك ! قال: أو قد فعلت ؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك؛ فلما خرج قـال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غـي لا يـزال فيـه إلى يـوم القيامـة. قـال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة»[2] .

---

(1) ابن عسـاكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج ٦٠ ـ ص ٥٥ـ ٥٦ .

(2) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص٢٤٢.

مات المغيرة بالكوفة في شعبان سنة (٥٠هـ ـ اغسطس ٦٧٠م) في خلافة معاوية، وهو ابن سبعين، وقد استخلف ابنه عروة، وقيل: استخلف جرير بن عبد الله.

ثالثاً زياد بن أبيه[1]: هو زياد بن عبيد، وقيل زياد بن سمية، وقيل زياد بن أبي سفيان، وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة الثقفي. أخوه لأمه أبو بكرة، أدرك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يره، أسلم في عهد أبي بكر، وقيل إن مولده عام هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وقيل ولد عام الفتح، يكنى أبا المغيرة، ولم يكن من الشعراء ولا الفقهاء.

استخلفه أبو موسى الأشعري على البصرة، ووفد على الخليفة عمر رسولاً من المغيرة، وكتب لأبي موسى الأشعري، وكتب لعبد الله بن عامر، وكتب للمغيرة بن شعبة، وكتب لعبد الله ابن عباس، وكلهم كانوا على البصرة، واستخلف عبد الله بن عباس، أبا الأسود الدؤلي على الصلاة، واستخلف زياداً على الخراج وبيت المال والديوان، اعتزل زياد مع من اعتزل يوم الجمل استعمله الإمام علي على فارس، ولما قتل الإمام علي احتمل المال ودخل قلعة من قلاع فارس تسمى قلعة زياد وتحصّن بها. ذكر ابن عساكر أن الإمام علياً قلّد زياد بن أبيه فارس فضبطها وحمى قلاعها، فعلم معاوية بذلك فساءه ذلك وعظم عليه، فكتب إلى زياد:

«أما بعد فإن الغش الذي رُبيت فيه معلوم عندنا، فلا تدع أن تأوي كما تأوي الطير في أوكارها، ولولا والله أعلم به لقلت ما قاله العبد الصالح: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[2]» وكتب في آخر كتابه:

لله در زيـــاد أيمـــا رجـــل ... لـو كـان يعلـم مـا يـأتي ومـا يـذر

تنســى أبــاك وقــد خفــت نعامتــه ... إذ يخطـب النـاس والـوالي لنـا عمـر

فــافخر بوالــدك الأدنــى ووالدنــا ... إن ابـن حـرب لــه في قومــه خطـر

إن ابتهـــارك قـــوم لا تناســـبهم ... إلا بـــأمك عـــارٌ ليـــس يغتفـــر

فــاترك ثقيفــاً فــإن الله بــاعدهم ... عـن كـل فضـل بـه تعلـو الـورى مضـر

فالـــرأي مُطـــرف والعقـــل تجربـــة ... فيـهـا لصاحبهـا الإيـراد والصـدر

---

[1] ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ج٧ ـ ص٩٩.

[2] سورة النمل ـ الآية ٣٧.

فلما ورد الكتاب على زياد قام في الناس فقال[1]: العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد، ورأس النفاق، يخوفني بقصده إياي، وبيني وبينه ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المهاجرين والأنصار، أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أحمز مخشياً ضراباً بالسيف.

واتصل الخبر بعلي عليه السلام، فكتب إلى زياد: أما بعد وليتك الذي وليتك، وأنا أراك له أهلاً، وإنه قد كانت من أبي سفيان فلته من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً، ولا يحل له نسباً، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه، ومن خلفه، ومن عن يمينه، ومن عن شماله، فاحذر، ثم احذر. والسلام»[2].

كان زياد حريصاً على أن يلقب بزياد بن أبي سفيان فكتب إلى السيدة عائشة من زياد بن أبي سفيان ـ وهو يريد أن تكتب إليه: ابن أبي سفيان، فيحتج بذلك ـ فكتبت إليه من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد، وقيل كتبت: «من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، فقرأه على الناس فقضى حاجته وأصبح ذلك حجةً له، وقيل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب إلى عماله فذكر زياداً فلا ينسبه.

عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر سنة (٤٧هـ ـ ٦٦٧م)، ووليها معاوية بن حديج، وعندما مات المغيرة كتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أوّل من جمع له المصرين الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة فكان يقيم فيها ستة أشهر وبالبصرة ستة أشهر. عندما قدم زياد الكوفة اتخذ المقصورة واشتدّ في ولايته فقيل إن وكيله على البصرة سمرة بن جندب قتل فيها ثمانية آلاف من النّاس[3].

كان زياد أول من شدّ أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخاف الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً. قيل في عهده كان الشيء يسقط من الرجل والمرأة فلا يتعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وكانت المرأة تبيت في بيتها فلا تغلق عليها باب دارها، وساس

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٤٤.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١٩ ـ ص١٧٥ـ١٧٦.

(3) الطبري ـ تاريخ الطبري ـ ج٥ ـ ص٢٣٧.

الناس، وأذر العطاء، وبنى مدينة الرزق[1]. وذكر أن زياداً جعل الشرطة في عهده أربعة آلاف، وعليهم عبد الله بن حصن، والجعد بن قيس النميري، وقيل إن زياداً كان أول من سير بين يديه بالحراب[2]، ومشى بين يديه بالعمد، واتخذ الحرس رابطة خمسمائة، واستعمل عليهم شيبان.

يذكر أن زياد بن أبيه كان يجلس كل يوم للنظر في أسباب عمله إلا يوم الجمعة، وكان يكتب له على الخراج زاذان فروخ، وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن أبي بكرة، وجبير بن جبد، وكان يكتب له أيضاً مولاه مرداس.

و زياد بن أبيه هو أول من جمع له المصران: الكوفة والبصرة، كما ذكرنا وأول ما أخذ الناس بملك الأعاجم، وأول من جلس على المنبر في العيدين وأذّن فيهما، وأول من أحدث الفتح على الإمام، وأول من وضع النسخ، و أول من وطأ على سماح الإمام، و أول من رد قضاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم، دعوة معاوية وقيل أول حكم رد من حكم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحكم في زياد، و أول ذل دخل العرب قتل الحسين، وادعاء زياد.

حدّد سياسته بعد التحاقه بمعاوية في خطبته المعروفة البتراء، حيث أكد فيها مبادئه العامة:

١ـ أكد على انتمائه الجديد إلى الأسرة الأموية.

٢ـ أكد على تجربته السياسية.

٣ـ أكد على أنه أمر لا يصلحه إلا شدة في غير عنف، ولين في غير ضعف.

٤ـ التهديد بالقتل والصرامة في تنفيذ الأوامر.

٥ـ أخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر.

٦ـ نبذه للأحقاد.

٧ـ أكد على المحاسبة في مجمل الأمور.

وقيل دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد، فكان معاوية للأناة والحلم، وأما عمرو بن العاص للمعضلات، والمغيرة بن شعبة فللمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير. و زياد كما ذكرنا هو أول من جمع له العراق، فذكر أنه مكث بالعراق سنتين لم يضع لبنة على لبنة

---

[1] مدينة الرزق: إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٢٢٤.

ولم يغرس شجرة .وكان يصيف بالكوفة ويشتو بالبصرة، فإذا غاب عن الكوفة استخلف سمرة بن جندب، وكان زياد إذا ولى رجلاً عملاً أمره:

- التوجه إلى عمله وقوله له:
- ان وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك.
- وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك، وإن جمعت علينا الحرمين جمعنا عليك المصرين.
- و إن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عملك.

وكان زياد قد قال: رأيت أعظام ذوي الشرف، وأجلال أهل العلم وتوفيل ذوي الأنساب، وكان قد عاهد الله عهداً: ألاّ يأتيه شريف بوضيع لم يعرف له حق إلا عاقبه، ولا يأتينه كهل يحدث لم يعرف له حق فضل سنه على حداثته إلا عاقبه، ولايأتيه عالم بجاهل لا جاه في علمه ليهجنه عليه إلا عاقبه. وقال ثلاثة لا يستخف بهم عامل السلطان، والعالم، والصديق، فإنه من استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالعالم أفسد دينه، ومن استخف بالصديق أفسد مروءته.

وقال: ما حمدت نفسي في أمر قط عقدت فيه عقدة ضعف، ولما لمت نفسي في أمر قط عقدت فيه عقدة الحزم، ولا حدثت نفسي أمراً قط فحدثت به غيري حتى أصير إليه. وقال: ما جلست مجلساً قط إلا تركت منه ما لو أخذته لكان لي، وترك بعض مالي أحب إلي من أخذ ما ليس لي. وقال: إنه ليعجبني من الرجل إذا أتى مجلساً أن يعلم مجلسه منه. وقال: ما من كلام إلا له عندي جواب.

كتب زياد بن أبيه إلى معاوية: إني ضبطت العراق بشمالي، ويميني فارغة، فضم إليه العروض (اليمامة) [1] وما يليها. بعد ذلك أصيبت يده بطاعون فمات ودفن في جانب الكوفة لأربع خلت من شهر رمضان سنة (٥٣هـ - اغسطس ٦٧٢م)، فأمر معاوية سمرة بن جندب عوضه ستة أشهر، ثم عزله فقال سمرة: «لعن الله معاوية والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية لما عذبني أبداً» [2]، وأقرّ عبد الله بن خالد بن أسيد على الكوفة.

---

[1] اليمامة: بين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر وتسمى اليمامة حجر والعروض - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٤٤٢.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٩١.

أخيراً ترك معاوية الخلافة لولي عهده والدولة ليست على وحدة متماسكة، حيث نخرت في الدولة العصبيات القبلية وكانت ظاهرة، والعصبية السياسية والفكرية والدينية ووجدت الفوارق الاقتصادية، والطبقات الاجتماعية المتفاوتة. معنى ذلك أن الدولة لم تكن متجانسة لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا اجتماعياً ولا فكرياً.

ثانياً- السياسة والتعامل مع الآخرين: وصف[1] معاوية بن أبي سفيان بأنه كان رجلاً قديراً ولم يكن عظيماً، قضى في ولاية الشام عشرين سنة، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين من أحد غير صنّاعه وأتباعه وأشياعه المستقرين في كنفه، لأنه حرص في ولايته على استبقاء من يواليه، واقصاء من يشغب عليه، وجعل همه الأكبر أن يخرج أهل الفتنة من الشام، ولا يبالي بعد ذلك ما صنعوا في سائر الولايات، فتفرقوا كلهم بين الأمصار.

كما وصف معاوية بالدهاء إلا أنه لم يكن من الطراز الأول، لا يعتمد على القدرة العقلية، على العكس اعتمد المادة والسلطان كونه يمتلك كلتيهما، والكثير من الدهاة كانوا يحتاجون لسلطانه وماله وبالوقت نفسه كان معاوية الأقرب لمثل هؤلاء، وبذلك فلا معاوية يخدع من يتعامل معه ولا هم يخدعونه، لأن كلا الطرفين كان يعلم ويعرف ما يريد، علماً أن الصراحة في مثل تلك الحالة كانت مفقودة.

أي أن معاوية أعطى الدهاة الذين تعاملوا معه لمصلحة كان يريدها، وقبلوها، لأنها مفقودة عند غيره، من ذلك ما فعله مع عمرو بن العاص والمساومة التي تمت بين الطرفين بأن تكون مصر لعمرو مدى الحياة على أن يكون تابعاً له، وهذا بحد ذاته كسب يعود بالفائدة لصالح عمرو لأنها صفقة كان فيها منتصراً، فأملى على معاوية ما رغب وأراد. يؤكد ذلك ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة.

«قال: وذكروا أن عمرو بن العاص لما قدم إلى معاوية، وعرف حاجته إليه باعده من نفسه، وكايد كل واحد منهما صاحبه، فقال عمرو لمعاوية: أعطني مصر، فتلكأ معاوية وقال: ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قال: بلى ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق. وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى عليّ. فدخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية، فقال: أما

---

[1] عباس محمود العقاد ـ معاوية بن أبي سفيان في الميزان ـ ص٢٥.

ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك؟ ليتك لا تغلب على الشام. فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو، فأعطاه مصر، ولما كتب معاوية لعمرو بمصر، كتب في أسفل الكتاب: ولا ينقض شرطٌ طاعة. وكتب عمرو، ولا تنقض طاعةٌ شرطاً، وكايد كل واحد منهما صاحبه، وكان لعمرو بن العاص ابن أخ له، جاءه من مصر؛ فلما جاء عمرو بالكتاب مسروراً به، عجب ابن أخيه من سروره، فقال:

يا عمرو ألا تخبرني بأي رأي تعيش في قريش وقد أعطيت دينك غيرك؟ أترى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعليّ حيّ؟ أو تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذك بالجدل الذي قدمه؟ فقال عمرو: يا بن أخي. إنه لأمر الله دون معاوية وعليّ. يا بن أخي لو كنت مع عليّ وسعني بيتي، ولكني مع معاوية. فقال: الفتى إنك لم ترد معاوية، ولكنك تريد دنياه، ويريد دينك. فبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب، فلحق بعليّ، وحدث علياً بأمر معاوية وعمرو، وما قاله، فسر عليّ بذلك، وقربه»[1].

المطلع على هذا النص يرى قدوم عمرو بن العاص على معاوية وتقديمه شروطاً، فكان طلب عمرو من معاوية مقابل التعامل معه مصر، وجرت مكايدة من كلا الطرفين، فخرج عمرو بن العاص من اللقاء أو الصفقة منتصراً غالباً غير مغلوب، إلا أنّ معاوية كما أرى يعتقد أنه الرابح لأن كل همه كان رأس السلطة، وإليها يسعى، وفي سبيل ذلك كل شيءٌ يهون.

السؤال هنا: أن معاوية بعد مقتل الخليفة عثمان كان يطلب الثأر لعثمان، ويطالب بقتلته، والمحرضين على قتاله، لماذا لم يتعرض لعمرو بن العاص، وهو من أشد المعارضين لعثمان والمحرضين عليه، وقد ذكر العقاد[2] أنه لو قورن بين معاوية، وبين قادته الآخرين كعمرو بن العاص والمغيرة، وزياد لكان آخر الأربعة، ويقيناً لم يكن أول الأربعة قبل عمرو بن العاص، فدهاء عمرو كان سلاح هجوم ودفاع، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع دائم.

كان المغيرة خلال الفتنة يترقب الأحداث، فلما استقرت الأمور لمعاوية لجأ إليه فولاه الحج، علماً أن المغيرة كان يطمع في ولاية الكوفة كونه كان عليها سابقاً. في هذه المرحلة فكر معاوية

---

[1] ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة ـ ج١ ـ ص٨٧ـ٨٨.

[2] عباس محمود العقاد ـ معاوية في الميزان ـ ص٧٧.

بإسناد ولاية الكوفة إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما علم المغيرة، وهو من دهاة العرب المعروفين، توجه إلى معاوية على سبيل الناصح له المهتم بالمصلحة العامة للسلطة القائمة، وفي نيته الاستفادة من الموقف، وتغيير الأحداث لصالحه، فقال لمعاوية: أتستعمل عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة، وأبوه على مصر، فتكون بين نابي الأسد، فقبل معاوية مشورة المغيرة لأنها أكسبته العداوة بين قائدين داهيتين من قواده.

أعتقد أن معاوية كان يدرك رغبة المغيرة في الكوفة فاستمع له، وقرر عزل عبد الله بن عمرو ابن العاص و ولاية المغيرة الكوفة، عندما علم عمرو بذلك وشى به إلى معاوية، فعزل المغيرة عن الخراج و ولاها شخصاً آخر، وبذلك يكون المغيرة بدهائه قد وجد ضالته في الوقت المناسب عند معاوية فحققها[1]، بالمقابل ضم معاوية إليه أحد القادة الدهاة الذين كان لهم دور فعال في قيادة الدولة.

عندما هم معاوية بعزل المغيرة بعد استقرار الأمر له، علم المغيرة بالخبر فعمل بدهاء منقطع النظير، حيث توجه إلى دمشق وكان يظهر الرغبة في الاستقالة، فلما قدم إلى دمشق قابل يزيد بن معاوية فزين له ولاية العهد، فدخل يزيد على أبيه فأعلمه بمقالة المغيرة، فطلبه معاوية واستفسر منه ما بلغه من يزيد فحدثه وتكفل بكفايته أهل الكوفة، وزياد أهل البصرة. عند ذلك قرر معاوية إعادته إلى عمله في الكوفة، وفي النهاية قال المغيرة: لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية وفتقت عليه فتقاً لا يرتق أبداً. وبذلك يعتبر المغيرة فيما ورد هو الرابح في هذه الحادثة فكسب بذلك ولاء يزيد بن معاوية من جهة، ولم يفقد ولاية معاوية من جهة أخرى.

من المعروف أن زياد بن أبيه كان آخر القادة الثلاثة الذين اعتمدهم معاوية خلال حكمه، وكان آخر من بايعه منهم، فزياد بن أبيه كان عاملاً للإمام علي على فارس وكرمان، فأرسل إليه معاوية يترضاه بالقول اللين، ودعاه يزيد بن أبي سفيان، وخاطبه على أنه أخوه ابن أبيه علّه يحرك فيه مشاعر الأخوة والأصالة، لم يستجب زياد لمعاوية، إلا بعد مقتل الإمام علي حيث تعهد المغيرة ابن شعبة أن يتوسط بين معاوية وزياد وربح المغيرة في وساطته وقدم زياد على معاوية.

---

(1) عندما عزل معاوية المغيرة قال له: «إن الأئمة قبلي لم يكونوا يستعملونك إلا على الجند، وكانوا يجعلون الأرض إلى غيرك، وإني رأيت أن لا أخالف سنة عمر وعثمان»، ابن عساكر - تاريخ دمشق - ج٦ - ص٤٧.

من المعلوم أن العطاء كان عماد الدولة الأموية، ولنقل إن المال كان عماد دهاة الدولة الأموية، وعلى رأسهم معاوية وقادته الثلاثة (عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه) يؤكد ذلك أن نقش الخاتم لمعاوية بعد ولايته «لكل عمل ثواب» إلا أن المال لم يعمل في المعارضين لسياسته حول ولاية العهد كالحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذين لم يبايعوا يزيد في ولاية العهد، و لم يبايع أيضاً قيس بن سعد بعد أن تم الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية.

اعتمد معاوية منذ أن كان أميراً العمل على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته[1]، وكان هاجسه ألا يرى رجلين ذوي رأي وشجاعة في دولته على وفاق، كما حدث بين عمرو بن العاص، والمغيرة. الحقيقة الصعبة التي كانت تكمن في جمع يضم معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وكل منهم يعرف الآخر، وكل منهم يعلم أنه بحاجة للآخر، إلا أن حاجة معاوية لهما كانت أشد من حاجتهما إليه، فعمرو بن العاص كان من المحرضين على قتل الخليفة عثمان، ومعاوية كان يطالب بدمه، إذاً المفروض أنهما خصمان فلماذا حدث التقارب ونسي معاوية ما قام به عمرو من أفعال ضد الخليفة عثمان، و لم يذكرها ونسيها الرواة وكذلك المؤرخون.

يذكر المؤرخون العرب عمرو بن العاص، وكيف كان يحرض الناس على عثمان في كل مكان، وكيف أصبح الساعد الأيمن لمعاوية الذي كان يطلب الثأر لعثمان، كيف تم جمع هذا النقيض الغريب، وكيف قبله المؤرخون والرواة العرب بدون تعليق، ألم يدل على أن معاوية لم يطلب بالثأر إنما كان يعمل لطلب السلطة، ومن أجلها كان يبذل كل غال ورخيص، ولاستمرارها أيضاً كان يصطنع الرجال بكافة الوسائل، وكان المال إحدى تلك الوسائل.

وعمد معاوية خلال حياته إلى التفرقة الجغرافية، فعمل على التفرقة بين مكة والمدينة من خلال المهاجرين والأنصار، كما عمد إلى التفرقة بين المنطقة الجغرافية الواحدة كما حدث عندما

---

[1] محمد حسن شراب ـ المدينة في العصر الأموي ـ دراسة سياسية وإدارية وإجتماعية وإقتصادية وفكرية ـ طبع دمشق ١٩٨٤ـص٨٢.

عمل على التفرقة بين مكة وأهل الطائف، حين قرب أهل الطائف على سواهم، وفرق بين أفراد الأمويين كما ذكر حين فرق بين بني حرب، وبني العاص، وفرق بين بني العاص، وبين بيت سعد، وبيت مروان وغير ذلك من المحاولات في هذا الميدان. وعمل على النزاع والتفرقة بين القبائل العربية وخاصةً بين اليمانية والمضرية، إذاً كانت عصبية النسب عنواناً من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن، وقبائل مضر في دولة بني أمية.

وأبرز ما برع فيه معاوية بعد استلامه للسلطة هو إلقاء الشبهات بين خصومه في الداخل والخارج، ففي الداخل لا ننسى ما فعله معاوية مع صاحبه عمرو بن العاص في إلقاء الشبهة على قيس بن سعد، والي مصر للإمام علي، وفي الخارج كان معاوية إذا أراد أن يستميل أحد البطارقة الرومان فاستعصى عليه، كتب له رسالة مودة وثناء وأرسلها إليه مع الهدايا والرشاوي، وكأنها جواب على طلب منه يساوم فيها على المصالحة والغدر برؤسائه من الروم، فكان يأمر رسوله العربي أن يتوجه برسالته من طريق ملتوٍ بعيد، فإذا اعتقل وهو الغاية والهدف فيأخذون ما معه وتقع الشبهة على البطريق المقصود، فيتم عزله وإبعاده.

كما اعتمد معاوية وسائل خفية اعتمدها ضد خصومه يذكرها المؤرخون، من ذلك ما يذكره العقاد في كتابه معاوية في الميزان نقلاً عن المؤرخين أمثال الطبري وابن الأثير والمسعودي وابن كثير والأصفهاني في مقاتل الطالبيين، كل منهم على طريقته، من ذلك ما حدث للحسن بن علي بعد الصلح، فالحسن بن علي مات مسموماً، عن طريق زوجته ابنة الأشعث، حيث أرسل لها معاوية، يقول لها إني مزوجك بيزيد على أن تسمي الحسن بن علي، و وعدها بالأموال، فتم ذلك وقتل الحسن بن علي، و ثم قتله بتخطيط قبل بيعة يزيد بن معاوية كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن، ومنهم مالك بن الأشتر الذي ولاه الإمام على مصر، وقداختلف المؤرخون في المكان الذي قدمت له شربة السم فمات بها، فقيل قتل مسموماً بعين شمس[1]، وقيل قتل مسموماً في القلزم[2]، وهو الأصح، وبعد قتل الأشتر قال معاوية: «كانت لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين، يعني عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم، يعني الأشتر».

---

[1] عين شمس ـ اسم مدينة فرعون موسى بمصر بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ص ١٧٨.

[2] القلزم: بلدة على ساحل بحر اليمن قرب ايلة والطور ومدين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ص ٣٨٧.

ولا ننسى موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقصته المشهورة المتفق عليها عند الطبري وابن الأثير وغيرهم، أيضاً حيث كان سبب موته أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام، ومالوا إليه فخافه معاوية وخشي منه فأمر طبيبه ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص.

ويصف المؤرخون معاوية بالحلم، فقيل إن الحلم كان دعامة سياسية في خصومته مع الإمام علي، وكان الحلم عنده في كل الأمور إلا أن يكون هناك مساس بملكه وسلطانه، فقال العقاد: الحلم عند معاوية كان وسيلةً من وسائل التحبب إلى الناس، ووسيلةً من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته، ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها في مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذي سلم له المنصف والمكابر فضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى، وقال العقاد: كان في أخبار حلمه إفراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله، وقال: ولما يدل على أن الفخر بالحلم دخل دعاية الخصومة بين معاوية، والإمام علي.

ولتأكيد ذلك نذكر قصة حجر بن عدي الكندي، وقد وردت وكيف قتله معاوية وأصحابه فسأل معاوية أين غاب عنك حلم أبي سفيان، فكان يقول: حين غاب عني حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت، ورد على السيدة عائشة عندما طرحت عليه مثل هذا السؤال: لم يكن معي رشيد.

والوقائع التي رويت عن حلم معاوية، متكررة تتفق أحياناًوتختلف أحياناًأخرى، إذالابد فيها من حساب للمبالغة، علماً أن بعض هذه الوقائع والأحداث لاتدل على حلم معاوية،من ذلك ما ذكره ابن عبد ربه حين قدم جاريةبن قدامة على معاوية يقول:« قال معاوية لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية. قال: ما كان أهونك على أهلك إذ سموك معاوية، وهي الأنثى من الكلاب. قال: لاأم لك ! قال: أمي ولدتني للسيوف التي لقيناك بها في أيدينا. قال: إنك لتهدني ! قال: إنك لم تفتحنا قسراً و لم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً و ميثاقاً و أعطيناك سمعا وطاعة، فإن وفيت لنا وفينا لك، وإن فزعت إلى غير ذلك، فإنا تركنا وراءنا رجالاً شداداً وألسنة حداداً.قال له معاوية: لا كثر الله في الناس أمثالك.قال جارية: قل معروفاًوراعنا، فإن شر المختطب»[1].

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٤ ـ ص١١٢-١١٣.

وقال البلاذري يروي الحادثة نفسها: «قدم جارية بن قدامة السعدي عليه، فقال: من أنت؟ قال: جارية بن قدامة. قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا نحلة؟ قال: لا قل.... فإنما شبهتني بها حامية اللسعة حلوة البصاق. و وا لله ما معاوية إلا كلبة تعاوي الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة!

«و رويت هذه القصة على رواية أخرى فقيل إن معاوية بادره قائلاً: «أنت الساعي مع علي ابن أبي طالب والموقد النار في شعلل ـ جمع شعلة ـ تجوس قرىً عربية لتسفك دماءهم؟

فقال جارية: يا معاوية! دع عنك علياً فما أبغضنا علياً منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه. فقال له معاوية: ويحك يا جارية! ما كان! هونك على أهلك إذ سموك جارية لا أم لك!. قال جارية: أم ما ولدتني. إن قوائم السيوف التي لقناك بها بصفين في أيدينا.. إنك لم تملكنا قسرة و لم تفتتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق فإن وفيت لنا وفينا، وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً وأذرعاً شداداً وأسنة حداداً. فإن بسطت إلينا فترا من غدر دلفنا إليك بباع من ختر.. قال معاوية: لا أكثر الله في الناس من أمثالك»[1].

إذاً يمكن القول إن معاوية رويت عنه وقائع متكررة عن الحلم فمنها الكثير ما تعرض فيه للإساءة بالآخرين في مجال المزاج والبسط، علماً أن الصراعات المتعددة والعصبيات المتأصلة في النفوس والقلوب لم تكن تسمح بمثل هذا المزاح، وما شاكله. يدفع الناس إلى ذلك عدم اعتيادهم على حكم الملوك الذين يأمرون فيطاعون ورغباتهم مستجابة على كره عند بعضهم، و لم يتعودوا بعد على الإساءة بل كانوا يرددون معبرين عما تجيش به صدورهم من غل وحقد على السلطة، ولتأكيد ذلك لنستمع إلى الحوار التالي الذي حدث بين معاوية، وبين الزرقاء بنت عدي التي كانت تعتبر إحدى خطيبات موقعة صفين، وقد ذكرت لمعاوية، فأرسل يستدعيها.

يقول ابن عبد ربه: «بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شَهِدت مع قومها صفين، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال: فأشيروا عليّ في أمرها. فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها. قال: بئس الرأي أشرتُم به علي; أيَحسن بمثلي أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعد ما ظَفِر بها.

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٥ ـ ص٦٨.

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاءً ليناً، ويسترها بستر خصيف، ويُوسع لها في النفقة. فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلي فإني لا آتيه، وإن كان حتم فالطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به.

فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً وأهلاً، قدمت خير مقدم قدمه وافد! كيف حالك؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة.

قال: كيف كنت في مَسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً.

قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت: أنى لي بعلم ما لم أعلم. قال: ألست الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصفين يوم صفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب؟ فما حَمَلك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الذنب، و لم يعد ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال لها معاوية: صدقت، أتحفظين كلامك يؤمئذ؟

قالت: لا والله لا أحفظه، ولقد أنسيته.

قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارعووا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تنساق لقائدها، إن المصباح لا يُضيء في الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه: أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأنه قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، ودمغ الحق باطله، فلا يجهلن أحدٌ فيقول: كيف العدل وأنى؟ ليقض الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب النساء الحِناء، وخضابَ الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده: والصبر خيرٌ في الأمور عواقباً.

أيها في الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك; فمثلك بشر بخير وسر جليسه.

قال أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله، لقد سررت بالخير فإني لي بتصديق الفعل.

فضحك معاوية وقال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجبُ من حبكم له في حياته. اذكري حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً، ومثلُكَ أعطى عن غير مسألة، وجاد عن غير طلبة.

قال: صدقت! وأمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكساء»[1].

وقال ابن عبد ربه: «استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها وضعفت قوتها، ترعش بين خادمين لها: فسلمت وجلست. فردّ عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيرك الدهر! قالت: كذلك هو ذو غِيَر، من عاش كبِر ومن مات قُبِر. قال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاستشر من دارنا ... سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكاً ... هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتي فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم ... بين الجميع لآل أحمد عائبا

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج١ ـ ص٣٤٧-٣٤٩.

ثم سكتوا، فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصر حُجتي، أنا وا لله قائلة مـا قـالوا، وما خفي عليك مني أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك. اذكـري حـاجتك قـالت: أمـا الآن فلا»[1].

وهناك أخبار كثيرة تؤكد أن معاوية كان في مجالسه الخاصة رغـم أن بعضهـم يعطيهـا معـاني أدبية إلا أنها كانت تعبر عما يجيش في صدره من هنات على خصومه، آل أبـي طـالب، وخصوصـاً الإمام علي حيث كان لا يتورع في كل مناسـبة مـن شتمه والأمـر للنـاس بذلـك، وكتـب التـاريخ والأدب مليئة بمساجلات عمّا دار بين الحسن بن علي، وبين معاوية، وبين ابن عباس ومعاوية وغـير ذلك لا داعي لذكرها، وكلها كانت تدور حول مهاجمته للإمـام علـي فيأتيـه الـرد حاسمـاً وبجـرأة فائقة، وهذا ما اعتاد عليه الهاشميون، ويذكر ابن عبد ربه الحوار التالي بين معاوية، وابـن عبـاس، مما يؤكد أن معاوية كثيراً ما يتعرض لبني عبد المطلب، يقول:

أقبل معاوية يوماً على ابن عباس فقال: لو وليتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم، مـن الـترحيب والتقريب، وإعطائكم الجزيل، وإكرامكم على القليل، وصبري على ما صبرتُ عليـه منكـم، إنـي لا أرد أمراً إلا أظمأتم صدره ولا آتي معروفاً إلا صغرتم خطره وأعطيكم العطيـة فيهـا قضـاء حقوقكـم فتأخذونها متكارهين عليها تقولون: قد نقص الحق دون الأمل! فـأي أمـل بعـد ألـف ألـف أعطيهـا الرجل منكم، ثم أكون أسر بإعطائها منه بأخذها؟ وا لله لئن انخدعت لكم في مالي وذللـت لكـم في عرضي، أرى انخداعـي كرمـاً وذلي حلمـاً. ولـو وليتمونـا رضينـا منكـم بالانتصـاف، ولا نسـألكم أموالكم، لعلمنا بحالكم وحالنا: ويكون أبغضها إلينا أحبها إليكم أن نعفيكم.

فقال ابن عباس: لو ولينا أحسنا المواساة، ومـا ابتلينـا بـالأثرة؛ ثـم لم نغشـم الحـي، ولم نشـتم الميت؛ فلستم بأجود منا أكفـاً، ولا أكـرم أنفسـاً، ولا أصـون لأعـراض المـروءة؛ ونحـن وا لله أعطى للآخرة منكم للدنيا، وأعطى في الحق منكم في الباطل، وأعطى على التقوى منكـم على الهوى؛ والقسـم بالسوية والعدل في الرعية يأتيان على المنى والأمل، ما أرضاكم منا بالكفاف، فلـو رضيتـم منـا لم تـرض أنفسنا به لكم؛ والكفاف رضا من لا حق له; فلا تبخلونا حتى تسألونا، ولا تلفظونا حتى تذوقونا.

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٢ ـ ص٣٤٧.

وقال: اجتمعت بنو هاشم عند معاوية، فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم، وا لله إن خيري لكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح: فلا يقطع خيري عنكم علة ولا يوصد بابي دونكم مسألة: ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً: إنكم لترون أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا، وقصّر بنا عن قدْرنا: فصرت كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له: وهذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم.

قال! فأقبل عليه ابن عباس فقال: وا لله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه: ولئن قطعت عنا خيرك لله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين، ولنا في كتاب ا لله حقان: حق في الغنيمة، وحق في الفيء: فالغنيمة ما غلبنا عليه، والفيء ما اجتبيناه، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر. كفاك أم أزيدك؟ قال: كفاني فإنك تهر ولا تنبح.

وقال معاوية يوماً وعنده ابن عباس: إذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها، وبنو أسد بن عبد العزى برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابتها ولوائها، وبنو مخزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تيم بصدّيقها وجوادها، وبنو عدي بفاروقها ومتفكرها، وبنو سهم بآرائها ودهائها، وبنو جمح بشرفها وأنوفها، وبنو عامر بن لؤي بفارسها وقَريعها، فمن ذا يُجلى في مضمارها ويجري إلى غايتها؟ ما تقول يا بن عباس؟

قال: أقول: ليس حي يفخرون بأمر إلا وإلى جنبهم من يشركهم، إلا قريشاً فإنهم يفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها ولا يساوون بها ولا يدفعون عنها، وأشهد أن ا لله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به: إن بنا فتح الأمر وبنا يُختم، ولك ملك معجّل ولنا ملك مؤجل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد مُلكنا مُلك، لأنا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين»[1].

إذاً لم تستطع السلطة الأموية ترويض رعاياها دفعةً واحدة إنما أحتاج إلى زمن حتى أرى أن العهد السفياني استمر هكذا حتى كان عبد الملك بن مروان حيث تدل هذه السياسة على سياسة

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٤ ـ ص٩٤ ومابعدها.

الشدة والعنف في التعامل مع الرعايا فتم ترويضهم في عهده، ومع ذلك امتاز معاوية في تعامله مع الآخرين بطول الأناة وبطء الغضب، وفي حالة الغضب كان معاوية يحكم غضبه بإرادته وخاصةً فيما يتعلق بأمر من الأمور الهامة التي تعود عليه وعلى سلطته، والدولة بالفائدة العامة والخاصة.

امتاز معاوية كما هو معلوم بكبت غضبه وكثيراً ما نلاحظ ذلك في مساجلاته و في مجالسه الخاصة أو العامة، وكان يظهر العفو عن خصومه تجنباً لخطرهم، وكان معاوية عندما يتعرض لأخطار لها عواقب كان يحكم نفسه، فيختار ما يناسبه ويخدمه. بشكل عام وصف معاوية بالحلم إلا أن ذلك كان فيما يعود عليه وعلى مصلحة الأمويين في أكثر الأحيان، متجاوزاً المصلحة العامة التي تعود على الشعب بالفائدة، وكثير من الأمور التي حكم فيها معاوية كانت بغير حلم ولا أناة من ذلك قتله لحجر بن عدي الكندي ومن معه، وأيضاً ولاية العهد والسلوك الذي اعتمده في ذلك، وحبه الشديد في زرع التفرقة بين عمال ورجال دولته حتى بين أفراد أسرته.

أخيراً إن معاوية لا يعد من الحلماء لأن الحليم يكون أقوى الناس على نفسه وهو ليس كذلك، ولتأكيد ذلك وبأبسط الأمور كان يأكل كثيراً وليس بقادر على أن يضبط نفسه حول شهوته للطعام، حتى أعيته كثرة الأكل وأقعدته، ثم لم يكن قادراً على ضبط نفسه أمام خصومه وفي مجالسه، إنما كان يعتمد أسلوب المداعبة، وفي النهاية يظهر الغضب إذا كانت النتيجة لغير صالحه والسؤال: أين كان حلمه عندما قتل محمد بن أبي بكر في مصر، وهو قادر على منع هذه المأساة. أين كان حلمه عندما قتل حجر بن عدي.

وفي الأحداث الجسام التي يكون تأثيرها كبيراً كان يظهر الغضب ويلقي بالمسؤولية على غيره، والحليم يكون مقداماً جسوراً شجاعاً كريماً لا لغاية مبتعداً عن الشر، ومعاوية لم يكن شجاعاً إذا قيس بغيره وتاريخه يؤكد ذلك، وكرمه كان يبقى من وراء منفعة شخصية، ومعاوية أقدم على أمور جليلة عادت عليه وعلى الأمة بغير فائدة إذا لم نقل العكس، والحليم كما هو معروف يتغاضى عن الذنوب ويصفح ولم يكن معاوية كذلك، وأيضاً حياته تشير إلى ذلك في مجالسه الخاصة والعامة، من ذلك تعامله مع الذين رفضوا الإذعان له في ولاية يزيد العهد.

ومن الحلم ألاّ ينقض الإنسان عهده، ولم يكن معاوية كذلك لأنه نقض عهده لمروان بن الحكم، ونقض عهده للحسن بن علي، ونقض عهده لزوجة الحسن بن علي، قيل: كان الحسن

البصري يقول: أربع خصال كن في معاوية، لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر ثم قال: «فيا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من حجر».

امتاز معاوية بالصبر الطويل إلا أن صبره لم يكن صبر القائد الجسور الذي يحسم الموقف وبقدرة فائقة ليكون سيد الموقف، على العكس كان معاوية، فمثلاً بعد أن استلم إمارة بلاد الشام عشرين سنة صابراً يخطط لاستلام السلطة ونال ما صبر عليه، وبعد أن استلم السلطة وقرر ولاية العهد لأنه بقي سنين يناضل في هذا الاتجاه حتى وصل إلى ما أراد، علماً أن هذا الصبر الذي امتاز به كان يوجهه للأمور السياسية التي تمس السلطة والمحافظة عليها. يقول معاوية: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون»[1]، وصبر لأجل ذلك طويلاً ونال ما رغب.

أخيراً يقول شوقي ضيف: «كان الأمويون في نظر الكثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية لأنهم عادوا الإسلام في أول ظهوره وبذلك كانوا يعدون مغتصبين للخلافة، وَ زاد في الحنق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية، وأيضاً كان عمالهم ظلموا الناس، ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القراء أهل التقوى والورع»[2].

أرى أن ما ورد ينطبق على الأمويين من الناحية الشرعية، إلا أن ذلك لا يتعارض من الناحية السياسية، لأن السياسة كلها أحياناً تتعارض مع الدين، وإذا قارنا الحكام الأمويين لم يكونوا إلا كغيرهم من الحكام المجاورين حتى أن حكمهم كما أرى امتاز على من تلاهم من الحكام كالعباسيين.

---

[1] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٥٩ - ص١٥٠.

[2] شوقي ضيف - العصر الإسلامي - طبع مصر ١٩٧٦ - ص١٨٣.

الفصل الخامس

السياسة الخارجية

أولاً ـ الاتصال والاحتكاك الحربي.

ثانياً ـ الاتصالات السياسية.

الفصل الخامس

السياسة الخارجية

أولاً ـ الاتصال والاحتكاك الحربي: قبل أن أبدأ في دراسة الاتصال الحربي في عهد معاوية كان لابد من إلقاء نظرة سريعة على الفتوحات التي تمت قبل ذلك أي في العصر الراشدي، لكي يتاح للقارئ معرفة الحروب في الجبهة الشرقية واستمرارها بالنسبة للأمويين، ومعرفة أن الحروب في الجبهة الشرقية في العصر الأموي كان أكثرها إعادة فتوحات، إلا أن ذلك لا ينطبق على بقية الجبهات، وخاصةً الغربية حيث امتدت الفتوحات إلى الأندلس، وفي الجبهة الشمالية تمكن الأمويون من محاصرة العاصمة البيزنطية عدة مرات كان أولها في عهد معاوية، وأهمها كان في عهد سليمان بن عبد الملك.

١ـ قبل معاوية: كتب الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ إلى أبي موسى الأشعري[1] يأمره بالاستعداد والتوجه إلى أرض الأهواز[2]، فلما ورد عليه الكتاب جمع قواته، وقوامها عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ثم تحرك بها فنزل ابلة[3]، دخل بعدها الأهواز فجعل يفتحها بلداً بلداً ونهراً نهراً حتى فتحها جميعها إلا السوس[4]

---

(1) ابن أعثم الكوفي ـ المجلد الأول ـ ج١ ـ ص٢٨٧.

(2) الأهواز: اسم الكورة، وأما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنما هو سوق الأهواز ــ ياقوت الحموي ــ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٨٤.

(3) ابلة: بلدة على شاطيء دجلة البصري العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة ــ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٧٧.

(4) السوس: بلدة بخوزستان، فيها قبر النبي دانيال عليه السلام، وقيل: أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور السوس وتستر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٨٠.

وتستر[1]، ومناذر[2]، ورامهرمز[3].

نزل أبو موسى على مناذر الكبرى فلم يزل يحارب أهلها حتى فتحها، ثم سار إلى السوس فحاصرها، حتى استسلمت، وسار إلى تستر. في هذه المرحلة كان يزدجرد مقيماً بنهاوند[4]، وقد اجتمع الفرس بها، فطلب أبو موسى المدد من الخليفة عمر، فكتب الخليفة إلى جرير بن عبد الله وهو يومئذ بحلوان[5]، يأمره بالمسير إلى أبي موسى[6]، ثم كتب إلى عمار بن ياسر، وهو بالكوفة يأمره أيضاً بالمسير إلى أبي موسى، خرج عمار بن ياسر في ستة آلاف إلى أبي موسى، وأيضاً التحق جرير بن عبد الله بأبي موسى في أربعة آلاف فأصبح في أكثر من عشرين ألفاً، وهو على باب تستر، ومن هناك أرسل كل من النعمان بن مقرن المزني، وجرير بن عبد الله البجلي، فأمرهما بالمسير إلى رامهرمز، يدعوان أهلها إلى الإسلام.

توجه جرير فنزل رامهرمز، ففتح بعض قلاعها، وفتح رامهرمز، ثم عزم العرب المسلمون على حرب أهل تستر، فعبأ أبو موسى أصحابه وزحف بقواته نحو تستر فخرج صاحب تستر إليه، واشتبك الطرفان في قتال عنيف هزم فيه أهل تستر إلى قلعتهم، وفي اليوم الثاني تجدد القتال فاستمر إلى منتصف النهار فهزم العدو إلى داخل مدينتهم.

وفي الليل قدم على أبي موسى رجل من الفرس فدله على عورة البلاد[7] بدقة فأرسل معه بعض عناصر الاستطلاع، فاستطلعوا مدينة تستر وتمكنوا من دخولها ومعرفة طرقها ودروبها ودورها وأبوابها، وفي اليوم الثاني هاجم المسلمون تستر فتمكنوا من اقتحامها في الوقت الذي هرب فيه صاحبها إلى قلعة أعدها للحصار، فسار المسلمون إلى هذه القلعة، فحاصروها حتى طلب أهلها

---

(1) تستر: أعظم مدينة بخوزستان اليوم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٩.

(2) مناذر: اسم قرية واسم رجل، وهما بلدتان بنواحي خوزستان: مناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، وقيل هما كورتان من كور الأهواز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٩٩.

(3) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٧.

(4) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣١٣.

(5) حلوان: حلوان العراق: وهي في آخر حدود السواد، مما يلي الجبال من بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٩٠.

(6) ابن أعثم الكوفي - الفتوح - ج١ - ص٢٧٢.

(7) ابن أعثم الكوفي - الفتوح - ج١ - ص٢٧٩.

الأمان. بعد ذلك رجع عمار بن ياسر بأهل الكوفة، ورجع أهل البصرة مع أبي موسى إلى البصرة، ورجع أهل حلوان مع جرير بن عبد الله إلى حلوان.

تحرك العدو بأرض نهاوند وأجمعوا جمعهم واستعدوا، فاجتمع أهل الري[1]، وسمنان[2] والدامغان[3]، وما والاها بنهاوند في عشرين ألفاً، وأهل ساوة[4]، وهمذان[5] في عشرة آلاف، وأهل نهاوند خاصة في عشرة آلاف، وأهل قم[6]، وقاشان[7] في عشرين ألفاً، وأهل أصبهان[8] في عشرين ألفاً، وأهل فارس وكرمان[9] في أربعين ألفاً، ثم بعثوا إلى أذربيجان[10] يستمدونهم للحرب، فأقبل أهل أذربيجان في ثلاثين ألفاً فبلغ جيش العدو[11] بحدود مئة وخمسين ألفاً ما بين فارس وراجل، ومعهم بحدود سبعين فيلاً وهم مصممون على قتال العرب المسلمين.

علم أمير الكوفة بالأحداث، فكتب إلى الخليفة عمر بذلك، فاستشار الخليفة الصحابة فتقرر إرسال القوات إلى العدو، فكتب إلى النعمان بن مقرن وهو بالعراق في منطقة تعرف

---

[1] الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحجاج على طريق السابلة، وقصبة بلاد الجبل، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١١٦.

[2] سمنان: هي البلدة التي بين الري ودامغان، وبعضهم يجعلها قومس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٥١.

[3] دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور هو قصبة قومس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٣٣.

[4] ساوه: مدينة بين الرى وهمذان في واسط - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٧٩.

[5] همذان: كانت أكبر مدينة بالجبال، وكانت أربعة فراسخ في مثلها، فتحها المغيرة بن شعبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٤١٠.

[6] قم: مدينة تذكر مع قاشان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٩٧.

[7] قاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٩٦.

[8] أصبهان: اسم الإقليم بأسره - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٠٦.

[9] كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥٤.

[10] أذربيجان: حد أذربيجان من برذعة مشرقاًإلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، والطرم وهو إقليم واسع، ومن مشهور مدائنها تبريز وهي قصبتها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٢٨.

[11] ابن أعثم الكوفي - الفتوح - ج١ - ص٢٨٧.

بكسكر[1] يأمره أن يعسكر بالقصر الأبيض[2] حتى تأتيه الإمدادات، ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري يأمره أن يمد النعمان بقوات من البصرة ومن أهل الكوفة.

خرج النعمان بن مقرن بمن معه فنزل القصر الأبيض مما يلي المدائن[3] وهناك اجتمع إليه أهل الكوفة والبصرة فأصبح في قوة قوامها ثلاثون ألفاً، وبعد أن نظم قواته أرسل مقدمةً عليها طلحة بن خويلد الأسدي[4] ومعه أربعة آلاف فارس فسارت المقدمة إلى المدائن، ورحل النعمان بن مقرن في أثره وكلما نزلت المقدمة مكاناً ورحلت عنه احتلته القوات الرئيسية، فنزلت المقدمة الدسكرة[5] ومنها إلى جلولاء[6] إلى حلوان، وكان النعمان كلما رحل من موضع رحل طليحة على مقدمته. عندما علم صاحب حلوان بقدوم العرب المسلمين خرج هارباً إلى قرماسين[7]، فنزلت المقدمة في حلوان ثم اجتمعت القوات فيها.

عند ذلك دعا النعمان بن مقرن، قيس بن هبيرة المرادي[8]، وأرسله على مقدمته عوضاً عن طليحة، فسار بالمقدمة إلى قرماسين، فهرب من بها من المشركين إلى ماردين[9]، ودخل قيس قرماسين، ثم قدم النعمان بن مقرن فدخلها، بعدها سار النعمان إلى ماردين.

---

(1) كسكر: كورة واسعة تنسب إليها الفراريج الكسكرية، قصبتها اليوم واسط ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٦١.

(2) القصر الأبيض: من قصور الحيرة، كان بالرقة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٥٤.

(3) المدائن: كانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٧٤.

(4) ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ ج١ ـ ص٢٩٤.

(5) الدسكرة: قرية كبيرة ذات قبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٥٥.

(6) جلولاء: طسوج من طواسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ وهو نهر عظيم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٥٦.

(7) قرماسين: تعريب كرمان شاهان، بلد معروف بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً قرب الدينور وهو بين همذان وحلوان على جادة الحاج ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٣٠.

(8) ابن أعثم الكوفي ـ الفتوح ـ ج١ ـ ص٢٩٥.

(9) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٩.

كان الفرس قد احتشدوا بنهاوند وقرروا مقاومة العرب المسلمين. أما النعمان بن مقرن فنزل ماردين ومن هناك أرسل قائدين من قواده[1] ليستطلعا ويتجسسا له الخبر عن عدوه، فنفذوا المهمة وأعلموا قائدهم بما حصلوا عليه من أخبار[2]، فسار النعمان إلى نهاوند، فأرسل أهلها الماء في أرضهم لمنع العرب المسلمين من الاقتراب منهم، إلا أن ذلك لم يقدم ولم يؤخر في تقدم العرب المسلمين، فنزلوا منطقة عرفت بقبور الشهداء.

عند ذلك قرر المشركون زرع الحسك الشائك[3] حول نهاوند فحصنوها. في هذا الوقت أرسل النعمان أحد أتباعه يستطلع المنطقة، فخرجَ ليلاً حتى أشرف على قلعة نهاوند، فإذا بفرسه قد علق بحافرها الحسك الشائك، فنزعها وقد علم أن الحسك الشائك مزروع حول القلعة فرجع فأعلم النعمان بأن العدو يلقيها ليلاً، ويجمعها نهاراً.

تحرك النعمان بقواته إلى نهاوند نهاراً، فاشتبكوا مع العدو بقتال عنيف حقق فيه العرب بعض الانتصار، واستمر القتال طيلة هذا اليوم، وفي اليوم الثاني عبأ ابن مقرن قواته وقال: إذا أنا استشهدت فحذيفة بن اليمان هو القائد، فإذا أصيب فجرير بن عبد الله، فإذا أصيب فالأشعث بن قيس، فإذا أصيب فالمغيرة بن شعبة. وبدأ القتال عند العصر، واشتد فقتل النعمان[4] فرفع أخوه الراية فقتل، فحمل الراية أخوهما الثالث سويد بن مقرن فأصيب، فدفع الراية لحذيفة بن اليمان، فاستمر القتال حتى نهاية اليوم.

في اليوم الثالث استمر القتال ومع العدو ثلاثون فيلاً حيث تمكن العرب المسلمون، وعلى رأسهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وأصحابه من قتل الفيلة فتراجع الفرس. وفي اليوم الرابع للقتال زحف الطرفان واشتد القتال وكان العدو قد قدم فيلة أخرى، فتمكن العرب المسلمون من قتلها إلا أن القتال استمر فقتل عمرو بن معد. إلا أن العرب المسلمين انتصروا في النهاية وانهزم العدو بعضهم إلى ماسبذان[*] وبعضهم الآخر إلى قم وقاشان، ودخل العرب المسلمون نهاوند وأعلم الخليفة عمر بن الخطاب بذلك.

---

(1) قيل هما طليحة بن خويلد الأسدي، وبكير بن شداخ الليثي.

(2) ذكر أن أحدهما رجع بينما استمر الآخر (طليحة) في تنفيذ المهمة.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص١١٥.

(4) المرجع نفسه - ج٣ - ص١١٦.

(*) كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، كوركيس عواد - طبع بغداد ١٩٥٤ - ص٢٣٧.

كتب الخليفة إلى عمار بن ياسر[1] يأمره بإرسال عشرة آلاف من أهل الكوفة يقودهم عروة ابن زيد الخيل الطائي إلى أرض المعركة. سار عروة إلى الري فلما كان بحلوان، وبها جرير بن عبد الله في حوالي ثمانية آلاف من العرب المسلمين، ثم خرج عروة نحو همذان. فلما علم صاحبها بقدوم العرب هرب إلى قم فنزلها، فدخل العرب همذان بدون قتال، فارتحل عروة إلى الري فلما كان بمدينة ساوه[2] هرب منها صاحبها إلى الري فنزل العرب ساوه بدون قتال.

علم صاحب الري بمسير العرب إليه فاستنهض أهلها فجمع جيشاً قوامه عشرون ألفاً، ومعه الديلم في مثل ذلك، فأصبح قوام قواته أربعين ألفاً، علم العرب المسلمون بأخبار الري وهم في عشرة آلاف، فتوجهوا نحوها فنزلوا قربها، ثم التقى الطرفان في قتال استعد له كلا الطرفين حيث حمل العرب المسلمون بأجمعهم فهزم العدو، بعد ذلك بعث صاحب الري إلى عروة بن زيد الخيل يسأله الصلح على أن يقره في بلده فتم الصلح فأعلم الخليفة بذلك.

كتب الخليفة إلى عروة يأمره أن يولي على الري أحد القادة العرب المسلمين، ويرتحل بقواته إلى قم وقاشان، فلما وصل الكتاب إلى عروة تحرك بمن معه نحو هدفه. ولما علم صاحب قم بذلك هرب إلى قاشان، ومنها إلى أصفهان وبها ملك الفرس يزدجرد، أما العرب المسلمون فنزلوا قم ثم ملكوا قاشان وأعلم الخليفة بذلك.

كتب الخليفة إلى جرير بن عبد الله ومازال بحلوان. يأمره بالتقدم إلى همذان فسار إليها فدخلها. أما يزدجرد فنزل أصطخر[3]. عند ذلك أمر الخليفة عروة بن زيد الإقامة في قم وقاشان حتى يأتيه أمره، وكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو مقيم بالبصرة يأمره بالمسير إلى أصفهان.

تحرك أبو موسى الأشعري إلى حيث أمر فنزل بقواته الأهواز ثم رحل إلى أصفهان. فلما اقترب منها استدعى عبد الله بن بديل بن ورقاء، فضم له ألفين من المقاتلين ما بين راجل وفارس وأرسله مقدمةً لقواته. وعندما علم صاحب أصفهان بقدوم العرب المسلمين هرب من أصفهان مع

---

(1) ابن أعثم الكوفي - كتاب الفتوح - ج١ - ص٣٠٨.

(2) ساوه: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخاً - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٦٧٩.

(3) أصطخر: بلدة بفارس من الإقليم الثالث، وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢١١.

بعض أصحابه يريد يزدجرد، ولما وصل عبد الله بن بديل إلى أصفهان طلب أهلها منه الصلح فصالحهم على مائة ألف درهم عاجلاً والجزية، ثم دخل أبو موسى أصفهان بدون قتال، أما يزدجرد فرحل إلى كرمان فنزل بها.

اجتمع الفرس في مدينة أصطخر، في مئة وعشرين ألفاً، وأبو موسى بأصفهان. فلما علم باجتماعهم توجه إلى أصطخر، فلما وصلها عبأ قواته والتحم الطرفان بمعركة حاسمة لم تدم طويلاً حتى هزم الفرس، ثم حاصر المسلمون أصطخر حتى فتحت صلحاً على مائتي ألف درهم عاجلة والجزية، ثم تقدم أبو موسى إلى كرمان فنزل أول مفازة خراسان، وكان قد أرسل الخمس إلى الخليفة عمر يعلمه بأخباره. جمع الخليفة عمر أصحابه لمشاورتهم من أجل فتوحات الشرق فقرر أن يكتب إلى أبي موسى يأمره أن يولي على كل بلد والياً ثم يعود إلى عمله بالبصرة.

في هذه المرحلة قتل الخليفة عمر، وولي عوضه عثمان بن عفان، وكان والي البصرة عبد الله ابن عامر[1]. في هذه المرحلة الانتقالية اضطرب الأمر في بلاد فارس حيث خرج أحد قادتها (ماهك ابن شاهك) في ثلاثين ألف رجل، فاستردوا بعض المناطق من أيدي العرب المسلمين، فلما علم الخليفة عثمان بذلك كتب إلى عبد الله بن عامر يأمره بالتوجه إلى فارس والقضاء على الفتنة، وبعد أن يستقر أمره هناك أمره أن يتوجه إلى خراسان لفتحها.

تحرك عبد الله بن عامر بقواته إلى فارس، فالتقى مع خصمه ماهك في صحراء أصطخر، فلم تدم المعركة طويلاً حتى هزم ماهك بقواته، فتقدم عبد الله بن عامر إلى أصطخر، فتمكن من السيطرة عليها عنوةً. بعد ذلك أرسل (ماهك بن شاهك) إلى عبد الله بن عامر يطلب منه الأمان، فوافقه على أن يقيم في أصطخر وأن يؤدي الجزية، ثم تحرك عبد الله بن عامر إلى خراسان.

عندما وصل عبد الله بن عامر إلى حدود خراسان أرسل مجاشع بن مسعود مع ألف فارس، وعينه والياً على كرمان ثم رحل هو بقواته نحو خراسان، فلما وصل إلى نيسابور وصلته رسالة من صاحب طوس[2] يطلب فيها الأمان فوافقه، فانضم إلى القوات العربية في حربها ضد نيسابور، ثم

---

(1) ابن أعثم الكوفي - الفتوح - ج١ - ص ، بينما يذكر الطبري أن عامل البصرة آنذاك كان أبو موسى الأشعري - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٤١.

(2) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدين يقال لأحدهما الطابران وللآخر نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت أيام عثمان بن عفان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٩.

جرى قتال مع أهل نيسابور، فلما اشتد الحصار على أهلها أرسل صاحبها يطلب الأمان، فوافقه عبد الله بن عامر وفتحت البلد.

في هذه المرحلة أرسل صاحب مدينة مرو [1] إلى عبد الله بن عامر يطلب الأمان على أن يدفع مليون ومئتي ألف درهم نقداً، وفي كل سنة ثلاثمائة ألف درهم كجزية، فأجابه عبد الله بن عامر، وتقرر الصلح. بعد ذلك قدم ملك هراة [2] يطلب الصلح فتم له ذلك، ثم قدم ملك سرخس [3]، فطلب الأمان، فدفع مائة ألف درهم، وألف حمل من القمح، ومثلها من الشعير، ثم قدم ملك نيسابور [4] يطلب الصلح مقابل أن يؤدي سنوياً ثلاثمائة ألف درهم، وألف حمل من القمح، ومثلها من الشعير، ثم قدم ملك الفارياب [5] والطالقان [6] وطلبا الصلح مقابل أن يؤديا سنوياً مئتي ألف درهم، وخمسمائة حمل من القمح، ومثلها من الشعير.

في هذا الوقت أعد عبد الله بن عامر جيشاً، وأسند قيادته إلى عبد الرحمن بن سمرة، وأرسله إلى سجستان، فلما اقترب هذا الجيش من سجستان [7] قاتله أهلها إلا أن النهاية كانت لصالح العرب المسلمين، ففتحت المدينة عنوةً، فدخلها العرب المسلمون، ثم اتجه الجيش إلى كابل [8] فتقابل مع أهلها فحاصر العرب المسلمون المدينة. استمر هذا الحصار بحدود سنة ثم تغلبوا عليها وفتحت فدخلها العرب المسلمون.

بعد ذلك استدعى الأقرع بن حابس فأمره على ألف رجل، وأمره أن يتوجه إلى مدينة

---

(1) مرو: أمكنة كثيرة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١١٢.

(2) هراة: مدينة مشهورة من أمهات مدن خراسان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٩٦.

(3) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٠٨.

(4) نيسابور: قصبة من خراسان، وقيل هي ربع من أربعة أرباع خراسان، وقيل هي إحدى عواصم خراسان، كي لسترنج، بلدان الخلافة الإسلامية ـ ص٤٢٤.

(5) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان قرب بلخ غربي جيحون ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٢٩.

(6) الطالقان: أكبر مدن طخارستان بين مرو الروز وبلخ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٦.

(7) سجستان: اسم للناحية واسم مدينتها زرنج، تقع جنوبي هراة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٩٠.

(8) كابل: بين الهند ونواحي سجستان، وقيل كابل من ثغور طخارستان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٢٦.

جوزجان[1]، فلما اقترب من البلد حاربه أهلها فخسر العرب المسلمون المعركة، وعاد المنهزمون إلى عبد الله بن عامر، فاستدعى الأحنف بن قيس[2]، فاستخلفه على القوات وتوجه إلى أداء فريضة الحج.

عندما علم أهل مرو والطالقان بتوجه عبد الله بن عامر إلى الحج جمعوا ثلاثين ألف مقاتل وقرروا محاربة العرب المسلمين، فجمع الأحنف قواته، واستعد للحرب، فلما التقى الطرفان إنهزم المتمردون ثم تقدم العرب المسلمون إلى بلخ[3] فطلب صاحبها الصلح، فأجابه الأحنف على أربعمائة ألف درهم نقداً، وكل عام مئة ألف درهم، وخمسمائة حمل من القمح، ومثلها من الشعير، ثم تقدم الأحنف يفتح المنطقة بلداً بلداً، حتى استقرت الأمور هناك فكان الأحنف على خراسان مما دون بلخ، وعبد الرحمن بن سمرة ببلاد سجستان.

أمر الخليفة عثمان، معاوية بن أبي سفيان أن يرسل حبيب بن مسلمة في أربعة آلاف فارس، وألف راجل وأمره بالمسير إلى أرمينية[4]. توجه حبيب بن مسلمة إلى الجزيرة ومنها إلى أرمينية. فلما وصل إلى شمشاط[5] ورأى تجمع العدو في حشد كبير كتب إلى معاوية يعلمه بالأخبار، فكتب معاوية إلى الخليفة، فكتب الخليفة إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة يأمره أن يختار من أهل الكوفة عشرة آلاف رجل، يضمهم إلى سليمان بن ربيعة الباهلي، ثم يوجه إلى حبيب بن مسلمة كمعونةٍ له، فخرج سليمان بن ربيعة بمن اجتمع له يريد حبيب بن مسلمة.

علم حبيب بن مسلمة بالإمدادات القادمة من الكوفة، فرغب أن يظفروا بالعدو دون قوات أهل العراق، فانتصروا وغنموا، فاقتسموا ما غنموا بينهم. فلما قدم أهل الكوفة طلبوا من أهل الشام إشراكهم بالغنائم، وحدث خلاف بين الطرفين فبلغ الأمر الخليفة، فأمر أهل الشام أن يقاسموا أهل العراق الغنائم.

---

[1] جوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروز وبلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٨٢.

[2] ابن أعثم الكوفي - فتوح البلدان - ج١ - ص٣٤٠.

[3] بلخ: مدينة مشهورة بخراسان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٧٩.

[4] أرمينية: اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان بينها وبين البحيرة نحو ثلاثة أميال أو أربعة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٥٩.

[5] شمشاط: مدينة رومية على شاطىء الفرات شرقيها بالوية، وغربيها خرتبرت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٦٢.

ثم توجه الجميع إلى بلاد أرمينية. فلما سمع ملوكها بذلك، هربوا وتحصنوا في الجبال والقلاع والأودية. أما سليمان بن ربيعة فتقدم يفتح المدن والقلاع حتى صار إلى البيلقان[1] من بلاد آران[2]، فخرج أهلها يطلبون الأمان فصالحهم ثم سار فنزل على حصن برذعة[3] فصالحه أهلها. بعد ذلك وجه بعض فرسانه إلى جرزان[4]، فصالحه أهلها، ثم سار هو وأصحابه فعبر نهر الكُرّ إلى أرض الشروان[5]، فنزلها ودعا ملكها فصالحه، ثم تقدم إلى شابران[6] ومسقط[7] وبعث إلى ملوك الجبال فدعاهم فقدم ملك اللكز، وملك فيلان وملك طبرستان[8] فصالحوه، ثم توجه إلى مدينة الباب[9] وبها خاقان ملك الخزر في جيش قوامه ثلاثون ألفاً.

عندما علم ملك الخزر بقدوم العرب ارتحل عن مدينة الباب فدخلها سليمان بن ربيعة ثم خرج منها لمطاردة ملك الخزر خاقان فمر بمدينة برغوا[10] ومنها إلى بلنجر[11]، وجرى قتال مع ملك الخزر هزم فيه العرب المسلمون، وقتل سليمان بن ربيعة، وقبور المسلمين هناك تعرف بقبور الشهداء.

عندما علم الخليفة بذلك أرسل إلى حبيب بن مسلمة يأمره بالتوجه إلى أرمينية وقوام قواته ستة آلاف فارس وراجل فدخل من الدروب، فلما وصل خلاط[12] نزل قلعتها ثم كتب إلى أهل جرزان، فصالحهم على ثمانين ألف درهم ومن هناك أخذ يكتب إلى ملوك أرمينية يدعوهم إلى

---

[1] البيلقان: مدينة قرب الدربند التي يقال لها باب الأبواب، تعد في أرمينية الكبرى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٥٣٣.

[2] آران: اسم لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وبين أذربيجان وآران نهر يقال له الرس كل ما جاوره من ناحية الغرب والشمال فهو من آران وشرقيه من أذربيجان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٣٦.

[3] حصن برذعة: بلد في أقصى أذربيجان وقيل هي قصبة أذربيجان، وذكر أن برذعة هي مدينة آران وهي آخر حدود أذربيجان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٧٩.

[4] جرزان: اسم جامع لناحية بأرمينية قصبتها تفليس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٢٥.

[5] الشروان: مدينة صغيرة من أعمال سجستان، وهي من بست - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢١٦.

[6] شابران: مدينة من أعمال آران، وقيل من أعمال دربند وهو باب الأبواب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢١٦.

[7] مسقط: عدة أمكنة - رستاق بساحل بحر الخزر دون باب الأبواب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٢٧.

[8] طبرستان: في البلاد المعروفة بمازندار وهذه البلاد مجاورة لجيلان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٣.

[9] الباب: ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٠٣.

[10] برغوا: على ساحل بحر مانطس، وهو بحر متصل بخليج القسطنطينية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٨٥.

[11] بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٨٩.

[12] خلاط: قصبة أرمينية الوسطى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٨١.

الطاعة.

بعد ذلك عزل حبيب بن مسلمة من قبل الخليفة، وولى عوضه حذيفة بن اليمان، فأرسل حذيفة أحد قواده هو صلة بن زفر العبسي إلى بلاد أرمينية وجعله خليفةً له، فكان صلة بن زفر يذل ملوكها حتى أذعنوا له بالسمع والطاعة، بعدها عزل حذيفة عن بلاد أرمينية و ولى المغيرة بن شعبة[1] عوضه أرمينية وأذربيجان، ثم عزل فولى مكانه الأشعث بن قيس، فبقي بها إلى أن قتل الخليفة عثمان حيث توقفت الفتوحات في الشرق إلى أن كان العصر الأموي.

٢- **في عهد معاوية:** انقطع الاحتكاك الحربي مع الدول المجاورة فترة لا بأس بها، فلما تسلم معاوية السلطة أعاد القوات العربية لنشاطها الحربي على مختلف الجبهات، الشرقية، والشمالية، والغربية، واستمر العرب في تطوير فن الحرب، وكان لمعاوية دور مهم في تطوير هذا الفن وخاصةً البحرية وأسطولها البحري حيث ظهر أثر ذلك واضحاً، علماً أن العرب كانوا يرغبون في الإطباق على العالم ونهاية الدولة البيزنطية، من ذلك تحركت القوات العربية على ثلاث جبهات في وقت واحد.

الجبهة الشرقية: في الجبهة الشرقية استعادت القوات العربية نشاطها، إلا أن هذا النشاط كان محدوداً، حيث اقتصر في عصر معاوية على إعادة إخضاع بعض أهالي البلاد الثائرة من ذلك. استعمل عبد الله بن عامر، عبد الرحمن بن سمرة على سجستان سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) فتوجه إليها، وعلى شرطته عباد بن الحصين، فكان يغزو كل بلد كفر أهله حتى بلغ كابل فحصرها شهراً، ونصب عليها مجانيق ورميت ففتح بسورها ثلمة عظيمة، فبات عباد عليها ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها، وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم العرب المسلمون، ودخلوا البلد عنوةً ثم توجه الحصين إلى بست[2] ففتحها عنوةً، ثم توجه إلى رزان[3] فهرب أهلها وغلب عليها ومنها توجه إلى خشك[4] فصالحه أهلها، ومنها توجه إلى الرحج[5] فقاتلهم وظفر بهم، وتم له

---

[1] ابن أعثم الكوفي - الفتوح - ج١ - ص٣٤٦.

[2] بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة وأظنها كما أعمال كابل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١- ص٤١٤.

[3] رزان: قرية بنواحي نسا - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣- ص٤١.

[4] خشك: باب من أبواب هراة يقال له درخشك - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢- ص٣٧٣.

[5] الرحج: كورة ومدينة من نواحي كابل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣- ص٣٨.

فتحها، ثم توجه إلى زابلستان[1] (غزنة وأعمالها) فقاتله أهلها، وقد نكثوا عهدهم ففتحها، وعاد إلى كابل وقد نكث أهلها فتم له فتحها. عندما استعمل عبد الله بن عامر سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) عبد الله بن سوار العبدي على ثغر الهند[2] قام فغزا القيقان[3] فأصاب مغنماً، ويذكر أنه عاد إلى القيقان مرةً أخرى فاستنجد أهلها بالترك فقتلوه[4]. في هذه المرحلة وفي سنة (٤٤هـ - ٦٦٤م) عزل عبد الله ابن عامر عن خراسان، وولي عوضه عبد الله بن خازم.

وقال ابن الأثير في أحداث السنة نفسها أن المهلب بن أبي صفرة غزا ثغر الهند فأتى نبتة[5] والأهواز وهما بين الملتان[6] (المليان) وكابل، فلقيه العدو وقاتله، ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقتلوا جميعاً، فقال المهلب: ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل، وكان أول من حذفها العرب.

يذكر الطبري في أحداث سنة (٤٦هـ - ٦٦٦م) أن زياد بن أبيه كان قد وجه الحكم بن عمرو الغفاري إلى خراسان أميراً فغزا جبال الغور[7] وفروانده، فقهرهم بالسيف ففتحها عنوةً، وأصاب فيها غنائم وسبايا، وقيل إن الحكم بن عمرو قفل من غزوته هذه فمات بمرو[8]، وقال ابن الأثير: كان الحكم قد قطع النهر في ولايته ولم يفتح، وكان أول المسلمين شرب من النهر مولى للحكم اغترف بترسه فشرب وناول الحكم فشرب.

وقال ابن الأثير[9]: «كان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بن عمرو بخراسان، وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا، وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق فعلم الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب،

---

(1) زابلستان: كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وهي زابل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣- ص١٢٥.

(2) يقال أن معاوية هو الذي ولاه ثغر الهند.

(3) القيقان: بلاد قرب طبرستان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤- ص٤٢٢.

(4) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٣هـ - ج٣ - ص٤٣٧.

(5) نبتة: مدينة بكابل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١- ص٥٠٠.

(6) الملتان: مدينة من نواحي الهند قرب غزنة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥- ص١٨٩ - وقيل البلد الذي ينشق به نهر مران وهو نهر مثل دجيل وهي تلي المنصورة من أرض السند وبها صنم له دخل مال عظيم ابن حوقل - صورة الأرض - ص١٣٥.

(7) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢١٨.

(8) قيل كانت وفاته سنة ٥٠هـ.

(9) يذكر الطبري الخبر في أحداث سنة ٥٠هـ - ج٥- ص٢٥١.

فلم يزل يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك، فقال لـه المهلـب: إن لم تخرجنـا مـن هـذا الضيـق لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فإنهم سيجتمعون فيـه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق آخر فما يدركونكم حتى تخرجوا منـه ففعـل ذلـك، فسلم الناس بما معهم من الغنائم.

وفي أحداث سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) ولى زياد بن أبيـه الربيـع بـن زيـاد خراسـان، وسـير معـه خمسين ألفاً بعيالاتهم من أهل الكوفة فسكنوا خراسان، وغزا بلخ[1]، ففتحهـا صلحـاً، وكـانت قـد أغلقت بعد صلح الأحنف بن قيس، وفتح قهستان[2] عنوة.

ولي عبيد الله بن زياد خراسان سنة (٥٤ هـ - ٦٧٣م)، من قبل معاوية بن أبي سفيان، وقيـل كان ذلك سنة (٥٣هـ - ٦٧٢م)، وسار إليها فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبـل، فكـان أول من قطع جبال بخارى[3] في جند، ففتح راميتين[4]، ونصف بيكند[5]، وقيـل كـانت زحـوف خراسـان خمسة: أربعة لقيها الأحنف بن قيس الذي لقيه بين قهستان وأبر شهر[6]، والزحوف الثلاثة التي لقيها بالمرغاب[7]، والزحف الخامس زحف قارن، فضه عبد الله بن خازم، وفي سنة (٥٦ هـ - ٦٧٥م)، ولى سعيد بن عثمان على خراسان، فخرج إليها، ومعه أوس بن ثعلبـة التيمـي صـاحب قصـر أوس، والمهلب بن أبي صفرة وغيرهم.

فلما قدم سعيد بن عثمان وقطع النهر إلى سمرقند[8] خرج إليه أهل الصغد[9] فقـاتلهم فهزمهـم وحصرهـم في مدينتهـم فصـالحوه وأعطـوه رهنـاً منهـم خمسـون غلامـاً يكونـون في يـده مـن أبنـاء عظمائهم، وعبر فأقام بالترمذ[10]، ولم يوف لهم، وجاء بالغلمان الرهائن معه إلى المدينة.

---

(1) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٧٩.

(2) قهستان: معناه موضع الجبال التي بين هراة ونيسابور - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤١٦.

(3) بخارى: أعظم مدن ما وراء النهر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٥٣.

(4) راميتين: قرية ببخارى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٨.

(5) بيكند: بلدة بين بخارى وجيحون - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٥٣٣.

(6) أبرشهر: هي نيسابور - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٦٥.

(7) المرغاب: قرية من قرى هراة ثم من قرى مبالين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٠٧.

(8) سمرقند: قصبة الصغد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٤٦.

(9) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٤٦.

(10) ترمذ: مدينة مشهورة راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٦.

وفـي سنة (٦١هـ - ٦٨٠م) كـانت ولاية سـلم بـن زيـاد خراسـان وسجستان، فخـرج وخرجت معه زوجته، فكانت أول امرأة من العرب قطع بها النهر، وقال الطبري: «خرج سلم وأخرج معه أم محمد ابنة عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وهي أول امرأة من العرب قطع بها النهر»[1]. وذكر أن سلم بن زياد كان قد غزا سمرقند وغزا خوارزم، فصالحوه على مال كثير، ووجه جيشاً إلى خجندة[2].

الجبهة الشمالية البيزنطية: يذكر الطبري[3] أن العرب المسلمين في أحداث سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م) كانوا قد غزوا اللان[4]، وغزوا أيضاً الروم فهزموهم هزيمةً منكرة، وقتلوا جماعةً من بطارقتهم، ويروي الخبر بحرفيته، وفي أحداث السنة نفسها كل من ابن الأثير وابن كثير وغيرهم، ويذكر أيضاً في أحداث سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) نقلاً عن الواقدي أن بشر بن أبي أرطأة غزا بالمسلمين الروم، وشتا بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية، ثم قال: أنكر ذلك قوم من أهل الأخبار، وقالوا: لم يشت بشر بأرض الروم قط. وينقل الخبر أيضاً كل من ابن الأثير، وابن كثير وغيرهما.

ويتفق المؤرخون في أحداث سنة (٤٤هـ - ٦٦٤م) أن العرب المسلمين كانوا قد دخلوا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وكان مشتاهم بها، وغزا بشر بن أبي أرطأة البحر، وذكر الطبري في أحداث سنة (٤٥هـ ٦٦٥م) قوله كان مشتى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأرض الروم، ثم رجع من بلاد الروم إلى حمص[5] فمات بها مسموماً حيث دس إليه ابن أثال بأمر معاوية ابن أبي سفيان شربةً مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بها. وفي أحداث سنة (٤٦هـ - ٦٦٦م) يذكر المؤرخون مشتى مالك بن عبد الله بأرض الروم، وقيل كان ابن هبيرة السكوني، وفي أحداث سنة (٤٧هـ - ٦٦٧م) أيضاً كان مشتى مالك بن أبي هبيرة بأرض الروم، ومشتى عبد الرحمن القيني بأنطاكية[6].

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦١هـ - ج٥- ص٤٧٣.

[2] خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٤٧.

[3] ينقل عن الطبري في أحداث سنة ٤٢ هـ كل المؤرخين هذه الأخبار بحرفيتها دون اضافة.

[4] اللان: بلاد واسعة وأمة كثيرة، لهم بلاد متاخمة للدربند في جبال القبق، وليس هناك مدينة مشهورة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٤٥.

[5] ابن عبد البر القرطبي - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ج٢ - ص٣٧٢.

[6] أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٦٦.

ويذكر الطبري وغيره من المؤرخين في أحداث سنة (٤٨هـ ـ ٦٦٨م) كـان مشتى أبي عبد الرحمن القيني (قيل الفتني) ، وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري، وغزوة مـالك بـن هبـيرة السكوني البحر، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحر، وبأهل المدينة، وعلى أهـل المدينـة المنـذر بـن الزهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وفي أحداث سنة (٤٩هـ ـ ٦٦٩م) كـان مشتى مـالك بـن هبـيرة السكوني بـأرض الـروم، وكانت غزوة فضالة بن عبيد، جربة[1] وشتا بها حيث فتحت على يديه، وأصاب فيها سـبياً كثـيراً، وكانت صائفة عبد الله بن كرز البجلي، وكانت غزوة يزيـد بـن شـجرة الزهـاوي في البحـر فشـتا بأهل الشام، وكانت غزوة عقبة بن نافع البحر، فشتا بأهل مصر، وفيها كانت غزوة القسـطنطينية، وقيل كانت سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠م).

غزو القسطنطينية: سير معاوية بن أبي سفيان جيشاً إلى بلاد الروم، وعليهم سفيان بن عوف، وأمر ابنه بالغزاة معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه، فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد فقال[2]:

مـا أن أبـالي لاقـت جموعهـم	بالفرقدونـه مـن حمـى ومـن مـوم
اذا اتكـأت علـى الأنمـاط مرتفقـاً	بديـر مـران عنـدي أم كلثـوم

فبلغ معاوية فأقسم عليه ليلحقن بسفيان ليصيبه ما أصاب الناس، فسار ومعه جمع كثير منهم: ابن عباس، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وعبـد العزيـز بـن زراره الكلابـي، فـأوغلوا في بـلاد الروم، حتى بلغوا القسـطنطينية، وحدثت حرب بين العـرب والـروم، واشـتدت الحـرب بينهـم، فقتـل عبد العزيـز بـن زراره، وتـوفي أبـو أيـوب الأنصـاري عنـد القسـطنطينية فدفـن بـالقرب مـن سورها[3].

قال البيهقي: عندما وجه معاوية ابنه يزيد إلى القسطنطينية، كان معه أبـو أيـوب الأنصـاري، فلما مات أبو أيوب أراد أن يدفنه قرب عاصمة القسطنطينية حسب وصيته، فأرسل ملك الروم إلى

---

(1) جربة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١١٨.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ـ ص٤٥٨.

(3) ابن الأثير ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ج٥ ـ ص١٤٣.

يزيد بن معاوية: «العجب من الناس وما يذكرونه من دهاء أبيك وهو يبعثك في هذا البعث تلفن صاحب نبيك بجنب مدينتي فإذا وليت عنه نبشته فطرحته للكلاب، فأرسل إليه يزيد: إني ما أردت أن أجنه من أودع مسامعك كلامي، وكفرت بالذي أكرمت له هذا الميت، لئن تعرضت له لا أتركن في أرض العرب نصرانياً إلا سفكت دمه واستصفيت ماله، وسبيت حرمه، فأرسل إليه القيصر: كان أبوك أعرف لك مني»[1].

وفي أحداث سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) كانت غزوة بشر بن أبي أرطأة، وسفيان بن عوف الأزدي أرض الروم، وغزوة فضالة بن عبيد الأنصاري في البحر، وفي أحداث سنة (٥١هـ - ٦٧١م) كان مشتى فضالة بن عبيد أرض الروم، وغزو بشر بن أبي أرطأة الصائفة، وفي أحداث سنة (٥٢هـ - ٦٧٢م) يذكر الطبري نقلاً عن الواقدي: كانت غزوة سفيان بن عوف الأزدي، وشتاه بأرض الروم وأنه توفي بها، فاستخلف عبد الله بن مسعدة، وقيل: بل الذي شتا بأرض الروم بشر بن أبي أرطأة، ومعه سفيان بن عوف الأزدي، وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي.

وفي أحداث سنة (٥٣هـ - ٦٧٢م) حسب رواية الطبري، وغيره من المؤرخين كان مشتى عبد الرحمن بن أبي الحكم الثقفي بأرض الروم، وفتحت رودس[2]، فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي، ونزلها المسلمون وزرعوا واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريد كيدهم، فكانوا أشد شيء على الروم، وكان معاوية يدر لهم الأرزاق والعطاء، فلما مات معاوية أقفلهم ابنه يزيد.

وفي أحداث سنة (٥٤هـ - ٦٧٣م) كان مشتى محمد بن مالك أرض الروم، وصائفة معن بن يزيد السلمي، وقيل وفي أحداث هذه السنة فتح جنادة بن أبي أمية جزيرة أرواد[3]، فأقام بها المسلمون حتى كانت نهاية معاوية، فأمر ابنه يزيد بالقفول فلم تعمر بعد ذلك وخربت.

وفي أحداث سنة (٥٥هـ - ٦٧٤م) كان مشتى سفيان بن عوف الأزدي بأرض الروم، وقيل إن الذي شتا بأرض الروم في هذه السنة هو عمرو بن محرز، وقيل كان عبد الله بن قيس الفزاري،

---

(1) البيهقي - إبراهيم بن محمد البيهقي - المحاسن والمساوىء - ص١٣.

(2) رودس: جزيرة ببلاد الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٧٨.

(3) أرواد: اسم جزيرة في البحر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٦٢.

وقيل كان مالك بن عبد الله، وفي أحداث سنة (٥٦هـ - ٦٧٥م) كان مشتى جنادة بن أمية بأرض الروم، وقيل: كان عبد الرحمن بن مسعود، وقيل غزا فيها البحر يزيد بن شجرة الزهاوي، وفي البر عياض بن الحارث، وفي أحداث سنة (٥٧هـ - ٦٧٦م) كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض الروم، وفي أحداث سنة (٥٨هـ ٦٧٧م) غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم، وعمر بن يزيد الجهني في البحر، وقيل جنادة بن أبي أمية، وقال الطبري نقلاً عن الواقدي وفيها قتل يزيد بن شجرة في البحر، ويقال عمرو بن الجهني، وكان الذي شتا بأرض الروم، وقيل: إن الذي غزا في البحر هذه السنة جنادة بن أبي أمية.

وفي أحداث سنة (٥٩هـ - ٦٧٨م) كان مشتى عمرو بن مرة الجهني أرض الروم في البر، وقيل لم يكن عامئذ غزو في البحر، وقال ابن الأثير: في أحداث السنة نفسها كان غزو المسلمين حصن كمخ[1] ومعهم عمير بن الحباب السلمي، فصعد عمير السور و لم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم، فصعد المسلمون فتم فتحه. وفي أحداث سنة (٦٠هـ - ٦٧٩م) يذكر الطبري وغيره من المؤرخين كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية[2]، ودخول جنادة بن أمية رودس وهدم مدينتها.

الجبهة الغربية: اختلف المؤرخون في فتح مصر، فالأكثرية قالوا: فتحت مصر سنة (٢٠هـ - ٦٤٠م) وأميرها عمرو بن العاص، وقيل فتحت الإسكندرية[3] سنة (٢٥هـ - ٦٤٥م)، وقال الواقدي: فتحت مصر والإسكندرية سنة عشرين، أما سيف بن عمر فقال: إن مصر والإسكندرية فتحتا سنة ست عشرة للهجرة.

فأما مصر ففتحت بأمر الخليفة عمر - في أحداث سنة عشرين للهجرة - حين فرغ من الشام كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جنده، فخرج حتى باب اليون سنة عشرين. أما ابن عبد الحكم فيذكر قدوم الخليفة عمر إلى الجابية[4] واجتماع عمرو بن العاص به على انفراد، واستئذانه أن يسير إلى مصر ليفتحها، ويهون عليه فتحها، فوافقه، وعقد له على أربعة آلاف رجل

---

(1) كمخ: مدينة بالروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٧٩.

(2) سورية: موضع بالشام بين خناصرة وسلمية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٨٠.

(3) الإسكندرية: ثلاثة مدن أكبرها إسكندرية مصر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٨٢.

(4) الجابية: قرية من أعمال دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٦١.

كلهم من عك، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة، أخيراً وافق الخليفة على ذلك، وأمره بالمسير إليها وقد ورد ذلك، وكان الخليفة عمر قد بعث في أثر عمرو بن العاص، الزبير بن العوام مدداً له.

واختلف أيضاً في فتح الإسكندرية فبعضهم قال: كان فتحها سنة خمس وعشرين بعد سنتين من خلافة عثمان بن عفان، وعليها عمرو بن العاص، وقيل: افتتحت الإسكندرية في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين، أو في السنة التي تلتها، وذكر أن عمرو بن العاص لما افتتح باب اليون تحرك نحو الإسكندرية فحررها قريةً قرية حتى كان في قرية بلهيب[1]، وهناك استقبل رسول صاحب الإسكندرية، ومعه كتاب يذكر فيه «اني قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إلي منكم معشر العرب لفارس والروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد علي ما أصبتم من سبايا أرضي فعلت»[2].

فرد عمرو بن العاص سأشير بذلك، فكتب إلى الخليفة عمر يعلمه بذلك فكان الرد: «اعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية، على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين.. ومن اختار دين قومه، وضع عليه الجزية..» وأرسل عمرو بن العاص إلى صاحب الإسكندرية بالقرار فوافق وتم فتح الاسكندرية وما حولها من الغرب.

واختلف في ذلك فابن عبد الحكم[3] يذكر أن الاسكندرية دخلت عنوةً في عهد الخليفة عمر، بينما يذكر سيف بن عمر أن مصر فتحت سنة ست عشرة للهجرة على عكس ما يذكره بقية المؤرخين، وذكر أن أهل الإسكندرية نقضوا العهد سنة (٢٥ هـ ـ ٦٤٥م) كما يذكر ابن الأثير[4]، فغزاهم عمرو بن العاص، وأعاد فتحها، وقيل إن فتحها كان سنة خمس وعشرين.

وقال الواقدي: في سنة (٢٥ هـ ـ ٦٤٥م) وجه عبد الله بن سعد بن أبي سرح الخيل إلى المغرب العربي، وقيل: كان عمرو بن العاص قد بعث بعثاً قبل ذلك إلى المغرب العربي، فأخذوا

---

(١) بلهيب: من قرى مصر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤٩٢.

(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٢٠ هـ ـ ج٤ ـ ص١٠٥.

(٣) ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ـ ص٨٤ وما بعدها.

(٤) ابن كثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٨١.

سبايا وغنائم، فكتب عبد ا الله يستأذن في الغزو إلى أفريقية[1] فأذن له وقال الطبري: في أحداث سنة ٢٧ هـ - ٦٤٧م كان فتح أفريقية على يد عبد ا الله بن سعد.

فتح أفريقية: عندما مات الخليفة عمر بن الخطاب كان على مصر عمرو بن العاص فولي الخليفة عثمان فأقره سنتين من إمارته[2]، ثم عزله، واستعمل عبد ا الله بن سعد، وقيل: إن عمرو بن العاص كان على مصر، وعلى جند مصر عبد ا الله بن سعد، فوجه عبد ا الله بن سعد إلى أفريقية بأمر الخليفة عثمان، ومعه من القادة عبد ا الله بن نافع ابن عبد القيس، وعبد ا الله بن نافع بن الحصين، وقال له إن فتحت أفريقية فلك مما أفاء ا الله على المسلمين خمس الخمس[3] من الغنيمة نقداً، وأمر العبدين (عبد ا الله بن نافع بن الحصين، وعبد ا الله بن نافع بن عبد القيس) على الجند وأمرهما بالتوجه إلى الأندلس[4] وأمرهما، وعبد ا الله بن سعد الاجتماع على الأجل، ثم يقيم عبد ا الله بن سعد في عمله (بأفريقية) ويسعيان إلى عملهما.

فلما خرجوا من مصر وتوغلوا في أفريقية وانتهوا إلى الأجل اقتتلوا فقتل الأجل[5] وفتحت أفريقية سهلها وجبلها، وحسنت طاعتهم، فاقتسم عبد ا الله بن سعد ما أفاء ا الله على الجند وأخذ الخمس، وضرب فسطاطاً في موضع القيروان[6]. بعد ذلك وجه الخليفة عثمان العبدين من أفريقية إلى الأندلس وأمرهما أن يأتياها من قبل البحر، فخرجوا ومعهم البربر، فأتوها من برها، ففتحها ا الله على أيديهم، ثم عزل عبد ا الله بن سعد عن أفريقية وعاد إلى مصر[7]، و ولى أفريقية عوضه عبد ا الله ابن نافع بن عبد قيس[8].

---

(1) أفريقية: اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٢٨.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٣.

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٨٨، الطبري - تاريخه - ج٤ - ص٢٥٣.

(4) الأندلس: جزيرة كبيرة - فيها عامر وغامر، وأرض الأندلس من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٦٢.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٤.

(6) القيروان: مدينة عظيمة بأفريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٢.

(7) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٥.

(8) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٩٣.

وصالح عبد الله بن سعد بطريق أفريقية جرجير على ألفي ألف دينار، وخمسمائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، وقيل صالحهم على ثلاثمائة قنطار ذهب.

وقال ابن الأثير[1]: في أحداث سنة (٢٢ هـ - ٦٤٢م) سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة[2] فصالحه أهلها على الجزية. فلما فرغ منها سار إلى طرابلس الغرب[3]، فحاصرها شهراً فلم يظفر بها وقد نزل شرقيها، و لم يكن السور متصلاً بالبحر فرأى بعض المسلمين مسلكاً بين البحر والبلد فدخلوا منه و كبروا، ثم دخل عمرو البلد فحررها من الروم، وقد هرب أكثرهم بالسفن والمراكب. بعد ذلك سير عمرو بن العاص جيشاً إلى سبره[4]، فتمكن منها ثم سار عمرو إلى برقة وفيها البربر، فصالحه أهلها عل ثلاثة عشر ألف دينار[5]، وكل ذلك في عهد الخليفة عمر.

وقيل إن عمرو بن العاص سار على رأس جيش إلى برقة وسكانها من قبيلة لواته الذين كانوا ساخطين على الحكم البيزنطي[6] الذي كان يمارس عليهم الظلم في كافة أنواعه. من أجل ذلك بادرت لواته إلى الانتماء إلى أصلها العربي دون قتال، واستسلموا طواعيةً وصالحوا القوات العربية المسلمة، التي يقودها عمرو بن العاص على جزية مقدارها دينار على كل حالم.

بعد تحرير برقة أخذ عمرو بن العاص يفكر في تحرير طرابلس الغرب، والواحات الواقعة إلى جنوبها في قلب ليبية حالياً، ولتحقيق ذلك جهز جيشاً أوكل قيادته إلى عقبة بن نافع، فوجهه إلى فزان[7] فحررها ثم تقدم إلى زويلة[8] فحررها أيضاً وبذلك أمن عمرو بن العاص عدم وجود أي عدو في جنوب طرابلس الغرب قبل أن يحتلها.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٢٥.

(2) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وأفريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٨٨.

(3) طرابلس الغرب: ثلاث مدن عليها سور صخر جليل البنيان على شاطىء البحر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٥.

(4) سبره: اسم مدينة بافريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٨٤.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٦.

(6) سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال - ج١ - ص١٣٢.

(7) فزان: ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٦٠.

(8) زويلة: بلدان أحدهما زويله السودان بين بلاد السودان وأفريقية - وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حدود السودان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٦٠.

في الوقت نفسه كان عمرو بن العاص يعد جيشاً لتحرير طرابلس[1] الغرب فبدأ بمدينة سرت[2] فحررها، ثم توجه إلى مدينة لبده[3] فاستسلم أهلها دون قتال، ثم قاد قواته إلى طرابلس فحاصرها شهراً دون فائدة، وقيل إن أهل طرابلس كانوا أثناء الحصار يتلقون مساعدات من قبيلة نفوسه البربرية إلا أن عمرو بن العاص تمكن من تحريرها.

بعد تحرير طرابلس سنة (٢٢ هـ - ٦٤٢م) جند عمرو بن العاص جيشاً وسيره إلى سبره فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم، وهم لا يعلمون بتحرير مدينة طرابلس، فتمكن العرب من تحريرها. بعد ذلك توجه عمرو بن العاص إلى برقة وبها لواته، وقد ورد ذلك، وتمكن بواسطة بشر بن أبي أرطأة من تحرير ودان[4] سنة (٢٣ هـ - ٦٤٣م) وقيل بعد تحرير طرابلس الغرب سنة (٢٢ هـ - ٦٤٢م).

كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في تحرير أفريقية من الروم، فكان رد الخليفة: «ما هي بأفريقية، ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها»[5]. إذاً لم يوافق الخليفة إرادة عمرو بن العاص، فعاد إلى مصر واستقر بالفسطاط، واستمر على حاله إلى أن مات الخليفة عمر، وتولى الخلافة عثمان.

وهنا يختلف المؤرخون حول عزل عمرو بن العاص فبعضهم قال: كان أول ما عمل به الخليفة أن عزل عمرو بن العاص عن مصر، وبعضهم الآخر يذكر أن عمرو بن العاص بقي سنتين بعد خلافة عثمان، وقال الطبري[6]: في أحداث سنة (٢٥ هـ - ٦٤٥م) إن الإسكندرية نقضت عهدها في هذه السنة فغزاها عمرو بن العاص، وقال: وفيها وجه عبد الله بن سعد بن أبي سرج الخيل إلى المغرب، وقال: كان عمرو بن العاص قد بعث بعثاً قبل ذلك إلى المغرب فأصابوا غنائم، فكتب عبد الله يستأذنه في الغزو إلى أفريقية فأذن له.

---

(1) سعد زغلول عبد الحميد - ج١ - ص١٣٧.

(2) سرت: مدينة على الساحل بين برقة وطرابلس الغرب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ٢٠٦.

(3) لبده: مدينة بين برقه وأفريقية وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة وهو حصن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٠.

(4) ودان: مدينة بأفريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٦٥.

(5) ابن أبي الحكم - فتوح مصر وأخبارها - ص١٧٣.

(6) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٠.

وقال الطبري[1]: في أحداث سنة (٢٧ هـ - ٦٤٧م) كان تحرير أفريقية على يد عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وقال: مات الخليفة عمر، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى قضائها خارجة بن حذافة السهمي، فولى عثمان، فأقرهما سنتين، ثم عزل عمراً، واستعمل عبد الله بن سعد. بهذا يكون عزل عمرو بن العاص عن مصر سنة (٢٥ هـ - ٦٤٥م)، و ولاية عبد الله بن سعد[2]، وبذلك يكون عبد الله بن سعد هو الذي حرر افريقية.

وقال الطبري[3] نقلاً عن سيف بن عمر حول هذه الحادثة: «مات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى قضائها خارجة بن حذافة السهميّ، فولي عثمان، فأقرّهما سنتين من إمارته ثم عزل عمراً، واستعمل عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح». وقال: لما ولي عثمان أقرّ عمرو بن العاص على عمله، وكان لا يعزل أحداً إلاّ عن شَكاة أو استعفاء من غير شَكاة، وكان عبد الله بن سعد من جُنْد مصر، فأمر عبد الله بن سعد على جنده، ورماه بالرّجال، وسرّحه إلى أفريقية وسرحَ معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحصيّن الفهريّين، وقال لعبد الله بن سعد: إنْ فتح الله عزّ وجل عليك غداً أفريقية، فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نَفْلاً. وأمّر العبدَيْن على الجند، ورماهما بالرجال، وسرّحهما إلى الأندلس؛ وأمرهما وعبد الله بن سعد بالاجتماع على الأجلّ، ثم يقيم عبد الله بن سعد في عمله ويسيران إلى عملهما[3].

فخرجوا حتى قطعوا مصر، فلمّا وغلوا في أرض أفريقيّة فامعنوا وانتهوا إلى الأجلّ، ومعه الأفناء، فاقتتلوا، فقتل الأجلّ، قتله عبد الله بن سعد وفتح أفريقية سهلهَا وجبلها. ثم اجتمعوا على الإسلام، وحسنت طاعتهم، وقسم عبد الله ما أفاء الله عليهم على الجند؛ وأخذ خُمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع ابن وَثيمة النّصري، وضرب فسطاطاً في موضع القيروان[4]، ووفّد وفداً، فشكوا عبد الله فيما أخذ.

فقال لهم: أنا نفّلته - وكذلك كان يصنع - وقد أمرتُ له بذلك، وذاك إليكم الآن؛ فإن

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٣.

[2] ابن عبد الحكم - فتح مصر - ص١٧٤.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٢٧ هـ - ج٤ - ص٢٥٣.

[4] المرجع نفسه - ج٤ - ص٢٥٤.

رضيتم فقد جاز، وإن سخِطتم فهو ردّ. قالوا: فإنا نسخطه[1]، قـال: فهـو ردّ، وكتـب إلى عبـد الله بردّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزله عنّا، فإنا لا نريد أن يتأمّر علينا، وقد وقع ما وقع؛

فكتب إليه أن استخلِف على أفريقيّة رجلاً ممن ترضى ويرضوْن واقسم الخِمس الذي كنت نفلتك في سبيل الله؛ فإنهم قد سخِطوا النفل. ففعل، ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقـد فتـح أفريقيَة، وقتل الأجلّ. فما زالوا من أسمع أهل البلـدان وأطوعهـم إلى زمـان هشـام بـن عبـد الملـك، أحسـن أمـة إسـلاماً وطاعـةً؛ حتـى دبَ إليهـم أهـل العـراق، فلمـا دبَ إليهـم دعـاة أهـل العـراق واستثاروهم، شقّوا عصاهم، وفرّقوا بينهم إلى اليوم....

وقال: وأرسل عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين، وعبد الله بـن نـافع بـن عبـد القيـس مـن فورهما من أفريقيَة إلى الأندلس، فأتياها من قِبـلَ البحـر. وكتـب عثمـان إلى مـن انتـدب مـن أهـل الأندلس: أما بعد، فإنّ القسطنطينية إنما تفتح من قِبلَ الأندلس[2]؛ وإنكم إن افتتحتموها كنتم شركاء مَن يفتحها في الأجر، والسلام. وقال كعـب الأحبـار: يعـبر البحـرَ إلى الأندلـس أقـوام يفتتحونهـا، يعرفون بنورهم يوم القيامة... فخرجوا ومعهم البرْبر؛ فأتوها من برّها؛ ففتحها الله على يـد العـرب المسلمين وافتتحوا إفرنجة؛ وازدادوا في سلطان المسلمين مثل أفريقيَة؛ فلما عزل عثمـان عبـدَ الله بـن سعد بن أبي سَرْح صرف إلى عمله عبد الله بن نافع بن عبد القيس؛ وكان عليها، ورجـع عبـد الله ابن سعد إلى مصر؛ و لم يزل أمرُ الأندلس كأمر أفريقيَة حتى كان زمان هشام، فمنع البربر أرضهـم؛ وبقِيَ مَن في الأندلس على حاله.

وأما الواقدي[3] فإنه ذكر أنّ ابن أبي سبْرة حدّثه عن محمد بن أبي حرْملة، عن كُريب، قـال: لما نزع عثمان عمرو بن العاص عن مصر غضِب عمرو غضباً شـديداً، وحقَـد علـى عثمـان، فوجّـه عبد الله بن سعد، وأمره أن يمضي إلى أفريقيَة؛ وندب عثمان الناس إلى أفريقيَة؛ فخرج إليهـا عشـرة آلاف من قُريش والأنصار والمهاجرين.

وقال الواقدي[3]: وحدثني أسامة بن زيد الليثيّ، عن ابن كعب، قال: لما وجّه عثمان عبدَ الله

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٥٤.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٩٣.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٥٦.

ابن سعد إلى أفريقية، كان الذي صالحهم عليه بطريق أفريقية جُرْجير ألفي دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، فبعث ملك الروم رسولاً، وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار؛ كما أخذ منهم عبد الله بن سعد؛ فجمع رؤساء أفريقيَة، فقال: إن الملك قد أمرني أن آخذ منكم ثلاثمائة قنطار ذهب مثل ما أخذ منكم عبد الله بن سعد.

فقالوا: ما عندنا مال نعطيه؛ فأمّا ما كان بأيدينا فقد افتدينا به أنفسَنا، وأمّا الملك فإنه سيّدنا فليأخذْ ما كان له عندنا من جائزة كما كنا نعطيه كلّ سنة. فلمّا رأى ذلك أمر بحبسهم، فبعثوا إلى قوم من أصحابهم، فقدِموا عليه، فكسروا السجن فخرجوا، وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلاثمائة قنطار ذهب؛ فأمر بها عثمان لآل الحكَم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري.

وقال: نزع عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عبد الله بن سَعْد على الخرَاج، فتباغيا، فكتَب عبد الله بن سعد إلى عثمان يقول: إنّ عمراً كسر الخراج. وكتب عمرو: إنّ عبد الله كسر عليّ حيلة الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو: انصرف؛ و ولّى عبد الله بن سعد الخراج والجند، فقدم عمرو مغضَباً، فدخل على عثمان وعليه جُبّة يمانية محشوة قطناً، فقال له عثمان: ما حشو جُبّتِك؟ قال: عمرو، قال عثمان: قد علمتُ أن حشوَها عمرو و لم أرد هذا، إنما سألت: أقطن هو أم غيره؟ [1] ».

وقيل بعد أن ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب كتب إليه الخليفة عثمان بعد استشارة أصحابه بأمره بغزو أفريقية سنة (٢٧ هـ - ٦٤٧م) وأمده بجيش قوي قوامه عشرون ألف [2] رجل معظمهم من الفرسان، وفي هذا الجيش عدد من أبناء الصحابة، قيل إن تعداد الجيش كله كان عشرين ألفاً من ضمنه جيش العرب المسلمين في مصر، وقيل إن الخليفة أمده باثني عشر ألف مقاتل فيكون جيش مصر بمفرده ثمانية آلاف. توجه عبد الله بن سعد بعد صدور الإمدادات عليه، وقد استخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني، فاستعصت عليه طرابلس فتركها وواصل سيره نحو أفريقية، فلما وصل قابس [3] بثّ الرايات في كل الجهات.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٥٣-٢٥٦.

[2] حسين مؤنس - معالم تاريخ المغرب والأندلس - ص٣٢.

[3] قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر بينها وبين طرابلس ثمانية منازل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٨٩.

في هذا الوقت كان جرجير يترقب الأحداث، واضطر للخروج من عاصمته سبيطله[1] لمقاتلة الجيش العربي الإسلامي، وقوام قواته مئة وعشرون ألف مقاتل، وكان جرجير هذا يملك من طرابلس إلى طنجة[2]، وقد ولاه ملك الروم أفريقية[3]، فالتقى جرجير مع العرب المسلمين في معركة شبه فاصلة بالقرب من سبيطلة ـ علماً أن الخليفة عثمان، كان قد أرسل الزبير بن العوام كمدد ـ فلما اشتبك الطرفان استمر الاشتباك أياماً، ثم لحق عبد الله بن الزبير بمن معه كقوة جديدة فتغير الموقف لصالح العرب المسلمين. ورغم ذلك استمر القتال.

عند ذلك قال عبد الله بن الزبير، لعبد الله بن سعد: قد رأيت أن نترك جماعةً صالحة من فرسان العرب المسلمين في خيامهم متأهبين لايشتركون بالقتال، ثم نزجهم في الوقت المناسب، وفعلاً عند الظهر وقد هم كل من الفريقين بالانصراف أخذ عبد الله بن الزبير من تجنب القتال ولم يشترك، وهاجم العدو مع مجموعة من القوات فقتل جرجير وانهزم أتباعه. وغنم المسلمون معسكرهم، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، والراجل ألف دينار، واصطلحوا على أن يأخذ عبد الله بن سعد ثلاثمائة قنطار من الذهب كل سنة على أن يتركهم ويخرج من بلادهم، ثم رجع إلى مصر فأخذ خمس الغنيمة.

وفي أحداث سنة (٣١ هـ ـ ٦٥١م) يذكر الطبري[4] نقلاً عن الواقدي غزوة الصواري والأساور، ثم يعود في أحداث سنة (٣٣ هـ ـ ٦٥٣م) فيذكر أن فتح قبرص[5] كان في هذه السنة، ويذكر أيضاً أن غزوة الصواري كانت في سنة (٣٤ هـ ـ ٦٥٤م)، ويذكر الطبري[6] أيضاً في أحداث سنة (٣١ هـ ـ ٦٥١م) أن أهل الشام خرجوا وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وخرج قسطنطين بن هرقل في العام نفسه في خمسمائة مركب، وتقابل الطرفان، وربط المسلمون السفن بعضها إلى بعض واشتد القتال بين الطرفين فهزم

---

[1] سبيطلة: مدينة من مدن أفريقية بينها بين القيروان سبعون ميلا ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٨٧.

[2] طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم، وبلاد البربر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٦٣.

[3] ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر وأخبارها ـ ص١٨٣.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ـ ص٢٨٨.

[5] حسين مؤنس ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ـ ص٣٢.

[6] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ـ ص٢٩٠.

قسطنطين.

وفي أحداث سنة (٣٣هـ - ٦٥٣م) يذكر الطبري[1] غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرج الثانية لأفريقية حين نقض أهلها العهد، وفي أحداث سنة (٣٥هـ - ٦٥٥م) يذكر الطبري أيضاً أن عبد الله بن سعد بن أبي سرج خرج إلى عثمان في أثر المصريين، وقد كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فلما كان بإيله[2] بلغه أن المصريين قد رجعوا إلى عثمان وحصروه. في هذا الوقت كان محمد ابن حذيفة بمصر، فغلب عليها، ومنع عبد الله بن سعد من دخولها.

بعد استلام الإمام علي الخلافة ولى قيس بن سعد مصر ثم عزله وولى محمد بن أبي بكر، وفي النهاية تمكن عمرو بن العاص من قتل محمد بن أبي بكر سنة (٣٨هـ - ٦٥٨م)، وبذلك عاد عمرو ابن العاص إلى مصر مرةً أخرى.

فلما توفي عمرو بن العاص سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) ولي عوضه ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص سنتين[3]، ويقول الطبري في أحداث سنة (٤٧هـ - ٦٦٧م) عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر، ووليها معاوية بن حديج. هنا يتناقض الطبري مع نفسه في الخبرين، ففي الخبر الأول مات عمرو بن العاص سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) وهذا متفق عليه عند جميع المؤرخين، وولاية ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص سنتين، أي في سنة (٤٥هـ - ٦٦٤م)، وفي الخبر الثاني في أحداث سنة (٤٧هـ - ٦٦٧م) يذكر عزل عبد الله بن عمرو، وولاية معاوية بن حديج، والخبر الأول هو الأقرب إلى الصحة وعليه الاعتماد عند أكثر المؤرخين أي أن ولاية معاوية بن حديج كانت سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م) وليس (٤٧هـ - ٦٦٧م).

أما البلاذري[4] فيذكر لما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ولي معاوية بن حديج مصر، فبعث عقبة بن نافع الفهري، فغزاها واختطها ووجه عقبة بن بشر إلى قلعة القيروان[5] ففتحها فقتل، وسبى، والمطلع إلى هذا الخبر يلاحظ أن معاوية بن حديج لم يكن والياً لا لمصر ولا لأفريقية حتى

---

[1] الطبري - تاريخ ارسل والملوك - ج٤ - ص٣١٧.

[2] إيله: على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وقيل هي آخر الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٩٢.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٨١.

[4] البلاذري - فتوح البلدان - ص٣١٩.

[5] القيروان: مدينة عظيمة بأفريقية - مصرت في الإسلام أيام معاوية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٢٠.

يقوم بما قام به.

بعد ذلك عزل معاوية بن حديج عن مصر سنة (٥٠هـ ــ ٦٧٠م) و ولي مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية، وكان معاوية قبل ان يولي مسلمة مصر وأفريقية قد بعث عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية فافتتحها واختط قيروانها، وبذلك يكون عقبة أول من اختط القيروان وقطعها للناس، وبنى مسجدها، وعندما عزل معاوية بن حديج عزل أيضاً عقبة، وولى مسلمة، فكان أول من جمع له المغرب كله ـ مصر وبرقه وأفريقية وطرابلس ـ فولى مسلمة مولى يقال له أبو المهاجر أفريقية عوضاً عن عقبة، واستمر مسلمة على ما هو عليه حتى كانت نهاية معاوية بن أبي سفيان، وبهذا يختلف الطبري مع البلاذري في هذه الأحداث.

أرسل معاوية بن أبي سفيان جيشاً بقيادة معاوية بن حديج سنة (٤٥هـ ـ ٦٦٥م) وهنا يذكر بعض المؤرخين أموراً كثيرة عن معاوية بن حديج لا يذكرها الطبري ولا ابن الأثير من ذلك أن معاوية بن حديج عندما وصل إلى مصر بعد أن وليها سنة (٤٥هـ ـ ٦٦٥م) أسرع إلى أفريقية فوجد الروم قد استعدوا بقيادة قائد اسمه نقفور، فوجد معاوية بن حديج فرصةً سانحة فاستولى على بعض المراكز القوية، ويذكر ابن عذري المراكشي أن معاوية بن حديج وجه عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة تعرف باسم جلولاء[1] فحاصرها حتى فتحها عنوة، وأكد أيضاً أن معاوية بن حديج أرسل جيشاً في البحر قوامه مائتا مركب إلى صقلية[2] فسبوا وغنموا، ثم عادوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة.

ويذكر ابن عساكر[3]: أن معاوية بن حديج غزا أفريقية ثلاث غزوات، الأولى كانت سنة (٣٤هـ ــ ٦٥٥م)، قبل قتل عثمان بن عفان، وأن عثمان أعطاه الخمس في تلك الغزوة، وكانت تلك الغزوة لا يكاد يعرفها كثير من الناس، وقال فيها كانت غزوة معاوية بن حديج بفزارة.

وأما الثانية: فسنة (٤٠هـ ـ ٦٦٠م).

---

(١) جلولاء: مدينة مشهورة بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً وهي مدينة قديمة مبنية بالصخر ـ ياقوت الحموي ــ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٥٦.

(٢) صقلية: من جزائر بحر المغرب مقابل أفريقية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٤١٦.

(٣) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٩ ـ ص٢٣ وما بعدها.

والثالثة: فسنة (٥٠هـ - ٦٧٠م).

وقال خليفة[1] بن خياط: في أحداث سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م) وفيها غزا معاوية بن حديج أفريقية فنزل جبلاً، فأصابته أمطار، فسمي جبل الممطور، وقال: وفيها أغزى معاوية، معاوية بن حديج فبلغ محصن فأصاب شيئاً من سبي ولم يفتح مدينةً ولا حصناً، ثم قفل.

وقال خليفة بن خياط: في أحداث سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) أغزى مسلمة بن مخلد وهو أمير مصر معاوية بن حديج، وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن الحكم وهو عامله على المدينة أن إبعث عبد الملك بن مروان على بعث المدينة إلى بلاد المغرب، فقدم عبد الملك فدخل مع معاوية ابن حديج أفريقية فبعثه معاوية بن حديج على خيل إلى جلولاء بأرض المغرب، فحصر أهلها، ونصب عليها المجانيق، فكتب إليه معاوية بن حديج أن انصرف فانصرف، وقد كان أوهى الحائط فخرّ الحائط، فانصرف بالناس راجعين فقتل المقاتلة وسبى الذرية، ووجه ابن حديج جيشاً، فنزلوا على مدينة أخرى فسألوه الصلح فصالحهم وانصرف في سنة (٥١هـ - ٦٧١م)، ولم يذكر ابن خياط معاوية بن حديج في سنة (٣٤هـ - ٦٥٤م) ولا سنة (٤٠هـ - ٦٦٠م).

أما الطبري[2] فلا يذكر معاوية بن حديج في أحداث سنة (٣٤هـ - ٦٥٤م)، إنما يذكره في أحداث سنة (٣٥هـ - ٦٥٥م) يقول: «وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني». أي أن عبد الله بن سعد هو الذي كان والياً على مصر، ولم يحدث في هذه السنة ولا في السنة التي كانت قبلها أي غزو لأفريقية.

وقال الطبري[3]: في أحداث سنة (٤٧هـ - ٦٦٧م)، وفيها عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ووليها معاوية بن حديج، وسار في المغرب.

وقال: في أحداث سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م)، وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر وولي مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية، وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث - قبل أن يولي مسلمة وأفريقية - عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية، فافتتحها، واختطّ قيروانها.

---

[1] خليفة بن خياط - تاريخه - ص٢١٠ - ٢١١.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٣٥هـ - ج٤ - ص٣٥٢.

[3] المرجع نفسه - أحداث سنة ٤٧هـ - ج٥ - ص٢٢٩.

أما ابن الأثير فلم يذكر إلا ما ذكره الطبري، ويذكره ابن عبد البرّ القرطبي[1] في كتاب الاستيعاب فيقول: كان معاوية بن حديج قد غزا أفريقية ثلاث مرّات متفرقات، أصيبت عينه في مرّة منها.

أما ابن الحكم[2] فقال: غزا معاوية بن حديج أفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فكانت سنة (٣٤هـ - ٦٥٤م) قبل قتل الخليفة عثمان، وأعطي مروان الخمس من تلك الغزوة، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس، والثانية: سنة أربعين، والثالثة سنة خمسين، اختلف في هذا القول، فالغزوة الأولى مستبعدة لأنها كانت خلال الفتنة، وكل العالم العربي الإسلامي مشغول بها، ثم إن معاوية ابن حديج خلال هذا التاريخ لم يكن يشغل منصباً يسمح له القيام بمثل هذه الغزوة، وفي هذا التاريخ كانت الأمور مضطربة بمصر، والأمر فيها خلال هذا التاريخ كان لمحمد بن حذيفة وأنصاره أكثر من عبد الله بن سعد، والغزوة الثانية سنة (٤٠ هـ - ٦٦٠م)، في هذا التاريخ كان عمرو بن العاص هو صاحب مصر، وليس معاوية بن حديج؛ والمصادر التاريخية لا تذكر أي شيء عن هذا الموضوع، والغزوة الثالثة والتي كانت سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) فهي غير مطابقة للحقيقة كون مسلمة هو الذي كان على مصر والمغرب جميعاً، ولم يتحدث المؤرخون عن غزوة قام بها معاوية بن حديج سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م) إلا ما كان من المراكشي في كتاب البيان المغرب في ج١ ص١٦ وعنه أخذ المؤرخون. ومهما يكن فإذا قام معاوية بن حديج بغزو أفريقية فيكون خلال المرحلة التي كان فيها والياً على مصر وهي الفترة الواقعة بين سنتي (٤٥ هـ - ٥٠ هـ) - (٦٦٥-٦٧٠م).

عقبة بن نافع: هو عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري، هو ابن خالة عمرو بن العاص اختلف فيه المؤرخون وخاصةً فيما يتعلق بولايته وحروبه في أفريقية، فالطبري يذكره في أحداث سنة (٢١هـ - ٦٤١م) عندما كان عمرو بن العاص والياً على مصر بعث عقبة بن نافع الفهري، فافتتح زويله بصلح، وما بين برقه وزويله سلم للعرب، ويذكر الطبري أيضاً في أحداث سنة (٤٩هـ - ٦٦٩م) يقول فيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر فشتا بأهل مصر، وفي أحداث سنة (٥٠ هـ - ٦٧٠م) قال: وفيها عزل معاوية

---

[1] ابن عبد البرّ القرطبي - الاستيعاب - ج٣ - ص٤٦٩.

[2] ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها - ص١٩٤.

ابن حديج عن مصر و ولي مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية، وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث قبل أن يولي مسلمة مصر وأفريقية عقبة بن نافع إلى أفريقية فافتتحها واختط قيروانها وكان موضع غيضة لا ترام من السباع والحيات وغير ذلك من الدواب فدعا الله عز وجل عليها فلم يبق منها شيء إلا خرج هارباً وقيل نادى عقبة بن نافع.

إنـــا نازلونـــا فاظعنـــوا غزينـــا

وذكر أن عقبة بن نافع هو أول من اختطها واقتطعها للناس مساكن ودوراً وبنى مسجدها وقال في هذه السنة (٥٠ هـ - ٦٧٠م) عزل معاوية بن أبي سفيان، معاوية بن حديج عن مصر وعقبة بن نافع عن أفريقية، وولى مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كله فهو أول من جمع له المغرب كله ومصر وبرقة وأفريقية وطرابلس فولى مسلمة أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر وعزل عقبة بن نافع.

أما ابن الأثير فيذكر ما ذكره الطبري في أحداث سنة (٢١هـ - ٦٤١م)، ويذكره في أحداث سنة (٢٧هـ - ٦٤٧م) خلال ولاية عبد الله بن سعد مصر وعندما سار إلى أفريقية فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من العرب المسلمين وكانوا بها، وساروا إلى طرابلس الغرب، ويذكره أيضاً في أحداث سنة (٤١هـ - ٦٦١م) فيقول استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد القيس على أفريقية فانتهى إلى لواته، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم في سنته فقتل وسبى، وفتح أيضاً في سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م) غدامس[1] فقتل وسبى، وفتح في سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) كوراً من كور السودان وافتتح ودان، وهي من برقة وافتتح عامة بلاد البربر، وهو الذي اختط القيروان سنة خمسين.

وقال في أحداث سنة (٤٩هـ - ٦٦٩م) ما ذكره الطبري وفيها كانت غزوة عقبة ابن نافع البحر فشتا بأهل مصر، وفي أحداث سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م يذكر ما ذكره الطبري أن ولاية عقبة بن نافع أفريقية كانت هذه السنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) وبنى القيزوان ثم بقي إلى سنة (٥٥هـ - ٦٧٤م) ووليها مسلمة بن مخلد ثم يذكر ما ذكره الطبري حول ذلك في أحداث هذه السنة.

وقال إن معاويـــة بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن أفريقية واستعمل عليها

---

(1) غدامس: مدينة بالمغرب ثم في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٨٧.

عقبة بن نافع وكان مقيماً ببرقة، و زويلة قد فتحها أيام عمرو بن العاص، وله في مثل تلك البلاد جهاد وفتوح. فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس فدخل أفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه، ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم.

ورأى أن يتخذ مدينةً يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من فورة تكون من أهل البلاد، فقصد موضع القيروان فكانت دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، ثم رممها سنة (٥٥هـ) وسكنها الناس، وكان أثناء عماره المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر في الإسلام.

وفي أحداث السنة نفسها (٥٥هـ ـ ٦٧٤م)، قال: إن معاوية بن أبي سفيان استعمل على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري فاستعمل الأخير مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به فسار عقبة إلى الشام فلما ولي الخلافة يزيد بن معاوية استعمل عقبة ابن نافع سنة (٦٢هـ ـ ٦٨١م) على أفريقية فسار إليها.

وقال نقلاً عن الواقدي إن عقبة بن نافع ولي أفريقية سنة (٤٦هـ ـ ٦٦٦م) فاختط القيروان، و لم يزل عقبة على أفريقية حتى سنة (٦٢هـ ـ ٦٨١م) فعزله يزيد بن معاوية، واستعمل أبا المهاجر، فحبس عقبة، وضيق عليه. وعندما علم يزيد بذلك أمر بإطلاق سراحه وإرساله إلى الشام. فلما وصل عقبة إلى الشام أعاده يزيد بن معاوية إلى أفريقية والياً فقبض على أبي المهاجر وأوثقه.

ثانياً ـ الاتصالات السياسية:

في عهد معاوية: العلاقات السياسية بين الدولة العربية الإسلامية منذ بدايتها، وحتى نهاية الدولة الأموية، والدول المجاورة كانت علاقتها غير مباشرة، أي أن مثل هذه العلاقات بأشكالها المختلفة لم تكن تتم على مستوى القمة أي أنها لم تكن تتم عن طريق التقاء قادة الدول على طاولة المفاوضات بشكل مباشر. وبشكل آخر لم يحدث خلال هذه

المرحلة أي لقاء بين أي خليفة عربي منذ بداية الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، مع أي إمبراطور لبيزنطة بشكل مباشر، إنما كانت العلاقات السياسية غير مباشرة.

أي أن الرسل والرسائل المتبادلة بين الحكام كانت الوسيلة السياسية الرئيسية إلا أن العلاقات الأخرى كانت متوفرة، وبشكل مباشر فمن المعلوم أن كل شيء يخدم السياسة، ففن الحرب يخدم السياسة، والاقتصاد بفروعه المختلفة يخدم السياسة أي أن كل شيء كان وما زال في خدمة السياسة، نعود إلى العلاقات غير المباشرة فنلقي عليها نظرةً سريعة قبل العصر الأموي كدليل على مثل هذه العلاقة.

في بداية الدولة العربية الإسلامية كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - القائد الديني والروحي والسياسي للدولة، ومن خلال اطلاعنا على تاريخه نلاحظ أنه لم يجتمع مع ملوك وحكام الدول المجاورة بشكل مباشر، وقرر معهم العلاقات السياسية المتبادلة بين البلدين، إلا أنه عوض عن ذلك منذ البداية بكتابته الكتب إلى الملوك والحكام، وأثبتت كتب التاريخ مثل هذه الكتب أو ما شابهها وهي في متناول الجميع.

إذاً اعتمد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الكتب إلى حكام العالم آنذاك، من ذلك كتابه إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس ملك مصر، وهناك كتب كثيرة إلى حكام الأقاليم في الجزيرة العربية، وحاكم دمشق الحارث الغساني، إلا أني اعتمدت الكتب الأربعة لأنها موجهة إلى حكام غير عرب، لا تربطهم بالعرب أي صلة إلا صلة المصالح.

الكتاب الموجه إلى ملك الروم: بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - رسولاً هو دحية ابن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم سنة ست للهجرة، وحمله كتاباً[1] يتضمن دعوة المرسل إليه إلى الإسلام. توجه دحية الكلبي إلى حاكم دمشق[2] بأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومن هناك

---

[1] القلقشندي - أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي - صبح الأعشى في صناعة الانتهاء - طبع القاهرة نسخة مصورة عن الطبعة الأبلية - ج٦ - ص٣٧٦، الأصفهاني - الأغاني - ج٦ - ص٩٣، صحيح البخاري - ج١ - ص٥ - الجامع الصحيح لمسلم - ج٥ - ص١٦٥، السيرة الحلبية - ج٢ - ص٣٦٦ - الطبري - تاريخه - ج٢ - ص١٣٠، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص٨١.

[2] البعض يذكر أن دحية الكلبي كان قد توجه مباشرةً إلى ملك الروم دون المرور على الحارث الغساني.

يتوجه إلى ملك الروم. قدم دحية على أمير دمشق الحارث الغساني وأعلمه بالرسالة، فأرسل معه عدي بن حاتم، لكي يوصله إلى ملك الروم، فأوصل دحية الكتاب إلى قيصر الروم، فلما استلمه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأرسيين، ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1][2].

اختلف حول نسخة الكتاب فأبو عبيد في كتابه الأموال يذكر نص الكتاب على النحو التالي: «من محمد رسول الله إلى صاحب الروم: إني أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل في الإسلام، فأعط الجزية، فإن الله تعالى يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[3]. وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية». تضمن الكتاب الأسس التالية:

ـ الدعوة إلى الإسلام لأن في الإسلام الأمان والسلام، وفي عدم إسلامه يكون عليه الوزر ووزر أتباعه ورعاياه، وختم الكتاب بقوله تعالى، حيث يؤكد على وحدة الكلمة، وعبادة الواحد الأحد وحده لا شريك له، ونبذ الشرك بكل أشكاله وألوانه، ولم تذكر كتب التاريخ أي رد من القيصر.

إلى كسرى ملك الفرس: كما بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاباً مع عبد الله بن حذافة

---

(1) سورة آل عمران ـ الآية٦٤.

(2) الحلبي ـ علي بن برهان الدين ـ السيرة الحلبية ـ طبع القاهرة ـ ١٣٢٠هـ ـ ج٢ ـ ص٣٦٦، صحيح البخاري ـ ج١ ـ ص٥، الطبري ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص١٣٠، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٨١.

(3) سورة التوبة ـ الآية٢٩.

السهمي إلى كسرى أبرويز ملك الفرس أيضاً سنة ست للهجرة، هو ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافّةً لأنذر من كان حيّاً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»[1]. عندما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزق الكتاب فلما علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك قال: مزق ملكه.

إلى النجاشي: وبعث أيضاً - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ومعه كتاب في السنة السادسة للهجرة جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطّيبة الحصينة، فحملت بعيسى، حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى»[2].

رد النجاشي على كتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، فوربّ السّماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً، إنه لكما قلت، وقد عرفنا ما بعثت إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن

---

[1] القلقشندي - صبح الأعشى - ج٦ - ص٣٧٧ - الطبري - تاريخ الأمم والملوك - ج٢ - ص١٣٠ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - السيرة الحلبية - ج٢ - ص٣٦٨.

[2] أسد الغابة - ج١ - ص٣٦٩ - الطبري - ج٣ - ص٩٩ - ابن الأثير - الكامل - صبح الأعشى - ج٦ - ص٣٧٩.

آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله»[1].

إلى المقوقس: وبعث - صلى الله عليه وسلم - حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط سنة ست، وبعث معه كتاباً يدعوه إلى الإسلام فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط، و﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]»[3].

وجاء في صبح الأعشى: وذكر الواقدي أن كتابه إليه كان بخط أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، وأن فيه: «من محمد رسول الله إلى صاحب مصر، أما بعد: فإن الله أرسلني رسولاً، وأنزل عليّ قرآناً، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار، حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في ملّتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانيته، فإن فعلت سعدت، وإن أبيت شقيت، والسلام»[4].

فكتب المقوقس إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبثياب، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك»[5].

وجاء في صبح الأعشى أيضاً: وذكر الواقدي أن في كتابه إليه: «باسمك اللهم، من المقوقس إلى محمد، أما بعد: فقد بلغني كتابك وفهمته، وأنت تقول: إن الله أرسلك رسولاً وفضلك تفضيلاً، وأنزل عليك قرآناً مبيناً، فكشفنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله، وأصدق من تكلم بالصدق، ولولا أني ملكت ملكاً عظيماً، لكنت أوّل من آمن بك، لعلمي أنك خاتم

---

[1] الحلبي - السيرة الحلبية - ج٢ - ص٢٧٠ - الطبري - تاريخه - ج٣ - ص٨٩.

[2] سورة آل عمران - الآية ٦٤.

[3] المقريزي - الخطط - ج١ - ص٢٩ - السيوطي - حسن المحاضرة - ج١ - ص٤٣.

[4] القلقشندي - ج٦ - ص٣٣٨.

[5] الحلبي - السيرة الحلبية - ج٢ - ص٢٧٢ - المقريزي - الخطط - ج١ - ص٢٩.

النبيين، وإمام المرسلين، والسلام عليك مني إلى يوم الدين»[1].

مجموعة الكتب تتفق حول نقطة واحدة هي الدعوة إلى الدين الجديد والإيمان به وكانت الردود مختلفة من ملك إلى آخر، المهم أن الاتصال السياسي بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين ملوك العالم آنذاك كان بواسطة الرسل والكتب.

في العصر الراشدي: لم تحدث أية علاقة مباشرة بين الخلفاء الراشدين، وملوك الدول المجاورة إلا ما كان من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما وجه رسولاً إلى ملك الروم، وسبب إرساله أن عاصم بن رواحة كان قد دخل أرض الروم، وسمح له ملك الروم بذلك، فلما علم الخليفة بذلك كتب إلى ملك الروم الكتاب التالي: «إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فوالله لتخرجنّه أو لننبذن إلى النصارى، ثم لنخرجنهم إليك»[2]، عند ذلك أخرج ملك الروم عاصم بن رواحة، وكان معه كما يذكر الواقدي /٥٠٠/ رجل إلى الجزيرة.

وهناك كتاب آخر أرسله الخليفة عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم يطالبه فيه بإطلاق قائد عربي أسره الروم في إحدى الوقائع: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم، أطلقوا الأسير المسلم، عبد الله بن حذافة، حين وصول كتابي هذا إليكم، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم، وان لم تفعلوا فإنني أبعث إليكم رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد في سبيل الله، والسلام على من اتبع الهدى».

ولم يكن القيصر هرقل ليغضب من هذا الكتاب الشديد، إنما أطلق الأسير مصحوباً بهدية ثمينة إلى الخليفة، وهرقل هذا هو وارث عرش القياصرة الجبارين الذين دوخوا العالم فخلف من بعدهم خلف فقدوا المشاعر التي كان فيها سر عظمتهم[3]. علماً أن عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان خلال هذه المرحلة أكثر اتصالاً مع الدول المجاورة، وخاصةً في مجال الاحتكاك الحربي، وهذا لا يحتاج إلى دليل لأنه من خلال الفتوحات، التي تمت في عهده كان الاتصال السياسي موجوداً لأن

---

(1) القلقشندي - صبح الأعشى - ج٦ - ص٤٦٧.

(2) الطبري - تاريخ الطبري - ج٤ - ص١٩٨.

(3) غوستاف لوبون - حضارة العرب - ترجم عادل زعيتر - طبع مصر ١٩٦٩ - ص١٥٠.

كل شيء في الحياة يخدم السياسة، والاتصالات الحربية في النتيجة تخدم السياسة.

ومن أهم الاتصالات التي تمت بين العرب المسلمين، والبيزنطيين، ذلك الاتصال الذي تم بين خالد بن الوليد، وبين ماهان أكبر قادة الروم، وحدث هذا اللقاء قبل معركة اليرموك، وكان سببه كما يذكره المؤرخون[1]، ما يلي: أن الروم اجتمعوا باليرموك، وعددهم أربعمائة ألف يقودهم وزير ملك الروم ماهان، فلما علم أبو عبيدة بذلك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بالأحداث، فوجه الخليفة سويد بن الصامت الأنصاري في قوة قوامها ثلاثة آلاف، فأصبح جيش أبي عبيدة حسب رواية ابن أعثم ثلاثة وأربعين ألفاً.

علم ماهان قائد القوات البيزنطية بتطور الأحداث، فجمع قادته لمجلس حرب وشرح لهم الموقف، وفي النهاية تقرر أن يرسل إلى أبي عبيدة رسولاً يطلب منه إرسال أحد قادته لمفاوضته، وفعلاً قدم على العرب المسلمين رسول قائد القوات البيزنطية، فقابل أبا عبيدة وأعلمه بغرضه، فتمت الموافقة على إرسال خالد بن الوليد في اليوم التالي، خلال هذه المرحلة كان الرسول البيزنطي يراقب العرب المسلمين فعجب من سلوكهم ثم قابل أبا عبيدة وجرى بينهما الحوار التالي:

الرومي يسأل أبا عبيدة: متى دخلتم في هذا الدين، ومتى دعيتم إليه.

أبو عبيدة: منذ بضع وعشرين سنة.

الرومي: كلكم دخلتم في هذا الدين في يوم واحد.

أبو عبيدة: لا، في أوقات مختلفة، منا من دخله في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومنّا من دخله بعد ذلك.

الرومي: هل أخبركم نبيكم بأن نبياً يكون بعده.

أبو عبيدة: لا، أخبرنا أنه لن يكون نبي بعده.

الرومي: أكد أن المسيح بشّر بالنبي العربي أحمد، وسأل أبا عبيدة: ماذا تقولون في عيسى بن مريم.

أبو عبيدة: نقول فيه ما قاله الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

---

[1] ابن أعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح ـ المجلد الأول ـ ص١٨١ وما بعدها.

[2] سورة آل عمران ـ الآية ٥٩.

الرومي: يتشهد ويسلم، ويكتم إسلامه ثم يمضي إلى معسكر الروم.

وفي اليوم التالي توجه خالد بن الوليد للقاء ماهان بعد أن أمر بقبة حمراء اشتراها بثلاثمائة ألف درهم فضربت قريباً من معسكرهم، ثم دخل القبة ومعه ميسرة بن مسروق العبسي، في هذه المرحلة اتخذ ماهان مجموعة من الإجراءات، أهمها: أمر أن يصف لخالد الجند عن يمينه وشماله مقنعين في الحديد، وعليهم الدروع والمغافر والجواشن والبيض والسواعد لا يرى منهم إلا الأحداق، وقعد ماهان على كرسي من ذهب، على رأسه تاج من ذهب مرصع بالجواهر، وقد فرشت بين يديه البسط والنمارق، وعلى رأسه غلمان من أبناء الروم في أيديهم أعمدة الذهب والفضة.

أرسل إلى خالد فدعاه، فخرج خالد من قبته، وميسرة بن مسروق العبسي عن يساره، حتى إذا دنا من ماهان قام إليه فقرّبه وأدناه وأجلسه إلى جنبه، وجلس ميسرة بن مسروق إلى جانب خالد، فقال له: من هذا الذي أراه معك، قال خالد: هو بعض إخواني جئت به معي أستشيره في أمري.

فقال ماهان: يا خالد إني اخترتك من أصحابك لأنك من ذوي الأحساب فيما بلغني، وان لك عقلاً كاملاً، والعاقل ينتفع بكلامه ويوثق بعهده.

فقال خالد: إن نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد أخبرنا أن حسب الرجل دينه ومن لا دين له لا حسب له، وأما قولك إني أوتيت عقلاً كاملاً، فإن المنة والطول لله عز وجل علينا بذلك وهو المحمود عندنا، وقد أخبرنا نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه ما خلق الله عز وجل شيئاً هو أحب إليه من العقل، وبالعقل تنال طاعة الله عز وجل، وبه يدخل أهل الجنة، ومن لا عقل له لا وفاء له.

ماهان: يا خالد أنت بهذا عندي أعقل الناس، فكيف جئت بهذا الرجل تريد أن تستشيره في الأمر.

خالد: لا تعجب من ذلك، ففي عسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغنى عن رأيه ومشورته.

ماهان: ما كنا نظن أن ذلك يكون عندكم.

خالد: ليس كل ما تظنونه ونظنه صواباً.

ماهان: صدقت، وإني أول ما أكلمك به، إني أدعوك إلى خلتي ومصافاتي.

خالد: وكيف يتفق ذلك وبيني وبينك الحرب، وقد جمعتني وإياك بلدة ولابد من القتال عليها أمداً أو تصير إلى أحدنا.

ماهان: صدقت ولكن عسى الله أن يصلح ذات بيننا فلا يراق بيننا دم، ولا يقتل بيننا أحد.

خالد: إن شاء الله.

ماهان: أريد أن ألقي الحشمة بيني وبينك، فأكلمك كلام الأخ لأخيه.

خالد: قل ما تشاء.

ماهان: إن قبتك قد أعجبتني جداً فأنا أحب أن تهبها لي، وتسألني ما أحببت، فإنها أشرف شيء رأيته عندكم.

خالد: إني قد وهبتها لك، ولست أريد منك شيئاً.

ماهان: أرسل غلمانه إلى القبة فأخذوها، ثم أقبل على خالد فقال: إن شئت تكلمنا بما تريد، وإن شئت نكلمك بما نريد.

خالد: أما أنا فإني لا أسألك إلا وقد علمت ما أريد، لأنه ليس يخفى عليك ولا على صاحبك هرقل ما لقيت أجنادكم منّا بأجنادين، ومرج الصفر، ودمشق وفلسطين، وفحل، وحمص، وبعلبك وغير ذلك، وأما أنت فلست أريد ما تريد، فتكلم بما أحببت إن شئت ذلك.

قال ماهان: الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء، وملكنا أفضل الملوك، وأمتنا خير الأمم.

قال خالد: الحمد لله الذي نؤمن بنبينا ونبيكم، ونقرّ بكتابنا وكتابكم، وجعل الأمير الذي علينا كبعضنا، فلو زعم أنه ملك لعزلناه، ولسنا نرى له فضلاً علينا إلا أن يكون أتقى منا وأبر، والحمد لله الذي جعلنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونقرّ بالذنب ونستغفر الله ونعبد الله ولا نشرك به شيئاً.

قال ماهان: الحمد لله الذي أبلانا أحسن البلاء وأغنانا من الفقر، ونصرنا على الأمم، وأعزنا فلا نذل، ومنعنا من الضيم فلا تباح لنا حرم، ولسنا في ذلك بطرين ولا مرحين ولا على الناس باغين، وقد كان لنا منكم يا معشر العرب جيران صدق، وكنا نحسن جوارهم، ونعظم أقدارهم، ونتفضل عليهم، ونفي لهم بالعهد، فينزلون في بلادنا حيث شاؤوا آمنين ويرحلون آمنين، وكنا نظن أن جميع العرب ممن لا يجاوروننا يشكرون لنا ذلك لما كنا نأتي من الإحسان إلى إخوانهم.

وأنتم من العرب فلـم تشكروا فعلنا بإخوانكم واصطناعنا لهـم، لكنكـم فاجأتمونـا بـالخيل والجنود، فقاتلتمونا عن حصوننا وديارنا، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا، وقد طلب هذا منا قبلكـم من كان أكثر عدداً ومدداً، وأقوى منكم جيشاً وجنداً، فرددناهم منا على أعقابهم فلـم ينقلبـوا منـا إلا وهم بين قتيل وأسير وشريد وطريد، ولقد أرادوا منا هذا الذي تريدون أنتم منا، فلعله قد بلغكم ما نزل بهم منا.

وبعد فإنه لم تكن أمة من الأمم من أهل المشرق والمغرب أقل منكم شـأناً ولا أصغر أقـداراً، لأنكم رعاة الشاة والإبل وأهل الصخـر والحجـر والصـوف والوبـر، وأنتـم الآن في ذلـك تطمعـون أنفسكم أن نخلي لكم البلاد، فبئس ما ظننتم، ولقد كنّا نظن أنكم أتيتمونا إلى هذا البلد لجهـد نـزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فإذا أنتم قد استـوطنتم بلادنـا، وركبتـم مراكبنـا الـتي ليسـت كمراكبكم، ولبستم ثيابنا التي ليست كثيـابكم، وأصبتـم نسـاء ليسـت كنسـائكم السـود المهـازيل لكنهم بنات الأصفر البيض الخدود الكريمات الجدود التي وجوههن كأنهن صفائح الفضـة البيضـاء، ثم أنكم طعمتم طعاماً ليس كطعامكم وملأتم أيديكم من الذهب والفضة والمتـاع الفـاخر والديبـاج وغير ذلك.

وبعد فهذا كله لنا في أيديكم ونحن نسلمه لكـم، فخـذوه وانصرفـوا إلى بلادكـم، وإن أبيتـم ذلك وشرهت أنفسكم إلى غير ذلك فإنّا نزيدكم في بيـوت أموالنـا مـا نقـوي بـه الضعيـف منكـم. ونرى الغائب قد رجع إلى أهله بخير، نأمر لأميركم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار، ولأمـيركم أبي عبيدة بخمسة آلاف دينار، ولك بمثل ذلك، ونأمر لمائة رجل من رؤسـائكم لكـل رجـل منهـم بألف دينار، ولسائر من معكم من الجنود بمائة دينار، ولرجالاتكم لكل رجل منهم بخمسـين دينـاراً، على أن نأخذ عليكم العهود والمواثيق والأيمان المغلظة، وأنكم تنصرفون عنا ولا ترجعـون إلى بلادنـا أبداً، فهذا ما عندي وقد عرضت عليك ما عندي، فهات ما عنـدك الآن، وقـل مـا بـدا لـك وإيـاك الاشتطاط.

قال خالد: الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشـهد أن محمـداً عبـده ورسوله، وبعد فإني فهمت كلامك و لم يخف عليّ شيء منه فأما ما ذكرت قومك من الغنى والعـز ومنع الحريم والظهور على الأعداء والتمكن في البلاد فنحن به عارفون. وأما ما ذكرت من إنعامكم

على جيرانكم من العرب فقد عرفناه منكم، وإنما كان ذلك أمراً تصلحون بـه دنيـاكم، وإحسـانكم إليهم إنما كان زيادةً في ملككم لأن عامتهم قد دخلوا في دينكم فهم يقاتلون معكم، وهذا جبلة بـن الأيهم الغساني هو رجل من العرب غير أنه مقيم معكم في جميع بني عمه المتنصـرة فهـو أشـد علينـا منكم، وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والشاة، فليس فينا أحد يكره ذلك، وليس لمن لم يرع عندنا فضل على من رعى.

وأما ما ذكرتنا به من الصخر والحجر والصوف والوبر فحالنا وا لله كما ذكرت، ولقـد كنـا أسوأ حالاً مما ذكرت وأقل وأذل في عيون الناس، وذلك أن ا لله عزّ وجل أنزلنا أرضاً ليس بها أنهار جارية ولا زرع ولا خير، وإنما هي مهامه وقفار، وكنّا كما ذكرت أصحاب حجـر وصخـر وشـاة وبعير، وعيش نكد وفقر شديد، نقسم بالأزلام ونسجد للأصنام، نقطع أرحامنا ونسيء إلى إخواننا، ونقتل أولادنا خشية إملاق، ونعبد من دون ا لله أوثاناً نتخذها بأيدينا من الحجارة التي نتخيرها على أعيننا وهي لا تضرنا ولا تنفعنا ولا تنصرنا ولا تسمع ولا تبصر، ونحن عليها عاكفون ولها مطيعون، فبينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مشركاً بربه قاطعاً لرحمـه صـار إلى النـار، ومن بقي بقي على سخط من الجبار إذا بعث ا لله عز وجل رسولاً مـن أنفسـنا وصميمنـا وأشـرافنا وكرمائنا وأخايرنا، فدعانا إلى ا لله عز ذكره وحده لا شريك له، وأمرنا أن نخلع الأنداد التي نعبدهـا من دونه، وأن ليس لربنا صاحبة ولا ولد ولا نشرك معه أحداً، ولا نعبد من دونـه نـاراً ولا حجـراً، ولا شمساً ولا قمراً.

وأمرنا أن نقاتل من زعم أنه ثاني اثنين، أو ثالث ثلاثة حتى يقولـوا: لا إلـه إلا ا لله وحـده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فإن قلتم ذلك فقد حرمت دماؤكم وأموالكم إلا بحقها، وأنتم إخواننا في ديننا وشركاؤنا في حظنا، فإن أنتم أبيتم فأدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

فإن أبيتم فقاتلناكم على بصيرة ويقين أنه من قتل منا كان حياً عند ا لله شهيداً مرزوقاً، ومـن قتل منكم كان كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً. فاختر الآن يا ماهان ما أحببت، واعلم أنـه قـد جاءك قوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة، فاخرجوا بنا على بركة ا لله حتى نحاكمكم إلى ا لله فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

فقال ماهان: يا خالـد، أما ذكـرت أنّا ندخل في دينكم، فهذا ما لا يكون أبداً، فلا تطمع

نفسك في ذلك، فما أبعدكم أن تروا ولد الأصفر وقد تركوا دينهم ودين آبائهم ودخلوا في غيره، وأما ما ذكرت أنّا نؤدي الجزية فإنه سيموت من ترى من هذا الخلق قبل أن يؤدوا الجزية، وكيف يؤدونها وهم يأخذونها من الناس على الصغر والقمأة، وأما قولك: اخرجوا حتى نتحاكم إلى الله، فلعمري ما جاءك هذا الخلق إلا ليحاكموك إلى الله.

وأما قولك: إن الأرض لله يورثها من يشاء، فقد صدقت يا خالد، إنما كانت هذه الأرض لأمة كانت من قبلنا قاتلناهم عليها حتى أخذناها منهم واحتوينا عليها، وكذلك تصير هذه الأرض إلى غيرنا، فابرزوا على بركة الله فإنا خارجون إليكم إذا عزمتم.

فوثب خالد بن الوليد من بين يدي ماهان فاستوى على فرسه، وانطلق إلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعه ميسرة بن مسروق، فقصّ على أبي عبيدة ما كان من كلامه وكلام ماهان، ثم قال للمسلمين: استعدوا للقتال قتال أعداء الله فقد قرب الأمر، وليكن معولكم على الله وحده لا شريك له فيه، فاعتصموا وتوكلوا عليه.

فيما ورد يتضح كيف أن الصراع المسلح يكون سبباً إلى الاحتكاك والاتصال السياسي المباشر وهذا طبيعي لأن الحرب كما ذكرنا تخدم السياسة، وهذا كتاب آخر لخالد بن الوليد عندما غلب على أحد جانبي السواد بعث به إلى ملوك فارس، يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد: فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[1].

وكتب خالد قبل خروجه إلى الأبلة إلى هرمز صاحب ذلك الثغر: «أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[2].

وبعث خالد إلى أهل المدائن كتاباً فيه: «من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس: سلام على

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص١٨.

[2] المرجع نفسه - ج٤ - ص٥.

من اتبع الهدى، أما بعد: فالحمد لله الذي قضى خدمتكم وسلب ملككم، ووهن كيدكم، وأنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له مالنا، وعليه ما علينا، أما بعد: فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا مني الذمة، وأدوا إليّ الجزية، وإلاّ فوا لله الذي لا إله غيره، لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا»[1].

في مجمل الكتب يتضح البرنامج السياسي الذي اعتمده القادة العرب وقد استند هذا البرنامج على خيارين في أي منهما السلام والأمان فأولهما الإسلام وهو غاية السياسة العربية، الجزية وهي الهدف الثاني، وفيه حقن للدماء، وما عدا ذلك فالحرب، والحرب وما تبعها وعلاقة الحرب بالسياسة وردت واضحة في القسم الأول من هذا الكتاب وليس من داعٍ لإعادة ذلك.

السياسة الخارجية في عهد معاوية: عندما وصل معاوية إلى السلطة كان قد أصلح كل الأمور، وأخضع المعارضة لنفوذه، واعتمد أساليب جديدة في الحكم، وخاصةً في تعامله مع الولاة واختيارهم، و لم يبق في الساحة الداخلية من خطر سوى وجود الخوارج من جهة والضغوط البيزنطية من جهة أخرى.

أما الخوارج فلم يكونوا بالخطر الكبير وأرى أن خطرهم رغم انتشارهم كان يتجلى في أعمال النهب والسلب والقتل أي في زرع الرعب والخوف، أي أنهم كانوا أشبه بالعصابات لا يقر لها قرار في أكثر الأحيان، فكان عملهم مدمراً في بعض الأحيان للاقتصاد، وكثرت الشكاوي منهم، لذلك كانت توجه إليهم بين الحين والآخر قوة تعمل على تأديبهم من جهة، وإبعادهم من جهة أخرى، ثم إن الخوارج كانوا يتواجدون في البيئة التي تساعد على انتشارهم فيها، فمثلاً العراق كانت بيئة ملائمة لتواجدهم، فكان أكبر تواجد لهم في البداية هناك ثم انتشروا وشاع انتشارهم.

ثم إن الخوارج لم يكونوا أصحاب نظرية سياسية أبداً، وحتى مبادئهم الدينية التي حاولوا طرحها كانت مجالاً للشكوك والنقد، لذلك لم يشكل الخوارج يوماً ما قوة موحدة شملتهم، وكانت خطراً جسيماً، وإنما العكس كنا نراهم مقسمين مشتتين يكره بعضهم بعضاً، ويحارب بعضهم بعضاً وتشتتهم الفكري أدى إلى شرذمتهم، وشرذمتهم قللت من خطرهم على السلطة المركزية، حيث

---

[1] الواقدي ـ محمد بن عمر الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص٥٥ ـ كتاب الخراج ـ ص١٧٣.

أصبح خطرهم خطر العصابات.

أما الخطر الآخر، وهو الأهم من كل الأخطار، ألا وهو الخطر الخارجي الذي كانت تشـكله بيزنطة آنذاك براً وبحراً، ففي البحر تمكن معاوية من بناء أسطول بحري ومن إقامة دور للسفن وجمع لها كل ما تحتاجه من السكان العرب المحليين المتواجدين على سواحل المتوسط سواءً في بلاد الشام أم في الساحل الأفريقي، أي أن معاوية عندما تسلم السلطة كان قد بنى قوةً بحرية كـان لهـا دور فعـال في البحر. يؤكد ذلك ما قامت به قبل ذلك من معارك وانتصارات، من ذلك:

١ـ الهجوم المتواصل على جزيرة قبرص في الفترة من (٢٨هـ ــ ٣٤هـ) ــ (٦٤٨ ــ ٦٥٤م)، حيث تمكنت البحرية العربية من احتلال قبرص وفرض الصلح عليها، وقـد قـاد معركـة فتـح قـبرص معاوية نفسه عندما كان أميراً، حيث تم الصلح مع ملكها على شروط أتينا على ذكرها، فكان هـذا الانتصار ضربة موجهة للبحرية البيزنطية.

٢ـ معركة ذات الصواري التي حدثـت سنة (٣٥هـ ــ ٦٥٥م)، والـتي قادهـا أيضـاً معاويـة وتمكن من خرابها وبقيت على وضعها حتى تـولى الخلافـة، فبعـث إليهـا فعمرهـا وبنـى مسـجدها، وشحنها بالرجال وأمرهم بالزراعة. إذاً استطاعت البحرية العربية إثبات وجودها في البحر بجدارة.

وتمكنت البحرية العربية من تأسيس قاعدة بحرية في جزيرة أرواد، وبذلك سيطر العـرب علـى قـبرص ورودس وجزيـرة كـوس، وجزيـرة خيـوس اليونانيـة، إضافـة إلى أرواد[1]. أمـا في الـبر فقـد استؤنفت الهجمات بعنف على بيزنطة عبر طريق درب الدروب إلى آسية الصغـرى، وتمكـن معاويـة من مهاجمة القسطنطينية ومحاصرتها براً وبحراً، واستمر الحصار من سنة (٥٤هـ ــ ٦٧٣م) إلى سـنة (٥٩هـ ـ ٦٧٨م)، لكن النتيجة كـانت خسـارة العـرب أمـام أسـوار القسـطنطينية، وغـادر العـرب المنطقة سنة (٥٩هـ ـ ٦٧٨م)، حيث طلب العرب الصلح مع ملك بيزنطة قسطنطين الرابع[2].

ذكر المؤرخون (كاليعقوبي والبلاذري) أن معاهدة الصلح بين معاوية وملك الروم كانت قـد حدثت في أوائل عهده أي سنة (٤٢هـ ـ ٦٦٢م)، ويرددها الكثير من المؤرخين، بينما يذكـر بعـض المؤرخـين أن معاويـة كان قد عقد معاهدة صلح مع الروم في أواخر عهده، علماً أن ملك الروم

---

[1] الباز العريني ـ الدولة البيزنطية ـ طبع القاهرة ١٩٦٥ ـ ص١٤٩.

[2] سالم عبد العزيز فرح ـ العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية ـ ص٣٨.

قسطنطين كان قد استمر إلى ما بعد معاوية حيث مات سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م).

يميل الاعتقاد إلى أن المعاهدة كانت قد حدثت في أواخر عهد معاوية أكثر من حدوثها في أول عهده، فلو قلنا إن المعاهدة حدثت في أول عهده لكانت توقفت الصوائف والشواتي والهجمات المتكررة على الحدود البيزنطية الجنوبية، وتأكيداً على ذلك يذكر الطبري في أحداث سنة (٤٢هـ - ٦٦٣م) أن العرب المسلمين كانوا قد غزوا اللان وغزوا أيضاً الروم فهزموهم هزيمةً منكرة، وقال في أحداث سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م)، أن بشر بن أبي أرطأة كان قد غزا الروم وشتا بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية.

وفي أحداث سنة (٤٣هـ - ٦٦٣م) يذكر أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد كان قد دخل بلاد الروم، وأن بشر بن أبي أرطأة كان قد غزا في البحر، وأيضاً في أحداث سنة (٤٦هـ - ٦٦٦م) وغيرها من السنين حتى كانت سنة (٥٣هـ - ٦٧٢م)، حيث تمكن العرب المسلمون من احتلال رودس، وهاجم معاوية القسطنطينية كما ذكرنا سنة (٥٤هـ - ٦٧٣م)، وغير ذلك من الأحداث التي تؤكد أنه لم يكن مع الروم معاهدة صلح، ولو وجدت معاهدة كما أتصور لما استمرت الغزوات على الروم في كل سنة ولما هوجمت القسطنطينية.

ثم إن معاوية عندما اعتلى السلطة كان في وضع مستقر، (خاصةً سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م) في السنة التي يذكر اليعقوبي أن معاوية عقد معاهدةً مع الروم)، وأنه كان في حالة تسمح له بالحرب براً وبحراً وهذا ما تذكره كتب التاريخ كالطبري وابن الأثير وغيره من المؤرخين، ثم إن معاوية في بداية عهده كان يحتاج إلى إثبات مجده وذلك عن طريق الحروب، وإشغال الناس بها بدلاً من الخلاف والنقد والصراع وما شابه ذلك وهو بغنىً عن ذلك. أخيراً لا أعتقد أن معاوية في بداية عهده كان قد عقد معاهدة صلح مع الروم.

وهناك مؤرخون يؤكدون أن معاوية عقد معاهدة صلح مع ملك الروم في أواخر عهده كما سيرد، وهذا ممكن لأن الأحداث آنذاك فرضت عليه إجراء تلك المعاهدة، وأهم هذه الأحداث خسارته أمام القسطنطينية من جهة، ومبايعته لابنه بالخلافة من جهة أخرى، وسأذكر هذه المعاهدة كما أوردها المؤرخون، وسأذكر ما حدث من علاقات بين معاوية وملك الروم لإيضاح ذلك.

عندما دفع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثالث عام (٣٥هـ - ٦٥٥م)، المردة للقيام بالإغارة على المناطق المجاورة، أخذوا يهددون السيادة العربية على الحدود الشامية، فاضطر معاوية لعقد الصلح مع إمبراطور بيزنطة سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م)، على أن يدفع مائة ألف دينار مقابل أن يقدم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثالث الدعم المباشر وغير المباشر عن المردة، وأن يأخذ منهم الرهائن، فقام معاوية بوضعهم في بعلبك.

يقول اليعقوبي: «ورجع معاوية إلى الشام سنة (٤١هـ - ٦٦١م)، وبلغه أن طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم، فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبيره وأحكامه، فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار، وكان معاوية أول من صالح الروم، وكان صلحه إياهم في أول سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م)»[1]. وقال البلاذري: «إن الروم صالحت معاوية على أن يؤدي إليهم مالاً، وارتهن معاوية منهم رهائن، فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت»[2].

وقال ابن العبري: في سنة ست وأربعين للهجرة أرسل سابور المتغلب على أرمانيا إلى معاوية رسولاً اسمه سرجي يطلب منه النجدة على الروم، وأرسل قسطنطين الملك أيضاً رسولاً إلى معاوية (لاندراؤس) الخصي وهو من أخص خواصه، فأذن معاوية لسرجي أن يدخل أولاً فدخل ثم دخل اندراؤس فلما رآه سرجي نهض له لأنه كان عظيماً، فوبخ معاوية لسرجي وقال: إذا كان العبد هالكاً فكيف مولاه، فقال سرجي: خدعت من العادة، ثم سأل معاوية لاندراؤس: لماذا جئت، فقال: الملك سيرني لئلا تصغوا إلى كلام هذا المتمرد، ولا يكون الملك والمملوك عندك بالسواء، فقال معاوية: كلكم أعداء لنا، فأيكم زاد لنا من المال راعيناه، فلما سمع ذلك اندراؤس خرج.

ومن الغد حضر وسرجي قد سبقه بالدخول، فلما دخل اندراؤس لم ينهض له، فشتمه اندراؤس فقال له: يا يؤوس استخففت بي، فقذفه سرجي قذف المخانيث، قال اندراؤس: سوف ترى، ثم أعاد كلامه الأول على معاوية فقال له: إن أعطيتمونا كلُ خراج بلادكم نبقي لكم اسم المملكة وإلا أزحناكم عنها، قال اندراؤس: كأنك تزعم أن العرب هم الجسم والروم الخيال، نستعين برب السماء، ثم استأذن للرحيل وسار مجتازاً على ملطية، وتقدم إلى مستحفظي الثغور أن يكمنوا لسرجي في

---

[1] اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٢١٧.

[2] البلاذري - فتوح البلدان - ص٢١٦.

الطريق ويلزموه ويحملوه إلى ملطية وينزعوا خصيتيه ويعلقوهما في رقبته ثم يسمروه، ففعلوا به كذلك»[1].

وقيل في المرحلة التي كان فيها الصراع على أشده بين الإمام علي ومعاوية، وخاصةً في معركة صفين. في هذا الوقت الحرج بلغ معاوية أن ملك الروم يعد العدة لقصد بلاد الشام مستغلاً الظروف الراهنة، فأغضبه ذلك وكتب إليه يقول: «تالله لئن تممت على ما بلغني لأصالحن صاحبي، ولأكونن مقدمته إليك، ولأجعلن القسطنطينية الحَمراء حمماً سوداء، ولأنزعنك من الملك نزع الأصطفلينة، ولأردنك أريساً من الأرارسة ترعى الدوابل». وفي رواية: «كما كنت ترعى الخنانيص»[2].

ويذكر ابن عبد ربه: أن قيصر الروم كتب إلى معاوية: أخبرني عمن لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء، ونصف شيء، ولا شيء، وابعث إلي في هذه القارورة ببزر كل شيء، فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس.

فقال: أما من لا قبلة له فالكعبة، وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم وأما من سار به قبره فيونس، وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، فكبش إبراهيم، وناقة ثمود، وحية موسى، وأما شيء فالرجل له عقل يعمل بعقله، وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول، وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره، وملأ القارورة ماءً وقال: هذا بزر كل شيء، فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر، فلما وصل إليه الكتاب والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة»[3].

عندما أحس معاوية بدنو أجله وأن صالح الدولة كان يحتم عليه سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية، وكان يدرك أن بيعته لابنه يزيد لابد وأنها سوف تلقى مقاومة عنيفة، وأن المحافظة على الخلافة في بيته تستدعي وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرفه لمواجهة المصاعب التي قد تعترضه

(1) ابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول ـ ص١٠٩.

(2) ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٧ ـ ص٣٠٠.

(3) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٢ ـ ص٧١.

من أجل ذلك دخل معاوية في مفاوضات سياسية مع الدولة البيزنطية، تمهيداً لسحب قواته المرابطة أمام العاصمة البيزنطية[1]، وإعادتها إلى قواعدها.

كانت الدولة الأموية في حالة لا تسمح لها باستمرار الحرب، وقد أنهك اقتصادها وخسرت الكثير من المواقع في الشرق والغرب، وتخلت عن سيطرتها البحرية نسبياً، كل ذلك لصالح الدولة العربية، أما أن الدولة البيزنطية كانت ترغب في إنهاء حالة الحرب مع الدولة الأموية ولو مؤقتاً من أجل ذلك أرسلت بيزنطة رسولاً يدعى يوحنا، وهو من أشهر الدبلوماسيين البيزنطيين وأكثرهم ذكاءً وفطنةً إلى دمشق، وبعد مفاوضات مع رجال الدولة الأموية بدمشق، نجحت المفاوضات في عقد صلح بين الطرفين مدته ثلاثون عاماً. بعد ذلك أخذت القوات العربية تنسحب من أمام القسطنطينية براً وبحراً.

[1] إبراهيم أحمد العدوي - الأمويين والبيزنطيين - البحر المتوسط بحيرة إسلامية - طبع مصر ١٩٦٣ - ص١٧٥.

الفصل السادس

السفيانيون بعد معاوية

أولاً ـ يزيد بن معاوية.

ثانياً ـ معاوية بن يزيد.

ثالثاً ـ السياسة العامة.

الفصل السادس

السفيانيون بعد معاوية

أولاً - يزيد بن معاوية: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي القرشي. أمّه ميسون بنت بحدل الكلّبية، كني أبا خالد، كان يعد في الطبقة الثالثة. ولد سنة (٢٥هـ - ٦٤٥م)، وقيل: سنة (٢٦هـ - ٦٤٦م) هو وعبد الملك بن مروان، وقيل: جَمَعَ عثمان لمعاوية الشام في سنة سبع وعشرين، وفيها ولد يزيد بن معاوية في بيت رأس (سليمان بن حرب الأشعَث). وصِف بأنه كان رجلاً كثير اللحم عظيم الجسد، كثير الشّعر، جميلاً، طويلاً، ضخم الهامَة، محدّد الأصابع غليظها بجدّراً. وقال ابن عساكر: كان يزيد بن معاوية في حداثتِهِ صاحِب شراب يأخذ مأخذ الأحداث.

ومن أخباره قبل أن يتولى الخلافة أنه في سنة (٤٩ هـ - ٦٦٩م) كان مغزَى يزيد بن معاويةالقسطنطينية[1]، وفي سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) غزَا أرض الروم، ومعه أبو أيوب الأنصاري، وغزا أيضاً في عهد أبيه الطوانَة[2]، فأصابه الجدري، فرجع يزيد، وفي سنة (٥١ هـ - ٦٧١م) حجّ يزيد بن معاوية بالناس، ثم حجّ سنة (٥٢ هـ - ٦٧٢م) ثم حجّ سنة (٥٣ هـ ٦٧٢م). بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه، فكان أوّل من جَعَلَ وليّ العهد، بويع له في النِصف الأول من جمادى الآخرة سنة (٦٠هـ - مارس ٦٨٠م).

---

(1) القسطنطينية: دار ملك الروم واسمها اسطمبول، عمرها أحد ملوك الروم اسمه قسطنطين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ص٣٤٧.

(2) الطوانة: بلد بالثغورأو بثغور المصيصة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥.

يذكر ابن عساكر[1] أنه في عهد يزيد بن معاوية تم حفر نهر سمي باسمه، وقيل إن هذا النهر كان نهراً نبطياً يسقي ضيعتين لقوم دون غيرهم من أهل الغوطة يقال لهم بنو فوقا، فماتوا في خلافة معاوية، و لم يبق لهم وارث، فأخذ معاوية ضياعهم وأموالهم، فلما مات معاوية و ولي ابنه يزيد السلطة نظر إلى أرض واسعة ليس لها ماء، وكان مهندساً فنظر إلى النهر فإذا هو صغير، فأمر بحفره، فمنعه أهل الغوطة ودافعوه فلطف بهم وضمن لهم خراج سنتهم من ماله، فأجابوه إلى ذلك، فاحتفر نهراً في سعة ستة أشبار، وعرضه وعمقه ستة أشبار، فكان الماء يدخل مدينة دمشق في القني فتغرق في البرك والحمامات والدور والشوارع والمساجد.

يزيد بن معاوية والمعارضة: إذاً بويع ليزيد بعد وفاة أبيه كما يذكر الطبري، وغيره من المؤرخين في النصف الأول من رجب سنة (٦٠هـ - ابريل ٦٨٠م)، فأقر عبيد الله بن زياد على البصرة، والنعمان بن بشير على الكوفة. وبعد أن ولي الخلافة جعل همه في بيعة النفر الذين عارضوا بيعته، فكتب إلى الوليد بن عتبة، وكان أميراً للمدينة فقال له: «خذ حسينا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رقة حتى يبايعوا والسلام»[2].

وقال ابن قتيبة[3] لما مات معاوية كان يزيد غائباً، فاستخلف معاوية الضحاك بن قيس حتى قدم يزيد، فلما قدم كتب إلى خالد بن الحكم، وهو عامل المدينة يأمره أن يبايع له أهل المدينة، وليكن أول من يبايع الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، وبهذا يختلف مع الطبري فيمن كان والياً على المدينة كما ورد، واختلف المؤرخون بوجود يزيد عند موت أبيه، لكن أكثرهم أكد على أنه كان غائباً. إذاً أمر يزيد واليه على المدينة على أن يأخذ البيعة على النفر المذكورين وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، عند أكثر المؤرخين فقط.

عندما علم الثلاثة المذكورون بموت معاوية، وثب كل منهم في جانب من المدينة، وأظهر الخلافة والمنابذة، ودعا إلى نفسه، عند ذلك أرسل عبد الله بن عمرو بن عثمان إليهم يدعوهم

[1] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٢ - ص٣٦٩.
[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦ هـ - ج٥ - ص٢٢٨.
[3] ابن قتيبة - الامامة والسياسة - ج١- ص١٧٤ ومابعدها.

فقال: أجيبا الأمير، فقال الحسين بن علي لابن الزبير: أرى أن طاغيتهم قد هلك، وما أراه بعث إلينا إلا ليأخذ بالبيعة قبل أن يغشوا في الناس الخبر أن الحسين قرر التوجه إلى الوليد بن عتبة وعنده مروان ابن الحكم، فأعلمه الوليد بما كتب إليه يزيد بن معاوية ونعى إليه معاوية، ثم دعاه إلى البيعة فاتفقا على أن تكون البيعة أمام العامة.

توجه ابن الزبير إلى مكة، ثم خرج الحسين مع أهل بيته إلا أخاه محمد بن الحنيفة إلى مكة، أما عبد الله بن عمر فقال: إذا بايع الناس بايعت فتركوه، وقيل: كان ابن عمر عند موت معاوية وولاية ابنه يزيد في مكة، ولم يكن بالمدينة، وقيل: إن ابن عمر، وابن العباس، بايعا الوليد بن عتبة، أثناء ذلك عزل الوليد بن عتبة عن المدينة، ووليها عمرو بن سعيد الأشدق.

كتب يزيد بن معاوية إلى عامله بالحجاز أن يبعث جيشاً إلى ابن الزبير، فوجه إليه أخاه عمرو ابن الزبير، ففشل الأخير في مهمته، وتفرق عنه أصحابه، أما الحسين بن علي فقد وجه إليه أهل الكوفة سنة ستين للهجرة الرسل، وهو بمكة يدعونه إلى القدوم عليهم، فوجه إليهم ابن عمه مسلم ابن عقيل بن أبي طالب، وسنتحدث عن حركته في فصل مستقل، في هذه المرحلة، ولي عبيد الله ابن زياد الكوفة مع البصرة.

بعد قتل الحسين بن علي علا أمر ابن الزبير بالحجاز، فما كان من يزيد بن معاوية إلا أن أمّر الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد الأشدق، وثار ابن الزبير بالحجاز، وثار أيضاً نجدة بن عامر في اليمامة[1]، ثم إن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة، فكتب إلى يزيد بن معاوية في أمره، وأنه رجل أخرق، لا يعمل الصواب، والأفضل منه رجل سهل الخلق لين الكتف وفي ذلك صلاحنا.

يزيد ووفد المدينة: عزل يزيد بن معاوية الوليد بن عتبة، و ولى عوضه عثمان بن محمد ابن أبي سفيان، وكان فتىً حدثاً لم يجرب الأمور، فبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة هم: عبدالله ابن حنظلة، عبد الله بن حفص، المنذر بن الزبير، وغيرهم من أهل المدينة، فقابلوا يزيد، فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأجازهم، ثم عادوا فقدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير حيث توجه إلى عبيد الله بن زياد بالبصرة.

---

[1] نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم ـ ص١٤٦.

بعد عودة الوفد إلى المدينة أظهروا شتم يزيد بن معاوية، وقالوا: «إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، يعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، يسامر الخُرّاب والفتيان، وإنا نُشهدكم أنا قد خلعناه»[1]. وقال بعضهم: إن الناس أتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه و ولوه عليهم، فبلغ يزيد بن معاوية أمرهم.

أما المنذر بن الزبير فقدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة، فأكرمه وأحسن ضيافته، فلما علم يزيد بن معاوية بما حدث في الحجاز أرسل إلى عبيد الله بن زياد يأمره أن يوثق المنذر بن الزبير ويحبسه عنده حتى يأتيه أمره، لكن العلاقة المميزة بينهما، جعلت عبيد الله بن زياد يعلم المنذر بن الزبير بالأمر، فغادر المنذر بن الزبير العراق، وتوجه إلى المدينة، فأخذ يحرض الناس على يزيد، فكان يقول عنه: «والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة».

ثم أخرج أهل المدينة سنة (٦٣هـ ـــ ٦٨٢م) عاملها، عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وأظهروا خلع يزيد، وحاصروا من فيها من بني أمية فنزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصروهم وشددوا عليهم الحصار، فدعا بنو أمية حبيب بن كره، وكتبوا كتاباً وأرسلوه إلى يزيد بن معاوية، فأخذ الكتاب، فلما علم مضمونه قال: ألم يستطع بنو أمية وعددهم ألف أن يقاتلوا ولو ساعة، فاستدعى مسلم بن عقبة المري، وجهزه باثني عشر ألف رجل، و وجهه لقتال أهل الحجاز. أما حبيب بن كره فرجع، وأخبر بني أمية بما فعله يزيد بن معاوية، ثم إن بني أمية قرروا التوجه إلى الشام.

قتل الحسين بن علي: استلم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان السلطة وقد وطد له أبوه الأمور كما ورد إلا أن هذا الاستقرار كان كنارٍ تحت رماد، فأثار موضوع الثلاثة الذين لم يبايعوه وهم الحسين ابن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، فقتل الحسين بن علي كما ذكرنا، فأثار بقتله صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وشريحة كبيرة من الدولة، فنقموا على يزيد وحاربوه، وشكلوا معارضةً قوية استمرت حتى كانت نهاية الدولة الأموية.

بعض المصادر حاولت أن تبرىء يزيد من قتل الحسين إلا أن ذلك لا يتفق مع الواقع فعبيد الله بن زياد لم يكن ليقتل الحسين لو لم يرَ رغبةً من رأس الدولة، ويزيد حاول كما تذكر الروايات

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٤٨.

تبرئة نفسه من فعل عبيد الله بن زياد وتحميل الأخير المسؤولية، علماً أن قتل شخصية هامة كالحسين لا يجرؤ عبيد الله عليها كما أرى إلا بموافقة قائده لا بل إن يزيد كان راغباً ومصمماً على قتله، ودليل ذلك أن رأس الحسين أرسل له، ومثّل به كما تذكر بعض المصادر.

كان يزيد يدرك أن في قتله للحسين تفرق كلمة المسلمين ورغم ذلك أقدم على قتله بإصداره أوامره إلى ولاته بذلك، علماً أن أكثر المصادر التاريخية تذكر في وصية معاوية لابنه يزيد ألاّ يقتل الحسين بن علي إذا تمكن منه هذا إذا افترضنا أن هناك مثل ذلك، والحقيقة قد تكون في الكراهية الشديدة التي كان يكنها الأمويون لأبناء أبي طالب منذ بداية الدولة. هذا من جهة، ثم أن وصول الأمويين إلى السلطة كان يستدعي حسب اعتقادهم قتل كل من يعترض هذه السلطة مهما كانت النتيجة.

معارضة ابن الزبير: بعد قتل الحسين بن علي ثار ابن الزبير بالحجاز، وثار نجدة بن عامر باليمامة.

عندما علم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالأحداث أرسل إلى عمرو بن سعيد يستدعيه ليوليه جيشاً يحارب به أهل الحجاز فرفض، فبعث يزيد إلى عبيد الله بن زياد للسبب نفسه فاعتذر أيضاً بقوله: «والله لا جمعتهما للفاسق، قتل ابن رسول الله وغزو الكعبة»[1]، فأرسل إلى مسلم بن عقبة المري وهو شيخ كبير مريض فوافقه وسار الجيش إلى هدفه وقد أمره يزيد أن يستخلف الحصين بن نمير السكوني فيما إذا حدث له حدث، وأوصاه بقوله له: «ادع القوم ثلاثاً، فإن أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس»[2].

قدم الجيش إلى المدينة فحاصرها حتى تمكن منها فأباحها ثلاثة أيام كما أمر بذلك، وبايع أهل المدينة على أنهم خول ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم من شاء، ثم استخلف على المدينة روح بن زنباع، وقيل استخلف عمرو بن مخرمة التميمي.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص ١١٢ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٤٨٣.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦٣هـ - ج٥ - ص٤٨٤.

بعد ذلك توجه مسلم إلى مكة، وفي طريقه إليها مرض واشتد مرضه فأوصى الحصين بن نمير بقوله له: أسرع السير، وعجل المناجزة، وعم الاخبار، ولا تمكن قرشياً من أذنك، ثم مات مسلم ابن عقبة، فسار الحصين إلى مكة فوصلها لأربع بقين من محرم سنة (٦٤هـ - اغسطس ٦٨٣م)، وقد أجمع أهلها على مبايعة ابن الزبير. في هذا الوقت قدم عليه نجدة بن عامر بمن معه. حاصر الحصين بن نمير مكة مدة ثلاثة أشهر رموا خلالها البيت الحرام (الكعبة) بالمجانيق[1] وحرقوه بالنار، واستمر الحصار إلى أن مات يزيد بن معاوية.

الملاحظ أن عهد يزيد بن معاوية كان كله اضطراب وثورات داخلية من ذلك ثورة الحسين ابن علي، وإظهار أهل المدينة خلع يزيد بن معاوية[2]، وحصارهم من كان فيها من بني أمية، وكثر فيها عزل الولاة، وفي الوقت نفسه علا أمر ابن الزبير بمكة وبويع له بالخلافة.

موت يزيد بن معاوية: هلك يزيد بن معاوية، كما يذكر الطبري في قرية من قرى حمص يقال لها حوارين[3] في ١٤ ربيع الأول (٦٤هـ - أكتوبر ٦٨٣م) وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وقد اختلف في عمره، وفي مدة حكمه.

فقيل كانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل ثلاث سنين وثمانية أشهر، وقيل ولي سنتين وثمانية أشهر، وله من الأولاد الذكور معاوية بن يزيد، وخالد بن يزيد، وعبد الله بن يزيد، وعبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر، وعتبة وحرب، وعبد الرحمن، والربيع، ومحمد.

ثانياً - معاوية بن يزيد: بويع له بالخلافة سنة (٦٤هـ - ٦٨٣م) وكان يزيد بن معاوية قد أوصى بالبيعة لابنه معاوية فاستخلف، وبويع له بدمشق، ثم هلك بعد أربعين يوماً من ولايته. توفي وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وثمانية عشر يوماً حسب رواية الطبري[4]. أما المسعودي[5] فقال: ملك معاوية بن يزيد بعد أبيه، فكانت أيامه أربعين يوماً إلى أن مات، وقيل شهرين وغير ذلك،

---

(1) خليفة بن خياط - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق أكرم ضياء الدين - طبع بيروت ١٩٧٧ - ص٢٥٥، ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص١٠.

(2) الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٤٨٢.

(3) حوارين: من قرى حلب - وحوارين حصن من ناحية حمص - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣١٥.

(4) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٠٣.

(5) المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر - ج٣ - ص٨٥.

وقيل: لما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا لـه: اعهد إلى من رأيت من أهل بيتك، فقال:

«وا لله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها؟ وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها اللهم إني بريء منها متخل عنها، اللهم إني لا أجد نفراً كأهل الشورى، فأجعلها إليهم ينصبون لها من يرونه أهلاً لها، فقالت له أمه: ليت أني خرقة حيضة، و لم أسمع منك هذا الكلام، فقال لها: «ليتني يا أماه خرقة حيض، و لم أتقلد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها؟ كلا إني لبريء منها».

وقال المسعودي: لقد اختلف في سبب وفاته فمنهم من قال: إنه سقي شربةً مسمومة، وقيل: مات حتف أنفه، وقيل: مات مطعوناً، ومات وهو ابن إثنتين وعشرين سنة، ثم بايع أهل العراق ابن الزبير. وقال ابن الأثير[1]: بعد موت يزيد بويع لابنه معاوية، فلم يكن إلا ثلاثة أشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ومات، وعمره إحدى وعشرون سنة، وثمانية عشر يوماً.

يذكر ابن عساكر[2] أن بنو أمية عندما مات معاوية بن يزيد أرادوا أن يبايعوا عثمان بن عنبسة ابن أبي سفيان فأبى ذلك، وعثمان هذا هو الذي صلى على معاوية بن يزيد، وهو الذي كتب إلى عبد ا لله بن الزبير عندما بعث إليه يزيد بن معاوية بالجامعة.

أرضك أرضك إن تأتينا تنم نومةً ليس فيها حلم

وقال ابن عساكر: أراد أهل الشام الوليد بن عنبسة بن أبي سفيان على الخلافة، فطعن فمات، وأراد بعضهم عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان وأمّه زينب بنت الزبير بن العوام على أن يبايعوه بالخلافة فأبى عليهم. معنى هذا أن السفيانيين حاولوا جهدهم إبقاء الخلافة فيهم دون سواهم من الأسر الأموية الأخرى، إلا أن جهودهم وجهود أهل الشام في هذا الموضوع لم توفّق، وجَرَتْ الرياح بحيث يرغب ويشتهي مروان بن الحكم، فكانت الخلافة من نصيبه.

ثالثاً ـ السياسة العامة ليزيد في هذه المرحلة: من المعروف أن معاوية كان

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٣٠.

[2] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ جزء ٤٠ ـ ص١٤ـ١٥.

متزوجاً من ميسون بنت بحدل الكلبية[1]، وقد طلقها وهي حامل بيزيد، والسبب في طلاقها حسب الروايات التاريخية كان أن سمعها تتشوق إلى حياة البادية وتفضلها على حياة القصور، فهذا الطلاق جعل يزيد يمضي فترة من طفولته وبعض شبابه في البادية، فهذه الفترة أضفت على شخصيته ميزات كان بأشد الحاجة إليها، وهي القدرة المبكرة على الخطابة حيث وصفه بعضهم بأنه كان من الأدباء وقيل من الفصحاء، وقيل كان من الخطباء، وذكر عنه أنه كان يرغب في التشبه بالخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب.

أهم ما كان يعترضه الآخرون على يزيد جملة من الأمور منها، اعتراضهم عليه في ولاية العهد أو الكيفية التي تسلم بها السلطة وقد تحدث الرواة الكثير عن هذا الموضوع وطرحت آراء كثيرة، المهم لم يكن أي معترض يعترض على يزيد، كون يزيد بن معاوية كشخص ولا على كونه كما أرى ابن معاوية، فمعاوية كان قائداً سياسياً برع في قيادته للدولة وذلل الصعاب قبل أن يصل إلى السلطة ومهد السبل لابنه قدر إمكانه، قبل أن يعمل لمبايعته.

إذاً الاعتراض كان من حيث المضمون على السلوك فكل المؤرخين وصفوا يزيد بأنه كان يشرب الخمر، وهذا مثبت، وفي هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام يعتبر شارب الخمر غير مؤهل لاستلام السلطات السياسية والإدارية والقضائية للدولة، وقد ورد في القرآن الكريم عدم الاقتراب من الخمر وشربه لأنه لا يجوز للسكران أن يقيم الصلاة، ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾، والخمر رجس من عمل الشيطان كما بينه الله في كتابه العزيز، حيث أمر العباد باجتنابه، وبعضهم يعتبر الاجتناب أقوى من التحريم، حتى أن القلم رفع عن السكران حتى يصحو، إذاً كان الاعتراض الأول على هذه الصفة التي وصفه بها المؤرخون.

إضافة إلى شرب الخمر أخذوا عليه أموراً أخرى مثل كونه كان يضرب بالطنابير وتعزف عنده القيان، وكان يلعب بالكلاب، ويسمر عند اللصوص، وكل ذلك يغير الرأي العام ضده في مثل حالته وتأهيله للخلافة، إذاً كانت الأمور الواردة الذكر أول أسباب معارضة بيعته أولاً، وخلافته ثانياً. والاعتراض على سلوك يزيد اعتراض على ولايته العهد وخلافته، كونه من الناحية الشرعية حسب رأي المعارضة لا يصح توليته وهو بهذه المواصفات، والمعارضة كما هو معلوم

---

[1] الزركلي - خير الدين الزركلي - الاعلام - طبع بيروت - ج - ص .

كانت ذات أهمية من الناحية الدينية والسياسية والشخصية والقبلية وحتى العصبية، فالمعارضة كانت أولاً من كبار أبناء الصحابة من أمثال: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وبعض المؤرخين يضيفون عبد الله بن عباس، وكل واحد منهم غني عن التعريف، ففي عهد معاوية حاول جاهداً أخذ بيعتهم، فبعضهم قال: أخذها منهم بحد السيف[1] ، حيث يذكر المؤرخون ذلك، وبعضهم يذكر أنهم لم يبايعوا بأي شكل من الأشكال.

ولم يكن الاعتراض على يزيد عند هؤلاء فقط، إنما تعداهم إلى البيت الأموي، فالمطلع على رأي زياد بن أبيه يلاحظ أنه لم يكن موافقاً على بيعته، وقصته عند الطبري وغيره واضحة حول ذلك، وكان معاوية قد كتب إلى زياد بن أبيه يستشيره فقال لزياد عن يزيد بأنه: «صاحب رسلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد»[2]، وكان من المعارضين أيضاً سعيد بن عثمان بن عفان، يؤكد ذلك قوله لمعاوية: «يا أمير المؤمنين، علام تبايع ليزيد وتتركني، فوا لله لتعلم أن أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وأنا خير منه، إنما نلت ما أنت فيه بأبي»[3] .

ولنستمع إلى رأي مروان بن الحكم في هذا الموضوع، قال ابن قتيبة: إن معاوية كتب ببيعته ابنه يزيد إلى الآفاق بعد أن بايعه أهل الشام، وكان ممن كتب إليه عامله على المدينة مروان بن الحكم، «فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى ذلك، وأبته قريش، فكتب لمعاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك، فارأ رأيك، فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله، ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص، فلما بلغ مروان كتاب معاوية، أقبل مغاضباً في أهل بيته، وناس كثير من قومه، حتى نزل بأخواله بني كنانة، فشكاه إليهم، وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية وفي عزله واستخلافه يزيد ابنه عن غير مشورة مبادرة له، فقالوا نحن نبلك في يدك، وسيفك في قرابك فمن رميته بنا أصبناه، ومن ضربته بنا قطعناه، الرأي رأيك، ونحن طوع يمينك. ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير، ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية، وقد أذن للناس فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه

---

(1) ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ ج١ ـ ص١٦٣، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٥١٠ وما بعدها.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٠٢، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٥٠٥.

(3) ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ ج١ ـ ص١٦٤.

من قومه وأهل بيته، منعه من الدخول، فوثبوا إليه، فضربوا وجهه، حتى خلى عن الباب، ثم دخل مروان، ودخلوا معه، حتى إذا كان من معاوية بحيث تناله يده.

قال بعد التسليم عليه بالخلافة: إن الله عظيم خطره، لا يقدر قادر قدره، خلق من خلقه عباداً، جعلهم لدعائم دينه أوتاداً، هم رقباؤه على البلاد، وخلفاؤه على العباد، أسفر بهم الظلم، وألف بهم الدين، وشدد بهم اليقين ومنح بهم الظفر، ووضع بهم من استكبر، فكان من قبلك خلفاؤنا يعرفون ذلك في سالف زماننا، وكنا نكون لهم على الطاعة إخواناً، وعلى من خالف عنها أعواناً، يشد بنا العضد، ويقام بنا الأود، ونستشار في القضية، ونستأمر في أمر الرعية، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة، تفتح بأزمة الضلال، وتجلس بأهواء الرجال، تؤكل جذورها، وتمق أحلابها، فما لنا لا نستأمر في رضاعها ونحن فطامها وأولات فطامها؟ وايم الله لولا عهود مؤكدة، ومواثيق معقدة، لأقمت أود وليها فأقم الأمر يا بن أبي سفيان وأهدئ من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراً، وأن لهم على مناوأتك وزراً.

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً، ثم كظم غيظه بحلمه، وأخذ بيد مروان، ثم قال: إن الله جعل لكل شيء أصلاً، وجعل لكل خير أهلاً ثم جعلك في الكرم مني محتداً، والعزيز مني والداً، اخترت من قروم قادة، ثم استللت سيد سادة، فأنت ابن ينابيع الكرم، فمرحباً بك وأهلاً من ابن عم ذكرت خلفاً مفقودين، شهداء صديقين، كانوا كما نعتّ، وكنت لهم كما ذكرت، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة، وبك والله يابن العم نرجو استقامة أودها، وذلولة صعوبتها، وسفور ظلمتها، حتى يتطأطأ جسيمها، ويركب بك عظيمها، فأنت نظير أمير المؤمنين بعده، وفي كلّ شدة عضده، وإليك عهد عهده، فقد وليتك قومك، وأعظمنا في الخراج سهمك، وأنا مجيز وفدك، ومحسن رفدك، وعلى أمير المؤمنين غناك، والنزول عند رضاك. فكان أول ما رزق ألف دينار في كلّ هلال، وفرض له في أهل بيته مئة مئة»[1].

نعود إلى معارضة الحسين بن علي لبيعة يزيد، من المعروف أن معاوية أثناء وصيته لابنه يزيد

---

[1] ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ ج١ ـ ص١٥١ـ١٥٢.

كان قد قال له: «وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً»[1].

أرى أن معارضة الحسين بن علي كانت الأقوى من أي معارضة لقيها الأمويون في تاريخهم من ناحيتين، السياسية والدينية، فمن الناحية السياسية أي أن الحسين بن علي كان من أسرة عريقة كان لها الشرف والسيادة في قريش قبل الإسلام، لا ينازعها هذه السيادة أحد، وقد حاول الأمويون منازعتهم ففشلوا قبل الإسلام، وعندما جاء الدينُ الجديد وقاده النبي ـ صلى الله عليه وسلم، وقف الأمويون من الناحية السياسية ضده وحاربوه، إلا أنهم فشلوا، والنبي كما هو معلوم من بني هاشم، والحسين أيضاً ابن الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي، بشكل عام لا يقاس الأمويون من الناحية السياسية والأخلاقية بالهاشميين وخاصة أبناء عبد المطلب، والمطلع على كتاب (مثالب العرب) لهشام ابن الكلبي، وكتب السيرة النبوية، يلاحظ ذلك واضحاً، إلا أن الأمويين جمعوا القوة والمال والعصبية القبلية، وأساليب سياسية جديدة لم تكن معهودة، حيث تفوقوا بها على غيرهم، إلا أن سياسة بني عبد المطلب لم تكن سياسة دنيوية لذلك فشلوا في الوصول إلى السلطة على عكس الأمويين الذين نجحوا في السياسة الدنيوية فكانت لهم السلطة وفازوا بها.

أما من الناحية الدينية فلا يقاس السفيانيون بأبناء عبد المطلب، فالسفيانيون وكل الأمويين حاربوا الدين الجديد، وحاولوا القضاء عليه، في الوقت نفسه أقام بالدين الجديد أبناء عبد المطلب ودافعوا عنه اعتباراً من ساعة بعثه إلى نهاية المطاف وهذا لا يحتاج إلى إثبات لمن بحث ودقق في كتب التاريخ، هل يقاس أبو سفيان بعبد المطلب في الجاهلية، لقد فاقه عبد المطلب، هل يقاس معاوية بالإمام علي من الناحية الدينية وهكذا أبناؤهم.

إذن يمكن القول إن السياسة عند أبناء عبد المطلب ارتبطت بالدين و لم تخرج عن قواعده عندهم فكانوا يرفضون كل سياسة لا تتماشى مع الدين أي أنهم جسدوا المثالية المطلقة في الحكم، وهذه المثالية لا يمكن لها أن تشق طريقها إلى الحكم إلا في حالات نادرة لا أرى أحداً جسدها في التاريخ بعد أفلاطون سوى الإسكندر الكبير، وحاول الإمام علي تطبيقها على أرض الواقع فاصطدم بعقبات كثيرة كان أهمها عجز المجتمع عن التحلي بها.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٢٣.

بينما كان الأمويون على العكس، حيث كانت سياستهم دنيوية ارتبطت بالواقع الاجتماعي المادي، فنالت القبول من الشعب وانتصرت، وقد عبّر الإمام علي عن ذلك عندما قال: «أعصى ويطاع معاوية» وكان يقول: «لا رأي لمن لا يطاع» وكثيراً ما كان يذكر مثل ذلك كقوله لأهل العراق: «ما أقلكم تحت الرايات وأكثركم في الباحات» وكان معاوية يقول: «كنت أطاع في الشام ويُعصى الإمام علي في العراق».

إذاً كان الخلاف بين أبناء عبد المطلب والأمويين خلافاً عقائدياً منذ البداية، وكل منهم تبنى نظرية في أسلوب الحكم مناقضة لنظرية الآخر، فكان الصراع، علماً أن نظرية الأمويين نالت قبول الأكثرية الساحقة، مقابل نظرية بني عبد المطلب التي لم تلق القبول إلا من الأقلية، لذلك كانوا يلقون القتل الواحد بعد الآخر ابتداءً من الإمام علي إلى ابنه الحسن إلى الحسين إلى بقية أبنائه كزيد ابن علي وابنه يحيى وغيرهم في العصر العباسي.

المهم أن الحسين بن علي قاد معارضةً ضد السلطة الأموية، لأنها تتعارض مع مبادئه ومعتقداته وكل سلطة لها الحق في مقاومة المعارضة بالطريقة التي تريدها، ويكون القتال آخر الوسائل السياسية بين الطرفين لكن يجب ألا يكون القتل والتمثيل والإبادة هو شعار المنتصر، ثم أن معارضة الحسين بن علي كان بالإمكان احتواؤها في مراحلها الأخيرة حيث بقي الحسين وقلة من أصحابه وحيدين على أرض المعركة، ولو أراد يزيد بن معاوية وهو القائد العام للقوات آنذاك، لحال دون قتله، وكان بإمكانه ذلك، إلا أن يزيد كان مصمماً القضاء على المعارضة وسحقها مهما كانت النتائج.

وكان مقتل الحسين وأهل بيته بهذه الطريقة ليس نهايةً لنظريتهم وأفكارهم ومعتقداتهم، بل على العكس تبناها قادة آخرون، واتسعت هذه المعارضة، وعملت بسرية عجيبة، فكانت حركة التوابين، ثم حركة المختار بن عبيد وقتل عبيد الله بن زياد وقتل قتلة الحسين وسيطرة المعارضة على العراق.

ننتقل إلى معارضة ابن الزبير، حيث يذكر المؤرخون أن يزيد بن معاوية بعد أن تسلم السلطة لم يكن همه إلا معارضة أبناء الحجاز، فبعد أن قتل الحسين ازدادت النقمة على السلطة الأموية سواء في العراق أم في الحجاز، وتبناها في الحجاز عبد الله بن الزبير، وفي العراق ظهر التوابون، كما

ظهر المختار، وكما تحركت الخوارج، فثار نجدة بن عامر باليمامة، وثار أهل المدينة وأخرجوا عامل يزيد عنها وأظهروا خلعه، المهم أن ابن الزبير أعجز يزيد بكل الوسائل السلمية، فلم يبق أمامه إلا إرسال قوات لحربه، فوجه مسلم بن عقبة، وهو شيخ كبير، ومعه الحصين بن نمير، وما يهم في الأمر هو وصية يزيد لقائد جيشه، وهي:

- أنه حدد الخلف للقائد الذي يقود الحملة.
- دعاء أهل المدينة ثلاثة أيام.
- إذا رفضوا الدعاء أمره بحربهم.
- إذا انتصر عليهم أمره أن يبيح المدينة ثلاثاً.
- كل ما في المدينة من مال أو حيوان أو سلاح أو طعام فهو للجند.
- أوصاه بعلي بن الحسين بأن يكف عنه ويدني مجلسه.

توجه إلى هدفه، وقد خول سلطات مطلقة فكل ما يفعله أصولاً يتحمل مسؤوليته السياسية من أمره بذلك في هذه المرحلة، وطرد أهل المدينة كما يذكر المؤرخون بني أمية وعددهم ألف دليل على أن أهل المدينة كلهم كانوا معارضين لسياسة يزيد، ولم يذكر المؤرخون أي تفكير للأمويين رغم عددهم بالقتال مهما كان إنما كانوا في داخلهم مستسلمين لما يجري، إلا أن قلوبهم كانت مملوءة غيظاً وحنقاً مما يجري في المدينة. يؤكد ذلك رأي عبد الملك بن مروان لقائد جيشه وقد استشاره، فكان رأيه:

«أرى أن تسير بمن معك، فتنكَّبَ على هذا الطريق إلى المدينة، حتى إذا انتهيتَ إلى أدنى نَخل بها نزلتَ، فاستظلَّ الناس في ظلّه، وأكلوا من صَقْره، حتى إذا كان الليلُ أذكيتَ الحرس الليل كلّه عقباً بين أهل العسكر، حتى إذا أصبحتَ صليّتَ بالناس الغداةَ، ثم مضيتَ بهم وتركت المدينة ذاتَ اليسار، ثم أدَرْت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحَرّة مُشّرقاً، ثم تستقبل القومَ، فإذا استقبلتَهم وقد أشرقَتْ عليهم وطلعت الشمسُ طلعت بين أكتاف أصحابك، فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حَرُّها، ويصيبهم أذاها، ويرون ما دمتم مُشَرقين من ائتلاق بيضكم وحِرابكم، وأسنّة رماحِكم وسيوفِكم ودروعِكم وسَواعدكم ما لا ترونه أنتم لشي من سلاحهم ما داموا مغرِّبين، ثم قاتِلْهم واستَعِنْ با لله عليهم، فإن ا لله ناصِرُك، إذ خالفوا الإمام، وخرجوا من الجماعة»[1].

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٤٨٦.

أي أن الأمويين رغم الظروف المناسبة التي كانت تمر بهم لم يستسلموا، بل على العكس كانوا يستغلون الظروف أكبر استغلال كلما سنحت لهم الفرصة، المهم أن مسلم بن عقبة أمهل أهل المدينة ثلاثة أيام، فرفض أهلها أي اقتراح، فبدأت وقعة الحرة في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة (٦٣هـ - اغسطس ٦٨٣م)، وكانت نتيجة المعركة:

١- إباحة المدينة ثلاثة أيام وانتهاك حرمتها وإذلال أهلها بصورة شنيعة.

٢- قتل الناس[1] وأخذ أموالهم وفتك أعراضهم، حيث يذكر ابن قتيبة[2] أنه قتل من قريش والأنصار سبعمائة، ومن سائر الناس عشرة آلاف، وقتل من أصحاب رسول الله ثمانون رجلاً حيث لم يبق بدوي.

٣- بايع الناس فيها على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء.

إن انتفاضة المدينة صورة من صور الصراع المرير حول الخلافة، بل قد تكون ردة فعل لانتقال مركز الحكم منها، وقد تكون غايتها تقويض نظام الحكم الأموي الذي انحرف وحاد عن شرع وسيرة الأوائل وبدل العدل بالطغيان، لذلك عبر أهل المدينة عن ذلك برفضهم خلافة يزيد وخلعه فكان سبب ذلك توجيه الجيوش إليها ووقعة الحرّة[3].

بعد وقعة الحرّة، توجه مسلم بن عقبة إلى مكة فمات في الطريق فخلفه الحصين بن نمير، فتوجه الأخير إلى مكة فحاصرها[4]، ونصب عليها المجانيق فقذفوا الكعبة بحجارته وحرقوها بالنار وذلك في يوم السبت لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ - ٦٨٣م ومع ذلك استمر القتال حيث تضافرت كل القوى ضد جيش الأمويين. في هذه المرحلة مات يزيد بن معاوية وعلم كلا الطرفين المتنازعين بذلك فتوقف القتال ثم التقى ابن الزبير مع الحصين، ثم انسحب جيش الشام إلى دمشق دون أي فائدة إلا الخراب والدمار والتذمر والحقد على الأمويين.

---

(١) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٢٩٨.

(٢) ابن قتيبة - الامامة والسياسة - ج١ - ص١٩٨.

(٣) سهيل زكار - إبراهيم بيضون - تاريخ العرب والإسلام - طبع بيروت - دار الفكر (بلا تاريخ) - ص١٥٧.

(٤) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - عصر الخلفاء الأمويين - طبع مصر ١٩٨٢ - ج٢ - ص٨٨.

إذاً كانت نهاية يزيد بن معاوية سنة (٦٤هـ ـــ ٦٨٣م)، السبب الرئيسي الحاسم لانسحاب الحصين بن نمير من الحجاز إلى الشام، بعد أن يئس من إقناع ابن الزبير بأن يتوجه معه إلى الشام.

سياسة معاوية الثاني: تسلم السلطة بعد يزيد ابنه معاوية الثاني في ربيع الأول سنة (٦٤هـ ـ اكتوبر ٦٨٣م)، وعمره لا يتجاوز عشرين عاماً[1]، وكان أبوه قد بايعه بعد استخلافه، علماً أن ابن الزبير لم يبايعه. وصفه الديار بكري بأنه كان خيراً من أبيه فيه دين وعقل، خلع نفسه و لم يعهد بعده للخلافة، وعندما خلع نفسه صعد المنبر فقال:

«لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلاً ثم خطب خطبة بليغة مشتملة على الثناء على الله والصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر نزاع جده معاوية هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، ثم ذكر أباه يزيد وخلافته وتقلد أمرهم لهوى كان أبوه فيه وسوء فعله وإسرافه على نفسه وكونه غير خليق للخلافة على أمة محمد، وإقدامه على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه واستحلاله حرمة أولاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط عليّ أكثر من الراضي وما كنت لأتحمل آثامكم، ولا يراني الله جلت قدرته متقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به فولوه فقد خلعت بيعتي من أعناقكم، والسلام فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر أسنة عمرية: يا أبا ليلى فقال: اغد عني فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم أفأتجرع مرارتها، ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكي، فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة و لم أسمع بخبرك فقال: وددت والله ذلك ثم قال: ويلي إن لم يرحمني ربي، ثم إن بني أمية قالوا لمعلمه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته إياه وصددته عن الخلافة وزينت له حب علي وأولاده وحملته على ما وسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال: فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات»[2].

---

(1) اختلف في ذلك ديار بكري: قال عمره عشرين سنة وابن الأثير قال: بكر عمره واحد وعشرين سنة.

(2) الديار بكري ـ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بلا تاريخ ـ ج٢ ـ ص٣٠١.

في هذا الخطاب يوضح معاوية بن يزيد الموصوف بالخير والعقل صراع جده معاوية مع الإمام علي فيؤكد:

- أن الإمام علياً كان أولى بالخلافة من جده معاوية ومن غيره.

- أن يزيد بن معاوية تقلد السلطة بهوى من أبيه.

- وصف أباه بأن فعله سيء، وأنه مسرف على نفسه، وأنه غير خليق للخلافة.

- إقدام يزيد ما أقدم من جراءة على الله، وبغيه واستحلاله حرمة أولاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم، ثم يعرج معاوية الثاني على نفسه كونه الخليفة الثالث فيوضح:

- أن الساخط عليه أكثر من الراضي.

- رفضه تحمل الآثام ورفضه الخلافة، حيث خلع نفسه.

- أمره الناس تأمير من يرونه مناسباً.

طبعاً هذا البرنامج وهذا السلوك يرفضه الأمويون جملةً وتفصيلاً، حيث تجري المحاورة التالية بينه وبين أهله على الشكل التالي:

مروان بن الحكم - أسنة عمرية.

معاوية الثاني - اغد عني فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم، افأتجرع مرارتها.

أم معاوية الثاني - ليتك كنت حيضة ولم أسمع منك بخبرك.

معاوية الثاني - وددت والله ذلك ثم قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثم إن بني أمية تحولوا عنه إلى من كان يعلمه ويؤدبه واسمه عمر المقصوص فقال له بنو أمية: أنت علمته هذا ولقنته إياه وصددته عن الخلافة، وزينت له حب الإمام علي وأولاده، وحملته على ما وسمنا به من ظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال ما قال:

عمر المقصوص (مؤدب معاوية): والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب الإمام علي، فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه فدفنوه حياً.

هكذا كان تعامل الأمويين مع كل من يشك به بأنه لم يكن مؤمناً بعقيدتهم السياسية وهذا تعاملهم مع خصومهم فالأمويون كما ذكرنا منعوا كتب السيرة والمغازي في بلاد الشام ومنعوا أي

شيء حتى الحديث عن الإسلام في بداياته، ومنعوا التحدث عن سيرة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب حتى تبقى بلاد الشام بعيدةً عن الحقيقة التاريخية حتى قيل إن شعب بلاد الشام كان لا يعرف إلا الأمويين وأنهم كانوا الأقرب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون غيرهم وأنهم ورثته الحقيقيون.

لقد بدأت حركة الأمويين بإبعاد الناس عن كتب السيرة والمغازي وما ارتبط بها من عهد عثمان بن عفان، حيث قال في مجلس الستة: «لأنْ تعينوا حجراً خير من أن تولوا مرة أخرى رجلاً مثل عمر»[1]، علماً أن الخليفة عمر في عهده كان قد اتخذ سياسة الحزم والتشديد في رعاية أمور الدولة وغايته «صرف قادتها عن الانغماس في الترف والانشغال بمباهج الدنيا التي تكاثرت وتنوعت باتساع حركة الفتوح، ولهذا شدد الرقابة على القادة من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم، وحرم عليهم التغيب عن المدينة بغير إذن، ولأجل غير محدود»[2]، فلما كان عهد الخليفة عثمان خالف سيرة من سبقه في مسيرته، واعتمد جملةً من الأمور.

من ذلك رده الحكم وأهله الذي نفاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، وقرب ولده ولما مات ضرب على قبره فسطاطاً، ولعثمان دور كبير في تقريب أهله اعتباراً من عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ورد ذلك، فعبد الله بن سعد بن أبي سرح، هو ابن عم الخليفة عثمان في الرضاعة، كان قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام، فلما فتحت مكة قدم على عثمان فتشفع له عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفض النبي شفاعته في البداية، ثم قبلها، فلما تولى عثمان الخلافة ولاه مصر بعد عزل ابن العاص عنها.

كما قرب مروان بن الحكم وكان في ريعان شبابه حتى أصبح بمنزلة وزيره ومستشاره وأطلق يده في إدارة شؤون الدولة، كما قرب أخاه الحارث بن الحكم، فكان مشرفاً إدرايا على أسواق المدينة، واعتمد أيضاً الولاة من الأمويين في مصر، عبد الله بن سعد، معاوية في الشام، سعيد ابن العاص في العراق وغيرهم، كل ذلك كان من العوامل الرئيسة لثورة الناس في كل مكان وقتل الخليفة.

---

[1] محمد حلمي محمد أحمد ـ الخلافة الأموية في العصر الأموي ـ طبع مصر (مكتبة الشباب) بلا تاريخ ـ ص٧٥.

[2] محمد حلمي محمد أحمد ـ الخلافة الأموية في العصر الأموي ـ ص٧٦.

وكان معاوية يعمل بشكل خفي وهو في الشام على وجود خلافات عامة تشمل الدولة، ولم يعمل على إزالة الأسباب التي أدت إلى الثورة والتي كان ضحيتها الخليفة، على العكس كان يريد لمثل هذه الأحداث النتيجة نفسها التي انتهت إليها، علماً أن الخليفة عثمان كان قد نجح في تحقيق رغبة معاوية في الوصول إلى السلطة رغب أم لم يرغب، فبعد أن قتل الخليفة لم يبادر معاوية للانتقام من قتلته كما كان يدعي، بل على العكس، ترك الأمر لغيره، فخرج الزبير وطلحة والسيدة عائشة ولم يتدخل معاوية، فهزم طلحة وأصحابه، وقتلوا، فكان ذلك ربحاً لمعاوية وتخطيطاً ناجحاً منه.

ولكي تكتمل دائرة السياسة التي رسمها معاوية، أقدم على مصالحة ملك بيزنطة قسطانز وعقد معه معاهدة سلام وبذلك ضمن كل الظروف الملائمة للوقوف في وجه خصمه، وعندما بدأ القتال في صفين ظهر ضعفه وعجزه عن تحقيق رغبته في الانتصار العسكري ففكر وكان يعلم طبيعة تكوين مجتمع العراق وما هو عليه من الانقسام القبلي، لذلك عندما عرض عليه عمرو بن العاص رفع المصاحف، ولم تكن هذه أول مرة ترفع فيها فقد سبق ذلك في معركة الجمل ووافق معاوية وتم التحكيم، فكان لصالح معاوية ثم أخذ يكسب كل من تسول له نفسه من الدهاة الرغبة في الدنيا والاستفادة منها.

في النهاية قتل الإمام علي، وتسلم معاوية السلطة، وكانت بداية رحلته الشاقة، وأخذ يصفي جسدياً كل من يعارضه، فكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أحد ضحاياه في هذا الميدان وكان الحسن بن علي أيضاً أكبر ضحاياه، لأن في قتل الحسن إلغاء أي قيود لخلافته، إلا أنه بقتل الحسن تحرر من أي قيود تجعله يفكر في نقل السلطة إلى ابنه واستمرارها في البيت الأموي وهذا ما كان، فقد بايع ابنه يزيد كما ورد واعتمد يزيد سياسة أبيه في التصفية وخرج عن المألوف في الشريعة الإسلامية عندما أمر قائده مسلم بن عقبة، بإباحة المدينة وقتل الصحابة من المهاجرين والأنصار وختم بعضهم، ورميه بيت الله الحرام بحجارة المجانيق، ثم كانت نهايته وخلافة ابنه معاوية الثاني الذي رفض منهج آبائه وأجداده في الحكم، ورفض الخلافة من أصلها ولم يعهد، ثم مات والدولة في حالة اضطراب وفوضى كما سنرى.

أخيراً بدأ يزيد بن معاوية عهده بأمور كان في غنىً عنها حيث جعل همه كما يروي المؤرخون النفر الذين لم يبايعوه، فعمل على قتل الحسين بن علي كرّم الله وجهه، فسبب له نفوراً

عامّاً في الدولة، وغضباً جماهيرياً كبيراً كانت له آثار واضحة كما أرى في قرب نهاية الدولة الأموية، فكان من نتائج ذلك انقسام أبناء الدولة إلى مؤيد ومعارض، وبذلك وجد تيّاران لنقل إنهما سياسيان استمرا ولو في الظل، حتى كانت نهاية الدولة الأموية.

ثم إن أوامره لمسلمة بن عقبة المري عندما وجهه إلى حرب ابن الزبير، وقد خرج بعد مقتل الحسين بن علي وقوي أمره في الجزيرة العربية، وكانت أوامره استباحة المدينة ثلاثة أيام فكان في غنىً عن إباحتها لأن ذلك جرّ عليه النقمة من أهل المدينة وبها بعض الصحابة. أضف على ذلك أن قائده الحصين بن نمير السكوني ضرب الكعبة بالمجانيق وصدعها. و لم يرع حرمتها، فكان ذلك مسبةً عليه، وسار على السياسة نفسها التي كانت سائدة قبله من العصبيّة والتعصّب لبعض القبائل العربية ضد بعضها بعضا كما حدث في تقريبه للقبائل اليمانية وعلى رأسها الكلبية على غيرها من القبائل الأخرى، فسبب ذلك حزازات وصراعات مريرة بينها، كما كان لاضطهاد الموالي والفوارق الطبقية وإذلال الفقراء وعلى رأسهم الموالي ولإبعادهم دور كبير في تمزق الأمة.

واعتمد مبدأ القسوة والعنف في تعامله مع خصومه. علماً أن مثل هذا التعامل وارد في ميدان السياسة إلا أن التطبيق كان غير وارد وغير منطقي، فأمور كان في امتناعه عنها كسب له وتأييد من ذلك إباحة المدينة فلو أنه تركها دون اللجوء إلى هذا العمل لكان أفضل وأرحم وأنجح لسياسته. أيضاً كان في غنىً عن ضرب الكعبة بالمنجنيق وكان يستطيع. وقتل الحسين كان بإمكانه الامتناع عن قتله، فلو اعتمد التعقل في مثل هذه الأمور كلها لكان كسباً سياسياً ناجحاً عاد عليه كسباً جماهيرياً واسعاً، ولكان ألّف بين الناس بدلاً من الانشقاق والتفسخ الذي حَدَثَ ونخر بنية المجتمع.

ثم إن يزيد لم يعمل على قلب كفّة الميزان لصالحه فهو معروف عنه كما يذكر المؤرخون بأنه كان كما يقول البلاذري: «أول من أظهر شرب الشراب والاستهتار بالغناء والصيد واتخاذ القيان والغلمان، والتفكه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والدّيكة، ثم جرى على يده قتل الحسين، وقتلى أهل الحره، ورمي البيت وإحراقه»[1].

ثم إن يزيد بن معاوية أخطأ خطأً كبيراً في ولاية العهد لابنه معاوية الثاني لأنه نفسه ورث

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٢ ـ ص٢٩٩.

دولة كانت أفضل حالاً من الدولة التي سيقوم بتوريثها لابنه عدا ذلك أنه كان أقدر من ابنه على سياسة الدولة، ثم إنه تولى السلطة دون معارضة مباشرة حتى بعد وفاة والده وهذا لا ينطبق على ابنه، فبعد موت يزيد انقسمت الدولة كالحجاز كلها مستقلة عن الحكم الأموي، البصرة، الكوفة، والولايات الشرقية كانت شبه مستقلة كانت تنتظر خليفة جديداً يولى أمور المسلمين، فإما تتبعه وإما تخرج عليه، وكل ما ورد كان منفعة لابن الزبير الذي امتد نفوذه إلى مصر والعراق ولم يبق للأمويين إلا الأردن من الشام.

ثم إن معاوية تختلف المصادر حوله فبعضها يذكر أنه رفض الخلافة، وبعضها يذكر أنه استمر أياماً إلا أن كل المصادر تجمع على أنه لم يمارس مهامه، ولم يعهد لأحد بالخلافة، فبقيت الدولة دون خليفة يقوم بأمورها، وبذلك عاشت الدولة مرحلة انهيار وضعف وتمزق وصراعات، وحتى كانت الصراعات داخل البيت الأموي الواحد، لكن مروان بن الحكم تمكن في النهاية من ترأس الدولة. علماً أن بعض المصادر الرئيسية كالطبري وغيره تؤكد أن مروان وصل إلى مرحلة اليأس من السلطة، وكان قد أعدّ نفسه للتوجه إلى ابن الزبير ومبايعته لكن الأمور تطوّرت بوجود عبيد الله بن زيّاد وغيره، فانقلبت الأمور وانتقلت السلطة إلى المَروَانِيِّين.

هذا في الداخل أما في الخارج أي العلاقات السياسية مع بيزنطة، لم يتحدث المؤرخون عن أي علاقة كانت ليزيد بن معاوية بعد استلامه للسلطة مع الروم، ولم يتحدثوا عن صوائف ولا شواتي ولا حروب. أي أن العلاقة كانت مقطوعةً مع الروم سياسياً وعسكرياً، وهذا ما يؤكد أن الطرفين كانا مقيدين في معاهدة التزمها الطرفان.

القسم الثاني

المروانيون

الفصل الأول : مروان بن الحكم

الفصل الثاني : عبد الملك بن مروان

الفصل الثالث : الوليد بن عبد الملك

الفصل الرابع : سليمان بن عبد الملك

الفصل الخامس : عمر بن عبد العزيز

الفصل السادس : يزيد بن عبد الملك

الفصل السابع : هشام بن عبد الملك

الفصل الثامن : الوليد بن يزيد

الفصل التاسع : يزيد بن الوليد

الفصل العاشر : مروان بن محمد

الفصل الأول

مروان بن الحكم

الفصل الأول

مروان بن الحكم

هروب ابن زياد من العراق: ذكرنا أن معاوية بن يزيد كان قد مات دون أن يعيّن أحداً وليّاً للعهد، واختلف أمر الناس بالشام، وعلم ابن زياد بذلك، فأمر فنادى الصلاة وصعد المنبر، فنعى يزيد بن معاوية، وذكر اختلاف أهل الشام، فبايعوه حتى يصطلح الناس على إمام يرضى به الجميع. إلا أن سلطانه كان ضعيفاً، وأمره لا ينفّذ، ويرد عليه رأيه، وغير ذلك.

في هذه المرحلة دعا سلمة بن ذؤيب بن عبد الله بن محكم بالبصرة[1] إلى ابن الزبير فتجمع الناس إليه، وضعف أمر ابن زياد. عند ذلك أخذ ابن زياد ما كان في بيت المال وقدره ثمانية آلاف ألف، وقيل تسعة عشر ألف ألف، وقيل ستة عشر ألف ألف.

حاول ابن زياد قتال خصومه إلا أنه فشل. عند ذلك أرسل إلى حارث بن قيس بن صهبان ابن عوف، يطلب منه أن يهربه فوافقه، وتوجه به إلى بني ناجية وهم أخواله، ثم قام بأمره مسعود ابن عمرو الأزدي وأجاره ومنعه، فقيل مكث عبيد الله بن زياد بحدود تسعين يوماً بعد موت يزيد، ثم خرج إلى الشام. بعد أن استخلف على البصرة مسعود بن عمرو[2] بعدها قتل مسعود. خلال هذه المرحلة ثارت العصبية القبلية في البصرة.

---

[1] البصرة ـ مدينتان بصرى العظمى بالعراق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤٣٠.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٥٢٥.

كان عبيد الله بن زياد عندما بايعه أهل البصرة[1] قد أرسل إلى أهل الكوفة[2] يعلمهم ما صنع أهل البصرة، ويدعوهم إلى البيعة فرفضوا، فقال أهل البصرة أيرفضه أهل الكوفة وترضونه فثاروا ضده. عند ذلك هرب ابن زياد، فبقيت البصرة بدون أمير، فاختلفوا فيمن يؤمرونه عليهم، ثم تراضوا بقيس بن الهيثم السلمي، والنعمان بن سفيان الراسبي، ليختاروا من يرونه مناسباً، وكان رأي قيس في بني أمية. ورأي النعمان في بني هاشم.

أثناء ذلك اتفق الاثنان على أن يكون النعمان هو صاحب القرار، فأخذ بيد عبد الله بن الحارث[3] وقال: رضيت لكم هذا، فوافقوه وبايعوه، ثم دخل ابن الحارث دار الإمارة في أول جمادى الآخرة سنة (٦٤هـ يناير - ٦٨٤م). بعد ذلك قدم على البصرة عمر بن عبيد الله أميراً من قبل ابن الزبير، فبقي هذا شهراً ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي (القباع) والياً.

أما ابن قتيبة[4] فيذكر رواية هروب عبيد الله بن زياد، ويضيف أن الحارث بن قيس، وهو من الأزد عندما خرج بعبيد الله بن زياد وقد كفله، فألبسه لباس امرأة في خمرتها وعقيصتها، ويتابع الخبر نفسه كما ورد عند غيره من المؤرخين، وقد اشتدت العصبية القبلية في البصرة.

أما أهل الكوفة فعزلوا عمرو بن حرث الذي كان خليفةً لابن زياد عليها، وولوا عوضه عامر ابن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي[5]، فأعلموا ابن الزبير بذلك فأقره، فبقي أميراً ثلاثة أشهر بعد موت يزيد بن معاوية، ثم قدم عليهم كما يذكر ابن الأثير عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج من عند ابن الزبير، كما استعمل ابن الزبير على الموصل محمد بن الأشعث، فاجتمع عند ذلك لابن الزبير الكوفة والبصرة ومصر والحجاز والشام إلا أهل الأردن.

---

(1) ابن الأثير - يروي نفس الرواية.

(2) الكوفة - المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسميها قوم خد العذراء، وقيل سميت الكوفة لاستدارتها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٩٠.

(3) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الملقب بيّة، وأمه هند بنت أبي سفيان.

(4) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص١٧.

(5) كان يلقب دحروجة الجعل وكان قصيراً.

ابن الزبير والخلافة: عندما بويع ابن الزبير بالحجاز أخرج بني أمية من الحجاز إلى الشام[1]. ولو أن ابن الزبير منع الأمويين من مغادرة الحجاز لكان أفضل له وأضمن لخلافته، وابن الزبير كان في البداية يدعو للشورى لكن بعد مقتل الحسين بن علي انقلب الموقف لصالحه، ودعا للتصدي والمجابهة، إلا أنه بعد موت يزيد بن معاوية ازداد قوةً ومنعةً، وخاصةً بعد استباحة المدينة من قبل مسلم بن عقبة، وضرب بيت الله بالمنجنيق من قبل الحصين بن نمير، أضف على ما ورد أن ابن الزبير كان معروفاً عنه التقى والورع على عكس يزيد بن معاوية الذي عرف عنه العبث والمجون.

إجماع بني أمية على مروان: بعد موت يزيد بن معاوية عاد الحصين بن نمير السكوني[2] منسحباً من الحجاز إلى دمشق، فأخبر مروان بن الحكم أمر ابن الزبير، ودعا بني أمية لإجماع كلمتهم، يذكر الطبري[3] أن مروان بن الحكم كان من رأيه أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه.

في هذا الوقت قدم عبيد الله بن زياد من العراق، وقد علم بما ينوي مروان القيام به من التوجه إلى ابن الزبير، فجمع بني أمية عنده، فشجعهم على طلب الخلافة، فقام معه بنو أمية ومواليهم، وتجمع إليه أهل اليمن، ثم توجهوا إلى دمشق حيث الضحاك[4] بن قيس، وقد بايعه الناس على أن يصلي بهم، حتى يجتمع أمر الأمة على رجل يرضونه.

عندما قدم عبيد الله بن زياد دمشق ثار زفر بن الحارث الكلابي[5]

---

[1] كان بنو أمية يعتقدون أنه لا فائدة من بقائهم في الحجاز ثم أنهم أجبروا على مغادرة الحجاز ولم يكونوا قادرين في هذه المرحلة على استيعاب التحولات السياسية الجديدة.

[2] الدينوري - أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - الأخبار الطوال - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - بدون تاريخ - ج - ص٢٦٨ - ٢٨٥، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٣.

[3] الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٥٣٠.

[4] يذكره ابن عساكر بأنه هو الضحاك بن خالد الأكبر بن وهب بن ثعلبة ابن واثلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك، اختلف في كنيته، فقيل: أبو أنيس، وقيل: أبو أمية، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو سعيد القرشي الفهري عمه أبو عبيدة بن الجراح، قيل كان على شرطة معاوية ثم ولاه الكوفة وهو الذي صلى على معاوية وقام بخلافته حتى قدم يزيد بن معاوية. دعا إلى ابن الزبير كما سيرد، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٢٤ - ص٢٨٠.

[5] زفر بن الحارث: هو زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاوية ابن يزيد بن عمرو بن الصعق، واسمه خويلد بن نفيل بن عمرو ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن كنيته أبو الهذيل، وقيل: أبو عبد الله - الكلابي، سكن البصرة، وانتقل إلى دمشق، وكان في جيش البصرة وشهد موقعة مرج راهط زبيرياً مع الضحاك بن قيس ثم هرب فلحق بقرقيسيه، فتحصن بها، بعد أن طرد منها عياض، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج١٩ - ص٣٤.

بقنسرين[1]، فبايع لعبد الله بن الزبير، وبايع له أيضاً النعمان بن بشير الأنصاري بحمص، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين عاملاً لمعاوية بن أبي سفيان ثم لابنه يزيد، وكان يهوى هوى بني أمية، وهو سيد فلسطين. دعا حسان بن مالك[2]، روح بن زنباع الجذامي[3] فاستخلفه على فلسطين، وخرج إلى الأردن، في هذا الوقت ثار ناتل بن قيس[4]، ضد روح بن زنباع، فأخرجه من فلسطين، واستولى عليها وبايع لابن الزبير.

وقيل: لما هرب ابن زياد من العراق لقي بني أمية بتدمر[5]، وعلموا أن الضحاك بن قيس قد بايع لابن الزبير، ومروان يريد أن يتوجه إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة، ويأخذ منه الأمان لبني أمية، فرده ابن زياد عن فكرته هذه وقال له: ادع أهل تدمر[6] فبايعهم وسر بهم بمن معك إلى الضحاك بن قيس، وتم الاتفاق على ذلك بمنطقة تدمر، وأكد عمرو بن سعيد لمروان قوله بأنه أحق الناس بالقيام بهذا الأمر، إنما ينظر الناس إلى هذا الغلام - خالد بن يزيد - فتزوج أمه فيكونوا في حجرك.

فعل مروان ما أشار عليه عمرو بن سعيد وتزوج أم خالد، وبايعه بنو أمية وأهل تدمر. بعدها سار إلى الضحاك بمن معه، فلما علم الضحاك بما أجمع عليه بنو أمية، خرج بمن تبعه من أهل دمشق وغيرهم، فالتقوا بمرج راهط[7]، وحدث قتال فقتل الضحاك، وعامة أصحابه، وانهزم بقيتهم.

---

[1] قنسرين: ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٠٣.

[2] حسان بن مالك: هو حسان بن مالك بن بحدل أبو سليمان الكلبي. كان حسان بن مالك سيد بني الحكم وله بدمشق دار عرفت بقصر البحادلة. أقطعه إياها معاوية كان على الأردن، وضمت إليه فلسطين من قبل معاوية. قال ابن عساكر سلم على حسان بن مالك أربعين ليلة بالخلافة ثم سلمها لمروان بن الحكم، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج١٢ - ص٤٤٨.

[3] روح بن زنباع: هو روح بن زنباع بن سلامة وقيل أبو زرعة ويقال أبو زنباع الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بعبد الملك بن مروان، دخل دمشق وكان له بها دار، أمره يزيد بن معاوية على فلسطين، شهد مرج راهط مع مروان، استخلفه مسلمة بن عقبة المري على المدينة بعد أن استباحها وتوجه إلى مكة، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج - ص .

[4] ناتل بن قيس: هو ناتل بن قيس بن يزيد بن حباء بن امرئ القيس بن ثعلبة بن حبيب بن زيان بن عوف بن أنمار... بن زيد بن كهلان بن سبأ الجذامي. أصله من أهل فلسطين شهد صفين مع معاوية، وهو من عمال ابن الزبير، وصف بأنه كان شريفاً، ومن سادات جذام بالشام خرج على عبد الملك بن مروان، فوجه الأخير إليه عمرو بن سعيد فقتله، وهو الذي أخرج روح بن زنباع عن فلسطين ودعا لابن الزبير، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٦١ - ص٣٧٢.

[5] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص١٥١.

[6] تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٧.

[7] مرج راهط: موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج راهط - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢١.

إذاً اختلف المؤرخون حول اجتماع بني أمية هل كان في دمشق أم تدمر، الأصح كما أرى أن اجتماعهم كان في دمشق وليس تدمر، لأن ابن زياد بقي في العراق فترةً طويلة حتى هرب إلى الشام، قدرت هذه الفترة بحدود ثلاثة أشهر تقريباً. في هذه المرحلة كان ابن الزبير قد أرغم الأمويين على مغادرة الحجاز والتوجه إلى دمشق، وأعتقد لو أن العراق صغت لابن الزبير قبل رحيل الأمويين لما سمح لهم بمغادرة الحجاز، لأنه كان يدرك أن ذلك كان في مصلحته، وأن اجتماع الأمويين بتدمر، ومبايعة التدمريين لهم لم يكن كافياً للقضاء على الضحاك، وقتله بهذه السرعة.

عندما قدم بنو أمية دمشق كان الناس فيها منقسمين إلى قسمين، القسم الأول: يقوده حسان ابن مالك بالأردن، ويهوى هوى بني أمية، ويضم هذا القسم بني أمية، ومن رأى رأيهم في الشام، وعلى رأس بني أمية مروان بن الحكم . يضاف إليهم عبيد الله بن زياد، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين، الأول مؤيد لمروان، والثاني لبني يزيد بن معاوية، القسم الثاني: الضحاك بن قيس، وهو مع ابن الزبير، ومعه ناتل بن قيس، وزفر بن الحارث.

ثم بايع أهل الأردن حسان بن مالك على قتال من خالفه. إلا أنهم اشترطوا عليه تجنيب ولدي يزيد بن معاوية، محتجين على أنهما حديثا السن، وقالوا: أتكره أن يأتينا الناس بشيخ وتأتيهم بصبي، وكان الضحاك يعمل في البيعة لابن الزبير سراً، ويمنعه من إجهار دعوته كون بني أمية كانوا بحضرته.

في هذه المرحلة لم يكن أمام حسان الكلبي أفضل من طرح العصبية القبلية، وخاصة اليمنية لأنه كان يدرك، وهو أحد قادتها أنها بقيت محافظة على خصائص نظامها القبلي، ونظامها الاجتماعي، وكيانها السياسي خلال حكم السفيانيين، فاستغل ذلك وأخذ يدعو إلى الأمويين، وتحديداً لخالد بن يزيد بن معاوية لمدة أربعين يوماً. في الوقت نفسه كان يحرض الناس ضد ابن الزبير بالحجاز، فقد كانت سياسة حسان قائمة على السياسة القبلية مستندة إلى العلاقة المتبادلة، والتي كانت سائدة مع الأمويين من حيث النفوذ داخل الدولة، وأكد المسعودي هذه العلاقة في مختلف المجالات، وفرضت هذه العلاقة المميزة على حسان، والقبائل اليمانية الدفاع المستميت عن الأمويين لأن في ذلك مصالح مشتركة.

علم حسان بن مالك زعيم الفريق الأول بأن الضحاك يعمل سراً لابن الزبير، فكتب إليه

يعظم بني أمية، وفي الوقت نفسه يدعوه إلى الطاعة والجماعة، ويذكره بفضل بني أمية عليه، ثم يذكر ابن الزبير فيعيبه ويشتمه، ويقلل من أهميته، وطلب أن يقرأ الكتاب على الناس. ثم دعا رجلاً من بني كلب اسمه ناغصة، فوجهه بالكتاب إلى الضحاك، وكان حسان قد كتب نسخةً ثانية عن ذلك الكتاب وأعطاه إلى ناغصة، وقال له: إذا قرأ الضحاك كتابي هذا على الناس فهو، وإذا لم يفعل فقم أنت فاقرأه، وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك الاجتماع.

قدم ناغصة رسول حسان إلى الضحاك فسلمه الكتاب، وسلم كتاب بني أميه إليهم، وفي يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر، فذكره ناغصة بقراءة كتاب حسان على الناس، فقال له الضحاك: اجلس، وأعاد عليه ذلك مرةً ثانية وثالثة، وهو يقول له اجلس، عند ذلك أخرج ناغصة كتاب حسان الذي معه فقرأه على الناس، فوافق من الحضور على قول حسان كل من الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[1]، ويزيد بن أبي النمس الغساني[2]، وسفيان بن الأبرد الكلبي، وشتموا ابن الزبير.

بالمقابل قام عمرو بن يزيد الحكمي، فشتم حسان بن مالك، ودافع عن ابن الزبير فاضطرب الناس. بعدها أمر الضحاك بالوليد بن عتبة، ويزيد بن أبي النمس، وسفيان بن الأبرد فحبسوا، ثم تكلم خالد بن يزيد فسكن الناس مبدئياً، ثم أخرج سفيان من الحبس بواسطة قبيلة كلب، وجاءت قبيلة غسان فأخرجوا يزيد بن أبي النمس، وجاء ابنا يزيد بن معاوية فأخرجوا أخوالهم من كلب من السجن فسمي هذا اليوم يوم جيرون الأول، ووقعت العصبية القبلية.

ثم هاجم الضحاك يزيد بن معاوية، فقام إليه شاب من كلب فضربه بعصاً كانت معه، فسبب فعله هذا صراع الحضور، وانقسموا إلى قسمين: القيسيون يدعون لابن الزبير ونصرة الضحاك، وكلب تدعو إلى بني أمية وتحديداً لخالد بن يزيد. بعد ذلك أرسل الضحاك إلى بني أمية فدخلوا عليه، فلما تكامل جمعهم اعتذر لهم، وأكد كما يذكر الطبري أنه لا يرغب القيام بعمل يكرهونه، واتفق معهم على أن يكتبوا إلى حسان، فيسير من الأردن إلى الجابية، ويسير الضحاك وبنو أمية أيضاً وهناك تتم مبايعة أحد الأمويين. كتب الأمويون إلى حسان، وكتب إليه الضحاك بأن الجابية مكان لاجتماعهم.

---

(1) يذكر ابن الأثير أن الوليد بن عتبة كان قد مات بعد موت معاوية بن يزيد.

(2) يذكره ابن الأثير وقد ارتد عن الإسلام ودخل الروم مع جبلة بن الأيهم ثم عاد إلى الإسلام وشهد صفين مع معاوية، وعاش إلى عهد عبد الملك بن مروان، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٤٦.

عندما توجهوا إلى الجابية جاء أحد أصحاب الضحاك إليه، فقال له: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير وبايعناك، وقد خالفت ذلك بما فعلت من توجهك إلى الجابية، عند ذلك عطف الضحاك بمن معه من الناس، وتوجه إلى مرج راهط. بذلك تأكد انقسام أهل الشام، ولا مجال للاتفاق بين الطرفين إلا بحرب يكون فيها الرابح هو الذي يفرض رأيه على الآخر، فكان ذلك في موقعة مرج راهط.

ابن الزبير وأحداث الشام: الحقيقة كل هذه الأحداث تمر دون أن تجد أي تدخل من ابن الزبير القابع في الحجاز، وهو يعلم بما يحدث في الشام، والتدخل فيه كان لصالحه، أي أنه لو قدم الدعم والعون لأنصاره في الشام لكان الموقف أصبح لصالحه، حتى أنه سياسياً كان محدوداً، وكان بإمكانه تحريض الناس في بلاد الشام ضد الأمويين إلا أن ذلك لم يحصل، وظل بعيداً يرقب الموقف، وكأنه لا يهمه ما يجري في الشام، رغم أنه كان يملك من المقدرات العسكرية والسياسية والأدبية والاقتصادية ما يجعله قادراً على إيجاد موقف. علماً أن الفرصة كانت مهيأة، والوقت كاف لاتخاذ إجراء يخدمه، وكل الظروف مساعدة له لأنه كان بإمكانه أن يطبق على الشام من مصر والحجاز والعراق ولكنه لم يفعل.

فما هي الأسباب التي منعت ابن الزبير من اتخاذ إجراء ضد الأمويين في مثل هذا الموقف الذي اعتبر فيه الأمويون ضعفاء، والقضاء عليهم وعلى سلطتهم ممكن. علماً أن قادة الأمويين وعلى رأسهم مروان بن الحكم كان قد وصل إلى مرحلة اليأس، فقرر التوجه إلى الحجاز، والاستسلام لابن الزبير. الحقيقة لا بد أن هناك تفسيراً لذلك. ما الذي منع ابن الزبير من التحرك العسكري نحو بلاد الشام رغم سيطرته على مصر والعراق والحجاز، وحتى بلاد الشام لم يبق منها مع الأمويين سوى دمشق، وحتى دمشق كانت منقسمة ما بين مؤيد ومعارض. إذاً كان ابن الزبير في موقف القوي على عكس الأمويين الذين كانوا في موقف الضعيف، إذاً لماذا انتصر الأمويون وخسر ابن الزبير؟

كان الأمويون يدافعون بعد أن وحدوا صفوفهم على سلطة كادت تضيع، وكانت عقيدتهم السياسية حول ذلك موحدة، ولم يحتاجوا إلى الجرأة والتضحية، ولتحقيق ذلك اعتمدوا العصبية القبلية، والتعصب السياسي، ودفعوا بكل ما يملكون لكي يعود الملك والسلطة لهم. كما اعتمدوا

مبدأ المشاورة والقبول بها، وأحياناً الاستسلام لها كونها كانت تلبي عـودة السلطة إليهـم، يضـاف لذلك رغبة مروان بن الحكم الملحة في الوصول إلى السلطة كونه كـان الأجـدر مـن بـين الأمويـين، زيادةً على ما ورد اعتمد الأمويون أصحاب النفوذ والجاه في بلاد الشام، فبالإضافة إلى عبيد الله بـن زياد كان حسان بن مالك، وكان صاحب القرار الأول والأخير وإليه القيادة.

أما ابن الزبير فيبدو أنه كان على عكس الأمويين، فهو لم يدافع عن سلطة كانت لـه سـابقاً، و لم يعتمد مادةً تمنحه ثقةً مطلقة، وقد تخلى عن أقرب الناس إليه هو أخوه مصعب بن الزبـير، ذلـك القائد المحنك المجرب، حين عزله عن العراق، وولى مكانه ابنه حمزة غير المتزن فكـان قـراره خاطئـاً، حيث علم بخطئه لذلك اضطر إلى إعادته إلى العراق، ثم إن ابن الزبير رغـم سيطرته السياسية على مساحة واسعة من الوطن العربي إلا أنه كان له معارضة في كل مكان، ففي الحجاز كان الخـوارج، وغيرهم من ذوي الميول الشخصية، وفي العراق خـرج التوابـون كمـا سيرد، وخـرج المختـار على سلطته وأمور أخرى، والشام يكفيها ما فيها من المعارضة له، أما مصر فلم يكن لها موقف ذو تأثير على ما كان يجري في الشام والحجاز.

كما أن ابن الزبير لم يكن بالرجل الشجاع المغامر في كل الميادين، فمن الناحية المادية وصـف بأنه كان بخيلاً على عكس الأمويين، فخسر ببخله الكثير على كافة المسـتويات الفرديـة والجماعيـة، فلقد نفر منه الأفراد ذوو المطامح الشخصية لشحه، كالمختار بن عبيد كما تروي المصـادر، ونفـرت منه قبائل وجماعات، ونفرت عنه بعض التجمعات السياسية ذات الميول الخاصة كالخوارج وغيرهم.

يضاف لما ورد إنهاك جيش ابن الزبير في العراق، بمعارك متعددة كان بالإمكان تجنب بعضها، إما بالوسائل السياسية أو المادية، أضف على ذلك أن خبرة ابن الزبير العسـكرية لم تكـن عاليـة بمثـل كفاءة الأمويين وقادتهم، وعبد الله بن الزبير أطماعـه بالسـلطة كـانت قريبـة العهـد إذا مـا قيسـت بأطماع الأمويين القديمة العهد، فابن الزبير اعتمد اعتباراً من موقعة الجمل على السيدة عائشـة زوج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما ظهـرت أحـداث موقعـة الجمـل، وأرى أن السـيدة عائشـة لـو حققت انتصاراً عسكرياً في هذه الموقعة لكان حظ ابن الزبير هـو الأوفـر في الخلافـة مـن أبيـه ومـن طلحة، وذلك بدعم منها.

خلافة مروان بن الحكم: هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن

عبد مناف، أبو عبد الملك، ويقال: أبو القاسم، ويقال: أبو الحكم الأموي، أمه أم عثمان، واسمها أمية بنت صفوان بن محرز الكناني[1]، وقيل: آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أمية بن الحارث بن مخدج بن عامر ثعلبة بن الحارث بن كنانة بن خزيمة، ويكنى أبا عبد الملك، وفيهم قال الرسول -- صلى الله عليه وسلم: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دخلاً»[2].

ولد مروان بن الحكم زمن النبي - صلى الله عليه وسلم، وقيل: ولد بمكة بعد عبد الله بن الزبير بأربعة أشهر، وقيل: ولد بمكة بدار أبي العاص الدار التي يقال لها دار الحكم، وقيل: ولد بالطائف، وقيل: توفي الرسول - صلى الله عليه وسلم، وهو ابن ثماني سنوات، وذكر عنه أنه في الطبقة الأولى[3] من أهل المدينة من التابعين، ووصف بأنه كان قصيراً، أحمر الوجه، دقيق العنق، كبير الرأس واللحية، وكان يلقب خيط باطل[4]، ولقب بذلك لدقة عنقه، وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً. كان نقش خاتمه آمنت بالعزيز الرحيم، وقيل: كان نقش خاتمه العزة لله، وهو أول من آخر الخطبة[5] في صلاة العيد وقبل الصلاة، بويع له في ذي القعدة بالجابية سنة (٦٤هـ يوليه – ٦٨٤)م.

نعود إلى أحداث الجابية حيث كان مروان بدمشق كما يروي الطبري، وكما ذكرنا لم يحدث نفسه بهذا الأمر، حتى طمَّعه فيه عبيد الله بن زياد عندما قال له: أنت كبير قريش ورئيسها، يلي عليك الضحاك، ومع ذلك اختلف أهل الجابية خلال اجتماعهم بها فأهل الأردن كان رأيهم في مروان بن الحكم. وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى هوى بني يزيد بن معاوية، وعمل على أن تكون الخلافة فيهم. في الوقت نفسه كان الحصين بن نمير السكوني يهوى ويرغب أن تكون الخلافة في مروان بن الحكم.

---

(1) ابن يزيد أبي عبد الله محمد بن يزيد تاريخ الخلفاء - رواية أبي بكر السلوسي - تحقيق - محمد مطيع الحافظ -- طبع بيروت سنة ١٩٧٩ - ص٢٩ - وقال هشام الكلبي في كتابه مقالب العرب (ص٧٦) أن أمةً هي الزرقاء وبها وصفوا والزرقاء كانت من أصحاب الرايات في الجاهلية.

(2) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٥٧ - ص٢٥٣.

(3) ابن سعد - طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٣٥ وما بعدها.

(4) الديار بكري - تاريخ الخميس من أحوال أنفس نفيس - ج٢ - ص٣٠٧.

(5) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص١٩٤.

وحاول مالك بن هبيرة مع الحصين بن نمير البيعة لأبناء يزيد بن معاوية، فقال الحصين: لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي، فقال مالك للحصين: «والله لئن استخلف مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم»[1]، فكان رأي الحصين الأخير استخلاف مروان، وتم الاتفاق على استخلاف مروان في أوائل ذي القعدة سنة (٦٤هـ ـ يونيه٦٨٤م)، وكان رأي روح ابن زنباع أيضاً مع مروان بن الحكم، وأكده خلال اجتماعهم، وتم الاتفاق على أن يكون خالد بن يزيد بعده، ثم عمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد بن يزيد، في الوقت نفسه كلف عمرو بن سعيد بإمارة دمشق، وإمارة حمص لخالد بن يزيد بن معاوية، ثم حددوا يوم الخميس موعداً لمبايعة مروان، وفي الوقت المحدد اجتمع الناس فبايعوا مروان. بعد اختيار مروان ومبايعته سار بمن معه فنزل مرج راهط حيث كان الضحاك بن قيس، فعبأ مروان قواته[2].

في هذه المرحلة تخلف يزيد بن أبي النمس الغساني بدمشق[3]، ولم يشهد الجابية. عند ذلك ثار بأهل دمشق في عبيدها فغلب عليها، وأخرج عامل الضحاك، وغلب على الخزائن، وبيت المال، وبايع لمروان، وأخذ يمده بالأموال والرجال والسلاح، فكان ذلك من عوامل رفع الروح المعنوية لمروان وأتباعه، وانخفاضها لدى الضحاك وأتباعه. أما مروان والضحاك فاشتبكا بقتال استمر عشرين يوماً حيث هزم الضحاك وأتباعه، وقتل معه من أشراف الناس في دمشق بحدود ثمانين رجلاً.

وقيل إن الذي كان يقود الأمويين هو حسان بن مالك[4] حيث صلى بهم أربعين يوماً وهم يتشاورون، وكان الضحاك بن قيس قد كتب إلى النعمان بن بشير وهو على حمص، وإلى زفر بن الحارث وهو على قنسرين، وإلى ناتل بن قيس وهو على فلسطين يستمدهم، وكانوا على طاعة ابن الزبير، فأمده النعمان، بشرحبيل بن ذي الكلاع، وأمده زفر بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل فلسطين، ومع ذلك خسر الضحاك بن قيس المعركة وربحها مروان بن الحكم وقد استخلف.

---

(1) الثعالبي أبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ـ الثعالبي ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ تحقيق: إبراهيم الإبياري ـ طبع دمشق ١٩٩٤ ـ ج ـ ص٧٦، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٥٣٦.

(2) قيل أن ابن زياد كان على الخيل، ومالك بن هبيرة كان على الرجال والراية مع بشر بن مروان ، الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص٥٣٩.

(3) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٧ ـ ص .

(4) المرجع نفسه ـ ج ـ ص ، المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٠٠.

إذاً قتل الضحاك[1] وهزم أتباعه فانتهى أهل حمص إلى حمص، والنعمان بن بشير عليها فلما بلغه الخبر خرج منها هارباً، فلما علم أهل حمص بذلك طلبوه وقتلوه، وخرج زفر بن الحارث من قنسرين هارباً فلحق بقرقيسياء[2]، وعليها عياض الجرشي[3]، فحال عياض بن زفر، بينه وبين دخول قرقيسياء، فأكد زفر لعياض وعاهده بالخروج منها بعد دخول حماماتها، فلما دخلها أقام بها، وأخرج عياض منها فتحصن بها، وثابت إليه قيس. أما ناتل بن قيس صاحب فلسطين، فهرب ولحق بابن الزبير، وبذلك استقرت الشام لمروان، فاستعمل عليها عماله.

بعد استقرار مروان بالشام فكر في استخلاص مصر من ابن الزبير، فالطبري[4] يذكر أن مروان خرج إلى مصر فقدمها، وعليها عبد الرحمن بن جحدم يدعو إلى ابن الزبير، فخرج بمن معه من بني فهر وبعث مروان، عمرو بن سعيد الأشدق من ورائه فدخل مصر، وقام على منبرها فخطب الناس وأعلمهم أن عمراً دخل مصر، فرجعوا ثم بايع الناس مروان، وبذلك استعاد مصر[5] في جمادى الأولى سنة (٦٥هـ - ٦٨٦م)، وعاد إلى دمشق بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز.

وقال ابن كثير[6] نقلاً عن الواقدي: إن مروان حاصر فخندق عبد الرحمن بن جحدم على البلد، وخرج بمن معه لقتال مروان، واشتبك الطرفان في قتال كانت نتيجته صلح مروان، وعبد الرحمن على أن يخرج الأخير إلى مكة بماله وأهله، فوافقه مروان، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان، وولى مصر ابنه عبد العزيز، وترك عنده أخاه بشر بن مروان، وعين موسى بن نصير وزيراً له، ثم عاد إلى دمشق.

في طريق عودة مروان إلى دمشق بلغه أن ابن الزبير كان قد بعث أخاه مصعباً نحو فلسطين، فسرح إليه عمرو بن سعيد[7] في جيش فتقابلا قبل دخول مصعب الشام، واشتبك معه في قتال هزم

---

(1) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص١٠١، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٣٤.

(2) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٢٨.

(3) هو ابن أسلم بن كعب بن مالك بن نفر بن أسود بن كعب بن حدس بن أسلم وكان يزيد بن معاوية قد ورد قرقيسياء.

(4) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٤٠.

(5) ابن تغري بردى - الاتابكي أبو المحاسن - جمال الدين - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - طبع مصر ١٩٦٤ - ج١ - ص١٦٥.

(6) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٨ - ص٢٥٩.

(7) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٤٠.

فيه مصعب ومن معه، وكان سبب هزيمته تفوق خصمه عليه في العدد والعدة والاستعداد بالإضافة لمعرفة الشاميين بطبيعة الأرض، وتضحية الأمويين بالدفاع عن سلطتهم المهددة من ابن الزبير، بعد ذلك توجه عمرو بن سعيد عائداً إلى دمشق.

دعا مروان بن الحكم حسان بن مالك بن بحدل، فأعلمه أنه يرغب في مبايعة ابنه عبد الملك، ومن بعده ابنه عبد العزيز، وأعلمه أن عمرو بن سعيد يقول إنه خليفة مروان، وأن الأمر له بعد مروان، وعندما اجتمع الناس عند مروان، قام حسان بن مالك فبايع عبد الملك وأخاه[1] من بعده، وبذلك يكون مروان بن الحكم أول من نقض العهد في العصر المرواني، ثم مات مروان[2]، وقد اختلف في ميلاده وحكمه وموته.

كان مروان بن الحكم قبل أن يموت قد بعث بعثين[3]، الأول: إلى المدينة بقيادة حبيش بن دلجة القيني، والثاني: إلى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد، فسار الأخير فنزل الجزيرة، وهناك أتاه الخبر بموت مروان، بعدها خرج إلى التوابين من أهل الكوفة الطالبين بدم الحسين بن علي.

الأحوال العامة في الدولة: إذاً بعد موت يزيد بن معاوية وتشتت الدولة وكثرة الفتن والاضطرابات وكثرة طالبي السلطة، بدأت مرحلة الانتقام، وتعقدت الأمور في الدولة العربية فأعلن إبن الزبير نفسه خليفةً في الحجاز وبايع له الحجاز واليمن والعراق ومصر، وحتى بلاد الشام اضطربت الأمور فيها نتيجة العصبية القبلية، ففي هذه المرحلة عادت العصبية إلى عهد جاهليتها، وخاصةً بين اليمانية، وهم العرب، الموجودون في بلاد الشام قبل الإسلام، وعرفوا أيضاً بالقحطانيين[4] (العرب العاربة والقحطانيون كما هو معلوم قبائل عربية متعددة اشتهر منها قبيلة كلب، حيث امتدت هذه القبيلة في العصر الأموي من نجد إلى العراق إلى بلاد الشام، علماً أنها قبل ذلك لم تتعدّ سورية الحالية)، وبين القيسية (المضرية ـ أو النزارية ـ العدنانية ـ الاسماعيلية) والقبائل القيسية جلها كانت من الهجرات التي تمت بعد الإسلام إلى بلاد الشام.

---

(1) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٢١١.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٦١٠.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) المقزيري ـ النزاع والتخاصم ـ ص٦٥.

وأعتقد أن الصراع والعداء الذي كان بين هاتين القبيلتين أصله أن اليمانية كانت هجرتهم إلى بلاد الشام قديمة، وكان منهم الغساسنة، لذلك اعتبروا أنفسهم أصحاب الأرض إذا ما قيسوا بالقيسية الذين هاجروا إليها متأخرين مع بداية الفتوحات، حيث تمكنت هذه الهجرات بواسطة الفتوحات من السيطرة السياسية والاقتصادية على المنطقة فاعتبر اليمانيون هذا الإجراء على حسابهم إلا أنهم لا يملكون أن يفعلوا شيئاً، لكن الفتوحات لم تقف عند حدود الشام، فتوزع القيسيون مع الفتوحات أكثر من بقية القبائل، فكان هذا لصالح اليمانيين.

فلما تسلم معاوية أمير الشام، وكان قد تزوج من ميسون بنت بحدل الكلبية (يمانية) أخذ يقرب اليمانية ويعتمد عليهم، فجعلهم أساس جيشه المعتمد عليه في الأوقات الخاصة، أي أنهم كانوا حرسه الخاص، إلا أن معاوية لم يبعد القيسية، فجعل اعتماده عليهم بعد اليمانية وكانت سياسة حكيمة منه، حيث تبين أنه لم يحدث أي خلاف كان له أثر واضح، بينهما وإذا ما حدث مثل ذلك يبقى في حدود ضيقة، علماً أن زعماء القبائل القيسية كانوا يشعرون بتفضيل الأمويين لليمانية عليهم غير أنهم استكانوا في عهد معاوية.

إذاً استطاع معاوية جمع شمل القبيلتين في عهده، واستعمل من كليهما، ففي عهده كان الضحاك بن قيس على دمشق وهو من القيسية، وكان من الذين يعتمد عليهم، وبعد معاوية جاء يزيد فقرّب اليمانية كونهم أخواله إلا أنه اعتمد سياسة أبيه في إيجاد بعض التوازن بين القبيلتين فأبقى الضحاك على دمشق كما كان عليه حيث عرف عنه الولاء لمعاوية ولابنه يزيد وبذلك يكون الضحاك وراء احتفاظ القيسية بالولاء ليزيد، حيث كانت القيسية من خلال زعمائها، وعلى رأسهم الضحاك يستطيعون تلبية رغباتهم.

لكن ما إن مات يزيد وتسلم السلطة معاوية بن يزيد، وأعلن ابن الزبير خلافته في الحجاز، واضطربت أمور الدولة، وخاصةً أن الخليفة الجديد لم يقم بأعمال الخلافة، ولم يعهد لأحد بعده، كل ذلك جعل الدولة في حالة فوضى واضطراب، وزادها ذلك موت معاوية بن يزيد، حيث بايعت الأمصار ولاتها حتى يجتمع أمر الأمة على رجل. في هذه المرحلة قوي أمر ابن الزبير فبايع له العراق كله كما بايع له أهل مصر واليمن، ولم يبق إلا بلاد الشام، واضطرب أمر الأمويين حتى ذكر أن مروان همَّ بالتوجه إلى الحجاز ومبايعة ابن الزبير.

في دمشق كان الضحاك والياً عليها فبقي موقفه في البداية غامضاً، إلا أنه في السر كان يدعـو مع أتباعه لابن الزبير، بعد ذلك دعا القيسية وقادتها للاجتماع معه في دمشق فاجتمع عليـه النعمـان ابن بشير وكان عاملاً على حمص، وزفر بن الحارث، وكان على قنسـرين، ونـاتل بـن قيـس وكـان على فلسطين بعد أن أخرج عامل الأمويين عنها. إذاً أعلن الضحاك موقفه وبايع القيسيون في الشـام ابن الزبير، لأنهم على ما يبدو كانوا يرون فيه آنذاك بأنه الأحق بالخلافـة، ولم يخـرج عـن بيعـة ابـن الزبير إلا الأمويون واليمانية في بلاد الشام، وكان أكبر تجمع لهم آنذاك في الأردن، يقودهـم حسـان ابن بحدل الكلبي، و روح بن زنباع، وقد طرد من فلسطين.

كان موقف اليمانية والأمويين غير موحد واضطرب أمرهم في البداية، حيث انقسـموا حـول من يولونه خليفةً. فبعضهم كان يرى أن خالد بن يزيد هو المرشح الوحيد ليشغل هذا المنصب وتبنى وجهة النظر هذه الكلبية، لكنهم تمكنوا في النهاية من جمع شملهم وتولية مروان الخلافـة، وبـايعوه في الجابيـة[1] في ذي القعـدة سـنة (٦٤هـ يونيـو ٦٨٣م) وبذلـك أصبحـت الشـام منقسـمة إلى فئتـين. القيسية: يتزعمها الضحاك بن قيس وقد بايعوا ابن الزبير، واليمانيين: ويـتزعمهم حسـان بـن بحـدل الكلبي ومعه الأمويون وقد بايعوا مروان كما ذكرنا.

لكن كما هو معلوم كانت أشد الأحداث تأثيراً في تاريخ العرب في هذه المرحلـة هـي إعـلان ابن الزبير معارضته في الحجاز ليزيد بن معاوية، وتوجيه الجيوش إليه بقيادة مسلمة بـن عقبـة المـري، واستباحته للمدينة وانتهاك الحرمات فيها، ثم في محاصرة الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير بمكـة، و رمي الكعبة بأحجار المنجنيقات، وتصدع جدرانها، خـلال هـذه المرحلـة تضـافرت مجموعـة مـن العوامل أكد فيها الشعب أينما كان رفضه للسلطة الأموية. ففي الحجاز بعد موت يزيد بن معاوية:

- أعلن ابن الزبير خلافته.
- اجتمع الخوارج مع ابن الزبير في الحرب الدائرة بينه وبين الحصين بن نمير في حصار مكة الأول.
- اشترك المختار بن عبيد الله مع ابن الزبير أيضاً في هذه الحرب.
- انحلال عقد الأمويين. يثبت ذلك أن مروان بن الحكم كان قد قرر التوجه إلى مكة ومبايعـة ابن الزبير.

---

[1] محمد سهيل طقوش - تاريخ الدولة الأموية - طبع بيروت ١٩٩٦م - ص٦٢.

ـ ترك ضرب الحصين بن نمير للكعبة أثراً في نفوس الصحابة وتابعيهم مما قلب الناس ضد الأمويين، فمثلاً في المدينة، حاصر أهلها بني أمية ومواليهم، ومن يرى رأيهم، وكانوا ألف رجل في دار مروان بن الحكم و لم يعترضوا على الأحداث، و لم يقاتلوا ساعةً واحدة، إنما استسلموا للواقع الجديد بسرعة فائقة، وكأن الأمر كان لا يعنيهم.

ـ قتل الحسين بن علي. كان لمقتل الحسين بن علي أكبر الأثر في إحداث معارضة جديدة للدولة الأموية وإراقة الكثير من الدماء.

ـ مبايعة الأمصار كل منها والٍ عليها حتى يستقر أمر الدولة على حاكم جديد، ففي البصرة بايع أهلها عبيد الله بن زياد، وكان والياً على البصرة والكوفة قبل ذلك لم ينفصل عن ولايته، فأرسل إلى الكوفة كي يبايعوه كما بايعه أهل البصرة، فرفض أهل الكوفة عرضه، وثار ضده أهل البصرة واضطروه إلى الهروب بعد أن تخفى بلباس امرأة وتوجه إلى الشام، فجعل أهل الكوفة عليهم والياً، وبايعوا ابن الزبير، أيضاً فعل أهل البصرة مثل ذلك وبايعت مصر ابن الزبير مثل العراق، وعليها آنذاك عبد الرحمن بن جحدم القرشي وهو قيسي.

أما بلاد الشام فقد انقسمت أيضاً. وقد قدمها الأمويون مع الحصين بن نمير عندما علم الحصين بموت يزيد بن معاوية، حيث فك الحصار عن مكة، وكان له حديث مع ابن الزبير وقد ورد، ولو أن ابن الزبير كان واسع الأفق، وقبل دعوة الحصين له بالتوجه إلى الشام مع اتخاذ إجراءات أخرى لكان الموقف كله لصالحه، وما اعترض عليه أحد.. إذاً انقسمت بلاد الشام أيضاً ما بين مؤيد ومعارض، ففي:

ـ قنسرين، بايع فيها زفر بن الحارث الكلابي لابن الزبير.

ـ حمص بايع فيها النعمان بن بشير لابن الزبير.

ـ فلسطين، ثار فيها ناتل بن قيس، فأخرج روح بن زنباع، وبايع لابن الزبير.

ـ الأردن، حسان بن مالك الكلابي، وكان يدعو لبني أمية، وإليه كان الفضل في إعادة السلطة إلى الأمويين.

ـ دمشق، كان العامل عليها من قبل معاوية، وابنه يزيد بن معاوية، الضحاك بن قيس، وكان يرى رأي ابن الزبير، إلا أن موقفه لم يكن ثابتاً، حيث أثبت أنه متقلب الرأي، المهم اجتمع إليه من كان على رأي ابن الزبير في بلاد الشام.

- وكان الأمويون وأكبرهم مروان بن الحكم وقد انضم إليهم الحصين بن نمير بعد عودته من حرب ابن الزبير، وحسان بن مالك، وكان الأخير كما يذكر المؤرخون يصلي بمن كان على رأي بني أمية وبقي على ذلك أربعين يوماً والناس يتشاورون، وكان معهم أيضاً مالك بن هبيرة السكوني، ومع ذلك كانوا فرقتين:

الأولى: حسان بن مالك ومالك بن هبيرة السكوني وأتباعه وكان يهوى هوى خالد بن يزيد لكي يكون خليفة.

الثانية: الحصين بن نمير السكوني وأتباعه وكان يميل إلى مروان بن الحكم.

المهم اجتمع بنو أمية وكان لعبيد الله بن زياد دور فعال في الأحداث الجارية، وفي جمع بني أمية وبعد أن دب الناس إليهم، قرروا خلال اجتماعهم بالجابية وذلك في ٣/ذي القعدة سنة (٦٤ هـ - يونيه ٦٨٤م).

- مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة.

- خالد بن يزيد ولي العهد، وله إمرة حمص.

- عمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد، وله إمرة دمشق.

- الحركة إلى مرج راهط لحرب الضحاك بن قيس.

كان الضحاك بن قيس خلال هذه الأحداث قد أعلن مبايعته لابن الزبير، وإعلانه الحرب على بني أمية، وعسكر في مرج راهط وقد أمده النعمان بن بشير وهو على حمص بشرحبيل بن ذي الكلاع، وأمدّه زفر بن الحارث وهو على قنسرين بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل فلسطين، وفي مرج راهط التقى الطرفان، وكل منهما كان قد عبأ قواته لمعركة الحسم، وبدأت المعركة في محرم سنة (٦٥هـ) أو في أواخر سنة (٦٤هـ - ٦٨٣م) فقتل الضحاك وخضعت بلاد الشام للأمويين. بعد قتل الضحاك قتل أهل حمص النعمان بن بشير، وهرب زفر بن الحارث من قنسرين إلى قرقيسياء فسيطر عليها، وكان يدعو لابن الزبير، أما ناتل بن قيس فهرب من بلاد الشام إلى ابن الزبير بالحجاز.

وكان من أهم نتائج معركة مرج راهط:

- استعادة مروان ملك بني أمية في دمشق.
- اعلان بيعته بالخلافة من جديد في رجب سنة (٦٥هـ - فبراير ٦٨٤م).
- قتل الضحاك وهزيمة القبائل القيسية.
- استعمال مروان العمال على بلاد الشام.

بعد أن استعاد مروان بلاد الشام عمل على تنظيمها سياسياً فولى الولاة على الأمصار بها ووحدها فكان رأسها المدبر منذ ذلك الوقت، فأخذ يفكر بكيفية إعادة الدولة إلى ما كانت عليه سابقاً فقرر إعادة مصر إلى سلطته، فخرج بمن معه إلى مصر بعد أن استخلف ابنه عبد الملك على دمشق فتمكن منها ومن إعادتها إلى حظيرة الدولة دون عناء وولى عليها ابنه عبد العزيز، ثم عاد إلى دمشق. أما ابن الزبير فلم يحرك ساكناً في هذه الأحداث وكأنه غير معني بها، وكل ما فعله أنه وجه أخاه مصعباً في جيش إلى أطراف بلاد الشام علّه يستطيع أن يعمل شيئاً، إلا أن مروان بادره بإرسال عمرو بن سعيد فهزم مصعباً وعاد إلى دمشق.

أما في خراسان فكان عليها سلم بن زياد، فعندما مات يزيد بن معاوية بايعه الناس حتى يستقيم أمرهم، إلا أنهم نكثوا بيعته بعد شهرين، فتركها بعد أن استخلف عليها المهلب بن أبي صفرة، وكان سلم قد كتب عهداً لعبد الله بن خازم على خراسان، فتوجه إليها فرحل عنها المهلب فبويع ابن خازم هناك.

وفي العراق خرجت الشيعة (التوابون) مطالبين بدم الحسين، وهم لا ينتمون لابن الزبير ولا للأمويين فتمت تصفيتهم من قبل ابن زياد. في هذه المرحلة قدم المختار إلى الكوفة وسيطر عليها وعلى العراق، وظهرت الخوارج في العراق بعد مفارقتهم ابن الزبير، إذاً كانت الأمور بالعراق مختلة لا إلى الشام هي منتمية، ولا للحجاز يقودها المختار وهو يطمع بالسلطة.

وفي عاصمة الدولة دمشق بايع مروان بن الحكم ابنه عبد الملك بولاية العهد، ومن بعده أخوه عبد العزيز، ثم قرر إرسال الجيوش لتحرير الحجاز والعراق، فأرسل حبيش بن دلجة القيني إلى الحجاز، وعبيد الله بن زياد إلى العراق، إلا أن الموت عاجل مروان بن الحكم، فمات أو قتل، إذاً مات مروان بعد أن نقض العهد، وزرع أول إسفين في خلخلة الدولة وتمزيقها في صراعات لن تنتهي كما سنرى، حيث ابتدأت بعمرو بن سعيد وقتله، وإنهاك الإقتصاد وزرع الفتنة التي استمرت

حتى كانت نهاية الدولة.

توفي مروان بن الحكم في رمضان من سنة (٦٥هـ ـ أبريل ٦٨٤م)، فاختلف في سبب موته فذكر ابن الأثير[1]: أن مروان كان قد تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية، وهي بنت أبي هاشم بن عتبة، وكان مروان يصغر من أمر خالد فلا يصلح للخلافة، ويسقطه من أعين أهل الشام، وكان أيضاً يعيب أم خالد بقوله لابنها خالد يا بن الرطبة، فحنقت أم خالد على مروان، وبينما هو نائم غطته بوسادة حتى قتلته، واختلف في عمره، وحكمه.

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٩١.

الفصل الثاني

عبد الملك بن مروان

الفصل الثاني

عبد الملك بن مروان

يذكر أن مروان بن الحكم سمى ابنه القاسم، وبه كـان يكنـى، ثـم حـول اسمـه فـأصبح عبـد الملك. إذاً هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي، يكنى أبا الوليد، أمه: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس. ولد سنة (٢٦هـ - ٦٤٦م) في خلافة عثمان بن عفان، وقيل: ولد سنة ثلاث وعشرين للهجرة بالمدينة في دار مروان في بني جُدَيلة، وقيل: ولد سنة خمس وعشرين. وصف بأنه كان ربعـه إلى الطـول أقـرب منه إلى القصر، أبيض ليس بالنحيف ولا بالبادن، و لم يخضب إلى أن مات، وكـانت أسـنانه مشـبكة بالذهب، أفوه مفتوح الفم، كبير العينين، مشرف الأنف، دقيق الوجه حسن الجسـم، أبيـض الـرأس واللحية، ووصف بأنه كان حليماً.

قال ابن عساكر[1]: إن عبد الملك بن مروان لم يزل بالمدينة في حياة أبيه، وولايتـه حتـى كـان أيام الحرة، فلما وثب أهل المدينة، أخرجوا عامل يزيد بن معاوية (عثمان بن محمد بـن أبـي سـفيان) عن المدينة، وأخرجوا بني أمية. عند ذلك خرج عبد الملك مع أبيه فلقيهم مسلم بـن عقبـة بـالطريق، فتخلف عبد الملك بذي خشب[2]، وأمر رسولاً أن ينزل مخيضاً[3]، وآخر يحضـر الوقعـة يأتيـه بالخـبر، وهو يخاف أن تكون الدولة لأهل المدينة، فبينما هو جالس في قصر مروان بذي خشب يترقب، جاء

---

(1) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٧ - ص١٢٥.

(2) ذي خشب: من مخاليف اليمن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٧٢.

(3) مخيض - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٧٣.

رسوله يلوح بثوبه. ثم أتاه رسوله الذي كان بمخيض يخبره أن أهل المدينة قد قتلوا، ودخلها أهل الشام، فدخل عبد الملك المدينة.

وكان أهل المدينة قد أخذوا على بني أمية العهود والمواثيق حين أخرجوهم ألاّ يدلوا على عورة لهم، ولا يظاهروا عليهم عدواً، فلما لقيهم مسلم بن عقبة بوادي القرى، دخل عليه عبد الملك فقال له مسلم: هات ما عندك، أخبرني خبر الناس، وكيف ترى فأخبره خبر الناس بالمدينة، ودله على عوراتهم، وكيف يؤتون ومن أين يدخل عليهم، وأين ينزل.

وذكر ابن عساكر[1]: أن رجلاً يهودياً أسلم يقال له يوسف، وكان يقرأ الكتب، وقد مرّ بدار مروان بن الحكم، فقال: ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار، فقلت له: إلى متى؟ قال: حتى تجيء رايات سود من قبل خراسان، وكان صديقاً لعبد الملك بن مروان، فضرب منكبيه ذات يوم فقال: اتّقِ الله يا مروان في أمة محمد، إذا وليتهم، فقال: دعني ويحك، ودفعه، ما شأني وشأن ذلك، فقال: اتّقِ الله في أمرهم.

وذكر أن يزيد بن معاوية كان قد جهز جيشاً إلى مكة فقام عبد الملك بن مروان، وأخذ قميصه ونفضه، فقال: أعوذ بالله ثلاث مرات، أتبعث إلى حرم الله، فضرب يوسف منكبيه وقال: لِمَ تنفض قميصك؟ جيشك إليهم أعظم من جيش يزيد بن معاوية.

يعد عبد الملك في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة[2]، وقيل: في الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام كان عابداً ناسكاً قبل الخلافة، وقيل كان عابداً فقيهاً قبل أن يلي الخلافة، شهد يوم الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين، استعمله معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة[3]، وهو يومئذ ابن ست عشرة سنة. قدم مصر سنة خمسين لغزو المغرب مع معاوية بن حديج.

وجالس عبد الملك العلماء والفقهاء، وحفظ عنهم، وكان قليل الحديث، وكان شاباً أشد تشميراً، لا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله منه ولا أكثر للصلاة، ولا أطلب للعلم منه، وكان كما ذكر

---

(1) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٧ - ص١٢٧.

(2) المرجع نفسه - ج٣٧ - ص١١٥.

(3) المدينة: هي مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم، تقع في حرة سبخة الأرض ولها سور والمسجد في نحو وسطها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ٨٢.

من فقهاء المدينة الأربعة، وعبد الملك هو أول من صلى في المسجد ما بين الظهر والعصر.

وذكر ابن عساكر عن ابن عائشة قال: لما أفضى الأمر إلى عبد الملك، والمصحف في حجره يقرأ فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك[1]، وقيل: لما سلم على عبد الملك بن مروان بالخلافة كان في حجره مصحف، فأطبقه وقال: هذا فراق بيني وبينك، وكان نقش خاتمه أؤمن با لله مخلصاً، وقيل: كان إذا جلس للمظالم أقام وصيفاً على رأسه ثم يجتهد.

وذكره ابن الأثير فقال عنه بأنه هو أول من غدر بالإسلام، وأول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وأول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء، وأول خليفة بخل، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، وهو الذي قال: «**لا يأمرني أحد بتقوى ا لله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه**»[2].

تسلم عبد الملك بن مروان مجموعة من الأعمال قبل أن يولّى الخلافة، وشهد أحداثاً جساماً تركت في نفسه أثراً كبيراً ومن الأعمال التي قام بها. في عهد الخليفة عثمان عين مروان بن الحكم كاتباً له في المدينة فعين الأخير ابنه كاتباً له على ديوان المدينة، وعندما عين مروان بن الحكم على البحرين من قبل الخليفة عثمان عين ابنه عبد الملك على ولاية هجر. كما تسلم عبد الملك كاتباً على ديوان المدينة في عهد معاوية بدلاً من زيد بن ثابت بعد وفاة الأخير. كما قاد عبد الملك جيش المدينة في عهد معاوية سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م) في الحملة البحرية ضد البيزنطيين.

ورأينا دوره مع مسلم بن عقبة المري عندما كان الأخير يقود حملةً إلى المدينة وكيف اجتمع عبد الملك مع مسلم، وكيف دله على ثورة البلاد، وفي خلافة أبيه مروان ولي على فلسطين لكنه بقي في دمشق وأرسل إليها روح بن زنباع الجذامي، وناب عن أبيه على دمشق عندما توجه مروان إلى مصر لاستردادها من سيطرة ابن الزبير، وبسبب ما امتاز به من بين إخوته من الكفاءة والبراعة السياسية والمعرفة بشؤون الدولة وإدارتها، اختاره أبوه ولياً لعهده.

وقد اختلف في بيعة أهل الشام لعبد الملك بن مروان، فقيل: بايع أهل الشام عبد الملك سنة (٦٤هـ - ٦٨٣م)، وكانت بيعة الجماعة سنة (٧٣هـ - ٦٩٢م)، وقيل استخلف عبد الملك في هلال

---

[1] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٧ - ص١٢٧.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٥٢٢.

شهر ربيع الأول سنة خمس وستين، وقيل بايع أهل الشام عبد الملك في شهر رمضان سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م)، واجتمع الناس على بيعته سنة (٧٣هـ - ٦٩٢م) في جمادى الآخرة لثلاث عشرة بقيت منه.

وبعد أن استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شري الخضراء[1] وكانت دار الإمارة بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن، فاختار من فلسطين عمواس، ومن الأردن قصر خالد ومن دمشق اندر، ومن حمص ديزكي.

في عهده بلغت مالية الدولة مبلغاً كبيراً فمثلاً بلغ خراج بلاد الشام[2] ١٠٧٣٠٠٠٠ دينار وقبرص[3] ٨٠٠٠ دينار وقال البلاذري إن عبد الملك قطع عطاء الذرية إلا عمن شاء لكن عطاء المقاتلة ظل على نحو ما كان عليه من قبل.

واختلف في مدة خلافته فقيل: كانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر، وقيل ثلاث عشرة سنة، وثلاثة أشهر، وثمانية عشر يوماً، وقيل كانت خلافة عبد الملك أربع عشرة سنة، وخمسة أشهر إلا أربعة أيام، وقيل ولي عبد الملك بن مروان اثنتين وعشرين سنة، وقيل اثنتين وعشرين سنة ونصفاً، ومات بدمشق ودفن بين باب الجابية، وباب الصغير، وقيل ولي عبد الملك إحدى وعشرين سنة منها تسع سنين فتنة ابن الزبير.

قال عبد الملك بن مروان: «وإني والله لا أدري أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف يعني عثمان، ولا بالخليفة المداهن يعني معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعني يزيد بن معاوية»[4]، وقال ابن عساكر: «كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرات: يا أهل النعم لا تغالوا شيئاً منها مع العافية، وكان قد أصابه داء في فمه، وقال ابن عساكر: إن عبد الملك حين ثقل جعل يلوم نفسه، ويضرب بيده على رأسه، وقال: وددت أني كنت اكتسبت يوماً بيوم ما

---

(1) ابن منظور - مختصر تاريخ دمشق - ج١ - ص٢٩٢.

(2) البلاذري - فتوح البلدان - تحقيق صلاح الدين المنجد - طبع مصر - ج١ - ص٢٣٠.

(3) المرجع نفسه ج١ - ص١٨٣.

(4) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٨٢.

يقوتني، وأشتغل بطاعة الله»[1]، وقال عبد الملك لابنه: «تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك، فالغائب عنك يخبر كاتبك، والوافد عليك يعرفك بحاجبك، والخارج من عندك يعرفك بجليسك»[2].

تسلم عبد الملك بن مروان السلطة في فترة كانت فيها الدولة العربية الإسلامية مضطربة، وأفرزت أحداثاً جساماً أدت إلى انهيار الدولة سياسياً وعسكرياً، كما أفرزت تيارات متعددة أحدثت تغييرات جذرية في بنية الدولة، فبعد تسلُم عبد الملك السلطة قتل حبيش بن دلجة قائد الجيش الذي كان وجهه مروان بن الحكم إلى الحجاز.

ذكرنا أن مروان بن الحكم كان قد وجه حبيش بن دلجة إلى المدينة وعليها من قبل ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف، فلما قدمها حبيش هرب منها عامل ابن الزبير فدخلها حبيش، فلما علم ابن الزبير بهزيمة عامله، أمر الحارث بن أبي ربيعة، وكان أميراً على البصرة من قبله أن يوجه جيشاً لنجدة المدينة فوجه الحنيف بن السجف التميمي على رأس بعض القوات، كما وجه ابن الزبير من مكة عباس بن سهل بن سعد الأنصاري أميراً على المدينة، وأمره أن يسير في طلب حبيش بن دلجة. عندما علم حبيش بذلك سار من المدينة، فالتقى مع الحنيف بالربذة، واشتبك الطرفان فقتل حبيش بن دلجة وبعض أصحابه، وكان معه الحجاج بن يوسف، ورجع من هرب منهم إلى الشام، وفي عهده أيضاً حدث طاعون جارف بالبصرة هلك فيه خلق كثير من أهلها[3]، وقتل نافع بن الأزرق، واشتد أمر الخوارج، وخرج بنو تميم بخراسان على عبد الله بن خازم، وحدثت بين الطرفين حرب[4].

وفي عهده خرج بنو تميم بخراسان على عبد الله بن خازم وذلك سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م)، وسبب ذلك أن من كان بخراسان من بني تميم كانوا قد أعانوا عبد الله بن خازم على من كان بها من ربيعة، وعلى حرب أوس بن ثعلبة حتى قتل من قتل منهم وظفر ابن خازم بخراسان و لم ينازعه

---

(1) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٧ - ص١٥٧.

(2) ياقوت البغدادي - جمال الدين ياقوت بن عبد الله المستعصي البغدادي - كتاب أسرار الحكماء - تحقيق إبراهيم صالح - سميح صالح - طبع سوريا سنة ١٩٩٤ - ص٢٧.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٦١٢.

(4) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج - ص٢٠٧.

عليها أحد، فاستعمل ابنه محمد[1] على هراة، وجعل بكير بن وشاح على شرطته، وضم إليه شماس ابن دثار العطاردي.

قدم بنو تميم إلى هراة وبها محمد بن عبد الله بن خازم وهو ابن أختهم أي أن أمه واسمها صفية كانت من تميم. عندما علم عبد الله بن خازم بذلك كتب إلى بكير وشماس يأمرهم بمنع بني تميم من دخول هراة، فرفض شماس وانضم إلى بني تميم، أما بكير فمنعهم من دخولها، فأرسل بكير إلى شماس يعرض عليه ثلاثين ألفاً، ولكل رجل منهم ألف على أن ينصرفوا، فرفض شماس وبنو تميم هذا العرض، ودخلوا هراة، فقتلوا[1] محمد بن عبد الله بن خازم، ثم انصرفوا إلى مرو، فطلبهم بكير ابن وشاح، وهناك أجمعوا على قتال عبد الله بن خازم وأمّروا عليهم الحريش بن هلال القريعي، واستمر القتال بين الطرفين بحدود سنتين، فملّ الطرفان الحرب، والتقى الحريش مع عبد الله بن خازم وطلب منه المبارزة، وقال له: أيّنا قتل صاحبه صارت الأرض له، فوافقه ابن خازم إلا أن المبارزة لم تحسم الموقف، واستمر القتال أياماً فملّ بنو تميم القتال وتفرقوا ثلاث فرق، واحدة مع بحير بن ورقاء فتوجه بهم إلى أبرشهر، وثانية مع شماس بن دثار إلى سجستان، ومضى الحريش إلى ناحية مرو الروز.

أما ابن خازم فلحق الحريش بقرية من قرى مرو الروز يقال لها الملحمة (أو قصر الملحمة) علماً أن الحريش كان قد تفرق عنه جلّ أصحابه، وهناك التقى ابن خازم مع الحريش، وجرى بينهما صلح على ألا يعود الحريش إلى خراسان، وألا يقاتله، وأعطى ابن خازم الحريش أربعين ألف درهم وضمن له قضاء دينه، ثم تفرق جمع بني تميم.

ذكرنا تفرق بني تميم إلى فرق، ففرقة منهم كانت قد نزلت قصر فرتنا، وقوامها ما بين سبعين إلى ثمانين رجلاً يقودهم عثمان بن بشر بن المحتفز المزني، فلما فرغ ابن خازم من الحريش توجه إليهم فحصرهم، وخندق حول قواته خندقاً حصيناً، ولما طال الحصار طلبوا من ابن خازم الخروج من القصر وأن يتفرقوا، فرفض طلبهم إلا إذا نزلوا على حكمه، فرفضوا، وتجدد القتال، إلا أنهم في النهاية خرجوا إليه فأراد أن يمنّ عليهم لكن ابنه موسى هدده بقوله له: «أما والله لئن عفوت عنهم لأتكئن على سيفي حتى يخرج من ظهري»[2]، فأمر بقتلهم جميعاً إلا ثلاثة.

---

[1] كان محمد بن عبد الله بن خازم قد خرج فأخذوه وقيدوه وعذبوه ثم قتلوه.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٦٦هـ ـ ج٦ ـ ص٧٩.

وتوالت الأحداث الجسام سنة (٦٦هـ ـ ٦٨٥م) على الدولة الأموية، من ذلك وثوب المختار ابن أبي عبيدة بالكوفة طالباً بدم الحسين بن علي، وقتلهُ قَتَلةَ الحسين بن علي، وازدياد أهمية ابن الزبير، وسيطرته على رقعة واسعة من الدولة وتوزيعه العمال، إلا أن وجود المختار وصراعه مع ابن الزبير، وكلاهما خصوم للدولة الأموية، كان من العوامل المساعدة لعبد الملك للتخلص من أحدهما، وبالفعل تمكن ابن الزبير من القضاء على حركة المختار الذي تمكن من قتل عبيد الله بن زياد، وأصحابه بواسطة إبراهيم ابن الأشتر وذلك سنة (٦٧هـ ـ ٦٨٦م)، ومن الأحداث الأخرى التي قضت مضاجع الأمويين كانت الخوارج.

إذاً كانت المهمة التي ألقيت على عاتق عبد الملك بن مروان مهمةً شاقة وصعبة، وهي إعادة توحيد العالم العربي الإسلامي مشرقه ومغربه، فأخذ يعد نفسه لمواجهة هذه الأحداث، وكل الطرق مشروعة له لتحقيق أهدافه، فاعتمد على قادة محنكين كان لهم الفضل في ما وصلت إليه الدولة، كما استعمل أسلوب الإيقاع بالخصوم سواء بالمكر أو بالدس، أو بأي أسلوب يجده أنفع ويصل به إلى غايته.

وكانت الظروف البيئية والاقتصادية والسياسية كثيراً ما تقف حائلاً أمامه فمثلاً عام (٦٨هـ ـ ٦٨٧م) حدث قحط بالشام أثر على الوضع الاقتصادي والاجتماعي حتى لم يقدر أهل الشام من شدته على الغزو[1] لكن رغم ذلك اتخذ إجراءات هامة منها إرساله طارق بن عمرو[2] (مولى ابن عثمان بن عفان) وأمره أن ينزل بين أيلة (العقبة)[3]، و وادي القرى[4] ليمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، وأن يحفظ ما بينه، وبين الشام حيث بقي هناك إلى أن أمره عبد الملك بالالتحاق بالحجاج عندما وجه الأخير لحرب ابن الزبير، حيث اشترك معه في حصار مكة، وقتل ابن الزبير كما سيرد. وفي خضم هذه الأحداث خرج عليه أحد القادة الأمويين هو عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) وكان خروجه سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م).

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٢٨٧.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص٤٣١.

(3) العقبة: منزل في طريق مكة بعد واقصة، وقبل القاع لمن يريد مكة، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٣٤ ـ وايله: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٩٢.

(4) وادي القرى: وادي بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٤٥.

خروج عمرو بن سعيد: هو عمرو بن سعيد ـ المعروف بالأشدق ـــ أمه أم البنين بنت الحكم بن أبي العاص، أخت مروان بن الحكم لأبيه وأمه، وليّ المدينة لمعاوية بن أبي سفيان، ثم ولاه يزيد بن معاوية.

عندما آلت السلطة إلى مروان بن الحكم ـ وقد ورد ذلك ـ كان قد شرط على مروان حين ذاك أن الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، ثم لعمرو بن سعيد[1] بن العاص من بعده، وأن مروان لا يغير ذلك ولا يعترض فيه، ولخالد بن يزيد إمرة حمص، ولعمرو بن سعيد إمرة دمشق، ولما استقر أمر مروان غدر بهما، وعقد العهد بعده لابنه عبد الملك.

كان عمرو بن سعيد يعتد بمواقفه الداعمة للمراونيين، وإعادة الدولة إليهم ابتداءً من مرج راهط، وكان يرى أن له الفضل في استعادة مصر إلى كنف المروانيين، وهو الذي هزم مصعب بن الزبير على تخوم الشام سنة (٦٥هـ ـ ٦٨٤م)، وبعد هذا كله أبعده عن الخلافة، فشعر عمرو بعد ذلك بالظلم، فدفعه ذلك إلى الانتفاضة علّه ينال حقه المغتصب الذي هدره مروان بن الحكم، وأشخص عليه عبد الملك بن مروان.

من المعلوم أن المؤرخين يختلفون في انتفاضة عمرو بن سعيد، فبعضهم يذكر أنها كانت سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م)، وبعضهم قال إنها كانت سنة (٧٠هـ ـــ ٦٨٩م)، وبعضهم الآخر يروي أن عمرو بن سعيد كان قد ترك عبد الملك أواخر سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م)، وكان قتله سنة (٧٠هـ ـــ ٦٨٩م) وهذا أقرب إلى الصواب.

ويذكر المؤرخون[2] أنه كان بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد خلافات وأضغان وشر قديم، من ذلك أن أم مروان بن الحكم كانت إذا اجتمع ابنا سعيد (عمرو ـــ محمد)، وابنا مروان (عبد الملك ـ معاوية)، كانت كلما أتوها يتحدثون عندها، وكانت إذا أتوها هيأت لهم طعاماً، ولكل واحد منهم على حده، وكانت تحرض بعضهم ضد بعض فكانوا يقتتلون، ويتنازعون فلا يكلم بعضهم بعضاً فكانت تقول: إن لم يكن عند هذين عقل فعند هذين، واستمرت على ذلك كلما أتوها حتى أثبتت الشحناء في صدورهم.

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤٦ ـ ص٤٤.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٦٩هـ ـ ج٦ ـ ص١٤٧.

بعد استقرار مروان في السلطة قرّر التوجه إلى قرقيسياء[1] سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م)، وفيها زفر ابن الحارث ومعه عمرو بن سعيد بن العاص[2]. أثناء ذلك قال عمرو بن سعيد، لعبد الملك إن أباك وعدني هذا الأمر من بعده فاجعله لي من بعدك، فلم يجبه عبد الملك، فلما كان عبد الملك ببطنان حبيب[3] خرج عمرو بن سعيد ليلاً ومعه بعض أصحابه ـ حميد بن حريث الكلبي ـ وزهير بن الأبرد الكلبي ـ فقدم دمشق، وعليها عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، وقد استخلفه عبد الملك عليها، فلما دخلها عمرو هرب منها فغلب عمرو على خزائنها، وهدم دار ابن أم الحكم، وجمع الناس إليه فمناهم ووعدهم وقال: «أيها الناس إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أن له جنةً وناراً يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليّ من ذلك بشيء غير أن لكم عليّ حسن المواساة والعطيّة ونزل»[4].

علم عبد الملك بن مروان بخبر عمرو بن سعيد، فما كان منه إلا أن رجع إلى دمشق، فقاتل عمراً بها أياماً، وكان عمرو خلال هذا القتال إذا أخرج حميد بن حريث الكلبي على الخيل، أخرج إليه عبد الملك سفيان بن الأبرد الكلبي أي كلاهما من القبيلة نفسها، واستمر قتالهما أياماً، وأكثر الخسائر البشرية من قبيلة كلب، لذلك تدخلت النساء والأطفال، فقلن لسادة قبيلة كلب ـ كسفيان ابن الأبرد ـ وابن بحدل الكلبي: علام تقتلون أنفسكم لسلطان قريش، عند ذلك اصطلح عبد الملك ابن مروان، وعمرو بن سعيد، وكتبا بينهما كتاب أمان فيه: أن يكون عمرو بن سعيد ولي العهد بعد عبد الملك، وأن يكون لكل منهما عامل.

بعد الصلح خرج عمرو بن سعيد في الخيل وهو متقلد قوساً سوداء، فأقبل حتى أوطأ فرسه أطناب سرادق عبد الملك، فانقطعت الأطناب وسقط السرادق، ونزل عمرو فجلس، في هذا الوقت

---

(1) قيل أن حركة عبد الملك بن مروان هذه كانت سنة ٧٠هـ.

(2) اختلف في ذلك فبعضهم يذكر أن حركته هذه كانت عندما استخلف على دمشق من قبل عبد الملك عند خروجه منها، وقيل إن خروج عمرو كان عند مسير عبد الملك إلى العراق يريد مصعب بن الزبير، وقيل خرج عبد الملك عام ٦٩هـ إلى عين الورد وقد استخلف على دمشق عمرو بن سعيد فتحصن الأخير فيها، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤٦ ـ ص٤٢، الطبري ـ تاريخه ـ ج٦ ـ ص١٤٠، ابن الأثير ـ الكامل ـ ج٤ ـ ص٢٩٧، للمسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٠٩، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٣٠٧.

(3) بطنان حبيب ـ أرض بالشام ـ أسفل قنسرين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤٤٦.

(4) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص١٤١.

غضب عبد الملك، فسأل عمراً: كأنك تتشبه بتقلدك هذه القوس بهذا الحي من قيس، فرد: إني أتشبه بمن هو خير منهم العاص بن أمية، ثم خرج مغضباً فدخل دمشق ثم دخل عبد الملك من بعده.

بعد دخولهما دمشق بعث عبد الملك إلى عمرو يطلب منه أن يعطي الناس أرزاقهم، فردّ عمرو: إن دمشق ليست لك ببلد فارحل عنها، وبعد ذلك بأيام قليلة، بعث عبد الملك إلى عمرو أن يأتيه، فلما بلغ رسول عبد الملك عمراً دعوته وجد عنده عبد الله بن يزيد بن معاوية[1]، فأشار الأخير على عمرو ألا يأتيه، لأنه ذكر أن عظيماً من عظماء ولد إسماعيل يرجع فيغلق أبواب دمشق، ثم يخرج منها فلا يلبث أن يقتل[2].

فقال عمرو: والله لو كنت نائماً ما تخوفت أن ينبهني ابن الزرقاء، ولا كان ليجرؤ على ذلك مني، وقال: إني رأيت في المنام عثمان بن عفان ألبسني قميصه، وأكد عمرو للرسول بقدومه عليه، وحدد وقت العشاء موعداً لذلك. في الوقت المحدد لبس عمرو درعاً حصينة بين قباء وقميص، وتقلد سيفه، فلما أراد الخروج عثر بالبساط، فقال له بعض الحضور: إن أطعتني لم تأته، وقالت له امرأته ـ وهي من قبيلة كلب ـ أيضاً: مثل ذلك، فلم يقنع ومضى ومعه مائة رجل من مواليه.

كان عبد الملك بن مروان قد جمع عنده بني مروان، وفيهم حسان بن مالك بن بحدل، وقبيصة بن ذؤيب، فلما بلغه أن عمرو بن سعيد بالباب أمر أن يحبس من كان معه، وأذن له بالدخول وحده، فدخل قاعة الدار، ومعه أحد أتباعه فقط فلما رأى اجتماع بني مروان، ومن معهم أحس بالخطر، فقال عمرو لمن معه انطلق إلى يحيى بن سعيد فأمره أن يأتيني، فقال: لبيك، ولم يفهم ما أمره به عمرو، ثم إن عبد الملك أمر بالأبواب فأغلقت، ودخل عمرو فرحب به عبد الملك، وأجلسه معه على السرير، وأخذ يحدثه طويلاً[3].

بعد ذلك أمر عبد الملك غلامه أن يأخذ السيف من عمرو، فأخذه منه ثم تحدثا، فقال عبد الملك لعمرو: اني أقسمت إن أنا قدرت عليك وأنا أستطيع أن أجمعك في جامعة، فقال بنو أمية ثم

---

[1] كان عبد الله بن يزيد زوج أم موسى بنت عمرو بن سعيد.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص١٤٢.

[3] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١١٧.

تطلقه، فقال: ثم أطلقه، فقال بنو مروان لعمرو: أن ير بقسم عبد الملك، وأخرج عبد الملك جامعةً كانت تحت فراشه فطرحها لعمرو، ثم قال لغلامه: قم فاجمعه فيها، فجمع كما أمره عبد الملك، عند ذلك قال عمرو: أذكرك الله أن تخرجني منها على رؤوس الناس، فرفض عبد الملك، وقال: أمكراً عند الموت.

بعد ذلك اجتذب عبد الملك الجامعة، وفيها عمرو، فأصاب فمه السرير فكسر ثنيته، أثناء ذلك طلب عمرو الرحمة والبقاء، فقال له عبد الملك: ما اجتمع رجلان في بلد على مثل ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه، فلما آيس عمرو من وضعه قال لعبد الملك: أغدراً يا بن الزرقاء.

في هذا الوقت أذن المؤذن العصر، فخرج عبد الملك ليصلي بالناس، بعد أن أمر أخاه عبد العزيز بن مروان أن يقتله[1]، فقام عبد العزيز والسيف بيده ليقتل عمراً فقال له الأخير: أرجو أن يقتلني غيرك، فرقّ عبد العزيز، وترك السيف و لم يقتله، وجلس ينتظر عبد الملك ما هو فاعله.

عاد عبد الملك بعد الصلاة مسرعاً إلى البيت، وأغلقت الأبواب، علماً أن الناس عندما خرج عبد الملك إلى الصلاة لم يروا معه عمراً، فأعلموا يحيى بن سعيد، فأقبل الأخير في الناس إلى باب عبد الملك، ومعه ألف عبد لعمرو إضافةً إلى بعض أصحابه، وأقبل معه حميد بن حريث، وزهير بن الأبرد، فكسروا باب المقصورة، وضربوا الناس بالسيوف، وأصيب أثناء ذلك الوليد بن عبد الملك بالسيف على رأسه، فأخذ فأدخل بيت القراطيس فعولج.

إذاً عاد عبد الملك إلى البيت وعمرو مازال حياً، فسأل عبد العزيز: ما منعك من قتله، فقال: ناشدني الله والرحم[2] فرققت له، بعد ذلك دعا عبد الملك بحربة ليطعن بها عمراً فلم تفعل شيئاً لأن عمراً كان مدرعاً، فأمر عبد الملك بسيف الصمصامة، فأخذه وضرب به عمراً فصرعه ثم جلس على صدره فذبحه، بعدها أخذ عبد الملك فوضع على سريره، ثم إن يحيى بن سعيد دخل، ومن معه على بني مروان الدار، وحدث قتال بين الطرفين، في هذا الوقت دفع عبد الرحمن بن أم الحكم الرأس إلى الناس، وأخذ عبد العزيز بن مروان المال فجعل يلقيه على الناس، فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس انتهبوا الأموال وتفرقوا.

---

[1] قيل إن عبد الملك كان قد أمر غلامه أبا الزعيزعة بقتل عمرو فقتله وألقى رأسه على الناس.

[2] كان عبد الملك من أم غير أم عبد العزيز.

وذكر أن عبد الملك كان قد أمر بالأموال التي طرحت إلى الناس فجيء بها، وأمر بسريره فأبرز فجلس عليه، ثم أمر أن يقتل يحيى بن سعيد إلا أن عبد العزيز بن مروان تشفع له فأمر به فحبس، وحبس معه عنبسة بن سعيد، ثم أخرجوا بعد ذلك بوقت قصير، ووجههم إلى مصعب بن الزبير[1]، كما التحق بمصعب أيضاً عبد الله بن يزيد القسري، وأخوه خالد لأنهما كانا مع يحيى بن سعيد.

إعادة ضم العراق وقتل مصعب بن الزبير: لم يكد عبد الملك يتخلص من فتنة عمرو بن سعيد، حتى ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام من العرب المسلمين وذلك سنة (٧٠هـ - ٦٨٩م)، فاضطر أمام الواقع الصعب الذي هو فيه إلى صلح ملك الروم على أن يؤدي له في كل جمعة ألف دينار، وغايته التفرغ لابن الزبير، فبدأ بمصعب بن الزبير وله العراق من قبل أخيه.

تحرك عبد الملك بن مروان إلى العراق، وعليها كما ذكرنا مصعب سنة (٧١هـ - ٦٩٠م)، فتمكن من قتله ومن السيطرة على العراق، فبايعه أهلها، واستعمل العمال، فأمرهم بالإحسان إلى أهل الطاعة، والشدة على أهل المعصية، فولى الكوفة قطن بن عبد الله الحارثي لمدة أربعين يوماً ثم عزله، وولى عوضه بشر بن مروان، وولى البصرة وأعمالها خالد بن عبد الله، وبعد أن استقر الأمر له بالعراق عاد إلى الشام، كما أثبت المهلب بن أبي صفرة على خراج الأهواز ومعونتها، وبعث عامر بن مسمع على سابور[2]، ومقاتل بن مسمع على أزدشير خره[3]، والمغيرة بن المهلب على أصطخر.

كان عبد الملك قبل أن يغادر العراق قد قال له الحجاج بن يوسف إني رأيت في منامي أني أخذت ابن الزبير فسلخته، وطلب منه أن يوجهه إليه ويوليه قتاله، فوافقه عبد الملك، وأرسله في جيش قوي من أهل الشام، وضم إليه فيما بعد طارق بن عمرو، وكان في خمسة آلاف مقاتل فتمكن الحجاج من الحجاز، وقتل ابن الزبير سنة (٧٣هـ - ٦٩٢م)، وبذلك عادت سيطرة الدولة الأموية على جميع أقاليمها موحدةً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً.

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص١٤٦.

(٢) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس ومدينتها النوبندجان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٦٧.

(٣) اردشيرخره: من أجل كور فارس - ومنها مدينة شيراز وغيرها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٤٦.

ذكرنا موقف زفر بن الحارث وهروبه إلى قرقيسياء وسيطرته عليها، وكان قد بايع ابن الزبير، فلما تسلم عبد الملك السلطة كتب إلى أبان بن عقبة بن أبي معيط، وهو على حمص يأمره أن يسير إلى زفر بن الحارث. جمع أبان قواته وتوجه بها إلى زفر بعد أن أرسل على مقدمته عبد الله بن زميت الطائي، فواقع الأخير زفر قبل وصول القوات الرئيسية، فقتل من المقدمة عدد كثير، وتفشت في البقية الجراح، ولما وصل أبان لام وأنّب قائد المقدمة على عجلته، واشتبك الطرفان في قتال عنيف قتل فيه وكيع ابن زفر وحوصر في قرقيسياء[1] دون نتيجة.

بعد ذلك قرر عبد الملك سنة (٧١هـ - ٦٩٠م) كما يذكر ابن الأثير[2] التوجه إلى قرقيسياء والقضاء على زفر الذي ناصب الدولة الأموية العداء ابتداءً من مرج راهط، فلما وصل عبد الملك إلى قرقيسياء حاصر زفر بها، ونصب عليها المجانيق، ورميت المدينة فأصيبت أبراجها وتضعضعت، في هذا الوقت دعا زفر ابنه الهذيل، وأمره أن يخرج ببعض القوات، وقال له لا ترجع حتى تضرب فسطاط عبد الملك والله لئن رجعت دون ذلك لأقتلنك، وتقابل الهذيل مع قوات عبد الملك، فكشفهم وتبعهم بخيله حتى وطؤوا أطناب فسطاط عبد الملك وقطعوا بعضها، واستمر القتال دون أي فائدة.

عند ذلك أمر عبد الملك أخاه محمد أن يعرض على زفر بن الحارث الأمان له ولمن معه، وأن يعطيه ما أحب، فالتقى مع الهذيل فكلمه فأوصل الهذيل الخبر إلى أبيه زفر، فقال الهذيل لأبيه لو صالحت الرجل فقد أطاعه الناس وهو خير لك من ابن الزبير، فوافق زفر على أن له الخيار في بيعته، وأن ينزل حيث شاء، وألا يعين عبد الملك على قتال ابن الزبير. في هذا الوقت وقعت أربعة أبراج من أبراج قرقيسياء، فعلم عبد الملك بذلك فقال: لا أصالحهم ثم أمر بمهاجمتهم، فهزم أصحابه حتى دخلوا معسكره، عند ذلك قال عبد الملك: أعطوهم ما أرادوا، ثم استقر الصلح بين الطرفين على أمان الجميع، ووضع الدماء والأموال، وألاّ يبايع عبد الملك حتى يموت ابن الزبير لأن للأخير بيعة في عنقه، وأن يعطى مالاً يوزعه على أصحابه.

ورغم ذلك خاف زفر من غدر عبد الملك بن مروان، فلم ينزل إليه إلا بعد أن أرسل إليه بقضيب النبي - صلى الله عليه وسلم - أماناً له، عند ذلك نزل فلما دخل على عبد الملك أجلسه معه

---

[1] عبد الأمير حسين دكسن - الخلافة الأموية - ٦٥-٨٦هـ /٦٨٤-٧٠٥م - دراسة سياسية - طبع بيروت ١٩٧٣م - ص١٥١.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٣٧.

على سريره، بعدها أمر زفر ابنه الهذيل أن يسير مع عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير، وذكر أن الهذيل كان قد هرب إلى مصعب[1] فقاتل معه، فلما قتل ابن الأشتر اختفى الهذيل بالكوفة، حتى استؤمن له من عبد الملك فأمنه.

بعد ذلك جمع عبد الملك الكوفة والبصرة لبشر بن مروان[2] سنة (٧٣هـ ــ ٦٩٢م)، فلما شخص بشر إلى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن جريث، كما عزل طارق بن عمرو عن المدينة[3]، واستعمل عليها الحجاج وذلك سنة (٧٤هـ - ٦٩٣م)، وخلال وجود الحجاج بالحجاز نقض بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير قد بناه فأعادها الحجاج إلى ما كانت عليه، وكان الحجاج أثناء وجوده بالمدينة يعبث بأهلها، واستخف بأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وختم على أعناقهم ومن هؤلاء: أنس بن مالك، وسهل بن سعد، وبعضهم الآخر ختمه في يده.

ثم إن عبد الملك عزل بكير بن وشاح عن خراسان[4]، وولاها أمية بن عبد الله كما ولى عبد الملك سنة (٧٥هـ ــ ٦٩٤م) الحجاج بن يوسف العراق[5] دون خراسان وسجستان، فأقبل إلى الكوفة وهو متلثم بعمامة حمراء فلما اجتمع إليه الناس كشف عن وجهه، وقال خطبته المشهورة حيث حدد فيها سياسته باعتماده العنف، والتنكيل والبطش، وأكد على عدم اعتماده القوانين في علاقاته مع الناس، فكان يقضي على كل مخالفة أو تمرد أو اعتراض، أو ما شابه ذلك، بأقسى أنواع الشدة والعنف كما سيرد عند الحديث عن الحجاج.

تمرد عبد الله بن الجارود: ذكرنا أن الحجاج جمعت له الكوفة والبصرة فخرج في أول شعبان سنة ٧٥هـ، إلى البصرة بعد أن استخلف على الكوفة عروة بن المغيرة، فقام فيها خطيباً، وتوعد وقتل بعض أهلها ظلماً، فثار الناس هناك ضده يقودهم عبد الله بن الجارود[6]، وكان من أسباب حركة الناس هناك أن العطاء لم يكن كما كان في عهد عبد الله بن الزبير.

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٤١.

[2] اختلف المؤرخون في سنة تولية بشر بن مروان العراق فابن خياط يذكر أنه ولاه العراق سنة ٧٤هـ - ابن خليفة - تاريخه - ص٢٧٣ ــ بينما يذكر الطبري أنه ولاه العراق سنة ٧٣هـ الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص١٩٤.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص١٩٥.

[4] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٦٧.

[5] اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٢٧٣.

[6] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج١٣ - ص١٢٩.

بايع أهل البصرة الجارود على إخراج الحجاج من العراق، والطلب من عبد الملك عزله وإن رفض ذلك خلعه، علم الحجاج بذلك، فأرسل رسولاً من قبله إلى الجارود يستدعيه فرفض، وأقبل بمن معه نحو الحجاج، فنهبوا فسطاطه، وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه وانصرفوا عنه، و لم يبق معه إلا القليل.

كان مع الحجاج كل من عثمان بن قطن، وزياد بن عمرو العتكي، وكان الأخير على شرطة البصرة، فقال زياد للحجاج: أرى أن نأخذ أماناً من القوم، ونخرج إلى الخليفة[1]، فقال عثمان بن قطن للحجاج، وا لله إن فعلت ذلك فقدت من الخليفة مثل الذي أنت فيه من سلطان، وأكد على القتال فوافقه الحجاج، معنى هذا أن الحجاج كان في موقف ضعيف وبعض أصحابه انهارت روحهم المعنوية إلا أن الحجاج صمم على الصمود، خشية على ما بيده من سلطة، في هذا الوقت التحق بالحجاج عباد بن الحصين، ومعه مائة رجل فقوي بهم، وأقبل أيضاً قتيبة بن مسلم في قومه، ثم قدم عليه بعض القادة، وراسله بعضهم كمسمع بن مالك، وقال له: إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت، وثبطت الناس عنك، فأمره بالاقامة وتثبيط الناس.

فلما اجتمع الناس إلى الحجاج عبأهم، وكان قوامهم آنذاك نحو ستة آلاف، ثم التقى الطرفان بعد أن عبأ كل منهما أصحابه، فقتل الجارود بسهم. عند ذلك نادى منادي الحجاج بأمان الناس، وأمر أصحابه أن لا يتبعوا المنهزمين، وحمل رأس الجارود، وثمانية عشر رأساً من وجوه أصحابه إلى المهلب فنصبت لتكون عبرةً لغيرهم. بعد ذلك اشتد أمر الخوارج فخرج صالح بن مسرح من بني امرىء القيس، وكان يرى رأي الصفرية، وقيل إنه كان أول من خرج منهم، وخرج أيضاً شبيب.

بعد أن استقر أمر عبد الملك السياسي والعسكري سعى إلى تحرير الاقتصاد، سنة (٧٦هـ ـ ٦٩٥م)، وجعله عربياً صرفاً، فنقش الدنانير والدراهم، فكان أول من ضربها كما يذكر المؤرخون، وكانت مثاقيل الجاهلية، التي ضرب عليها عبد الملك اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة، وكانت العشرة بوزن سبعة.

ثورة الزنج سنة (٧٥هـ ـ ٦٩٤م): تذكر المصادر أن خروج هؤلاء كان للنهب

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٨٣.

والتخريب وهدفهم كما أرى هو رفع مستواهم الاقتصادي والاجتماعي بالدرجة الأولى، فابن الأثير[1]: يذكر: أن الزنج اجتمعت بقوات البصرة في آخر أيام مصعب بن الزبير، وعددهم قليل فأخذوا يفسدون هناك ويجنون الثمار، ومع ذلك تجنبهم مصعب بن الزبير، فلما ولي خالد بن عبد الله بن خالد البصرة من قبل الخليفة الأموي عبد الملك، وقد كثر عدد الزنج وكثر أذاهم. شكا الناس إلى الوالي الجديد الأضرار والأذى الذي يلحقه الزنج بهم، فجمع الوالي جيشاً ووجهه إليهم، فلما علموا بذلك الجيش تفرقوا إلا أنه تمكن من بعضهم فقتلهم وصلبهم.

إذاً كما أرى إن حركة هؤلاء لم يكن هدفها سياسياً، إنما كان اجتماعياً، غايتهم تحسين وضعهم الاجتماعي المتردي، كما يذكر ابن الأثير بأنهم كانوا يفسدون ويجنون الثمار، فمعنى جنيهم للثمار كان لتحسين معيشتهم كما أرى، وجني الثمار من قبلهم يضر ويفسد مصالح غيرهم طالما الأرض والأشجار المثمرة لغيرهم، فهذا إذاً يعني إفساد اقتصاد غيرهم.

إذاً كانت الظروف الصعبة السائدة في عهد مصعب بن الزبير هي المانعة من اتخاذ أي إجراء ضد الزنج وتمردهم، ونهبهم للمحاصيل الزراعية وإفسادهم، لكن بعد مقتل مصعب، ولي خالد بن عبد الله البصرة، فشكا الناس له أمر الزنج وأفعالهم فتمكن منهم وبددهم.

لم تخمد ثورة الزنج نهائياً لأن أسباب قيامها كما أرى لم تعمل على تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، إنما ازدادت تعقيداً في عهد الحجاج بن يوسف، الذي زرع الخوف والرعب، وأكثر من القتل والتدمير حتى قيل إنه لم يزرع شجرةً واحدة خلال عهده، إذاً ثار الزنج مرةً أخرى في عهد الحجاج الذي كثر في عهده التمرّد والخروج على السلطة نتيجة سياسته القائمة على العنف والقتل.

ثار الزنج في هذه المرحلة، إلا أن حركتهم هذه المرة كانت منظمةً لها هدفها السياسي، والذي يدعونا للقول إنها أصبحت منظمة. أن الزنج لم يكونوا وحدهم كما في السابق، إنما انضم إليهم أمثالهم من الناحية الاقتصادية والاجتماعية كالعبيد السود، يقول البلاذري: ان أهل الكلأ[2] وأناساً بيضاً آخرين كانوا قد اتحدوا مع الزنج والعبيد، وقيل إن الموالي الفرس انضموا أيضاً

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٨٨.

[2] يقصد بأهل الكلأ الشرط الذين كانوا يتبعون الكلأ في منطقة الطفوف.

إلى الثورة.

كانت الثورة في هذه المرحلة منظمة كما ذكرنا، اتخذت لها قائداً اسمه رياح ولقبه (أسد الزنج) حيث استطاع هذا القائد أن يمد نفوذه على منطقة واسعة من الفرات، والأيلة التي كان كراز ابن مالك السلمي والياً عليها من قبل الحجاج بن يوسف، فقد هرب هذا الوالي لعدم قدرته على مقاومة الثورة، واتخذ قائد الثورة لنفسه لقب أمير المؤمنين، مما يؤكد طموحه السياسي.

كان الحجاج كما ذكرنا مشغولاً بالجارود. إلا أنه بعد إخماد حركة الجارود كما ورد أرسل جيشاً إلى قائد الزنج (رياح شير زنجي) يقوده حفص بن زياد بن عمر العتكي، وجرى اشتباك بين هذا الجيش والزنج هزم فيه جيش الحجاج، وقتل قائده حفص، فلما علم الحجاج بما ورد، قدر الموقف بدقة ولجأ إلى السياسة، وهي عادة كانت متبعة في العصر الأموي.

جمع الحجاج أشراف البصرة وسادتها، وهددهم كعادته بأشد العقوبات إذا لم يعملوا جاهدين بوضع حدّ لعبيدهم ومواليهم، ومن لهم السيطرة عليه من الذين كانوا ضمن أعداد ثورة الزنج، فوعدوه بتقديم كل عون ومساعدة للقضاء على هذه الثورة، فأمدوا عامله المهزوم كراز بن مالك السلمي بما لديهم من قوات وتجدد القتال بين الطرفين، حيث تراجع الزنج أمام كراز بن مالك إلى صحراء الدورق، حيث دارت معركة حاسمة قتل فيها قائد الزنج وقتِلَ أكثر أتباعه.

خروج مطرف بن المغيرة سنة (٧٧هـ - ٦٩٦م): وسبب ذلك أن الحجاج كان قد استعمل عروة بن المغيرة على الكوفة، ومطرف بن المغيرة على المدائن[1]، وحمزة بن المغيرة على همذان[2].

أما مطرف فنزل المدائن وجلس للناس فقدم عليه حكم بن الحارث وهو من أشراف الأزد وكان الحجاج قد استعمله على بيت المال، إن مطرفاً كتب إلى الحجاج يخبره أن شبيباً قد أقبل نحو المدائن، وطلب منه أن يمده برجال لكي يضبط المدائن من جهة ويتمكن من مواجهة شبيب من جهة أخرى، فبعث إليه الحجاج سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف في مائتين، وعبد الله بن كناز في مائتين.

[1] المدائن: كانت المدائن مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية بناها انوشروان بن قباذ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٧٤.

[2] همذان: أكبر مدينة بالجبال وكانت أربع فراسخ في مثلها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤١.

أما شبيب فقدم بعد أن عبر دجلة فنزل مدينة بهرسير[1] علماً أن مطرفاً كان في المدينة العتيقة التي فيها منزل كسرى والقصر الأبيض[2]. أثناء ذلك قطع مطرف الجسر الذي يصل بينه وبين شبيب ثم أرسل يطلب منه بعض أصحابه يدارسهم القرآن، ويعلم منهم إلى ما يدعو إليه شبيب، فبعث إليه بعض أصحابه[3]، وأرسل مطرف إلى شبيب بعض أصحابه[4].

دخل أصحاب شبيب وعددهم ستة على مطرف وهم بسلاحهم، فقال أحدهم: السلام على من خاف مقام ربه، وعرف الهدى وأهله، فرد عليه مطرف، ثم جلسوا فقال لهم مطرف: قصوا عليّ أمركم، وماذا تطلبون، وإلام تدعون، فقال أحدهم واسمه سويد بن سليم: إنا ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ونقمنا على قومنا، الاستئثار بالفيء، وتعطيل الحدود، والتسلط بالجبرية، فقال لهم مطرف: أنا لكم على ما ذكرتم لمتابع، فتابعوني، إلى ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم، وتكون أيدينا واحدة، فقالوا: وأنت اذكر ما تريد.

فقال: إني أدعوكم إلى مقاتلة هؤلاء الظلمة العاصين على أحداثهم التي أحدثوها «وأن ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون من يرضون لأنفسهم على المثل الخالد الذي تركهم عليه عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضا من قريش رضوا وكثر تبعكم منهم وأعوانكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون»[5]. فقالوا له: هذا ما لا نجيبك إليه أبداً، ورجعوا إلى شبيب، فأعلموه بما حدث، وتفاءل في ما ورد، وأمر أن يتوجه إلى مطرف أحدهم في صباح اليوم التالي.

وفي اليوم التالي قدم سويد بن سليم على مطرف بأمر شبيب، فلما اجتمع به قال: إن أمير المؤمنين، وكانوا يكنون شبيباً بذلك أمرنا أن نقول لك:

١ ـ إذا اخترنا لأنفسنا أرضانا فينا، وأشدنا اضطلاعاً لما حمل، فما لم يغير ولم يبدل فهو ولي أمرنا.

---

[1] بهرسير: من نواحي سواد بغداد غرب المدائن، وقيل هي احدى للمدائن السبع التي سميت بها المدائن ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٥١٥.

[2] القصر الأبيض: من قصور الحيرة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٥٤.

[3] منهم سويد بن سليم، والمحلل بن وائل.

[4] منهم الربيع بن يزيد الأسدي، سليمان بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني، يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة وكان على حرس مطرف.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ٧٧هـ ـ ج٦ ـ ص٢٨٧.

٢ ـ إنا لا نرى أن قريشاً أحق بهذا الأمر من غيرها من العرب، يقول الطبري:

«فإن زعم أنهم أحق بهذا الأمر من غيرهم من العرب، فقولوا له: ولِمَ ذاك؟ فان قال: لقرابة محمد ـ صلى الله عليه وسلم، فقولوا له: فوا لله ما كان ينبغي إذاً لأسلافنا الصالحين من المهاجرين الأولين أن يتولوا على أسرة محمد، ولا على ولد أبي لهب لو لم يبق غيرهم، ولولا أنهم علموا أن خير الناس عند الله أتقاهم، وأن أولاهم بهذا الأمر أتقاهم وأفضلهم فيهم، وأشدهم اضطلاعاً بحمل أمورهم ما تولوا أمور الناس»[1].

٣ ـ إنا أول من أنكر الظلم وغير الجور، وقاتل الأحزاب.

٤ ـ إن هو اتبعنا فله ما لنا وعليه ما علينا.

اتفق مطرف وسويد أن يجتمعا مرةً أخرى. بعد ذلك دعا مطرف وجوه أصحابه، وعلى رأسهم سليمان بن حذيفة المزني، والربيع بن يزيد الأسدي، فقال مطرف كما يذكر الطبري:

«وا لله ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً، أنكرها بقلبي، وأغيرها ما استطعت بفعلي وأمري فلما عظمت خطيئتهم، ومرّ بي هؤلاء القوم يجاهدونهم، ولم أر أنه يسعى إلى مناهضتهم وخلافهم إن وجدت أعواناً عليهم، وإني دعوت هؤلاء القوم فقلت لهم كيت وكيت، وقالوا لي كيت وكيت، فلست أرى القتال معهم، ولو تابعوني على رأيي وعلى ما وصفت لهم لخلعت عبد الملك والحجاج، ولسرت إليهم أجاهدهم»[2].

فقال له بعض الحضور: إنهم لن يتابعوك ولن تتابعهم، فاخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد، وقال: يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة بن شعبة، وا لله لا يخفى ما كان بينك وبينهم على الحجاج كلمة واحدة، وليزيدن على كل كلمة عشرة، ولا يمض هذا اليوم حتى يبلغ الحجاج خبرك، وإني أرى لك ترك المدائن، فتقرر في هذا المجلس الإجابة إلى ما دعاهم إليه من الخروج على عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف وتم ذلك، ثم أتاه أحد أتباع شبيب فقال لمطرف: إن تابعتنا فأنت منا، وإن أبيت فقد نابذناك فقال لهم لا تعجلوا اليوم.

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٧٧هـ ـ ج٦ ـ ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(2) المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٢٨٨.

بعث مطرف إلى أصحابه، وأمرهم بالتوجه إلى الدسكرة[1]، وفي طريقه إليها لقيه قبيصة بن عبد الرحمن بن خثعم فدعاه إلى صحبته فوافقه. بعدها نزل الدسكرة، وهناك جمع رؤوس أصحابه، وقال لهم: إني خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج، وخيرهم إما متابعته، وإما التخلي عنه فبايع أصحابه على ما ورد، ثم دعا سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف، عبد الله بن كناز النهدي فدعاهما إلى ما عزم عليه فوافقاه أيضاً.

خرج مطرف من الدسكرة متوجهاً نحو حلوان[2] علماً أن الحجاج بن يوسف كان قد بعث في تلك السنة سويد بن عبد الرحمن السعدي على حلوان وماسبذان[3]، فلما علم الأخير بقدوم مطرف على أرضه خرج إلى ملاقاته، وكان خروجه كالتعذير لأنه كان يحب أن يسلم من قتاله، وأن يعافى من الحجاج. وكان الحجاج بن جارية قد توجه إلى مطرف حين سمع بخروجه من المدائن نحو الجبل، في نحو من ثلاثين رجلاً من قومه وغيرهم، فسر مطرف بمقدمه، ومن معه وأجلسه معه على مجلسه.

ذكرنا أن سويد بن عبد الرحمن كان قد خرج بمن معه، وعددهم ما بين مائتين إلى ثلاثمائة فبقي هو في الرجال وقدم ابنه القعقاع في الخيل. فلما علم مطرف بهم دعا الحجاج بن جارية فسرحه إليهم في نحو من عدتهم، فلما رآهم سويد قد توجهوا نحو ابنه القعقاع أرسل إليهم غلاماً له فلما انتهى إلى الحجاج بن جارية أسر إليه إنا لا نريد قتالكم، فإن كنتم تريدون الخروج من بلادنا هذه فاخرجوا، فأمره الحجاج بن جارية أن يتوجه إلى مطرف يعلمه بالأمر، فتوجه إلى مطرف وأعلمه برغبة سويد بن عبد الرحمن، فقال مطرف: ما أريدكم ولا أريد بلادكم، فأمروه بطريق يلزمه حتى يخرج من البلاد، وفي طريقهم مروا بالأكراد فتقابلوا في قتال عنيف هزم فيه الأكراد وتقدم مطرف وأصحابه حتى دنوا من همذان فتركها وأخذ ذات اليسار، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على همذان فكتب إلى أخيه حمزة أن يمده بما يقدر عليه من المال والسلاح، فوافقه وأرسل

---

[1] الدسكرة: قرية كبيرة ذات قبة بنواحي نهر الملك من غربي بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٥٥.

[2] حلوان: حلوان العراق - هي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٩٠.

[3] ماسبذان: أصلها ماه سبذان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٤١.

إليه المال والسلاح، ثم توجه مطرف بأصحابه فنزل قم[1] وقاشان[2] وأصبهان[3]. وكتب مطرف إلى سويد بن سرحان الثقفي، وإلى بكير بن هارون البجلي:

١ - إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه.

٢ - جهاد من ترك الحق، وترك حكم الكتاب، واستأثر بالفيء.

٣ - أن يكون الأمر شورى إذا تمكنا من خصمنا.

فلما وصل كتاب مطرف إليهما قدموا عليه، ومعهم بحدود مائة من أهل الرأي، كما كتب البراء بن قبيصة (عامل الحجاج على أصبهان) إلى الحجاج بن يوسف بمحاربة مطرف إذا كان له رغبة في ذلك فرد الحجاج على البراء بن قبيصة يأمره بالتعسكر بمن معه فإذا مر به عدي بن وتاد يخرج معه وأن يسمع له ويطيع، فلما قرأ كتابه نفذ ما أمر به.

علم الحجاج بن يوسف بما كان يفعله حمزة بن المغيرة من تقديم العون لأخيه مطرف، فأرسل إلى قيس بن سعد العجلي، وكان على شرطة حمزة بن المغيرة يوليه همذان، وأمره أن يوثق حمزة بن المغيرة ويحبسه حتى يأتيه أمره، أخذ قيس بن سعد حمزة بن المغيرة فوضعه في السجن، وأعلم الحجاج بذلك، وكان حمزة بن المغيرة أشد خطراً على الحجاج، لأنه كان يمد أخاه مطرفاً بالسلاح والمال.

ثم كتب الحجاج إلى عدي بن وتاد، وكان بالري يأمره بالمسير إلى مطرف بن المغيرة، وأن تكون طريقه على البراء بن قبيصة، فإذا اجتمعوا فهو أمير الناس، نهض عدي بن وتاد بمن أطاعه من الناس، فكان قوام جيشه بحدود ستة آلاف مقاتل.

عندما علم مطرف بمسيرهم خندق على أصحابه، فلما أصبحوا مقابل بعضهم بعضاً عبأ كل طرف قواته ميمنةً وميسرةً وقلباً وزحف كل طرف نحو خصمه. عند ذلك قال مطرف لأحد أتباعه اخرج وادعهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وبلغهم بأعمالهم الخبيثة. فلم تجد هذه الوسيلة، فكان القتال حيث هاجم الحجاج بن جارية وهو على ميمنة مطرف خصمه واقتتلوا طويلاً فانكشفت ميسرة مطرف بن المغيرة وانتهت إليه فاستمر مطرف يقاتل حتى قتل واحتز رأسه، وقتل بعده

---

[1] قم: مدينة تذكر مع قاشان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٩٧.

[2] قاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٨٦.

[3] أصبهان: اسم لإقليم بأسره وهي من نواحي الجبل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٢٠٦.

صاحب رايته ودخلوا عسكره. من خلال تمرد مطرف بن المغيرة، نلاحظ أن السلطة الأموية لم تكن قوة متماسكة بالشكل المعروف ولو أن مطرفاً ساعدته الظروف كما يقول الطبري: «إن مطرفاً عمل عملاً حازماً لولا أن الأقدار غالبته»[1]، أي أن السلطة الأموية لولا الأقدار، وبزخ الأموال والدسائس التي كانوا يثيرونها بين القادة لما استقام لهم الأمر، وأكدت الثورات التي قامت ضد السلطة الأموية في كل أنحاء الدولة أن السلطة الأموية كانت غير مرغوبة، ولا محبوبة من عامة الشعب.

بعد ذلك عزل عبد الملك بن مروان أمية بن عبد الله عن خراسان سنة (٧٨هـ ـ ٦٩٧م) وضم خراسان وسجستان للحجاج، فولى المهلب بن أبي صفرة خراسان، وعبيد الله بن أبي بكرة سجستان.

تمرد بكير بن وساج على أمية بن عبد الله سنة (٧٧هـ ـ ٦٩٦م): في عهد عبد الملك أيضاً خرج بكير بن وساج على أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد سنة (٨٤هـ ـ ٧٠٣م) وكان عبد الملك قد ولاه خراسان عوضه، فولى أمية بكيراً غزو ما وراء النهر، وكان قد ولاه قبل ذلك طخارستان[2] فقال بحير بن ورقاء لأمية: إنه سيخلع الخليفة ويدعو لنفسه، عند ذلك قال أمية لبكير: لعليّ أغزو فتكون معي، عند ذلك غضب بكير.

بعد ذلك أجمع أمية على غزو بخارى[3]، ومنها يتوجه إلى موسى بن عبد الله بن خازم بالترمذ[4]، فاستخلف أمية على خراسان ابنه زياداً، وسار معه بكير فعسكر بكشماهن[5]، ثم تحرك فقال له بكير إني لا آمن أن يتخلف الناس فأمر بكيراً ليكن في الساق، فأمره أمية أن يكون على الساقه، ثم قطع أمية النهر، أثناء ذلك تذكر ابنه، وقد خاف ألا يضبط خراسان، فأمر بكيراً بالعودة

---

(1) الطبري تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٢٩٣.

(2) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشمل على عدة بلاد وهي من نواحي خراسان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٣.

(3) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأصلها كانت قاعدة ملك السامانية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٥٣.

(4) الترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبه على نهر جيحون من جانبه الشرقي متصلة العمل بالصغانيان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٢٦.

(5) كشماهن: قرية عظيمة من قرى مرو على طرف البريه آخر عمل مرو لمن يريد قصد أهل جيحون ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٦٣.

إلى مرو لكي يكفيه إياها وولاه أمرها، وأمره أن يقيم بأمر ابنه فاختار بكير فرساناً من فرسان خراسان يثق بهم ويعرفهم، أما أمية فمضى إلى بخارى، وعلى مقدمته أبو خالد ثابت مولى خزاعة.

ثم إن عتاب اللقوة قال لبكير: إنّا قتلنا أنفسنا وعشائرنا حتى ضبطنا خراسان ثم طلبنا أميراً من قريش يجمع أمرنا، فجاءنا أمير يلعب بنا يحولنا من سجن إلى سجن، فاتفقا سنة (٧٧هـ ـ ٦٩٦م) على حرق ما لديهم من سفن والتوجه إلى مرو، وهناك أخذ زياد ابن أمية فحبسه، ودعا الناس لخلع أمية فأجابوه.

بلغ أمية ما فعله بكير فصالح أهل بخارى، ورجع فأمر باتخاذ السفن فجمعت له، ثم عبر إلى مرو[1] بعد أن قدم شماس بن دثار على مقدمته، ومعه ثمانمائة مقاتل، فأقبل حتى نزل باشان[2] فسار إليه بكير فبيته وفرق جمعه، أما أمية فنزل كشماهن وقد رجع إليه شماس بن دثار، فقدم مقدمةً عليها ثابت بن قطبة مولى خزاعة، فلقيه بكير فأسر ثابتاً وفرق جمعه، ثم أقبل أمية في الناس، فقاتله بكير حتى انكشف أصحابه ثم التقوا مرةً أخرى في قتال أشد وتكرر القتال يوماً آخر فانكشف أصحاب بكير وأصيب بكير إلا أن أصحابه حملوه فأدخلوه المدينة، واستمر الحصار فطلب بكير الصلح بعد أن خاف طول الحصار وقد تركه أكثر أصحابه، فتم الصلح على أن يدفع له أمية أربعمائة ألف، ويصل أصحابه، ويوليه أي كور من كور خراسان شاء، و ألا يسمع قول بحير بن ورقاء فيه، ثم أخذ أمية له الأمان من عبد الملك بن مروان، وكتب له كتاباً على باب سنجان[3]، ودخل أمية المدينة. بعد ذلك قتل أمية بكيراً مع ولدين له لأنه كان يحرض الناس على الخروج ضده.

حركة قبائل الأزد في عمان: وجد الحجاج نفسه أمام حركة أخرى، إلا أن هذه الحركة اتصفت بأنها كانت شبه انفصالية، حيث قامت ثورة في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على ساحل الخليج العربي، وتحديداً في عمان[4] قادها ابنا عباد الجلندي هما (سعيد بن عباد، وسليمان بن عباد).

---

[1] مرو ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١١٢.

[2] باشان: من قرى هراة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٢٢.

[3] سنجان: قرية على باب مدينة مرو ـ يقال لها درسنكان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٦٣.

[4] عمان: اسم كورة على ساحل اليمن ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٥٠.

وكان العمانيون منذ بداية الإسلام قد حافظوا على وجود نظام سياسي مستقر عندهم قائم على أنه نظام شبه مستقل، فلما ولي الحجاج بن يوسف شعروا بأن هذا الاستقلال أصبح مهدداً، وساعدهم في العصر الأموي على ذلك عوامل كان من أهمها كثرة الصراعات، التي ألمت بالدولة الأموية. يضاف لذلك بعد هذه المنطقة عن عاصمة الدولة، وهي في منطقة جبلية صعبة الاجتياز. فلما ولي الحجاج قام بعدد من الحملات كانت نتيجتها استعادة النظام والاستقرار هناك، والقضاء على هذه الاستقلالية، أما عن هذه الحملات فهي شبه مجهولة من جهة بدايتها، والمعروف عنها أنها كانت قبيل ثورة عبد الرحمن بن الأشعث.

بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث أرسل الحجاج جيشاً يقوده القاسم بن شعوة المزني عبر البحر إلى عمان لكن هذا الجيش دحِر وقتِل قائده، فلما علم الحجاج بذلك غضب، وقرر الانتقام من أزد عمان، ولأجل ذلك وضع أشراف الأزد بالبصرة تحت المراقبة الشديدة لمنعهم من تقديم أي مساعدة لأزد عمان. وفي الوقت نفسه أعد جيشاً قوامه حسب الروايات[1] أربعون ألفاً من النزاريين فقط.

وجعل قيادة هذه الحملة إلى مجاعة بن شعوة المزني، فقسم الجيش إلى قسمين، قسم وجّه في البر، وقسم آخر وجه في البحر، فوصل القسم الذي توجه براً أولاً، وحدثت اشتباكات بين هذا الجيش، وأزد عمان الذين يقودهم سعيد بن الجلندي، بينما اشتبك سليمان بن الجلندي مع الجيش الذي قدم عن طريق البحر ومعه أكثرية أزدعمان فتمكن سليمان بن الجلندي من إحراق خمسين سفينة من سفن مجاعة، وهربت بقية السفن في البحر، وهزم مجاعة مع أتباعه إلى مكان يسمى جلفار[2]، حيث كتب إلى الحجاج يسأله الإمداد، فأرسل له الحجاج خمسة آلاف جندي من أهل الشام، بقيادة عبد الرحمن بن سليمان.

علم سليمان بن الجلندي بموقف أخيه سعيد، وقد حوصر لقلة من معه من قبل القوات، التي قدمت براً فتحرك لنصرته، وكان سعيد قد انسحب بقواته ليلاً، فالتجأ إلى الجبال فطارده خصمه وحاصره.

---

[1] عبد الأمير حسين دكسن ـ الخلافة الأموية ـ ٦٥ ـ ٨٦هـ ـ دراية سياسية ـ ص٢٤٢.

[2] جلفار: بلد بعمان عامر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٥٤.

في هذه المرحلة أدرك ابنا الجلندي وقد علما بإمداد الحجاج لجماعة بجيش قوي فقدّر ابنا الجلندي موقفهما فأدركا أنهما عاجزان عن الاستمرار، فقررا الهروب بكل ممتلكاتهما، وقضي بذلك على تمردهما، وعادت المنطقة إلى حظيرة الدولة في أمن واستقرار، وكان الحجاج قد عين والياً على عمان، فلم يلق هذا الوالي أية مصاعب لأن جماعة عندما دخلها كان قد عاقب أهلها لمساعدتهم الثائرين على السلطة.

ثورة ابن الأشعث: ذكرنا غزوة عبيد الله بن أبي بكرة لرتبيل ملك الترك، وكيف خدع رتبيل أبا بكرة وتقهقر أمامه وهو يتبعه حتى اقترب من عاصمة ملكه، عند ذلك أخذ رتبيل الطرق والشعاب وضيقوا المسالك على أبي بكرة وصالح رتبيل ابن أبي بكرة على أن يدفع الأخير لرتبيل سبعمائة ألف، على أن يفتحوا طريقاً للعرب المسلمين يخرجون منه، فاعترض شريح بن هانئ على الصلح وقاتل رتبيل هو وبعض أصحابه حتى قتل أكثر العرب المسلمين. بعد ذلك خرج ابن أبي بكرة ومن تمكن من الخروج من أرض رتبيل.

بلغ الحجاج ما حدث فأعلم عبد الملك بن مروان، وأخذ موافقته على إرسال جيش لتأديب رتبيل والترك، فأخذ الحجاج العمل في إعداد هذا الجيش، فلما كانت سنة (٨٠ هـ - ٦٩٩م) كلف الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بقيادة هذا الجيش الذي أنفق الحجاج على إعداده ألفي ألف سوى أعطياتهم[1]، وكان هذا الجيش يسمى جيش الطواويس.

كانت العلاقة الشخصية بين الحجاج، وابن الأشعث سيئة لدرجة، أن كلاً منهما كان يضمر الغدر للآخر. فالحجاج كان يقول: ما رأيته قط إلا هممت بقتله، وكان يقول أيضاً: والله لقد هممت بقتله. وكان ابن الأشعث يقول: وأنا والله لاجهدتُ أن أزيله عن سلطانه إن طال بي وبه البقاء. إذاً كانت النفوس مشحونة بالكره والبغض بينهما.

قاد ابن الأشعث الجيش إلى بلاد رتبيل، فلما بلغ الأخير قدوم ابن الأشعث، كتب إليه رتبيل يعتذر عن قتل العرب المسلمين الذين كانوا مع عبيد الله بن أبي بكرة، وطلب الصلح على أن يدفع الجزية، رفض ابن الأشعث مقترحات رتبيل وصمم دخول بلاده ونفذ ذلك.

---

[1] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣٤.

فاستحوذ ابن الأشعث على الكثير من مدن رتبيل، وغنم وسبى. ثم قرر وقف الأعمال القتالية حتى يعيد تعبئة قواته ويصلح عتادهم، وتموينهم، ثم يهاجموا رتبيل في العام القادم.

كتب ابن الأشعث إلى الحجاج يعلمه بما قرره، ويعلمه بما فتح على يديه. وعندما مات عبيد الله بن أبي بكرة، استخلف الحجاج عوضاً عنه ابن الأشعث أميراً على سجستان، فلما وصل كتاب ابن الأشعث إلى الحجاج استهجنه وكتب إليه يستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب، وفي الوقت نفسه يأمره بدخول بلاد رتبيل. وقيل كتب إليه أكثر من كتاب حول الموضوع نفسه ومما كتبه له: يا بن الحائك الغادر المرتد امض إلى ما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو، والأمل بك ما لايطاق. و وصف الحجاج ابن الأشعث بأنه كان أهوج أحمق حسوداً، وأن أباه هو الذي سلب الخليفة عثمان ثيابه وقاتله، وأن جده الأشعث ارتد عن الإسلام وغير ذلك من أقاويل كان ابن الأشعث يسمعها عن الحجاج.

عندما تكررت الرسل لابن الأشعث غضب وتكلم في الحجاج و وصفه بالضعف وأنه لا يصلح أن يكون إلا من بعض جنده وخدمه. جمع ابن الأشعث قادته للمشاورة والتداول في هذا الموضوع، وأكد لهم إصرار الحجاج على متابعة القتال، وقال لهم: لقد أقبل فصل الشتاء والبرد فانظروا في أمركم، فأما أنا فلست مطيعه، ولا أنقض رأياً رأيته بالأمس. عند ذلك قالوا: نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع.

ثم تحدثوا بخلع الحجاج ومبايعة ابن الأشعث، وكان أول من خلع الحجاج وبايع ابن الأشعث عامر بن واثلة الكناني. وتمت بيعة ابن الأشعث وخلع الحجاج دون ذكر عبد الملك بن مروان. بعد ذلك أرسل ابن الأشعث فصالح رتبيل علماً أنه إذا ظفر بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً. ثم سار ابن الأشعث من سجستان لحرب الحجاج وأخذ العراق منه.

وقال الطبري: إن ابن الأشعث عندما قرر الخروج كان قد قال لأصحابه: «أيها الناس، إني لكم ناصح، ولصلاحِكم مُحِبّ، ولكم في كل ما يُحيط بكم نفعُه ناظر، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوّكم رأيٌ استشرتُ فيه ذوي أحلامِكم، وأولي التجربة للحرَبْ منكم، فرضُوه لكم رأياً، ورأوْه لكم في العاجل والآجل صلاحاً، وقد كتبت إلى أميركم الحجّاج، فجاءني منه كتاب يعجّزني ويضعفني، ويأمُرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدوّ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم

فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مَضَيتم، وآبىَ إذا أبيتم. فثارَ إليه النـاسُ فقـالوا: لا، بـل نأبىَ على عدوّ الله، ولا نَسمَع له ولا نطيع»[1].

وقال عامر بن وائله الكناني: «أما بعد، فإنّ الحجّاج والله مـا يَـرَى بكـم إلاّ مـا رأى القـائل الأوّل إذ قال لأخيه: احمِل عبدَكَ على الفَرَس، فإنْ هَلَكَ هلك، وإن نجا فَلَك. إن الحجـاج والله مـا يبالي أن يخاطرَ بكم فيُقحِمكَم بلاداً كثيرة اللُّهوب واللُّصوب، فإن ظفِرتم فغنمتم أكل البـلاد وحـاز المال وكان ذلك زيادةً في سلطانه وإن ظفر عدوّكم كنتم أنتم الأعداء البُغَضاء الذين لا يبالي عنتهم، ولا يبقى عليهم، اخلعوا عدوَّ الله الحجاج وبـايعوا عبـدَ الرحمـن، فـإني أشـهدكم أنـيّ أوّل خـالع. فنادَى الناس من كلّ جانب، فعلنا فعلنا، قد خلعْنا عدوّ الله، وقام عبدُ المؤمن بـن شَـبَث بـن رِبعـيّ التميميّ ثانياً ـ وكان على شُرْطته حين أقبَل.

فقال: عبادَ الله، إنكم إن أطعتم الحجّاج جعل هذه البلاد بلادَكم ما بقيتـم، وجمّركـم تجمـيرَ فرعونَ الجنود، فإنه بلغني أنه أول من جمّر البعُوث، ولن تعاينوا الأحبّة فيما أرى أو يمـوتَ أكثركم. بايِعوا أميرَكم، وانصرِفوا إلى عدوّكم فانفوه عن بلادِكـم، فوثـب النـاس إلى عبـد الرحمـن فبـايعوه، فقال: تبايعونني على خَلع الحجّاج عدوّ الله وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيَه الله مـن أرض العراق. فبايعه الناس. ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء»[2].

في هذا الوقت ولّى عبد الرحمن بن محمد على بُسـتٍ[3]، عيـاض بـن هميـان البكـري، وعلـى زرنج[4] عبد الله بن عامر التميمي، ثم سار إلى العراق بجيش كان قوامه كما يذكر ابـن كثـير ثلاثـة وثلاثين ألف فارس، ومائة وعشرين ألف راجل فبعث على مقدمته عطية بن عمرو العنبري، وعندما مر عبد الرحمن بن محمد بكرمان وكان صاحبها قد كاتبه فأرسل عليها خرشنة بن عمـرو التميمـي، وفي فارس أجمع الناس على خلع الحجاج، وعبد الملك، فقال تيجان ابـن أبجـر مـن بـني تيـم الله بـن ثعلبة: إني خلعت أبا ذبّان (كنية عبد الملكِ بـن مـروان) كخلعـي قميصي، فخلعـه النـاس إلا قليـلاً منهم، ووثبـوا إلى ابن محمد فبايعوه، وكانت بيعته: تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه، وخلع أئمة

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٣٣٥.

[2] المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

[3] بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة من أعمال كابل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٤١٤.

[4] زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٣٨.

الضلال وجهادهم.

فلما بلغ الحجاج خلعه، كتب إلى عبد الملك بن مروان يعلمه بالأحداث، ويطلب منه الإمداد ثم توجه إلى البصرة، أما المهلب فلما علم بخلاف عبد الرحمن بن محمد وهو بسجستان، كتب إليه كتاباً يوصيه بعدم شق عصا الطاعة، ولزوم الجماعة، وعدم سفك الدماء وغير ذلك، ثم كتب المهلب إلى الحجاج أيضاً يوصيه بأهل العراق ودورهم في مثل هذه الحالة.

استدعى عبد الملك بن مروان، خالد بن يزيد بن معاوية، وأطلعه على آخر الأحداث فقال خالد لعبد الملك: إن كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا خوف منه، وإن كان من قبل خراسان تخوفته، فقال عبد الملك: إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك.

أقام الحجاج بالبصرة يستقبل أهل الشام وفرسانها من قبل عبد الملك بن مروان، وبالوقت نفسه كان عبد الملك يتلقى أخبار عبد الرحمن بن محمد في كل يوم، وقرر الحجاج مقابلة عبد الرحمن بن محمد، فسار بأهل الشام، فنزل تستر، وقدم بين يديه مقدمةً يقودها مطهر بن حر العكي (وقيل الجذامي)، سار مطهر إلى دجيل، في الوقت الذي كان فيه ابن الأشعث قد سير خيلاً له عليها عبد الله بن أبان الحارثي في ثلاثمائة، فلما تقابل مطهر، مع ابن أبان هزمت خيل عبد الله في يوم الأضحى سنة (٨١هـ - ٧٠٠م) حتى انتهت إلى الحجاج، بعد ذلك ارتحل الحجاج وقواته عائداً إلى البصرة لاتخاذها معسكراً وبها ما يكفيهم وإمدادهم. فلحقهم أصحاب ابن الأشعث فكانوا يقتلون كل من لحقوه منهم، فنزل الحجاج الزاوية وخلى البصرة لأهل العراق. وعامله عليها الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي[1].

أثناء ذلك قال عبد الرحمن بن محمد: إن الحجاج ليس بشيء، وهدفنا هو غزو عبد الملك بن مروان. بعد ذلك دخل عبد الرحمن بن محمد البصرة، فبايعه أهلها في آخر ذي الحجة سنة (٨١ هـ - ٧٠٠م).

وتتابع القتال بين الحجاج، وعبد الرحمن بن محمد أوائل سنة (٨٢هـ - ٧٠١م)، واشتد القتال في الزاوية فهزم أصحاب الحجاج حتى انتهوا إليه، ثم عاد القتال في آخر محرم فهزم ابن الأشعث

---

[1] قيل ان الحكم بن أيوب كان على الصلاة والصدقة، وعبد الله بن عامر بن مسمع على الشرطة.

وأهل العراق وقتل عدد من روؤسائهم، بعد ذلك توجه عبد الرحمن بن محمد إلى الكوفة، ومعه أصحابه، ومن كان على رأيه.

أثناء ذلك بايع أهل البصرة عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فقاتل بهم الحجاج خمسة أيام، ثم انصرف فلحق بعبد الرحمن بن الأشعث، بعدها استعمل الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل، وكان الحجاج قد استخلف على الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي في أربعة آلاف من أهل الشام.

فلما علم عبد الرحمن بن عبد الرحمن الحضرمي بقدوم عبد الرحمن بن محمد إلى الكوفة تحصن بالقصر، عند ذلك هاجم أهل الكوفة عبد الرحمن الحضرمي ثم صالحوه على أن يخرج ومن معه ويخلو القصر.

استقبل أهل الكوفة عبد الرحمن بن محمد فبايعوه بعد دخوله دار إمارتها. بعد ذلك قدم عليه أهل البصرة، واجتمعت عليه المسالح والثغور أما الحجاج فسار من البصرة نحو الكوفة، فبعث عبد الرحمن بن محمد إليه، عبد الرحمن بن العباس في خيل فمنعوه من نزول القادسية، وفي النهاية نزل الحجاج دير قره[1]، ونزل عبد الرحمن بن العباس دير الجماجم[2]، ثم تحرك عبد الرحمن بن محمد إلى دير الجماجم.

اجتمع أهل الكوفة والبصرة، وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم، والقراء من أهل البصرة، والكوفة لحرب الحجاج، حيث بلغ قوامهم في دير الجماجم مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم، أما الحجاج فأخذت تتوافد عليه الإمدادات من قبل عبد الملك بن مروان إلى دير قره، واختار الحجاج هذه المنطقة لقربها من الشام والجزيرة، وفي ذلك سهولة الإمداد.

ثم اجتمع عبد الملك وبعض أعوانه، وعلى رأسهم أخوه محمد بن مروان، فقرر العرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام، وأن يختار عبد الرحمن بن محمد أي بلد رغب في العراق، وأراد أن يكون عليه والياً ما دام حياً، وإذا رفضوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام في السلم والقتال، ووضع تحت إمرته في هذه الحالة ابنه عبد الله بن

---

(1) دير قره ـ قرب دير الجماجم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٥٢٦.

(2) دير الجماجم ـ بظاهر الكوفة على طرف البر للسالك إلى البصرة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٥٠٣.

عبد الملك، وأخاه محمد بن مروان.

عرض عبد الله بن عبد الملك ما سبق على أهل العراق، فرفضوا وأعادوا خلع الحجاج، وعبد الملك. وعندما تسلم الحجاج قيادة قوات أهل الشام، وعبأ كل طرف قواته، واستعد للحرب، وأخذوا يتزاحفون، علماً أن الإمدادات لأهل العراق كانت ميسّرة وسهلة وتصلهم بيسر وسهولة. أما أهل الشام فوقعوا في ضيق شديد، وغلت عندهم الأسعار، وقل الطعام فكأنهم كانوا في حصار، ومع ذلك استمر القتال.

كان عبد الرحمن بن محمد قد عبأ قواته في سبعة صفوف وكون كتيبة تدعى كتيبة القراء يقودها حبيب بن جبلة بن زهر، ومعه كميل بن زياد فكان أثرها فعالاً في التضحية والفداء، وعبأ الحجاج قواته صفوفاً، كما عبأ لكتيبة القراء ثلاث كتائب. وعليها الجراح بن عبد الله الحكمي.

واستمر القتال بين الحجاج، وعبد الرحمن بن محمد في دير الجماجم سنة (٨٣هـ ـ ٧٠٢م)، فقتل جبلة بن زحر، وكان لقتله أثر كبير في انخفاض الروح المعنوية لدى قوات عبد الرحمن بن محمد، وحمل رأس جبلة إلى الحجاج فقال: هذا أول الفتح، واستمر القتال أشهراً. في هذه المرحلة قدم بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني من الري على ابن الأشعث، والقتال بين الطرفين مستمر، واشترك في القتال وقد أمره ابن الأشعث على خيل ربيعة واستمرت الحملات والحرب مشتعلة بين الطرفين مائة يوم، ابتدأت يوم الثلاثاء ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة (٨٣ هـ ـ أبريل ٧٠٢م) بدير الجماجم واستمرت إلى يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة.

في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة خرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل وكان على ميمنة قوات الحجاج فهاجم ميسرة ابن الأشعث فهزم الميسرة، فاستطاع ابن الأشعث أن يجمع بعض قواته ويستمر في القتال حتى اقترب منه أهل الشام فهرب ودخل أهل الشام معسكره. فأمر الحجاج أصحابه ألاّ يتبعوهم وتركهم يتفرقون، وفي الوقت نفسه نادى أصحاب الحجاج من رجع فهو آمن. أما ابن الاشعث فهرب ومعه ابن جعدة بن هبيرة ومعه بعض أهل بيته وخرج من الكوفة.

ثم رجع عبد الله بن عبد الملك إلى الشام بعد الواقعة، وتوجه محمد بن مروان إلى الموصل[1]،

[1] الموصل ـ سميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت دجلة والفرات، وقيل إنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة، وهي مدينة قديمة على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٢٣.

وبقيت العراق للحجاج، فدخل الحجاج الكوفة، فأخذ يحاسب الأشراف الذين كانوا مع عبد الرحمن بن محمد مثل كميل بن زياد فقتله، ثم أقام الحجاج بالكوفة أشهراً، فعزل أهل الشام عن أهل الكوفة.

بعد وقعة دير الجماجم خرج محمد بن سعد بن أبي الوقاص، فنزل المدائن فاجتمع إليه الناس، وخرج عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة، فتوجه إلى البصرة، وبها أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج فأخذها منه، ثم قدم عبد الرحمن بن محمد فدخل البصرة فاجتمع الناس إليه.

خرج الحجاج فبدأ بالمدائن ثم توجه إلى عبد الرحمن بن محمد، وجرى قتال بين الطرفين في منطقة مسكنة على دجيل استمر خمسة عشر يوماً من شهر شعبان من سنة (٨٣هـ ـ أغسطس ٧٠٢م)، فهزم أهل العراق فتوجه عبد الرحمن بن محمد وأصحابه إلى سجستان، فوجه الحجاج في أثرهم عمارة بن تميم اللخمي، ومعه ابنه محمد بن الحجاج، فأدرك عمارة عبد الرحمن بن محمد بالسوس فقاتله ساعة، فهزم عبد الرحمن بن محمد إلى سابور، ولحقهم عمارة فقاتلهم، فهزم عمارة وأصحابه، ثم مضى عبد الرحمن حتى مر بكرمان، فتلقاه عمرو بن لقيط وكان عامله عليهم، ثم مضى عبد الرحمن إلى زرنج مدينة سجستان فمنعه، واليها عبد الله بن عامر البعار من دخولها، فتوجه إلى بست فاستقبله واليها عياض بن هميان، فتركه حتى تفرق عنه أصحابه، فأخذ عبد الرحمن بن محمد، وأوثقه ورغب بتقديمه إلى الحجاج لكي يأمن بذلك على نفسه.

في هذه المرحلة سمع رتبيل بمقدم عبد الرحمن بن محمد، فقدم بقواته فأحاط ببست ثم صالح رتبيل صاحب بست عياض بن هميان على إطلاق سبيل عبد الرحمن بن محمد الذي توجه مع رتبيل إلى بلاده. فأكرمه وعظمه.

ومع ذلك اجتمع أكثر من ستين ألفاً رفضوا أمان الحجاج، فحاصروا عبد الله بن عامر البعار، وكتبوا إلى عبد الرحمن بن محمد يعلمونه بأمرهم، فخرج إليهم فأخذ عبد الله بن عامر فعذب وحبس، بعدها قرروا التوجه إلى خراسان، وعليها يزيد بن المهلب، فوصلوا هراة، وهناك فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة في ألفين، عند ذلك تفرق أصحابه فعاد إلى رتبيل، وما بقي منهم بايعوا عبد الرحمن بن العباس، وقرروا التوجه إلى خراسان، فقابلهم يزيد بن المهلب، وقد ولى أخاه المفضل الحرب، فقدم الأخير خيله، واشتبك الطرفان في قتال عنيف، ثم تفرقت قوات عبد

الرحمن بن العباس وخسروا القتال، بعد ذلك توجه يزيد بن المهلب إلى مرو، أما عبيد الله بن الحارث بن عبد الرحمن فحبس، ثم أخذ الحجاج يقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد ممن أسر ووقع في أسره.

بعد أن عاد عبد الرحمن بن محمد إلى رتبيل كما ورد كان أحد أتباعه هو علقمة قد فارقه، ومعه خمسمائة مقاتل، فخرج عليهم عمارة بن تميم اللخمي فحاصرهم ثم أمنهم فخرجوا إليه، ثم إن الحجاج أخذ يراسل رتبيل في عبد الرحمن بن محمد، وإرساله إليه، وتهديده في حال عدم تنفيذه أوامره.

أثناء ذلك مرض عبد الرحمن بالسّل ومات، فأخذ رتبيل رأسه، وأرسلها إلى الحجاج، فأرسله الأخير إلى عبد الملك بن مروان، وقيل إن رتبيل قبض على عبد الرحمن بن محمد، وثلاثين من أصحابه، وأرسلهم إلى عمارة بن تميم، وفي الطريق ألقى عبد الرحمن بن محمد نفسه من فوق قصر فمات، فأخذ رأسه ورأس من كان معه وأرسلهم إلى الحجاج، وكان الحجاج قد أعطى لرتبيل عهداً، أن لا يغزو بلاده عشر سنين، على أن يؤدي بعدها في كل سنة تسعمائة ألف. بعد ذلك عزل الحجاج بن يوسف، يزيد بن المهلب عن خراسان وذلك سنة (٨٥هـ - ٧٠٤م) وولى عوضه المفضل ابن المهلب.

أخيراً كانت ثورة ابن الأشعث أكثر أهميةً من أية ثورة أخرى حيث هزت أسس الحكم الأموي وكادت تقوضه لأن ابن الأشعث كان قد جمع أهل الخبرة والتجربة وحظي عند الجميع بالتأييد، ثم أن أهل العراق كانوا يميلون إلى أيّ كان لحرب الحجاج، فكيف بالأشعث. اختار الأشعث القادة والرؤساء الذين معه بأن افتعل رسالةً على لسان الحجاج يأمره فيها بعزل الرؤساء من مناصبهم وقتل بعضهم، فحقق ما أراد بأن زاد الناس كراهيّةً بالحجاج، وزرع فيهم حب الانتقام.

اتخذ ابن الأشعث مجموعةً من الاجراءات حيث عقد صلحاً مع رتبيل بأن أعفاه من دفع الجزية طالما بقي في السلطة، واعتمد الشعراء من همدان ومذحج وقحطان لمهاجمة الحجاج وتأليب القبائل عليه، منهم الأعشى والفرزدق، كما تمكن من توحيد القبائل الشمالية والجنوبية تحت قيادته ضد عدو مشترك، هذا ويذكر أن المصريين قبلوا ابن الأشعث اليماني قائداً لهم لأن عصبيتهم لمصرهم (العراق) كانت أقوى بكثير من عصبيتهم لقبائلهم، وكان من استراتيجية ابن الأشعث عدم

الفصل بين الحجاج والثورة ضد عبد الملك، ولتحقيق استمرار هذه الاستراتيجية قرّر ضرب دراهم خاصة.

خاض ابن الأشعث عدة لقاءات مع الحجاج كان أولها قرب تستر في اليوم العاشر من ذي الحجة عام (٨١هـ ـ ٧٠١/١/٢٥م)، وكانت النتيجة انتصار ابن الأشعث، وكان أصحاب الحجاج بعد هذه الخسارة يعانون من قلّة التجهيزات مما اضطره إلى مصادرة الأطعمة العائدة للتجار. بعد ذلك كانت المعركة الثانية في (٢٨ محرم سنة ٨٢هـ ـ بداية شهر آذار سنة ٧٠١م) في الزاوية، كانت نتيجتها انتصار الحجاج، وكان لصموده ومهارة أحد قادته سفيان بن الأبرد سبباً في هذا الانتصار.

توجه ابن الأشعث إلى الكوفة فاستسلمت له وبايعته، ثم اجتمع كل من الطرفين في معسكر فابن الأشعث عسكر في دير الجماجم، بينما عسكر الحجاج في دير قره، وقد اختار هذا المكان لأنه وفر له سهولة الاتصال ببلاد الشام التي كانت في حالة إمداد له باستمرار. خلال هذه المرحلة كان عبد الملك قد خاف إطالة الحرب لأن ذلك لم يكن في صالحه فقرر إرسال جيش من الشام بقيادة أخيه محمد بن مروان، وابنه عبد الله وأمرهما أن يعرضا على ابن الأشعث، ومن معه الصلح على شروط، هي:

- عزل الحجاج.
- رفع عطاء أهل العراق بحيث يكون مساوياً لعطاء أهل الشام.
- يمنح ابن الأشعث أية ولاية شاء في العراق مدى الحياة.

يذكر أن ابن الأشعث كان قد قبل هذه الشروط وحاول جاهداً اقناع أصحابه بها، إلا أنه فشل وتجدد العداء وطمع أهل العراق في أهل الشام وظنوا أنهم يعانون من قلة العتاد والإمداد غير أن نتائج معركة دير الجماجم أثبتت خطأ استنتاجهم وبدأ الصراع بين الطرفين واستمر مائة يوم، وفي دير الجماجم حدثت المعركة فهزم ابن الأشعث واندحر.

ثم تجدد القتال في مسكنه، وتكررت هزيمة ابن الأشعث في شعبان سنة (٨٢هـ ـ أيلول سنة ٧٠١م) ثم هزم مرة أخرى في السوس، إلا أنه تمكن من دحر جيش الشام في منطقة سابور وكانت نهايته كما ورد.

يحاول بعض ربط ثورة ابن الأشعث بثورة المختار أو أنها استمرار لها، وهذا ما لا أعتقده لأن طبيعة كل منهما تختلف عن الأخرى، فالمختار بنى نظرية تختلف عما كان يفكر فيه ابن الأشعث فالمختار اعتمد ابن الحنفية ستاراً له، من ذلك أخذ يدعو إلى الطلب بدم الحسين وقتل قتلته، وحاول الاستفادة من ابن الزبير إلا أنه فشل، فلجأ إلى الكوفة وفيها شيعة لابن الحنفية فوافقوه، وانضم إليه كل من كانت تسول له نفسه الخروج ضد الأمويين في الكوفة وما يليها، وخاصة بعد القضاء على حركة التوابين، وكان ممن انضم إليه الموالي.

ومع ذلك لا يمكن أن يكون الموالي هم الذين جعلوا المختار يسيطر على العراق ويقتل عبيد الله بن زياد ويهزم جنده ويقتل قتلة الحسين، أعتقد أن أهل العراق جبلوا على عدم الطاعة وخاصةً طاعة الأمويين لأنهم هم أنفسهم لا تجمعهم راية مهما كانت، إنما كانت العصبية القبلية شعارهم وإذا ما حدث أن اجتمعوا كما حدث مع ابن الأشعث فاجتماعهم أيضاً كان عن عصبيتهم لمصرهم العراق من جهة، وعدائهم للأمويين من جهة أخرى لأنهم كانوا أقل من أهل الشام عند الأمويين في كل شيء حتى في العطاء كما ورد.

أما ابن الأشعث فأمره مختلف، إذ كان يقود جيشاً قوياً استطاع جمعه وقيادته ووحد صفوفه بذكائه، وزرع في نفوسهم بغض الحجاج وكراهيته وجعل هدفه خلع عبد الملك فكانت ثورته أعم وأشمل من ثورة المختار، ثم إن أهدافه كانت واضحة منذ البداية وخاصةً بعد أن أعلن خلع عبد الملك. أخيراً إن ثورة ابن الأشعث توفرت لديها كل مقومات الثورة وإنها كانت ثورة سياسية بحتة جمعت في صفوفها أكثر التيارات المناهضة للسلطة الأموية، وخاصةً في العراق والشرق.

وثورة ابن الأشعث الشاملة ضمت الموالي، والعبيد في كل من الكوفة والبصرة، والذين كانوا يرغبون في الحصول على حقوقهم الاقتصادية، والاجتماعية بالدرجة الأولى، ومساواتهم بالعرب المسلمين في مختلف الميادين. واشتراك الموالي كان وليد الظروف المرحلية التي مرّت بها العراق، كوجود الحجاج على رأس السلطة، وتعامله مع الآخرين بالعنف. وأسباب ثورة ابن الأشعث ليست واحدة من الأسباب والأهداف، التي دعت الموالي إلى الاشتراك بالثورة لأن الموالي كانوا على استعداد للتعاون مع أي كان لاستعادة حقوقهم وهكذا كانوا.

وهناك من يدعي أن أكثر الحركات التي ثارت في العراق كانت حركات إقليميّة بحتة أي أن أهل العراق ملّوا التحكم الشامي، وهناك من يدعي أن الحركات كانت دينيّة، وأنا أرى أنها اتخذت الدين شعاراً لتحقيق مطامحها السياسية، وبعض هذه الحركات كانت في الحقيقة شخصية في الخفاء اتخذت أحد الأسباب إما الدينية وإما السياسية أو غير ذلك، ووجدت إلى ذلك سبيلاً. ومهما يكن فقد وجد الثائرون مهما اختلفت اهواؤهم البيئة المناسبة لثورتهم. ففي العراق تنامت العصبية الدينية، والعصبية القبلية، وجور الحكام.

خروج عمر بن أبي الصلت ٨٣(هـ - ٧٠٢م): بعد أن ظفر الحجاج بابن الأشعث، لحق الكثير من المنهزمين بعمر بن أبي الصلت، وكان قد غلب على الري في تلك المرحلة. فلما اجتمعوا إليه أشاروا عليه بخلع الحجاج وقتيبة وكان ذلك منهم مكراً وخديعة، فرفض، فأشاروا على والده أبي الصلت ذلك فأقنع ابنه عمر وألزمه الخلع وكان عمر باراً بأبيه أبي الصلت.

فلما اقترب قتيبة من الري استعد عمر بن أبي الصلت لقتاله، ولما التقوا غدر أصحابه به وأكثرهم من تميم، فانهزم ولحق بطبرستان، فآواه الأصبهذ وأكرمه وأحسن إليه، فأعلم قتيبة الحجاج بذلك، فكتب الحجاج إلى الأصبهذ يأمره أن يبعث إليه برؤوس من عنده، فقتل الصبهذ عمر بن أبي الصلت، وبعث أباه أسيراً.

موسى بن عبد الله بن خازم[1]: تحدثنا عن مقتل عبد الله بن خازم فيما ورد، أما ابنه موسى، فكان أبوه قد أمره أن يتحول مع ثقله ويقطع نهر بلخ[2] ويلجأ إلى بعض الملوك، أو إلى أي مكان آخر يقيم فيه. توجه موسى ومعه مائتان وعشرون فارساً إلى أمل، وهناك انضم إليه بعض الصعاليك، فأصبح في أربعمائة، ثم قدم إلى زمّ[3] فقاتلوه، فظفر بهم، ثم توجه إلى بخارى، ومنها إلى سمرقند[4] فأكرمه صاحبها (طرخون) فأقام بها، ثم أكره على الخروج منها فتوجه إلى كس[5]، ومنها إلى الترمذ وبها حصن فغلب عليها موسى، ونزل بها ومعه سبعمائة، خلال هذه المرحلة انضم إليه أربعمائة فارس من أنصار أبيه وقد قتل.

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٣٩٨ وما بعدها - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٦ - ص٥٠٠ وما بعدها.

(2) نهر بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، ويقال لجيحون نهر بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٨٠.

(3) زم: بلدة على طريق جيحون من سمرقند وأمل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٥١.

(4) سمرقند: قصبة الصغد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٤٦.

(5) كس: مدينة تقارب سمرقند وقيل: كس هي الصغد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٦٠.

ثم إن أمية بن عبد الله وجه إلى موسى بن عبد الله بن خازم رجلاً من خزاعة في جمع، وهناك اجتمع على موسى، ومن معه الخزاعي والترك، ثم قوي أمر موسى فأصبح في قوة قوامها ثمانية آلاف، وكلهم من تميم وقيس وربيعة واليمن، فاحتل ما وراء النهر وطرد منها عمال يزيد بن المهلب، وهناك خاض معركة مع الهياطلة والتبت والترك، وكانوا كما يذكر الطبري بحدود سبعين ألفاً، فانتصر موسى وحمل معه رؤوس القتلى ما تمكن به من بناء قلعة جوسقين، وهناك فارقه ثابت ابن قطنة الخزاعي، ومعه عشرون فارساً فنزل بجشورا وهناك أخذ جمعه يزداد ويقوى، فخرج إليه موسى، وحدث قتال بينهما، ثم حاصره وأصحابه في مدينة جشورا، فأرسل ثابت إلى طرخون ـ صاحب سمرقند ـ يطلب مساعدته، فلما علم موسى بذلك رجع إلى الترمذ، أما ثابت فأعانه أهل كس، وبخارى وغيرها، فصار جيشه بحدود ثمانين ألفاً، فحصروا موسى وقطعوا عنه كل تموين فضاق الحصار على موسى، خلال هذه الأحداث طعن ثابت فقتل، فتولى مكانه طرخون، ثم إن موسى هاجم خصمه ليلاً، وفي اليوم التالي رحل طرخون بمن معه كل إلى موطنه، فأصبح موسى السيد الوحيد لما وراء النهر لا ينازعه فيه أحد، خلال هذه المرحلة كان يزيد بن المهلب وهو والي خراسان فلم يتعرض لموسى.

عندما ولي المفضل بن المهلب خراسان بدلاً من يزيد، قرر محاربة موسى فأرسل عثمان بن مسعود، ومعه ثلاثة آلاف نحو موسى، فنزل الترمذ (جزيرة عثمان) وقد أصبح تعداد قواته خمسة عشر ألفاً فحاصر موسى وضيق عليه، وعلى أصحابه الحصار، فخرج موسى بقواته، وقد استخلف على المدينة النضر بن سليمان بن عبد الله بن خازم، وبدأ القتال بمهاجمة طرخون والترك، واستمر القتال حتى قتل موسى سنة (٨٥هـ ـ ٧٠٤م)، وتفرق أصحابه وأسر منهم عدد كبير.

بيعة الوليد[1]: في هذه المرحلة همَّ عبد الملك بن مروان بخلع أخيه عبد العزيز بن مروان، فنهاه ـ كما يذكر الواقدي ـ قبيصة بن ذؤيب عن ذلك، وكان لقبيصة الخاتم والسكة فقال له: لعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك إلا أن نفسه بقيت تطمح إلى ذلك. خلال هذا الوقت دخل على عبد الملك روح بن زنباع الجذامي، وكان له منزلة رفيعة عند عبد الملك، فشجعه

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٤١٦ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٥١٣، ابن كثير البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٦٤، المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٧٦، ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة ـ ج٢ ـ ص٤٤، السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص٢٦٣.

على خلع أخيه. في هذا الوقت دخل قبيصة على عبد الملك، وأعلمه بموت أخيه عبد العزيز بمصر في جمادى الأولى سنة (٨٥هـ - مايو ٧٠٤م)، فضم عبد الملك عمل أخيه إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر.

كان عبد العزيز بن مروان قد ولي عهد عبد الملك، وقد قرر الأخير بيعة ابنه الوليد بولاية العهد، وعبد العزيز يرفض طلب عبد الملك في تنازله عن ولاية العهد، لكن بعد أن مات عبد العزيز بن مروان تقرر بيعة عبد الملك لابنه الوليد، ثم من بعده سليمان، وكتب ببيعتهما إلى الأمصار.

وفاة عبد الملك بن مروان[1]: توفي عبد الملك بن مروان في النصف من شوال سنة (٨٦هـ - سبتمبر ٧٠٥م)، اختلف في مدة خلافته، قيل كانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر، وقيل كانت ولايته منذ بويع إلى يوم توفي إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً، منها تسع سنين يقاتل فيها ابن الزبير، وسلم عليه بالخلافة بالشام، واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليالٍ، وقيل ثلاث عشرة سنة، وثلاثة أشهر، وخمسة عشر يوماً، واختلف أيضاً في عمره فقيل مات وله ستون سنة، وقيل ثمان وخمسون، وقيل مات وهو ابن ثلاث وستين، أما مولده فكان في خلافة عثمان بن عفان سنة ست وعشرين للهجرة، وبعد موت عبد الملك بويع بالخلافة لابنه الوليد.

سياسة عبد الملك الخارجية:

أولاً - الاتصال الحربي في عهد عبد الملك: بعد موت معاوية توقفت الحروب الخارجية حتى كان موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية، في هذه المرحلة وثب أهل خراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، وغلب ابن خازم على خراسان، ووقعت القلاقل والحروب الداخلية، واستمرت إلى أن كانت نهاية الدولة الأموية.

---

[1] خليفة بن خياط - تاريخ خليفة - ص٢٩٢ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٤١٨، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٨ - ص٦٦، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٧ - ص١٦٥، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٦ - ص٥١٧، السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٥٤.

في الجبهة الشرقية: قال ابن الأثير في أحداث سنة (٦٤هـ - ٦٨٣م): بعد موت معاوية نقض أهل الري الصلح وخالفوا وعليهم الفرخان الرازي، فوجه إليهم أمير الكوفة (عامر بن مسعود)، محمد بن عمير بن عطارد، فلقيه أهل الري فاقتتلوا فهزم محمد بن عمير، فبعث إليهم عامر ابن مسعود، عتاب بن ورقاء الرياحي فقتل الفرخان وانهزم المشركون. وقال في أحداث سنة (٦٨هـ - ٦٨٧م): أمر مصعب بن الزبير، عتاب بن ورقاء عامله على أصبهان بالتوجه إلى الري، وقتال أهلها لمساعدتهم الخوارج، فسار إليهم وقاتلهم، فتمكن من فتحها عنوةً وغنم ما فيها، وفتح سائر قلاعها ونواحيها.

في أحداث سنة (٧٣هـ - ٦٩٢م) استعمل عبد الملك بن مروان أخاه محمد بن مروان على الجزيرة وأرمينية فغزا منها العدو، وكانت بحيرة الطريخ[1] التي بأرمينية مباحة يأخذ منها ما شاء من الناس سمك الطريخ، فمنع محمد بن مروان صيدها، وجعل عليها من يأخذه ويبيعه، ثم صارت لابنه مروان.

وعندما ولي أمية بن عبد الله بن خالد خراسان سنة (٧٤هـ - ٦٩٣م) من قبل عبد الملك بن مروان، عوضاً عن بكير بن وساج، و وصل كرمان استعمل ابنه عبد الله على سجستان فلما قدمها غزا رتبيل، وكان رتبيل هائباً للعرب المسلمين، فلما قدم عبد الله بن أمية إلى بست أرسل يطلب الصلح على أن يدفع ألف ألف، وبعث إليه بهدايا ورقيق، فرفض عبد الله بن أمية، فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها ثم أخذ عليه الشعاب والمضايق، ثم تصالحا على أن يأخذ رتبيل منه ثلاثمائة ألف درهم صلحاً[2]، ويكتب كتاباً يتعهد فيه ألاّ يغزو بلاده ما بقي فيها أميراً. وفي أحداث سنة (٧٧هـ - ٦٩٦م) عبر أميّة نهر بلخ للغزو، فحوصر حتى جهد هو وأصحابه، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا إلى مرو، وغزا في هذه السنة الوليد بن عبد الملك.

في أحداث سنة (٧٨هـ - ٦٩٧م) عزل عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله عن خراسان وسجستان، وضمهما إلى أعمال الحجاج، ففرق الأخير فيهما عماله، فبعث المهلب بن أبي صفرة على خراسان، وعبيد الله بن أبي بكرة على سجستان. في هذه المرحلة كان رتبيل مصالحاً، وكان

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٦١.

(2) المرجع نفسه - ج٤ - ص٣٦٩.

يؤدي الخراج وربما امتنع عنه، فأمر الحجاج بن يوسف عبيد الله بن أبي بكرة بمناجزته، وألا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله.

سار عبيد الله المذكور فدخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ما شاء، وهدم حصوناً وغلب على بعض أراضيهم، وكان رتبيل يتراجع، ويترك الأرض لخصمه، حتى أمعنوا في بلاده، ودنوا من عاصمة ملكه، ثم أطبق عليهم، فصالحه عبيد الله على سبعمائة ألف درهم[1] يوصلها إلى رتبيل ليمكن العرب المسلمين من الخروج من أرضه، وعندما علم الحجاج بذلك جهّز جيشاً من أهل الكوفة سنة (٧٩هـ - ٦٩٨م) قرر إرساله إلى بلاد رتبيل.

كان الحجاج قد استأذن عبد الملك بن مروان بإرسال الجيوش إلى بلاد رتبيل فوافقه فأخذ الحجاج يعمل في تجهيز هذا الجيش سنة (٨٠هـ - ٦٩٩م)، فجعل على أهل الكوفة عشرين ألفاً وعلى أهل البصرة عشرين ألفاً، وأعطى الناس أعطياتهم، فأنفق فيهم ألفي ألف سوى أعطياتهم، وأمدهم بالخيل والسلاح، فلما جهّز الجيش أوكل قيادته إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث[2]. أثناء ذلك حذر الحجاج من الأشعث فلم يقبل وقال: هو أهيب لي من أن يخالف أمري.

توجه عبد الرحمن بن الأشعث فقدم سجستان. فلما علم رتبيل بذلك أرسل يعتذر فلم يقبل عذره وسار إلى بلاده فأخذ يحتل أرضه بلداً بعد آخر، وكان يبعث على كل بلد يحتله عاملاً معه أعوان، ووزع استطلاعه في كل مكان ليأتوه بالأخبار، ووزع المسالح في كل مكان، فلما سيطر على قسم كبير من أرضه وملأ الناس أيديهم من الغنائم، أوقف حركته وأجّل ذلك إلى عام آخر، وبعث إلى الحجاج بأخباره. أما المهلب بن أبي صفرة فقطع نهر بلخ فنزل على كس سنة (٨٠هـ - ٦٩٩م) وعلى مقدمته أبو الأدهم زياد بن عمرو في ثلاثة آلاف، أثناء ذلك قدم على المهلب - وهو نازل بكس - ابن عمّ ملك الختل، فدعاه إلى غزو الختل، فوجه معه ابنه يزيد فتمكن ملك الختل من قتل ابن عمه، ثم حاصر يزيد بن المهلب قلعة ملك الختل حتى صالحوه على فدية حملوها إليه ورجع إلى المهلب.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٣٢٢، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٤٥٠.

[2] كان الحجاج يبغضه، ويقول ما رأيته قط إلا أردت قتله فعلم عبد الرحمن بذلك فقال: والله لأحاولن أن أزيل الأشعث عن سلطانه.

وجه المهلب ابنه الآخر حبيب إلى صاحب ربنجن[1] فجرت مبارزة انتصر فيها المسلمون. بعد ذلك رجع العسكران كل منهم إلى معسكره، ثم توجه حبيب إلى قرية اعتصم بهـا العـدو، فقـاتلهم فظفر بهم وأحرق القرية، ورجع إلى أبيه فسميت المدينة المحترقة. في هذه المرحلة وصل إلى المهلب كتاب من الأشعث بخلع الحجاج، ويدعوه إلى مساعدته على خلعه، فوجّه بالكتاب إلى الحجاج، أما ابن الأشعث فصالح رتبيل على أنه إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي، وبدأت حروب أهلية ما بين الحجاج وابن الأشعث حتى قتل الأخير، ثم توفي المهلب بن أبي صفرة[2] سنة (٨٢هـ ـ ٧٠١م) فولى عوضه ابنه يزيد، كان نيزك ينزل بقلعة باذغيس[3] فتحين يزيد بن المهلب غزوه سنة (٨٤هـ ـ ٧٠٣م) فوضع عليه العيون، فبلغ يزيد خروجه من القلعة فخالفه يزيد وتوجه إليها فرجع نيزك، فصالحه على أن يدفع له ما في القلعة من الخزائن، ويرتحل عنها بعياله، وكتب إلى الحجاج بذلك.

بعد ذلك عزل يزيد بن المهلب عن خراسان سنة (٨٥هـ ـ ٧٠٤م)، وولى عوضه أخاه المفضل[4] فغزا باذغيس ففتحها وأصاب مغنماً، فقسمه بين الناس فأصاب كل منهم ثمانمائة درهم ثم غزا أخرون وشومان فظفر وغنم فقسم ذلك بين جنده.

في الجبهة الشمالية: وفي أحداث سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م) يذكر ابن الأثير: أنه خرج قائداً في جبل اللكام[5] وأتبعه خلق كثير من الجراجمة[6] والأنباط وأباق عبيد المسلمين، فسار إلى لبنان في الوقت الذي كان فيه عبد الملك بن مروان منشغلاً في أمور الدولة والثائرين عليه فأرسل إلى هذا الخارج فبذل له كل جمعه ألف دينار[7]. بعد ذلك وجه إليه عبد الملك أحد قواده وهو سحيم بن المهاجر[8]، ومعه بعض القوات، فتمكن سحيم من الوصول إليه متنكراً فأظهر ذمّ عبد الملك وشتمه، ووعده أن يدله على عوراته فوثق فيه، علماً أن قوات سحيم كانت معدة في مكان أمين وخفي.

---

(1) ربنجن: بلد من صغد سمرقند ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٦.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٣٥٤.

(3) بادغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروز ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣١٨.

(4) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٣٩٣.

(5) اللكام: جبل مشرف على أنطاكية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٢.

(6) الجراجمة: مدينة عل جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بيأس وبوقا يقال لها الجرجومة.

(7) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٠٤.

(8) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع ـ عمر أنيس الطباع ـ طبع بيروت ١٩٨٧م ـ ص٢١٩.

وفي الوقت المناسب انقض سحيم على العدو ومن معه فقتله، ومن أعانه من الروم وبعض الجراجمة والأنباط.

ومن أحداث سنة (٧٠هـ ــ ٦٨٩م) يذكر الطبري وغيره من المؤرخين: أن الروم ثاروا واستجاشوا على من بالشام من المسلمين، فصالح عبد الملك ملك الروم على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار[1] خوفاً منه على المسلمين. وفي أحداث السنة نفسها غزا محمد بن مروان الروم صائفةً فهزمهم. وفي العام نفسه كانت وقعة عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية في أربعة آلاف، والروم في ستين ألفاً فهزمهم وأكثر الفتك فيهم.

في الجبهة الغربية: ذكرنا خروج مروان بن الحكم إلى مصر وإعادتها إلى دائرة الدولة الأموية، وذلك سنة (٦٤هـ ـ ٦٨٣م). بعد ذلك ولي عبد الملك بن مروان الخلافة، فولى زهير بن قيس أفريقية.

زهير بن قيس: لم أجد له ذكراً عند الطبري، أما ابن الأثير فيذكره في أحداث سنة (٦٢هـ ــ ٦٨١م)، وأن عقبة بن نافع كان قد استخلفه على القيروان حين سار ليجاهد في سبيل الله، ثم ذكر في أحداث السنة نفسها، فقال: لما ولي الخليفة عبد الملك بن مروان أشار عليه أصحابه بإرسال الجيوش إلى أفريقية لاستنقاذها، فكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية أفريقية وجهّز له جيشاً كبيراً فسار إليها سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨م).

فلما علم كسيلة بالأحداث جمع قواته وحشدها ومعه الروم والبربر، وأشار على أصحابه الإرتحال إلى مدينة ممش وترك القيروان خوفاً من المسلمين الموجودين بها وقد أمنهم. علم زهير بما فعله كسيلة، فلم يدخل القيروان بل أقام في ظاهرها ثلاثة أيام، فاستراح ثم ارتحل في طلب كسيلة، فلما قاربه عبأ أصحابه والتقى معه فاشتد القتال بين الطرفين، وفي النهاية هزم كسيلة ومن معه وقتل، ثم عاد زهير إلى القيروان، بعد ذلك ترك زهير القيروان، ورحل في جمع كثير إلى مصر للجهاد هناك.

عندما علم الروم بالقسطنطينية بخروج زهير من برقة إلى أفريقية لقتال كسيلة، اغتنموا خلوها

---

[1] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع ـ عمر أنيس الطباع ـ طبع بيروت ١٩٨٧م ـ ص٢١٨.

فخرجوا إليها في مراكب كبيرة من جزيرة صقلية، فأغاروا على برقة، فأصابوا سبياً كثيراً، وقتلوا ونهبوا. في هذا الوقت قدم زهير بقواته، فأمر قواته بقتال العدو والجد في ذلك، فقتل زهير وأكثر من معه سنة (٦٩ هـ ـ ٦٨٨م)، وعاد الروم إلى القسطنطينية. بعد ذلك سيّر عبد الملك حسان بن النعمان الغساني.

حسان بن النعمان الغساني[١]: لم أر له ذكراً عند الطبري أما ابن الأثير فيذكره في أحداث سنة (٦٢هـ ـ ٦٨١م)، وقد ولاه عبد الملك بن مروان أفريقية وفي أحداث سنة (٧٤ هـ) يقول إن عبد الملك بن مروان كان قد شغل عن أفريقية بقضية عبد الله بن الزبير فلما قتل ابن الزبير جهز جيشاً واستعمل عليه حسان بن النعمان الغساني و ولاه أفريقية فلما وصل القيروان سار إلى قرطاجنة[٢] وصاحبها أعظم ملوك أفريقية، فحاصرها[٣] حتى فتحها، فهرب بعض أصحابها إلى صقلية وبعضهم الآخر إلى الأندلس، ودخلها حسان عنوةً فأمر بهدمها فهدموا ما قدروا عليه منها، بعد ذلك علم أن الروم والبربر أجمعوا جمعهم له في صطفورة[٤] وبنزرت[٥] فارتحل إليهم وحاربهم فانتصر عليهم، و لم يترك حسان موضعاً إلا وطئه، فخافه أهل أفريقية ولجأ الروم المنهزمون إلى مدينة باجة[٦] فتحصنوا بها، في الوقت نفسه تحصن البربر بمدينة بونه[٧]، أما حسان فعاد إلى القيروان.

بعد قتل كسيلة اجتمع البربر حول كاهنة بربرية بجبل أوراس[٨]، فارتحل حسان إليها فلما اقترب منها هدمت حصن باغاية[٩]، والتقى المسلمون مع أصحاب الكاهنة على نهر نيني فهزم المسلمون، وأسر بعضم فأطلقتهم الكاهنة إلا خالد بن يزيد القيس حيث اتخذته ولداً. أما حسان

---

[١] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٦٩.

[٢] قرطاجنة ـ بلد قديم من نواحي أفريقية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٢٣.

[٣] محمد سعيد عمران ـ معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ـ مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي ـ طبع بيروت ١٩٨١م ـ ص٨٤.

[٤] صطفوره ـ بلدة من نواحي أفريقية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٤٠٥.

[٥] بنزرت ـ مدينة بأفريقية بينها وبين تونس يومان ـ مشرفة على البحر وهي من نواحي صطفوره ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٥٠٠.

[٦] باجة ـ بلد بأفريقية تعرف بباجة القمح ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣١٤.

[٧] بونه ـ مدينة بأفريقية ـ وهي مدينة حصينة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٥١٢.

[٨] جبل أوراس ـ بأرض أفريقية، فيه عدة بلاد وقبائل من البربر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٨٧.

[٩] باغاية ـ مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين مجانة وقسطنطينة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٣٢٥.

فهرب إلى خارج أفريقية حيث أعلم عبد الملك بن مروان، فـأمره بالمقام مكانه إلى أن يأتيه أمره، فبقي خمس سنوات بمنطقة برقة، وملكت الكاهنة أفريقية كلها خلال ملكها أساءت السيرة في أهلها وظلمتهم.

بعد ذلك سير عبد الملك بن مروان الجنود والأموال إلى أفريقية لقتال الكاهنة، في هذا الوقت أرسل حسان إلى خالد بن يزيد الذي اتخذته الكاهنة ولداً يستطلع منه الأخبار، فكتب يعلمه تفرق البربر، فوجه حسان بقواته التي أرسلها له عبد الملك إلى الكاهنة، فلما علمت بذلك قالت: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن نريد المزارع والمراعي، وقررت تخريب أفريقية فبعثت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال (هذا هو الخراب الأول لأفريقية).

فلما اقترب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها يستغيثون ويشكون من ظلم الكاهنة فسار حسان إلى قابس[1] فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ثم سار إلى قفصه[2] فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية[3] ونفزاوه[4].

عندما علمت الكاهنة بقدوم حسان أمرت ولدين لها، وخالد بن يزيد أن يمضوا إلى حسان فيأخذوا لأنفسهم منه أماناً، وقد أدركت أنها مقتولة فالتحقوا به وسار حسان نحوها فالتقوا بقتال عنيف، فهزمت الكاهنة فأدركت وقتلت واستأمن البربر من حسان فأمنهم واشترط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم إثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فجعل على هذا الجمع ابني الكاهنة بعد ذلك انتشر الإسلام في البربر، وعاد حسان إلى القيروان في رمضان سنة (٧٤ هـ - ٦٩٣م) فبقي والياً على أفريقية إلى وفاة عبد الملك بن مروان.

وقيل لما قتل حسان الكاهنة عاد من فوره إلى عبد الملك، واستخلف على أفريقية رجلاً اسمه أبو صالح، وقيل لما ولى الوليد بن عبد الملك ولى أفريقية عمه عبد الله بن مروان فعزل عنها حسان، واستعمل موسى بن نصير سنة (٨٩ هـ - ٧٠٧م).

---

[1] قابس - مدينة بين طرابلس الغرب وسفاقس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٨٧.

[2] قفصة - بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية الغرب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٨٢.

[3] قسطيلية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٤٨.

[4] نفزاوه - مدينة من أعمال أفريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٢٩٦.

السياسية الخارجية: في هذه المرحلة سادت الامبراطورية الرومانية الفوضى والانهيار حيث اضطربت الأحوال في شبه جزيرة البلقان، وحدث قيام مستعمرات إسلامية ضخمة هناك، وكانت الامبراطورية البيزنطية قد فقدت بعض مواردها الاقتصادية التي كانت تأتيها من مصر كورق البردي والذي لا غنى لبيزنطة عن هذه المادة، وفقدت سيطرتها على المنسوجات الشامية، وعلى التوابل القادمة إليها من الشرق، وأهم ما فقدته أيضاً الذهب الذي كانت تحصل عليه من أفريقية، كل ذلك أدى إلى إضعاف بيزنطة.

و لم يقف الخطر عند مثل هذه الموارد الاقتصادية، إنما تعداها إلى الميدان الاجتماعي، أي إلى السياسة الداخلية، وخاصةً الدينية (بين المذهبين المونيليشي، والمونوفيزي)، التي زادت التمزق البيزنطي، وتوالت الانقلابات، وقتل الأباطرة وفقاً بعضهم أعين بعضهم الآخر، وأمور كثيرة، أضف على ذلك انعدام الهدوء في الشرق والغرب.

والعلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية لم تقتصر على العلاقات السياسية، بل تعدتها إلى العلاقات الاقتصادية والثقافية. من المعروف أن عبد الملك تسلم السلطة والدولة العربية مقسمة مشتتة تتنازعها عدة تيارات كما رأينا، وكان على عبد الملك مهمة إعادة توحيد الدولة والقضاء على الفتنة وبترها إذا استطاع ذلك، وقد نجح في مهمته فأعاد وحدة الدولة وحقق لها الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

في الوقت الذي استلم فيه عبد الملك السلطة تسلم جستنيان الثاني السلطة في بيزنطة، وكانت الدولة كما ذكرنا مشتتة أي أن عبد الملك حمل عبئاً ثقيلاً، وكان لابد له من القضاء على الأخطار التي تحدق به حسب أهميتها، ولتحقيق ذلك قرر تحييد بيزنطة، وقبل كل شيء جدد معاهدة السلام التي سبق لمعاوية أن عقدها مع قسطنطين الرابع. إذاً جدد عبد الملك معاهدة الصلح مع جستنيان إلا أن هذه المعاهدة كانت أوسع وأشمل من سابقتها، ففيها تم الاتفاق والتوصل إلى تسوية حول الولايات المتنازع عليها[1]، وهي:

١ـ قبرص ـ أرمينية ـ إيبيرية.

٢ـ تقاسم الطرفين الأموي والبيزنطي هذه الأقاليم مناصفةً.

---

[1] محمد سعيد عمران ـ معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ـ مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي ـ ص٨٣.

٣- إزالة المردة من شمال بلاد الشام.

٤- إرسال جزية إلى الامبراطورية البيزنطية من قبل الدولة الأموية.

استفاد عبد الملك بن مروان من هذه المعاهدة كثيراً ولو أنه خسر في قبرص وأرمينية وإيبيرية، إلا أنه اعتبر أن خسارته هذه كانت مؤقتة تفرضها الظروف الراهنة وبإمكانه تعويضها، ومن جهة أخرى أبعدت المعاهدة عنه أكبر خطر يمكن أن يلحق به الضرر في مختلف الميادين.

إلا أن عبد الملك من جهة أخرى كسب الكثير من إزالة المردة من شمال الشام، حيث وجه الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني أحد قادته (ليونتيوس) للإشراف شخصياً على إزالة المردة، وذلك بالتعاون مع الخليفة عبد الملك، وفي إزالتهم إبعاد لخطرهم القابع في جبال لبنان، ويذكر المؤرخون أن تعدادهم كان أكثر من إثني عشر ألفاً، ولقد كان المردة متعاونين مع الدولة البيزنطية ضد العرب، وبنقلهم أبعد خطرهم، إلا أن اعتماد بيزنطة عليهم استمر نظراً لما لهم من أهمية في حروبهم ضد خصومهم، والاستفادة من تجاربهم في حرب العصابات.

ونظراً لكون العلاقة بين الأمويين والبيزنطيين كانت قائمة على العداء، وكان القادة في كل من الدولتين يتحين الفرص للانقضاض على الآخر. خلال هذه المرحلة وجد البيزنطيون الفرصة المناسبة للانقضاض على إيبيريه حيث قاد القائد البيزنطي ليونتيوس حملةً ضدها وضد ألبانيا وتمكن من استعادتها إلى السيادة البيزنطية، ومن المعلوم أن هذا الإجراء كان مخالفاً لأول بند من بنود المعاهدة، فسبب هذا الإجراء غضب القيادة السياسية العربية، ممثلةً بشخص الخليفة عبد الملك، ويبدو أن هذا الاجراء كان قد خطط له بدقة ومعرفة ودراية بالموقف الصعب الذي يعاني منه عبد الملك بن مروان في صراعه مع خصومه في الداخل، وعلى رأسهم ابن الزبير. في الوقت نفسه أخذ جستنيان الثاني يعيد بناء قواته المسلحة بما يراه الأفضل.

عندما أعلن عبد الملك بن مروان عن تعريب النقود، وصك عملة ذهبية ونفذ ذلك، أرسل الجزية إلى بيزنطة من العملة الجديدة، التي كانت مجردة من صور الإمبراطور البيزنطي، وعليها نقوش تحمل نصاً قرآنياً إسلامياً «لا إله إلا الله» فاعتبر الامبراطور البيزنطي هذا الإجراء خروجاً على المعاهدة المتفق عليها من جهة، وخروجاً أيضاً على الثالوث المقدس، وتناسى أنه هو أول من نقض

المعاهدة كما ذكرنا من جهة أخرى، وتناسى أيضاً أن من حق الدولة العربية التصرف بسياستها الداخلية، وتحريرها من أية عوائق تحد من تطورها.

الحقيقة أن جستنيان الثاني لم يغضبه كما أتصور هذا الإجراء إنما اتخذه ذريعةً لمهاجمة العرب، وقد وجد نفسه يملك قوةً قادرة على فرض ما يريد، وكان قد أعد حملةً قوية لمهاجمة العرب. المهم أن الامبراطور البيزنطي أرسل حملةً قوية لمهاجمة العرب، في الوقت الذي كان فيه عبد الملك بن مروان قد قضى على خصومه، وأعاد وحدة الدولة وتماسكها. وتقابل الطرفان سنة (٧٤هـ ـ ٦٩٣م) في معركة حاسمة هي معركة سباستابول، التي انتهت إلى انتصار ساحق للعرب على خصومهم، وتمكن العرب من مطاردة خصمهم عبر جبال طوروس، وكانت النتيجة إخضاع أرمينيه، وإعادتها إلى حظيرة الدولة الأموية مرةً أخرى.

إذاً كان عبد الملك أول من ضرب العملة الذهبية (الدنانير) والعملة الفضية (الدراهم) وبذلك يكون قد استكمل ملامح سيادة الدولة العربية اقتصادياً، وقطع الجزية التي تعهد بدفعها لبيزنطة، كل ذلك تم بعد أن قضى على كل الصراعات الداخلية، و وحد الدولة المترامية الأطراف، وأعد القوات المسلحة، وأعطى أوامره لقواته بالحركة شرقاً وغرباً لإعادة استكمال الفتوحات، واستمر في إصلاحاته الداخلية، فعمل جاهداً على تحويل الإدارة إلى إدارة عربية صرفة، وعمل على تطوير نظام البريد، وبذلك أصبحت إدارة الدولة في عهده ذات طابع فني متدرج. إذاً امتاز عهد عبد الملك بأمور داخلية وخارجية، ففي الداخل عمل على:

١ـ توحيد الدولة بعد أن قضى على كل التناقضات الداخلية، وكان أهمها وأخطرها ابن الزبير تليها حركة عمرو بن سعيد بن الأشدق.

٢ـ تحرير الاقتصاد بصك عملة ذهبية وفضية جديدة وإيجاد دار ضرب عربية مستقلة.

٣ـ تعريب الإدارة حيث جعل لها طابعاً فنياً متدرجاً.

٤ـ توجيه الجيوش في الشرق والغرب لاستكمال الفتوحات:

آ ـ ففي الشرق استطاع الانتصار على بيزنطة في معركة سباستابول واستعاد أرمينية.

ب ـ في الغرب قضى على كل أمل لبيزنطة في العودة إلى المنطقة التي أنشأ فيها قاعدةً بحرية حيث أقام مدينة تونس سنة (٨٤هـ ـ ٧٠٣م)، وأقام بها داراً لصناعة السفن، وعمل حسان في

أفريقية على تنظيم الدواوين والإدارة وتنظيم جباية الخراج.

كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة، لأغزونك جنوداً مائة ألف ومائة ألف. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن يطلب منه الرد على رسالة ملك الروم، ففعل، فقال عبد الله ابن الحسن: «إن لله عز وجل لوحاً محفوظاً يلحظه كل يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفينك منها بلحظة واحدة»، فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، فكتب به عبد الملك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

عندما انشغل عبد الملك بحرب مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وشجعوه على انتهاز الفرصة ومهاجمة العرب لانشغال بعضهم ببعض، فنهاهم ملك الروم وقال: «إن العرب تقتتل ببينها فإذا أحدق بهم خطر تركوا منازعتهم واجتمعوا ضد هذا الخطر»[1].

السياسة الداخلية: تسلم عبد الملك السلطة في رمضان سنة (٦٥هـ - أبريل سنة ٦٨٤م)، وبعد استلامه السلطة أخذ يعالج الأمور العامة للدولة، وأولها القضاء على كل تمرد أينما كان وأهمها كان القضاء على خلافة ابن الزبير في الحجاز لأنه لا يجوز أن يكون هناك خليفتان في دولة واحدة، إذاً لابد لأحدهما من الانتصار على الآخر وكان الحلّ العسكري هو آخر هذه الحلول، إلا أنه قبل ذلك واجهته سلسلة متواصلة من الثورات والمؤامرات، يضاف لذلك الخطر البيزنطي حيث عقد صلحاً مع بيزنطة وأبعد هذا الخطر ولو مؤقتاً وقد تحدثنا عن ذلك.

خلال هذه المرحلة كان الصراع على أشده بين المختار، ومصعب بن الزبير، وكان المختار قد حقّق هدفه في قتل عبيد الله بن زياد، وقتل قتلة الحسين وأرستقراطية العراق بعد عجزه عن التفاهم معهم. ولم يتدخل عبد الملك في حرب مصعب والمختار، وكانت كما أرى سياسة ناجحة منه لأن كلاهما أعداء بالنسبة له، ولا أعتقد أن أحداث ومشاكل الشام هي التي منعته من التدخل، لأننا نرى أن عبد الملك استطاع السيطرة على الموقف في بلاد الشام دون عناء كبير، وأبعد خطر بيزنطة بالصلح، كما تمكن من إبعاد خطر الجراجمة.

---

[1] البيهقي - إبراهيم بن محمد البيهقي - المحاسن والمساوىء - طبع بيروت - دار صادر بلا تاريخ - ص١٣٠.

إذاً ترك عبد الملك أعداءه يقاتل بعضهم بعضا، وفي ذلك إضعافهم من جهة وقضاء أحدهم على الآخر، وهذا ما كان حيث قتل المختار وسيطر مصعب على العراق، إلا أن مصعباً لم تنته مشاكله في العراق بالقضاء على المختار وأتباعه، فكان ضدّه الخوارج في البصرة، والشيعة في الكوفة، أي أن مصعباً كان أمامه مشاكل كثيرة في العراق كانت سبباً حاسماً منعه من مهاجمة بلاد الشام، بينما كان عبد الملك قد قضى على أكثر خصومه، وكانت مصر تمده بالإمدادات اللازمة إذا دعت الحاجة.

بعد أن أنهكت الصراعات الداخلية في العراق قوة مصعب، قرر عبد الملك مهاجمة العراق فعسكر في بطنان حبيب ـ من منطقة قنسرين ـ وعسكر مصعب في باجميرا قرب تكريت، واختيار مصعب لهذا المكان مقراً لتعسكر قواته كان مخططاً له لأن باجميرا كانت قريبة من قرقيسياء حيث كان زفر بن الحارث الكلابي والقيسيون المعارضين للسياسة الأموية والمؤيدين لابن الزبير.

خلال خروج عبد الملك، خرج عليه كما هو معلوم عمرو بن سعيد، فاضطره إلى العودة إلى دمشق حيث تمكن من قتله، ثم ثبت سلطته في بلاد الشام، بعد ذلك قرر التوجه إلى العراق، إلى معسكره السابق، لكن الظروف الجوية حالت دون أي لقاء بينهما فاضطرا إلى أن يعود كل منهما إلى بلده.

خلال هذه المرحلة حاول عبد الملك إشعال الفتنة في العراق وفي البصرة خاصةً، فأرسل خالد ابن عبد الله بن أسد على البصرة، إلا أنه فشل في معركة الجفرة سنة (٧٠هـ ـ ٦٨٩م)، إلا أن نتائج هذه المعركة حققت انشقاق أهل البصرة ما بين مؤيد ومعارض وكان ذلك كسباً لعبد الملك، حيث أحدث تعصباً قبلياً لكن مصعباً استطاع أن ينزل عقاباً شديداً بأعدائه الذين وقفوا بالبصرة مع خالد وحاربوا بجانبه.

بعد ذلك وجه عبد الملك اهتمامه لإخضاع تمرد زفر بن الحارث والقيسيين في قرقيسياء فتمكن من ذلك، ثم قضى على بعض أنصار المختار في نصيبين. وبعد أن أنهى عبد الملك مشاكله في المناطق الخاضعة لحكمه قرر التوجه إلى العراق فعسكر في مسكن، أما مصعب فتوجه إلى معسكره في باجميرا حيث دارت معركة فاصلة في دير الجاثليق؛ خلال هذه المرحلة كتب عبد الملك إلى رؤوساء القبائل العراقية يعرض عليهم المناصب والأموال إذا وقفوا إلى جانبهم أو تخلوا عن

خصمه أو ساعدوا على إفشاله، علماً أن بعض أنصار مصعب كانوا قد كتبوا إلى عبد الملك يؤكدون له تأييدهم له مقابل مال أو ولاية.

كان مصعب في حربه للمختار قد أسرف في قتل أهل الكوفة فكثر الساخطون عليه وهم في صفوف جيشه فخسر الكثير من الكوفيين، وفعل مثل ذلك بأهل البصرة. عندما نزل عليهم خالد ابن عبد الله. أضف إلى ما ورد أن أهل العراق عبارة عن قبائل وصفت بعدم حب الطاعة وقد كره الولاة وطلب تبديلهم، وكان مصعب يعلم تمزق أهل العراق فحاول جاهداً كسب ودهم بأن بذل لهم العطاء مرتين في السنة إلا أن ذلك لم يقدم له أي فائدة تذكر، وقد حاول الأحنف بن قيس تحذير مصعب من أهل العراق، وتجاهل أيضاً تحذير إبراهيم بن الأشتر بشأن رؤساء القبائل، وبدأت المعركة وقتل مصعب وقتل أكثر أصحابه وخسر المعركة بعد أن رفض بعض رؤساء أهل الكوفة الانصياع لأوامره، وكان مقتل مصعب من قبل زائدة بن قدامة الثقفي وهو من مؤيديه، واعتبر ذلك انتقاماً للمختار.

بعد معركة الجاثليق دخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها، وعين عماله، واستقر أمر العراق، وكلف الحجاج بن يوسف بالتوجه إلى ابن الزبير بالحجاز، علماً أن عبد الملك كان قد أرسل جيشاً قبل ذلك إلى الحجاز بقيادة عروة بن أنيف قوامه ستة آلاف رجل، وكان أمره له بعدم دخول المدينة وأن يعسكر بالعرضه وهدفه حماية حدود بلاد الشام ضد أي خطر قد تتعرض له من ابن الزبير كاجراء انتقامي[1]. كما كان عبد الملك قد أرسل جيشاً آخر إلى الحجاز بقيادة عبد الواحد بن الحكم بن العاص[2]، وكان عبد الملك أيضاً قد أرسل طارق بن عمرو على رأس جيش من أهل الشام وأمره أن يعسكر بين ايله، ووادي القرى وهدفه منع عمال ابن الزبير من الانتشار وحفظ ما بينه وبين الشام، وبقي مكانه حتى أمره عبد الملك بالانضمام إلى الحجاج أثناء حصاره لمكة.

كان عبد الملك عندما وجه الحجاج إلى الحجاز قد أمره أن يعسكر في الطائف، ومنها يقوم ببعض الغارات على ابن الزبير وقواته، فأدرك الحجاج أن موقفه لن يحقق له الانتصار الكامل، فأعلم عبد الملك بذلك وطلب منه السماح له بدخول مكة فوافقه وحاصر ابن الزبير في شهر ذي القعدة

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٢٨٣.

[2] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

عام (٧٢هـ ـ ٢٥ مارس ـ ٦٩٢م)، واستمر الحصار أكثر من ستة أشهر عانى منها ابن الزبير وأتباعه الكثير فارتفعت الأسعار في مكة وضعفت معنويات ابن الزبير وتركه أكثر أصحابه[1]، وانضموا إلى الحجاج بعد أن أمنهم، ومع ذلك صمد ابن الزبير حتى كانت نهايته المفجعة في (١٧جمادى الأولى سنة ٧٣هـ ـ ١٨أيلول ٦٩٢م)، وبذلك يكون عبد الملك قد قضى على أكبر معارضة تعرضت لها الدولة الأموية في تاريخها، وكان من نتائج حركة ابن الزبير:

- خضوع الحجاز للأمويين.
- حصر الخلافة في شخص عبد الملك بن مروان.
- فشل ابن الزبير في استعادة السلطة إلى المدينة.
- لم تجد وسائله في استخدام مكة كمركز لحركته.
- كان ما وصف به من بخل وعدم اعتماده المال في كسب ودّ الآخرين سواء في العراق أم في الحجاز سبباً من أسباب فشله.
- الفشل في جمع المعارضة وقيادتها وهذا ما استفاد منه الأمويون في السيطرة على الموقف.
- تصلّب ابن الزبير في مواقفه وعدم مرونته.
- عدم استعماله أساليب عسكرية وقدرة قيادية حازمة ومرنة خلال كونه كان يملك الحجاز والعراق ومصر.
- لم يظهر نفسه بمظهر السياسي البارع، بل على العكس كان ـ ابتدأ من لقائه مع الحصين ـ

أما الأمويون فاعتمدوا وسائل كثيرة في حربهم مع ابن الزبير منها:

- أن الأمويين يعتبرون أنفسهم أصحاب الحقّ الشرعي في السلطة وورثته.
- تصرف الأمويون على مستوى المسؤولية وخاصةً عبد الملك.
- اعتمد الأمويون أسلوب فرق تسد مع خصمهم ابن الزبير فأثاروا العصبية القبلية في صفوف ابن الزبير.
- كان الأمويون وحدة متراصّة بعد قضاء عبد الملك على خصومه، في الوقت الذي كان فيه ابن الزبير على خلاف شديد مع المختار من جهة ومع الخوارج ومع القبائل المتناحرة في الكوفة من جهة أخرى.

---

[1] يذكر أن عدد الذين تخلوا عنه كانوا أكثر من عشرة آلاف منهم ولدان لابن الزبير.

- اعتمد الأمويون قادة أكفاء موالين لهم كما اعتمدوا المال والوعود.

- كان جند الشام أقدر على القتال وأكثر تمريناً وتضحية من جند العراق من جهة والحجاز من جهة أخرى.

- كانت الإمدادات متوالية للأمويين سواء في العراق أم في الحجاز وهذا بدوره رفع من الروح المعنوية للأمويين مقابل انخفاضها عند خصومهم.

- كان الأمويون أكثر تفنناً في السياسة من خصومهم وبرعوا في استخدامها في كل موقف.

بعد أن ظهرت قدرة الحجاج العسكرية وأثبت إخلاصه للأسرة الأموية ودفاعه المستميت عن مصالحها وتأكد لعبد الملك ذلك نقله من الحجاز إلى العراق عام (٧٥هـ - ٦٩٤م)، فمجرد وصوله إلى العراق صعد المنبر وأعلن عن مبادئه التي يعتمدها في سياسته خلال وجوده هناك، وكانت غاية عبد الملك من ولايته العراق بالدرجة الأولى استعادة ضبط البلاد، وزرع النظام بها لأنها بلد الفتن والاضطرابات وعدم الطاعة.

خلال هذه المرحلة كانت ثورة عبد الله بن الجارود في البصرة وكان سببها العطاء أثناء ولاية مصعب بن الزبير الذي منحهم العطاء مرتين سنوياً وزادهم في عطائهم مائة درهم لكل منهم فلما ولي الحجاج منع ذلك وقال: إن هذه الزيادة هي زيادة فاسق منافق وإنها غير شرعية، وتصرف الحجاج وكان هدفه الحقيقي هو الحاجة إلى الاقتصاد من أجل مواجهة نفقات الحرب ضد الخطر الذي ما زال جاثماً. علماً أن بشر بن مروان كان قد أقرها قبل الحجاج فأثار فعله غضب الناس فثار الجارود وبايعه رؤساء القبائل ووجوه أهل البصرة على أن يكتبوا للخليفة عبد الملك يسألونه تعيين والٍ جديد بدلاً من الحجاج وإذا رفض فيكون خلعه، وكانت هذه الثورة تحمل في طياتها:

- التذمر من نقص العطاء وكان ذلك سبباً في تجمعهم.

- رفض العراقيين لإجراءات الحجاج التي أعلن عنها في خطبته والتي نفذها وخاصةً القمع الذي مارسه على أبناء البلاد منذ ولي العراق.

- أكدت الثورة كره أهل العراق الدائم للحكم الأموي.

- وكانت ثورتهم بعد أن أدركوا أن الحجاج لن يتخلى عن منعهم من العطاء فكان ذلك سبباً من أسباب اجتماعهم ومبايعة الجارود.

- اجتمعت جميع القبائل حول ابن الجارود.

عندما علم الحجاج بخطة الجارود اتخذ بعض الإجراءات للمحافظة على الأمن، ففصل أخماس البصرة عن أرباع الكوفة بوضع حرس على الطريق بينهم، كما وضع حرساً لحراسة بيت المال. كان ابن الجارود في بداية عمله حتى أظهر أمره وقد اعتمد السرية في جمع قواته، حيث تمكن فوراً من مخزن أسلحة الحجاج بعد أن قطع الجسر بين المعسكرين، وبقي الحجاج في خاصته فقط و لم يستسلم وكان يتمتع بروح معنوية، حيث أرسل إلى ابن الجارود يأمره بالقدوم عليه فقتل الرسول، وزحف الجارود نحو الحجاج فدخلوا فسطاطه ونهبوا ممتلكاته ثم قرر ابن الجارود وقف أعماله ضد الحجاج لأن هدفه لم يكن قتله إنما نفيه من العراق.

لم يعتد الحجاج على مثل هذا الموقف حيث بقي مع قليل من أتباعه فأخذ يفكر بالهرب خوفاً على حياته، إلا أنه استمسك ومن معه، في هذا الوقت بدأ بعض الثوار ينضمون إليه فقوي بهم ولو أن ابن الجارود في اليوم الأول هاجم الحجاج لقتله ومن معه أو أخذه ومن معه أسرى، إلا أن التردد هو الذي فعل به وبقواته ما فعل، وأخذت القبائل وقادتها تنضم إلى الحجاج الواحدة بعد الأخرى، وكان منهم قتيبة بن مسلم، وعباد بن الحصين، وتمكن الحجاج من إعادة تجميع بعض القوات فقاد بهم معركة حاسمة كانت نهايتها قتل الجارود.

يظهر من كتب التاريخ أن ثورة ابن الجارود استطاعت حشد الناس وبسرية مذهلة إلا أن هدفها لم يكن واضحاً متفقاً عليه وإذا كان، فإنهم اختلفوا حول تنفيذه هذا من جهة، ثم إن العصبية القبلية وعدم تصرف ابن الجارود بكياسة مع بعضها أفقده السيطرة، وكانت النتيجة خسارته وفشل ثورته وقتله، ولو أنه كان حازماً منذ البداية و لم يتردد لحقق ما عجز عنه غيره.

أخيراً لا ننسى حركة الخوارج ذات الإمتداد الواسع في هذه المرحلة، ففي اليمامة كان نجدة ابن عامر الذي شمل نشاطه اليمامة، حضرموت، البحرين، الطائف، عمان، بعض اليمن، الأزارقة سيطروا على الأهواز وفارس وأصفهان وكرمان. الصفرية في الموصل والجزيرة، الأباضية في البصرة، ورغم ذلك تمكن عبد الملك من معالجة مشاكل الخوارج وتفتيتهم، حيث اعتمد إلى جانب الصراع المسلح أسلوب الإغراء بالمال، ومراسلة بعض قادة الخوارج وغير ذلك. في النهاية كما ذكرنا قمع عبد الملك جميع حركات المعارضة وبدأ سياسة إقتصادية هامة.

السياسة النقدية: من المعلوم أن العرب عرفوا النقود قبل الإسلام، فالحميريون تمكنوا من صك النقود قبل الإسلام (١١٥ق.م ـ ٣٠٠م) مقلدين الدراخما الإغريقية[1] وضربها الأنباط أيضاً قبل الميلاد، وضربها التدمريون، وعندما جاء الإسلام استعمل النقود التي كانت سائدة[2] قبل ذلك، ثم أجرى على النقود المتداولة سواء كانت فارسية أم بيزنطية بعض التغيير والتبديل بما يتناسب مع جوهر العقيدة الإسلامية.

وعندما وجدت الدولة الأموية وحاول معاوية إجراء تعديل على النقود المتداولة و لم يحدث ابنه يزيد بأي تقدم في هذا الاتجاه، إلا أن ابن الزبير خلال خلافته كان أول من صكّ النقود المستديرة وبأنواع، كما أقدم أخوه مصعب في العراق على صك نقود في البصرة وكرمان ونهاوند.

تحدث كثيرون عن قضية التعريب في عصر عبد الملك بن مروان والتي جاءت نتيجة الانتصارات السياسية والعسكرية التي حققتها في كل مكان من أرض الدولة من الحجاز إلى العراق إلى الشرق إلى بلاد الشام إلى غيرها، فبعد هذه المتغيرات المستجدة وظهور الاستقرار السياسي القائم على الشدة والعنف الذي تمثّل في شخصية الخليفة عبد الملك وهل هناك قسوة وعنف أكثر مما مارسه في القضاء على عمرو بن سعيد (الأشدق) عندما ثار عليه، فقد كانت قسوته مدرسة اعتمدها ولاته من بعده فكانوا تلامذة أوفياء له في هذا المضمار ولا أدل على ذلك من الحجاج بن يوسف الذي استمر على ولايته للعراق والمشرق طيلة حكم الخليفة عبد الملك وفترةً طويلة من حكم ابنه الوليد. إذاً كان الاستقرار السياسي كما أتصوره نتيجة سياسة القهر والاضطهاد.

وقضية التعريب في عهد الخليفة عبد الملك تعددت الآراء والأقوال حولها والأسباب والدوافع لمثل هذا الاجراء، وقد تحدث المؤرخون عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل وسأذكر ما قاله بعض هؤلاء وهم المعتمد عليهم في الحديث عن مثل هذا الموضوع، ثم نستنتج من أقوالهم ما نراه أنه الأصح، وقد ذكرت أقوالهم كما هي واردة في كتبهم كي لا يكون هناك أي التباس.

---

[1] جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب ـ طبع بيروت سنة ١٩٧٦ ـ ج٢ ـ ص٢٦٤.

[2] شحادة الناطور ـ تجديد الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان ـ ٥٦٩ ــ ٦٨٥م ـ ٨٦هـ ــ ٧٠٥م ـ طبع الأردن سنة ١٩٩٦م ـ ص٢٥٢.

قال البلاذري: «حدثني محمد بن سعد قال: حدثنا محمد بن عمر الأسلمي قال: حدثنا عثمان ابن عبد الله بن موهب عن أبيه عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير قال: كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية وترد عليهم دراهم الفرس البغلية فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر.

وكان المثال عندهم معروف الوزن، وزنه اثنان وعشرون قيراطاً إلا كسراً، ووزن عشرة الدراهم سبعة مثاقيل، فكان الرطل اثني عشر أوقية وكل أوقية أربعون درهماً، فأقر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلما كان معاوية أقر ذلك على حاله، ثم ضرب مصعب بن الزبير في أيام عبد الله بن الزبير دراهم قليلة كسرت بعد.

فلمّا ولي عبد الملك بن مروان، سأل وفحص عن أمر الدراهم والدنانير فكتب إلى الحجاج بن يوسف، أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدنانير وضرب هو الدنانير الدمشقية قال عثمان قال أبي فقدمت علينا المدينة وبها نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغيرهم من التابعين فلم ينكروا ذلك»[1].

يذكر البلاذري الذي كانت وفاته سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م)[2]:

١- أن الدولة العربية الإسلامية في بداية عهدها تعاملت بالنقود المتداولة قبل ذلك، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان قد أقرها كما أقرها الخلفاء الراشدون واستمرت كما هي في عهد معاوية.

٢- يذكر أن مصعب بن الزبير عندما كان والياً على العراق كان قد ضرب دراهم قليلة كسرت بعده.

٣- يذكر أن عبد الملك في عهده كان قد سأل وفحص عن أمر الدراهم والدنانير، فكتب إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدنانير.

٤- يذكر أيضاً أن عبد الملك هو الذي ضرب الدنانير الدمشقية.

٥- لم ينكر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم، ولا غيرهم من التابعين ما فعله عبد الملك وعامله الحجاج من ذلك شيئاً.

---

[1] البلاذري - فتوح البلدان - ص٦٥٢-٦٥٣.

[2] أحمد أمين - ظهر الإسلام - طبع بيروت ١٩٦٩ - ج٢ - ص٢٠.

نستنتج أن أول من ضرب الدراهم في العصر الأموي وبأمر من عبد الملك كان الحجاج خلال ولايته للعراق، ثم أن عبد الملك ضرب الدنانير في الشام بعد أن ضرب الحجاج الدراهم و لم يذكر البلاذري تاريخ هذا الضرب ولا أي تفصيل حول ذلك مثل الدوافع التي بموجبها تم القيام بهذا العمل.

وقال قدامه بن جعفر: «قال (أبو الفرج): لما أخذ أمر الفرس يضمحل، ودولتهم تضعف، وسلطانهم يهون، وتدابيرهم تفسد، وسياستهم تضطرب، فسدت نقودهم، فقام الإسلام ونقودهم من العين والورق، غير خالصة فما زال الأمر على ذلك إلى أن اتخذ الحجاج دار الضرب، وجمع فيها الطباعين، فكان المال يضرب للسلطان مما يجتمع له من التبر، وخلاطة الزيوف، والبهرجة. ثم أذن للتجار في أن تضرب لهم الأوراق، وأشغل الدار من فضول ما كان يؤخذ من الأجور، وختم على أيدي الصناع والطباعين وذلك في سنة خمس وسبعين. ثم نقش على الدراهم «ا لله أحد ا لله الصمد»، فسميت المكروهة لأن الفقهاء كرهوها»[1].

١ـ يذكر قدامة بن جعفر أن النقود بقيت متداولة على حالها إلى أن كان الحجاج.

٢ـ يذكر أن الحجاج هو الذي اتخذ دار الضرب وذلك سنة (٧٥هـ ـ ٦٩٤م)، ونقش على الدرهم «ا لله أحد ا لله الصمد»، فسميت المكروهة لأن الفقهاء كرهوها.

يختلف قدامة بن جعفر مع البلاذري في أمرين هما أن الحجاج هو الذي اتخذ دار الضرب ويحدد سنة (٧٥هـ ـ ٦٩٤م)، ولا يذكر عبد الملك بن مروان نهائياً، ثم يخالف البلاذري الذي ذكر أن فقهاء المدينة لم ينكروا ما ضربه الحجاج وعبد الملك، بينما قدامة يذكر أن نقود الحجاج سميت المكروهة لكراهة الفقهاء لها، وقدامة لا يذكر الدوافع التي حثت لضرب هذه النقود.

وقال الطبري في أحداث سنة (٧٦هـ): «[نقش الدنانير والدراهم بأمر عبد الملك بن مروان]

وفي هذه السنة أمر عبد الملك بن مروان بنقش الدنانير والدراهم. ذكر الواقدي: أن سعد ابن راشد حدثه عن صالح بن كيسان بذلك. قال: وحدثني ابن أبي الزناد، عن أبيه، أن عبد الملك ضرب الدراهم والدنانير عامئذ، وهو أول من أحدث ضربها. قال: وحدثني خالد بن أبي ربيعة، عن أبي هلال، عن أبيه، قال: كانت مثاقيل الجاهلية التي ضرب عليها عبد الملك اثنين

[1] قدامة بن جعفر ـ الخراج وصناعة الكتابة ـ تحقيق محمد حسين الزبيدي ـ طبع العراق ١٩٨١ ـ ص٥٩.

وعشرين قيراطاً إلا حبة، وكانت العشرة وزن سبعة.

قال: وحدثني عبد الرحمن بن جرير الليثي عن هلال بن أسامة قال: سألت سعيد بن المسيب في كم تجب الزكاة من الدنانير؟ قال: في كل عشرين مثقالاً بالشآمي نصف مثقال، قلت: ما بال الشآمي من المصريّ؟ قال: هو الذي تُضرب عليه الدنّانير. وكان ذلك وزنْ الدّنانير قبل أن تُضرب الدّنانير، كانت اثنين وعشرين قيراطاً إلاّ حبَّة، قال سعيد، قد عرفتهُ، قد أرسلتُ بدَنانيرَ إلى دمشق فضُربتْ على ذلك»[1].

يذكر الطبري في أحداث سنة (٧٦هـ ــ ٦٩٥م) أنه تم نقش الدنانير والدراهم بأمر عبد الملك، وأنه أول من أحدث ضربها بدمشق.

يحدد الطبري في روايته أمرين الأول يحدد سنة (٧٦هـ ـ ٦٩٥م) زماناً لنقش النقود، والأمر الثاني أن ذلك كان بأمر الخليفة عبد الملك دون سواه ولا يذكر الحجاج في ذلك نهائياً، ولا يذكر الأسباب أو الدوافع التي حثت عبد الملك لفعل ذلك.

وقال البيهقي: «سأخبرك، كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك ملك الروم، وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها أباً وابناً وروحاً قدساً. فلم يزل كذلك صدر الإسلام كلّه يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك فتنبه عليه وكان فطناً، فبينا هو ذات يوم إذ مرّ به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب وهما تعملان بمصر وغير ذلك ممّا يطرّز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله وأهله تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طرّزت بشرك مثبت عليها.

فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان، وكان عامله بمصر، بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وأن يأخذ صُنّاع القراطيس بتطريزها بصورة التوحيد: وشَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ. وهذا طراز القراطيس خاصّةً إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغيّر. وكتب إلى عُمّال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرّزة بطراز الروم ومُعَاقَبَة من وُجِدَ عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٧٦هـ ـ ج٦ ـ ص٢٥٦.

فلمّا أُثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحُمِل إلى بلاد الروم منها انتشر خبرُها ووصل إلى مَلِكهم فتُرْجِم له ذلك الطراز فأنكره وغلظ عليه فاستشاط غضباً وكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرّز بطراز الروم إلى أن أبطلته، فإن كان من تقدمّك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطؤوا، فاختر من هاتين الخلّتين أيّتهما شئت وأحببت، وقد بعثتُ إليك بهدية تشبه محلّك وأحببتُ أن تجعل ردّ ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرّز من أصناف الأعلاق حاجةً أشكرك عليها وتأمر بقبض الهديّة. وكانت عظيمة القدر.

فلمّا قرأ عبدُ الملك كتابَه ردّ الرسول وأعلمه أن لا جواب له ولم يقبل الهديّة. فانصرف بها إلى صاحبه، فلمّا وافاه أضعف الهديّة وردّ الرسول إلى عبد الملك وقال: إني ظننتُكَ استقللتَ الهديّة فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي فأضعفتُ لك الهديّة وأنا أرغب إليك في مثل ما رغبت فيه من ردّ هذا الطراز إلى ما كان عليه أوّلاً. فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يُجبه وردّ الهديّة.

فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كُتُبِهِ ويقول: إنّكَ قد استَخْفَفْتَ بجوابي وهديّتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهّمتك استقللتَ الهديّة فأضعفتُها فجريتَ على سبيلك الأوّل وقد أضعفتُها ثالثةً، وأنا أحلفُ بالمسيح لتأمرنّ بردّ الطراز إلى ما كان عليه أوْ لآمرنّ بنقش الدنانير والدراهم، فإنّك تعلم أنّه لا ينقش شيء منها إلاّ ما ينقش في بلادي. ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام. فينقش عليها مِنْ شَتْمِ نبيّكَ ما إذا قرأتَه ارفضّ جبينك له عرقاً، فأحبّ أن تقبل هديّتي وتردّ الطراز إلى ما كان عليه وتجعل ذلك هديّة بررتني بها ونبقى على الحال بيني وبينك.

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب غلُظ عليه وضاقت به الأرض وقال: احسبني أشأم مولودٍ وُلِـدَ في الإسلام لأني جنيتُ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن مَحْوُهُ من جميع مملكة العرب. إذ كانت المُعامَلات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم. وجمع أهلَ الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحدٍ منهم رأياً يعمل به. فقال له رَوْح بن زنباع: إنّك لتعلم الرأيَ والمخرج من هذا الأمر ولكنّك تتعمّد تركَهُ. فقال: ويحك مَنْ؟ قال: الباقِر من أهل بيت النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم! قال: صدقتَ ولكنّه أُرتج عليّ الرأي فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخصْ إليّ محمد بن عليّ بن الحسين مكرماً ومتّعه بمائتي ألف

درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته وأزِحْ علّته في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه واحتبس الرسول قِبَله إلى موافاته عليّ. فلمّا وافى أخبره الخبر فقال له محمد بن عليّ: لا يعظمنّ هذا عليك، فإنّه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أنّ الله جلّ وعزّ لم يكن ليطلق ما يُهَدّدك به صاحب الروم في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، والأخرى وجود الحيلة فيه. قال: وما هي؟

قال: تدعو في هذه الساعة بصُنّاع يضربون بين يديك سِكَكاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، أحدهما في وجه الدرهم والدينار والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مَدَار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسَّنَة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من ثلاثة أصناف التي العشرة منها بوزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستّة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدّة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصبّ سَنَجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل.

وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنّما هي الكسرويّة التي يقال لها اليوم البغليّة لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطّاب، رحمه الله، بسكّة كسرويّة في الإسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسيّ مكتوب بالفارسيّة: نُوش خُر، أي كُلْ هنيئاً. وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً. والدراهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستّة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السّمّيْريّة الخِفاف والثّقَال، ونقشها نقش فارس.

ففعل عبد الملك ذلك. وأمره محمد بن عليّ بن الحسين أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها وأن يتهدّدوا بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها وأن تبطل وتردّ إلى مواضع العمل حتى تعاد على السكك الإسلامية. ففعل عبد الملك ذلك وردّ رسول ملك الروم إليه يعلمه بذلك ويقول: إنّ الله جلّ وعزّ مانعك ممّا قدرتَ أن تفعلَه، وقد تقدّمتُ إلى عمالي في أقطار الأرض بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز الروميّة»[1].

---

[1] البيهقي ـ المحاسن والمساوىء ـ ص٤٦٩ـ٤٧٠.

أما البيهقي فيتحدث بتفصيل أكبر حول هذا الموضوع حيث يذكر أن القراطيس كانت للروم وكانت تطرز بمصر بالرومية وطرازها - أباً وابناً وروحاً قدساً - ثم يذكر أن ذلك استمر في بداية الإسلام حتى كان عهد عبد الملك بن مروان، حيث مر به قرطاس، فأمر أن يترجم له بالعربية، فأنكره لأنه طرز بشرك.

أرسل عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز بن مروان، وكان نائباً عنه بمصر وهو ولي عهده أيضاً يأمره بإبطال هذا الطراز نهائياً مهما كان، وأمره أن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بصورة «التوحيد، وشهد الله أن لا إله إلا هو»، أي أنه أمر بتعريبه وكتب إلى عماله كافة بإبطال القراطيس المطرزة بالرومية ومعاقبة من يخالف بعد ذلك أشد العقوبة.

عندما علم ملك الروم بتعريب القراطيس غضب، وكتب لعبد الملك إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم إلى هذا الوقت فلما غيرت وبدلت، وسأله إن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت أصبت فقد أخطأوا، وبعث إليه بهديه، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ردّ الرسول والهدية بدون جواب، وتكررت رسل ملك الروم حسب هذه الرواية، وفي كل مرة يناشد عبد الملك أن يرد الطراز إلى ما كان عليه وهدده إذا لم يردها على ما كانت عليه بقوله «لآمرن بنقش الدنانير والدراهم، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلا ما ينقش في بلادي، ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفض جبينك له عرقاً».

عندما قرأ عبد الملك كتاب ملك الروم الأخير غضب لذلك وضاقت عليه الأرض، ثم جمع قادته يستشيرهم حول ذلك، فلم يجد عندهم الحل إلا ما كان من روح بن زنباع حيث ذكّره بأن محمد الباقر سيكون عنده الحل كونه البقية الباقية من أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم، فكتب عبد الملك إلى عامله على المدينة يأمره بأن يوجه إليه محمد الباقر، عندما قدم الباقر على عبد الملك وأعلمه بالحدث قال له الباقر: لا يعظمن عليك هذا الأمر من جهتين:

١- إن الله جلّ وعزّ لم يكن ليطلق ما يهددك به صاحب الروم في رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

٢- الحل الثاني أن هناك حيلةً في هذا الأمر مضمونها أن تدعو الصناع فيضربوا بين يديك

سككاً للدراهم والدنانير، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد، وذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وحدد شكل النقود ورسمها وما يكتب عليها ووزنها، ثم أمر أن يصب سنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم.

٣ـ وأوصى الباقر بأن توزع السكة في جميع بلدان الدولة العربية الإسلامية، وأمر الناس بالتعامل بها وعقوبة المخالف لذلك.

٤ـ أعلم عبد الملك رسول ملك الروم بهذا الإجراء أي إبطال السكة والطراز الرومي وتعريبه.

أخيراً يتضح مما سبق أن القراطيس والطراز وما لفت انتباه الخليفة حول ذلك كان الدافع الأول والأخير حسب هذه الرواية لتعريب الاقتصاد وعلى رأسه النقود، فكان بذلك أكبر فتح في تحرر الاقتصاد العربي من تبعيته، وكان ذلك بإشارة من محمد الباقر بقية أهل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ابنته فاطمة.

وقال ابن الأثير في أحداث سنة ٧٦هـ: «وفي هذه السنة ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم، وهو أوّل من أحدث ضربها في الإسلام، فانتفع الناسُ بذلك. وكان سبب ضربها أنّه كتب في صدور الكتب إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[1]، وذكر النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم، مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: إنّكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه وإلاّ أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيّكم ما تكرهون. فعظم ذلك عليه. فأحضر خالدَ بن يزيد بن معاوية فاستشاره فيه، فقال: حرّمْ دنانيرهم واضربْ للناس سكّةً فيها ذكر الله تعالى. فضرب الدنانير والدراهم.

ثمّ إنّ الحجّاج ضرب الدراهم ونقش فيها: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[1]، فكره الناسُ ذلك لمكان القرآن لأنّ الجُنُب والحائض يمسّها، ونهى أن يضرب أحد غيره، فضرب سمير اليهوديُّ، فأخذه ليقتله، فقال له: عيار درهمي أجود من دراهمك فلمَ تقتلني؟ فلم يتركه، فوضع للناس سنج الأوزان ليتركه فلم يفعل، وكان الناس لا يعرفون الوزن إنّما يزنون بعضها ببعض، فلمّا وضع لهم سمير السنج كفّ بعضهم عن غبن بعض.

وأوّل من شدّد في أمر الوزن وخلّص الفضّة أبلغ من تخليص مَن قبله عمر بن هبيرة أيّام يزيد ابن عبد الملك، وجوّد الدراهم، وخلّص العيار واشتدّ فيه. ثمّ كان خالد بن عبد الله القَسْريُّ أيّام

[1] سورة الإخلاص ـ الآية الأولى.

هشام بن عبد الملك فاشتدّ أكثر من ابن هُبَيْرة. ثمّ وليَ يوسف بن عمر فأفرط في الشدّة، فامتحن يوماً العيار فوجد درهماً ينقص حبّة فضرب كلّ صانع ألف سوط. وكانوا مائة صانع، فضرب في حبّة مائة ألف سوط. وكانت الهُبَيْرِيّة والخالديّة واليوسفيّة أجود نقود بني أمية، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها، فسُمّيت الدراهم الأولى مكروهة.

وقيل: إنّ المكروهة الدراهم التي ضربها الحجّاج ونقش عليها: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[1] فكرهها العلماء لأجل مسّ الجُنُب والحائض.

وكانت دراهم الأعجام مختلفة كباراً وصغاراً، وكانوا يضربون مثقالاً، وهو وزن عشرين قيراطاً، ومنها وزن أثني عشر قيراطاً، ومنها وزن عشرة قراريط، وهي أصناف المثاقيل، فلمّا ضُربت الدراهم في الإسلام أخذوا عشرين قيراطاً وإثني عشر قيراطاً وعشرة قراريط فوجدوا ذلك اثنين وأربعين قيراطاً فضربوا على الثلث من ذلك، وهو أربعة عشر قيراطاً، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطاً، فصار وزن كلّ عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقيل: إنّ مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة أيّام أخيه عبد الله بن الزبير، ثمّ كُسرت بعد ذلك أيّام عبد الملك. والأوّل أصحّ في أن عبد الملك أوّل مَن ضرب الدراهم والدنانير»[2].

أما ابن الأثير فيذكر أن عبد الملك بن مروان كان أول من أحدث ضرب النقود في الإسلام سنة (٧٦هـ - ٦٩٥م) ويحدد السبب بأنه كتب في صدر كتاب وجهه لملك الروم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وذكر النبي - صلى الله عليه وسلم، فكتب ملك الروم إليه يطلب منه ترك ما أحدثه وإلا أتاكم من دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك، فأحضر خالد بن يزيد فاستشاره حول ذلك فكان رأيه ترك التعامل بالنقود البيزنطية وضرب نقود عربية، فتم ذلك، ثم أن الحجاج ضرب الدراهم فكره الناس ذلك، وقال إن مصعب بن الزبير ضرب دراهم قليلة عندما كان عاملاً على العراق.

يتفق ابن الأثير مع البيهقي نسبياً في السبب الذي دعا عبد الملك لضرب النقود لكن دون تفصيل، ويختلف معه في أن خالد بن يزيد هو الذي أشار عليه بضرب النقود، ثم ينتقل ابن الأثير

---

[1] سورة الإخلاص - الآية الأولى.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٧٦هـ - ج٤ - ص٤١٩ - ٤٢٠.

بشكل غير متوقع فيقول إن الحجاج ضرب الدراهم دون أن يذكر كيف تم ومن أين صدرت له الأوامر بذلك وما هي دوافعه، ويذكر أن دراهم الحجاج سميت المكروهة، ثم يذكر أن مصعب بن الزبير كان قد ضرب نقوداً عندما كان عاملاً على العراق أي أن رواية ابن الأثير ليس فيها ترتيب للأحداث حسب توقيتها الزمني.

وقال ابن كثير في أحداث سنة (٧٦هـ): «قال ابن جرير: وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان الدراهم والدنانير وهو أول من نقشها، وقال الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية: اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام فقال سعيد بن المسيب: أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان، وكانت الدنانير والدراهم رومية وكسروية.

قال أبو الزناد: وكان نقشه لها في سنة أربع وسبعين، قال المدائني: خمس وسبعين، وضربت في الآفاق سنة ست وسبعين، وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها الله أحد، وعلى الوجه الآخر الله الصمد.

قال: وحكى يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير، سنة سبعين على ضرب الأكاسرة، عليها الملك من جانب، والله من جانب.

ثم غيرها الحجَّاج وكتب اسمه عليها من جانب ، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبد الله القسيري في أيام هشام، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم.

ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيريه والخالدية واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة منها الدراهم البغلية، وكان الدرهم منها ثمانية دوانيق، والطبرية وكان الدرهم منها أربعة دوانيق، واليمني دانق، فجمع عمر بن الخطاب بين البغلي والطبري ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعي وهو نصف مثقال وخمس مثقال، وذكروا أن المثقال لم يغيروا وزنه في جاهلية ولا إسلام، وفي هذا نظر والله أعلم»[1].

---

(1) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص١٦ـ ١٧.

ويعدد ابن كثير[1] آراء من سبقه فيذكر قول الطبري بأن عبد الملك كان أول من نقش على الدراهم والدنانير، ويذكر أن الماوردي قال: اختلف في أول من ضربها بالعربية، قال سعيد بن المسيب: أول من ضربها عبد الملك وأن نقشها كان سنة (٧٤هـ ـ ٦٩٣م)، وقال المدائني سنة (٧٥هـ ـ ٦٩٤م)، وضربت في الآفاق سنة (٧٦هـ ـ ٦٩٥م)، وقال يحيى بن النعمان الغفاري عن أبيه: إن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير سنة (٧٠هـ ـ ٦٨٩م) ثم غيرها الحجاج ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك، ثم نقش أجود منها خالد بن عبد الله القسري أيام هشام، ثم يوسف بن عمر.

لم يضف ابن كثير على غيره من المؤرخين إلا أنه يذكر أن أول من ضرب النقود هو مصعب ابن الزبير سنة (٧٠هـ ـ ٦٨٩م) وغيرها الحجاج فيما بعد، وأن النقود كان الولاة يحدثونها كل في عهده بأفضل مما كانت عليه. ويذكر ابن كثير أن عبد الملك كان قد نقش عام (٧٦هـ ـ ٦٩٥م) على الدراهم والدنانير وأكد على قول الطبري بأنه أول من نقش على النقود.

وقال ابن خلدون: «(السكة) وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ولفظ السكة كان إسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك.

ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك و لم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم. ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب.

---

[1] توفي ابن كثير صاحب كتاب البداية والنهاية سنة ٧٧٤ هـ.

وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد ابن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدايني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولّي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده.

وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً فكان المثقال درهما وثلاثة أسباع درهم.

وقيل كان منها البغلي بثمانية دوانق والطبري أربعة دوانق والمغربي ثمانية دوانق واليمني ستة دوانق فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقاً وكان الدرهم ستة دوانق وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً وإذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش فعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صور لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور.

فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبي وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين»[1].

---

[1] ابن خلدون ـ المقدمة ـ بدون تاريخ وطباعة ـ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

أما ابن خلدون[1] فيذكر في مقدمته تحت عنوان السكة أن أول من ضرب النقود عبد الملك ابن مروان بعد تفاحش الغش في النقود في غفلة عن الدولة وتم ضربها كما يذكر نقلاً عن ابن المسيب وأبي الزناد سنة (٧٤هـ - ٦٩٣م) وقيل سنة (٧٥هـ - ٦٩٤م)، ثم أمر بضربها سنة (٧٦هـ - ٦٩٥م) وتوزيعها. وقال إن مصعب بن الزبير هو أول من ضربها سنة (٧٠هـ - ٦٨٩م)، ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة أي سنة (٧١هـ - ٦٩٠م).

وقال المقريزي: «فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة، قال: يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح عمر بن الخطاب رضي الله عنه صغر الدرهم، وكبر القفيز، وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند، وترزق عليه الذرية طلباً للإحسان إلى الرعية، فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت الرعية به مرفقاً، ومضت لك به السنة الصالحة، فضرب معاوية عند ذلك السود الناقصة من ستة دوانيق، فيكون خمسة عشر قيراطاً ينقص حبة أو حبتين، وضرب منها زياد، وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وكتب عليها فكانت تجري مجرى الدراهم.

وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً، فوقع منها دينار رديء في يد شيخ من الجند، فجاء به معاوية ورماه به، وقال: يا معاوية إنا وجدنا ضربك شر ضرب، فقال له معاوية: لأحرمنّك عطاءك، ولأكسونك القطيفة.

فلما قام عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بمكة ضرب دراهم مدورة فكان أول من ضرب الدراهم المستديرة، وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً، فدورها عبد الله، ونقش بأحد الوجهين «محمد رسول الله»، وبالآخر «أمر الله بالوفاء والعدل».

وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق، وجعل كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأعطاها الناس في العطاء حتى قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل عبد الملك بن مروان، فقال: ما ينبغي أن نترك من سنة الفاسق، أو قال: المنافق شيئاً فغيرها. ثم لما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان، بعد مقتل عبد الله، ومصعب ابني الزبير، فحص عن النقود والأوزان، والمكاييل، وضرب الدنانير، والدراهم في سنة ست وسبعين من الهجرة، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا

---

[1] عاش ابن خلدون في الفترة الواقعة ما بين (٧٣٢ - ٨٠٨هـ).

حبة بالشامي، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سواء، والقيراط أربع حبات، وكل دانق قيراطان ونصف، وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها.

وقدمت مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وبها بقايا من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فلم ينكروا منها سوى نقشها، فإن فيها صورة، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يبيع بها، ويشتري، ولا يعيب من أمرها شيئاً، وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي، وهي الميالة الوازنة بزيادة المائة دينارين.

وكان سبب ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم كذلك أن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، قال له: يا أمير المؤمنين إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في الدرهم، فعزم على ذلك، ووضع السكة الإسلامية.

وقيل: إن عبد الملك كتب في صدر كتابه إلى ملك الروم «قل هو الله أحد»، وذكر النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم مع ذكر التأريخ. فأنكر ملك الروم ذلك، وقال: إن لم تتركوا هذا، وإلا ذكرنا نبيكم في دنانيرنا بما تكرهون. فعظم ذلك على عبد الملك، واستشار الناس، فأشار عليه يزيد بن خالد بضرب السكة، وترك دنانيرهم ففعل.

وكان الذي ضرب الدراهم رجلاً من يهود تيماء، يقال له: (سمَيَر) فنسبت الدراهم إذ ذاك إليه، وقيل لها الدراهم السميرية.

وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب الدراهم بها، وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم، وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية ويحمل إليه أولاً فأولاً، وقدر في كل مائة درهم درهماً عن ثمن الحطب، وأجر الضراب، ونقش على أحد وجهي الدرهم «قل هو الله أحد»، وعلى الآخر «لا إله إلا الله» وطوق الدرهم من وجهيه بطوق، وكتب في الطوق الواحد «ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا»، وفي الطوق الآخر «محمد رسول الله أرسله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وقيل: إن الذي نقش فيها «قل هو الله أحد» الحجاج.

وكان الذي دعا عبد الملك إلى ذلك أنه نظر للأمة، وقال: هذه الدراهم السود الوافية، والدراهم الطبرية العتق تبقى مع الدهر»[1].

ويتحدث المقريزي[2] بتفصيل أوسع ابتداءً من معاوية فيذكر أن زياد بن أبيه بعد جمعه العراق طلب من معاوية أن يوضع عيار جديد، فضرب معاوية الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق، وضرب منها زياد كتب عليها، كما ضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً وذكر عن ضرب معاوية بأنه كان شر ضرب.

وقال إن عبد الله بن الزبير عندما كان بمكة خليفة قام بضرب دراهم مدورة فكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب قبله ممسوحاً غليظاً قصيراً ونقش على أحد الوجهين «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «أمر الله بالوفاء والعدل» وضرب أخوه مصعب عندما كان والياً على العراق دراهم وأعطاها الناس في العطاء فاستمرت حتى قدم الحجاج العراق والياً فقال: ما ينبغي أن نترك من سنة الفاسق شيئاً فغيرها.

قال لما استوثق الأمر لعبد الملك بعد مقتل مصعب وأخيه عبد الله فحص النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم سنة (٧٦هـ - ٦٩٥م). وكان سبب ضرب عبد الملك النقود أن خالد بن يزيد بن معاوية هو الذي أشار عليه بذلك (انظر النص)، وقيل كان السبب في ذلك أن عبد الملك كان قد كتب في صدر كتاب وجهه إلى ملك الروم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - مع التاريخ فأنكر ملك الروم ذلك وهدد كما ورد بذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - بما يكرهه المسلمون فاستشار عبد الملك أصحابه فكان رأي خالد بن يزيد ضرب سكة جديدة وكان الذي ضرب الدراهم رجلاً من يهود تيماء اسمه سمير فسميت الدراهم السميرية، ثم بعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق.

١- أخيراً اتفق جميع المؤرخين على أن عملية صك النقود وتعريبها كانت قد تمت في عهد عبد الملك بن مروان، إلا أن المؤرخين مختلفون حول الأسباب والدوافع التي حثت عبد الملك

---

[1] المقريزي - تقي الدين بن علي المقريزي - النقود الإسلامية - المسمى (شذور العقود في ذكر النقود - تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم - طبع إيران ١٩٦٧م - ص٨ - ١٢.

[2] توفي المقريزي سنة ٨٤٥هـ.

لضربها، من هذه الأسباب القراطيس والطراز وكان في مصر حيث أمر عبد الملك بتعريبه وكان غضب ملك الروم حول ذلك كما ورد (انظر نصّ البيهقي).

٢- يختلف المؤرخون حول من أشار على عبد الملك بضرب السكة، فالبيهقي يذكر أن الباقر هو الذي فعل ذلك ويذكر المقريزي أن خالد بن يزيد هو الذي فعل ذلك، ثم أن إشارة خالد التي يذكرها المقريزي قائمة على التكهن والأسطورة أكثر من اعتمادها الواقع والحقيقة التي اعتمدها البيهقي في روايته (انظر النص).

٣- يذكر بعضهم كابن خلدون أن الغش والفحش في النقود وغفلة الدولة عن ذلك هي التي دفعت عبد الملك بن مروان لفعل ما فعله.

٤- يختلف المؤرخون حول من كان أول من ضرب النقود فبعضهم يذكر أن ابن الزبير هو أول من ضربها سنة (٧٠هـ - ٦٨٩م) ويذكر آخرون أن عبد الملك هو أول من ضرب النقود، وبعضهم قال إن معاوية هو أول من ضربها، وقد يكون أقرب إلى الواقع والحقيقة هو الخليفة عمر ابن الخطاب أي أن النقود مرت بمرحلة طويلة من الإصلاح حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، أما من حيث تعريبها فأعتقد أن ابن الزبير كان السباق لمثل ذلك العمل.

٥- أكثر المصادر تذكر أن الحجاج هو الذي قام بضربها ويذكر أن ذلك تم بأمر الخليفة، وبعضها الآخر لا يذكر ذلك، ومهما يكن فلا الحجاج ولا غيره يقوم بمثل هذا العمل بدون استشارة عبد الملك وهذه عادة كان الأمويون يعتمدونها في مثل هذه الأفعال حيث كانوا يأمرون ولاتهم الثقاة القيام بالأعمال، فإذا نجحت فالفائدة تنسب إلى الخليفة وإذا فشلت تحمل الولاة وزرها عنه، وفعلا ما ضرب الحجاج النقود سميت المكروهة من قبل الفقهاء، ولذلك لم تصمد ولم تنسب للخليفة عبد الملك وجددت في عهد الولاة الآخرين كابن هبيرة وغيره.

٦- استنتج أن النقود وسكها مرت بمرحلة سبقت العصر الأموي وتطورت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه وأن ابن الزبير هو أول من عربها وجعلها مستديرة إلا أن فشله في الاستمرار ونهايته القريبة جعلت الأمويين وعلى رأسهم عبد الملك يقضون على كل أثر إيجابي كان ابن الزبير قد فعله وحولوه بطرقهم الخاصة إلى مآثر نسبت إليهم، وهذا أمر سهل كون ابن الزبير وعبد الملك عاشا فترة واحدة وكانت هذه الفترة كلها حروب وفتن.

٧- اختلف في زمن ضربها فبعضهم قال ضربها ابن الزبير سنة (٧٠هـ - ٦٨٩م)، وقال بعضهم الآخر سنة (٧٤هـ - ٦٩٣م)، وقيل سنة (٧٥هـ - ٦٩٤م)، وقيل سنة (٧٦هـ - ٦٩٥م)، وكل هذه التواريخ ضمن فترة حكم عبد الملك للدولة العربية حيث يعتبر ابن الزبير منشقاً على أصل الدولة لذلك نسب كل شيء إلى عبد الملك.

٨- في النتيجة ساعد صكّ النقود على ضبط سياسة الدولة المالية كالواردات والنفقات والأرصدة وضبط بيت المال.

السياسة الادارية: يحاول بعض ربط كل تجديد بالدولة الأموية وخاصةً بعبد الملك بن مروان حيث يعتبر أول من قام بهذه الحركة التجديدية التي شملت السياسة والاقتصاد والعمارة والإدارة وغيرها، متجاوزين غيره، هذا الكلام فيه مبالغة فالتجديد بالسياسة كان كما أرى في العصر الأموي من نصيب معاوية بالدرجة الأولى، أما التجديد الاقتصادي فقد مر بمراحل تطور فيها حتى بلغ نهاية تطوره في عهد عبد الملك والكثير منه لم يكن من صنع عبد الملك، إنما حدث في عهده، لذلك نسب أي تطور له. فمثلاً تجديد الإدارة ينسب لعبد الملك بن مروان ويتضمن هذا التجديد الدواوين، والدواوين كما هو معلوم أول من أوجدها الخليفة عمر بن الخطاب، يقول الماوردي[1]: «إن الديوان هو موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»، وقال: أول من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب، واختلف في سبب وضعه، فقيل:

- إن سبب وضعه كان المغيرة بن شعبة عندما قدم على الخليفة عمر بمال من البحرين وقدره خمسمائة ألف درهم، فاستكثره الخليفة، فقال له أحدهم: رأيت الأعاجم يدونون ديواناً لهم، فدون أنت ديواناً. وقيل سبب وضع الديوان أن الخليفة عمر بعث بعثاً وعنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل وآجل بمكانه، فمن أين يعلم صاحبك به فأثبت لهم ديواناً. وعندما أراد الخليفة عمر أن يدون ديواناً، استشار حسب رواية الماوردي كلاً من الإمام علي، وعثمان بن عفان، وخالد بن الوليد، فأخذ برأي خالد وهو أن يدون ديواناً ويجند الجند، فدّون الديوان وهذا معلوم لا داعي لذكره وذلك في سنة ٢٠ للهجرة.

---

(١) الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - تحقيق محمد فهمي الرجاني - طبع المكتبة التوفيقية بمصر ١٩٧٨ - ص٢٢٦.

وكان التدوين على قدر النسب المتصل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ثم فضل بينهم بالعطاء على قدر السابقة في الإسلام، والقربى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علماً أن رأي أبي بكر وغيره كان التسوية بينهم في العطاء، ولا يرى التفضيل بالسابقة، وقد اختلف حول ذلك ما بين مؤيد ومعارض، ثم روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء فكان هذا حكم ديوان الجيش.

أما ديوان الاستيفاء وجباية الأموال فكان ديوان الشام بالرومية، وكان ديوان العراق بالفارسية فاستمر أمر ذلك حتى كان عهد عبد الملك بن مروان، فنقل ديوان الشام إلى العربية سنة (٨١هـ). يذكر الماوردي أسباب نقل الديوان على النحو التالي:

ـ إن بعض كتاب الروم في ديوانه أراد ماء لدواته فبال فيها بدلاً من الماء فأدبه، وأمر سليمان ابن سعد أن ينقل الديوان إلى العربية، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنةً، ففعل وولاه الأردن، وكان خراجه مائة وثمانين ألف دينار فنقله خلال سنة وقدم به على عبد الملك.

ـ أما ديوان الفارسية بالعراق فكان سبب نقله أن كاتب الحجاج واسمه زاذان فروخ وكان معه صالح بن عبد الرحمن يكتب بين يديه بالعربية والفارسية، فوصله زاذان بالحجاج فقال صالح لزاذان: إن الحجاج قد قربني ولا آمن عليك أن يقدمني عليك، فقال لا تظن ذلك فهو أحوج مني إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري، فقال صالح: والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لفعلت، قال: فحول منه ورقةً أو سطراً حتى أرى، ففعل، ثم قتل زاذان في أيام عبد الرحمن بن الأشعث فاستخلف الحجاج صالحاً مكانه فذكر له ما جرى بينه وبين زاذان فأمره أن ينقله فأجابه إلى ذلك.

من المعلوم أن سرجون بن منصور كان يتقلد ديوان الشام قبل عبد الملك بن مروان واستمر في عهده، فأمره عبد الملك يوماً القيام بأحد الأعمال[1]، فتثاقل فكرر عليه الطلب وحثه عليه، فرأى عبد الملك منه تقصيراً، فقال: لسليمان بن سعد، وكان على ديوان الرسائل: أما ترى ادلال سرجون علينا، أما عندك حيلة قال: لو شئت لحولت الحساب إلى العربية، فأمره بتنفيذ ذلك فحوله وجميع دواوين الشام.

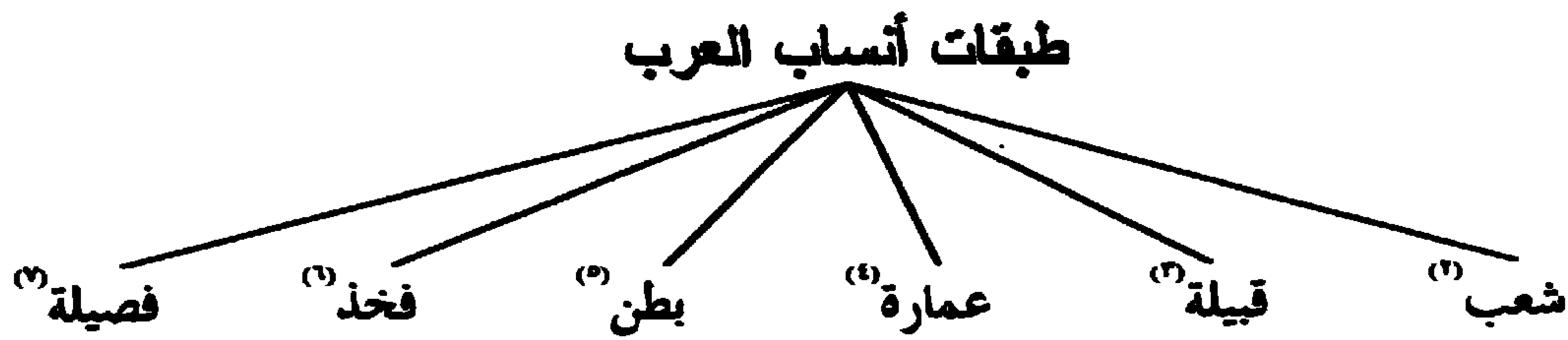
---

[1] السخاوي ـ محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين السخاوي ـ الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ تحقيق: فراند روزنفال ـ ترجمة: صالح أحمد علي ـ طبع بيروت ١٩٨٦م ـ ص١٧٣.

وقال البلاذري[1]: لم يزل ديوان الشام بالرومية فلما كانت سنة (٨١هـ ـ ٧٠٠م) أمر عبد الملك بن مروان سليمان بن سعد بنقل الديوان فسأله أن يعينه على خراج الأردن سنةً ففعل، و ولاه الأردن فنقله في سنة وكان خراج الأردن مائة وثمانين ألف دينار.

ويشتمل ديوان السلطة على أربعة أقسام:

ـ الجيش من إثبات العطاء في الديوان ويراعى في جواز الإثبات البلوغ والحرية، والإسلام، والسلامة من الآفات المانعة من القتال، وأن يكون فيه إقدام على الحرب ومعرفة بالقتال، وأما ترتيبهم في الديوان فيكون عاماً وخاصاً، فأما العام فهو ترتيب القبائل والأجناس، والغاية زوال التنازع والتجاذب، وكان الترتيب في أهل النسب بما يتفرع عنه، والعرب عدنان وقحطان بالترتيب، وقد رتبت أنساب العرب إلى ست مراتب فجعلت طبقات أنسابهم كما يلي:



أما الترتيب الخاص: فهو ترتيب الواحد بعد الواحد يرتب بالسابقة في الإسلام فإن تكافؤوا فيرتبون بالدين فإن تقاربوا فيكون السن، فإن تقاربوا فتكون الشجاعة، فإن تقاربوا فولي الأمر له الخيار بترتيبهم.

أما البلاذري[8] فيذكر ما ذكره الماوردي، وذكر الجشياري[9] أيضاً الرواية نفسها، وذكر الصولي أيضاً الرواية نفسها، وزاد قوله: «وما سمعته العرب فاحتاجت إلى استعماله في نظم أو نثر، فقد

---

(1) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٧٣.

(2) الشعب: النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان لأن القبائل منها تشعبت.

(3) القبيلة: ما انقسمت فيها أنساب الشعب، مثل ربيعة، ومضر.

(4) العمارة: ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة.

(5) البطن: ما انقسمت فيه أنساب العمارة، مثل بني عبد مناف وبني مخزوم.

(6) الفخذ: هو ما انقسمت فيها أنساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية.

(7) فصيلة: هي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ، مثل بني أبي طالب، وبني العباس.

(8) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٧١ ـ ٤٢٣.

(9) الجهشياري ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ ص٢٩ ـ ٣٠.

أعربته فصار عربياً بتكلمها به وإعرابها إياه»[1]، ويتحدث ابن خلدون[2] بمثل ما ذكره الماوردي أيضاً.

أما أهم الدواوين التي كانت موجودة في العصر الأموي فهي:

١ـ ديوان الجند[3]: وضع أسس هذا الديوان كما هو معلوم الخليفة عمر بن الخطاب وقد ورد ذلك وذكره الماوردي بالتفصيل، كما ذكره قدامة بن جعفر بتفصيل واضح، وكان الانضمام إلى الديوان في الأحوال العادية اختيارياً وليس إلزامياً، إلا في وقت الضرورة التي تمليها مصلحة الدولة، ومنذ ولاية زياد بن أبيه[4] أخذت تكتب الأوصاف الجسمانية في الديوان، وأعاد الحجاج تنظيم الجند بأمر الخليفة عبد الملك حسب الكفاءة والمقدرة، ويعتبر الحجاج أول من أوجد التجنيد الإلزامي، وكان التسجيل في الديوان يعني إقامة الشخص في البلد الذي فيه ديوان.

٢ـ ديوان الذراري[*]: يعتقد أن هذا الديوان وجد بالعراق في عهد زياد بن أبيه، واستمر في عهد ابنه عبيد الله، ويتضمن معرفة العدد الحقيقي للتابعين لديوان الخراج وما يستحقونه، أي إجراء إحصاء مستمر، ومن المعلوم أن معاوية طبق أسلوب عطاء الذراري.

٣ـ ديوان الخراج[6]: ومهمة هذا الديوان الاشراف على الشؤون المالية وتسجيل ما يرد عليها وما ينفق من أموال في وجوهها المختلفة، وكان لكل ولاية ديوان خراج، حيث كانت كل ولاية تقوم بإرسال الفائض لديها من الأموال إلى بيت المال في العاصمة المركزية، وكان الخليفة في العصر الأموي يستفيد من هذا الديوان في تقديم العون والمساعدة للجيش، كما كان يستفاد منه في البناء والعمارة.

٤ـ ديوان الخاتم[7]: أنشأه معاوية بن أبي سفيان كما ذكرنا، وهو أول من اتخذ هذا الديوان إثر تزوير مالي، ويعتبر هذا الديوان بعد إنشائه من أهم الدواوين، فقد تعددت مهامه، مثل ضبط المعاملات، وحفظ الوثائق من التلاعب بها، والعبث بها، ومن مهامه الأخرى تسجيل الأوامر

---

(1) الصولي ـ أدب الكتاب ـ ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(2) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص١٩٢ ـ ١٩٣.

(3) الجهشياري ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ ص٢٢ وما بعدها.

(4) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٤ ـ ص١٧٦، الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص٢٠٣.

(*) هذا الديوان كما أرى كان موجوداً في عهد الخليفة عمر، وكان جزءاً لا يتجزأ من ديوان الجند.

(6) السيد عبد العزيز سالم ـ التاريخ والمؤرخون العرب ـ ص١٣٤ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص١٩٢، الكندي ـ كتاب الولاة مصر ـ ص٨٠.

(7) قدامة بن جعفر ـ الخراج وصناعة الكتابة ـ ص٥٥ ـ٥٧، الجهشياري ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ ص٢٢، السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص١٨٧.

الصادرة والواردة، وختم الأوامر وتسجيلها، وكان الخلفاء الأمويون يسندون رئاسة هذا الديوان إلى من يثقون به أشد الثقة لما له من أهمية، وتحدث قدامة بن جعفر عن هذا الديوان بشكل مطول.

٥- ديوان الرسائل[1]: يعتبر هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام، وفي كل ولاية ديوان للرسائل يكون مرتبطاً بالديوان المركزي في العاصمة المركزية، ومهمة هذا الديوان استقبال وتصدير الرسائل من العاصمة إلى الولايات وبالعكس، أو من الداخل إلى الخارج، وصاحبه يجب أن تتوفر فيه الأمانة، وقد تحدث ابن خلدون عن هذا الديوان مطولاً وقال: إن هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها.

٦- ديوان البريد[2]: بعضهم ينسب هذا الديوان لمعاوية، وأرى أن هذا الديوان كانت له أسس قبل ذلك، أي أنه كان موجوداً قبل العصر الأموي، ويتولى صاحبه عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة، وصاحبه يجب أن يكون ثقةً في نفسه وعند الخليفة، ويذكره قدامة بن جعفر، ويذكر اختصاصاته وطرقه في جميع أنحاء الدولة، واهتم الخلفاء بهذا الديوان اهتماماً زائداً لما له من أهمية في حالة الحرب والسلم.

٧- ديوان المظالم: وتفوق سلطة هذا الديوان السلطة القضائية أي أن صاحب هذا الديوان كان يفصل في المشاكل التي تستعصي على القضاء الشرعي، ويرى بعضهم أن الذي أنشأ هذا الديوان هو عبد الملك بن مروان، حيث يذكر بعضهم أنه أول من جلس للمظالم، وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان أول من ندب نفسه للنظر في المظالم ودليل ذلك رده مظالم بني أمية على أصحابها.

٨- ديوان الصدقات: وجد هذا الديوان مع وجود الدولة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومهمته النظر في المستحق من أموال المسلمين، وبعضهم يذكر أن هذا الديوان وجد في عهد هشام[3].

٩- ديوان الطراز: ذكرنا كيف عرب الطراز وأصبح له ديوان خاص مهمته إنتاج الأزياء الرسمية والأعلام والشعارات، ومن المعلوم أن الأمويين أنشؤوا دوراً للطراز في قصورهم مهمتها صنع ثياب لهم ولكبار رجالات الدولة.

---

(1) ابن خلدون - المقدمة - ص١٩٤ - قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتاب - ص٣٧، الجهشياري - كتاب الوزراء والكتاب - ص٢٢ وما بعدها.

(2) قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابة - ص٧٧ وما بعدها، السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص١٨٧.

(3) منير العجلاني - عبقرية الإسلام - ص٣٠٢.

١٠- ديوان الاستخراج: مهمته مصادرة الأموال من الموظفين الذين يجبونها بطرق غير مشروعة وقد كثر مثل ذلك في العصر الأموي، وخاصةً في المرحلة الأخيرة.

١١- ديوان الزمنى: وجد في عصر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، مهمته العناية بالمرضى والزمنى.

١٢- ديوان الخاتم الكبير والخاتم الصغير: وجد في عهد الخليفة يزيد بن الوليد، وكان خاصاً كما أرى بالخليفة.

١٣- ديوان النفقات.

١٤- ديوان الرقيق.

١٥- ديوان بيت المال.

١٦- ديوان الخزائن.

وكان شعار الخلافة في العصر الأموي يتكون من: أولاً: ـ الثياب: حيث لبس الخلفاء الأمويون الحلل الفاخرة وبالغوا في اقتناء أغلى الثياب وأجملها واتخذوا من الألوان الأبيض، ثانياً ـ البردة: قيل إن معاوية كان أول من لبسها بعد أن اشتراها من كعب بن زهير، وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أهداه إياها، ثالثاً ـ الخاتم، رابعاً ـ القضيب، خامساً ـ السكة: وهناك من يقول إن السكة وجدت في عهد عبد الملك بن مروان، سادساً ـ الخطبة، كما اتخذت الدولة الأموية شعارات تعبر بها عن ذاتها[1]، من ذلك العلم ويعرف بالراية وباللواء والبيرق.

وكان الخليفة يدير الأمور من عاصمة ملكه أما البلدان والأقاليم فكان يحكمها الأمراء، وكان الأمراء على أنواع، منهم أمراء على الصلاة وأمراء على الخراج، وأمراء الحرب وغير ذلك، وقد يجمع الأمير بين هذه الأنواع، وهذا ما اتصف به الحكم الأموي، ففي عهد معاوية جمع ذلك كله زياد بن أبيه في العراق، كما جمعها الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة عند تعيين أي أمير يصدر أمراً سمي التقليد أو العهد يحدد فيه مهمة الأمير ووصاياه له والسياسة الواجب اتباعها، وإذا أراد الخليفة عزل أحد الأمراء كان يصدر عنه كتاب العزل أيضاً.

---

(1) عبد السميع سالم الهراوي ـ لغة الإدارة في صدر الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦ ـ ص١٦١.

وطور الأمويون مراسيم الحكم، فبعد أن كانت تتم في المسجد أوجدوا دوراً خاصة للحكم عرفت بدور الإمارة سواء في العاصمة المركزية أم في الأقاليم، ففي دمشق عاصمة الدولة المركزية كانت الخضراء تقوم بهذا الدور، ومنها كانت تصدر مراسيم الحكم، علماً أن الجامع بقي دوره كبناء للعبادة ودار للعلم ومنتدى لرجال الفكر والأدب.

وكانت الإدارة العامة في العصر الأموي تقسم إلى إدارة عليا تشمل الخليفة وموظفيه بالدرجة الأولى يضاف إليهم الولاة المنوطون في إدارة ولاياتهم، حيث كان لبعضهم سلطات مركزية ولهم جميع السلطات الإدارية وذلك بتفويض من الخليفة، بالإضافة للإدارة الواردة الذكر وجدت الإدارة التنفيذية وأجهزة هذه الإدارة تتولى الإشراف على تنفيذ ما تمليه الإدارة العليا من سياسة ونظم ويقوم بمعظم هذه السلطة أصحاب الدواوين، وأخيراً السلطة القضائية.

الفصل الثالث

الوليد بن عبد الملك

الفصل الثالث

الوليد بن عبد الملك

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أمه أم الوليد بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس، يكنى أبا العباس[1].

ولد بالمدينة سنة (٤٥هـ ٦٦٥م)، وقيل ولد سنة خمسين، وقيل ولد في المدينة بدار عبد الملك من بني جديلة سنة (٥٢ هـ ـ ٦٧٢م)، وهو أكبر ولد عبد الملك بن مروان، وكان أبوه وأمه يترفانه فشبّ بلا أدب. وصف بأنه كان دميماً، وكان إذا مشى تبختر، وكان سائل الأنف، وقيل كان طويلاً أسمر به أثر جدري خفي، بمقدم لحيته شمط، وليس في رأسه ولا لحيته غيره، ووصف بأنه كان أفطس.

وذكر ابن كثير[2] بأنه كان مترفاً فشب بلا أدب، وكان لا يحسن العربية، وكان طويلاً أسمر به أثر جدري خفي، أفطس الأنف سائله، وكان إذا مشى تبختر في مشيته، وكان جميلاً وقيل قبيحاً، قد شاب في مقدم لحيته، وكان لحاناً. و وصف بأنه كان جباراً عنيداً، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: إن الوليد كان حازماً في رأيه، وقال إنه لا تعرف له صبوة، وقال المسعودي: إن الوليد كان جباراً عنيداً ظلوماً غشوماً.

---

(1) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٣ ـ ص١٧٤.

(2) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص١٦٨.

ذكر ابن عساكر[1] أن عبد الملك بن مروان قال لروح بن زنباع: يا أبا قزعة قد غلبني الوليد باللحن، وسأظهر العشية كآبةً، فاسألني عنها ودعني والوليد، فلما أذن بالعشاء أظهر كآبةً، وعنده الوليد، وسليمان و روح، فقال له روح: ما هذه الكآبة يا أمير المؤمنين؟، قال: ذكرت ما في عنقي من هذه الأمة، وإلى من أصيّر أمرها، فقال له روح: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الوليد، سيد شباب العرب؟ قال: يا أبا قزعة لا ينبغي أن يلي أمر العرب إلا من يتكلم بكلامها، فقام الوليد فدخل منزله، وجمع إليه أصحاب النحو، فأقام ستة أشهر معهم، وخرج يوم خرج وهو أجهل بالنحو منه يوم دخل، فقال عبد الملك: قد أجهد وأعذر.

غزا الوليد أرض الروم سنة (٧٧ هـ - ٦٩٦م)، فبلغ أنقرة، وقيل بلغ موضعاً بين ملطية، والمصيصة، وحجّ بالناس سنة (٧٨ هـ - ٦٩٧م)، وأقام الحج أيضاً سنة (٩١ هـ - ٧٠٩م)، وكان نقش خاتمه يا وليد إنك ميت[2]، وقيل كان نقش خاتمه أؤمن بالله مخلصاً، ومات بدير المران[3]، ودفِنَ بباب الصغير، وقيل دفن بمقبرة الفراديس[4] بدير المران. اختلف في استخلافه، فقيل بويع لاثني عشر خلت من شوال سنة (٨٦ هـ - سبتمبر - ٧٠٥م)، وقيل لعشر خلت من شوال، وقيل استخلف يوم الخميس للنصف من شوال، واختلف في مدة خلافته، واختلف أيضاً في وفاته. بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه مباشرةً، في عهده ولى الحجاج قتيبة بن مسلم خراسان.

إذاً بعد دفن عبد الملك بن مروان، انصرف ابنه الوليد عن قبره، فدخل المسجد، واجتمع إليه الناس، فألقى خطبةً قصيرة، ثم قال للحضور قوموا فبايعوا، فكان أول من بايعه حسب رواية الطبري عبد الله بن همام السلولي، فقام وهو يقول[5]:

الله أعطاك التي لا فوقها ... وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها ... إليك حتى قلدوك طوقها

---

[1] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٦٣ - ص١٦٩.

[2] المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص١٧٦.

[3] دير مرّان: موضع قرب دمشق على تلّ مشرف على مزارع الزعفران - ياقوت الحموي - المعجم - ج٢ - ص٥٣٣.

[4] الفراديس: موضع قرب دمشق - باب الفراديس - باب من أبواب دمشق - ياقوت الحموي - البلدان - ج٤ - ص٤٤٢.

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٤٢٣، ابن كثير البداية والنهاية - ج٩ - ص٧٥.

يذكر الطبري عن الواقدي أن الوليد بعد دفن أبيه صعد المنبر، وقال خطبةً تختلف شكلاً ومضموناً عن الخطبة، التي يذكرها الطبري نفسه بدون إسناد، ويذكر أن الوليد بعد أن نزل عن المنبر نظر إلى ما كان من دواب الخلافة فحازه، أما ابن الأثير فذكر[1] ما ذكره الطبري، إنما يضيف أن الوليد كان أول من عزّى نفسه وهنأها.

قام الوليد بعد استخلافه بعزل هشام بن اسماعيل عن ولاية المدينة لأنه أساء إلى الصحابة فيها وأشرافها مثل علي بن الحسين، وسعيد بن المسيب، و ولى عوضه ابن عمه وصهره (زوج فاطمة بنت عبد الملك) عمر بن عبد العزيز، وعمره آنذاك خمس وعشرون سنة، توجه عمر بن عبد العزيز إلى عمله فدخل المدينة كما يذكر المؤرخون في ثلاثين بعيراً محملاً، وذلك في ربيع الأول من سنة (٩٦ هـ - نوفمبر - ٧١٤م) فنزل دار مروان، ومن أهم أعماله في المدينة تكوينه مجلس شورى ضم عشرةً من فقهاء المدينة، وقال لهم بأنهم أعوانه على الحق، وعاهدهم على أن يستشيرهم ولا يقطع أمراً دونهم.

وعزل الوليد أيضاً أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر سنة (٩٦ هـ - ٧١٤م)، و ولى عوضه قرّة بن شريك، وعزل والي مكة، وعيّن عوضاً عنه خالد بن عبد الله القسري[2] سنة (٨٩ هـ - ٧٠٧م)، فحفر خالد بئراً بأمر الوليد عند ثنية الطوى[3]، وثنية الحجون[4]، فكانت ماؤه عذبة طيبة المذاق، وكان الناس يأخذون منها، وذكر أن خالداً خطب يوماً فقال: «ألا إن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحاً أجاجاً، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراتاً»[5]، وهو يعني البئر التي حفرها، وكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم، هذا ويذكر أن ماء هذه البئر غارت فذهب ماؤها، ويذكر ابن كثير - إن صحّ ذلك عنه فهو ـ عدوّ الله، وهو يتضمن كفراً صريحاً.

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٥٢٢.

[2] ذكر الطبري أن ولاية خالد بن عبد الله القسري على مكة كانت سنة ٩١ هـ، وقال أن ولايته استمرت حتى كانت نهاية الوليد بن عبد الملك.

[3] الطوى: جبل وبئار بأعلى مكة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٥١.

[4] الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وقيل مكان من البيت على ميل ونصف، وقيل على فرسخ وثلث - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٢٥.

[5] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٨٢.

من أهم أعمال الوليد أمره بعمارة مسجد النبي[1] ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة (٨٨ هـ ـ ٧٠٦م)، حيث أرسل رسولاً إلى عامله على المدينة (عمر بن عبد العزيز) يأمره بهدم مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، وإدخال حجر أزواجه في المسجد، وأن يشتري ما حوله حتى يكون مائتي ذراع في مثلها[2]، وقد بدأ بالهدم في صفر من سنة (٨٨ هـ ـ يناير ـ ٧٠٧م)، وكان الوليد قد بعث إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يعينه[3]، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وصانع و فصوص، وبعث إليه من الفسيفساء أربعين حملاً، وأمر ملك الروم أن يتبيع الفسيفساء في المدائن التي خربت، فبعث بها إلى الوليد، فأرسله الأخير إلى عامله على المدينة.

أمر الوليد أيضاً عامله على المدينة (عمر بن عبد العزيز) بتسهيل الثنايا والطرق وحفر الآبار بالمدينة[4]، وأمره أيضاً أن يعمل الفوارة التي عند دار يزيد بن عبد الملك، فعملها وأجرى ماءها إلى الكعبة، فلما حجّ الوليد أعجبته، فأمر لها من يقوم عليها، وأمر أن يسقى أهل المسجد منها، وبالوقت نفسه أمر عمالاً في البلدان بحفر الآبار والاستفادة منها، وأمر الوليد أيضاً بحبس المجذومين من الخروج على الناس وأجرى عليهم أرزاقاً.

عزل الوليد بن عبد الملك والي المدينة عمر بن عبد العزيز سنة (٩٣ هـ ـ ٧١١م)، وسبب عزله أنه كتب إلى الوليد يخبره أن أهل العراق في ضيق وضيم مع الحجاج من ظلمه[5]، فسمع الحجاج بذلك فكتب إلى الوليد بدمشق إن عمر بن عبد العزيز ضعيف على إمرة المدينة، وفي ذلك ضعف ووهن في الولاية، علماً أن عمر بن عبد العزيز أثناء إمارته في الحجاز كان يتغاضى عن الفارين إلى ولايته من ظلم الحجاج.

أما عن بناء مسجد دمشق الكبير (المسجد الأموي) فقد بدأ ببنائه[6] سنة (٨٧ هـ ـ ٧٠٥م)،

---

[1] يوسف العش ـ الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ـ طبع دمشق ١٩٨٢م ـ ص٢٣٥.

[2] قيل أن بعض فقهاء المدينة كانوا قد عارضوا هدم هذا المسجد وقالوا أن يتركوه على حاله فيكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، وانكر البعض ادخال قبر السيدة عائشة في المسجد.

[3] اختلف في ذلك لأن المشهور في ذلك أن الوليد طلب من ملك الروم مثل ذلك عند أمره ببناء مسجد دمشق.

[4] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٨٠.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٤٨١.

[6] ياقوت الحموي ـ شهاب الدين ـ أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ـ معجم البلدان ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بلا تاريخ ـ ج٢ ـ ص٤٦٥ وما بعدها.

وقيل أواخر سنة (٨٦ هـ ـ ٧٠٥م) عندما بدأ ببناء مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، وحتى عهد الوليد كان المسلمون بدمشق يقيمون شعائرهم الدينية في مسجد صغير قرب إحدى الكنائس (كنيسة يوحنا)، فبنى الوليد مسجد دمشق بشكل يختلف عما كان سائداً من حيث التطور، فاعتبر أعظم أثر أموي في الشام، حيث اشترك في عمارته أكثر من عشرة آلاف عامل، استمروا يعملون فيه بحدود أكثر من تسع سنوات، وقيل عشر سنين، فشمل أروقةً طويلةً، وقباباً، ومآذن وأبواباً، كما استخدمت فيه أنواع من الأصبغة والفسيفساء الملونة، ولم يدخِل فيه صوراً للحيوانات ولا للإنسان. إنما كانت الصور للأشجار والأغصان والثمار وفيه بعض الكتابات، وصرف عليه الكثير، حتى قيل إن الوليد صرف خراج الدولة على بنائه لمدة سبع سنين.

وذكر أن أرض المسجد كانت مفضضة كلها، وأن الرخام كان في جدرانه قامات، و فوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب، وفوق الكرمة الفصوص المذهّبة بالألوان المختلفة، وصوروا الكثير من الأشجار المثمرة المزهرة، واستعمل الوليد في بناء مسجد دمشق خلقاً كثيراً من الصنّاع والمهندسين والفعلة، وكلف بالإشراف على عمارته أخاه وليّ العهد سليمان بن عبد الملك، وقيل إن سليمان بن عبد الملك زاد في سمك الجدران بعد أن تولى الخلافة، وقيل ظلّ يعمل في إكمال الجامع بعد موت أخيه، وجددت له المقصورة، وكان للجامع سبعة أبواب وجعل سقفه جملونات، وباطنها مسطحاً مقرنصاً (على شكل السلّم) بالذهب، وقيل أنفق الوليد في مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وقيل في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

وكان الوليد بعد أن بنى المسجد قد اشترى ماءً من نهر السكون يقال له الواقيه فجعله في القناة إلى المسجد، والحجر شبر ونصف، والثقب شبر في أقل من شبر على أنه إذا انقطعت القناة أو اعتلّت ليس لأحد أن يأخذ من ماء الواقية شيئاً ولا لأصحاب القساطل فيها حق، فإذا جرت يأخذ كل ذي حق حقه وتفتح القساطل على الولاء.

كما عمل الوليد على بناء المسجد الأقصى، فكان عبارةً عن بناء فخم له أروقة، واستخدمت الفسيفساء في تزيينه، كما عمل الوليد على إنارة الطرقات. واهتم بمسجد الكعبة فبنى له سوراً بعمد من الحجارة والفسيفساء، والرخام وعمل على توسيعه، وأرسل صفائح من ذهب فحلى بها باب

الكعبة، فكان أول من ذهّب البيت في الإسلام، و وصلت الدولة في عهده إلى أقصى اتساع لها شرقاً وغرباً.

في عهد الوليد كان الحجاج بن يوسف قد أخذ يزيد بن المهلب بعد عزله وإخوته، فوضعهم في السجن[1]، وذلك في سنة (٩٠ هـ - ٧٠٨م)، وغرّمهم ستة آلاف ألف، وأخذ يعذبهم حتى أن يزيد أصيب أثناء ذلك بنشّابة سامّة في ساقه، وطلّق الحجاج هند بنت المهلب، بعد ذلك كفّ عنهم، فأرسل يزيد بن المهلب إلى أخيه مروان بن المهلب، وكان بالبصرة يأمره بتحضير الخيل وتجهيزها. بعدها أمر يزيد خادمه بتحضير الطعام فصنع له فأكلوا، وأمر بشراب فسقوا، عند ذلك انشغل الحرس عنهم، فلبس يزيد ثياب طبّاخه، و وضع على لحيته لحيةً بيضاء مستعارة، وهرب معه إخوته، ومن كان معه في السجن، فأعلِم الحجاج بهروبهم، فأرسل بريداً إلى قتيبة بن مسلم يحذره من قدومهم، كما أرسل إلى أمراء الثغور يأمرهم برصد المهلب، ومن معه، وبالوقت نفسه أعلم الوليد بن عبد الملك بذلك.

عندما قدم يزيد بن المهلب البصرة أخذ الخيل، التي كان أخوه قد جهزها له، وسار يزيد فلسطين، وأعلم سليمان بن عبد الملك بهم، فأمر بإحضارهم وأمنهم، ثم علم الوليد أن يزيد ومن معه أصبحوا عند أخيه بفلسطين، فهان ذلك عليه لأنه كان يتخوف من خروجه عليه. طلب الوليد من أخيه سليمان أن يرسل يزيد بن المهلب إليه، وبعد جدل بينهما أرسله ومعه ابنه أيوب، وقال سليمان لابنه أيوب أن يدخل مع يزيد على الوليد في سلسلة، وأرسل كتاباً مع ابنه إلى أخيه يطلب منه أمان آل المهلب فأمنهم، وكتب إلى الحجاج بذلك، ثم رجع يزيد بن المهلب إلى فلسطين.

في عهد الوليد بن عبد الملك مات الحجاج بن يوسف[2] في شوال من سنة (٩٥ هـ - ٧١٣م)، وقيل مات لخمس ليال بقين من شهر رمضان من العام نفسه، فولى الوليد الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة، و ولى خراجهما يزيد بن أسلم، وقيل إن الحجاج كان قد استخلفهما قبل أن يموت فأقرهما الوليد.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص ٤٤٨ وما بعدها.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٥٨٣.

في عهده افتتح محمد بن القاسم (ابن عم الحجاج) مدينة الديبل[1] وغيرها من بلاد الهند وكان الحجاج قد ولاه غزو الهند، وعمره سبع عشرة سنة، وقتل الملك داهر ملك الهند، كما فتح مدينة الكـــرج، وجمع غنائم كثيرة وأموالاً لا تحصى، فأرسل بها إلى العاصمة المركزية دمشق، كما تمكن من فتح مدينة المولتان[2]، وأخذ منها أموالاً.

اختلف في مدة خلافته[3] فقيل ملك عشر سنين إلا شهراً، وقيل تسع سنين وسبعة أشهر، وقيل ثماني سنين وستة أشهر، وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين، واختلف أيضاً في عمره[4] فقيل توفي بدمشق وهو ابن ست وأربعين سنة وأشهر، وقيل ابن اثنتين وأربعين سنة وأشهر، وقيل مات الوليد بدير مران، ودفن خارج باب الصغير، وقيل بمقابر باب الفراديس.

وكان الوليد بن عبد الملك من أفضل الخلفاء الأمويين[5]، امتاز عصره بالحضارة والعمران، واتخاذ المصانع والضياع، وكان الوليد قد أراد خلع أخيه سليمان، والبيعة لابنه من بعده لكن الموت عاجله قبل أن يحقق ما أراد، وفتح في عهده فتوحاتٍ كثيرة، وكان يرسل بنيه في كل الغزوات إلى بلاد الروم، ففتح في عهده الهند والسند وأقاليم الشرق، ودخلت جيوشه الصين، كما تم في عهده فتح الأندلس، وسنعود إلى تلك الفتوحات فيما بعد.

وكان الوليد قد تزوج في خلافته كما يذكر البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ثلاثاً وستين امرأة[6] فكان يطلق الثلاث والاثنتين والواحدة، وكان يكنى أبا العباس[7] لأن العباس كان أكبر أولاده، وكان يقال له فارسهم، وكان لابنه عمر بن الوليد ستون ابناً يركبون معه إذا ركب، ويقال له فحل بني مروان.

---

(1) الديبل: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند، وهي فرضة، وإليها تفضي مياه لهور ومولتان فتصب في بحر الملح، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٩٥.

(2) المولتان: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٢٧.

(3) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٩٢ وما بعدها.

(4) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص١٧٢.

(5) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٥ ـ ص١٧١.

(6) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٦٦.

(7) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ـ ص٣ ـ ص١٧٦.

ويذكر البلاذري أيضاً كيف أن الوليد وزع أولاده أمراءَ داخل الدولـة العربيـة الإسلامية [1]، فكان عبد العزيز على دمشق، والعباس على حمص، وبشر على قنسرين، وعمر على الأردن. وكـان على شرطته [2] كعب بن حامد، ثم عزله و ولى أبا نائل رياح بن عبده الغساني، ثـم عـزل الأخير وأعاد كعباً.

وكان الوليد ينفق على الكعبة ويكسوها، فقال: أنا أنفق على الكعبة وأكسوها وأطيبها فعلام يأخذ بنو شيبه (بني هاشم) هداياها، و قرر أن يمنعهم من ذلك، فلما خرج الوليد إلى الحـج خرجـوا يتلقونه، فوجدوا معه الحجاج بـن يوسـف فقـالوا لـه: بلغنـا قـول الوليـد ففزعنـا إليـك، فقـال لهـم الحجاج: إذا دخلتم على الوليد فادخلوا وأنا عنده فدخلوا عليه، فلما خرجـوا قـال الحجـاج: عـلام تدع هؤلاء وهدايا الكعبة، قال: قد أجمعت على أخذها، قال: افعل فإني كنـت أشـرت بهـذا علـى عبد الملك بن مروان فلم يفعل، فقال: أنا أبرأ إلى الله مما برئ منه عبد الملك، فتركهم علـى مـا هـم عليه من الإشراف على الكعبة [3].

وكتب الوليد إلى عامله علـى المدينـة عثمـان بـن حيـان المرّي [4] يـأمره أن يحصـي المخنثين، فصحف الكاتب، فقرأ: اخصي المخنثين، فخصى عدداً منهم، وكان المغني الـدلال أحدهـم، فقـال: الآن تم لي الخنث [5].

وكانت علاقه الحجاج بالوليد وطيدة، فلما مرض الوليد، وبلغ الحجاج ذلك استرجع ثم أمـر بحبل فشده في يده ثم أوثق إلى أسطوانة، وقال: الله لا تسلط علي من لا رحمة له، فطالما سـألتك أن تميتني قبل الوليد، بعد ذلك علم أن الوليد قد برئ من مرضـه، فخرّ الحجـاج سـاجداً، وأعتـق كـل مملوك له، وتصدق بصدقـة كبيرة، ومات الحجـاج في عهده، فكان الوليد يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني، لا بل جلدة وجهي كله [6]، و وصف أبو جعفر المنصور - كما يذكر البـلاذري - الوليـد بأنه كان مجنوناً.

---

[1] البلاذري - أنساب الأشراف - ج٨ - ص٧١.

[2] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٥ - ص١٦٩.

[3] المرجع نفسه - ج٨ - ص٧٣.

[4] قيل أن ذلك تم في عهد سليمان بن عبد الملك.

[5] البلاذري - أنساب الأشراف - ج٨ - ص٧٦.

[6] المرجع نفسه - ج٨ - ص١١٣.

وذكر البلاذري[1] أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد كانت قد حجت مع الوليد، فرأت وضاح اليمن الشاعر ينشد فأعجبها، فأرسلت إليه أن أصحبنا، وأمرته فقال فيها شعراً، فبعثت إليه بكسوة وجائزة، فلما وصلت دمشق وهو معهم جعلت ترسل إليه فيدخل عليها سراً وهي من وراء الستر فينشدها ويحادثها، فعلم الوليد بذلك، فأمر خادمه أن يدخل عليها فإن وجد عندها وضاحاً قتله، فلما أحست أم البنين بالخادم، أدخلت وضاحاً صندوقاً وأقفلته، فأخذ الخادم الصندوق وحفر حفرةً ثم دفن الصندوق فيها، فكانت نهايته وذكر الحادثة أيضاً الأصفهاني في كتابه الأغاني كما ذكرها ابن واصل الحموي[2] في كتابه تجريد الأغاني، وذكرها المؤرخون أيضاً وتختلف الروايات حول ذلك من واحد لآخر.

يذكر المسعودي[3] أن الوليد بن عبد الملك كان في نزهة، فوفد عليه الحجاج وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فقبل الحجاج يده، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد، فقال الحجاج: دعني استكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير، وابن الأشعث شغلاني عنك، ثم دخل الوليد داره، وأذن للحجاج فدخل عليه في حاله وأطال الجلوس عنده وهو يحادثه، في هذا الوقت دخلت جارية فسارت الوليد ومضت ثم عادت وسارّته مرةً أخرى وانصرفت.

فقال الوليد للحجاج: أتدري ما قالت هذه الجارية؟، قال الحجاج: لا، قال الوليد: بعثتها أم البنين (ابنة عبد العزيز بن مروان ـ و هي زوجة الوليد) لِمَ مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح، وأنت في غلاله، فقلت لها: هذا الحجاج، فخافت وأرسلت تقول لي: ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، عند ذلك قال الحجاج للوليد:

ـ دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول.

ـ إن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة[4].

ـ لا تطلعهن على سرّك، ولا على مكايدة عدوّك.

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٨٩.

[2] ابن واصل الحموي ـ تجريد الأغاني ـ القسم الأول ـ الجزء الثاني ـ تحقيق طه حسين ـ إبراهيم الابياري ـ طبع القاهرة ـ سنة ١٩٥٥ ـ ص٧٧٣.

[3] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٧٧ وما بعدها.

[4] مدبرة بيت ـ ومتولية شؤونه.

ـ إياك من مشاورتهن في الأمور فإن رأيهن آفن (ناقص) وعزمهن إلى وهن.

ـ لا تطعهن في غير أنفسهن، ولا تشغلهن في أكثر من زينتهن.

ـ أكفف عليهن من أبصارهن بحجبك.

ـ لا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها.

ـ لا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها.

ـ لا تطل الجلوس معهن، والخلوة بهن.

ـ وبذلك يكون أوفر لعقلك، وأبين لفضلك.

ثم خرج الحجاج من عند الوليد فدخل الأخير على أم البنين، فأخبرها بما قاله الحجاج، فقالت للوليد: أرغب بأن تأمره غداً بالتسليم عليّ، فوافقها، فلما غدا عليه الحجاج قال له الوليد: سر إلى أم البنين فسلم عليها، فحاول الحجاج أن يعفيه الوليد من ذلك إلا أنه لم يفعل، فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ثم أذنت له وتركته قائماً، ثم قالت: أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير، وابن الأشعث. أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك:

١ـ برمي الكعبة، ولا بقتل ابن ذات النطاقين (عبد الله بن الزبير) أول مولود ولد في الإسلام.

٢ـ وأما ابن الأشعث فوالله لقد والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك، فأغاثك بأهل الشام، وأنت أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم، وأنجاك كفاحهم.

٣ـ ومن أجل ذلك نفضت نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه في الأسواق في أرزاق البعوث إليك، ولولا ذلك لكنت أذل من النقد (أي أسفل الناس).

٤ـ أما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه، فإن كنّ ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك، فما أحقّه بالأخذ عنك والقبول منك، وإن كنّ ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك، ولا مصغ إلى نصيحتك، ثم قالت: قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة　　فزعاء تفزغ من صغير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى　　بل كان قلبك في جناحي طائر

بعد ذلك أمرت أم البنين بإخراجه فدخل على الوليد فأخبره، وقال له: ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فقال له الوليد: إنها ابنة عبد العزيز.

أخيراً تسلم الوليد بن عبد الملك السلطة بعد أن مهدها له أبوه عبد الملك من كافة النواحي، فمن الناحية السياسية قضى على كافة الصراعات التي اجتاحت الدولة، ففي العراق قضى على مصعب بن الزبير، واستعاد العراق إلى حظيرة الدولة، وقضى على كل تمرد ظهر كما ورد، و لم يبق أمامه إلا ابن الزبير في الحجاز، فوجه إليه الحجاج بن يوسف فقتل ابن الزبير، وأعاد الحجاز أيضاً إلى السلطة الأموية، وبذلك يكون عبد الملك قد أعاد وحدة الدولة سياسياً وجغرافياً، واستطاع عبد الملك أن يحرر الاقتصاد من تبعيته ويعربه، فأصبح الاقتصاد في عهده عربيّاً صرفاً، كما عرّب الإدارة والدواوين فأصبحت الدولة بذلك عربيةً حرة في علاقاتها الداخلية والخارجية، ومن الناحية الحربية فقد جددت الفتوحات في عهده أيضاً وخاصةً مع الروم، فعادت الصوائف والشواتي والغزوات محققةً بعض الانتصارات.

إذاً تسلم الوليد الحكم مستقراً سياسياً كما ذكرنا، وساعد الاستقرار وتطور الاقتصاد على وجود نهضة عمرانية شملت الأرض العربية من مغربها إلى مشرقها، فأنشئت المدن والمساجد والمآذن، والقبب والأروقة والأسواق والدور، وزيّنت هذه الأبنية بالفسيفساء والكتابة، والألوان والرسوم المتنوعة، والنحت وغير ذلك مما يؤكد وجود فنّ معماري جديد ومميّز.

كما ساعد الاستقرار السياسي في عهده على تطور الاقتصاد في كل الميادين، فمن الناحية الزراعية فقد ازدهرت وتطورت وتنوعت، وانتشرت انتشاراً واسعاً، وساعد على تطورها العمل على تحسين الأرض، وريها عن طريق إقامة مشاريع الريّ، والاستفادة من مياه الأنهار، ومجاري المياه، وحفر الآبار، وتجفيف المستنقعات.

كما زرعت الأشجار، وتنوعت كالأشجار المثمرة، والأشجار التي تستخدم في الصناعة، والأشجار الحراجية، واهتم بالنباتات وطورها أيضاً للاستفادة من منتجاتها، واعتمد على الثروة السمكية سواءً البحرية أم النهرية، واهتم بالطيور وتربيتها والاستفادة منها، كما كان لصيد الطيور وغيرها دور هام في حياة المترفين.

وتطورت - في عهد الوليد - التجارة بكافة فروعها وتنوعت، فالتجارة الخارجية تنقلت من مكان لآخر حيث سهلت لها وسائط الانتقال من مكان لآخر، فكان التجّار ينقلون الصادرات من الداخل إلى الخارج وبالمقابل كانوا يستوردون ما هم بحاجة إليه، وتطورت التجارة الداخلية بين الريف والمدينة، وبين المدن بعضها مع بعض بين الأمصار. إذاً تطورت التجارة البريّة والبحرية حيث وفرت كل مستلزمات الحياة.

أما الصناعة، فقد تطورت أيضاً وانتشرت وتعددت، فوجدت الصناعات المعدنية كصناعة الأسلحة، والنقود، والأواني المنزلية وغير ذلك، كما انتشرت الصناعات النسيجية لتوفر عوامل تطورها وازدهارها، وتطورت الصناعات الخشبية، والأثاث المنزلي، والصناعات الغذائية وغيرها من الصناعات.

الاتصال الحربي في عهد الوليد:

في الجبهة الشرقية: شمل التطور بجمل الجوانب العامة فعمّ ذلك المجتمع الرخاء والازدهار والرقي، فارتفع مستوى الفرد اجتماعياً واقتصادياً، وظهر أثر الاستقرار السياسي على التطور الاقتصادي فظهر الاهتمام بالفن المعماري واضحاً كما ورد. لكن كانت آثاره أكثر وضوحاً في حركة الفتوحات سواءً في الشرق، التي قام بها قتيبة بن مسلم عامل الوليد على خراسان، وفي الغرب حركة فتح الأندلس، التي قام بها موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد، وسنتحدث عن كل ذلك فيما بعد.

قتيبة بن مسلم: بعد موت عبد الملك بن مروان سنة (٨٦ هـ ـ ٧٠٥م) ولي ابنه الوليد فولى الحجاج خراسان قتيبة بن مسلم فقدمها، فجعل بمرو على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان السعيدي، فلما كان قتيبة بالطالقان[1] أتاه دهاقين بلخ فساروا معه فقطع النهر، فتلقاه ملك الصغانيان[2] بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده فسلمها إليه لأن ملك أخرون[3]

---

(١) الطالقان: مدينة بخراسان بين مرو الروز وبلخ بينها وبين مرو الروز ثلاث مراحل - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٦.

(٢) الصغانيان: ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ، وقيل صغانيان ناحية شديدة العمارة كثيرة الخيرات - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٤٠٩.

(٣) ابن كثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٥٢٣ - الطبري - تاريخه - ج٦ - ص٤٢٥.

وشومان[1] كان يسيء جواره ثم سار قتيبة إلى أخرون وشومان فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، ثم انصرف إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح كاشان[2] وأورشت[3] (أورشيت) وفتح أخشيكت[4] ومعه آنذاك نصر بن سيار، فوهب له قرية تنجانة ثم عاد صالح إلى قتيبة فاستعمله على الترمذ، وفي أحداث سنة (٨٦ هـ - ٧٠٥م) يذكر الطبري أن مسلمة بن عبد الملك كان غزا أرض الروم.

وفي سنة (٨٧ هـ - ٧٠٥م) كتب قتيبة إلى نيزك طرخان بعد أن صالح ملك شومان، وكان في يديه أسرى من المسلمين وطلب منه أن يطلقهم، وهدده إذا لم يفعل، فأطلق نيزك الأسرى، فوجه إليه قتيبة رسولاً يدعوه إلى الصلح على أن يؤمنه، فقدم نيزك مع الرسول على قتيبة فصالحه أهل باذغيس على ألاّ يدخلها.

بعد ذلك قرر قتيبة في العام نفسه غزو بيكند[5] فسار إلى مرو الروذ[6] ثم إلى أمل ثم إلى زم فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى، فلما نزل على أهلها استنصروا الصغد، واستمدوا من حولهم، واشتبك الطرفان بقتال أياماً، وكان قتيبة يحض الناس على القتال إلى أن تمت هزيمتهم، وانتصر قتيبة ثم وضع الفعلة على أهل القلعة ليهدموها فصالحهم، واستعمل عليهم، ولم يمض غير وقت قصير حتى خرج أهل بيكند على العامل فقتلوه وأصحابه، فبلغ قتيبة ذلك، فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهراً ثم أمر العمال والفعلة بهدم القلعة، فعلقوها بالخشب فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل بعض العمال، وطلب أهل بيكند الصلح فأبى، وقاتلهم فظفر بهم عنوة، فأصاب بها من آنية الذهب والفضة ما لايحصى، ثم رجع قتيبة إلى مرو فقوي المسلمون واشتروا السلاح والخيل، وجلبت لهم الدواب، ثم توجه قتيبة للغزو فأتى أمل ثم عبر من زم إلى بخارى فأتى

---

(1) شومان: بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون وهو من الثغور الإسلامية وفي أهله قوة وامتناع عن السلطان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٣٧٤.

(2) كاشان: مدينة بما وراء النهر على بابها وادي أخشيكث ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٣٠.

(3) أورشت: مدينة فرغانية قديمة ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٥٢٤.

(4) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٤٢٥.

(5) بيكند: بلد في بخارى وجيحون ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٥٣٣.

(6) مرو الروز: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام وهي على نهر عظيم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١١٢.

نومشكت فصالحوه.

ذكرنا أن قتيبة بن مسلم قد غزا نومشكت فاستخلف على مرو بشار بن مسلم، وبعد أن صالح أهل نومشكت توجه إلى راميتنه فصالحه أهلها أيضاً، في هذا الوقت زحف عليه الترك، ومعهم أهل السغد وأهل فرغانه[1] من الخلف، فأعلم قتيبة فرجع فقاتلهم حتى هزمهم ومعه نيزك، ثم رجع قتيبة يريد مرو.

بعد ذلك أمر الحجاج قتيبة بمهاجمة ملك بخارى سنة (٨٩ هـ - ٧٠٧م)، فتوجه إلى زم فقطع النهر فلقيه السغد وأهل كس ونسف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ومضى إلى بخارى فنزل خرقانه السفلى عن يمين وردان فقاتلهم فانتصر عليهم، ثم غزا وردان خداه ملك بخارى، فلم يظفر بشيء فعاد إلى مرو، وأعلم الحجاج بذلك، فطلب الحجاج صورة لمدينة بخارى فأرسل له قتيبة صورتها فكتب إليه الحجاج «إن كس بكس وانسف نسف، ورد وردان، وإياك والتحويط، ودعني من بينات الطريق»[2].

تنفيذاً لأوامر الحجاج توجه قتيبة بن مسلم إلى بخارى سنة (٩٠ هـ - ٧٠٨م) في الوقت نفسه أخذ وردان خداه يستعد فأرسل إلى السغد والترك يستنصرهم فوصل قتيبة قبل وصول الإمدادات فحاصر بخارى فلما وصلت الإمدادات خرجوا من الحصن واشتبك الطرفان في قتال عنيف تراجع فيه المسلمون إلا أنهم تمكنوا في النهاية من ردهم إلى مواضعهم.

أثناء ذلك انتدب هريم ابن أبي طلحة المجاشي على خيل بني تميم و وكيع رأسهم، ثم عبر هريم بالخيل بعد أن نصب جسراً على النهر فعبر ثمانمائة راجل ثم جعل وكيع الخيل مجنبتين، وقال لهريم: إني مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل، واشتبك الطرفان فهزم العدو فاتبعهم المسلمون ونادى منادي قتيبة من جاء برأس فله مائة، وجرح يومئذ خاقان وابنه ورجع قتيبة إلى مرو. بعد هزيمة بخارى طلب ملك السغد - واسمه طرخون - الصلح فأجابه قتيبة، وأخذ منه رهناً حتى يبعث إليه بما صالحه عليه ثم عاد قتيبة ومعه نيزك.

---

(1) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٥٣.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٨٩ هـ - ج٦ - ص٤٤٠.

في هذه المرحلة فكر نيزك بالغدر فلما كان قتيبة بأمل استأذنه نيزك في الرجوع إلى تخارستان فأذن له، فلما فارق قتيبة توجه إلى النوبهار[1]، أثناء ذلك ندم قتيبة على إذنه لنيزك وأرسل رسولاً إلى المغيرة بن عبد الله يأمره أن يحبس نيزك إلا أن الأخير كان قد مضى مع أصحابه و لم يتمكن منه.

بعد ذلك أظهر نيزك الخلع، وكتب إلى أصبهذ بلخ وإلى بازام ملك مرو الروز وإلى سهرب ملك الطالقان، وإلى ترسل ملك الفارياب[2]، وإلى ملك الجوزجان يدعوهم لخلع قتيبة فأجابوه واتفق معهم على غزو قتيبة في الربيع كما كتب إلى كابل شاه يستنصره، وبعث إليه بثقله وماله فوافقه.

كان ملك تخارستان (جيغوبة) ضعيفاً فأخذه نيزك فقيده وأخرج عامل قتيبة من بلاد جيغوبة فعلم قتيبة بذلك وقد تفرق الجند، و لم يبق معه إلا أهل مرو، فأرسل أخاه عبد الرحمن إلى بلخ في إثني عشر ألفاً ثم إلى البروقان[3] وأمره أن يقيم بها وأن لا يحدث بها شيئاً، وأمره بالمسير بعد انتهاء الشتاء نحو تخارستان. سار عبد الرحمن فنزل البروقان، ثم كتب قتيبة إلى أبرشهر، وأبيورد، وسرخس، وأهل هراة ليقدموا عليه قبل أوان قدومهم.

اجتمع إلى قتيبة حشد كبير من القوات سنة (٩١ هـ - ٧٠٩م) فسار بهم إلى مرو الروز واستخلف على الحرب حماد بن مسلم وعلى الخراج عبد الله بن الأهتم، فلما علم مرزبان مرو الروز بذلك هرب إلى بلاد الفرس، فلما قدم قتيبة مرو الروز أخذ ابنين للمرزبان فقتلهما وصلبهما، ثم سار إلى الطالقان فلم يحاربه صاحبها فاستعمل عليها عمرو بن مسلم، ومضى إلى الفارياب فأقر صاحبها طاعته لقتيبة وبلغ صاحب الجوزجان الأخبار فهرب إلى الجبال، فلما وصلها قتيبة استقبله أهلها بالسمع والطاعة ثم أتى بلخ فدخلها، ثم مضى يتبعه أخوه عبد الرحمن حتى أتى شعب خلم، وكان نيزك قد عسكر ببغلان.

كان نيزك قد عبأ قواته ووزعها فوضع بعضها على فم الشعب و وضع بعضها الآخر في قلعة حصينة من وراء الشعب. اشتبك قتيبة مع خصمه على مضيق الشعب، وهو لا يقدر على خصمه

---

[1] النوبهار: مدينة قرب الري - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٠٧.

[2] الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٢٩.

[3] البروقان: قرية من نواحي بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٠٥.

فأخذ يفكر بطريقة تخرجه من مأزقه، أثناء ذلك قدم عليه ملك الزوب وسمنجان[1] فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة، فأرسل معه قتيبة ليلاً بعض القوات فداهموا القلعة فقتلوا أكثرهم وذهب الباقي ومن كان في الشعب فدخل قتيبة ومن معه الشعب، ثم توجه إلى القلعة ومنها إلى سمنجان ونيزك ببغلان[2] فأقام قتيبة بسمنجان أياماً ثم سار إلى نيزك بعد أن قدم أخوه عبد الرحمن، فلما علم نيزك بالأحداث ارتحل فقطع وادي فرغانة بعد أن وجه ثقله وأمواله إلى كابل شاه فنزل الكرز، وعبد الرحمن بن مسلم يتبعه، ثم إن قتيبة حصره شهرين فقل ما عند نيزك من العتاد والطعام.

عند ذلك دعا قتيبة سليمان الناصح، وأمره التوجه إلى نيزك وأمره أن يحتال عليه ويأتي به بغير أمان وإن أبى فأمنه، توجه سليمان إلى عبد الرحمن فطلب منه رجالاً ليكونوا على فم الشعب، فإذا رآه ومعه نيزك، فليعطفوا من ورائه، ويحولوا بينه وبين الشعب، ثم مضى سليمان إلى نيزك فلما قابله فتحادثا ثم قال سليمان لنيزك أرى أن تأتيه وقد أقنعه بذلك، ثم أحضر سليمان الطعام ليأكل مع نيزك فالتهم الأتراك الطعام، و رفض نيزك القدوم على قتيبة إلا بأمان فأمنه سليمان.

أقبل نيزك مع سليمان، ومعه بعض أقاربه وخليفة جبغوية وصاحب شرطته، فلما خرج من الشعب حالوا بينه وبين الأتراك والعدو فدخل الجميع على عبد الرحمن فاعلم قتيبة بذلك فأمره أن يأتيه بهم فلما وصلوا إليه أمر أصحاب نيزك فحبسوا، وأرسل إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك، وافق الحجاج على قتل نيزك ثم أمر بقتله وأصحابه وعددهم كما يذكر الطبري سبعمائة.

بعد ذلك أطلق قتيبة جبغوية ومن عليه، وأرسله إلى الوليد بن عبد الملك سنة (٩١ هـ - ٧٠٩م) فبقي عنده بالشام إلى أن مات الوليد.

في هذه المرحلة طرد ملك شومان[3] عامل قتيبة ومنع الجزية فأرسل إليه قتيبة عياشاً الغنوي وبرفقته رجل من أهل خراسان يطلبان منه الفدية فلما قدموا البلد خرجوا إليهم فمنعوهم، وانصرف الرجل ثم قتل عياش.

---

[1] سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٥٢.

[2] بغلان: بلدة بنواحي بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٦٨.

[3] قيل أن اسمه فيلنشب باذق - وقيل قبشتان.

عندما علم قتيبة بما ورد سار بنفسه على طريق بلخ ومن هناك قدم أخوه عبد الرحمن، وكان ملك شومان صديقاً لصالح بن مسلم، فأرسل إليه صالح يأمره بالطاعة فرفض ثم عبر قتيبة النهر فقدم على شومان وقد تحصن، فرمى قتيبة القلعة بالمجانيق حتى تهشمت جدران القلعة. عند ذلك جمع شومان كل أمواله فرمى بها في عين بوسط القلعة ثم فتح باب القلعة فخرج فقاتل حتى قتل، وأخذ قتيبة القلعة عنوةً بعد ذلك رجع قتيبة إلى باب الحديد، ففتح كس[1] ونسف[2] وامتنعت عليه قرياب (قريات) فأحرقها فسميت المحترقة، ثم وجه قتيبة من هناك أخاه عبد الرحمن إلى السغد، وقد ملكها طرخون فنزل قريباً منها. فقبض عبد الرحمن من طرخون ما كان قد صالحه عليه وعاد إلى قتيبة، وهو ببخارى ومنها عادوا إلى مرو.

ثم إن أهل السغد عزلوا عنهم ملكهم طرخون و ولوا عوضه ملكاً آخر اسمه غوزق (غورق) وحبسوا طرخون ثم قتل الأخير نفسه.

صلح ملك خوارزم: يذكر الطبري أن ملك خوارزم كان ضعيفاً، فغلبه أخوه الأصغر خرذاذ على أمره سنة (٩٣ هـ ـ ٧١١م)، وكان يجور على الناس كثيراً، فيأخذ من الناس كل ما تشتهيه نفسه من جارية أو دابة أو متاع، أو بنت أو أخت أو امرأة جميلة، ولا يقدر الملك على شيء من أمره ولا يقوى عليه فلما طال عمره على هذا الحال، كتب ملك خوارزم إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه رغبةً في تسليمها له. وأرسل إليه سراً بمفاتيح مدائن خوارزم، واشترط أن يدفع إليه أخاه وكل من كان يعانده يرى فيهم رأيهم، فلما وصلت الرسل إلى قتيبة أظهر رغبته في التوجه إلى السغد في الوقت الذي كانت الرسل قد عادت إلى ملك خوارزم بما رغب وأراد.

توجه قتيبة إلى مرو بعد أن استخلف عليها، فلم يشعر أهل خوارزم إلا قتيبة قد نزل على هزار سب[3] دون النهر، فاستشار ملك خوارزم أصحابه، فاتفقوا على صلح قتيبة عامه هذا، فأقبل ملك خوارزم فنزل مدينة الفيل من وراء النهر، فكان بينه وبين قتيبة نهر بلخ، فصالحه على عشرة

---

[1] كس: مدينة قرب سمرقند ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٦٠.

[2] نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٨٥.

[3] هزاراسب: قلعة حصينة ومدينة جيدة ـ من نواحي خوارزم بينهما ثلاثة أيام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤٠٤.

آلاف رأس وعين ومتاع، وعلى أن يعينه على ملك خام جرد وأن يفي له بما كتب له فقبل منه قتيبة شروطه وأوفى له.

أرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى ملك خام جرد، فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه وقدم على قتيبة فقتله بأربعة آلاف أسير، ثم دفع قتيبة إلى ملك خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم، بعدها دخل قتيبة مدينة فيل[1]، ثم رجع إلى هزار سب.

فتح سمرقند: بعد صلح ملك خوارزم وفي السنة نفسها، قال المجشر بن مزاحم السلمي لقتيبة: إن أراد السغد يوماً ما فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم وبينك وبينهم عشرة أيام، فأمر قتيبة أن يكتم ذلك، ثم دعا أخاه عبد الرحمن، فقال له سر في الفرسان والمرامية، وقدم الأثقال إلى مرو، فلما سار عبد الرحمن يوماً كاملاً كتب إليه قتيبة: إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو وسر في الفرسان والمرامية إلى السغد واكتم الأخبار فإني في الأثر.

نفذ عبد الرحمن أوامر قتيبة وسار إلى حيث أمر. أما قتيبة فتبعه إلى السغد في أهل خوارزم وبخارى فحاصرهم وقاتلهم سنة (٩٣ هـ - ٧١١م)، أثناء ذلك استنجد أهل السغد بملك الشاس وأخشاذ فرغانة فوافقوا وطلبوا منهم أن يشغلوا المسلمين فيهاجموه، على حين غرة منهم، وانتخبوا فرساناً أشداء فواجهوهم وأمروهم أن يبيتوا عسكر المسلمين، فعلم قتيبة عن طريق عيونه بذلك، فاختار ثلاثمائة من أهل القوة واستعمل عليهم أخاه صالح بن مسلم و وضعه في الطريق الذي يحتمل قدومهم منه بمثابة كمين، فأرسل صالح عيونه فأخبروه أنهم قادمون في ليلتهم، ففرق صالح خيله ثلاث فرق، فجعل كميناً في موضعين، وأقام على قارعة الطريق ليلاً فلم يعلموا بصالح حتى دنوا منه فشدوا عليه، وعندما اشتدت المعركة خرج الكمينان فقتل أكثرهم وهزم الباقون، وعاد صالح إلى قتيبة بالخير.

ثم نصب قتيبة المجانيق ورمى مدينتهم حتى تصدعت جدرانها، ومن ثم فتحها وصالحهم على ألفي ألف، ومئتي ألف كل عام، وعلى أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبي ولا شيخ، ودخل قتيبة المدينة وبنى بها مسجداً[2] و وضع فيه منبراً، ثم ارتحل عائداً إلى مرو بعد أن

---

[1] فيل: مدينة ولاية خوارزم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٨٦.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٩٣ هـ - ج٦ - ص٤٧٥.

استخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلّف عنده بعض القوات بسلاحها وعتادها.

غزو الشاس وفرغانة: عندما أراد قتيبة غزو الشاس[1] سنة (٩٤ هـ - ٧١٢م) فرض على أهل بخارى وكس ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل، فساروا معه إلى السغد، فوجههم إلى الشاس، وتوجه هو إلى فرغانة فلما كان في خجندة قاتله أهلها، ثم توجه إلى كاشان مدينة فرغانه، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاس، وقد فتحها ثم عاد قتيبة إلى مرو وأعلم الحجاج بذلك، في هذه المرحلة كتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن وجه من قبلك من أهل العراق إلى قتيبة، فنفذ محمد بن القاسم، وفي العام نفسه أيضاً قدم على قتيبة جيش من العراق بأمر الحجاج، فلما كان بالشاش أو بكشماهن أتاه الخبر بموت الحجاج في شوّال سنة (٩٥ هـ - يونيه - ٧١٣م)، فقفل راجعاً إلى مرو.

فتح كاشغر[2] وغزو الصين: أراد قتيبة الغزو سنة (٩٦ هـ - ٧١٤م) فمضى إلى فرغانة، وكان قد حمل مع الناس عيالهم، وكان يريد أن يحرز عياله في سمرقند خوفاً من سليمان بن عبد الملك، ثم أرسل من يسهل له الطريق إلى كاشغر، وهي في مدائن الصين، فأتاه موت الوليد وهو بفرغانة، وقيل: إن قتيبة بعث إلى كاشغر فسبى منها سبياً فختم أعناقهم، ثم رجع فجاءه الخبر بموت الوليد.

وقيل إن قتيبة حسب رواية الطبري[3] في أحداث سنة (٩٦ هـ - ٧١٤م)، وغل في غزوه حتى قرب من الصين، فكتب إليه ملك الصين إبعث إلينا رجالاً من أشراف من معك يخبروننا عنكم وعن دينكم، فاختار قتيبة عشرة (قيل: إثني عشر رجلاً)، وأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع، وحملهم على خيول أصيلة ورأسهم هبيرة بن المشمرج وكان يقودهم، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا عليه وقد لبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية ولبسوا النعال والأردية، فجلسوا فلم يكلمهم الملك، ولم يتكلموا فقاموا.

---

[1] شاس: بالري قرية يقال لها شاس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٠٨.

[2] كاشغر: في وسط بلاد الترك - وهي مدينة وقرىً ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٣٠.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٠١.

فقال الملك لمن كان بحضرته: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوماً ما هم إلا نساء، فلما كان الغد استدعاهم مرةً ثانية فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف، فدخلوا عليه ثم أمرهم الملك بالإنصراف فقال لأصحابه: ما رأيتم؟، قالوا: هذه الهيئة أشبه بالرجال، ثم استدعاهم في اليوم الثالث فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم، فلما رآهم الملك أمرهم بأن يرجعوا، فسأل الملك أصحابه عن رأيهم، فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

وفي المساء أرسل الملك إليهم أن يبعثوا أفضلهم إليه، فتوجه هبيرة، فحدثه الملك عن عظمة ملكه وقدرته وهيبته وما أشبه ذلك، وقال: قد رأيتم عظيم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، ثم سألهم لماذا صنعوا ما صنعوا من الزي فيما ورد، فرد عليه إن لباسنا في اليوم الأول: كان في أهالينا، وفي اليوم الثاني: كان إذا أتينا أميرنا، وأما لباس اليوم الثالث: فهو لعدونا.

ثم قال: انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم، فرد عليه هبيرة: كيف يكون قليل عددنا وأول خيلنا في بلادك وآخرها في الشام، وكيف يكون أميرنا حريصاً وهو من خلّف الدنيا وهو قادر عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا أجلاً لسنا نكرهه ولا نخافه، فسأل ما الذي يرضي صاحبكم؛ فقال هبيرة: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ على أرضكم، ويختم ملوككم ويعطى الجزية فقال الملك: ألا نخرجه من يمينه.

فنبعث إليه من تراب أرضنا فيطؤه.

- ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم.

- ونبعث بجزية يرضاها.

ثم عادوا وأعلموا قتيبة بما ورد، فوافق فقبل الجزية وختم غلمانهم و وطأ ترابهم.

أخيراً كان قتيبة كما يذكر الطبري[1] «إذا رجع من غزاتِه كلّ سنة اشترَى إثنَيّ عشر فرساً من جِياد الخَيل؛ وإثني عشرَ هجيناً، لا يُجاوِز بالفرَس أربعة آلاف، فيقام عليها إلى وقت الغزو، فإذا

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٠٣.

تأهب للغزو وعَسكَر قيّدت وأضمِرتْ. فلا يَقطَع نهراً بخَيل حتى تخفّ لُحومُها، فيَحمِل عليهـا مـن يَحمِله في الطلائع. وكان يبعث في الطلائع الفُرسان من الأشراف، ويبعث معهم رجالاً مـن العَجَـم ممن يَستنصِح على تلك الهجُن، وكان إذا بعث بطَليعة أمَر بلَـوْح فنُقِـش، ثـمّ يشـقّه شـقّتين فأعطـاه شقّة، واحتبس شقة، لئلا يمثّل مثلها، ويأمره أن يَدفِنها في موضع يصفُهُ لـه مـن مخاضَـة معروفـة، أو تحتَ شجرة معلومة، أو خربة، ثمّ يبعث بعده من يسير بها ليعلم أصادِقٌ في طليعته أم لا».

الجبهة الشمالية: في هذه المرحلة افتتح مسلمة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد بن عبـد الملك حصن طوانه[1] في جمادى الآخرة سنة (٨٨ هـ - ٧٠٦م) وقيل حاصرها العرب المسلمون سـنة (٩٢ هـ - ٧٠٩م)، وكانت تعتبر مفتاح الطريق الهام بين بلاد الشام وآسية الصغرى، وهي من أهـم معاقل قيد وقيه حيـث استمر الحصـار تسعة أشـهر هـزم بعدهـا البيزنطيون وسـقطت القلعـة بيـد المسلمين[2] ، وشتوا بها، ثم غزا مسلمة الروم في العام نفسه، ففتـح علـى يديـه ثلاثـة حصـون هـي: القسطنطينية، وغزالة وحصن الأخرم، وغزا مسلمة أيضاً سنة (٨٩ هـ - ٧٠٧م) أرض الروم، ومعـه العباس بن الوليد، فافتتح مسلمة حصن سورية وافتتح العباس أذرولية، وقيل: قصد مسلمة عمورية[3] فهزم العدو بها[4] وافتتح هرقلة[5] ، وقمورية، وفيها غزا العباس الصائفة من ناحية البذندون.

كما غزا مسلمة بن عبد الملك سـنة (٨٩ هــ - ٧٠٧م) الـترك حتـى بلـغ البـاب مـن ناحيـة أذربيجان، ففتح حصوناً ومدائن هناك، كما غزا بنفسه أرض الروم سنة (٩٠هـ - ٧٠٨م) من ناحية سورية ففتح الحصون الخمسة التي في سورية. وفي هذه السنة أيضاً أسرت الـروم خـالد بـن كيسـان صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك[6] .

في أحداث سنة (٩٢هـ - ٧١٠م) كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك، وعمرو بن الوليد أرض الروم، ففتح ثلاثة حصون وأجلى أهل سنوسنه إلى جوف أرض الروم. وفي سنة (٩٣ هــ - ٧١١م)

---

[1] طوانه: بلد بثغور المصيصة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥.

[2] محمد سعيد عمران - معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي - ص٨٥.

[3] عمورية: بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٥٨.

[4] قيل أن العرب المسلمين استولوا على مدينة عموزية الواقعة في منتصف آسية عام ٧١٦م.

[5] هرقلة: مدينة ببلاد الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٩٨.

[6] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٤٤٢.

كانت غزوة العباس بن الوليد أرض الروم، ففتح الله على يديه سمسطية. وفي السنة نفسها كانت غزوة مروان بن الوليد أرض الروم، فبلغ خنجرة[1]، كما كانت غزوة مسلمة بن عبد الملك أرض الروم فافتتح ماسة وحصن الحديد، وغزالة، وبرجمة من ناحية مالطية.

كما كانت غزوة العباس بن الوليد سنة (٩٤ هـ - ٧١٢م) أرض الرم، ففتح أنطاكية[2]. وفي أحداث السنة نفسها غزا عبد العزيز بن الوليد أرض الروم، فبلغ غزالة، وبلغ الوليد بن هشام المعيطي أرض برج الحمام. وفي أحداث السنة نفسها كانت غزوة العباس بن الوليد أرض الروم، ففتح الله على يديه ثلاثة حصون وهي: (طولس، والمرزبانين، وهرقلة)، كما تمكن العباس بن الوليد من فتح قنسرين.

الجبهة الغربية:

موسى بن نصير: وصف موسى بن نصير بأنه كان كريماً شجاعاً ورعاً من رجال العلم حازماً له رأي وهمة وشجاعة وإقدام أتم جهود من سبقه من الولاة في تحرير شمال أفريقية، واشترك في فتح الأندلس. أما ابن الأثير فيذكر ولايته على أفريقية بدلاً من حسان سنة (٨٩ هـ - ٧٠٧م) من قبل الوليد بن عبد الملك، فلما وصل موسى إلى أفريقية عزل صالحاً الذي استخلفه حسان، وعلم أن في أطراف البلاد خارجين عن الطاعة، فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم فظفر بهم، ثم سيره في البحر إلى جزيرة ميورقة[3] فنهبها وعاد، ثم وجه ابنه هارون إلى جهة أخرى فسبى وعاد، وتوجه موسى نفسه نحو جهة أخرى وطائفة أخرى فغنم وعاد فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي.

بعد ذلك خرج غازياً إلى طنجة[4] فبلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد، فاستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد، وجعل معه جيشاً كثيفاً جلهم من البربر، و وضع من يعلمهم القرآن والفرائض، ثم عاد إلى أفريقية، وفي طريق عودته إليها حرر قلعة مجانة[5] فسميت بعد ذلك قلعة

---

[1] خنجرة: ناحية ببلاد الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٩٢.

[2] قيل استولى العرب المسلمين على أنطاكية (الواقعة بسيديا على نهر الميانذر جنوب غرب آسيا الصغرى) في عام ٩٥هـ - ٧١٣م.

[3] ميورقة: جزيرة في شرقي الأندلس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٢٤٦.

[4] طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٣.

[5] مجانة: بلد بافريقية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٥٦.

بشر، ثم نسبت إلى الذي فتحها. وقيل كما يذكر ابن الأثير إن ولاية موسى بن نصير كانت سنة (٧٨ هـ) استعمله عليها عبد العزيز بن مروان، وهو حينئذ على مصر لأخيه عبد الملك.

فتح الأندلس: يذكر الطبري في أحداث سنة (٩٢ هـ ـ ٧١٠م) أن طارق بن زياد مولى موسى بن نصير توجه إلى الأندلس في اثني عشر ألفاً فلقي ملك الأندلس ـ اسمه أدينوف وهو من أهل أصبهان وهم ملوك عجم الأندلس ـ فالتقى الطرفان في قتال عنيف فقتل أدينوف وفتح الأندلس و لم يضف الطبري على ما ورد أي ذكر لتفاصيل فتح الأندلس ولا التحضيرات وغيرها.

ويذكر أيضاً في أحداث سنة (٩٣ هـ ـ ٧١١م) أن موسى بن نصير كان قد غضب على طارق بن زياد فشخص إليه، ومعه حبيب بن عقبة بن نافع، وقد استخلف على أفريقية ابنه عبد الله ابن موسى، وعبر إلى طارق بعشرة آلاف فتلقاه فترضاه فرضي عنه، و وجهه إلى مدينة طليطله[1] فأصاب منها مائدة سليمان بن داوود، وقال في أحداث السنة نفسها إنه أصاب أهل أفريقية جدب وقحط شديد فاستسقى ودعا وخطب الناس فسقوا سقياً كفاهم، وقال في أحداث سنة (٩٥ هـ ـ ٧١٣م) أن موسى بن نصير انصرف إلى أفريقية من الأندلس فضحى بقصر الماء على ميل من القيروان.

أما ابن الأثير فيتحدث مطولاً عن الأندلس وعن فتحها سنة (٩٢ هـ ـ ٧١٠م) فيذكر أول ما ذكره الطبري ثم يتحدث عن الأندلس، فقال: إن أول من سكنها قوم يعرفون بالأندلس فسمى البلد بهم ويعرف بعضهم الأندلس إشبانية باسم رجل صلب فيها يقال له اشبانس، وقيل باسم ملك كان بها اسمه اشبان بن طيطس، وقيل: سميت بأندلس بن يافث بن نوح وهو أول من عمرها، وقيل: أول من سكن الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس فعمروها ثم توالى القحط على البلاد فخلت البلاد مائة سنة، ثم بعث الله لعمارتها الأفارقة.

فدخل قوم من الأفارقة أجلاهم ملك أفريقية تخففاً فحملهم في السفن فنزلوا جزيرة قادس[2] فسكنوها وعمروها، وكانت دار ملكهم طالقة[3] من أرض إشبيلية[4] فملك منهم أحد عشر ملكاً،

---

[1] طليطلة: مدينة كبيرة بالأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٩.

[2] قادس: جزيرة في غربي الأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٩٠.

[3] طالقة: ناحية من أعمال إشبيلية بالأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٨.

[4] إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس تسمى حمص أيضاً وبها قاعدة ملك الأندلس وبها كان بنو عباد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص١٩٥.

ثم أرسل الله عليهم عجم روما وملكهم إشبان بن طيطس فغزاهم وفرقهم، ثم ابتنى إشبانية وهي إشبيلية، واتخذها داراً لملكه وكثرت جموعه فغزا بيت المقدس ففتح وغنم منها مائدة سليمان بن داوود فنقلها إلى إشبيلية وهذا الخبر عارٍ عن الصحة وما هذه إلا أسطوره، يؤكدها الخبر التالي الذي يذكر أن إشبان هذا كان الخضر قد وقف عليه، وهو يحرث الأرض فقال له الخضر تحصن وتملك وقال له: قد جعل فيك الملك من جعل عصاك هذه كما ترى فنظر إليها فإذا هي قد أورقت، فملك عشرين سنة، وملك بعده خمسة وخمسون ملكاً.

ثم ملكهم أمة من عجم روما وملكهم طوريش بن نيطة، وكانت مدينة ماردة[1] دار ملكهم وتملك منهم سبعة وعشرون ملكاً، ثم دخلت عليهم أمة القوط فغلبوا على الأندلس، وكان ابتداء ظهورهم من ناحية إيطالية، ثم ملكهم رزريق ثم ولى بعده أقريط وتوالى الملوك على إسبانية حتى كان رزريق، وكان من ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة ليكونوا في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم يتأدبون بذلك فإذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضاً وتولى تجهيزهم.

فلما كان رزريق أرسل إليه بوليان صاحب الجزيرة الخضراء[2] وسبته[3] وغيرها ابنة له، فاستحسنها رزريق واغتصبها، فكتبت إلى أبيها فغضب وكتب إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على أفريقية بالطاعة واستدعاه إليه ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها وذلك في آخر سنة تسعين.

كتب موسى بن نصير إلى الخليفة الأموي الوليد يعلمه بخبر بوليان فكتب إلى الوليد، خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين.

طريف بن مالك (أبي زرعه): عند ذلك أخذ موسى بن نصير يستعد لتنفيذ المهمة فاستدعى أحد قادته واسمه طريف وكلفه بهذه المهمة وأعطاه أربعمائة رجل ومعهم مائة فرس وأعطاه أربع سفن. تمكن طريف من النزول في جزيرة بالأندلس سميت باسمه، ثم أغار على الجزيرة الخضراء ففتحها ورجع سالماً سنة (٩١ هـ ـــ ٧٠٩م). كان ما فعله طريف عاملاً حاسماً في رفع الروح

---

[1] مارده: كورة واسعة من نواحي الأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٨١.

[2] الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس ـ تقع شرقي شذونة وقبلي قرطبة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٣٦.

[3] سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب وفرسانها أجود فرسان على البحر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٨٢.

المعنوية لدى القوات المسلحة. هذا ويذكر أن طريفاً تحرك بقواته بواسطة أربع سفن حيث يذكر بعضهم أن هذه السفن هي من عند يوليان أو لغيره. هنا يوجد خلاف حول هذا الموضوع. تمكن طريف خلال عمله هذا من تقديم دعم كبير للقوات المسلحة التي قادها طارق من حيث الاستطلاع ومعرفة السكان والأرض وغير ذلك مما يساعد على وضع خطة ناجحة اعتمدها فيما بعد موسى بن نصير.

طارق بن زياد: دعا موسى بن نصير أحد مواليه هو طارق بن زياد الذي امتاز بالشجاعة حيث كان دائماً في المقدمة في أكثر التحركات وأعلمه بنيته في فتح الأندلس فكون جيشاً قوامه سبعة آلاف من العرب المسلمين.

تحرك طارق بن زياد بحراً فقصد جبل منيف فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم. كان ذلك في رجب سنة (٩٢ هـ ـ أبريل ٧١١م)، وهنا تتحدث المصادر عن أحلام رآها طارق بن زياد وهي أنه رأى النبي ومعه المهاجرون والأنصار وهم متقلدون السلاح، وتذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصاه بالمسيحيين والرفق بهم، ثم نظر طارق فرأى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه قد دخلوا الأندلس.

اختلفت الروايات التاريخية في فتح الأندلس ابتداء من عقبة بن نافع الفهري. فقد كان يفكر بذلك[1] سنة (٦٣ هـ ـ ٧١١م) إلا أن الإمكانيات آنذاك لم تكن متوفرة له، وذكر أن الفكره كانت قائمة قبل ذلك بكثير أي منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان بعد تحرير أفريقية إلا أن ذلك لم يتم بسبب الأحداث المأساوية التي ألمت بالأمة العربية الإسلامية آنذاك، والمطلع على التاريخ الحربي وعلى الخصوص البحري يلاحظ أن العرب المسلمين كان لهم نشاط واسع في البحار فخاضوا حروباً وغزوات وانتصارات في هذا الميدان فوصلت الغزوات العربية إلى جزر المتوسط ففتحوا بعضها وخاضوا حروباً مع بعضها الآخر. وقال الذهبي إن موسى بن نصير كان قد جهز جيشاً يقوده ابنه عبد الله فافتتح سنة (٨٩ هـ ـ ٧٠٧م) ميورقه ومنورقه.

---

[1] المراكشي ـ أبو عبد الله محمد المراكشي لبن عذارى ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ تحقيق كولان وليفي بروفنال ـ طبع باريس ١٩٤٨ ـ ج٢ ـ ص٤.

نعود إلى طارق بن زياد فبعد أن تمت الاستعدادت الكاملة عبر بقواته بواسطة سفن اختلف المؤرخون في مصدرها فبعضهم ذكر أنها من يوليان، وبعضهم الآخر يذكر أنه تم استئجارها، وآخرون أكدوا أنها عربية صرفة معتمداً على معرفة وثيقة بأن العرب كان لهم دور فعال في هذا الميدان ونؤكد أن العرب كانوا يملكون دوراً لصناعة السفن قبل تلك التي أقامها حسان بن النعمان الغساني في تونس، وكلنا يعلم معركة ذات الصواري التي انتصر فيها العرب المسلمون حيث كانوا يمتلكون أسطولاً بحرياً متقناً والدليل على ذلك انتصاره في هذه المعركة.

وأعتقد أن فتح الأندلس لم يكن مفاجئاً إنما جاء نتيجة تخطيط ودراسة وتقدير للموقف وغير ذلك وعندما صدر القرار بتحرك طارق كانت كل مستلزمات الحملة قد هيئت محلياً دون الاستعانة بأحد، وإذا اعتمدنا أن يوليان أرسل أربع سفن أقل أو أكثر، فهذا العدد لا يكفي لنقل الحملة إلا بدفعات كثيرة وهذا يبعد المفاجأة، وإذا وجدت سفن ليوليان فوجودها كان لتحقيق المفاجأة وإبعاد أي خطر وإضفاء تمويه على مثل هذا التحرك.

أي أن السفن التي نقلت الحملة كانت عربية كما أرى وما وجود سفن يوليان ضمن هذا الأسطول إلا للسرية في تحرك الحملة علماً أن يوليان كان له دور مهم في هذه الحملة سهّل تقديم العون والمساعدة لها، يضاف لما ورد أن العرب كانوا قد سيطروا على الساحل الشرقي للساحل المتوسط وكان لهم صوائف وشواتٍ بحرية كثيرة، ولهم تجارب في هذا الميدان، ثم أن العرب كانوا أيضاً قد سيطروا على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، وكانوا أيضاً يسيطرون على البحر الأحمر الذي كان وما زال عربياً في كل مواصفاته فكيف لدولة تملك المد الواسع ولها شواطئ واسعة ولا تملك أسطولاً بحرياً.

هذا مستبعد كما أعتقد. ولتأكيد ذلك نتساءل كيف تم للعرب المسلمين ـ قبل فتح الأندلس ـ خوض الحرب في البحار واحتلال قبرص إلى معركة الصواري إلى غزو رودس إلى صقلية ومحاصرة القسطنطينية وغير ذلك مما يؤكد أن العرب كانوا يملكون أسطولاً بحرياً نشيطاً إذا لم نقل إنه كان الأفضل[1] نشاطاً في البحر المتوسط. يضاف لهذا أن الدولة العربية الإسلامية الواسعة

[1] الذهبي ـ العبر في خبر من عبر ـ تحقيق: صلاح الدين المنجد ـ طبع الكويت ١٩٦٠ ـ ج٢ ـ ص١٠٤، المقري ـ نفح الطيب ـ ج١ ـ ص٢٧٩، ابن خلدون ـ العبر ـ ج٤ ـ ص٤٠٢.

الانتشار شرقاً وغرباً كانت ذات أثر مهم في حركة التجارة المحلية والعالمية وكلتاهما تحتاجان إلى سفن لنقل البضائع محلياً وعالمياً عبر البحار، فكيف نعتقد أن حملةً لفتح الأندلس اعتمدت سفن يوليان أو غيره.

أخيراً أعتقد أن العرب المسلمين في هذه المرحلة كانوا سادة البر والبحر وبذلك ليسوا بحاجة إلى مساعدات من أي طرف إلا ما يخدم الحملة من حيث السرية وتحقيق المفاجأة.

تحرك طارق بن زياد بحملته من الشمال الأفريقي في ٥ رجب (٩٢ هـ - أبريل ٧١١م) فنزل على جبل طارق كما ذكرنا وهنا تذكر بعض المصادر أنه أحرق السفن، وقال خطبةً شهيرة، وبعض المؤرخين لا يمرون على ذكر ذلك فقضية إحراق السفن أعتقد أنها غير صحيحة لعدة أسباب فإذا كانت السفن عربية فمن الأفضل بدلاً من حرقها إرجاعها إلى الشاطئ الأفريقي والاستفادة منها وإذا أخذنا برأي من يقول إن السفن ليوليان فليس من حقه إحراقها وهو بحاجة ليوليان كدليل يقدم. خدمات جلى، وإذا كانت سفناً تجارية مستأجرة كما يرى بعضهم فأصحابها لا يسمحون بحرقها لأنهم سيقلعون بها بعد تنفيذ المهمة. إذاً ففكرة حرق السفن غير مقبولة، وليست لها أية فوائد بل على العكس. أما الخطبة التي تذكرها بعض كتب التاريخ وهي خطبة رائعة، يقول فيها:

«أيها الناس، أين المفرُّ؟ البحرُ من ورائكم والعدوُّ أمامَكم وليس لكم وا لله إلا الصدقُ والصبر، واعلموا أنكم في هذ الجزيرة أضيَعُ من الأيتام في مأدُبَة اللئام، وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقواتَ لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحصينة، وإنّ انتهاز الفُرْصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أُحَذِّركم أمراً أنا عنه بنَجْوة، ولا حملتكم على خُطة أرخص متاعٍ فيها النفوسُ إلاّ وأنا أبدأ بنفسي.

واعلموا أنّكم إن صَبَرْتم على الأشق قّليلاً استمتعتم بالأرْفَة الألَذِّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حَظُّكم فيه بأوفى من حظي، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدرّ والمَرْجان والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان، للمقصورات في قصور الملوك

ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْبانـاً، ورضيكـم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقةً منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفُرسان، ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مَغْنَمُها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أنّي أوّلُ مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذْريق فقاتِلهُ إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يُعْوِزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذَلون»[1].

تلقى موسى بن نصير أنباء انتصارات طارق بن زياد، فقرر الإشراف المباشر على استمرار الفتوحات، فأمر طارق بن زياد بوقف القتال إلى حين وصوله إليه، إلا أن طارقاً استمر في تحركاته العسكرية. كان موسى كما ذكرنا شجاعاً طموحاً يعمل لصالح الدولة الأموية وقادتها بدمشق، وكان ثقةً لديهم، والوضع العام في شمال أفريقية مستقر، فقرر التوجه إلى الأندلس لاستكمال الفتوحات، وهذا حق من حقوقه لأن طارقاً أحد مرؤوسيه، وقد يكون رسم خطة حازت على موافقة الخليفة بدمشق لاستمرار فتح أوربة اعتباراً من الأندلس، والتحرك شرقاً حتى القسطنطينية. في الوقت نفسه كانت الخلافة الأموية حريصة على الاستمرار في مثل هذه الفتوحات، وإذا ما نجحت الخطة في الأندلس كانت القوات البرية قادرة على التحرك إلى القسطنطينية وأحكام الفتوحات في شمال المتوسط.

وقال ابن قتيبة[1] بعد تحرير أفريقية من قبل موسى بن نصير ولى مولاه طارق بن زياد سنة (٨٥هـ - ٧٠٤م) طارق مدائن البربر الباقية وأعلم بأنه أصاب ست سفن، فأمره أن يكملها سبعة، ثم أمره بالعبور إلى إسبانية و وضع له خطة العبور.

---

[1] المقري - نفح الطيب - ج١ - ص٢٤، ابن خلكان وفيات الأعيان — ج٥ — ص٣٢١—٣٢٢، عبد الرحمن علي الحجي — التاريخ الأندلسي - ص٥٧-٥٨.

[1] ابن قتيبة - الإمام والسياسة - ج٢ - ص٥٩.

لم ينكر أكثر المؤرخين العرب وغيرهم خطبة طارق بن زياد كانوا من المشرق أو المغرب العربي إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين أخذوا يذكرونها بعدم مطابقتها للعصر من عدة نواحٍ كالدينية والأدبية وكل المبررات التي تحاول نفي وجودها معتمدين أموراً لا يمكن الركون إليها والتسليم بها.

فطارق بن زياد قائد مجهول النشأة، أسلم وحسن إسلامه، وهو عربي من حيث الأصل والجنسية يؤمن بالإسلام والجهاد في سبيله، يؤكد ذلك رواة التاريخ الذين يذكرون أنه كان دائماً في مقدمات الجيش، امتاز بالدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيله وخطبته جاءت حضاً على الجهاد وليست لإظهار البلاغة والبهرجة، كانت عربية بحتة، وغايتها الدفاع والجهاد عن الإسلام وانتشاره و زرع الروح المعنوية لدى قواته.

ثم إن اللغة العربية لم تكن قاصرة كما يتصور على الجزيرة العربية، فالعرب انتشروا كقبائل في مصر وأفريقية، وانتشروا فيها قبل الإسلام وبعده، والعلاقة بين مصر وشمال أفريقية وبلاد الشام والجزيرة العربية علاقات تاريخية وطيدة عبر التاريخ، ثم إن طارق بن زياد مجهول الهوية في بداية حياته، فقد يكون في الأصل عربياً ينتمي إلى إحدى القبائل العربية التي استقرت في أفريقيه بعد فتح مصر، ثم إن بعض المؤرخين القدماء أثنوا على طارق بحسن خلقه وقدرته على التنظيم وغير ذلك. في النهاية أنا أعتقد أن طارق بن زياد هو صاحب الخطبة، إلا أنه قد يكون طرأ عليها بعض التحريف للتقليل من أهميتها، ثم إن بعض المؤرخين و رواة الأخبار كان من أهدافهم إظهار البربر كأنهم جنسية غريبة معادية للعرب، وهذا عكس الواقع والحقيقة.

أخيراً مهما حاول بعضهم أن يقلّل من أهمية طارق بن زياد، فآثاره باقية عبر التاريخ يشهد لها تاريخ الأندلس، ويشهد تاريخ فتح الأندلس بأنه أحد القادة العرب العظام الذين جاهدوا وناضلوا لانتشار الإسلام من جهة ولإعلاء كلمة الله من جهة أخرى، وطارق بن زياد يجب أن يكون رمزاً من رموز تاريخنا العربي الإسلامي وخاصةً في مجال الفتوحات، وهو لا يقلّ أهميةً عن غيره من قادة الفتوحات في الشرق.

إذاً انتقل طارق بقواته من الساحل الأفريقي إلى الساحل الإسباني بواسطة سفن عربية كما أرى فاستكمل استعداده، وفي هذا الموضوع يختلف المؤرخون، فبعضهم يذكر أن طارقاً عبر إلى

إسبانية في سبعة آلاف، وأمده موسى بن نصير بخمسة، فيكون قوام جيشه إثني عشر ألفاً، وبعضهم الآخر كابن خلدون يذكر أن طارق بن زياد كان في نحو ثلاثمائة من العرب، ومعهم من البربر نحو عشرة آلاف، فقسمهم قسمين، الأول يقوده بنفسه، والقسم الآخر جعل قيادته لطريف بن مالك فنزل طارق بجبل عرف باسمه جبل طارق، ونزل طريف بمكان أيضاً يعرف باسمه.

وقد يكون طارق عبر بقواته إلى إسبانية البالغ عددها سبعة آلاف وهو قائدها، ثم طلب العون والمدد من موسى بن نصير فأرسل له خمسة آلاف يقودهم طريف، ولطريف كما ذكرنا تجربة في العبور إلى إسبانية. بعد العبور أكمل طارق قواته وجعلها على أهبة الاستعداد، فنظّم جيشه وعبأه. علم ملك الأندلس بعبور المسلمين إلى بلاده فجمع جيشاً اختلفت الروايات في تعداده، فأكثرهم[1] يقول مائة ألف، وبعضهم يقول أربعين ألفاً[2]، والمقلل[3] يقول خمسة وعشرين ألفاً.

أما ملك الأندلس فكان يتمتع بروح معنوية عالية، ثقته بالنصر كبيرة، أعدّ للنصر عدّته إلا أنه كان يجهل عدوه، وكان تقديره للموقف تقدير رجل مغرور دفعه غروره إلى الهزيمة. التقى الطرفان بمعركة اختلف بتاريخها وموقعها، فبعضهم يذكر أنها وقعت سنة (٩٣ هـ في /١٩/تموز سنة ٧١١م)، ومكانها وادي بكة، وبعضهم الآخر يذكر تاريخها في يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ومكانها وادي برباط[4]، واستمرت ثمانية أيام أي حتى ٥ شوال (٩٢هـ - يوليه - ٧١١م). مهما يكن فالمعركة الأولى كانت فاصلة غنم فيها العرب المسلمون غنائم كثيرة حيث يذكر أن الجيش العربي الإسلامي بعدها أصبح كله خيالة. في الوقت نفسه خسر العدو الكثير، وتشتت جمعهم وقتل ملكهم.

بعد ذلك توجه طارق إلى طليطلة[5] عاصمة القوط، حيث تجمع القوط عند مدينة أستجة[6]،

---

(1) المغرب - نفح الطيب - ج١ - ص٢٣١.

(2) ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - تاريخ ابن خلدون - تحقيق خليل شحادة - طبع دار الفكر - بيروت ١٩٨١ - ج٤ - ص٢٥٤.

(3) نجيب زبيب - الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس - طبع بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٥ - ج٢ - ص٦٦.

(4) وادي برباط: وادي بالأندلس من أعمال شذونة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٦٨.

(5) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٩.

(6) أستجة: اسم الكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية بين القبلة والمغرب من قرطبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٧٤.

ففتح طارق بعض المدن في طريقه منها مدينة شذونه[1]، مـوزور[2]، قرمونيـة[3]، واشبيلية، ومنهـا إلى أستجة، حيث دارت معركة حامية انتصر فيها طارق وهزم القوط، وافتتح المدينة.

بعد ذلك وزّع طارق جيشه إلى فرق[4]، فبعث فرقةً قوامها سبعمائة فارس إلى قرطبة[5] بقيادة مغيث الرومي، وفرقـة أخـرى إلى مالقـة[6]، وثالثـة إلى غرناطـة[7]، وسـار طـارق بالرابعـة إلى كـورة جيان[8] يريد طليطلة. تمكنت الفرق جميعها من تحقيق أهدافها، ففتحت قرطبة ومالقة وغرناطة، ومن ثم فتحت مدينة تدمير[9] أيضاً.

أما طارق فسار إلى طليطلة ماراً بمدينة جيان، حيث تمكن من فتح طليطلة، وتابع زحفه شمـالاً إلى منطقة وادي الحجارة فوصل مدينة المائدة، وهناك وجد مـائدة سـليمان بـن داؤود، كمـا تذكـر بعض المصادر، ثم مضى ورجع إلى طليطلة سنة (٩٣ هـ ـ ٧١١م)، حيث اجتمعت القوات العربيـة بعد أن نفـذت مهامهـا. نعـود إلى موضـوع المـائدة الـتي غنمهـا طـارق، فهـذا موضـوع أقـرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك غنائم وأن الذي غنمه طارق كـان طاولـة منظومة بالدرر والياقوت والزبرجد، وهي التي زعم بعضهم أنها مائدة سليمان بن داؤود.

حركة موسى بن نصير إلى الأندلس: ذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصـير حسـد طارقـاً على انتصاراته في الأندلس، هذا الكـلام لا أعتقـده لأن فتـح الأندلـس كـان ومـا زال يرتبـط باسـم موسى بن نصير من البداية إلى النهاية كونه القائد الأعلى للقوات الإسلامية في شمال أفريقية، والوالي

---

[1] شذونة: مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٣٢٩.

[2] موزور: اسم الكورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٢٢.

[3] قرمونية: كورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشـرقي إشـبيلية ــ يـاقوت الحمـوي ــ معجـم البلـدان ــ ج٤ ــ ص٣٣٠.

[4] عبد الرحمن علي الحجي ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ـ طبع سورية ١٩٩٧ ـ ص٩٠.

[5] قرطبة: مدينة كبيرة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٢٤.

[6] مالقة: مدينة بالأندلس ـ من أعمال رية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤٣.

[7] غرناطة: أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٩٥.

[8] جيان: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٩٥.

[9] تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان وهي شرقي قرطبة، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٩.

المعتمد من قبل الخليفة، ثم أن طارقاً كان رجلاً مغموراً، إلا أنه امتاز بالشجاعة، وكان دائماً في المقدمة وتابعاً لموسى بن نصير، وموسى نفسه هو الذي اختار طارقاً من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى العاصمة المركزية فيما يتعلق بقائد الحملة، ثم أن علاقة طارق اعتباراً من عبوره الأندلس ومراسلاته واتصالاته كانت مع موسى بن نصير، وتعليمات طارق كانت من موسى بن نصير، وخطة الحملة على إسبانية كانت من وضع موسى بن نصير.

وما ذكرناه لا يعني الإقلال من شخصية طارق أبداً، إنما نؤكد أهمية تعاون طارق بن زياد مع قائده موسى بن نصير، واهتمام موسى ومراقبته للأحداث خلال الفتوحات وتقديم العون والإمدادات في وقتها لأن الغاية والهدف هو الجهاد، وإعلاء كلمة الله في ربوع العالم، وجعل راية العرب خفاقة في كل مكان من العالم. وكلنا يدرك أن الحاسد لا يخدم نفسه على العكس فالحسود لا يسود، والحاسد ينعكس حسده على نفسه، وهذه صفة لا أعتقد ولا أرى أنها من صفات موسى ابن نصير بل على العكس كان كما وصفه المؤرخون كريماً سمحاً شجاعاً له دراية بالعلم، وله خبرة واسعة في الحروب، حتى إن بعض المؤرخين يذكرونه بأنه كان بعد عبور طارق مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر العرب المسلمين.

ثم إن بعض المؤرخين يذكرون أن طارقاً خلال انتصاراته وتفرق قواته وتوزيعها كما ذكرنا خاف أن يغلب وأن يستغل القوط كل ما معه، فأرسل يستنجد موسى[1]، عندما طلب طارق العون والمدد من موسى بن نصير قدر الموقف العام في شمال أفريقية والدولة العربية وخاصةً في الأندلس، فرأى أن واجبه كقائد إعداد جيش قوي والالتحاق بالأندلس بنفسه.

توجه موسى إلى الأندلس من القيروان[2] كونها المقر الرئيسي لإقامته، بعد أن استخلف عوضه ابنه ثم تحرك سنة (٩٣هـ-٧١١م) كان قوام جيش موسى في حركته إلى الأندلس ثمانية عشر ألفاً، فعبر إلى إسبانيه في رمضان من السنة نفسها على سفن كان قد أعدها لمثل هذا الموقف، وعبر من سبته إلى جبل طارق، وقيل كان عبوره من جبل موسى قرب سبته، فنزل جبل طارق، وقيل إلى الجزيرة الخضراء.

---

[1] ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ص١٤٠ - ابن خلدون - العبر - ج٤ - ص٢٥٤.

[2] ابن خلدون - العبر - ج٤ - ص٢٥٤.

كان مع موسى بن نصير ابناه (عبد العزيز - عبد الأعلى) والمهم أن موسى عبر وهـذه حقيقة تاريخية لا جدل فيها - إلى الجزيرة الخضراء - ومـن هناك أخذ يشرف على عملية إنزال القوات وحشدها، وعندما استكمل الإنزال أخذ يعد الترتيبات والخطط المعتمدة ويذكر بعضهم[1] أن راياته أثناء ذلك كانت عشرين راية، حيث يذكر أن موسى كان قد أقام هناك مسجداً عرف بمسجد الرايات[2] (في الجزيرة الخضراء).

فتوحات موسى: بعد أن أعد موسى قواته ورتبها تحرك بها إلى شذونه فاستسلمت، ثم تحرك إلى مدينة قرمونه وهي من أحصن مدن الأندلس ففتحها، ثم توجه إلى إشبيلية وهي أعظم مدن الأندلس فحاصرها أشهراً، ثم فتحها، ثم توجه إلى مدينة (لقنت) ومنها إلى مارده، ويذكر أنه افتتح قبل وصوله إليها كل من لبلة، وباجة، ثم حاصر مارده شهوراً، حيث تمكن العرب المسلمون من فتح ثقب في أسوار المدينة بواسطة دبابة إلا أن عناصر الدبابه قتلوا دون أي فائدة.

استمر الحصار لمارده حتى رمضان أو أول شوال سنة (٩٤هـ-٣٠ حزيران ٧١٣م)، وعندما اشتد الحصار على أهل مارده لجأ الطرفان إلى الصلح وجرت اتصالات، وإرسال وفود من كلا الطرفين لتحقيق ذلك في النهاية تم الصلح[3]، ثم إن موسى أخذ يعد قواته وينظمها.

ومن مارده أرسل موسى بن نصير جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز إلى إشبيلية، وقد اجتمع فيها الكثير من القوط والأندلسيين الذين تمكنوا من احتلالها وقتل الكثير من المسلمين الذين كانوا فيها، فأعاد عبد العزيز فتحها كما أعاد فتح لبلة وباجة، كما وجه موسى ابنه الثاني عبد الأعلى (وقيل عبد العزيز) إلى تدمير فأعاد فتحها، ثم توجه إلى البيره ففتحها أيضاً، ثم توجه إلى مالقه[4]، ثم اتجه موسى بن نصير في ذي القعدة سنة (٩٤هـ يونية - ٧١٢م) نحو طليطلة فاستقبله طارق بن زياد في موضع من كورة طلبيرة ثم توجها نحو طليطلة.

---

(1) عبد الرحمن علي الحجي - التاريخ الأندلسي في الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - ص٧٢ - ٧٣.

(2) أحمد بن عبد الوهاب الغساني - رحلة الوزير في افتكاك الأسير - ص١١١، ابن الآبار - الحلة السيراء - ج١ - ص٨٨.

(3) المقري - نفح الطيب - ج١ - ص٢٧٠.

(4) ابن الخطيب لسان الدين بن الخطيب - الاحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - طبع مصر ١٩٧٣- ج١ - ص١٠١.

وبعض المصادر[1] تذكر أن رذريق لم يكن في معركة وادي برباط إنما هرب، فجمع بعض القوات واتخذ مكاناً مجهولاً، وعند تحرك موسى بن نصير إلى طليطلة انقض رذريق عند السواقي وحدثت معركة قتل فيها رذريق بيد مروان بن موسى بن نصير، وهزمت قواته فالمصادر الشرقية وغيرها تذكر أن رذريق غرق في النهر و لم تذكر أنه مات.

يقول ابن الأثير[2]: فتكامل المسلمون اثني عشر ألفاً، ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار، فأتاهم رذريق في جنده، فالتقوا على نهر الكلة من أعمال شذونه لليلتين بقيتا من رمضان سنة (٩٢هـ يونيه ٧١١م)، واستمرت الحرب ثمانية أيام، وكان على ميمنته وميسرته ولدا الملك اللذان كانا قبله، وغيرهما من أبناء الملوك، واتفقوا على الهزيمة بغضاً لرذريق، وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم، وبقي الملك لنا، فانهزموا وهزم الله رذريق ومن معه وغرق في النهر.

إذاً حدثت المعركة وقادة قوات رذريق مصممون على مؤامرة لقتله، والهزيمة. وربما علم رذريق بهذه المؤامرة، وعندما هزم قادته كما ورد ألقى نفسه في النهر عن قصد لكي يوهم الآخرين بأنه مات، ثم خرج من الماء وجمع قواته متخفياً فتحين فرصة ينقض بها على العرب المسلمين فكانت معركة السواقي الواردة الذكر وهذا ممكن، والمهم أن هذه المصادر تذكر أن رذريق مات[3] في هذه المعركة وأن أصحابه حملوا جثته وتم دفنه في فيزو.

وصل موسى وطارق إلى طليطة في أواخر سنة (٩٤هـ - ٧١٣م) والوقت شتاء، فأقام الشتاء في طليطلة فأعلم الخليفة الأموي الوليد بالفتح، وفي هذه المرحلة ضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس.

ثم تحرك موسى بن نصير بقواته نحو الشمال الشرقي للأندلس (الثغر الأعلى) فافتتح مدينة

---

(1) المصادر التي تذكر هذه الحادثة أكثرها إسبانية ولا وجود لها في المصادر الشرقية، وإذا كان صحيحاً فهذا يعني أن رذريق لم يمت، والحقيقة ان رذريق في المعركة التي تذكر أنه قتل فيها لم يتبين بشكل واضح كيفية موته، وأكثر المصادر الشرقية تذكر أن رذريق غرق.

(2) عبد العزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - طبع بيروت ١٩٦٢ - ص٩٨.

(3) محمد السيد الوكيل - الأمويون بين الشرق والغرب - دراسة وصفية وتحليلية للدولة الأموية - طبع دمشق ١٩٩٥ - ج٢ - ص٧٥.

سرقسطة (المدينة البيضاء) فبنى بها مسجداً وأكمل فتح ما حولها مثل شقه[1]، ولارده، وطركوته، وبرشلونة[2]، كما فتح بلنسية[3]، وساقونته، وشاطبه[4]، كما فتح طرطوشه[5].

كذلك فتح موسى بن نصير مناطق عبر جبال ألبرت فتم فتح أماكن جنوب فرنسة مثل قرقشونه واريونه[6]، وأبنيون، ولودون، وغيرها كما تم فتح شمال الأندلس، وفتحت جليقية[7] وغيرها مثل أماية، وأشترقه، وليون، وفتحت قشتاله[8].

في هذه المرحلة وصل رسول الخليفة الوليد إلى موسى بن نصير يستدعيه إلى دمشق والخروج من الأندلس ويأمره بالقفول[9]، في هذه المرحلة اتسع نطاق الفتح في الأندلس، وعندما تأخر وصول موسى إلى دمشق أرسل الخليفة رسولاً آخر يستعجله. فكان قفول موسى وطارق من الأندلس، وقد استخلف ابنه عبد العزيز وعاد إلى دمشق.

الحقيقة إن تاريخ الأندلس ينتابه بعض الغموض، وبعض التفصيلات منذ بدايته من ذلك عبور طارق الشمال الأفريقي إلى الأندلس من أي نقطة عبر، وفي أي نقطة نزل، واختلف حول السفن التي نقلته هل أحرقها أم لا، واختلف حول تحركات طارق، وحول المائدة المنسوبة إلى سليمان بن داؤود، كما اختلف حول موسى بن نصير، لحسده لطارق، واختلف في كيفية الفتوحات التي تمت بعد عبور موسى الأندلس، واختلف حول المكان الذي وصل إليه موسى. المهم في كل ما ورد أن

---

[1] الحميري أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري - الروض المعطار في خبر الأقطار - تحقيق: إحسان عباس - طبع مصر ١٩٨٠م - ص١٩٥.

[2] المقري - نفح الطيب - ج١ - ص٢٧٣.

[3] بلنسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير، وشرقي قرطبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٩٠.

[4] شاطبة: مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٠٩.

[5] طرطوشة: مدينة بالأندلس متصلة بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية، وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٠.

[6] أريونة: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٤٠.

[7] جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٥٧.

[8] قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس قصبة اليوم طليطلة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٥٢.

[9] المقري نفح الطيب - ج١ - ص٢٧٥.

الفتوحات تمت وهذه حقيقة لا خلاف عليها لكن هناك نقطة يجب التركيز عليها لأنها أساسية وهي لماذا ألح الخليفة الأموي بإيقاف الفتوحات في الأندلس.

وهل هو الذي أرسل رسولاً إلى موسى بن نصير لتنفيذ ذلك أم أن موسى أرسل له يعلمه ويخبره بالفتوحات فأمر بإيقافها، المهم أن الخليفة الأموي أمر بإيقاف الفتوحات حسب الروايات التاريخية. لكن لماذا أوقفها وهي ناجحة لم يعترض سبيلها أي حاجز لا بشري ولا جغرافي ولا مادي إلا إذا ادعي أن جبال ألبرت صعبة المسالك وهذا يمكن تجاوزه بالخبرة العسكرية، والعرب المسلمون هناك كانوا يعرفون كيفية اختراق هذه الجبال عبر ممرات معروفة لديهم هي (ممر جاقه من جهة برشلونة - ممر بوكيردا يمر بمنطقة شرطانية - ممر أشيره الذي تقع مدينة جاقه أمامه - ممر شيزور أو الشزري - ممر بيونه وهي مدينة قرشية).

نعود إلى الخليفة الوليد في دمشق، نلاحظ أن الخلافة الأموية في هذه المرحلة كانت تمر بمرحلة عصيبة، فالحروب الداخلية لم تنته، والفتوحات والثورات الداخلية مستمرة في الشرق، وقد يكون ما أمر به الخليفة من إيقاف الفتوحات هو الخوف على العرب المسلمين من أي أخطار قد تحدق بهم، وقد يكون قدر موقفه ورأى أنه لا يمكن تقديم الدعم المباشر لاستمرار مثل هذه الفتوحات، لأن الدولة الأموية في هذه المرحلة لم تكن من المنعة والقوة التي كانت عليها قبل ذلك، لذلك يمكن أن نقول إن الوضع الداخلي للدولة هو الذي جعل الخليفة الأموي الوليد يأمر بإيقاف الفتوحات، إضافةً إلى ما ورد ما كان المقاتل العربي يحمله من عصبيات قبلية، وخاصةً في الشمال الأفريقي، والمشرق العربي، يضاف إلى ما ورد الخلافات التي نشبت بين أفراد الأسرة الأموية وغير ذلك، كل ذلك ساعد على إيقاف الفتوحات، وقد يكون القادة الأمويون في دمشق خافوا من استقلال المغرب والأندلس عن المشرق العربي ومصر. مما دفعهم إلى إيقاف هذه الفتوحات.

تابع الوليد بن عبد الملك سياسة أبيه سواءُ الداخلية أم الخارجية، ففي عهده تم الاتصال بينه وبين ملك الروم، في الوقت الذي كان فيه الوليد قد قرر بناء جامع دمشق الكبير، وقرر هدم كنيسة دمشق، فلما علم ملك الروم بذلك كتب إليه يقول: «إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان حقاً، فقد خالفت أباك، وان كان باطلاً فقد أخطأ أبوك»[1].

---

[1] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٢ - ص٧٢.

فلم يدر ما يجيبه به، فكتب إلى الكوفة والبصرة وسائر البلدان أن يجيبوه فلم يجبه أحد، فوثب الفرزدق، فقال: أنا أبو فراس ـ أصلح الله الأمير ـ قد رأيت رأياً فإن يك حقاً فخذه، وإن يك خطأً فمني، قال الله عز وجل: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[1]، فاستحسنه الوليد، وكتب به إلى ملك الروم فلم يجبه[2].

فرض الوليد بن عبد الملك اللغة العربية على الإدارة كما هو معلوم في كل أعمال الدولة، ففرض نظاماً دقيقاً لجوازات السفر وخاصةً في مصر، وفرض نظاماً للرقابة والتفتيش على جميع السفن المتواجدة على شواطئ مصر، وفرض رقابة شديدة أيضاً على تواجد البيزنطيين على هذا الشاطئ. كذلك كان التوسع في نظام البريد، حيث فرض رقابة على التجارة، وتم توجيه التجارة الخارجية وطرقها بما يخدم الدولة، فقد كانت بيزنطة في حربها الاقتصادية مع الأمويين قد تعرضت لفقدان أهميتها للعوامل التالية:

ـ وجود قوة بحرية عربية قوية استطاعت السيطرة على ساحل الشمال الأفريقي، كما سيطرت على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بالإضافة لسيطرتها على بعض الجزر المتواجدة ضمن البحر، والتي كانت مجال صراع دائم مع بيزنطة.

ـ استطاع العرب السيطرة على الطرق التجارية البرية منها والبحرية، وكانت الطرق التجارية تربط البحر المتوسط بالمحيط الهندي، إما عن طريق مصر والبحر الأحمر، وإما عن طريق الشام ودجلة والفرات والخليج العربي.

في هذا الوقت وقفت بيزنطة تعمل على تطوير حركتها التجارية رغم الحرب الاقتصادية بينها وبين الدولة الأموية، فبيزنطة تحتاج إلى مواد أساسية، مثل: ورق البردي من مصر، والمنسوجات من بلاد الشام، والتوابل من الشرق.

ففي هذه الحرب الاقتصادية استمر منع تصدير ورق البردي، والمنسوجات إلى بيزنطة فأثر ذلك على وضع بيزنطة الاقتصادي، حيث لجأت إلى الحصول على هذه السلع بطرق غير مشروعة

---

(1) سورة الأنبياء ـ الآية ٧٨.

(2) ابن بدران ـ تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ـ ج١ ـ ص٢٠٣.

تحفها المخـاطر، وأثـرت الحـرب الاقتصادية علـى النقـد في بيزنطـة، لأن بيزنطـة خسـرت أمـاكن تواجـد الذهـب والفضـة سـواءً في أفريقيـة أم في الشـرق، إلا أن ذلـك لم يكـن دائمـاً، حيث كـان الاحتكـاك والاتصـال سـواءُ الحربـي أم الفكـري أم السياسـي سـبباً كبـيراً في تغيـير المواقـف مـن فـترة لأخـرى إلا أن تدهـور الدولـة الأمويـة في مراحلهـا المتـأخرة جعلـت الأمـور تسير لصـالح بيزنطـة في هـذه الميـادين.

الفصل الرابع

سليمان بن عبد الملك

الفصل الرابع

سليمان بن عبد الملك

بويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك وهو بالرملة[1] يوم توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ ـ ديسمبر ٦٨٨م)، ويذكر ياقوت الحموي[2] أن سليمان ابن عبد الملك هو الذي اختطها، وصار موضع بلد الرملة[3] بعد الصباغين آباراً عذبة، ولم تكن بالرملة قبل سليمان بن عبد الملك، وهو الذي أذن للناس أن يبنوا فبنوا مدينة الرملة واحتفر لهم القناة التي تدعى بردة، وحفر آباراً عذبة.

كان سليمان بن عبد الملك يقول: أنا الملك الفتي، وقيل كان يقول: أنا والله الملك الشاب[4]، وكان نقش خاتمه آمنت بالله مخلصاً، وصف كما يذكر البلاذري[5]: بأنه كان نهماً همه بطنه وفرجه، وقال ابن كثير[6]: بأنه كان رجلاً طويلاً جميلاً أبيض نحيفاً، حسن الوجه مقرون الحاجبين، فصيحاً بليغاً يحسن العربية.

---

[1] صادق أحمد داؤد جودة ـ مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ طبع بيروت ـ ١٩٨٦م ص٢٧.

[2] ياقوت الحموي ـ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ـ معجم البلدان ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٧٧ ـ ج٣ ـ ص .

[3] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين كانت قصبتها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٦٩.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٥٠.

[5] البلاذري ـ جمل من كتاب أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص١٠٨.

[6] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص١٩١.

ولي سليمان بن عبد الملك فلسطين من قبل أخيه الوليد[1] فأحدث مدينة الرملة، وبنى مسجدها، وكان ولي العهد، ويكنى أبا أيوب، وكان فصيحاً نشأ في أخواله بني عبس، ووصف بأنه كان أبيض جعداً، جميل المذهب، حسن السيرة أخرج المحبوسين، ورد المسيرين، وأنصف في المظالم، وقال البلاذري[2]: إن سليمان بن عبد الملك سأل يزيد بن أبي أسلم ما تقول في الحجاج؟ فقال: يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه حيث شئت.

ووصف بأنه كان نهماً بخيلاً على الطعام، وكان يأتي كل يوم من صلاة الغداة بعشر رقاقات وخروفين عظيمين، ودجاجتين سميتين، وقال البلاذري[3]: إن سليمان بن عبد الملك دخل الحمام، ثم خرج وقد شوي له أربعة وثمانون خروفاً أو جدياً، ثم أتى بمكوك زبيب فأكله، وقيل أُهدي إلى سليمان بن عبد الملك زنبيل مملوء بيضاً مطبوخاً، وآخر مملوء تيناً، فجعل يقشر بيضة ويأكل بيضة بتينة حتى أتى على ما أهدي إليه، ثم أتوه بقصعة مملوءة قمحاً مخلوطاً بسكر فأكل ذلك كله وأتخم منه فمات[4].

وكان يأكل بخمس أصابع، ويجعل له منديلاً على صدره، ومنديلاً على فخذيه، وكان لا يرفع رأسه عن الأكل حتى يشرب عساً ضخماً فيه عسل، ومن الروايات التي يذكرها البلاذري[5]: حول ذلك يقول: «جلس أبو السربال يأكل، وجاؤوا بفاذلوجة[6]، فجعل سليمان يأكل بأصابعه كلها، فقال: يا أبا السربال دونك فإن هذا يزيد في الدماغ، فقال: أصلح الله الأمير لو كان هذا كما قلت لكان رأسك مثل رأس البغل»[7]، وقيل افتتح سليمان بن عبد الملك الخلافة بخير

---

(1) الذهبي - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - تحقيق - بشار عواد معروف وآخرين - طبع بيروت ١٩٨٨ - ج - ص .

(2) البلاذري - جمل من كتاب أنساب الأشراف - ج٨ - ص١٠٦.

(3) المرجع نفسه - ج٨ - ص١٠٩.

(4) كان سليمان بن عبد الملك نهماً يحب بطنه كثيراً إلا أن مثل هذه الروايات لا يتقبلها العقل لأن المعدة عند الاتساع لن يبقى بها مجال لمثل هذه الأساطير.

(5) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٨ - ص١٠٥.

(6) محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي - كتاب الطبخ - تحقيق فخري البارودي - طبع دار الكتب الجديد - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ - ص٤٨.

(7) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٨ - ص١٠٥.

وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

بعد أن تولى سليمان بن عبد الملك السلطة عزل عثمان بن حيان عن المدينة في رمضان من سنة (٩٦هـ ـ فبراير ٦٨٩م)، واستعمل عوضه أبا بكر بن محمد بن حزم[1]، وكان عثمان قبل عزله قد عزم على أن يجلد ابن حزم ويحلق لحيته، والسبب في ذلك أن أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كان قد استأذن عثمان بن حيان أن ينام في غد، ولا يجلس للناس ليقوم يوم واحد وعشرين من رمضان، فأذن له. في هذا الوقت قال أيوب بن مسلمة لعثمان بن حيان، وكان على عداء مع أبي بكر بن حزم: ألم تر إلى ما يقول هذا إنما هذا منه رئاء، فأكد عثمان ذلك، وقال: لست لأبي إن أرسلت إليه و لم أجده جالساً لأجلدنه مائة جلدة، ولأحلقن رأسه ولحيته، وفي الصباح جاءه أيوب، فوجد شمعة في الدار، فإذا برسول سليمان بن عبد الملك قد قدم على أبي بكر بتأميره، وعزل عثمان وحده وتقييده.

كما عزل يزيد بن أبي مسلم عن العراق، وولى عوضه يزيد بن المهلب[2]، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج، فأمره بقتل بني عقيل (أهل الحجاج)[3]، وبسط العذاب عليهم فكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب، وفي عهده قتل قتيبة بن مسلم كما سيرد، وعزل والي مكة خالد بن عبد الله القسري، وولى عوضه طلحة بن داؤود الحضرمي[4].

وفي عهده أيضاً قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأندلس، وهو أميرها وكان أبوه قد استعمله على الأندلس عندما خرج منها[5]، وعبد العزيز هذا كما يروي ابن الأثير[6] في كتابه الكامل كان قد تزوج امرأة ملك الأندلس رذريق فغلبت عليه، وحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه، فأمر بفتح باب قصير لمجلسه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١١.

(2) المطهر بن طاهر المقدسي ـ كتاب البدء والتاريخ ـ تحقيق كلمات هوار ـ طبع باريس سنة ١٨٩٩ ـ ج٦ ـ ص٤٢.

(3) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ٥٦٤.

(4) المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٥٢٢.

(5) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ تحقيق ـ شعيب الارناؤوط وآخرين ـ طبع بيروت ١٩٨٥ ـ ج ـ ص .

(6) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٢.

قيصير كالراكع. وعملت له تاجاً من الذهب شبيهاً بتيجان الملوك، فعلم أصحابه بذلك فقتلوه وهو قائم يصلي، وقيل إن سليمان بن عبد الملك كان قد أرسل إلى الجند بقتله[1] عندما سخط على والده موسى بن نصير، وولى الأندلس بعده الحر بن عبد الرحمن الثقفي[2]، كما عزل عبد الله بن موسى ابن نصير عن أفريقية، واستعمل عليها محمد بن يزيد القرشي[3].

وفي عهده تمت محاصرة القسطنطينية[4]، حيث سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق، وأقسم ألاّ يبرح مكانه حتى يرجع له الخبر بفتحها أو يموت قبل ذلك، فجهز إليها جيشاً مع أخيه مسلمة بن عبد الملك، في هذا الوقت مات ملك الروم فقدم أليون من أذربيجان[5]. فضمن له فتح الروم فوجهه مع أخيه مسلمة[6]، وكان مسلمة قد أمر كل فارس في الحملة بحمل مدين من طعام فجمعوا طعاماً كثيراً، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً فرفض، لكن أليون غدر وخدع ومكر حتى قيل لقد خدع مسلمة بن عبد الملك خديعةً لو كانت امرأة لعيبت بها[7] وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بشكل مفصل، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكثرت في عهده الزلازل واستمرت أشهراً هلك ودمر بسببها الكثير.

خروج قتيبة بن مسلم: عندما تسلم الوليد الخلافة أراد أن يبايع لابنه عبد العزيز[8]، وأن يخلع أخاه سليمان، فأبى سليمان، فأراده على أن يجعلها له من بعد ابنه فأبى، فعرض عليه أموالاً فأبى، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز، ودسّ العيون بين القواد والشعراء، فكان من وافقه من الشعراء جرير، فقال في خلع سليمان، ومبايعة ابنه عبد العزيز[9]:

---

(1) الضبي - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي - بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس - طبع مدينة مجراط - ١٨١١ - ج - ص .

(2) المرجع نفسه - ص .

(3) المرجع نفسه - ص .

(4) المقدسي - المطهر بن طاهر المقدسي - كتاب البدء والتاريخ - ج٦ - ص٤٣-٤٤.

(5) أذربيجان - حدها من برذعة شرقاً إلى ارزنجان غرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجيل والطرم وهو إقليم واسع من أشهر مدنها تبريز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص١٢٨.

(6) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٧.

(7) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٣١.

(8) الحنبلي - ابن العماد أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - تحقيق - أحمد رافع الطهطاوي - طبع بيروت - بلا تاريخ - ج - ص .

(9) ديوان جرير - شرح محمد حبيب - تحقيق نعمان محمد أمين - طبع مصر ١٩٨٦ - ص .

«إذا قيلَ أيّ الناس خيرُ خليفةٍ؟ أشارتْ إلى عبدِ العزيزِ الأصابعُ
رَأَوْهُ أحقَّ الناس كلِّهم بها وما ظَلموا. فبايَعوه وسَارعُوا

وقال جرير يحضّ الوَليد على بيعة عبد العزيز:

إلى عبد العزيزِ سَمت عيونُ الـ رّعيّةِ إذ تَحيَّرَت الرِّعاءُ
إليه دَعتْ دَواعِيه إذا ما عِمادُ الملكِ خَرَّت والسَّماءُ
وقال أُولو الحكومةِ من قُرَيش علينا البيعُ إن بلغ الغلاءُ
رَأَوا عبدَ العزيز وليّ عَهْدٍ وما ظلموا بذاكَ ولا أسَاؤُوا
فماذا تنظرون بها وفيكمْ جُسُورٌ بالعظائم واعتلاءُ!
فَزَحلِفها بأَزْمَلِهَا إليه أميرَ المؤمنين إذا تَشاءُ
فإنَّ الناسَ قد مَدُّوا إليه أَكُفَّهُمُ وقد بَرِحَ الخفاءُ
ولو قد بَايعوك وليّ عهدٍ لقام الوزنُ واعتدَلَ البناءُ»[1].

أما من القواد فلم يستجب للوليد غير الحجاج بن يوسف عامله على العراقين، وقتيبة[2] بن مسلم عامله على خراسان وخواص الناس، وقال عباد بن زياد للوليد: إن الناس لا يوافقونك على عزل سليمان، ولو فعلوا لغدروا بابنك، لكن اكتب إلى سليمان فليقدم إليك، فإن لك عليه حق الطاعة، فألزمه البيعة لابنك من بعده، فإنه لا يقدر على الامتناع وهو عندك، فإن رفض كان كل الناس عليه.

أرسل الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم إليه، فأبطأ فعزم الوليد على المسير إليه على أن يخلعه وأمر الناس بالتأهب، إلا أن المرض عاجله فمات[3] قبل أن يسير إليه، فلما مات الوليد خاف قتيبة من سليمان، وزاده خوفاً أن يولي يزيد بن المهلب عوضاً عنه على خراسان.

كتب قتيبة إلى سليمان بن عبد الملك يهنته بالخلافة[4]، ويعزيه بأخيه الوليد، ويعلمه بلاءه

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٢.
(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٠٧.
(3) أنور الرفاعي ـ تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني ـ طبع دار الفكر ـ بلا تاريخ ـ ص .
(4) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٠٧.

وطاعته لأبيه وأخيه من بعده، وأنه له مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والتضحية إن لم يعزله، وكتب كتاباً آخر يوضح فيه فتوحه ونكايته، وأيضاً قدره عند ملوك العجم، وهيبته في صدورهم، وذمّ في كتابه هذا المهلب وآل المهلب، وأقسم با لله لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنه، ثم كتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه.

أرسل قتيبة الكتب الثلاثة مع رسول له من باهلة[1] وقال لرسوله: ادفع هذا الكتاب إلى سليمان بن عبد الملك، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن فعل به مثل الأول، فادفع إليه هذا، وإن قرأ الأول و لم يدفعه ليزيد فاحتبس الكتابين الآخرين. عندما قدم رسول قتيبة إلى دمشق قدم على سليمان بن عبد الملك، وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه أوّل كتاب، فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه كتاباً آخر ففعل به مثل الأول، فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتغير لونه وظهر الغضب على وجهه، ثم دعا بطين فختمه وحجبه عن يزيد.

في هذا الوقت كان سليمان بن عبد الملك قد أمر برسول قتيبة أن ينزل دار الضيافة، وفي المساء استدعاه فأعطاه صرةً فيها دنانير كجائزةٍ له، وقال له: هذا عهد صاحبك على خراسان فسر إليه، وهذا رسولي معك بعهده، فلما كان الرسول بحلوان[2] علم أن قتيبة قد خلع فرجع رسول سليمان بن عبد الملك، بعد أن دفع العهد إلى رسول قتيبة، فلما وصل الرسول إلى قتيبة دفع إليه عهده، فاستشار إخوته، فكان قرارهم النهائي أن سليمان بن عبد الملك لن يثق به بعد ذلك.

كان قتيبة عندما همّ بالخلع قد اجتمع بإخوته واستشارهم[3] في ذلك، فقال له أخوه عبد الرحمن: اقطع بعثاً فوجه فيه كل من تخافه، ووجه قوماً إلى مرو، وسر أنت حتى تنزل سمرقند ثم قل لمن معك: من أحب المقام فله المواساة، ومن أراد الانصراف فله الحرية والإرادة في ذلك، في هذه الحالة لا يقوم معك إلا مناصح، وقال أخوه عبد ا لله: اخلعه من مكانك وادع الناس إلى خلعه، فلن يختلف عليك أحد، فأخذ قتيبة برأي أخيه عبد ا لله وخلعه من وقته، ودعا الناس إلى خلعه، فلم يجبه أحد فغضب وخطب فقال:

---

[1] قيل أن الرسول كان من أهله إلا أنه من باهلة، كما أرى أصوب.

[2] حلوان: بليدة بقوهستان نيسابور، وهي آخر حدود خراسان مما يلي أصفهان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٢٩٤.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥١٥.

«إني قد جمعتكم من عين التمر وفيْض البحر فضممت الأخ إلى أخيه، والولدَ إلى أبيه، وقسمتُ بينكم فيئكم، وأجريْت عليكم أعطياتكم غير مكدرّة ولا مؤخرة، وقد جرّبتم الوُلاَة قبَلي؛ أتاكم أمية[1] فكتب إلى أمير المؤمنين: إنّ خَراجَ خُراسانَ لا يقوم بمطبخي، ثـمّ جاءكم أبو سعيد[2] فدوّم بكم ثلاثَ سنينَ لا تَدْرون أفي طاعة أنتم أم معصية! لم يَجْبِ فَيْئا، ولم يَنْكأ عدوًّا، ثمّ جاءكم بنوهُ بعدَه؛ يزيد[3]، فحل تبارَى إليه النساء، وإنما خليفتُكم يزيدُ بن ثروان هَبَنّقَةُ القيسْي[4]».

قال: فلم يُجبه أحد، فغَضِب فقال: لا أعزّ الله من نصرتم، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها.

يا أهل السافِلة ـ ولا أقول أهلَ العالية ـ يا أوباشَ الصَّدَقَة، جمعتُكم كما تُجمعُ إبلُ الصدقة من كلّ أوْب.

يا مَعشرَ بكر بن وائل، يا أهل النفخ والكذب والبُخل، بأيّ يوميْكم تَفخَرون؟ بيَوم حَرْبكم، أو بيوم سلمِكم! فوالله لأنا أعزّ منكم.

يا أصحاب مُسيلمة، يا بني ذَميم ـ ولا أقول تَميم ـ يا أهل الخَوَرَ والقَصْف والغَدْر، كنتم تسمّون الغَدْر في الجاهلية كَيْسان.

يا أصحابَ سَجَاح، يا معشر عبد القيس القُساة، تبدلّتم بإبر النَّحل، أعنّةَ الخيل. يا معشر الأزْد، تبدّلتم بقُلُوسِ السفن أعنة الخيل الحصنُ؛ إن هذا لَبدعة في الإسلام! والأعراب، وما الأعراب! لعنةُ الله على الأعراب!.

يا كناسةَ المصريْن، جمعتُكم من منابت الشيح والقَيْصوم ومنَابت القِلْقِل، تركبون البَقَر والحُمرُ في جزيرة ابنِ كاوانَ، حتى إذا جمعتُكم كما تُجمع قزَع الخريف قُلتُم كَيتَ وكَيْت! أما والله إني لابن أبيه! وأخو أخيه، أما والله لأعصبنّكم عَصْبَ السَّلَمَة. إنّ حَوْل الصِّلِّيان الزمْزَمة.

---

[1] أمية بن عبد الله بن اسيد عامل خراسان لعبد الملك بن مروان.

[2] كنية المهلب بن أبي صفرة ـ أبي سعيد.

[3] يزيد بن المهلب.

[4] يزيد بن ثروان بن هبنقه ذو الودعات القيسي ـ المضروب به المثل في الحمق.

يا أهل خُراسانَ، هل تدرون مَن ولِيُكم؟ وليَكم يزيدُ بن ثَرْوان. كأني بأمير مزجـاء، وحَكَـم قد جاءكم فَغلبكم علـى فيئكـم وأظلالِكـم. إن هـا هنـا نـاراً ارمُوْهـا أرْم معكـم، ارمُـوا غرضكـم الأقصى. قد استُخلف عليكم أبو نافع ذو الوَدَعات. إنّ الشام أبٌ مَبْرور، وإن العراقَ أبٌ مكفـور. حتى متى يتبطح أهلُ الشام بأفنِيتَكم وظِلالِ دياركم! يا أهل خُراسانَ، أنسبُوني تَجدوني عراقيّ الأم، عراقيّ الأب، عراقيّ المولِد، عراقيّ الهوَى والرأيِ والدين، وقد أصبحتم اليومَ فيما تَـروْن مـن الأمْـن والعافية قد فَتح ا لله لكم البلاد، وآمن سُبُلَكم، فالظّعينة تَخرجُ من مَرْوَ إلى بَلْخَ بغير جَواز، فاحمدوا ا للهَ على النعمة، وسَلوه الشكرَ والمزيدَ.

قال: ثمّ نزل فدخل منزلَه، فأتاه أهلُ بيته فقالوا: ما رأَيْنا كاليوم قطّ، وا للهِ ما اقتصرتَ علـى أهل العالية وهم شِعارُك ودِثارُك، حتى تناولتَ بَكراً وهم أنصارك، ثمّ لم ترض بذلك حتى تنـاولتَ تَميماً وهم إخوتُك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولْتَ الأزْد وهم يَدُك؟. فقال: لما تكلمـتُ فلـم يجبْـني أحدٌ غضبت، فلم أدرِ ما قلتُ؛ إنّ أهل العالية كإبل الصَّدَقة قد جُمِعتْ مـن كـل أوْب، وأمّـا بَكْـر فإنها أمَة لا تمنعَ يَد لامِس، وأما تميم فَجمَل أجْرَب، وأما عبد القيس فما يضرب العـير بذَنَبه، وأما الأزْد فأعلاجٌ، شرارُ مَنْ خَلَق ا لله، لو ملكتُ أمرَهم لوسمتهم»[1].

عندما سمع الناس كلام قتيبة غضبوا وكرهوا خلع سـليمان بـن عبـد الملـك وغضبـت القبـائل لشتمه إياها، فأجمعوا على خلافه وخلعه، وكان من القبائل التي خالفته الأزد، وقد استشاروا حصين ابن المنذر في أمرهم وحاولوا إسناد القيادة له فرفض، ثـم أشـار عليهـم أن يجعلـوا الرئاسـة في تميـم، وحدد لهم قائداً من تميم اسمه وكيع ليتبعوه. في هذه المرحلة علم قتيبة أن حيان مولى بني شيبان يفسد أمر الناس عليه، فأمر أحد أتباعه بقتله، فعلم حيان بذلك فأخذ يتحاشـى قتيبـة، وكـانت القبـائل في خراسان منقسمة على النحو التالي[2]:

- أهل الكوفة - سبعة آلاف - عليهم جهم بن زحر، وقيل عبيد ا لله بن علي.
- أهل البصرة من أهل العالية - تسعة آلاف.
- بكر - سبعة آلاف - رئيسهم الحصين بن المنذر.

---

(1) الجاحظ - أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبين - تحقيق عبد السلام هارون - طبع القاهرة - ١٩٨٥ - ج٢ - ص١٣٢، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٩٦هـ - ج٦ - ص٥٠٩-٥١١ ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٣-١٤.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٥، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥١٢.

- تميم - عشرة آلاف - وعليهم عبد الله بن علوان.

- الأزد - عشرة آلاف - وعليهم عبد الله بن حوذان.

- الموالي - سبعة آلاف - وعليهم حيان[1] (مولى بني شيبان).

أرسل حيان قائد الموالي في خراسان إلى وكيع فبايعه سراً على أن يجعل له جانب نهر بلخ وخراجه ما داما حيين، في هذا الوقت أعلم ضرار بن الحصين قتيبة بن مسلم أن الناس يبايعون وكيعاً، بعد ذلك قدم وكيع إلى قتيبة يحذره من ضرار، عند ذلك أرسل قتيبة ضراراً إلى وكيع فبايعه سراً، فعلم أمر وكيع ومبايعة الناس له، فأرسل إلى وكيع يدعوه فوجده يدَّعي المرض، وحاول قتيبة أكثر من مرّة استدعاء وكيع وهو يتمارض. عند ذلك أمر قتيبة قائد شرطته[2] شريك بن الصامت الباهلي، أن يأتيه بوكيع وإذا رفض أمره أن يضرب عنقه.

خلال هذه المرحلة خرج وكيع على قتيبة[3]، وسلم رايته إلى عقبة بن شهاب، واجتمع إلى قتيبة أهل بيته وخواص من أصحابه وثقاته، ثم أخذ عمامة فاعتم وجرت بعض المناوشات فقتل صالح بن مسلم، وعبد الرحمن بن مسلم، واقترب الناس من قتيبة وحاصروا فسطاطه، فقتل وقتل أكثر أهل بيته[4] دون مقاومة تذكر. أخيراً إن خروج قتيبة بن مسلم كان موقفاً ارتجالياً وغير مدروس ولم يخطط له ولم يبرمج ولم يتعقل لذلك كانت النتيجة مأساوية، وأصبح وكيع بن أبي أسود على حرب خراسان.

يزيد بن المهلب: ذكرنا أن سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب حرب العراق، وكان صالح بن عبد الرحمن على الخراج كما ذكرنا، فلما قدم يزيد بن المهلب إلى العراق ونزل داره أخذ صالح كما يذكر الطبري[5] يضيق على يزيد بن المهلب، وكان يزيد قد اتخذ ألف خوان يطعم عليها واستمر صالح بمضايقته، فضجر يزيد من وضعه ومن المضايقة، فاستدعى عبد الله بن الأهتم فتحدث

---

[1] اختلف في أصله فقيل من الديلم، وقيل من خراسان، وقيل قبطي.

[2] قيل أن قائد شرطة قتيبة آنذاك كان ورقاء بن نصر الباهلي.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥١٤.

[4] ابن الجوزي - جمال الدين أبي الفلاح عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق - طبع بيروت ١٩ - ج - ص .

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٢٤.

فتحدث معه عمّا هو فيه من ضيق وذكر له أن خراسان شاغرة من والٍ، وسأله هل من حيلة، فقال له عبد الله بن الأهتم: أسير إلى أمير المؤمنين فلعلي أرجو أن آتيك منه بعهدك عليها.

بعد ذلك طلب يزيد من الأهتم أن يكتم الذي دار بينهما، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك كتابين، الأول يذكر له فيه أمر العراق، والثاني يثني فيه على ابن الأهتم، وذكر له فيه علمه بخراسان. وجه ابن المهلب ابن الأهتم وحمله على البريد، وأعطاه ثلاثين ألفاً، فلما وصل دمشق دخل على سليمان بن عبد الملك فسأله عن العراق وخراسان، واحتال ثم أشار عليه بيزيد[1] بن المهلب وكان ابن الأهتم قد أوقع بوكيع، وعابه عند الخليفة سليمان بن عبد الملك، فكتب سليمان عهد يزيد على خراسان[2].

توجه يزيد بن المهلب إلى خراسان بعد أن قدم ابنه مخلد أمامه، وكان قد استخلف على واسط[3] الجراح بن عبد الله الحكمي[4]، وعلى البصرة عبد الله بن هلال الكلاني، واستعمل مروان ابن المهلب على أمواله وأموره بالبصرة، وكان مروان أوثق إخوته عنده.

لما وصل مخلد بن يزيد أرسل إلى وكيع يطلب منه القدوم عليه فرفض، وخرجت وجوه من أهله يتلقونه، وتثاقل وكيع عن الخروج، فلما قدم مرو حبس وكيعاً وعذبه، وأخذ أصحابه فعذبهم أيضاً قبل أن يصل أبوه يزيد، ثم قدم يزيد والياً على خراسان سنة (٩٧هـ - ٦٨٩م).

ثم إن سليمان بن عبد الملك أراد أن يبايع ابنه أيوب، وجعله ولي عهده، وأمسك عن يزيد ابن عبد الملك، وتربص به. خلال هذه المرحلة هلك أيوب بن سليمان بن عبد الملك، ثم توفي سليمان بن عبد الملك بدابق[5] من أرض قنسرين[6] يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة (٩٩هـ -

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٢٨.

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٣.

(٣) واسط: سميت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة بناها الحجاج بن يوسف عندما كان والياً على العراق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٤٧.

(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٥.

(٥) دابق: قرية قرب حلب من أعمال أعزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ وعندها مروج معشبة نزهة كان ينزلها بنو مروان إذ غزوا الصائفة إلى ثغر مصيصة وبه قبر سليمان بن عبد الملك - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤١٦.

(٦) قنسرين: كانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، والبعض يدخل قنسرين في العواصم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٠٤.

سبتمبر ٧١٧م)، وقيل توفي في (١٠/صفر/٩٩هـ ـ سبتمبر ٧١٧م)، وكان قد استخلف قبل موته عمر بن عبد العزيز وعهد له، وكتب بذلك كتاباً، وكان قد جمع أهل بيته وأعلمهم أنه قد استخلفه، وعهده موجود بكتاب يحمله رجاء بن حيوة. علماً أن عمر بن عبد العزيز كان لا يعلم أنه هو الذي وليَّ العهد، و لم يعلن عن اسمه لكن بعد موت سليمان بن عبد الملك ودفنه، اجتمع بنو أمية في مسجد مرج دابق، فأمر الحضور فبايعوا من سمي بالكتاب، فبايعوا وفضوا الكتاب فإذا فيه خلافة عمر بن عبد العزيز.

الأعمال الحربية:

أولاً ـ الجبهة الشرقية:

فتح داهستان[1]: ذكرنا أن يزيد بن المهلب عندما قدم خراسان سنة (٩٨هـ ـ ٧١٦م) أقام ثلاثة أشهر، ثم أقبل إلى داهستان، وأهلها طائفة من الترك فحاصرها، وكانت قواته مكونةً من أهل الكوفة، والبصرة وأهل الشام، ووجوه أهل خراسان، والري، وقوام قواته كما يذكر المؤرخون مائة ألف[2] مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين.

ابتدأ القتال بين الطرفين واستمر، ثم إن يزيد خرج يوماً يستطلع العدو، ومعه وجوه الناس وفرسانهم، وكانوا في نحو أربعمائة لعله يجد ثغرةً تمكنه من مهاجمة العدو والقضاء عليه. خلال هذه المرحلة هاجمته جماعة من الترك قدّر عددهم بأربعة آلاف فقاتلهم ساعةً، ثم انسحبوا وانصرف العدو عنهم دون أن يظفروا منهم بشيء.

بعد ذلك شدد الحصار على داهستان، وأنزل الجنود حولها من كل جانب فقطع عنهم المواد التموينية، فسبب ذلك عجزهم واشتد عليهم الحصار، فأرسل صاحب داهستان إلى يزيد يطلب منه الصلح على ما ورد[3]، ودخل يزيد المدينة فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز وسبى أشياء كثيرة، وقيل قتل أربعة عشر ألف تركي صبراً، وأعلم سليمان بن عبد الملك بذلك.

---

[1] داهستان: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٦٢.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٣٢، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٩.

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٠.

فتح جرجان[1]: بعد استقرار أمر داهستان توجه يزيد بن المهلب إلى جرجان، وكان أهلها قبل ذلك قد صالحوا أهل الكوفة على مائة ألف أحياناً، وقيل ثلاثمائة ألف، فصالح أهل جرجان على صلحهم القديم، فدخل مدينتهم، واستخلف عليها أسد بن عبد الله، ثم توجه إلى الأصبهيد في طبرستان[2]، وقد أرسل الفعلة وعمال الطرق يصلحون له المسالك والسبل، فلما وصل إليها حاصرها وشدد الحصار عليها. أثناء ذلك عرض صاحب طبرستان الصلح على يزيد بن المهلب فأبى ورغب في فتحها.

عند ذلك أخذ صاحب طبرستان يعبئ الناس، فأرسل إلى الديلم يحضهم على محاربة العرب المسلمين، كما أرسل إلى أهل جرجان يطلب منهم الوثوب على العرب الموجودين عندهم، وأن يقطعوا الطرق والتموين، فيما بينهم وبين العرب، فوثب أهل جرجان على من عندهم من العرب، فقتلوا أكثرهم، وتحصن بعضهم، وأقام يزيد محاصراً خصمه حتى صالحه صاحب طبرستان[3] على سبعمائة ألف درهم، وأربعمائة ألف نقداً، ومائتي ألف، وأربعمائة حمار موقّرة زعفراناً، وأربعمائة رجل على رأس كل منهم برنس، على البرنس طيلسان، ولجام من فضة، وشقة من حرير، والسبب الذي اضطر يزيد إلى هذا الصلح هو خروج أهل جرجان.

بعد الصلح طلب الجند العطاء والأرزاق فدعا يزيد أحد أتباعه وأمره أن يحصي ما حصلوا عليه، فلم يقدر على ذلك لكثرته، فأمر الجند فدخلوا وأخذ كل منهم ما قدر عليه، وبعد الصلح رجع يزيد إلى جرجان وقد غدروا كما ذكرنا، وكان قد أقسم: «لئن ظفر بهم ألاّ يقلع عنهم ولا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم، ويختبز من ذلك الطحين، ويأكل منه»[4].

عندما علم صاحب جرجان بما حدث جمع أصحابه وتحصن بحصن وجاه، فلما قدم يزيد أقام على الحصن محاصراً له سبعة أشهر، والحصن لا يؤتى إلا من جهة واحدة، خلال هذه المرحلة خرج

---

[1] جرجان: مدينة مشهورة وعظيمة بين طبرستان وخراسان قيل أن أول من أحدث بناتها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١١٩.

[2] طبرستان: أول طبرستان آمل ثم مامطير بينها وبين آمل ستة فراسخ ومن أعيان بلدانها داهستان، وجرجان وغيرها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٣ وما بعدها.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٣٥.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٤.

رجل من خراسان[1] كان مع يزيد يتصيد، فخرج رجل في الجبل فأخذ يلاحقه، وجعل أثناء ذلك يضع علامات في طريقه كي يهتدي بها حتى وصل الذي يطارده إلى معسكره، فعاد إلى يزيد فقابله، وأعلمه بما حدث له، وما رآه، والطريق الذي يسلكه إلى حصن وجاه.

ثم وضع خطة وانتدب ألفاً وأربعمائة، والطريق لا يحملهم، فاختار منهم ثلاثمائة[2] وجعل قيادتهم لجهم بن زحر، وقيل استعمل على الجميع ابنه خالد بن يزيد، وحدد موعداً يناهضهم فيه، ثم وجههم يزيد، فلما انتصف النهار أمر يزيد الناس أن يشعلوا النار في حطب كان قد جمعه في حصارهم، فاشتعلت النيران حول الحصن المعادي، فهالهم ما شاهدوه، فخرج العدو من داخل الحصن وتقابلوا مع العرب المسلمين.

أما جهم والثلاثمائة الذين قادهم فاستغلوا الموقف وهجموا على عسكر العدو من جهة كانوا فيها آمنين فأصبحوا محاصرين بين يزيد في مواجههم وجهم من خلفهم، فانتصروا عليهم ونزلوا على حكم يزيد، فسبى ذراريهم، وقتل الكثير منهم، وصلبهم على طول فرسخين على يمين الطريق ويساره، وقاد منهم إثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان، ثم أمر قواته بقتلهم في الوادي، وأجرى الماء في الوادي على دمائهم[3]، وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم، وغايته أن يبرئ بقسمه، فطحن واختبز وأكل، ثم استعمل يزيد بن المهلب على جرجان جهم بن زحر، وعاد إلى خراسان، ثم كتب إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك يعلمه بالأحداث وأعلمه أن الفيء والغنيمة بلغت ستة آلاف ألف[4] وقد وجهها إليه. وفي عهد سليمان بن عبد الملك فتحت مدينة الصقالبه[5]، وبعث داؤود بن سليمان ابن عبد الملك إلى أرض الروم فافتتح حصن المرأة ممايلي ملطيه[6].

ثانياً - الجبهة الشمالية: يذكر الطبري أن مسلمة بن عبد الملك كان قد غزا أرض الروم الصائفة في سنة (٩٦هـ - ٧١٤م)، ففتح حصناً يقال له حصن عوف، فلما كانت سنة (٩٧هـ

---

[1] اختلف فيمن هو فقيل رجل من عجم خراسان كان مع يزيد، وقيل غيره، وقيل كان الرجل الذي ذهب يتصيد هو والهياج بن عبد الرحمن الأزدي من أهل طوس.

[2] قيل أنه اختار منهم أربعمائة.

[3] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٤.

[4] وقيل كان الفيء والغنيمة أربعة آلاف ألف.

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٤٥.

[6] ملطية: بلده من بلاد الروم مشهورة ومذكوره بنواحي الشام وهي للمسلمين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٩٢.

ـ ٧١٥م) استعمل ابنه داؤود على الصائفة، فافتتح حصن المرأة[1]، وقيل إن مسلمة بن عبد الملك غزا أرض الروم ففتح الحصن الذي كان قد فتحه الوضاح صاحب الوضاحية، كما غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم فشتّا بها.

حصار القسطنطينية: عندما تولى سليمان بن عبد الملك سعى ملك الروم (نسطاس الثاني) إلى الصلح مع العرب المسلمين، وذلك في سنة (٩٦هـ ــ ٧١٤م)، إلا أن هذا المسعى رفض، وفي الوقت نفسه كان ملك الروم قد أعد حملةً في جزيرة رودس[2] لمهاجمة الساحل السوري فيما إذا فشلت مساعي الصلح، والقضاء على كل استعداد أعده العرب لمهاجمته، لكن عدم الاستقرار السياسي عند الروم أدى إلى قيام انقلاب أطاح بالملك الروماني وعزله، وتولى عوضه بندوس الأرمني، فلم يستقر حتى ثار عليه حاكم عمورية ليون المرعشي[3].

خلال هذه المرحلة وجه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، ونزل سليمان بن عبد الملك دابق يشرف بنفسه على حركة القوات. تحرك مسلمة بقواته سالكاً طريق مرعش[4]، وفي طريقه إلى هدفه أمر كل فارس ممن كان معه بحمل مدين من طعام على عجز دابته، فلما وصل إلى أرض المعركة أمر بالطعام الموجود معه فجمعه في ناحية، وأمر قواته ألا يستعملوا منه شيئاً، وأمرهم أيضاً بأن يغيروا في أرض الروم فيزرعوا[5] ويستفيدوا من ذلك، كما أمر قواته بتعمير بيوت من خشب للاستقرار والاستمرار في

---

(1) حصن المرأة: من أرض الروم من ناحية ملطية ـ ابن شداد ـ الأعلاف الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ الجزء الأول ــ القسم الثاني ـ حاشية ـ ص٢٠١.

(2) رودس: جزيرة ببلاد الروم، ورودس مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر وهي أول بلاد الإفرنجة ـ ياقوت الحموي ــ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٧٨.

(3) يعتقد أن أصله سوري من أهل الجراجمة الساكنين على حدود بلاد الشام الشمالية، وحركة أليون إلى مسلمة بن عبد الملك وكيف تمت شبه مجهولة وتحتاج إلى تدقيق، ويعتقد أن عدم الإستقرار السياسي للسلطة الرومانية وكون أليون هنا كان أحد قادة الدولة الذين كان لهم نفوذ واسع في الدولة، وهذا ما جعله يظهر ويصل بسرعة إلى قمة السلطة وبرغبة عامة.

(4) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ولها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد، ثم أحدث الرشيد بعده سائر المدينة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١٠٧.

(5) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٣١ وما بعدها.

الحصار، وخلال تحرك مسلمة بقواته كان الروم ينزحون أمامه فشكلوا عبئاً كبيراً على الأمبراطورية الرومانية، إذاً جمعت هذه الحملة العرب المسلمين من أنحاء الدولة، فبلغ قوامهـا مائـة وعشـرين ألفـاً ومعها الفقهاء، وأدوات الحرب من كل صنف، كالأسلحة الدفاعية، والهجومية.

إن الإجراءات التي اتخذها مسلمة بن عبد الملك عبّرت عن قدرة القادة العرب على اسـتخدام التعبئة الاقتصادية بشـكل فـاقوا بـه غـيرهم، وفي مثـل هـذه الإجـراءات زرع الـروح المعنويـة لـدى القوات، وإيمانها بهدفها، والعمل المتواصل لتحقيق هذا الهدف، وساعدت هذه الإجـراءات القـوات في الاستمرار في مهامها القتالية وهذا ما حدث.

خلال هذه المرحلة ثار حاكم عمورية[1] ليون المرعشـي علـى السـلطة الرومانيـة، فجـاء إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك، وقيل شخص أليون من أرمينية إلى مسلمة بـن عبـد الملـك وقيـل مـن أذربيجان، فطلب إليه رجلاً[2]، فأرسل إليه عمرو بن هبيرة، فقال أليون: كنّا وأنتم نقاتل على الديـن ونغضب له، فأما اليوم فإنا نقاتل على الغلبة والملك، نعطيك عن كل رأس دينـاراً. في هـذه المرحلـة مات كما يذكر ملك الروم بتدروس الأرمني، وقيل عندما علم ملـك الـروم المذكـور بحركـة أليـون ضده وتحرك العرب، اعتزل الحكم وحلق رأسه وترهّب.

وذكر أن أليون كان قد قدم على سليمان بن عبد الملك فسيره الأخير مـع مسـلمة ثـم عمِـلَ أليون بالمكر والخدعة مع مسلمة بن عبد الملـك، فدخـل القسـطنطينية، فتـولى السـلطة باسـم أليـون الثالث[3]، بعد أن وعدهم بأن يخلصهم من هذه الحملـة، فـأعلن أن مقاومـة العـرب واجـب مقـدس دفاعاً عن المسيحية، وعمل على تحصين القسـطنطينية، وعمـل علـى قطـع الخطـوط الـتي يستعملها العرب لتموينهم. وعندما تحرك مسلمة بن عبد الملك إلى القسطنطينية كان قد استولى في طريقه على ساردیس، وبرجامه، وتأكد لديه عدم جدوى الدبلوماسية، لذلك تحرك غربـاً إلى أبيـدوس وأخضـع في مسيره هذا بعض الحصون في تراقيه، ثم عسكر بقواته أمام العاصمة البيزنطية وقام فوراً بإحاطتهـا

---

[1] عمورية: بلد في بلاد الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٥٨.

[2] بعض المصادر تؤكد أن حركة أليون هذه كان لها وجهان والمعلن هو كما تذكره بعض الكتب هو الطلب للسلطة والمخفي هو الغدر بالعرب وهذا ما حدث.

[3] وسام عبد العزيز فرج - العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثاني الهجري - طبع مصر ١٩٨١ - ص١٤٠.

بخندق، وعدد من المتاريس الحجرية. وكان مسلمة عند المحاصرة قد نصب عدّة الحصار، وعلى رأسها المجانيق واستخدم النفط، واستعان بنوع من المدفعية[1].

وكان سليمان بن عبد الملك قد أعد الأساطيل في كل من مصر والشام، وأرسلها بحراً بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري لكي تساعد القوات البرية في إحكام الحصار على العاصمة الرومانية، فكانت الحملة البحرية خلال تحركها قد غزت سواحل الروم وكان العرب قد اتخذوا قاعدة بحرية[2] لهم على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وتحديداً في جزيرة أرواد[3]، فلما وصلت الحملة بحر مرمرة ألقى الأسطول مراسيه أمام القرن الذهبي، فتمت محاصرة العاصمة البيزنطية براً وبحراً، ولكي يحكم الحصار عبر العرب بقواتهم إلى المضيق إلى أوربه لمهاجمة البلغار الذين كانوا يساعدون الروم ضد العرب، ولاعتقادهم أن سقوط العاصمة الرومانية يشكل خطراً كبيراً عليهم بعد ذلك.

لم تلق الحملة العربية أي إمداد يمكن الاعتماد عليه من العاصمة دمشق لأن الروم كانوا يقاومون كل إمداد مهما كان، وعمل الروم على إتلاف كل ما قدروا عليه اقتصادياً فيما حولهم. علماً أن القيادة السياسية والعسكرية في العاصمة دمشق كان بإمكانها تزويد الحملة بكل مستلزماتها.

ونظراً لاستمرار الحصار لوقت طويل، فقد نفذ كل ما لديهم من موادٍ تموينية، واستخدم الروم النار اليونانية[4] ضد الأسطول العربي فدمرته، وساعدت العواصف البحرية على هذا التدمير[5]، ونظراً لهذه الظروف جميعها فقد قلت المواد التموينية عند القوات العربية البرية، فاضطروا لأكل أي شيء يتذوقه الإنسان مما حوله إلا التراب[6]، ومع ذلك فقد استمرت الحملة في مهمتها حتى كانت نهاية سليمان بن عبد الملك.

---

[1] فيليب حتي ـ ادوار جرجي ـ تاريخ العرب المطول ـ طبع بيروت ١٩٦٥ ـ ج٢ ـ ص٢٦٦.

[2] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٢٦٧.

[3] جزيرة أرواد: اسم جزيرة في البحر قرب القسطنطينية غزاها العرب وفتحوها منذ ٥٤هـ مع جنادة بن أبي أمية في عهد معاوية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص١٦٢.

[4] فيليب حتي وآخرين ـ تاريخ العرب المطول ـ ج٢ ـ ص٢٦٦.

[5] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٢٦٧.

[6] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٨.

وعندما استلم عمر بن عبد العزيز السلطة أمر بانسحاب الحملة سنة (٩٩هـ ـ ٧١٧م). بعد أن زود القوات العربية بالمؤن والمدد[1]، ورغم ذلك فقد ذكر أن الانسحاب كان انسحاباً منظماً، وأثبتت الحملة فشلها، وتذكر المصادر العربية كيف أن أليون كان قد خدع مسلمة، وكانت البطارقة قد قالت له: إن صرفت عنا مسلمة ملكناك ووثقوا به، فقدم على مسلمة، فقال له: قد علم القوم الروم أنك لا تصدقهم القتال، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك، ولو أحرقت الطعام أعطوا بأيديهم فأحرقه، وبذلك قوي الروم، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون، فظلوا على ذلك حتى مات سليمان بن عبد الملك.

ويقول الطبري[2]: عندما هلك ملك الروم قدم أليون إلى مسلمة بن عبد الملك، فأخبره وضمن له أن يدفع إليه أرض الروم، ثم عاد أليون إلى القسطنطينية، فجمع كل الطعام حولها وملك البلاد، بعدها كتب إلى مسلمة يسأله أن يمده من الطعام ما يتمكن به الروم من العيش، ويصدقونه بأن أمره مع مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السباء والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلةً بحمل الطعام وقد هيأ أليون السفن والرجال فأذن له، فما بقي في تلك الحظائر إلا ما ندر، وبذلك عبأ أليون قواته، وهيأ لها الاقتصاد، فقيل إن أليون خدع مسلمة حتى لو كان امرأة لعيب بها[3]، فلقي الجند ما لم يلقه جيش، حتى كان الرجل ليخاف أن يخرج من المعسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق، وكل شيء غير التراب، فلما هلك سليمان أمر عمر بن عبد العزيز بإقفال الحملة بعد تزويدها بما تحتاجه.

وعن أسباب فشل الحملة فهناك أسباب عدة كما أرى، في مقدمتها أن الحملة كانت شبه ارتجالية اعتمدت التكهنات، التي كانت سائدة من أن القسطنطينية عاصمة الروم سيتم فتحها من قبل رجل اسمه نبيّ، فوجد سليمان نفسه معنياً بهذه التكهنات[4] كونه الوحيد الذي كان إسمه اسم نبيّ من ملوك بني أمية، فطمع في ذلك وتحمس، وخرج

---

[1] عبد القادر بدران ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير ـ طبع بيروت ١٩٧٩ ـ ج ـ ص .

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٣١.

[3] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[4] عبد المنعم ماجد ـ التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين ـ طبع بيروت ١٩٨٢ ـ ص٤٧٢.

إلى مرج دابق لعله يحوز على النصر الذي تكهّن به العلماء[1]. يؤكد ذلك قول الطبري[2] إن سليمان وجه أخاه مسلمة إلى العاصمة الرومانية، وأمره أن يقيم حتى يفتتحها أو يأتيه، ثم يذكر أن سليمان توجه إلى مرج دابق.

يضاف لما ورد أن التجهيز للحملة سواء برياً أم بحرياً لم يكن كافياً، وتقدير الموقف عن العدو كان غامضاً أو شبه ذلك، وما فعله مسلمة بن عبد الملك من توفير للطعام كما يذكر المؤرخون خلال حركته وتوجيهاته بزرع الأرض وما شابه ذلك كان من العوامل المساعدة لاستمرار الحصار لوقت أطول.

ثم إن الخداع الذي قام به أليون ونجاحه أدى إلى التأثير على الروح المعنوية لدى القوات العربية وإضعافها، وازدياد قوة الروح المعنوية عند العدو الذي أخذ يشن الغارات المتوالية على أطراف القوات العربية، وقطع عنها جزءاً كبيراً من مصادر التموين التي كانت تستغلها، أيضاً الإمدادات من العاصمة المركزية كانت معدومة، وهذا بدوره أيضاً كان سبباً من أسباب فشل الحملة.

كذلك فإن ركون سليمان بن عبد الملك إلى آراء أليون واقتناعه بها، وإرساله مع مسلمة، واعتماد مسلمة على آرائه، فهذا وحده كان سبباً من أسباب الفشل، لأن السلطة المركزية في دمشق كان يجب أن تقدر الموقف المعادي المضطرب، والصراعات السياسية التي تنتابه، وطمع أليون في السلطة، كل ذلك لم يحسب له حساب في التعامل مع أليون الذي نجح في خطته التي عبّر عنها بأن الغاية منها كانت الخداع.

أيضاً الأسطول البحري الذي يعتبر أسطولاً قوياً لم يذكر عنه المؤرخون إلا القليل، ففن تحركه وقيادته ومناوراته، وصراعه مع الأسطول المعادي كان كل ذلك شبه مجهول، والذي نعلمه عنه أن تحركه من الشام ومصر، إلى القسطنطينية، وحصاره لها، ثم تدميره، حيث لم يذكر المؤرخون أي صراع عسكري أو مناورة بالقوات البحرية أو معارك حاسمة، إلا أن الرومان استخدموا النار اليونانية ضد هذا الأسطول.

---

(1) أحمد مختار العبادي ـ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ـ طبع بيروت ١٩٨١ ـ ص٣٤.

(2) إبراهيم أحمد العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون ـ البحر المتوسط بحيرة إسلامية ـ طبع مصر بدون تاريخ ـ ص٢٤٦.

أخيراً كان ركون مسلمة واستسلامه لأليون في البداية رغم أن مسلمة كما يذكر المؤرخون حاصر القسطنطينية، ونصب عليها آلات الحصار وشدد الحصار في البداية، فلماذا لم يستخدم هذه الآلات ضد هدفه، وهل كانت المباحثات السياسية الغادرة سبباً في ذلك أم لا.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك فتحت مدينة الصقالبة[1]، وبعث داؤود بن سليمان بن عبد الملك من أرض الروم، ففتح حصن المرأة مما يلي ملطية[2].

ثالثاً. الجبهة الغربية: تنفيذاً لأوامر الخليفة أوقف موسى بن نصير[3] تحركاته واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس في ذي الحجة سنة (٩٥هـ ـ اغسطس٧١٤م)، وعاد ومعه طارق بن زياد إلى دمشق فجعل عبد العزيز من إشبيلية قاعدةً لسلطته. لم يقف عبد العزيز مكتوف الأيدي بغياب أبيه بل استمر في الفتوحات وضبط البلد ودامت ولايته على الأندلس سنة وعشرة أشهر، أي كانت نهايته في رجب سنة (٩٧هـ ـ فبراير٧١٦م) ومات مقتولاً، قيل إن سليمان بن عبد الملك بعد أن تولى الخلافة بعث إلى الجند يأمرهم بقتله، وكان قد سخط على أبيه موسى، فقتل عبد العزيز في مسجد إشبيلية وهو يصلي في رجب سنة (٩٧هـ ـ فبراير٧١٦م)، وأخذ وأرسل إلى دمشق.

أيوب بن حبيب اللخمي[4]: تولى الحكم سنة (٩٧هـ ـ ٧١٥م)، وهو ابن أخت موسى بن نصير، دامت ولايته ستة أشهر، اختلف في نقل العاصمة إلى قرطبة في عهده وفي العهد الذي تلاه، وقيل قدم العرب في الأندلس عليهم بعد مقتل عبد العزيز، أيوب بن حبيب اللخمي، وقيل هو ابن عمة عبد العزيز وصف بأنه كان رجلاً صالحاً محبّاً للعمران.

الحر بن عبد الرحمن الثقفي[5]: تولى الحكم في ذي الحجة سنة (٩٧هـ ـ يوليه٧١٦م)، استمرت ولايته سنتان وثمانية أشهر، قيل هو الذي نقل مقر دار الحكم والسلطة من إشبيلية إلى قرطبة،

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٤٥.

[2] ملطية: بلدة من بلاد الروم وهي مشهورة ومذكورة بنواحي الشام وهي للمسلمين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١٩٢.

[3] الحميري ـ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميري ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ـ طبع القاهرة سنة ١٩٦٦ ـ ص٢٨٩.

[4] ابن الخطيب ـ لسان الدين بن الخطيب ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ـ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ طبع مصر ١٩٨٠ ـ ج ـ ص .

[5] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٩٧هـ ـ ج٥ ـ ص٢٣.

عزله عمر بن عبد العزيز، في رمضان سنة (١٠٠هـ ـ مارس٧١٩م).

وقال ابن الأثير في أحداث سنة (٩٧هـ ـ ٧١٥م) إن سليمان بن عبد الملك ولى الأندلس الحر ابن عبد الرحمن الثقفي، فأقام عليها إلى أن استخلف عمر بن عبد العزيز فعزله، وقال: إن سليمان ابن عبد الملك عزل عبد الله بن موسى عن أفريقيه، واستعمل عليها محمد بن يزيد القرشي، فبقي عليها إلى أن مات سليمان بن عبد الملك، فاستعمل عوضه إسماعيل بن عبيد الله سنة (١٠٠هـ ـ ٧١٨م).

في كلام ابن الأثير تناقض كما هو وارد، فيذكر أن الحر بن عبد الرحمن ولاه سليمان بن عبد الملك فبقي والياً إلى أن مات، واستخلف عمر بن عبد العزيز، ويذكر أنه نفسه ولى محمد بن يزيد أفريقيه فبقي إلى أن مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز.

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز

الفصل الخامس

عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، كنيته أبو حفص ولد سنة (٦٣هـ ــ ٦٨٢م)، وقيل ولد بمصر سنة (٦١هـ ــ ٦٨٠م) سنة مقتل الحسين بن علي وهذا الأصح، أبوه عبد العزيز بن مروان، وكان مروان بن الحكم قد جعل عبد العزيز من بعد عبد الملك بن مروان، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، قيل عنه إنه كان في الطبقة الثالثة[1] من أهل المدينة من التابعين، وقيل عنه إنه كان ثقةً مأموناً له فقه وعلم وورع، وقال ابن عساكر: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة حافر دابة، فلذلك سمي أشج بن أمية[2]، وكان قد خطه الشيب، لم يخضب، ولا يخفي شاربه.

عندما ولي عبد العزيز بن مروان مصر، كان عمر بن عبد العزيز صغير السنّ حيث وجهه إلى المدينة فجالس مشايخ قريش، فشهره أهل المدينة بعلمه، وبعد وفاة والده خلطه عبد الملك بن مروان بولده، وقدمه على بعضهم، وزوجه بابنته فاطمة، وكانوا يعيبون عليه الإفراط في النعمة، والاختيال في المشية[3].

---

(1) ابن سعد ـ محمد بن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ ج٥ ـ ص٣٣٠.

(2) قيل دخل عمر بن عبد العزيز إلى إصطبل أبيه وهو غلام فضربه فرس فشجه فجعل أبوه يمسح عنه الدم ويقول: إن كنت أشج بني أمية انك إذاً لسعيد ـ ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص١٣٤.

(3) ابن الطقطقي ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ص .

ولي عمر بن عبد العزيز المدينة في إمرة الوليد بن عبد الملك فأقام الحج سنة (٨٩هـ ـ ٧٠٧م)[1]، و(٩٠هـ ـ ٧٠٨م)، وقيل حجّ أيضاً بالناس سنة (٩٢هـ ـ ٧١٠م) و (٩٣هـ ـ ٧١١م)، ومن أقواله لسليمان بن عبد الملك: «أرى دنيا تأكل بعضها بعضاً، وأنت المسؤول عنها»[2]، وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ما أعجبك؟ قال: «أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه»[3]، وقال له وكانا معاً في الحج فأصابهم ليلة برق ورعد، فقال عمر بن عبد العزيز: «هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذابه»، وقيل قال: «هذه جاءت برحمته، فكيف لو جاءت بسخطه»[4].

استخلف عمر بن عبد العزيز بدابق يوم توفي سليمان بن عبد الملك في (١٠صفر ٩٩ هـ ـ سبتمبر٧١٧م) وقد اختلف في ذلك، وكان نقش خاتمه[5] (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وقيل كان نقش خاتمه (آمنت بالله)، وقيل كان (الوفاء عزيز)، وقيل (كلأ البر بعزة عمر)، وكان خاتمه من فضة مربع.

كان كما يذكره المسعودي[6] في مروج الذهب في غاية النسك والتواضع، فصرف عمال من كان قبله من بني أمية، واستعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، وترك سب الإمام علي على المنابر. وكان يكتب إلى عماله بثلاث خصال يدور فيهم ـ إحياء سنة، أو إطفاء بدعة، أو عطاء في مسكنه أو رد مظلمة، وقال: «لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى يكون فيه خمس خصال، أيتهن أخطأته كانت فيه خللاً حتى يكون عالماً قبل أن يستعمل مستشاراً لأهل العلم، مكفتاً للزيغ، منصفاً للخصم، محتملاً للأئمة»[7]، وقال: الموالي ثلاثة[8]، مولى رحم، ومولى عتاقة، ومولى عقد، فمولى الرحم يرث ويورث، ومولى العتاقة يورث ولا يرث، ومولى العقد لا يرث ويورّث وميراثه لعصبته.

---

(1) اختلف في ذلك ـ فقيل حج سنة ٨٨هـ عام ولي إمارة المدينة، وقيل أقام الحج سنة ٨٧هـ و٨٩هـ ـ ٩٠هـ و٩٢هـ.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص١٥٣.

(3) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(4) البلاذري ـ كتاب جمل من أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص١٢٩.

(5) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص١٧٦.

(6) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٢٠٥.

(7) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص٢٠١.

(8) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٥ ـ ص١٨٢.

وكان عمر بن عبد العزيز قد اتخذ داراً لإطعام المساكين والفقـراء وابـن السـبيل، وكتـب إلى أمصار الشام: ارفعوا اليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به الفالج، أو من به زمانـة تحـول بينـه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه أولئك، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمـن بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية، وكتب أن يفرقوهم جنداً جنداً[1]، وكان يقول لحرسه: إن لي عنكـم غنىً، كفى بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، ولا أطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة بعـدي مـن أقـام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله، وكان لعمر بن عبد العزيز كما يذكر ابن عساكر[2] ثلاثمائة شرطي وثلاثمائة حارس.

وقال ابن عبد ربه[3] وكان على شرطته يزيد بن بشير الكناني، وعلى حرسه عمرو بن المهاجر ويقال أبو العباس الهلالي، وكان كاتبه على الرسائل ابن أبي رقيـة، وكاتبه أيضـاً إسمـاعيل بـن أبـي حليم، وعلى خاتم الخلافة نعيم بن أبي سلامة، وعلى الخراج والجند صالح بن أبي جبير، وعلى أذنـه أبو عبيدة الأسود مولاه.

وكان لا يأخذ من بيت المال شيئاً، ولا يجري على نفسه من الفيء درهمـاً، وكـان لـه غـلام يقال له درهم يحتطب له فقال له عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس يـا درهـم؟، قـال: ومـا يقـول الناس كلهم بخير، وأنا وأنت بشر، قال: وكيف ذلك؟، قال: إني عهدتك قبل الخلافة عطراً لباسـاً، حاذقاً ماهراً نشيطاً، طيـب الطعـام، فلمـا وليـت رجـوت أن أسـتريح وأتخلـص، فـزاد عملـي شـدّةً وصرت أنت في بلاء.

وعندما ولي عمر بن عبد العزيز بدأ بلحمته وأهل بيته[4]، فأخذ ما بيديهم وسمى أموالهم مظالم ففزعت بنو أمية إلى فاطمة بنت مروان عمتـه، فكلمهـا طويـلاً عـن أفعـال مـن سبقه مـن الحكـام، فرجعت إليهم ولم تذاكره بشيء، فأبلغتهم كلامه، وكان قد قال لقومه لتتركني أو لا يفاجئكم مـني حتى أقف بمكة فأخرج من هذا الأمر إلى أولى الناس به.

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص٢١٨.

[2] الذهبي ـ تاريخ الإسلام ـ ج ـ ص ، الذهبي ـ سيرة أعلام النبلاء ـ ج٥ ـ ص١٣٦، ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٤٥ ـ ص٢٢٠.

[3] اختلف فيمن كان على شرطته فابن عبد ربه قال يزيد بن بشر الكناني ـ ج٥ ـ ص١٧٩، أمـا اليعقوبي فيذكر ان صـاحب شرطته كان روح بن يزيد السكسكي مولاه ـ ج٢ ـ ص٣٠٨.

[4] ابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول ـ ص١١٤، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٠٨.

وذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عمر بن عبد العزيز كان قد قال لبني مروان بعد أن تولى الخلافة: «أدّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تلجؤوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون»[1] وقال: «أما والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكني أخاف الفتنة ولئن أبقاني الله لأردّن إلى كل ذي حقّ حقه إن شاء الله»[2]، وذكره المسعودي[3] بأنه كان زاهداً فقال: كان يشتري لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها، فلما أتته الخلافة كان يشتري له قميصاً بعشرة دراهم فإذا لبسه استلانه.

ولعمر بن عبد العزيز مع الخوارج أخبار كثيرة ومراسلات، ومناظرات سنأتي على ذكرها عند الحديث عن الخوارج كما كانت له مثل ذلك مع بني أمية وغيرهم من ولاة الأمصار.

والمعروف أن فدك[4] كانت بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فكان يضعها حيث أراه الله، وبقيت على ما هي عليه. ثم إن مروان أقطعها فوجهها لمن لا يرثه من بني أمية، فكنت أحدهم ثم ولى الوليد فوهب لي نصيبه، ثم ولى سليمان فوهب لي نصيبه... ثم قال: ألا وإني قد رددتها موضعها، وقيل إن مروان بن الحكم أقطعها ثم صارت لعمر بن عبد العزيز، فقال: رأيت أمراً حتمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاطمة ليس لي بحق وإني أشهدكم أني قد رددتها[5] على ما كانت على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وعزل يزيد بن المهلب عن العراق[6] بعد توليه السلطة، ووجه على البصرة وأرضها عدي بن أرطأة الفزاري[7]، وبعث على الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب

---

(1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٥ - ص١٨٤.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص١٨٤.

(3) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٢٠٧.

(4) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سنة ٧هـ لما نزل خيبر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢٣٨.

(5) قدامة بن جعفر - الخراج وصناعة الكتابه - تحقيق: محمد حسين الزبيدي - طبع العراق ١٩٨١ - ص٢٦٠، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٤٥ - ص٢٧٩.

(6) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٥٤.

(7) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٤٣.

الأعرج القرشي[1]، وضمّ إليه أبا الزناد فكان كاتباً له، وأرسل عمر بن هبيرة الفـزاري إلى الجزيـرة[2] عاملاً عليها.

وولى على دمشق محمد بن سويد الفهري[3] وعزل الجراح بن عبد الله عن خراسان[4]، وكـان السبب في عزله له أن يزيد بن المهلب ولى جهم بن زحر جرجـان حين شخص عنهـا، ثـم أن والي العراق وجه من العراق والياً على جرجان، فلما قدمها أخذه جهم فقيده ومن كان معه، وخـرج في خمسين من اليمن يريد الجراح بخراسان، فأُطلق أهل جرجان عاملهم فقـال الجـراح لجهـم: خـالفت إمامك وخرجت عاصياً، فاغزُ لعلك تظفر، فيصلح أمرك عند الخليفـة، فوجهـه إلى الختـل، فخـرج، فلما دنا منهم سار متنكراً في ثلاثة من أصحابه، وخلّف في عسكره ابـن عمـه القاسـم بـن حبيـب، فلما دخل على صاحب الختل قال: أخلني فأخلاه، فنزل صاحب الختل عن سريره وأعطاه حاجته.

فكتب الجراح إلى عمر بن عبد العزيز وأوفد رجلين من العرب، وآخر من الموالي من بني ضبة (يكنى أبا الصيداء - اسمه صالح بن طريف)[5] فلما قدموا دمشـق دخلوا علـى عمـر بـن عبـد العزيـز فتكلم العربيان والآخر جالس لا يتكلم، فسأله عمر بن عبد العزيز: أما أنت من الوفـد؟ قـال: بلـى، قال: فما يمنعك من الكلام، فقال: يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يأخذون بالخراج، وأميرنا عصبي جاف يقول علـى منبرنـا: أتيتكـم حفياً، وأنا اليوم عصبي والله لرجل من قومي أحب إليّ من مئة من غيرهم، وبلغ من جفائـه أن كـم درعه يبلغ نصف درعه، وهو يعد سيفاً من سيوف الحجاج، وهو يعمل بالظلم والعدوان.

فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح: انظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية فسارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجـراح إن النـاس قـد سـارعوا إلى الإسـلام نفـوراً مـن الجزيـة فـامتحنهم بالختان، فكتب الجراح إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فردّ عليـه إن الله بعـث النـبي - صلى الله عليه وسلم - داعياً و لم يبعثه خاتناً.

---

[1] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص١٩٣.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٥٦.

[3] ابن سعد - الطبقات الكبرى - ج٥ - ص٣٤١.

[4] اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٣٠٢.

[5] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٥١ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٥٩.

عند ذلك طلب عمر بن عبد العزيز رجلاً له علم بخراسان فقيل له عليك بأبي مجلز، فكتب إلى الجراح يأمره بالقدوم عليه ومعه أبو مجلز، وأمره أيضاً أن يستخلف على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم الغامدي[1]، وعلى خراجها عبيد الله بن حبيب، ثم استشار أبا مجلز فيمن يولي خراسان فولى عبد الرحمن بن نعيم على الحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري الخراج، وأوصاه، فبقي عبد الرحمن بن نعيم على خراسان إلى أن قتل يزيد بن المهلب.

وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال من وراء النهر من العرب المسلمين بذراريهم، فأبوا، وقالوا: لا يسعنا مرو، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فردّ عليه: اللهم إني قد قضيت الذي علي فلا تغرر بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم[2].

أخيراً لقد اجتهد عمر بن عبد العزيز في مدة ولايته فرد المظالم[3]، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي أين الغارمون، أين الناكحون، أين المساكين، أين اليتامى، حتى أغنى كلاً من هؤلاء، وكان يوسع على عماله في النفقة يعطي الواحد منهم في الشهر مئة دينار، ومئتي دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغالهم.

وهو الذي كتب إلى سائر البلاد ألاّ يركب ذمي من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ولا يلبس قباءً ولا طيلساناً ولا السراويل[4]، ولا يمشي أحد منهم إلا بزنار من جلد وهو مقرون الناصية، ومن منهم وجد في منزله سلاح أخِذَ منه، وكتب أيضاً ألاّ يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن، وفيما ورد تأكيد على عروبة الدول في الجنس والقومية.

وفي عهده كما يذكر المؤرخون أول الدعوة العباسية سنة (١٠١هـ ـ ٧١٩م) حيث وجه قائدها محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من أرض الشراه، ميسرة إلى العراق كما وجه عدداً آخر إلى خراسان وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته، وكان ميسرة بالعراق صلة الوصل ما بينه وبين

---

(1) اختلف حول ذلك ـ فابن كثير يذكر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما عزل الجراح ولى عوضه عبد الرحيم بن نعيم القشيري على الحرب، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج ـ ج٩ ـ ص١٩٧، أما الطبري فيذكر أنه ولى عبد الرحمن الغامدي على الحرب، وعبد الله بن حبيب على الخراج ـ ج٦ ـ ص٥٦٠.

(2) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ ج١ ـ ص٣٠٢، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٢٨.

(3) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٠٨.

(4) المرجع نفسه ـ ج٩ ـ ص٢١٦.

دعاته بخراسان.

واختلف المؤرخون في عمره فقيل توفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وقيل توفي وما بلغ الأربعين، وقيل ابن تسع وثلاثين سنة وثمانية أشهر، وقيل مات وهو ابن أربعين سنة، وقيل مات على رأس خمس وأربعين سنة، واختلف في مدة خلافته، فقيل كانت مدة[1] خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وقيل سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، وقيل[2] سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وقيل كانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وقيل سنتين وخمسة أيام، وقيل كانت خلافته مثل خلافة أبي بكر أي سنتين.

واختلف أيضاً في وفاته، فقيل توفي بدير سمعان[3] يوم الخميس ٥رجب سنة (١٠١هـ - يناير٧٢٠م)، وقيل توفي لخمس بقين من رجب سنة (١٠١هـ - يناير٧٢٠م)، وقيل توفي في ستة أيام بقين من رجب سنة (١٠١هـ - يناير٧٢٠م) بدير سمعان من أرض حمص، وقيل توفي لأربع ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ - يناير٧٢٠م)، وقال ابن عبد ربه: «ابن يزيد بن عبد الملك هو الذي دسّ إلى خادم يخدمه السم على ظفر إبهامه، فلما استسقى عمر غمس إبهامه في الماء ثم سقاه فمرض مرضه الذي مات فيه، وقيل توفي بخناصرة[4] يوم الأربعاء لخمس ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ - يناير٧٢٠م)».

سياسة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية: حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز في خلافته القيام بثورة إصلاحية شاملة إلا أن هذه الثورة لم يكن مخططاً لها لأن الخليفة نفسه تسلم السلطة وهو لا يعلم انه يليها قبل أن تسلم له، و لم يكن جاداً في البحث عنها، وتذكر بعض المصادر أنه لم يكن يرغب فيها وهو لا يريدها، من هذا يمكن القول إن ثورته الإصلاحية أراد بها العودة إلى أقوال وأفعال السلف الصالح ممثلاً بالخليفة عمر بن الخطاب.

---

(1) مؤلف مجهول - أخبار الدولة العباسية - وفيه أخبار العباس وولده - تحقيق عبد العزيز الدوري عبد الجبار المطلبي - طبع بيروت سنة ١٩٧١م - ص .

(2) ابن أيبك الصفدي - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - كتاب الوافي بالوفيات - تحقيق مجموعة - طبع المعهد الفرنسي - ج - ص .

(3) دير سمعان: دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة وعنده قصور ودور، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٥١٧.

(4) خناصرة: بلدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٩٠.

فبعد استلامه الخلافة كانت أولى قراراته وقف الأعمال القتالية، وتجميدها على كل الجبهات باستثناء بعض المواقع التكتيكية ذات الأهمية الاستراتيجية، وأمر الحملة التي وجهها سلفه بالعودة والتراجع بعد أن يئس من نجاحها في تحقيق أهدافها، لذلك كان قراره جريئاً ومصيباً.

أما قراره الآخر والذي ركزّ عليه فهو قرار اقتصادي اجتماعي فعمل جاهداً لتحقيق شعار المساواة و وضعه موضع التنفيذ إلا أنه اصطدم بعقبات كثيرة كانت أقوى من تنفيذه لهذا الشعار، وعمل جاهداً على إسقاط الضرائب غير المشروعة، وإن كان نجح في ذلك على عهده فإن من جاء بعده أعاد الأمور إلى ما كانت عليه أي أن ثورته الاقتصادية والإدارية كانت مرحلية لم تتجاوز مرحلة حكمه التي انتهت مبكّرة.

أخيراً شمل الإصلاح في عهد عمر بن عبد العزيز:

١ـ ردّ المظالم وبدأ بنفسه عندما ردّ فدك وأمر بالعدالة.

٢ـ أمر بعزل ولاة الخراج بعد أن تسلم السلطة وقد تبين له ظلمهم.

٣ـ أمر بوضع الجزية عمّن أسلم، وحوّل الأرض الخراجية العشرية إلى ضريبة العشر.

٤ـ أمر بإلغاء ضريبة النيروز والمهرجان و أوقف الهدايا، وأعفى الناس من أجرة صكّ النقود وثمن الأوراق.

٥ـ حرّم شراء أرض أهل الذمة حتى لا تتحول إلى أرض عشرية، وحرم تمليك الأراضي الخراجية من ممتلكات الدولة.

٦ـ أوقف الحروب لأنها أضحت وسيلةً من وسائل الارتزاق والإثراء.

وإذا وجدت أفكاره آذاناً صاغية في الدولة فكانت لدى المعارضة الأموية و لم تكن في صفوف الدولة ورغم ذلك قضى على هذه المعارضة لأن الأمويين بعد الخليفة عمر قضوا على كل ما قدمه واستأصلوا جذور محاولته وثورته الإصلاحية، أما إصلاحاته في مجال القضاء فقد بقيت ذات أثر فعال، من ذلك رده المظالم، حتى أنه عمل على رد مظالم أهل بيته وله في هذا الميدان أفعال وأقوال كثيرة ليس هنا مجال لذكرها.

وبعضهم يرى أن ثورة عمر بن عبد العزيز هي ثورة أموية لصالح الدولة الأموية تحديداً لا يتعداها كان هدفها إنقاذ الدولة مما ألمّ بها، وكانت غايته إصلاح الإنسان الأموي أولاً وقبل أي

إنسان آخر لأنه هو الأكثر فائدة من استمرار الدولـة، وكـان يـدرك أن الظلـم لا يـدوم ولابـد مـن المطالبة برد الظلم، وكثرة الظلم والجور تولد الثورة، فحديثه عن الظلم ورد المظـالم ومـن أهـل بيتـه كانت الغاية منه إصلاح البيت الأموي والعمل على تحقيق وبناء المجتمع من الداخل.

يذكر محمد عمارة[1]: عندما آل الأمر إلى معاويـة طويـت صفحـة دولـة الخلافـة ونظامهـا الـذي أسس على فلسفة الثورة، وتحولت الدولة إلى ملك وراثي احتكره الأمويون، وسـادت بـدلاً مـن الشـورى تلك النظرية التي تقول إن: «كل ما أمكن الملك أنْ ينفرد به دون خاصته وحامته (عامته) فمن أخلاقـه ألا يشارك أحداً فيه.. كذا حكي عن معاوية.. وكذا حكي عن الرشيد ما أغرب من هذا»[2].

إلا أن ما ورد لا يعني إنعدام الشورى في العصر الأموي أبداً حيث نلاحظ الكثير مـن الحكـام الأمويين يلجؤون إلى أقرب النـاس ممـن لهـم رأي فيستشـيرونهم في الأمـور الـتي تعـود علـى الدولـة بالفائدة فمعاوية استشار أصحابه في أمور ولاية العهد، ومروان كان يستشير حسـان بـن مـالك بـن بحدل الكلبي، وعبد الملك كان يستشيره وكان روح بن زنباع من خواص عبد الملك.

إلا أن أكبر تجربة في هذا الميدان كانت تجربة عمر بن عبد العزيز عندما كان والياً على المدينـة حيث أمر بتكوين مجلس شورى مكون من عشرة من فقهاء المدينة، وهـم:

١ـ عروة بن الزبير
٢ـ عبيد ا لله بن عبد ا لله غيبة
٣ـ أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث
٤ـ أبو بكر بن سليمان بن أبي خثعمة
٥ـ سليمان بن يسار
٦ـ القاسم بن محمد
٧ـ سالم بن عبد ا لله
٨ـ عبد ا لله بن عبد ا لله بن عمر
٩ـ عبد ا لله بن عامر بن ربيعة
١٠ـ خارجة بن زيد بن ثابت

ثم جمع أعضاء مجلس الشورى الذين اختارهم بنفسه، فقال لهم: «إني جمعتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، وما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو بـرأي مـن حضـر منكـم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم من عامل ظلامة، فأحرج با لله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني»[3].

---

[1] محمد عماره ـ الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ـ طبع بيروت ١٩٧٧ ـ ج ـ ص٦٣.

[2] الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ التاج في أخلاق الملوك ـ تحقيق: محمد أديب ـ طبع بيروت ١٩٥٥ ـ ص٩٧.

[3] ابن سعد ـ طبقات ابن سعد ـ ج٥ ـ ص٢٤٥.

- شكل عمر مجلس شورى يكون عوناً له على الحق.
- عاهدهم ألاّ يبت بأمر بمفرده وأن يكون ذلك برأيهم كلهم أو من حضر منهم.
- أمرهم برصد التعدي والظلم بشكل عام.
- أمرهم بمراقبة العمال في ولايته وإبلاغه عن كل ظلم يقع.

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد استلامه السلطة ومن منهاج ثورته الإصلاحية مخالفته لمن سبقه من أولئك الذين أمروا بأن يأخذوا الجزية حتى من الذين أسلموا وغايتهم كما يعلنون عدم وقوع الدولة في عجز مالي بالإضافة إلى النهوض بأعباء الدولة بعد أن اتسعت رقعتها، إذن رفع عمر ابن عبد العزيز الجزية عمن أسلم، وكانت سياسته هذه وإن كانت دينية بحتة إلا أنها خطوة متقدمة متطورة ساعدت على انتشار الإسلام والإقبال عليه[1] ومما فعله في هذا المضمار أيضاً أنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعض ملوكهم وسموا بأسماء العرب ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان منهم فاسلموا.

أخيراً إن الثورة التي حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يقوم بها ثورة في مضمونها دينية اعتمدت السلفية، فالخليفة الأموي اعتمد أسلوب الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب دون أن يدقق في ظروف كل منهما فالأمور في عهد الخليفة الأموي تغيرت في كافة الاتجاهات والأحوال، و ورث حكماً فيه تجاوزات لا يمكنه الحد منها لذلك لاقت ثورته الفشل، ولو أنه اعتمد أسلوباً معاصراً متطوراً معتمداً فيه على أسلوب السلف بما يتناسب مع حاضره لكانت النتيجة أفضل مما آلت إليه، لأن الإنسان بطبعه ميال إلى التطور مع المحافظة على الماضي بما يخدم الحاضر.

السياسة الخارجية في عهد عمر بن عبد العزيز:

أولاً - الاتصال الحربي: كانت بداية أعماله الحربية كما يذكر الطبري[2] أنه وجه إلى مسلمة بن عبد الملك، وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه خيلاً[3]

---

[1] شكري فيصل - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - نشأتها مقوماتها - تطورها اللغوي والأدبي - طبع بيروت ١٩٨١ - ص٢١٠.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٥٣.

[3] قيل أن عدد الخيل التي وجهها خمسمائة فرس.

عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، ويؤكد ابن الأثير[1] ما ذكره الطبري حرفياً كما يؤكد ذلك أيضاً ابن كثير في كتابه البداية والنهاية.

ويذكر ابن الأثير[2] أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر أهل طرندة[3] بالقفول عنها إلى ملطية[4] سنة (١٠١هـ - ٧١٨م)، وكان عبد الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة (٨٣هـ - ٧٠٢م)، وملطية يومئذ خراب، وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج فيعودون إلى بلادهم فظلوا كذلك إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز فأمرهم بالعودة إلى ملطية وأخلى طرندة ثم أمر بإخرابها، واستعمل على ملطية جعونة بن الحارث.

كما كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فقيل إن بعضهم قد أسلم، وبعض الملوك سموا بأسماء العرب، واستعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم بن قتيبة ، فغزا الأخير الهند فظفر.

وفي عهده أيضاً أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا جماعةً من المسلمين، فوجه إليهم حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفت منهم إلا اليسير، وأسر منهم خمسين، فقدم بهم على الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة[5]. وأغزى عمر بن عبد العزيز، سنة (١٠٠هـ - ٧١٨م) للوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي الصائفة[6].

أما في أفريقيه: فقد ولى عمر بن عبد العزيز، السمح بن مالك الخولاني[7] على الأندلس في رمضان سنة (١٠٠هـ - مارس٧١٩م)، واستمرت ولايته سنتين ونصف، ثم استشهد بطرسوسة[8]

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٤٣.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص٥٤.

(3) طرندة: من ملطية على ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٢٠ .

(4) ملطية: بلدة من بلاد الروم تتاخم بلاد الشام وهي للمسلمين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٩٢.

(5) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٣٠٢.

(6) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٥٤.

(7) المقري أحمد بن محمد التلمساني - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق: عدنان درويش - طبع سورية ١٩٨٠ - ج - ص.

(8) ابن القوطية - أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس - تحقيق إبراهيم الابياري - طبع بيروت ١٩٨٢ - ص

في إحدى غزواته سنة (١٠٢هـ - ٧٢٠م). أما ابن الأثير[1] فيذكر غير ذلك، فيقول إن عمر بن عبد العزيز سنة (١٠٠هـ - ٧١٨م) استعمل إسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم على أفريقية، واستعمل السمح بن مالك الخولاني على الأندلس وهو الأصح.

ثانياً - السياسة الخارجية: بعد تسلم عمر بن عبد العزيز السلطة كما هو معلوم أصدر أوامره إلى قواته المحاصرة للقسطنطينية يأمرهم بالرجوع إلى الشام، واهتم بالسياسة الداخلية وأولاها العناية اللازمة، و لم يجهد نفسه في السياسة الخارجية التي تستهدف المجد والعظمة. لم يكن عمر سياسياً بارعاً، وخاصةً في الأمور الخارجية وكانت اهتماماته الدينية سبباً في إهماله الشؤون الخارجية. مهما يكن فقد كان عهده فترةً ساعدت بيزنطة في إعادة ترتيب صفوفها، وخاصةً بعد أن أصدر أوامره بوقف العمليات القتالية، وسحب الحملة عن القسطنطينية وأمور أخرى.

وكان أهم ما فعله في مجال السياسة الخارجية هو تكريس بعض الجهد إلى فداء الأسرى، حيث أرسل برسول يحمل كتاباً إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث يتداول معه حل هذا الموضوع وكتب إلى الأسارى مايلي: «أما بعد، فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى، ولستم أسارى، معاذَ الله أنتم الحُبَسَاء في سبيل الله واعلموا أني لست أقسِم شيئاً بين رعيتي إلا خَصَصْتُ أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه، وقد بعثت إليكم خمسةَ دنانير، ولولا أني خشِيتُ إن زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حُرَكم ومملوككم بما يسأل، فأبشروا ثم أبشروا»[2].

وقال سبط بن الجوزي[3]: حكى أبو القاسم الدمشقي عن اسماعيل بن أبي حكيم المدني: كاتب عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٣٠هـ - ٧٤٧م)، قال: «بعثني عمر حين ولي الخلافة في فداء الأسرى فبينما أنا بالقسطنطينية أدور، سمعت قائلاً يترنم: «أرقد وغاب عني من يلوم ولكن لم أنم وأنا والهموم، كأني من تذكر ما ألاقي إذا ما أظلم الليل البهيم، سليم ملّ أقربوه و ودعه المداوي والحميم».

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - أحداث سنة ١٠٠هـ - ج٥ - ص٥٥.

(2) الأصفهاني - الأغاني - ج٨ - ص١٥١.

(3) سبط بن الجوزي - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - مخطوط بدار الكتب المصرية - ج٩ - قسم٢ - ص١٧٤-١٧٥.

قال اسماعيل: فوقفت عليه وقلت له من أنت، قال: أنا الوايـض أسـرت فعذبـت فدخلـت في دينهم كرهاً، قال اسماعيل: إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعثـني في الفـداء، وأنـت أحـب مـن أفتديه، أنشدك الله ارجع إلى الإسلام، قال: «أبعد ما بطنت في الكفر» وإذا ما حدث فداءً للأسرى آنذاك فيكون عند نهر كودنس في مدينة سلوقية قليقية[1]، وقال سبط بـن الجـوزي: «قـال ابـن أبـي الدنيا: أرسل ملك الروم إلى عمر ـ رضي الله عنه، فبعث جوابها مع محمد بن معبـد، وبعـث أسـارى من الروم ليفادى بهم أسارى مـن المسلمين[2]، وقـال: «أرسـل عمـر ـ رضـي الله عنـه ـ رسـولاً إلى القسطنطينية، فخرج يمشي في أزقتها فسمع قارئاً يقرأ القرآن، فوقف عليه، فإذا بأعمى يقـرأ القـرآن ويطحن في مدار فسلم عليه، وقال: إني بالسلام في هذه الأرض.

فأخبره: أنه رسول عمر رضي الله عنه، وقال: ما الذي أوقفك هنا، قال: أخذت مـن بعـض طريق فعرض علي طاغية الروم النصرانية، فأبيت فثمل عيـني وسيرني إلى هذا الموضع، ويبعث إلي في كل يوم بحنطة أطحنها له، فلما عاد الرسول إلى عمـر ـ رضـي الله عنـه ـ أخـبره فبكـى حتـى أبكـى الأرض من دموعه وقال له: عد على حالك وقل للطاغية والله لئن لم يبعث إليّ بالطحان لأبعثن إليه جنوداً أولها عندك وآخرها عندي، فلما بلغته الرسالة قال: ما كنا لنحوج الرجل الصالح لهذا، وأقـام الرسول عنده أياماً»[3].

فدخل عليه يوماً، وهو قاعد على الأرض يبكي، فقال له: مالك، فقال: أخبرنا سيدنا المسـيح أن الرجل الصالح إذا كان بين قوم السوء، لم يلبث فيهم إلا قليلاً يسـيراً، ثـم يخرجـه الله مـن بينهـم فقال له: وما الخبر؟ قال: مات العبد الصالح، قال: فقمت وقد أيست من خـلاص الطحـان، فقـال: «اذهب فخذ الطحان، ما كنت لأخافه حياً وأخافه ميتاً»[4].

ويذكـر ابـن الجـوزي أيضـاً سـفرة أخرى قـام بهـا ابـن معبـد، وقـد أرسـله عمـر بـن عبـد العزيـز إلى ملـك الـروم ليـو الثـالث ليفـادي أسـارى مـن المسـلمين[5]، قـال ابـن معبـد: فكنـت إذا

---

[1] كي لاسترانج: بلدان الخلافة الإسلامية ـ ص١٦٥.

[2] مخطوط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان ـ ج٩ ـ قسم٢ ـ ص١٨٩.

[3] المرجع نفسه ـ ج٩ ـ قسم٢ ـ ص١٨٩.

[4] المرجع نفسه.

[5] المرجع نفسه ـ ١٨٩ـ١٩٠.

دخلت على ملك الروم أراه جباراً عاتياً جالساً على تخت وعليه تاجه، فدخلت عليه يوماً وهو جالس على الأرض كئيب حزين، فقلت: ما الخبر؟، فقال: مات العبد الصالح عمر، لو كان أحد بعد المسيح يحيي الموتى لكان عمر، ثم قال: إني لست أعجب ممن يغلق بابه ويرفض الدنيا، وإنما العجب من الدنيا تحت قدميه وهو يرفضها[1]. إذاً تأكد خلال عهد عمر بن عبد العزيز وجود مراسلات بينه وبين ملك الروم دار جزء منها إذا لم تكن كلها حول فداء الأسرى ومعاناة الأسرى وما قاسوه في الأسر.

وقيل: «بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته ابنة ألف ملك، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والألُوَّة والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً إلى ملك العرب الذي لا يشرك با لله شيئاً، «أما بعد، فإني قد بعثت إليك بهدية، وما هي بهدية ولكنها تحية قد أحببت أن تبعث إلي رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام، والسلام»[2].

«وبعث عمر وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين[3]، وحَقّ يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسِّرُ عليه، وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه، والبطارقة عن يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوا له، فتلقاهم بجميل، وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم.

فلما كان في غداة غدٍ أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره و وضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكَوْا.

فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم، أو له؟ قالوا: نبكي لأنفسنا ولديننا وله، قال: لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه قد خرج إلى خيرٍ مما خلف، قد كان يخاف أن يدع طاعة الله

---

(1) مخطوط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان ج٩ ـ قسم٢ ـ ص١٨٩ـ١٩٠.

(2) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٢ ـ ص٧٢.

(3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٢٠٦.

فلم يكن ا لله ليجمع عليه مخافة الدنيا والآخرة، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه مـا لـو كـان أحـد بعد عيسى يُحْيي الموتى لظننت أنه يُحيي الموتى.

ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشـد حـين خلوته بطاعة مولاه، و لم أعجب لهذا الراهب الذي قد تـرك الدنيـا وعبـد ربـه علـى رأس صومعتـه، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمِهِ فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا.

الفصل السادس

يزيد بن عبد الملك

الفصل السادس

يزيد بن عبد الملك

يزيد بن عبد الملك: هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، ولد سنة (٦٦ هـ ــ ٦٨٥م) وقيل ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين للهجرة. وصف بأنه كان رجلاً جسيماً أبيض مدور الوجه لم يشب أفقم وكنيته أبو خالد، تولى الخلافة بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان[1] وعمره آنذاك تسع وثلاثون سنة.

بعد أن تولى يزيد السلطة عزل أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة واستعمل عليها عوضه عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري[2]، واستقضى عليها مسلمة بن عبد الله بن عبد الإله المخزومي، وأراد معارضة ابن حزم فلم يجد إلى ذلك سبيلاً، ثم شكا عثمان بن حيان إلى الخليفة يزيد من ابن حزم، وأنه ضربه حدين، وطلب منه أن يقيده منه فكتب يزيد إلى عامله على المدينة، انظر فيم ضرب ابن حزم، ابن حيان فإن كان في أمرين أو أمر يختلف فيه فلا تلتفت إليه فأرسل عبد الرحمن بن الضحاك إلى ابن حزم فأمر بضرب حدين في مقام واحد دون أن يسأله عن أي شيء.

---

(1) ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ـ تاريخ ابن خلدون ـ تحقيق: خليل شحادة ـ طبع بيروت ــ ١٩٨١ ــ ج ـ ص .

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٧٤.

ويذكر ابن الأثير[1] أن يزيد بن عبد الملك عمد إلى كل ما صنعه سلفه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافقه فرده من ذلك أن محمد بن يوسف الثقفي كان على اليمن فجعل عليهم خراجاً مجدداً، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على اليمن بالاكتفاء بالعشر ونصف العشر، وترك ما دون ذلك، فلما ولي يزيد أمر بردها وقال لعامله خذها منهم ولو صاروا حرضاً على الإسلام[2]، وفي عهده كان مقتل شوذب الخارجي.

خروج يزيد بن المهلب: عندما عزل سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب عن العراق، وجه على البصرة وأرضها عدي بن أرطأة الفزاري[3]، وأرسل على الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب الأعرج القرشي[4]، في هذا الوقت أرسل عدي والي البصرة في أثر يزيد بن المهلب موسى بن الوجيه الحميري فلحقه عبر جسر البصرة فأخذه فأوثقه وبعث به إلى عمر ابن عبد العزيز، وكان الأخير يكره يزيد بن المهلب وأهل بيته فيسميهم جبابرة، وكان يقول لا أحب مثلهم، بالمقابل كان يزيد بن المهلب يبغض عمر بن عبد العزيز ويقول عنه: إني أظنه مرائياً[5]، عندما استقبله عمر بن عبد العزيز سأله عن الأموال وحبسه بسببها.

بعد ذلك أرسل عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله فوجهه إلى خراسان وأقبل مخلد ابن يزيد من خراسان يعطي الناس كل كورة مر بها فلما قدم على عمر بن عبد العزيز طلب منه إطلاق سراح أبيه إلا أنه لم يوفق ومات مخلد بعد ذلك بوقت قصير.

ورفض يزيد بن المهلب دفع الأموال ، فأمر به عمر بن عبد العزيز فألبس جبة من صوف وحمله على جمل وأمر أن يسيروا به إلى دهلك[1]، فكان يقول مالي عشيرة، إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب، عند ذلك وخوفاً من تحرك عشيرة المهلب وانتزاعه أمر الخليفة بإرجاعه إلى السجن

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٦٧.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٦٨.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٥٦.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٤٣.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٥٧.

[1] دهلك: جزيرة في بحر اليمن، وهي مرسى بلاد اليمن والحبشة، بلد ضيقة حرجة حاره كان بنو أمة إذا سخطوا على أحد نفوه إليها ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٩٢.

فبقي فيه حتى كان مرض الخليفة عند ذلك أخذ ابن المهلب يعمل في الهرب خوفاً من يزيد بن عبد الملك الذي كان قد عذب أصهاره آل أبي عقيل، وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله لئن أمكنه من يزيد بن المهلب لينتقم منه.

أخذ يزيد يعمل للهرب فأرسل إلى مواليه، وأمرهم أن يعدوا له إبلاً، في الوقت الذي كان فيه عمر بن عبد العزيز مريضاً وهو بدير سمعان، فخطط يزيد بن المهلب ونجح في الهروب من السجن قبل موت عمر بن عبد العزيز[1]، وكان خوف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك ولم يكن من عمر بن عبد العزيز، وقد أكد ذلك ابن المهلب عندما كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز: «إني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من حبسي ولكني لا آمن يزيد بن عبد الملك»[2]، ثم لحق بالبصرة في الوقت الذي كان فيه عمر بن عبد العزيز قد مات وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك. فلما تولى يزيد مهامه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن يأمره أن يطلبه، وكتب أيضاً إلى عدي ابن أرطأة يعلمه ويأمره التأهب له، وأخذ من كان بالبصرة من أهل بيته، نفذ عدي بن أرطأة الأوامر فأخذ آل المهلب وأتباعهم فحبسهم وعلى رأسهم أخو يزيد بن المهلب (حبيب ومروان وعبد الملك).

كان يزيد بن المهلب قد مرّ بطريقه بسعيد بن عبد الملك بن مروان، فاستشار يزيد بن المهلب أصحابه في أخذ سعيد بن عبد الملك معه، فقرروا تركه وتوجه بمن معه إلى القطقطانة[3]، فعلم به عبد الحميد بن عبد الرحمن فوجه نحوه هشام بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة في أناس من أهل الكوفة. توجه هشام بمن معه إلى العذيب[4] ومر يزيد بن المهلب قريباً منه ولم يجرؤ على مناوشته فاستمر يزيد في طريقه إلى البصرة، وعاد هشام إلى عبد الحميد.

جمع عدي بن أرطأة أهل البصرة وخندق عليها، في هذا الوقت جمع محمد بن المهلب وهو خارج السجن بعض الرجال وأهل بيته وأتباعهم فخرج بهم فاستقبل يزيد بن المهلب، وكان عدي

---

[1] قيل أن يزيد بن المهلب كان قد هرب من السجن بعد موت عمر بن عبد العزيز.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٦٤.

[3] القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية به كان سجن النعمان بن المنذر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٩٧٤.

[4] العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٩٢.

ابن أرطأة قد عبأ أهلها وبعث على كل خمس من أخماسها رجلاً كالتالي[1]:

خمس الأزد ـ المغيرة بن زياد بن عمرو العتكي.

خمس تميم ـ محرز بن حمدان السعدي.

خمس بكر بن وائل ـ نوح بن شيبان بن مالك بن مسمع.

خمس عبد قيس ـ مالك بن المنذر بن الجارود.

خمس أهالي العالية ـ عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي.

أما يزيد بن المهلب فتقدم نحو البصرة، فاستقبله المغيرة بن زياد بن عمرو في الخيل فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل فأفسح له عن الطريق هو وأصحابه، وتقدم يزيد بن المهلب فدخل البصرة ونزل داره، وقدم عليه أصحابه من أهل البصرة، وعندما استقر أرسل إلى عدي بن أرطأة يطلب منه أن يخلي إخوته من حبسه، على أن يترك هو البصرة، فلم يقبل بذلك، في هذا الوقت كان حميد بن عبد الملك بن المهلب قد توجه إلى دمشق فقابل الخليفة يزيد بن عبد الملك، فأرسل الأخير معه خالد بن عبد الله القسري، وعمر بن يزيد الحكمي، ومعهم أمان ليزيد بن المهلب وأهل بيته[2].

كان يزيد بن المهلب بالبصرة يعطي كل من أتاه من قطع الذهب وقطع الفضة وبذلك كسب الناس، ولحق به عمران بن عامر بن مسمع (من خمس بكر من وائل) ساخطاً على عدي بن أرطأة وانضمت إليه ربيعه وبقية تميم وقيس وبعض أهل الشام فقوي أمر يزيد بن المهلب. وفي هذا الوقت خرج أصحاب عدي بن أرطأة من تميم، فنزلوا المربد[3]، فأرسل ابن المهلب لهم مولى له فحمل عليهم فهزمهم.

بعد ذلك خرج يزيد بن المهلب بقواته فنزل جبانة بني بشكر[4]، فتقابل مع أصحاب عدي بن أرطأة فهزمهم وأقبل يزيد بمن معه حتى اقترب من دار الإمارة، فخرج عدي بقواته يقاتل بهم فقتل

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٧٢.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٨٤.

(3) المربد: اسم موضع ـ والمربد موضع التمر ـ ومربد البصرة من أشهر محالها وكان يكون سوق الابل ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٩٨.

(4) جبانة بني بشكر: الجبانة ـ اسمها المقابر: ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٩٦.

بعض أصحابه وهزم عدي وأصحابه وتقدم يزيد إلى القصر وقد فتح له وأتي بعدي بن أرطأة إلى يزيد بن المهلب وبعد جدل طويل بينهما أمر به فحبس.

ذكرنا أن يزيد بن عبد الملك كان قد أرسل أماناً ليزيد بن المهلب وأهل بيته، فعلم أن يزيد ابن المهلب قد سيطر على البصرة، وقيل كان يزيد بن عبد الملك قد أرسل عبد الرحمن بن سليم الكلبي إلى خراسان[1] عاملاً عليها فلما علم بخروج يزيد بن المهلب كتب إلى الخليفة أن جهاد من خالفك أحب إلي من عملي على خراسان، وطلب منه أن يوليه حرب يزيد بن المهلب.

في هذه المرحلة وثب بالكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على خالد بن يزيد بن المهلب وهو بالكوفة وعلى حمال بن زحر الجعفي فأوثقهما وسرحهما إلى يزيد بن عبد الملك فحبسهما ثم سيرهما إلى دمشق.

ثم إن يزيد بن عبد الملك أرسل رجالاً من أهل الشام إلى الكوفة يسكتونهم ويثنون عليهم بطاعتهم، وبعث العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس جريدة خيل فلما كانوا بالحيرة[2]، بادرهم يزيد بن المهلب، وأرسل يزيد بن عبد الملك أيضاً مسلمة بن عبد الملك في جنود من أهل الشام فأخذ مسلمة على الجزيرة وعلى شاطئ الفرات[3].

بعد أن سيطر يزيد بن المهلب على البصرة بعث عامله على الأهواز وفارس وكرمان ثم خطب في أصحابه وأعلمهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وحثهم على الجهاد وأكد لهم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم والمقصود جهاد الأمويين.

كان يزيد بن المهلب قد جمع إخوته وكبار أصحابه فاستشارهم[4] فكان القرار أن المهلب من العراق إلى فارس فيكون قرب خراسان، فخرج ومعه السلاح والمال فنزل واسط وكان قبل ذلك قد استخلف على البصرة مروان بن المهلب.

سار يزيد بعد أن قدم أمامه أخاه عبد الملك بن المهلب فنزل القصر، وأقبل مسلمة بن عبد

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٨٤.

(2) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٢٨.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٨٥.

(4) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٧٦.

الملك بن مروان فنزل الأنبار[1]، ثم توجه فنزل على يزيد بن المهلب، في هذا الوقت كان يزيد بن المهلب قد بعث أخاه نحو الكوفة، فقابله العباس بن الوليد بسورا[2]، فعبأ كل طرف قواته وحدث قتال بينهم، فهزم أهل الشام، إلا أن هزيم بن أبي طلحة تمكن من إعادة جمعهم وحشدهم وخاض بهم معركة فهزموا عبد الملك بن المهلب، فلحق بأخيه يزيد وهو بمنطقة تعرف بالعقر[3].

في هذا الوقت اجتمع إلى يزيد بن المهلب أناس من الكوفة ومن الجبال ومن الثغور يقودهم المفضل بن المهلب ووزعهم إلى أرباع فكان التوزيع كالتالي[4]:

على أرباع الكوفة ـ وربع أهل المدينة ـ عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المفضل الأزدي

على ربع مذحج وأسد ـ النعمان بن إبراهيم بن الأشتر.

على ربع كندة وربيعة ـ محمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث.

على ربع تميم وهمذان ـ حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي.

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بأهل الكوفة في النخيلة[5]، وقد اتخذ عدة إجراءات منها: إرساله المياه فيما بين الكوفة وبين يزيد بن المهلب، وغايته من ذلك منع ابن المهلب من الوصول إلى الكوفة.

ـ منع أهل الكوفة من الخروج إلى يزيد بن المهلب، وإرسال بعض قوات الكوفة إلى مسلمة ابن عبد الملك، عند ذلك عزل مسلمة بن عبد الملك عبد الحميد بن عبد الرحمن عن الكوفة، وولاها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة[6] (يلقب ذا الشامة).

كان يزيد بن المهلب قد دعا خصومه إلى كتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم. يزعم

---

(1) الأنبار: مدينة قرب بلخ وهي قصبة جوزجان، وقيل: مدينة على الفرات في غربي بغداد وكانت الفرس تسميها فيروز سابور، والأنبار حد بابل كان يقال لها الاهراء ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢٥٧.

(2) سورا: موضع بالعراق من أراضي بابل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٧٨.

(3) العقر: عدة مواضع منها منها عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة ـ والعقر، قرية بين تكريت والموصل، والعقر قرية على طريق بغداد إلى الدسكره، والعقر قلعة حصينة في جبال الموصل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ ج٤ ـ ص١٣٦.

(4) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٧٩.

(5) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٧٨.

(6) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٨٠.

بعضهم أنهم قبلوا ذلك، لكن لا أعتقد أنهم قبلوا بذلك إلا إذا كان في ذلك خدعة.

وكان يزيد بن المهلب يرغب في إرسال بعض قواته مع أخيه محمد بن المهلب ليهاجموا مسلمة ابن عبد الملك، ثم يعمل على إمداده بالرجال، ثم يهاجمه بجمعه، فكان رأي بعض أصحابه: ليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى نرى ما زعموا أنهم قبلوه منا وهو ما دعوناهم إليه كتاب الله وسنة نبيه، فقال يزيد بن المهلب لأصحابه: «أتصدقون بني أمية أنهم يعملون بالكتاب والسنة»[1] أي أن قبولهم بذلك لم يكن إلا خدعةً يكفونكم بها عنهم حتى يعملوا في المكر، وناشدهم يزيد بن المهلب أن يبدؤوا بقتالهم إلا أن أصحابه لم يقبلوا منه.

في هذا الوقت كان مروان بن المهلب، بالبصرة يحث الناس على حرب أهل الشام وكان يسرح الناس إلى أخيه يزيد، علماً أن الحسن البصري كان يثبط عزيمة الناس عن آل المهلب، فلما علم مروان بن المهلب بالحسن البصري وما يفعله هدده وأصحابه حتى كفّ بعضهم عن بعض[2].

مرت ثمانية أيام ويزيد بن المهلب، وخصمه مسلمة بن عبد الملك مقابل بعضهم بعضاً دون قتال، فلما كان يوم الجمعة (١٤ صفر ١٠٢ هـ ـ اغسطس ٧٢٠م). في هذا الوقت أمر مسلمة بن عبد الملك أحد أصحابه واسمه وضاح أن يخرج بأصحابه الوضاحية والسفن فيمزق الجسر فنفذ ما أمر به، ثم عبأ مسلمة قواته فكانت على الترتيب التالي[3]:

الميمنة ـ جبلة بن مخرمة الكندي.

الميسرة ـ الهذيل بن زحر بن الحرث العامري.

وعبأ العباس بن الوليد قواته على النحو التالي:

الميمنة ـ سيف بن هاني الهمداني.

الميسرة ـ سويد بن القعقاع التميمي.

القائد العام ـ مسلمة بن عبد الملك.

أما يزيد بن المهلب فعبأ قواته على النحو التالي فكانت:

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٩٣.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٧٥.

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٥٩٥.

الميمنة ـ حبيب بن المهلب.

الميسرة ـ المفضل بن المهلب ومعه أهل الكوفة ومعه خيل لربيعة وكان مقابل العباس بن الوليد.

نشبت الحرب بين الطرفين وتمكن الوضاح من قطع الجسر، فهزم بعض أصحاب يزيد بن المهلب، فقال: قبحهم الله بق دخن عليه فطار، واستمرت المعركة، وقال: غنم عدا في نواحيها الذئاب، وذكرهم برأيه في مهاجمة أعدائهم لأنهم أصحاب مكر وخديعة ورفضهم لرأيه.

في هذه المرحلة قتل حبيب بن المهلب[1] فهاج لذلك أهله وإخوته خاصةً يزيد، فقال: لا خير في العيش بعد حبيب، وحمل يزيد وقد أخذ أصحابه يتسللون حتى أصبح في قلة منهم فقاتل وكان هدفه الوصول إلى مسلمة بن عبد الملك فقتل يزيد بن المهلب[2]، وقتل معه كبار أصحابه كما قتل محمد بن المهلب، وأرسل برأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك.

علماً أن المفضل بن المهلب كان ما يزال يقاتل وهو لا يعلم بقتل أخيه يزيد ولا بهزيمة الناس، وعندما علم بما حدث من هزيمة الناس وقتل بعض إخوته تفرق أصحابه ومضى المفضل إلى واسط، وقتل الأسرى بعد المعركة وتحرك مسلمة بن عبد الملك فنزل الحيرة.

في هذه المرحلة كان معاوية بن يزيد بن المهلب قد أخرج ثلاثين أسيراً فضرب أعناقهم ومنهم عدي بن أرطأة وابنه، ثم اجتمع آل المهلب بالبصرة ومعهم المال والخزائن، وقد أعدوا السفن، وتجهزوا. علماً أن يزيد بن المهلب قبل أن يقتل كان أمر وداع بن حميد الأزدي بالتوجه إلى قندابيل أميراً[3]، وقال له: إذا أنا قتلت فإن أهل بيتي يقدمون عليك فيتحصنون عندك حتى يأخذوا أماناً.

ذكرنا أن آل المهلب اجتمعوا بالبصرة فركبوا السفن وساروا حتى كانوا بكرمان وهناك خرجوا من سفنهم ونزلوا كرمان. عندما علم مسلمة بن عبد الملك بهروب آل المهلب كلف مدرك ابن ضب الكلبي في طلبهم، فأدرك المفضل بن المهلب ومن معه بفارس، فعطفوا عليه فقاتلوه فقتل

---

(1) ابن الأثير ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ج٥ ـ ص٨٤.

(2) أحمد بن زيني دحلان ـ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ـ طبع دمشق ١٩٩٨ ـ ج١ ـ ص٢٠٣.

(3) قندابيل: مدينة بالسند وهي قصبة الولاية يقال لها النُدهة، كانت فيها وقعة لهلال بن أحوز المازني على آل المهلب ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٠٤.

مع المفضل بعض أصحابه وهرب ثم طورد فلحق وأخذ[1] وقتل وحمل رأسه إلى مسلمة بن عبد الملك.

وما بقي من آل المهلب فحضروا إلى قندابيل. في هذا الوقت كلف مسلمة بن عبد الملك هلال بن أحوز التميمي عوضاً عن مدرك بن ضب بملاحقتهم، فلما وصل آل المهلب إلى المدينة منعهم وداع بن حميد وهو أميرها، وكاتب هلال بن أحوز صاحب المدينة وداع وجرت معركة قصيرة قتل فيها آل المهلب و لم ينج منهم إلا أبو عتبة بن المهلب، وعثمان بن المفضل حيث توجها إلى خاقان ورتبيل. وأرسل رؤوس الذين قتلوا منهم إلى مسلمة بن عبد الملك، فبعث بهم إلى يزيد ابن عبد الملك فأرسل الأخير بهم إلى العباس[2] بن الوليد بن عبد الملك، وهو على حلب[3] لتصلب على الجدران.

بعد ذلك ولي مسلمة بن عبد الملك على العراق وخراسان[4] فأقر على الكوفة ذا الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقام بأمر البصرة – بعد أن خرج آل المهلب – شبيب بن الحارث التميمي – فلما ولي مسلمة بعث عليها عبد الرحمن بن سليم الكلبي، وعلى شرطتها وأحداثها عمر بن يزيد التميمي، ثم عزل عبد الرحمن بن سليم عن البصرة وولى عوضه بن بشر بن مروان، كما وجه مسلمة بن عبد الملك سعيد خذينة (سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص) على خراسان علماً أن سعيد خذينة كان ختن مسلمة على ابنته.

ثم إن سعيد خذينة كان قد عين شعبة بن ظهير على سمرقند، ثم عزله وولى حربها عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير، وولى الخراج سليمان بن أبي السري، واستعمل على هراة معقل بن عروة القشيري و وصف سعيد خذينة بأنه كان ضعيفاً ولقب خذينة لأنه كان ليناً سهلاً وخذينة هي الدهقانة ربة البيت، وكان ضعفه هذا سبباً في طمع الترك - وعليهم كورصول – في محاربة العرب المسلمين. ثم عزل مسلمة بن عبد

(1) اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٣١١ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٧٩، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٥٩٠

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٨٦.

(3) حلب - مدينة واسعة كانت قصبه جند قنسرين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٨٢.

(4) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٦٠٤.

الملك عن العراق وخراسان[1]، ويعتقد أن سبب عزله هو عدم تقديم أي شيء للعاصمة المركزية من الخراج، فولى عوضه عمر بن هبيرة. ثم إن يزيد بن عبد الملك بايع لأخيه هشام بن عبد الملك ثم بعده لابنه الوليد بن يزيد[2] وكان ذلك عندما وجه الجيوش لحرب يزيد بن المهلب.

وفي عهد يزيد بن عبد الملك ظهر أمر الدعوة العباسية بخراسان، حيث أعلم عمر بن بجير بن ورقاء السعدي - وهو من بني تميم - سعيد خذينة بأن ها هنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح فأرسل إليهم سعيد فأتي بهم، فسألهم من أنتم فقالوا له تجار، فقال لهم ما الذي يحكى عنكم، قالوا لا ندري قال: جئتم دعاة فقالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً، فسأل من يعرفهم فقدم أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة اليمن، فقالوا نحن نعرفهم وكفلوهم فخلى سبيلهم[3].

أما في أفريقية فكان عليها إسماعيل بن عبيد الله فعزله يزيد بن عبد الملك و ولى عوضه يزيد ابن أبي مسلم وكان كاتباً للحجاج فأراد أن يسير بهم سيرة الحجاج فتآمروا عليه وتم قتله وولوا عليهم محمد بن يزيد مولى الأنصار، وأعلموا الخليفة يزيد بن عبد الملك بذلك فأقر الوالي الذي عينوه.

في العراق ذكرنا أن الخليفة يزيد كان قد ولى عمر بن هبيرة العراق وخراسان سنة (١٠٢ هـ - ٧٢٠م) فلما تسلم مهامه من العراق عزل سعيد خذينة[4] عن خراسان سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م)، واستعمل عوضه سعيد الحرشي (سعيد بن عمرو بن الأسود بن مالك بن كعب بن وقدان بن الحريش) علماً أن خذينة أثناء عزله كان بباب سمرقند يغزو فلما علم بذلك خلف بسمرقند ألف فارس وعاد.

ثم إن يزيد بن عبد الملك أراد عزل أخيه مسلمة فكتب إليه أن استخلف على عملك وأقبل وقيل إن مسلمة بن عبد الملك كان قد قرر زيارة أخيه يزيد فلما بلغ

---

[1] اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - ج٢ - ص٣١١، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٦١٥، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٩٧.

[2] ابن قتيبة - المعارف - ص٣٦٥.

[3] مؤلف مجهول - أخبار الدولة العباسية - ص .

[4] كان سبب عزله عن خراسان هو ضعفه ولينه والشكوى منه.

دورين[1] لقيه عمر بن هبيرة على خمس (وقيل خمسين) من دواب البريد، فدخل ابن هبيرة على مسلمة فسأله ابن مسلمة إلى أين يابن هبيرة فقال له: أرسلني أمير المؤمنين لجباية أموال بني المهلب ثم ذهب ابن هبيرة إلى عمله وقد استخلفه على العراق وكان سبب عزل مسلمة كما يذكر المؤرخون هو (أن مسلمة عندما كان والياً على العراق وخراسان لم يرفع من الخراج شيئاً فأراد يزيد ابن عبد الملك عزله فتم ذلك.

ثم إن يزيد بن عبد الملك عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة[2] ومكة سنة (١٠٤هـ ـ ٧٢٢م) وولى عوضه عبد الواحد النضري، وكان سبب عزله أن عبد الرحمن خطب فاطمة بنت الحسين فرفضت فألح عليها وهددها بجلد ابنيها في الخمر، أثناء ذلك أعلم يزيد بن عبد الملك بذلك فغضب يزيد وقال: لقد اجترأ ابن الضحاك. وطلب رجلاً يوليه عوضه على أن يعذبه فولى عبد الواحد بن عبد الله النضري، وكتب إليه أن أعزل ابن الضحاك وأغرمه أربعين ألف دينار وعذبه حتى أسمع صوته.

كما عزل يزيد بن عبد الملك في العام نفسه سعيد الحرشي عن خراسان وولاها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعه الكلابي، وكان سبب عزله أنه كان يستخف بابن هبيره، وأمر ابن هبيره عامله الجديد أن يأخذ الحرشي ويقيده ويوجهه إليه.

أخيراً وصف ابن عساكر يزيد بن عبد الملك بأنه كان مطعوناً عليه في دينة، فسمع المؤذن يؤذن، فقال: إن كنت كاذباً، فلا مت إلا مسلماً، وان كنت صادقاً فلا مت إلا موحداً، ويلك إنما شهادتك على شهادة معلمك وسماعك[3] ثم قال لجارية له: غني بشعري، هو ديني واعتقادي قال فغنت:

تذكرني الحساب ولست أدري ... أحقاً ما تقول في الحساب
فقل لله يمنعني طعامي ... وقل لله يمنعني شرابي

فلما غنت قال: أحسنت، هذا ديني.

---

(١) دورين: لعلها دوران ـ موقع خلف جسر الكوفة كان به قصر لاسماعيل القسري، بن خالد القسري أمير الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٤٨٠.

(٢) عارف عبد الغني ـ تاريخ أمراء مكة المكرمة ـ طبع سوريا ـ ١٩٩٢ ـ ص .

(٣) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٥ ـ ص .

وقال: كانت في المدينة جارية لآل أبي رمانة أو لآل ابن تفاحة، يقال لها سلامة، قال: فكتب فيها يزيد بن عبد الملك، تشترى له، فقال: فاشتريت بعشرين ألف دينار. وقيل: لما مات عمر بن عبد العزيز، قال يزيد بن عبد الملك: وا لله ما عمر بن عبد العزيز بأحوج إلى ا لله مني، قال: فأقام أربعين ليلة يسير بسيرة عمر، فقالت حبابة: لخصي له كان صاحب أمره: ويحك قربني منه حيث يسمع كلامي، ولك عشرة آلاف درهم، فلما مر يزيد بها قالت[1]:

بكيت الصِّبا جهداً فمن شاء لامني ... ومن شاء آسى في البكاء وأسعَدَا
ألا لا تَلُمْهُ اليومَ أن يَتَبلَّدا ... فقد منع المحزونُ أن يتجلَّدا

فلما سمعه يزيد قال: ويحك قل لصاحب الشرط أن يصلي بالناس، وقال يوماً: وا لله اني لأشتهي أن أخلو بها يوماً ولا أرى أحداً غيرها، فأمر ببستان له وأمر حاجبه ألاّ يعلمه بأحد، فقال: فبينما هو معها أسر الناس بها إذ حذفها بحبة رمان أو بعنبة وهي تضحك، فوقعت في فيها، فشرقت فماتت فبقيت عنده في البيت حتى جيفت أو كادت، ثم خرج بها فدفنها فأقام أياماً ثم خرج عليه الغم ثانيةً حتى وقف على قبرها فقال[2]:

فان تَسلُ عنك النفس أو تترك الصبا ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلدِ
وكلُّ خليلٍ لامني فهو قائلٌ: ... من أجلكِ هذا هامةُ اليوم أو غد

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرجت نفسه.

يذكر عن يزيد هذا أنه كان قبل توليه الخلافة قد حج فاشترى جارية اسمها حبابة (العالية) بأربعة آلاف دينار من عثمان بن سهل، فغضب سليمان بن عبد الملك، فردها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر، فقالت سعدة زوجة يزيد: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه بعد؟ قال: نعم حبابة، فأرسلت من يشتريها، فقدمتها ليزيد، وقيل إن يزيد هوى ليطير، فقالت له حبابة: يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة، وقيل قالت له: إلى من تدع الأمة، ثم ماتت حبابة فمكث بعد موتها سبعة أيام لا

---

[1] جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ تقديم: حسين مؤنس ـ بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص٩٣، البلاذري ـ جمل من كتاب أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٢٦٢.

[2] ابن واصل الحموي ـ تجريد الأغاني ـ القسم الأول ـ ج٣ ـ ص١٠٠٠.

يخرج إلى الناس، وكان له جارية أخرى تذكرها كتب التاريخ والأدب اسمها سلامة، وقد رثته بقصيدة يمكن العودة إليها واخبارها عند الأصفهاني في كتابه الأغاني.

اختلف المؤرخون في ميلاد يزيد بن عبد الملك، فقيل ولد سنة (٦٦هـ ــ ٦٨٥م)، وقيل ولد سنة إحدى أو اثنتين وسبعين للهجرة، وقيل إن عمره يوم ولي الخلافة كان تسعاً وعشرين سنة، ففي الحالة الأولى يكون عمره يوم ولي الخلافة أربعاً وثلاثين سنة، وفي الحالة الثانية يكون عمره تسعاً وعشرين أو ثلاثين سنة، واختلف في مدة حكمه إلا أن المشهور في ذلك هو أنه ولي أربع سنين وشهراً، واختلف في وفاته أيضاً، والمتفق عليه هو أنه توفي لخمس بقين من شعبان سنة (١٠٥هـ ــ يناير ٧٢٤م).

الاحتكاك الحربي في عهد يزيد الثاني: ذكرنا تولية سعيد خذينة[1] خراسان ولينه فاستضعفه الناس وطمعت الترك به وكان سبب تعيين خذينه أن ملك ابغر كان قد دخل عليه وهو في ثياب مصبغة، وحوله مرافق مصبغه، فلما خرج من عنده سألوه كيف رأيت الأمير قال خذينة فلقب بذلك.

في الشرق: غزو الترك والصغد سنة (١٠٢ هـ ــ ٧٢٠م): بعد ذلك عزل سعيد خذينة شعبة بن ظهير عن سمرقند، وولى حربها عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير وولى الخراج سليمان بن أبي السري، واستعمل على هراة معقل بن عروة القشيري. في هذه المرحلة طمع الترك بالعرب هناك لضعف أميرهم، فجمع خاقان الترك ووجههم إلى الصغد يقودهم كورصول، فأقبلوا حتى نزلوا القصر الباهلي، وقيل إن أحد الدهاقنة رغب أن يتزوج امرأةً من أهله كانت داخل القصر آنذاك، فأبت عنه، فأقبل كورصول إلى القصر فحاصره وفيه مائة من أهل البيت بذراريهم، فكتب أهل القصر إلى عثمان بن عبد الله والي سمرقند يطلبون منه النجدة، إلا أنهم خافوا من تأخر المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً، وأعطوهم سبع عشرة رهينة عندما علم عثمان بن عبد الله بذلك ندب الناس، فانتدب المسير بن بشر الرياحي، وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل، وفيهم شعبة بن ظهير، وثابت فطنة، وغيرهم من الفرسان، فلما اجتمعوا قال لهم المسيب: «إنكم تقدمون على حلبة الترك وعليهم خاقان، والعوض إن صبرتم الجنة، والعقاب إن فررتم النار، فمن أراد الغزو

[1] كان سعيد خزينة أثناء ذلك متزوجاً من ابنة مسلمة.

والصبر فليتقدم»[1]. عند ذلك رجع ألف وثلاثمائة منهم، وبعد أن سار بهم مقدار فرسخ وكرر عليهم قوله السابق، فاعتزلته ألف أخرى، ثم سار مقدار فرسخ آخر وكرّر قوله فاعتزلته ألف أيضاً فبقي في سبعمائة منهم.

وبعد فرسخين من مسيرهم أتاهم خاقان ملك الترك فأخبرهم أن كل الدهاقنة بايعوا الترك ولم يبق غيره ومعه ثلاثمائة مقاتل، فانضم إليهم وأخبرهم بما فعله الترك بأهل القصر وصلحهم[2] معهم وأخبرهم: أن الترك عندما علموا بمسيركم إليهم فقتلوا الرهائن إلا نهشل بن يزيد الباهلي فقد نجا من القتل والأشهب بن عبيد الله الحنظلي، وقد قرر الترك مهاجمة القصر في الغد أو أن يفتحوا لهم القصر ويستسلموا، عند ذلك أرسل المسيب رجلين فارسين أحدهما عربي والآخر من العجم، وأمرهما إذا اقتربتما من عدوكم فشدا خيلكما بالشجر، ثم استطلعا ما استطعتما من الأخبار عن عدوكم.

توجه الرجلان في ليلة مظلمة لتنفيذ مهمتهما، علماً أن الترك كانوا قد أجروا الماء في نواحي القصر لمنع الوصول إليه، فلما دنَوا من القصر دعوَا عبد الملك بن دثار وأعلماه أن المسيب أرسلهما لكي يعلموا أنه في طريقه إليهم، فقال لهما: إنا أجمعنا في القصر على تقديم نسائنا إلى الموت أمامنا حتى نموت جميعنا غداً، ثم رجع الرسولان إلى المسيب فأخبراه، فقال المسيب لمن معه: إني سائر للجهاد وردع العدو، فمن رغب أن يذهب معي فليذهب، فلم يفارقه أحد وبايعه من معه على الموت، فلما اقتربوا من القصر قرروا أن يهاجموا عدوهم ليلاً، وفي الليل أمر أصحابه بالاستعداد، وحثهم على الصبر، وكان شعارهم يا محمد، وأمرهم أيضاً ألا يتعقبوا فاراً، وأن يعقروا دواب عدوهم لأن في ذلك إضعافاً للخصم.

ثم عبأ قواته، فجعل على ميمنته كثير الدوسي، وعلى ميسرته ثابت قطنة فلما اقتربوا من عدوهم كبّروا وذلك في السّر، ففاجؤوا العدو وخالطوهم فعقروا الدواب، وصبر الترك في حربهم هذه، إلا أن الترك هزموا فلم يتبعهم العرب[3] وقرروا قصد القصر[4] على أن لا يحملوا منه شيئاً من المتاع إلا المال. فقصد الجميع القصر فحملوا من كان فيه وعادوا نحو سمرقند، وفي الغد رجع الترك

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٦٠٩.

[2] أحمد بن زيني دحلان ـ الفتوحات الإسلامية ـ ج٢ ـ ص٢٠٥.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٦١٠.

[4] القصر المقصود به لعله القصر الباهلي ـ أو القصر الذي بناه اسماعيل القسري أو قصر يزيد بن هبيرة.

إلى القصر فلم يجدوا فيه أحداً ورأوا قتلاهم.

غزو السغد[1] (١٠٢هـ - ٧٢٠م): ثم إن سعيد خذينة قرر غزو السغد فقطع النهر قاصداً الغزو فلقيه الترك وطائفة من أهل السغد فهزمهم العرب، ولم يطاردوهم ثم ساروا إلى وادٍ بينهم وبين المرج، فقطعه بعضهم وقد كمن لهم الترك، فلما قدم العرب خرجوا عليهم فهزموهم إلى الوادي فصبروا لهم حتى انكشفوا عنهم فلم يتبعوهم. وقال ابن الأثير[2] في أحداث سنة (١٠٢ هـ - ٧٢٠م) إن عمر بن هبيرة كان قد غزا الروم من ناحية أرمينية، وكان على الجزيرة قبل أن يولّى العراق فهزمهم، وقال الطبري[3] في أحداث سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م) إن العباس بن الوليد قد غزا الروم، ففتح مدينة يقال لها رسلة[4]، وفي العام نفسه أغارت الترك على السلان.

سعيد الحرشي: ذكرنا أن عمر بن هبيرة ولى سعيد الحرشي خراسان بأمر من الخليفة يزيد ابن عبد الملك فقدم الحرشي إلى خراسان، والناس بإزاء العدو وقد نكبوا فجمع قواته وحثهم على الجهاد، وذكرنا أن أهل الصغد كانوا قد أعانوا الترك أيام سعيد خذينه، فلما قدم الوالي الجديد خافوا فأجمع قادتهم على الخروج من الصغد، وخرجوا إلى خجندة، وأرسلوا إلى ملك فرغانة يطلبون منه أن يمنعهم وينزلهم معه في مدينته، فوافقهم على أن ينزلوا رستاقا، إلا أنه أخبرهم أنه غير مسؤول عما يجري لهم قبل وصولهم إليه.

أما سعيد الحرشي أمر قواته بالحركة سنة (١٠٤هـ - ٧٢٢م)، فنزل قصر الريح قرب الدبوسية[5]، في هذا الوقت قدم على الحرشي ابن عم ملك فرغانة وأخبره أن أهل الصغد بخجندة وأخبره خبرهم، وأشار عليه أن يعاجلهم قبل أن يعبروا إلى الشعب، عند ذلك وجه الحرشي مع ابن عم ملك فرغانة عبد الرحمن القشيري، وابنه زياد في جماعة، وقرر التحرك في أثرهم فنزل أشروسنة فصالح أهلها، ثم سار فلحق بالقشيري، وتحرك الجميع إلى خجندة.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٩٥، الطبري - تاريخ الطبري - ج٦ - ص٦١٢.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٠١.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٦١٩.

(4) يذكرها ابن الأثير، ويذكر أن غزوها كان عام ١٠٢ هـ.

(5) الدبوسية: بلد من أعمال الصغد من ماوراء النهر - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٣٧.

كان أهل خجندة قد حفروا في ربضهم خلف الباب الخارجي خندقاً غطوه بـالقصب وعلّوه بالتراب مكيدةً لهم، فلما خرجوا للقتال انهزموا وأخطؤهـم الطريـق فسقطوا في الخنـدق، وحصرهـم الحرشي ونصب عليهم آلات الحصار، فطلبوا من الحرشي الأمان والصلح علـى أن يردهـم إلى الصغـد، فاشترط عليهم أن يردوا ما بأيديهم من نساء العرب وذراريهم، وأن يؤدوا ما كسروا من الخراج.

ثم وجه الحرشي سليمان بن أبي السري إلى حصن يطيف به وادي الصغد إلا من وجه واحدٌ ومعه خوارزم مشـاه وأصحـاب آخـرون وشـومان، فسيّر سليمان علـى مقدمتـه المسيـب بـن بشـر الرياحي، فتلقوه على بعد فرسخ فهزمهم إلى حصنهم وحصرهم، حتى نـزل صـاحب الحصـن علـى حكم الحرشي فسيّر إليه وطلـب أهـل الحصـن الصلـح، علـى ألا يتعـرض أحـد لنسـائهم وذراريهـم ويسلموا الحصن فتمّ ذلك.

ثم إن الحرشي سار إلى كس فصالحه أهلها على عشرة آلاف رأس، (وقيـل ستة آلاف)، ثـم سار إلى زرنـج[1] (زبجن)، بعـد أن استعمل سـليمان بـن أبـي السـري علـى كـس ونسـف حربهـا وخراجها، فصالحه أهلوها، ورجع الحرشي إلى خراسان.

حرب الخزر[2]: وفي عهد يزيد بن عبد الملك دخل العرب المسلمون بلاد الخزر من أرمينيـة[3]، فاجتمعت الخزر وأعانهم قفجات، وغيرهم من أنواع الترك، فـالتقوا مـع العرب المسـلمين في مـرج الحجارة وعليهم ثبيت النهراني، فاقتتلوا هناك فهزم العرب، وغنِـم الخـزر جميـع مـا في معسـكرهم، وأقبل العرب المنهزمون إلى الشام، فطمع الخزر في البلاد.

عند ذلك استعمل يزيد بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وأمـده بجيـش وأمره بغزو الخزر، توجه الجراح بقواته، فلما علم الخزر بذلك تراجعوا، فنزلوا باب الأبواب[4]، فلما وصل الجراح إلى برذعة عسكر فيها قليلاً للاستراحة، ثم توجه إلى الخزر فعبر نهر الكر، أثنـاء ذلـك علم الجراح أن في قواته جواسيس يراسلون الخزر وهم من أهل تلك الجبال، وقد أخبروا الخـزر بـأن الحرشي في طريقه إليهم، عندها أمر الجراح قواته بالإقامة مكيدةً منـه، فكتـب الجواسـيس إلى ملـك الخزر يعلمـونه بذلك، فلما حـان الليل أمر الجراح بالرحيل، وسار مجداً حتى انتهى إلى مدينة الباب

---

[1] زرنج: مدينة هي قصبة سجستان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٣٨.

[2] أحمد بن زيني دحلان ـ الفتوحات الإسلامية ـ ج١ ـ ص٢٠٩.

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١١٠.

[4] أحمد بن زيني دحلان ـ الفتوحات الإسلامية ـ ج١ ـ ص٢١٠.

والأبواب فلم ير الخزر، فدخل البلد ثم بثّ سراياه في النهب والإغارة فغنموا وعادوا.

أثناء ذلك سار الخزر إليهم يقودهم ابن ملكهم فالتقوا مع العرب عند نهر الزاب[1]، فاقتتلوا واشتد القتال فهزِمَ الخزر، وتبعهم العرب يقتلون ويأسرون، ثم توجه العرب إلى حصن الحصين، فطلب أهله الأمان فأجابهم الجراح ونقلهم عنه.

ثم سار الجراح إلى مدينة برغوا (برعوا أبو برغر) فأقام عليها ستة أيام، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منها، ثم سار الجُراح إلى بلنجر فنزله وكان أهله قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها.

أمام الموقف الراهن قرر الجراح تكوين مجموعة انتحارية قوامها ثلاثون رجلاً، فتقدموا نحو العجلات، فوصلوا إليها رغم المقاومة العنيفة، وقطعوا الحبل الذي يمسكها وخربوها فانحدرت، ثم اقتتل الطرفان واشتد القتال، فانهزم الخزر واستولى العرب على الحصن عنوةً وغنموا جميع ما فيه في ربيع الأول سنة (١٠٤هـ ـ اغسطس ٧٢٢م). سار الجراح بعد ذلك فنزل حصن الويندر (الرينـدر) وبه كما يذكر ابن الأثير[2] نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجراح على مال يؤدونه.

في الغرب: فيذكر ابن الأثير[3] أن يزيد بن عبد الملك كان قد عزل إسماعيل بن عبيد الله عن أفريقية واستعمل عوضه يزيد بن مسلم كاتب الحجاج سنة (١٠١هـ ـ ٧١٩م)، وعزم الوالي الجديد أن يسيرهم بسيرة الحجاج بأهل الإسلام، فلما عزم على ذلك اجتمع رأي الناس على قتله فقتلوه وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان قبله وهو محمد بن يزيد، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك، إنّا لم نخلع أيدينا من طاعته ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا حالاً لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه، وأعدنا عاملك، فردّ عليهم: إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر الوالي الجديد.

أما في الأندلس فقد كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي[4] والياً على الأندلس سنة (١٠٢هـ

---

(1) الزاب: هو زاب بن توركمان بن منوشهر حفر عدة أنهر بالعراق فسميت باسمه ـ وهي الزاب الأعلى والزاب الأسفل ـ ياقوت الحموي معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٢٤.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١١٢.

(3) المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٧٧.

(4) الحميري ـ جزوه المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ـ ص .

ـ ٧٢٠م)، واستمرت ولايته شهرين ونصف، ووصف بأنه كان من كبار الجند، ويذكر عنه أنه ترك الحكم من نفسه، ويذكر أيضاً أن عنبسة بن سحيم الكلبي[1] تولى السلطة في الأندلس في صفـر سـنة (١٠٣هـ ـ يوليه١٧٢١م) .

(1) القرطبي ـ أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب القرطبي ـ المقتبس من أبناء أهل الأندلس ـــ تحقيق محمد علي مكية ـ طبع مصر ١٩٧١ ـ ص .

الفصل السابع

هشام بن عبد الملك

الفصل السابع

هشام بن عبد الملك

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي، وقيل اسمها عائشة وقيل مريم، وكانت كما يذكر عنها حمقاء، له دار بدمشق عند باب الخواصين. استخلف[1] لليال بقين من شعبان سنة (١٠٥هـ - ٧٢٤م)، وقيل استخلف يوم الجمعة بعد موت أخيه لخمس بقين من شعبان سنة (١٠٥هـ - ٧٢٤م)، وعمره أربع وثلاثون سنة، وولد سنة (٧٢هـ - ٦٩١م) يوم قتل مصعب بن الزبير، وقيل أتته الخلافة، وهو بالزيتونة[2] في دار له هناك، وقيل جاءه البريد بالعصا والخاتم، فسلم عليه بالخلافة وكان بالرصافة[3]، فتوجه إلى دمشق، وكان يكنى أبا الوليد[4].

«شكا هشام إلى أبيه ثلاثاً إحداها أنه يهاب الصعود إلى المنبر، والثانية قلة تناول الطعام، والثالثة أن عنده في القصر مائة جارية من حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن. فكتب إليه أبوه: أما صعودك إلى المنبر فإذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى مؤخر الناس فإنه أهون عليك، وأما

---

(1) القرماني - أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي الشهير بالقرماني - أخبار الدول - طبع بيروت - بلا تاريخ - ص٣١٨-٣١٩.

(2) الزيتونة: موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٦٣.

(3) الرصافة: في مواضع كثيرة - الرصافة هنا رصافة الشام - رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٤٧.

(4) المزي - جمال الدين أبي الحاج يوسف المزي - تهذيب الكمال في أسماء الرجال - تحقيق بشار معروف عواد - طبع بيروت - ١٩٨٣م - ج - ص .

قلة الطعام فمُرْ الطباخ فليكثر الألوان فلعلك أن تتناول من كل لون لقمة، وعليك بكل بيضاء بضة، ذات جمال وحسن»[1].

وصفه ابن كثير[2] بأنه كان جميلاً أبيض يخضب بالسواد، ووصف بالبخل حيث يذكر البلاذري[3] أحاديث كثيرة عن ذلك ولا داعي لذكرها. وقيل كان في خلافته حازم الرأي، جمّاعاً للأموال، بخيلاً، وكان ذكياً مدبراً[4] له بصر بالأمور جلّها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة وذكر عنه أنه شتم رجلاً من الأشراف فقال له: أتشتمني وأنت خليفة الله على الأرض[5]، فاستحيا. وقيل عنه[6]: لم يكن أحد من بني مروان أشد نظراً في أصحابه ودواوينه، ولا أشد مبالغةً في الفحص عنهم من هشام، وذكره عبد الله بن علي العباس فقال: جمعت دواوين بني أمية فلم أر[7] أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

وكان على شرطة هشام كعب بن حامد العبسي ثلاث عشرة سنة، ثم عزله وولاه أرمينية بعد الجراح بن عبد الله الحكمي[8]، وولى الشرطة يزيد بن يعلى العبسي، وولى الرسائل سالم بن عبد الرحمن مولى سعيد بن عبد الملك بن مروان، وقيل كان المنذر بن عبد الملك، وولى الحرس مولاه نصر ثلاث سنين، ثم ولى الحرس الربيع بن شابور مولى بني الحريش، وولاه أيضاً خاتم الخلافة، وولى ديوان الخراج والجند أسامة بن زيد، ثم عزله وولى ابن الحبحاب، ثم ولى ابن الحبحاب مصر[9]، فولى عوضه ديوان الخراج، والجند سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب.

كان هشام[10] أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل وقد اشترك في سباق أجري

---

(1) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٣٦٧.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص٣٦٦.

(4) **محمد سهيل طقوش ـ تاريخ الدولة الأموية ـ طبع دمشق ١٩٩٨ ـ ص١٥١.**

(5) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٣٧١.

(6) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٣٦٧.

(7) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(8) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٣٦٩.

(9) **الكندي ـ أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ـ ولاة مصر ـ طبع بيروت ـ ١٩٨٧ ـ ص٦٤.**

(10) **محمد كامل علوي ـ الرياضة البدنية عند العرب ـ طبع مصر ١٩٤٧ ـ ص١٠٦.**

في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء وقيل إنه لم يسبق لهذا السباق مثيل علماً أن السباق في العصر الأموي كان تسلية للشعب على اختلاف طبقاته حتى إن الأميرات الأمويات في ذلك العهد كن يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق. قال المسعودي كان هشام بن عبد الملك «يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، و لم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس»[1].

وكان في موكب هشام ثمانمائة فارس[2]، أربعمائة من الشرط، وأربعمائة من الحرس، و لم يكن أحد يسير في موكب إلا مسلمة بن عبد الملك، و لم يكن أحد من بني مروان يأخذ عطاءً إلا وعليه الغزو فمنهم من كان يغزو، ومنهم من كان يخرج بديلاً.

عمل هشام جاهداً على تأمين الخدمات العامة بشكل عام ففي دمشق سأله أهل قرية حرستا الماء للشرب والمسجد فأمر بحفر نهر صغير يجري إلى مسجدهم للشرب لا لغيره، وفتح الحجر الذي يمر منه الماء بقرية حرستا فتراً في فتر مستدير، يجري لهم من الأرض على مقدار شبر من ارتفاع بطن النهر. وشكا أهل بردى قلة الماء إلى هشام فأمر القاسم بن زياد ـ وكان على الغوطة من قبل هشام وكان أيضاً صاحب المساحة وإليه ينسب الذراع القاسمي ـ أن يماز الأنهار فمازها.

ـ فأعطى أهل نهر يزيد ست عشرة مسكبة.

ـ أعطى الغور الكبير عشر مساكب.

ـ والغور الصغير: خمس مساكب.

ـ ونهر داريا: ست عشرة مسكبة.

ـ ونهر ثوره: اثنتين وأربعين مسكبة وفيه يومئذ أربع عشرة ماصية تسقي ليس عليها رحا.

ـ نهر قينية: إحدى عشرة مسكبة.

ـ نهر باناس: ثلاثين مسكبة، ومسكبة فيه حملت ليزيد بن أبي مريم مولى بني الحنظلية، وثلاث مساكب للفضل بن صالح بن صالح الهاشمي حملت فيه من بعد.

ـ نهر بجذول: اثنتي عشرة مسكبة.

ـ نهر داعية: ثلاث عشرة مسكبة.

---

(1) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٢٢٨.

(2) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٨ ـ ص٣٦٩.

- نهر حيويه (نهر الزلف): اثنتي عشرة مسكبة.
- نهر التوما العليا: خمس مساكب.
- نهر التوما السفلى: أربع مساكب.
- نهر الزابون: أربع مساكب.
- نهر الملك: أربع مساكب.

بعد أن تسلم هشام الخلافة عزل عمر بن هبيرة عن العراق والشرق، وولى عوضه خالد بن عبد الله القسري[1] في شوال سنة (١٠٥هـ - مارس٧٢٤م)، وعزل عبد الواحد بن عبد الله عن المدينة وعن مكة والطائف، وولى مكة خالد إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي[2]، فقدم المدينة يوم الجمعة في يوم (١٧ جمادى الآخرة ١٠٦هـ - أكتوبر٧٢٤م).

في عهد هشام بن عبد الملك كانت الحرب بين اليمانية والمغاربة، وربيعة بالبروقان[3] من أرض بلخ، وكان السبب في هذه الفتنة أن والي خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم كان قد غزا فتباطأ الناس عنه، منهم البختري بن درهم، فما كان من مسلم إلا أن وجه نصر بن سيار وغيره إلى بلخ وأمره أن يخرج الناس، فلما وصل أحرق باب البختري، وزياد بن طريف الباهلي، فمنعهم عمرو بن مسلم من دخول بلخ وكان عليها.

وكان مسلم بن سعيد قد قطع النهر، ونزل نصر بن سيار البروقان، وأتاه أهل الصغانيان[4] ومسلمة التميمي، وحسان بن خالد الأسدي وغيرهما، وتجمعت ربيعة والأزد بالبروقان على نصف فرسخ من نصر بن سيار، وخرجت مضر إلى نصر، وخرجت ربيعة والأزد إلى عمرو بن مسلم، وأرسلت تغلب إلى عمرو بن مسلم تقول: إنك منّا. في هذا الوقت سعى الضحاك بن مزاحم،

---

(1) الكتبي - محمد بن شاكر الكتبي - فوات الوفيات والذيل عليها - تحقيق إحسان النص - طبع بيروت - ١٩٧٣ - ج - ص ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٢٤، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٦، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٤٣.

(2) ابن عبد البر القرطبي - الاستيعاب - ج - ص - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٧، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٤٣، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٣٣.

(3) البروقان: قرية من نواحي بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٠٥.

(4) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٠.

ويزيد بن المفضل الحداني في الصلح وكلّما نصراً. بعد ذلك حمل أصحاب عمرو بن مسلم والبختري على نصر، وكرّ نصر عليهم، فهزم عمرو بن مسلم، وأرسل يطلب الأمان من نصر فأمنه وأمرهم أن يلحقوا بمسلم بن سعيد.

بعد أن تسلم خالد بن عبد الله العراق والمشرق ولى أخاه أسد بن عبد الله خراسان، فقدمها ومسلم بن سعيد بفرغانة، توجه أسد إلى السند فنزل مرجها، وعلى خراج سمرقند هاني بن هاني فاستقبل أسداً، ثم ركب أسد فدخل سمرقند وأرسل يعلم مسلم بن سعيد بالأمر فقفل الناس، ثم إن أسداً توجه إلى مرو، فاستعمل على سمرقند الحسن بن أبي العمر طه الكندي.

واستعمل هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦هـ - ٧٢٤م) على الموصل، الحر بن يوسف بن يحيى ابن الحكم ابن أبي العاص، فبنى المنقوشة[1] داراً يسكنها، وسميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج والرخام والفصوص الملونة، وعزل الجراح بن عبد الله الحكمي عن أرمينية وأذربيجان، واستعمل عليهما أخاه مسلمة بن عبد الملك فاستعمل عليها الأخير الحارث بن عُمر الطائي، فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرىً كثيرة.

ثم إن هشاماً عزل أسد بن عبد الله عن أعماله سنة (١٠٩هـ - ٧٢٧م)، وكان سبب عزله أن أسداً في خراسان كان قد تعصب فأفسد الناس، وضرب نصر بن سيار وجماعةً معه، فبلغ ذلك هشاماً فأمر واليه على العراق خالد بن عبد الله أن يعزل أخاه عن خراسان، فعزله، واستخلف عليها الحكم بن عوانة الكلبي[2]، ثم استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السلمي على خراسان، وأمره أن يكاتب خالداً، فاستعمل على شرطته عميراً أبا أمية اليشكري ثم عزله وولى السمط، واستعمل الرابطة عبد الملك بن دثار الباهلي فكان أول من اتخذ الرابطة بخراسان[3] وأشرس هو الذي دعا أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فأجابوه فلما اسلموا فرض عليهم الجزية وطالبهم بها فحاربوه وكان أشرس يتولى أصغر الأمور وأكبرها.

ثم عزل أشرس عن خراسان، واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن[4] وذلك في سنة (١١١هـ - ٧٢٩م)،

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٣٢.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٤٧، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٧٠، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٣٠.

[3] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٧٠، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٥٢.

[4] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٧٩، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٦٧، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣١٤.

وكان سبب عزله أن شداد بن خليد كان قد شكاه فعزله، وسبب استعمال الجنيد هو تقديمه هديةً (قلادة من جوهر) لكل من الخليفة وزوجته، فاستعمل الجنيد عماله ولم يستعمل إلا مضرباً، فاستعمل قطن بن قتيبة على بخارى، والوليد بن القعقاع العبسي على هراة، وحبيب بن مرة العبسي على شرطته، ومسلم بن عبد الرحمن الباهلي على بلخ، وكان نصر بن سيار عليها، ثم عزل مسلم بن عبد الرحمن عن بلخ لأنه أساء معاملة نصر، وولى عوضه يحيى بن ضبيعة، واستعمل على خراج سمرقند شداد بن خالد الباهلي.

ثم إن هشام بن عبد الملك عزل إبراهيم بن هشام عن المدينة[1] في منتصف ربيع الأول سنة (١١٤هـ - ٧٣٢م)، وأمّر عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، وفي العام نفسه قفل مسلمة بن عبد الملك عن الباب بعدما هزم خاقان وبني الباب، وفي العام نفسه، أيضاً ولى الخليفة هشام مروان بن محمد أرمينية وأذربيجان[2]، وفي عام (١١٥هـ - ٧٣٣م) وقع بالشام طاعون، وفي الوقت نفسه أصاب الناس بخراسان قحط شديد ومجاعة فكتب الجنيد إلى الكور أن يحملوا إليهم الطعام.

واستمر الطاعون شديداً سنة (١١٦هـ - ٧٣٤م) بالشام والعراق، وكان أشد ما يكون في واسط، ثم إن الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب عليه هشام بن عبد الملك وعزله، وولى عوضه على خراسان[3] عاصم بن عبد الله، وأمره إن أدركِ الجنيد حيّاً أن يقتله، فمات الجنيد في مرض كان قد ألمّ به سنة (١١٦هـ - ٧٣٤م) بعد أن استخلف عمارة بن حريم. فلما قدم عاصم حبس عمارة بن حريم، وعمال الجنيد وعذّبهم.

خلع الحارث بن سريج[4]: خلع الحارث بن سريج، فتوجه إلى الفارياب سنة (١١٦ هـ - ٧٣٤م)، فأرسل إليه عاصم بن عبد الله رسلاً فأخذهم الحارث وحبسهم ووكّل لهم رجلاً، فتمكنوا من الرجل وأوثقوه وخرجوا من السجن وعادوا إلى عاصم فأمرهم الأخير أن يذموا الحارث ويذكروا خبث نيته وتمرده، علماً أن الحارث بن سريج كان قد لبس السواد، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه، والبيعة للرضا.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٩٠، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣١٧.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٧٧، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٩٠.

[3] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣٢٥، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٩٣، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٨٢.

[4] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٩٤، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٨٢، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣٢٥.

ثم سار الحارث من الفارياب إلى بلخ ومعه أربعة آلاف مقاتل وعليها نصر بن سيار والتجيبي ابن ضبيعة المري، ومعهم عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم الحارث، فانهزم أهل بلخ وتبعهم الحارث فدخل مدينة بلخ، فاستعمل عليها، وسار إلى الجوزجان فغلب عليها وعلى الطالقان ومرو الروز، ثم سار إلى مرو.

بلغ عاصم بن عبد الله أن أهل مرو يكاتبون الحارث فخاطبهم يتهددهم، فقال له المجشر بن مزاحم: إنهم أعطوك بيعتهم على القتال معك والمناصحة لك فلا تغادرهم، وكان قد ذكر أنه سيتوجه إلى نيسابور، ويطلب المدد إلا أنه تراجع بعد ذلك. أما الحارث فأقبل إلى مرو في ستين ألفاً كما يذكر ابن الأثير[1]، ومعه فرسان الأزد وتميم، وخرج عاصم في أهل مرو وغيرهم فعسكر وقطع القناطر، فأقبل أصحاب الحارث فأصلحوا القناطر. في هذا الوقت مال محمد بن المثنى الأزدي إلى عاصم في ألفين، ومال حماد بن عامر الحمداني إلى عاصم فانضم إلى تميم. ثم عبأ كل طرف قواته ونشب القتال بين الطرفين فانهزم أصحاب الحارث فتفرق منه الكثير في أنهار مرو، وقتل منهم عدد كبير، وهزم الحارث فقطع وادي مرو فضرب رواقاً عند منازل الرهبان، وقد كف عنه عاصم واجتمع إليه زهاء ثلاثة آلاف مقاتل.

كان عاصم بن عبد الله قد كتب إلى هشام بن عبد الملك أن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى صاحب العراق فتكون موادها ومؤونتها من قريب لبعد أمير المؤمنين عنها، وتباطؤ غيابه، فضم هشام خراسان إلى خالد بن عبد الله القسري وأمره أن يرسل أخاه أسد بن عبد الله ليصلح ما أفسد، فسير إليها خالد أخاه أسداً.

توجه أسد بن عبد الله إلى خراسان[2] بعد أن قدم أمامه محمد بن مالك الهمداني، فلما بلغ عاصماً إقبال أسد عليه صالح الحارث بن سريج، وكتبا بينهما كتاباً على أن ينزل الحارث إلى أي كور شاء في خراسان، وأن يكتبا جميعاً إلى هشام يسألونه العمل بكتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أبى اجتمعا عليه. في هذا الوقت تمكن يحيى بن حصين بن المنذر من فسخ الاتفاق هذا لأنه اعتبره خلعاً للخليفة هشام.

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٨٤، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٩٦، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٣٢٥.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٩٩، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٨٥.

كان عاصم في هذا الوقت في أعلى مرو فالتقى مع الحارث وقد قرر محاربة عاصم واقتتلوا فانهزم الحارث وأسر عدد من أصحابه، فقتل عاصم الأسرى، ثم كتب أهل الشام كتاباً شاملاً بالأحداث ووجهوا رسولاً بذلك، فلقي الرسول أسد بن عبد الله بالري، فأخذ الكتاب، وكتب إلى أخيه يقول إنه هو الذي هزم الحارث وأخبره بخبر يحيى بن حصين، فأجاز خالد بن عبد الله الأخير بعشرة آلاف دينار، وكساه مائة حلة، ثم أخذ أسد عاصماً فحبسه وحاشيته وغرمه مائة ألف درهم كما أطلق عمال الجنيد.

عندما قدم أسد لم يكن لعاصم إلا مرو ونيسابور، وكان الحارث بمرو الروز، وخالد بن عبد الله بأمل، وبعد أن قدم عاصم موقعه قرر توجيه عبد الرحمن بن نعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث بن سريج وهو بمرو الروز، وسار أسد بالناس إلى أمل، فلقيته خيل أمل وعليهم زياد القرشي فهزموا حتى رجعوا إلى أهل المدينة فحصرهم أسد ونصب عليهم المجانيق، وعليهم الهجري من أصحاب الحارث، فطلبوا الأمان فوافقهم، واستعمل عليهم يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني، ثم سار يريد بلخ.

في هذا الوقت علم أسد بن عبد الله أن أهل بلخ قد بايعوا سلمان بن عبد الله بن خازم، فسار أسد حتى قدم بلخ، واتخذ سفناً وسار فيها إلى ترمذ فوجد الحارث محاصراً فيها وبها سنان الأعرابي فنزل أسد دون النهر، ولم يتمكن من العبور إليهم من جهة، ولا على إمدادهم من جهة أخرى، فخرج أهل ترمذ، فهزموا.

بعدها ارتحل أسد إلى بلخ، وخرج أهل ترمذ إلى الحارث فهزموه وقتلوا بعض أصحابه، أما أسد فسار إلى سمرقند في طريق زم فلما قدمها أرسل إلى الهيثم الشيباني القابع في أحد حصونها، وهو من أصحاب الحارث، يقول له إني أريد سمرقند ولك العهد والأمان ولك المواساة والكرامة والأمان ولمن معك فوافقه وخرج إليه وسار معه إلى سمرقند، ثم توجه إلى ردغيس (وماء سمرقند منها) فسكّر الوادي وصرفه عن سمرقند ثم رجع إلى بلخ.

ذكرنا أن أسداً كان قد توجه إلى بلخ فنزلها ووجه منها جديعاً الكرماني إلى إحدى قلاع طخارستان العليا اسمها (التبوشكان) التي فيها ثقل الحارث وثقل أصحابه، فحصرهم الكرماني حتى

فتحها، فقتل مقاتلهم وسبى عامة أهلها من العرب والموالي وباعهم في سوق بلخ.

في هذا الوقت نقم على الحارث بن سريج نحو أربعمائة وخمسين رجلاً من أصحابه يقودهم المهاجر بن ميمون القاضي، ثم أرسل أسد بن عبد الله الكرماني فحاصرهم في القلعة فسألوا الأمان ونزلوا على حكم أسد، فأرسل الأخير إلى الكرماني يأمره أن يرسل إليه وجوههم وعلى رأسهم المهاجر بن ميمون فقتلهم أسد، وكتب إلى الكرماني يأمره أيضاً أن يجعل من بقي منهم ثلاثة أقسام فيقتل قسم منهم، وتقطع أيدي وأرجل الثلث الثاني، وتقطع أيدي الثلث الأخير، بعد ذلك اتخذ أسد مدينة بلخ داراً ومقراً لقيادته ونقل إليها الدواوين[1]، أما الحارث فتوجه إلى بلاد الترك، فبقي بها إلى سنة (١٢٦هـ - ٧٤٣م) وسنعود إلى ذكره. وتمكن أسد بن عبد الله من أخذ جماعة من دعاة بني العباس بخراسان سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م)، فقتل بعضهم ومثل ببعضهم الآخر، وحبس آخرين.

أما في أفريقية والأندلس. فقد استعمل الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية عبيد الله بن الحبحاب[2] سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) وأمره بالمسير إليها وكان والياً على مصر فاستخلف على مصر ولده وسار إلى أفريقية، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وأرسل حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فسبى وغنم ورجع سالماً.

وفي الحجاز عزل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة (١١٨ هـ - ٧٣٦م) خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم عن المدينة[3] وولى عوضه محمد بن هشام بن إسماعيل. بعد ذلك توفي أسد بن عبد الله بمدينة بلخ[4] سنة (١٢٠هـ - ٧٣٧م) وكان سبب موته أنه أصيب بمرض فمات به، فاستخلف بعده جعفر ابن حنظلة البهراني، فعمل أشهراً ثم ولى نصر بن سيار خراسان[5] في رجب سنة (١٢٠هـ - يونيه٧٣٧م).

عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري عن العراق[6] وولى عوضه يوسف بن عمر الثقفي، وسبب عزله أنه وشى إلى الخليفة هشام أن غلته كانت ثلاثة عشر ألف ألف، وقيل

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٩٨، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١١١.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص١٩٠.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١١١، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٩٨.

(4) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢١٦، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٣٣٧.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١٤١، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٨٣.

(6) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢١٩، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١٤٢.

كانت غلته كما يذكر عشرين ألف ألف، وهو الذي حفر الآبار بالعراق والأنهار منها نهر خالد، ونهر باجرى، ونهر تارمانا، ونهر المبارك، والجامع، وكورة سابور وغيرها، وكان من أسباب عزله أيضاً أن رجلاً من آل عمرو بن سعيد بن العاص كان قد دخل على خالد القسري فأغلظ له القول فكتب إلى الخليفة هشام بذلك.

وقيل إن خالداً كان يذكّر هشام بن عبد الملك بأنه ابن أم حمقاء، وكثرت الشكاوي عليه فعزله وكتب إلى يوسف بن عمر، وهو على اليمن يأمره أن يتوجه ومعه ثلاثون من أصحابه إلى العراق[1] وقد ولاه ذلك فقدم الكوفة في جمادى الآخرة سنة (١٢٠هـ ـ مايو٧٣٨م) وجمع إليه من بها من مضر ثم توجه إلى المسجد فصلى وأرسل إلى خالد بن عبد الله، وطارق خليفة خالد بالكوفة فأخذهما وقد أمره الخليفة هشام أن يعذب خالداً وعماله فكانت ولاية خالد القسري للعراق بحدود خمس عشرة سنة أي من شوال سنة (١٠٥هـ ـ مارس٧٢٤م) إلى أن عزل في جمادى الآخرة سنة (١٢٠هـ ـ مايو٧٣٨م)، ثم تولى جديع بن علي الكرماني، وعزل جعفر بن حنظلة بعدها عزل الكرماني، وولى عوضه مضر بن يسار.

ويذكر ابن الأثير[2] أن يوسف بن عمر عندما ولي العراق كان الإسلام ذليلاً[3] والحكم فيه إلى أهل الذمّة. ووصف ابن الأثير يوسف بن عمر بأنه كان متناقضاً مع نفسه وكان طويل الصلاة، ضابطاً لحشمه وأهله عن الناس، ليّن الكلام، متواضعاً، كثير التضرع والدعاء، بصيراً بالشعر والأدب، شديد العقوبة ومسرفاً فيها، وكان أحمق، وكان قصير القامة، عظيم اللحية.

خروج زيد بن علي: تعددت الأقوال في سبب خروج زيد بن علي[4] فذكر ابن الأثير أن زيد بن علي بن الحسين وداؤد بن علي بن عبد الله بن عباس، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب كانوا قد قدموا على خالد بن عبد الله بالعراق فأجازهم ورجعوا إلى المدينة فلما عزل خالد

---

[1] ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٣٣٩، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص١٥٤.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٢٤.

[3] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٢٢٥.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٢٩ وما بعدها.

وولي يوسف بن عمر كتب يعلم هشام بن عبد الملك بذلك وأخبره أيضاً أن خالداً ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم رد الأرض إليه. كتب هشام إلى عامله على المدينة يأمره بأن يوجه إليه كلاً من زيد وداؤود ومحمد، فلما قابلوا هشاماً سألهم عن ذلك فأقروا بالجائزة فقط، فصدقهم ووجههم إلى والي العراق يوسف بن عمر لمقابلته بخالد لتأكيد ذلك، ثم عادوا إلى المدينة، فلما كانوا بالقادسية[1] راسل أهل الكوفة زيد بن علي فعاد إليهم.

وقيل كان سبب خروجه أنه كان قد تخاصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي في ولاية وقوف الإمام علي، وكان زيد يخاصم عن بني الحسين، وجعفر عن بني الحسن، واستمر الخصام إلى أن مات جعفر بن محمد فنازع عبد الله بن الحسن، زيد بن علي بن الحسين بين يدي خالد بن عبد الملك بالمدينة، فأغلظ عبد الله لزيد وهو يريد أن يتشاتما، وجار خالد على زيد.

ثم إن زيداً توجه إلى دمشق يريد هشام بن عبد الملك فرفض مقابلته أكثر من مرة وهو يأمره بالعودة إلى أمير المدينة، ثم أذن له هشام فقال له: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ثم خرج زيد فسار إلى الكوفة فأقام بها متخفياً، وأقبلت إليه الشيعة تتابعه سراً، وكانت بيعته:

- الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم.
- جهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين.
- تقسيم هذا الفيء بين أهله بالسواء.
- ردّ المظالم.
- نصر أهل البيت.

فبايع على ما ورد خمسة عشر ألفاً، وقيل أربعون ألفاً، فأمر أصحابه بالاستعداد، وتسارع أمره بين الناس، وقيل بقي بالكوفة عندما وجهه هشام إليها لمقابلة يوسف بن عمر، وهناك أقبلت الشيعة تختلف عليه وتأمره بالخروج علماً أن الكثيرين كانوا قد ناشدوا زيداً بعدم الخروج، وذكروه بمواقفهم السابقة مع جده وجد أبيه وغير ذلك من موافقتهم، إلا أنه كان يتمنع، وقرر الاستمرار والمتابعة، وأثناء تواجده في الكوفة كان يتنقل فيها من مكان لآخر، علماً أنه كان قد تزوج بالكوفة وزواجه ساعده على الانتقال والتخفي.

---

[1] القادسية ـ بينها وبين الكوفة خمس عشر فرسخاً، وبينها وبين العذيب أربعة أميال ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٩٠.

ذكرنا أن زيد بن علي كان قد أمر أصحابه بالإستعداد. في هـذا الوقـت انطلـق سـليمان بـن سراقة البارقي إلى يوسف بن عمر فأخبره، فأخذ يوسف بن عمر يطلب زيداً. خلال هذه الأحـداث كان على الكوفة الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمن، ومعه عبيد ا لله بن العبـاس الكندي في ناس من أهل الشام، وكان يوسف بن عمر بالحيرة. وعندما اشتد الطلب لزيد، اجتمعـت جماعة من رؤساء الشيعة لزيد بن علي ، ثم قرروا أن يتخلوا عنه ويفـارقوه ونكثـوا بيعتـه كعـادتهم. بعد ذلك أمر يوسف بن عمر الحكم بن الصلت بجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم، فحصرهـم فيه وأمر بطلب زيد.

كان زيد قد أمر أصحابه ونادوا بشعارهم، وتحرك بهم، وقوامهـم مائتـا رجـل وثمانيـة عشـر فتحرك بهم إلى جبانة سالم ومنها إلى جبانة الصائدين، وبها خمسمائة من أهل الشام، فحمـل عليهـم زيد فهزمهم ثم توجه زيد إلى الكناسة، فحمل على من بها فهزمهم ثـم دخـل زيـد الكوفـة، وسـار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سليم فلقوا أهل الشام فقاتلوهـم، فأسروا من أصحاب زيد رجلاً، فأمر به يوسف بن عمر فقتل ثم تقابل زيد وأصحابه مع عبيد ا لله بن العباس الكندي عنـد دار عمـر ابن سعد فاقتتلوا فانهزم عبيد ا لله وأصحابه وتقدم زيد حتى انتهى إلى باب المسجد وفي نيته إخـراج من به من أهل الكوفة وانضمامهم إليه.

ثـم انصـرف زيـد بمـن معـه، فـنزل دار الـرزق فأتـاه الريـان بـن سـلمة فقاتلـه والوقـت مسـاء فرجـع أهـل الشـام، وفي صبـاح اليـوم التـالي أرسـل يوسـف بـن عمـر العبـاس بـن سـعيد المزنـي في أهـل الشـام إلى دار الـزرق، فلقيـه زيـد وهـو علـى تعبئـة فـاقتتلوا قتـالاً شـديداً، فـانهزم أصحـاب العبـاس، وقتـل منهـم نحـو خمسـين رجـلاً، وفي المسـاء عبـأهم يوسـف بـن عمـر، ثـم سـرحهم فـالتقوا مـع أصحـاب زيـد فحمـل عليهـم زيـد فكشـفهم، وتمكـن مـن إخراجهـم، فبعـث العبـاس إلى يوسـف بـن عمـر يعلمـه ذلـك، وطلـب منـه فرقـه نشـابة فبعثهـا إليـه، وأخـذوا يرمون أصحـاب زيـد، فرمـي زيـد بسـهم أصـاب جبهتـه.

عند ذلك رجع أصحابه ونزل زيد في أحد الدور فأحضر طبيباً فانتزع النـصل، ومات[1] زيـد ثم دفن، وعلم يوسف بن عمر بمكان دفنـه وكان الذي دلـه عليه هو مـولى زيد، فأخـذ زيـداً وقطع

---

[1] الكتبي - فوات الوفيات - ج - ص .

رأسه وسير إلى يوسف بن عمر وهو بالحيرة فأمر أن يصلب بالكناسة[1]، وبعث بالرأس إلى هشام ابن عبد الملك، فصلب على باب مدينة دمشق، ثم أرسل إلى المدينة، وبقي البدن مصلوباً إلى أن مات هشام بن عبد الملك وولي الوليد فأمر بإنزاله وإحراقه، أما ابنه يحيى فخرج إلى خراسان مع بعض أصحابه.

ثم توفي هشام بن عبد الملك بالرصافة[2] لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ ــ فبراير٧٤٣م)، واختلف في مدة حكمه فقيل كانت خلافته تسع عشرة سنة، وتسعة أشهر وواحد وعشرين يوماً، وقيل غير ذلك..

الاحتكاك الحربي في عهد هشام:

في الشرق: غزا مسلم بن سعيد مدينة أخشينة من مدائن السند فصالح أهلها وملكها وغزا أفشين فصالحه على ستة آلاف رأس، ودفع إليه القلعة. ثم غزا الترك سنة (١٠٦هـ - ٧٢٤م)، فلما صار إلى فرغانة بلغة قدوم خاقان، فلما قطع وادي السبوح أقبل إليهم خاقان، فتمكن من أسر أهل السند وقائدهم وقائد الترك، ثم توجه مسلم إلى خجندة، وهنالك جاءه خبر عزله عن خراسان وتولية أسد بن عبد الله القسري، ثم قاتلوا الترك، فحمل حوزة بن يزيد بن الحر بن جعونة على الترك في أربعة آلاف، وأقبل نصر بن سيار بقواته، فقاتلهم حتى أزالهم عن مواضعهم وهزمهم. كما غزا أسد بن عبد الله جبال نمرون ملك الفرشتان مما يلي جبال الطالقان، فصالحه صاحب نمرون وأسلم على يديه.

وغزا أسد أيضاً الغور[3] سنة (١٠٧هـ -٧٢٥م)، فعمد أهلها إلى أثقالهم فوضعوها في كهف ليس إليه طريق فأمر أسد باتخاذ توابيت وضع فيها رجالاً، ودلاها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه، ونقل أسد بن عبد الله من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ، فأقطع من كان له بالبروقان مسكن بقدر حاجته ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً وخلط بينهم في السكن حتى يبعد العصبية عنهم وجدد عمارة بلخ وولى عليها برمك أبا خالد بن برمك علماً أن البروقان كانت منزل الأمراء.

---

(1) الكناسة: محله بالكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٨١.

(2) النويري - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب ١٩٦٣- ج - ص .

(3) الغور: المنخفض من الأرض - وهي جبال وولاية بين هراة وغزنه - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢١٨.

وغزا أسد بن عبد الله الختل، واختلف في هذه الغزوة فبعضهم قال: إن أسداً انتصر وهزم خصمه واحتل العرب المسلمون عسكرهم، وقال بعضهم الآخر إن أسداً رجع من الختل سنة (١٠٨هـ - ٧٢٦م) منهزماً، وذكر الطبري: في أحداث سنة (١٠٩هـ - ٧٢٧م) أن أسداً كان قد غزا غورين[1] بعدها عزل أسد بن عبد الله عن خراسان سنة (١٠٩هـ - ٧٢٧م) واستعمل عوضه أشرس بن عبد الله.

أشرس بن عبد الله وخلاف أهل سمرقند: دعا أشرس بن عبد الله وهو على خراسان صالح بن طريف أبي الصيداء فأرسله إلى سمرقند، وعليها الحسين بن أبي العمر طه الكندي على حربها وخراجها، يدعو أهلها ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فسارع الناس إلى ذلك، فكتب غَوزك إلى أشرس أن الخراج قد انكسر، فكتب أشرس إلى ابن أبي العمر طه أن في الخراج قوة للمسلمين، فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا له: ممن تأخذ الخراج وقد أسلم الناس، فكتب أشرس إلى العمال خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه، فأعادوا الجزية على من أسلم فامتنعوا، واعتزل من أهل السند سبعة آلاف فنزلوا على بعد سبعة فراسخ من سمرقند، وانضم إليهم صالح بن طريف وبعض أصحابه.

عند ذلك عزل أشرس بن أبي عمر طه عن الخراج وولى عوضه هاني بن هاني كما عزله عن الحرب، وولى المجشر بن مزاحم السلمي وضم إليه عميرة بن سعد الشيباني، فلما قدم المجشر كتب مزاحم إلى صالح أن يقدم عليه هو وأصحابه فقدم ومعه ثابت فطنة، فحبسهما، فقال صالح غدرتم ورجعتم عما كنتم، ثم وجه صالح إلى الأشرس، وبقي ثابت فطنة عنده، عند ذلك اجتمع أصحاب صالح، فولوا أمرهم أبا فاطمة ليقاتلوا هاني بن هاني حيث تولى أمر الخراج. وألح هاني والعمال في جباية الخراج، واستخفّوا بعظماء العجم، وفي الوقت نفسه سلط المجشر عمير بن سعد على الدهاقنه، وأخذت الجزية ممن أسلم من الضعفاء، فكفرت السند وبخارى، واستجاشوا الترك.

ثم خرج أشرس غازياً فنزل أمل، فقدم قطن بن قتيبة بن مسلم، فعبر النهر في عشرة آلاف، عند ذلك أقبل أهل السند وأهل بخارى ومعهم خاقان والترك فحصروا قطن في خندق، عند ذلك أخرج أشرس ثابت بن فطنة من حبسه ووجهه مع عبد الله بن بسطام في الخيل فتبعوا الترك،

---

[1] غورين: من قرى مرو - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢١٨.

فقاتلوهم بأمل حتى استنفذوا ما بأيديهم، ثم قطع الترك النهر إليهم راجعين، وعبر أشرس بالناس إلى قطن ووجه سريةً يقودها أحد أتباعه فلقيهم العدو فقاتلوهم، فهزمت السرية وعاد قائدها إلى أشرس.

ثم أقبل العدو فلقيهم المسلمون فقاتلوهم، فانهزم المشركون، ثم نزل أشرس بالناس في بيكند فقطع عنهم العدو الماء، فارتحل المسلمون، وعلى مقدمتهم قطن بن قتيبة، فلقيهم العدو فقاتلوهم وجهدوا في قتالهم وهم في جهد كبير من العطش فُقتل منهم عدد كبير، وعجز بعضهم عن القتال، ورغم ذلك قاتلوا فأزالوا الترك عن الماء، ثم حملوا على العدو، واشتد القتال فهزم المشركون وتفرق جمعهم وقدم أشرس ومعه كمرجة إلى بخارى فحصر أهلها.

أما خاقان فتوجه ماراً بهم ثم ارتفع إلى طريق بخارى كأنه يريدها ثم انحدر بجنوده من وراء تل بينه وبينهم فنزلوا وتأهبوا، ففاجأ المسلمين واقتتلوا فلما كان المساء انصرف الترك، وأحرق العرب القنصرة، أثناء ذلك قدم بازغرى في مائتين من وراء النهر، وكان خاقان لا يخالفه، فقال: أمنونا حتى ندنو منكم، فأعرض عليكم رسالة خاقان، فدنا منهم ومعه أسرى من العرب، فقال: «إني أجعل من كان عطاؤه منكم ستمائة ألف، ومن كان عطاؤه ثلاثمائة ستمائة، وهو يجمع بعد هذا على الإحسان إليكم»، فرفض قوله، أثناء ذلك أمر خاقان بقطع الشجر فجعلوا يلقون الحطب الرطب، ويلقي أهل كمرجة[1] الحطب اليابس حتى سوى الخندق ليقطعوا إليهم، فأشعلوا فيه النيران، فهاجت ريح شديدة، فاشتعلت النار في الحطب وكأنهم لم يفعلوا شيئاً والقتال مستمر، فقتل الترك الأسرى العرب الموجودين بين أيديهم، وقتل المسلمون أسرى العدو مقابل ذلك، واشتد القتال.

في هذه المرحلة رأى أهل كمرجة ما هم فيه من الحصار وشدته، ثم اتفقوا على الصلح، وعلى أن يرجع خاقان عنهم ويرجع المسلمون إلى سمرقند أو الدبوسية، فاختاروا الدبوسية وتبادلوا الأسرى.

ردّة أهل كردر[2]: ثم ارتد أهل كردر سنة (١١٠هـ - ٧٢٨م) فقاتلهم المسلمون وظفروا[3] بهم كما هزم الترك الذين كانوا يساعدون أهل كردر، وفي سنة (١١١هـ - ٧٢٩م)، سار الترك إلى

---

(1) كمرجة: قرية من قرى الصغد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٧٩.

(2) كردر: ناحية من نواحي خوارزم أو ما يتاخمها من نواحي الترك - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥٠.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٦٦، ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج٥ - ص١٥٤.

أذربيجان، فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم، وفي هذه السنة عزل أشرس عن خراسان واستعمل عوضه الجنيد بن عبد الرحمن[1].

الجنيد بن عبد الرحمن: أرسل الجنيد ـ عندما قدم أمل ـ إلى أشرس أن أمدني بخيل، فوجه إليه أشرس عامر بن مالك الحماني وبينما هو في طريقه اعترضه الترك، والسند قبل أن يصل إلى الجنيد، فدخل عامر حائطاً حصيناً فقاتلهم، وأرسل إلى الجنيد يستغيث. في هذا الوقت كان خاقان على تلّ خلفه أجمة، فخرج عاصم بن عمر السمرقندي، وواصل بن عمرو القيسي في شاكريته، فالتفت وعبر النهر فلم يشعر خاقان إلا بالتكبير، وحملوا على العدو فهزم خاقان وأصحابه، ثم خرج عامر بن مالك من الحائط ومضى إلى الجنيد وهو في سبعة آلاف[2].

وجّه الجنيد على مقدمته عمارة بن حريم، فلما اقترب من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم فظفر بالترك، ثم زحف إليه خاقان، فالتقوا دون زرمان[3] (رزمان) من بلاد سمرقند فظفر الجنيد وأتى مرو فولى عمارة.

ثم خرج الجنيد غازياً سنة (١١٢هـ ـ ٧٣٠م) يريد طخارستان، فنزل على نهر بلخ فوجه عمارة بن هريم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفاً ووجه إبراهيم بن بسام في عشرة آلاف في وجه آخر، وجاشت الترك فأتوا سمرقند، وعليها سورة بن الحر، فأعلم سورة الجنيد بأخبار الترك، وطلب منه العون والمساعدة.

عند ذلك أمر الجنيد الناس بالعبور، فقال له المجشر وغيره إن الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفاً ولا زحفاً، وقد فرقت جندك بالنيروز[4]، وهراة[5]، ولم يحضر أهل الطالقان، صاحب خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً، وأشير عليه أن يكتب إلى عمارة بن هريم وهو بطخارستان، فليأته ولا يتعجل.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٦٧.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٦٨.

[3] زرمان: من قرى صغد سمرقند بينها وبين سمرقند سبعة فراسخ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص١٣٨.

[4] نيروز: مدينة من نواحي السند وبين الديبل والمنصورة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٢٣١.

[5] هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٩٦.

ثم عبر الجنيد كس وأرسل عيونه يستطلعون له خبر عدوه فأخبروه بقدوم العدو، وكان الترك قد سدوا الآبار والعيون وردموها في طريق كس، فسأل الجنيد أي الطريقين إلى سمرقند أمثل الطريق المحترقة أم طريق العقبة، فاختار طريق العقبة ومضى فدخل الشعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعة فراسخ. عند ذلك زحف ابن خاقان ومعه أهل السند والشاس وفرغانة وطائفة من الترك، فحمل على مقدمة المسلمين فعادت المقدمة إلى المعسكر، عند ذلك عبأ الجنيد قواته ميمنة وميسرة وقلباً وجرت معركة غير متكافئة حيث فوجئ المسلمون، وقاتل العبيد قتال الأبطال وملّ الفريقان القتال فتحاجزوا.

ثم كتب الجنيد إلى سورة بن الحر أن يأتيه بأهل سمرقند، فأمر القوات بالرحيل وقوامها اثنا عشر ألفاً، وعلم الأتراك برحيله، فتلقاه خاقان، وأشعل النار في الحشيش، وحال بينهم وبين الماء. فجمع سورة قواته وحملوا على الترك فكشفوهم. أثناء ذلك ثار الغبار، فقطع عنه الرؤية، ووراء الترك اللهب فسقط فيه الطرفان فتفرق الناس وتمكن العدو من قتل المسلمين و لم ينج منهم إلا القليل، حيث انحاز بهم المهلب بن يزيد العجلي إلى رستاق يسمى المرغاب. فأصيب المهلب فولوا أمرهم أحدهم، أثناء ذلك جاءهم صاحب نسف في خيل ومعه غوزك، فأسروهم وقادوهم إلى خاقان.

بعدها خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادراً، ثم التقى مع الترك فقاتل العبيد قتال الأحرار حتى هزم العدو ومضى الجنيد إلى سمرقند. فلما انصرف الترك إلى بلادهم كتب إلى هشام ابن عبد الملك سنة (١١٢ هـ - ٧٣٠م) يخبره، فكتب هشام بن عبد الملك إلى الجنيد يخبره أنه وجه إليه عشرين ألفاً مدداً منهم عشرة آلاف من أهل البصرة وعليهم عمرو بن مسلم، وعشرة آلاف من أهل الكوفة، وعليهم عبد الرحمن بن نعيم وأرسل من السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها ترسة وأمره بقوله فأفرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر ألفاً.

بعدها أقام الجنيد بسمرقند، وانصرف خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة، عند ذلك شاور الجنيد أصحابه فيما يفعل فكانت هنالك آراء مختلفة منها قولهم له إلزم سمرقند، واكتب إلى الخليفة يمددك بالجند، ومنها قولهم: تسير فتأتي ربنجن إلى كس، إلى نسف إلى أرض زم وتقطع النهر وتنزل أمل، فتأخذ عليه الطريق، إلا أنه اعتمد الرأي الذي أشار عليه عبد الله بن أبي عبد الله

وهو: «فاشترط عليه ألا يخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال أو نزول أو قتال، قال: نعم، قال: فإني أطلب إليك خصالاً، قال: وما هي؟ تخندق حيثما نزلت، ولا يفوتنّك حمل الماء ولو كنت على شاطئ النهر، وأن تطيعني في نزولك وارتحالك. فأعطاه ما أراد. قال: أما ما أشار به عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث، فالغياث يبطئ عنك، وإن سرت فأخذك بالناس غير الطريق فتتّ في أعضادهم، فانكسروا عن عدوهم، فاجترأ عليك خاقان، وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له.

فإن أخذت بهم غير الطريق تفرق الناس عنك مبادرين إلى منازلهم، ويبلغ أهل بخارى فيستسلمون لعدوهم، وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدو، والرأي لك أن تعمد إلى عيالات من شهد الشعب من أصحاب سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك، فإني أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك، وتعطي كل رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرساً، قال: فأخذ برأيه، فخلف في سمرقند عثمان بن عبد الله بن الشخير في ثمانمائة: أربعمائة فارس وأربعمائة راجل، وأعطاهم سلاحاً»[1].

بعد ذلك خرج الجنيد وأرسل أمامه الطلائع كي تعلمه الأخبار في حينها دون إضاعة الوقت، فلما اقترب من الطواويس[2] أخبرته الطلائع بقدوم خاقان ثم تقدم إلى كرمينية[3]، فنشبت الحرب بين الطرفين فقاتلوا قليلاً ثم رجعوا، عند ذلك اعتمد الجنيد الخدعة، فأمر بالرحيل فمالت الترك على الساقة، فقاتلوهم وهزم الترك من الطواويس، وقدم الجنيد ومن معه إلى بخارى.

في هذه المرحلة مات الجنيد بن عبد الرحمن[4] سنة (١١٦هـ - ٧٣٤م)، وولى عوضه عاصم ابن عبد الله خراسان. ثم عزل عاصم بن عبد الله عن خراسان وضمت إلى خالد بن عبد الله فولاها الأخير أخاه أسد بن عبد الله، وذلك سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م)[*].

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ١١٢هـ - ج٧ - ص٨١ - ٨٢.

(٢) الطواويس: اسم ناحية من أعمال بخارى، بينها وبين سمرقند وهي داخل حائط بخارى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٦.

(٣) كرمينية: بلدة من نواحي الصغد بين سمرقند وبخارى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥٦.

(٤) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٩٣.

(*) قيل إن عزل عاصم عن خراسان كان سنة ١١٦هـ.

أسد بن عبد الله: قدم أسد بن عبد الله خراسان وليس له فيها إلا مرو وناحية أبر شهر، فسار بقواته إلى أمل فتمكن من مطاردة الحارث واستعادة خراسان.

علم خاقان بدخول أسد بن عبد الله الختل، وكان أسد قد ولي خراسان من قبل أخيه خالد، فأمر أصحابه بالاستعداد واتخذوا القوس والنشاب، وأخذ طريق خشوراغ. في هذا الوقت علم أسد ابن عبد الله بقدوم خاقان، فأمر أسد قواته بالاستعداد وأقبل من الختل[1] نحو جبل الملح وغايته عبور نهر بلخ فلما أشرف أسد على النهر أتاه خبر خاقان وقد سار من سوياب، فأشار أصحاب أسد أن عليه أن يقطع النهر، فأمر بقطع النهر وقد أمر أن يحمل كل رجل معه شاةً، فما استكملوا العبور حتى طلعت عليهم الترك فقتلوا من لم يقطع ثم أخذ خاقان يهاجم المسلمين فكشفهم وحال الماء بينهم.

استشار خاقان أصحابه في العبور فوافقوه وعبرت الترك النهر، وعبأ أسد قواته في الليل وكان خاقان قد ظفر بثقل المسلمين وقتل منهم الكثير، أما أسد فقد مضى إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى أتى الشتاء فتفرق الناس ودخل المدينة. في هذه المرحلة انضم الحارث بن سريج وكان بناحية طخارستان إلى خاقان، ثم أقبل خاقان وقد استمد من وراء النهر وأهل طخارستان وجيفويه الطخارى بملوكهم وشاكريتهم بثلاثين ألفاً، فنزلوا خلم[2] وفيها مسلحة للمسلمين فلم يظفروا بها فأعلم قائد المسلحة أسد بالعدو.

عند ذلك اجتمع أسد بقادته واستشارهم فاختلفوا حول ذلك، فمنهم من قال[3]:
- نأخذ بأبواب مدينة بلخ ونطلب الإمداد من العراق والشام.
- وقال آخرون: نأخذ في طريق زم ونسبق خاقان إلى مرو.
- وقال آخرون: بل نخرج إليهم ونستعين با لله.

فقرر المسير إلى العدو، ثم خرج فنزل باباً من أبواب بلخ حيث ضربت له قبة، ثم وجه مقدمة قوامها ثلاثمائة من المقاتلين، فواجهته طليعة خاقان فأسر قائدها وهرب بقيتهم، ثم سار أسد فنزل

---

[1] الختل: كورة واسعة كثيرة المدن وهي على تخوم السند - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٤٦.

[2] خلم: بلدة بنواحي بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٨٥.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١١٩.

السدرة ثم ارتحل فنزل خريستان، ثم توجه إلى عين الحارة وتوجه بعدها فنزل مدينة الجوزجان، فعبأ قواته وقابل خاقان.

وكان خاقان قد عبأ قواته ومعه كما ذكرنا الحارث بن سريج فكان على ميمنته خاقان ومعه في الميمنة الترك وصاحب الختل، وجبغوية وملك السغد وصاحب الشاس وغيرهم. وبدأ القتال بين الطرفين بهجوم ميمنة خاقان على ميسرة المسلمين فهزمت ميسرة المسلمين فتدخلت ميمنة المسلمين مع باقي القوات في هجوم عام فهزم العدو لا يلوون على أحد وهرب خاقان وقد غنم المسلمون معسكرهم[1].

ثم ارتحل أسد فنزل جزه الجوزجان وخاقان بها فهرب منها فنزل على جبغوية الطخارى، ثم رجع أسد إلى بلخ، أما خاقان فمضى إلى طخارستان العليا فأقام عند جبغوية، بعدها توجه خاقان إلى بلاده، فلما ورد شروستة تلقاه صاحبها وتوجه من عنده إلى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند. بعد ذلك كان خاقان، وكورصول يتنازعان، فكسر كورصول يد خاقان، فأقسم خاقان بكسر يد كورصول فعلم الأخير بذلك، فجمع أصحابه وتنحى بهم، ثم بيت لخاقان فقتله[2]، ثم تفرق الترك في الغارات بعضهم على بعض، وبمقتل خاقان انتهى أكبر خطر كان يعاني منه المسلمون.

قتل بدر طرخان: بعد غزوة الختل وجه أسد بن عبد الله مصعب بن عمرو الخزاعي إلى بدر طرخان، فطلب الأمان على أن يخرج إلى أسد، فاجابه مصعب، فخرج إلى أسد فطلب منه أشياءً رفضها أسد، ثم سأله بدر طرخان أن يقبل منه ألف ألف درهم، ثم أخرجه من عنده بعد أن ختم له عنقه وسرحه من عنده.

عند ذلك قال المجشر بن مزاحم لأسد: «كان بدر طرخان في أيدينا وعرض ما عرض، فلا الأمير قبل منه ما عرض عليه، ولا هو شد يده في أيدينا وعرض ما عرض، وأمد بإدخاله حصنه»[3] فندم أسد، ودعا بدليل من أهل الختل ورجل من أهل الشام، وأمره بقوله له: إن أنت أدركت بدر

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١٢٣.
[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٠٠ وما بعدها.
[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١٣٦.

طرخان قبل دخوله حصنه فلك ألف درهم فتوجها إلى عسكر مصعب، فوجدا بدر طرخان في المعسكر عند مسلم بن أبي عبد الله فعاد الدليل إلى أسد فأعلمه بالخير، عند ذلك بعث أسد إلى بدر طرخان فقتله سنة (١١٩ هـ - ٧٣٧م).

غزوة ما وراء النهر[1]: ثم إن نصر بن سيار غزا من بلخ سنة (١٢١ هـ - ٧٣٨م) ما وراء النهر من ناحية باب الحديد ثم قفل إلى مرو ثم غزا الغزوة الثانية إلى ورغسر[2] وسمرقند وقفل، ثم غزا الثالثة إلى الشاس من مرو فحال كورصول بينه وبين قطوع النهر، فعبر كورصول النهر في أربعين رجلاً فبيت عسكر المسلمين وأخذ ما قدر عليه، عند ذلك خرج عاصم بن عجرد وهو على جند من أهل سمرقند فلما مرت خيل كورصول حمل على آخرهم فأسر رجلاً فإذا هو ملك من ملوكهم، فجاؤوا به إلى نصر فسأله من أنت، فقال أنا كورصول، فأمر به فقتل[3]، وصلب على شاطئ النهر ثم أمر به فأحرق.

ثم ارتحل نصر إلى فرغانة فسبى منها ثلاثين ألف أسير، ثم أمر يوسف بن عمر - وهو على العراق - نصر بن سيار بالتوجه إلى الحارث بن سريج فيخرب بلادهم وأن يسبي ذراريهم، فسار نصر إلى الشاس فقاتلهم فهزمهم ثم توجه إلى سمرقند وفيها الحارث بن سريج.

صلح الصفد[4]: ذكرنا قتل خاقان وتفرق الترك، فلما ولي نصر بن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا وذلك سنة (١٢٣هـ - ٧٤٠م)، وكانوا قد اشترطوا عليه شروطاً عدة منها:

«ألا يعاقب من كان مسلماً وارتد، ولا يعدل عليهم في دين لأحد من الناس ولا يؤخذوا بقبالة عليهم في بيت المال، ولا يؤخذ أسرى المسلمين من أيديهم إلا بقضاء قاض وشهادة العدول»[5]. كما غزا نصر بن سيار فرغانة. بعد هشام بن عبد الملك توقفت الحروب الخارجية وبدأت صراعات داخلية وخارجية استمرت حتى كانت نهاية الدولة الأموية.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسول والملوك - ج٧ - ص١٧٣.

[2] ورغسر: من قرى سمرقند عندها مقاسم مياه الصغد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٧٢.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص١٧٥.

[4] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٥٠.

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ١٢٣ هـ - ج٧ - ص١٩٢.

في الشمال: غزا الجراح بن عبد الله الحكمي اللان[1] سنة (١٠٥هـ ـ ٧٢٣م) فجاوز مدائن وحصون وراء بلنجر، وأجلى عن بعض الحصون أهلها، وفي السنة نفسها كانت غزوة سعيد ابن عبد الملك أرض الروم، فبعث سرّية قوامها ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً، وفي عام (١٠٦هـ ـ ٧٢٤م) غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة، وغزا الحجاج بن عبد الملك اللان، فصالح أهلها وأدوا الجزية.

ثم غزا مسلم بن سعيد الترك سنة (١٠٦هـ ـ ٧٢٤م)، فلما صار إلى فرغانة بلغه قدوم خاقان، فلما قطع وادي السبوح أقبل إليهم خاقان، فتمكن من أسر أهل السند وقائدهم وقائد الترك، ثم توجه مسلم إلى خجندة، وهنالك جاءه خبر عزله عن خراسان، وتولية أسد بن عبد الله القسري، ثم قاتلوا الترك، فحمل حوزة بن يزيد بن الحر بن جعونة على الترك في أربعة آلاف، وأقبل نصر بن سيار بقواته، فقاتلهم حتى أزالهم عن مواضعهم، وحمل الناس عليهم فهزم الترك. وغزا الصائفة معاوية بن هشام سنة (١٠٧هـ ـ ٧٢٥م)، وعلى جيش الشام ميمون بن مهران، فقطع البحر حتى عبر إلى قبرص[2]، وغزا البر مسلمة بن عبد الملك.

وغزا مسلمة بن عبد الملك سنة ١٠٨هـ فبلغ قيسارية مدينة الروم مما يلي الجزيرة، ففتحها الله على يديه، ويبدو أن الثغور مع الروم كانت في حالة حرب دائمة، إلى ما بين مدّ وجزر لكلا الطرفين وغزا إبراهيم بن هشام الروم ففتح بعض الحصون، وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك سنة (١١٠هـ ـ ٧٢٨م)، فسار إليهم نحو باب اللان فالتقى مع خاقان في جموعه فاقتتلوا نحواً من شهرين فهزم خاقان، كما غزا في السنة نفسها معاوية بن هشام أرض الروم ففتح صحاله[3] (صحله). وغزا الصائفة عبد الله بن عقبة الفهري وكان على جيش البحر.

في هذه المرحلة كانت غزوة معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة[4]، وأحرق فرندية[5] من ناحية ملطية، وسار الترك سنة (١١٢هـ ـ ٧٣٠م) إلى اللان فلقيهم الجراح الحكمي فيمن معه

---

[1] اللان: بلاد واسعة في أطراف أرمينية قرب باب الأبواب ـ بجاورون للخزر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٨.

[2] قبرص: جزيرة في بحر الروم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٠٥.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٥٤.

[4] خرشنة: بلد قرب ملطية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٥٩.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٧٠، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٧١.

من أهل الشام وأذربيجان فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل[1] وافتتح الترك أردبيل ثم أرسل سعيد ابن عمر الحرشي إلى أمراء الأجناد أن يوافوه، فالتقى مع الترك واستنقذ ما أصابوه[2].

أما مسلمة بن عبد الملك ففرق الجيوش في بلاد خاقان سنة (١١٣هـ ـ ٧٣١م)، وفتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل وأسر وسبى وأحرق فدان لمسلمة من جبال بلنجر، وفي السنة نفسها كانت غزوة معاوية بن هشام أرض الروم، فرابط من ناحية مرعش ثم رجع، كما غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى سنة (١١٤هـ ـ ٧٣٢م)، فأصاب معاوية ربض أقرن، والتقى عبد الله البطال، بقسطنطين فهزمه وأسره. في الوقت نفسه بلغ سليمان بن هشام قيسارية، وكان مسلمة بن عبد الملك قد هزم خاقان سنة (١١٤هـ ـ ٧٣٢م) وبنى الباب، ورجع واستمرت الصوائف على أرض الروم سنتي (١١٥هـ ـ ٧٣٣م) ـ (١١٦هـ ٧٣٤م) من قبل معاوية بن هشام.

واستمرت الصوائف سنة (١١٧هـ ـ ٧٣٥م)، فغزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وغزا سليمان بن هشام ابن عبد الملك الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة، ففرق سراياه في أرض الروم، وفي العام نفسه أرسل مروان بن محمد، وكان على أرمينية بعثان فافتتح أحدهما ثلاثة حصون من اللان، ونزل الآخر على تومانشاه، فنزل أهلها على الصلح.

بعد ذلك غزا سليمان بن هشام الصائفة سنة (١٢٠هـ ـ ٧٣٧م) وفتح سندرة، وكانت غزوة اسحاق ابن مسلم العقيلي وافتتاحه قلاع تومانشاه، وكانت أيضاً غزوة مروان بن محمد أرض الترك. وكانت غزوة مسلمة بن هشام أرض الروم سنة (١٢١هـ ـ ٧٣٨م) فافتتح بها مطامير، وغزا مروان ابن محمد بلاد صاحب سرير الذهب، فافتتح قلاعه وخرب أرضه وأذن له بالجزية.

وغزا سليمان بن هشام سنة (١٢٤هـ ـ ٧٤١م) الصائفة فلقي ملك الروم فسلم وغنم، وغزا الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد سنة (١٢٥هـ ـ ٧٤٢م)، وأمَّر على جيش البحر الأسود ابن بلال المحازي، وأمره أن يسير إلى قبرص فيخيرهم بين المسير إلى الشام[3] أو إلى الروم، فاختارت طائفة منهم الشام، وطائفة أخرى اختارت الروم، فنقلوا إلى أرض الروم.

---

(1) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان كانت قصبة الناحية ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص١٤٥.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٦٠.

(3) المرجع نفسه ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٧٤.

في الغرب: ففي عهده كان عنبسة بن سحيم[1] والياً على الأندلس، فغزا سنة (١٠٧هـ ـ ٧٢٥م) بلد الفريخ في جمع كثير ونزل مدينة قرقسونة[2] وحصر أهلها، فصالحوه على نصف أعمالها، وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين، وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الدين من محاربة من حارب المسلمين ومسالمة من سالموه، فكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر، واختلف في موته فقيل استشهد جنوبي فرنسا، وقيل مات في شعبان سنة (١٠٧هـ ـ ٧٢٥م)، ووصف بأنه كان رجلاً صالحاً له إصلاحات عمرانية. ثم ولي بعد يحيى بن مسلمة الكلبي[3] بشر بن صفوان.

بشر بن صفوان: غزا بشر بن صفوان عامل أفريقية سنة (١٠٩هـ ـ ٧٢٧م) جزيرة صقلية[4]، ففتح الكثير ثم رجع إلى القيروان فتوفي في السنة نفسها. بعد أن توفي بشر بن صفوان استعمل هشام بن عبد الملك بعده عبيدة بن عبد الرحمن بن أبي الأغر السلمي، فعزل عبيدة بن عبد الرحمن يحيى بن مسلمة الكلبي عن الأندلس، واستعمل حذيفة بن الأحوص الأشجعي[5]، فقدم الأخير الأندلس في ربيع الأول سنة (١١٠هـ ـ ٧٢٨م)، فبقي والياً عليها ستة أشهر ثم عزل وولي عوضه عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، فاستمرت ولايته خمسة أشهر.

ثم عزل عبيدة بن عبد الرحمن عامل أفريقية عثمان بن أبي نسعة عن الأندلس سنة (١١١هـ ـ ٧٢٩م)، واستعمل عوضه الهيثم بن عبيد الكناني، فقدمها في محرم سنة (١١١هـ ـ ٧٢٩م)، وتوفي في ذي الحجة من السنة نفسها، فكانت ولايته عشرة أشهر، فاستعمل أهل الأندلس بعد موته على أنفسهم محمد بن عبد الملك الأشجعي، فبقي شهرين، ثم ولي عوضه عبد الرحمن بن عبد الملك الغافقي[6]، وذلك في صفر سنة (١١٢هـ ـ ٧٣٠م).

غزا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وكان أمير الأندلس كما يذكر ابن الأثير من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، وكان هشام قد استعمل عبيدة على أفريقية والأندلس سنة (١١٠هـ ـ ٧٢٨م)، فلما

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٣٦.

[2] قرقسونه: بينها وبين قرطبة مسافة خمسة وعشرون يوماً ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٢٨.

[3] المغزي ـ نفح الطيب ـ ج٣.

[4] صقلية ـ من جزائر بحر المغرب مقابل أفريقيه ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٤١٦.

[5] المرجع نفسه ـ ح١٤٦.

[6] أخبار مجموعة ـ فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ـ طبع دمشق ـ دار أسامة ـ بلا تاريخ ـ ص .

قدم أفريقية رأى المستنير بن الحارث الحريثي غازياً بصقلية، فأقام هناك حتى أول الشتاء ثم قفل راجعاً، ففرق من معه ونجا المستنير فحبسه عبيدة عقوبةً له وجلده وشهره بالقيروان.

ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله فغزا الفرنج وتوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة، وكانت هذه ولايته الثانية، استشهد في وقعة بلاط الشهداء (قرب بواتيية) في رمضان سنة (١١٤هـ - أكتوبر٧٣٢م)، في عهده جدد نشاط الفتح العربي الإسلامي في الأندلس، واستمرت ولايته سنتين وثمانية أشهر.

ثم إن عبيدة بن عبد الرحمن توجه إلى دمشق ومعه الهدايا والعبيد والرق، والدواب فاستعفى هشام بن عبد الملك، فأجابه وعزله، وولى على الأندلس عبد الملك بن قطن، وذلك سنة (١١٣هـ - ٧٣١م) فغزا أرض البشكنس وعاد سالماً.

عبيد الله بن الحبحاب: استعمله هشام على أفريقية[1] سنة (١١٦هـ - ٧٣٤م)، وكان على مصر قبل ذلك، فسار إلى أفريقية فأخرج المستنير من الحبس وولاه تونس، بعد ذلك جهز عبيد الله بن الحبحاب جيشاً مع حبيب بن أبي عبيدة، وسيره إلى أرض السوس والسودان، فظفر وأصاب ما شاء وعاد. واستعمل عبيد الله بن الحبحاب عطية بن الحجاج القيس على الأندلس سنة (١١٥هـ - ٧٣٣م) عوضاً عن عبد الملك بن قطن، وكان له كل سنة غزاة، وهو الذي افتتح جليقية والبتة وغيرهما.

وقال ابن الأثير[2] في أحداث سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) إن هشام بن عبد الملك استعمله على أفريقية والأندلس وكان والياً على مصر، فاستخلف عليها ولده وسار إلى عمله الجديد، فاستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى، وأرض السودان، فلم يقاتله أحد ورجع سالماً، وسيّر جيشاً في البحر سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) إلى جزيرة السردانية ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا، ثم سيّره غازياً إلى جزيرة صقلية سنة (١٢٢هـ - ٧٣٩م)، ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب، فلما نزل بأرضها، وجه عبد الرحمن على الخيل فلم يلق أحداً إلا هزمه حتى نزل مدينة سرقوسة وهي أعظم مدن صقلية، فقاتلوه فهزمهم وحصرهم، فصالحوه على الجزية وعاد إلى أبيه،

---

(1) قيل استعمل عبيد الله بن الحبحاب على أفريقيه سنة ١١٧هـ ويعتبر ابن الأثير أن ذلك هو الأصح.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٩١.

وعزم حبيب على المقام بصقلية إلى أن يملكها كلها، فأتاه كتاب ابن الحبحاب يستدعيه إلى أفريقية.

ذكرنا أن ابن الحبحاب كان قد استعمل ابنه إسماعيل على طنجة، فأساء السيرة، وأراد أن يخمس مسلمي البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين، فلما سمع البربر بمسير العرب إلى صقلية نقضوا الصلح واجتمعت جموعهم، وقدموا عليهم ميسرة السفاء فقصدوا طنجة فقاتلهم عمر بن عبد الله فقتلوه واستعملوا على طنجة، وبايعوا ميسرة بالخلافة، فقوي أمره.

في هذا الوقت ظهرت جماعة بأفريقية فأظهروا قول الخوارج، عند ذلك أرسل ابن الحبحاب إلى حبيب وهو بصقلية يستدعيه لقتال ميسرة، فعادوا إلى أفريقية، وكان ابن الحبحاب قد سير خالد ابن حبيب في جيش إلى ميسرة، ولما وصل حبيب بن أبي عبيدة سيره في أثره.

التقى خالد وميسرة بنواحي طنجة، فعاد ميسرة إلى طنجة فأنكر البربر سيرته فقتلوه، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتي، ثم التقى خالد بن حميد ومن معه، بخالد بن حبيب ومعه العرب وحدث قتال بين الطرفين، وكان البربر قد استخدموا الكمائن، فهزم العرب وقتل أكثرهم، فسميت هذه المعركة معركة الأشراف[1] لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب، وكانت نتائج هذه المعركة مؤثرة على وضع العرب في أفريقية والأندلس.

ففي الأندلس عندما بلغهم خسارة العرب في هذه المعركة ثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج فعزلوه، وولوا عبد الملك بن قطن، وعلم هشام بن عبد الملك بالأحداث فغضب لما حدث[2]، وقرر إرسال جيش قوي إلى أفريقية، فكتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالقدوم عليه، واستعمل عوضه كلثوم بن عياض القشيري.

كلثوم بن عياض القشيري[3]: استعمله هشام بن عبد الملك على أفريقية والأندلس سنة (١٢٣هـ - ٧٤٠م) وسيّر معه من دمشق جيشاً وأمر سائر البلاد التي يمر بها بالمسير معه، فوصل أفريقية وعلى مقدمته بلج بن بشر، فلقي أهلها منه الجفاء والتكبر عليهم، ثم سار إلى حبيب بن أبي عبيدة، فاجتمعوا على قتال البربر، وبعد أن نشب القتال قتل كلثوم بن عياض، وحبيب، ووجوه العرب،

---

[1] سميت معركة الأشراف لأنه قتل فيها كما يذكر ابن الأثير حماة العرب وأشرافهم..

[2] قال هشام بن عبد الملك - لاغضبن للعرب غضبة وأسير جيشاً يكون أوله عندهم وآخره عندي.

[3] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٩٢.

وانهزموا، وتفرقوا، فمضى أهل الشام إلى الأندلس، وعاد بعضهم إلى القيروان.

وفي مدينة قابس ظهر رجل يقال له عكاشة بن أيوب الفزاري[1]، وكان على رأس الخوارج الصفرية، فلما قوي واشتد خطره، توجه إليه جيش من القيروان، فاقتتلوا فهزم عسكر القيروان، فخرج إليهم جيش آخر من القيروان فهزم عكاشة وقتل أكثر أصحابه.

حنظلة بن صفوان الكلبي[2]: علم هشام بن عبد الملك بأحداث أفريقية، فبعث حنظلة ابن صفوان الكلبي، فوصل أفريقية في ربيع الآخر سنة (١٢٤هـ ــ فبراير٧٤٢م)، فزحف إليه عكاشة فيمن معه، فهزم عكاشة، وقتل من أصحابه الكثير وعاد حنظلة إلى القيروان، وكان عبد الواحد بن يزيد الهواري قد اتفق مع عكاشه على حرب العرب، فسير إليه حنظلة جيشاً قوامه أربعون ألفاً، فهزم جيش العرب، وعادوا إلى القيروان.

أما عبد الواحد، فنزل قرب القيروان بمكان يعرف بالأصنام[3]، ومعه جيش تعداده كما يذكر ابن الأثير ثلاثمائة ألف مقاتل[4]، فحشد حنظلة كل قواته وعبأها، ووزع عليهم السلاح والمال والتقى الطرفان فهزم عبد الله ومن معه من الخوارج، فتبعهم العرب إلى جلولاء يقتتلون، فقتل عبد الواحد وحمل رأسه إلى حنظلة، بعد ذلك أسر عكاشة بمكان آخر، فقتله حنظلة، ثم أعلم الخليفة هشاماً بذلك.

ذكرنا أن أهل الأندلس كانوا قد ثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج السلولي، فعزلوه[5] وولوا عليهم عوضه عبد الملك بن قطن، وكانت هذه ولايته الثانية، وذلك في صفر سنة (١٢٣هـ ــ ٧٤٠م). في هذه المرحلة كانت البربر في أفريقية قد ضيقوا على العرب وحصروا بلج بن بشر العبسي، فأرسل الأخير إلى عبد الملك بن قطن يطلب منه إرسال مراكب للعبور عليها هرباً مما هم فيه من الضيق، فامتنع في البداية عبد الملك بن قطن، ووعدهم بإرسال المدد و لم ينفذ ما وعد به.

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٩٣.

(2) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3) الأصنام ـ إقليم بالأندلس من أعمال شذونة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص٢١٢.

(4) هذا العدد الذي يذكره ابن الأثير كما أعتقد مبالغة لعله ثلاثين ألف.

(5) قيل توفي عتبة بن الحجاج السلولي، وقيل: ثار به أهل الأندلس فخلعوه وولوا بعده عبد الملك بن قطن.

في هذه المرحلة قوي البربر في الأندلس، فاضطر عبد الملك إلى إدخال بلج ومن معه وكان قد اتفق معهم على أن يقيموا سنةً ويرجعوا إلى أفريقية، فوافقوه فلما وصلوا إلى الأندلس، اجتمعوا وقصدوا معاً البربر في الأندلس، فانتصروا عليهم، ثم إن عبد الملك بن قطن أمير الأندلس رجع إلى قرطبة، وقد قال لبلج ومن معه أن يخرجوا إلى أفريقية، فوافقوه فطلبوا مراكب، فامتنع ابن قطن فألحّ عليهم في العودة، فثاروا عليه وقاتلوه، فظفروا به وأخرجوه من القصر في ذي القعدة سنة (١٢٣هـ ـ ٧٤١م) ثم إن بلج قد أشار عليه أصحابه بقتل عبد الملك بن قطن، فقتله وعمره كما يذكر تسعون سنة[1]، وهرب ابناه (قطن وأمية)، فلحق أحدهما بماردة والآخر بسرقسطة، وولي بلج إمارة الأندلس.

استنجد ابنا عبد الملك بن قطن بالبربر، فاجتمع معهما جمع يذكره ابن الأثير، تعداده مائة ألف مقاتل، فلما علم بلج ومن معه بهم ساروا إليهم، والتقوا، وجرى قتال شديد بين الطرفين، فخرج بلج، إلا أنه في النهاية تمكن من ابني عبد الملك بن قطن، وعاد إلى قرطبة فمات من أثر الجراح التي أصيب[2] بها في شوال سنة (١٢٤هـ ـ يونيه٧٤٢م).

بعد ذلك أمر هشام بن عبد الملك عامله على أفريقية حنظلة بن صفوان سنة (١٢٤هـ ـ ٧٤١م) أن يولي أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي الأندلس[3]، فولاه حنظلة وسيّره، فدخل قرطبة يوم الجمعة، في عهده أراد أهل الشام المقيمون بالأندلس العودة إلى الشام، فأنزل كل جماعة منهم على شبه منازلهم بالشام فأقاموا[4].

كان عبد الرحمن بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بعد أن قتل أبوه وكلثوم بن عياش سنة (١٢٢هـ ـ ٧٣٩م) قد سار إلى الأندلس عله يتغلب عليها، إلا أنه فشل لأن أبا الخطار كان قادراً على منعه من تحقيق أهدافه، فعاد إلى أفريقية، فخرج من تونس في جمادى الأولى سنة (١٢٦هـ ـ ٧٤٤م)، وقد ولى الوليد بن يزيد الخلافة، فدعا الناس إلى نفسه فأجابوه وسار بمن اجتمع عليه إلى القيروان، فأرسل إليه حنظلة ـ وهو وال على أفريقية ـ رسالةً مع جماعة من أشراف القيروان

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٥٢.

[2] عندما مات بلج ولى أصحابه عوضه تعلبه بن سلامة.

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٧٣.

[4] قيل أن قرطبة ضاقت عليهم ففرقهم بالبلاد بما يناسبهم.

ورؤساء القبائل يدعوه إلى الطاعة فقبضهم وأخذهم، فتوجه بهم إلى القيروان، فدخل القيروان، وخرج حنظلة إلى الشام، فاستولى على القيروان سنة (١٢٧هـ ـ ٧٤٤م)، وسار إلى أفريقية. بعد ذلك سار ضده بأفريقية عروة بن الوليد الصدفي، فاستولى على تونس، وخرج أبو عطاف عمران بن عطاف الأزدي بطيقاس، وثارت البربر بالجبال، وخرج عليه ثابت الصنهاجي يواجهه.

وجه عبد الرحمن أخاه الياس ومعه ستمائة فارس، وأمره بالمسير، وعندما يجتاز عسكر أبي عطاف وكأنه يريد تونس، أمره أن يثبت في مكانٍ حدده له حتى يأتيه كتابه، ثم استدعى أحد اتباعه وأعطاه كتاباً وأمره أن يمضي حتى يدخل عسكر أبي عطاف، وأمره أن يراقب قواته، فإذا تركوا السلاح والخيل وأمنوا أمره أن يتوجه إلى الياس فيعطيه الكتاب. توجه الرسول فدخل معسكر أبي عطاف فلما رآهم قد أمنوا سار إلى الياس فأعطاه الكتاب، فإذا فيه مهاجمة أبي العطاف وهم في غفلة، فعاد إليهم ففاجأهم، فقتلهم وقتل أبا العطاف سنة (١٣٠هـ ـ ٧٤٧م)، بعد ذلك أمره عبد الرحمن بالتوجه إلى تونس، فسار إليهم، ففاجأهم، فتمكن من عروة ابن الوليد وقتله ثم أقام الياس بتونس.

في هذا الوقت خرج بطرابلس رجلان، فتوجه إليهما عبد الرحمن سنة (١٣١هـ ـ ٧٤٨م) فقتلهما، ثم عمّر سور طرابلس سنة (١٣٢هـ ـ ٧٤٩م)، وعاد إلى القيروان فغزا تلمسان سنة (١٣٥هـ ـ ٧٥٢م)، وسير جيشاً إلى صقلية وجيشاً إلى سردانية فدوخ المغرب ولم ينهزم له عسكر، وبقي إلى أن ولدت الدولة العباسية، فأقر المنصور عبد الرحمن على أفريقية، وأرسل إليه خلعةً سوداء، فكانت أول سواد دخل أفريقية، ثم خلع عبد الرحمن بأفريقية، وحاول أخوه الثورة ضده وإعادة الخطبة للعباسيين، فتمكن من قتل أخيه في ذي الحجة سنة (١٣٧هـ ـ ٧٥٥م)، وضبط الياس البلاد.

عندما قتل عبد الرحمن هرب ابنه حبيب إلى تونس، فتوجه الياس إلى تونس لحرب حبيب ومن معه، ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة، وقسطيلة، ونقراوة، ويكون لعمه عمران بن حبيب (أخي عبد الرحمن) تونس، وصطفورة،والجزيرة، وتكون سائر أفريقية لإلياس، وتم الصلح على ذلك سنة (١٣٨هـ ـ ٧٥٦).

ثم إن الياس غدر بعمران وقتله وأخذ تونس وعاد إلى القيروان، وبعث بالطاعة إلى الخليفة العباسي المنصور. بعد ذلك سار حبيب إلى تونس فملكها، فجرت حرب بينه وبين إلياس فهرب حبيب إلى القيروان، فطارده إلياس. خلال هذه الأحداث قوي أمر حبيب، وقلّ جمع الياس، وغدر

أصحابه ثم جرت مبارزة بين إلياس وحبيب، حيث قتل اليـاس، وهـرب إخوتـه إلى بطـن مـن الـبربر فسار إليهم حبيب، فهزمهم، ثم سار إلى قابس، وقوي أمره.

في هذه المرحلة قوي البربر وأميرهم ورقجومة، فاجتمع عليه البربر، والخوارج، وكان على مقدمة قواته رجل اسمه عاصم بن جميل وكان الأخير قد ادعى النبوة، فغـير وبـدل، فتوجـه إلى القـيروان فهـزم أهل القيروان، ودخلها عاصم ومن معه، ثم سار عاصم يطلب حبيباً وهو بقابس، فأدركه فـانهزم حبيـب إلى جبـل أوراس فنصـره مـن بـه، ثـم هاجمـه عـاصم، فقتـل عاصـم وسـار حبيـب إلى القـيروان فقاتلـه ورقجومة، فقتل حبيب في محرم سنة (١٤٠هـ ـ ٧٥٧م)، ثم قتل ورقجـومة في صفر سـنة (١٤١هـ ـ ٧٥٨م).

يعتبر هشام بن عبد الملك آخر السياسيين الأمويين، فقد كان بعيد النظـر متيقظـاً، يعـرف مـا يريد، يعرف كيف ينجح في مشروعاته، كان يحاول أن يبسط الاستقرار في أرجـاء الدولـة الأمويـة، لكي يساعده ذلك في سياسته الخارجية، فعمل في الداخل على سياسة التوازن بين العصبيـات القبليـة لاقرار الهدوء في الداخل، وعمل جاهداً للحد من انتشار الفساد في كيان الدولة.

إذاً يمكن القول إن هشاماً كان في سياسته الخارجيـة نشيطاً علـى كـل الجبهـات، في الجبهـة الشرقية ضد الخزر حلفاء بيزنطة وضد بيزنطة، وفي الجبهة الغربية تجاه جنوب فرنسـة، لكـن جهـوده في هذا الاتجاه وقفت عائقاً أمامها تلك المشكلات الداخلية التي فرضت نفسها عليه وامتصت طاقاته الإدارية والعسكرية.

ويذكـر ابـن كثـير روايـة عبـد الله البطـال وبطولتـه في موقعـة أكرويتـون الـتي وقعـت سـنة (١٢٢هـ ـ ٧٣٩م) وكـان الجيـش الإسـلامي تسـعين ألـف مقـاتل يقودهـم سـليمان بـن هشـام، فوجـه البطـال مقدمـةً لقواتـه قوامهـا عشـرة آلاف مقـاتل وتحـرك بقواتـه إلى إقليـم قبدوقيـة إلى مدينة أكرويتـون بعـد أن أرسـل إليهـا.

«وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فـارس، فبعـث البطريق ـ الذي تزوج البطال بابنته التي ذكرنا أمرها ـ إلى البطـال يخبره بذلـك، فأخبر البطـال أمير عساكر المسلمين بذلك، وكان الأمير مالك بن شبيب، وقـال لـه: المصلحة تقتضي أن تتحصـن في مدينـة حران، فنكون بها حتى يقـدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك

ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديداً والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفاً عليه من الروم.

فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطاً منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة، فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يقتلون ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها، وأصبح ليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له ليون: ما هذا يا أبا يحيى؟

فقال: هكذا تقتل الأبطال، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له ليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم، فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذا جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففر ليون في جيشه الخبيث هارباً راجعاً إلى بلاده، قبَّحه الله، فدخل القسطنطينية وتحصن بها.

قال خليفة بن خياط: كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة، وقال ابن جرير: في سنة اثنتين وعشرين ومائة، وقال ابن حسان الزيادي: قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة، قيل وقد قاله غيره وإنه قتل هو والأمير عبد الوهاب بن بخت في سنة ثلاث عشرة ومائة كما ذكرنا ذلك والله أعلم، ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا في هذه السنة فالله أعلم»[1].

---

(1) ابن كثير- البداية والنهاية - ج٩ - ص٣٤٦-٣٤٧.

الفصل الثامن

الوليد بن يزيد

الفصل الثامن

الوليد بن يزيد

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. أمه هي أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفي، كني أبا العباس[1]، ولد في سنة ٨٧هـ وقيل ولد بدمشق سنة ٩٠هـ وقيل سنة اثنتين وتسعين، وصف بأنه كان أجمل الناس وأشعرهم وأشدهم، وقيل كان أبيض مشرباً بالحمرة، ربعه جميل وخطه الشيب، ووصف بأنه كان زنديقاً، وكان نقش خاتمه بالعزيز يثق الوليد.

وقال ابن عساكر[2]: «وللوليد في النحو من الخلاعة والمجون، وسخافة الدين ما يطول ذكره وقال: أخبار الوليد كثيرة، وقد ذكرها الأخباريون مجموعة ومفرقة فكنت قد جمعت شيئاً منها فيه من سيره وآثاره، ومن شعره الذي ضمنه ما فخر به وسفاهته وحمقه وجسارته، وهزله ومجونه، وركاكته وسخافة دينه، وما صرح به من الإلحاد في القرآن، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه، عارضت به شعر السخيف بشعر حصيف».

والوليد بن يزيد أول من عدّ الشعر، كان ذلك عندما مدحه يزيد بن قتيبة مولى ثقيف وهنأه بالخلافة، فأمر الوليد أن تعد الأبيات ويعطى عن كل بيت ألف درهم، فعدّت فكانت خمسين بيتاً وقال ابن الأثير[3]: إن مما شهد به الوليد أنه فتح المصحف فخرج قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ

---

(1) المسعودي ـ التنبيه والإشراف ـ تحقيق: عبد الله اسماعيل الصاوي ـ طبع مصر بدون تاريخ ـ ص٢٨٠.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ص٣٣٣.

(3) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٩٠.

﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1]، فألقى كتاب الله ورماه بالسهام، وقال:

تهددنـــــي بجبــــار عنيـــــد فهـــا أنـــا ذاك جبـــار عنيـــد
إذا مـــا جئـــت ربـــك يـــوم حشـــر فقـــل يـــا رب مزقـــني الوليـــد

تولى الخلافة بعد هشام بن عبد الملك يوم السبت[2] في شهر ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ ــ ٧٤٢م)، وقيل يوم الأربعاء لست ليال خلت من ربيع الآخر، وكان ولي عهد هشام وكان هشام يكرمه ويقربه حتى ظهر منه كما يذكر الطبري[3] في أحداث سنة (١٢٥هـ ـ ٧٤٢م) مجون وشرب الشراب، واتخذ الوليد ندماء فأراد هشام إبعاده عنهم فولاه الحج سنة (١١٩هـ ــ ٧٣٧م)، فحمل معه كلاباً في صناديق، وحمل معه قبةً عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس عليها فيشرب[4]، وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به، فعلم هشام بذلك، فرغب في خلعه، والبيعة لابنه مسلمة بن هشام فعرض عليه ذلك فرفض ثم عرض أن يجعلها لابنه من بعده فرفض أيضاً، عند ذلك تنكر له هشام، وعمل في السر لبيعة ابنه.

وتمادى الوليد في الشراب وطلب الملذات فأفرط في ذلك فقال له هشام كما يذكر الطبري: ويحك يا وليد والله لا أدري أعلى الإسلام أنت أم لا ما تدع شيئاً من المنكر إلاّ تأتيه غير متحاشٍ ولا مستتر به»[5]، وأخذ هشام يعيب الوليد وينتقصه، وكثر عيبه له، وأصحابه وتقصره عنه، عند ذلك غضب الوليد ونزل مع بعض أصحابه الأزرق بين بلقين وفزاره على ماء يقال له الأغدق[6]، وخلف كاتبه عايد بن مسلم بالرصافة وأمره أن يكاتبه بما يحدث، ثم إن هشام بن عبد الملك قطع عنه ما كان يجري عليه بسبب منادمته عبد الصمد بن عبد الأعلى، فاعتذر الوليد إليه، وكثر أذى هشام للوليد ثم استخلف بعد موت هشام كما ذكرنا واستعمل العمال.

---

[1] سورة ابراهيم الآية ١٥.

[2] أنور الرفاعي ـ تاريخ العرب والإسلام من العصور القديمة حتى العهد العثماني ـ ص .

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٢٠٩.

[4] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[5] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٢١٠.

[6] الأغدق ـ بئر ـ بالمدينة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص١٨٨.

وبعد أن تولى الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة، وزادهم على ما كان يخرجه له هشام[1]، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة، ثم زاد بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة[2]، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف، وأمر العباس بن الوليد بن عبد الملك أن يأتي الرصافة فيحصي ما فيها من أموال هشام وولده، ويأخذ عماله وحشمه إلا مسلمة بن هشام، ثم عقد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليي عهده أحدهما بعد الآخر[3]، بعد ذلك ولى الوليد نصر بن سيار خراسان كلها وأفرده بها.

لم تمنع الخلافة الوليد بن يزيد عن تهاونه واستخفافه بأمر دينه إنما تمادى في ذلك حتى تركت الأخبار الواردة عن ذلك ككراهته إطالة الكتاب بذكره فكره الناس لأمره، وأفسد على نفسه ابني عميه هشاماً والوليد، وأفسد على نفسه اليمانية وهم خير أهل الشام، فكان ذلك سبباً لقتله.

وكان الوليد بعد أن تولى الخلافة قد ولى خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على المدينة ومكة والطائف[4]، ودفع إليه إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي مقيدين، فقدم بهما المدينة يوم السبت لاثني عشر بقين من شعبان سنة (١٢٥هـ - مايو٧٤٣م)، ثم كتب إليه الوليد يأمره أن يسيرهما إلى يوسف بن عمر وهو والي العراق، فلما قدما عليه عذبهما حتى قتلهما، وسبب ذلك أنه وشي بهما أنهما أخذا أموالاً كثيرة فأغضب الوليد ذلك، وفعل بهما ما فعل علماً أنهما من أخوال هشام بن عبد الملك.

ووصف بأنه كان شديد البطش، طويل أصابع الرجلين، ووصف بأنه كان شاعراً شروباً للخمر عرف بالفاسق، وهو الذي أمر بقتل خالد بن عبد الله القسري[5]، وكان خالد عاملاً لهشام ابن عبد الملك خمس عشرة سنة إلا أشهراً (ولي العراق سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م) وعزل عنها في جمادى الأولى سنة (١٢٠هـ - أبريل٧٣٨م) ثم حبس في واسط من قبل يوسف بن عمر، فبقي في

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢١٧.

[2] محمد ضيف الله بطاقية - الحياة الإقتصادية في العصور الإسلامية الأولى - طبع الأردن - بلا تاريخ - ص١٨٢.

[3] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٦٤.

[4] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٢٦.

[5] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٧٦، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٥٤.

الحبس ثمانية عشر شهراً، ومعه أخوه إسماعيل، وابنه يزيد وابن أخيه المنذر، وفي شوال سنة (١٢١هـ - سبتمبر٧٣٩م) أمر هشام بن عبد الملك بإطلاق سراحه، فنزل خالد الكوفة في قصر أخيه، وخرج ابنه يزيد على بلاد طيء حتى ورد دمشق، كما قدم خالد بن عبد الله القسري ومعه بعض أهله، وأقام خالد بدمشق خلال خلافة هشام حتى هلك واستخلف الوليد، ثم دفع بخالد إلى يوسف بن عمر فقتله[1] الأخير، ودفن بناحية الحيرة[2] في محرم سنة (١٢٦هـ - ٧٤٣م).

نصر بن سيار: ذكرنا أن نصر بن سيار كان قد تولى خراسان بمفرده، فقدم يوسف بن عمر كما يذكر الطبري[3] على الوليد، فاشترى نصراً وعماله منه، فرد إليه الوليد ولاية خراسان، ثم كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يأمره بالقدوم عليه وأن يحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يقدم معه عياله أجمعين، عندما وصل الكتاب إلى نصر بن سيار قسم على أهل خراسان الهدايا وعلى عماله أيضاً ولم يدع بخراسان جارية ولا عبداً ولا برذوناً فيها إلا وأعده، واشترى ألف مملوك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل، وأعد أيضاً خمسمائة مصبغة وأمر بصنع أباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء بيهق[4]، فكتب إليه الوليد يأمره أن يبعث إليه برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة، وأن يجمع له كل صناجة بخراسان يقدر عليها.

خلال هذه المرحلة كان يوسف بن عمر يلح على نصر بن سيار بالقدوم وهو يتباطأ معتمداً قول المنجمين الذين أخبروه بأن فتنة ستكون، فوجه يوسف بن عمر رسولاً إلى نصر يستحثه بالقدوم، وإذا هو دار الإمارة، بعد ذلك حدثت فتنة، فانتقل نصر إلى قصره بماجان[5]، واستخلف على خراسان عصمة بن عبد الله الأسدي، وولى الخراج المهلب بن إياس العدوي.

و ولى الشاش موسى بن ورقاء، وولى سمرقند حسان من أهل صفانيان الأسدي، و ولى أمل مقاتل بن علي السندي، وأمرهم إذا بلغهم خروجه من مرو أن يستجلبوا الترك وأن يغيروا على ما

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - مقتله - ج٥ - ص٢٧٩.

(2) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، وبالحيرة الخورنق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٢٨.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٢٤.

(4) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرون قرية - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٥٣٧.

(5) ماجان: نهر كان يشق مدينة مرو وماخان - من قرى مرو - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٢.

وراء النهر لينصرف إليهم بعد خروجه، وبينما نصر بن سيار في طريقه ليلاً إلى العراق طرقه مولى لبني ليث، وعند الصباح أذن نصر للناس، وبعث إلى رسل الوليد، فأخبرهم أن فلاناً طرقني ليلاً وأخبرني أن الوليد قد قتل، وأن الفتنة قد وقعت بالشام، وأن منصور بن جمهور قدم العراق، وهرب يوسف بن عمر، وبقي نصر على ما هو عليه من ولاية خراسان.

مقتل يحيى بن زيد: ذكرنا أن يحيى بن زيد بن علي كان قد توجه إلى خراسان بعد أن قتل والده زيد، فكتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار بمسير يحيى بن زيد وأخبره أنه عند الحريش ابن عمرو بن داؤود ببلخ، وأمره أن يرسل إليه من يأخذه بشدة، فأرسل نصر بن سيار إلى عقيل بن معقل العجلي يأمره أن يأخذ الحريش ولا يفارقه حتى تزهق نفسه أو يأتيه يحيى بن زيد، قدم عقيل على الحريش، فسأل عن يحيى بن زيد، فقال له: لا علم لي به، فجلده ستمائة سوط، فقال له الحريش: وا لله لو كان تحت قديم ما رفعتها لك عنه.

في هذا الوقت قدم ابن الحريش واسمه قريش إلى عقيل، فقال له: لا تقتل أبي وأنا أدلك عليه فأرسل معه من يدله عليه، فأخذه ومعه يزيد بن عمر، فقدم به على نصر فحبسه وأعلم يوسف بن عمر بخبره، فكتب الأخير إلى الوليد بن يزيد، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره أن يخلي سبيله ويؤمنه وأصحابه، فأخلى نصر سبيل يحيى وأمنه وأمره أن يلحق بالوليد بن يزيد، وأعطاه ألفي درهم وبغلين فخرج يحيى، فلما وصل إلى سرخس أقام بها وعليها عبد ا لله بن قيس بن عباد، فكتب نصر إليه يأمره بإبعاده عنه، وكتب نصر إلى الحسن بن زيد التميمي، وهو على طوس يأمره بأن يمنع يحيى من الإقامة بطوس، وأمره ألاّ يدعه ولا يفارقه حتى يدفعه إلى عمر بن زرارة بأبر شهر.

أمر عمر بن زرارة ليحيى بألف درهم، وسيره من عنده حتى انتهى إلى بيهق، فأقبل من بيهق في سبعين رجلاً إلى عمر بن زرارة، ومر به تجار فأخذ دوابهم، فكتب عمر بن زرارة إلى نصر بن سيار بذلك، فكتب نصر إلى عبد ا لله بن قيس، وإلى الحسن بن زيد أن يمضيا إلى عمرو بن زرارة فينضما إليه ثم يتوجهوا جميعاً إلى حرب يحيى بن زيد، فاجتمعوا مع ابن زرارة وكانوا في عشرة آلاف، فأتاهم يحيى بن زيد ومعه كما ذكرنا سبعون رجلاً، فهزمهم كما يذكر الطبري[1] وقتل عمر بن زرارة ثم قدم يحيى فمرّ بهراة.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٢٧١.

بعد ذلك سرح نصر بن سيار، سلم بن أحوز في طلب يحيى بن زيد فأتى هراة، وقد خرج منها يحيى فتبعه فلحقه بجوزجان، فعبأ سلم قواته واشتبك مع يحيى في قتال، فقتل يحيى وأكثر أصحابه، ثم أخذ رأس يحيى وأعلم الوليد بن يزيد بذلك، فأمر يوسف بن عمر بإحراقه وذر رماده في البحر.

قتل الوليد: لم تزد الخلافة الوليد بن يزيد إلا تمادياً في اللهو واللذة وغير ذلك كما ورد كإفساد الناس عليه، وخاصةً ابني عميه هشام والوليد، وكان قد أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان[1] (من أرض الشام)، فحبسه وحبس يزيد بن هشام فرماه بنو هشام وبنو الوليد بالكفر، وغشيان أمهات أولاد أبيه، وقالوا: اتخذ مائة جامعة لبني أمية، وحبس سعيد بن بيهس حتى مات في السجن لأنه نهاه عن البيعة لإبنيه الحكم وعثمان لصغرهما.

كان أشد الناس عليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الناس إليه أميل لأنه كان يظهر النسك والتواضع، وفسدت اليمانية، وفسدت قضاعة، وكان الوليد قد حبس خالد بن عبد الله، وأمر أن يطالب بأموال العراق، وقتل خالداً القسري كما ورد.

وأتت اليمانية يزيد بن الوليد وأرادوه على البيعة، فشاور يزيد عمرو بن يزيد الحكمي، فقال له: لا يبايعك الناس على هذا وشاور أخاك العباس فإن بايعك لم يخالفك أحد، وإذا رغبت الظهور فأظهر أن أخاك العباس قد بايعك، توجه يزيد إلى أخيه فاستشاره، فنهاه عن ذلك، فرجع وبايع الناس سراً وبث دعاته، ثم عاد أخاه فاستشاره فنهاه مرةً أخرى.

علم مروان بن محمد وهو بأرمينية بالأحداث فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة، فلما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق متنكراً في سبعة نفر، فدخل دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً، وبايع أهل المزة[2]، في هذه المرحلة كان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج، فخاف الوباء فخرج منها ونزل قطنا[3] بعد أن استخلف ابنه عليها، وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي، فأجمع يزيد الظهور.

---

[1] عمان: بلد في طرف الشام كانت قصبة أرض البلقاء - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٥١.

[2] المزة: قرية في وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٢٢.

[3] قطنا: من قرى دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٧٤.

أرسل يزيد أصحابه بعد المغرب ليلة الجمعة فكمنوا عند باب الفراديس، فلما آن وقت العشاء دخلوا المسجد فصلوا مع الناس، وكان للمسجد حرس مهمته إخراج الناس منه بالليل، فلما صلى الناس أخرجهم الحرس وتباطأ أصحاب يزيد، ولم يبق في المسجد غيرهم وحرس المسجد، فأخذوا الحرس. في هذا الوقت توجه يزيد بن عتبة إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده، فقال: قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه، فأقبل في إثني عشر رجلاً، فلما كان بسوق الحمر اجتمعوا بأربعين رجلاً من أصحابهم ثم انضم إليهم زهاء مائتي رجل فمضوا إلى المسجد فدخلوه، فأخذوا باب المقصورة، وقالوا رسل الوليد: ففتح لهم الخادم الباب فأخذوه ودخلوا، فأخذوا خزان بيت المال، وأرسل إلى كل من كان يحذره، وأرسل إلى والي دمشق محمد بن عبد الملك فأخذه، كما أخذ محمد ابن عبيدة وهو على بعلبك[1] وأخذوا ما بالمسجد من سلاح.

وفي صباح اليوم التالي جاء أهل المزة، وأقبل أهل داريا[2]، وأهل دوما[3]، وحرستا[4]، وأهل دير مران[5] وأقبل أهل جرش[6]، وأهل الحديثه[7]، ودير زكا[8]، وأقبل بنو عذرة وسلامان، وأقبلت جهينه، بعد ذلك جهز يزيد جيشاً وسيره إلى الوليد بن يزيد، وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك. عندما علم الوليد بن يزيد بما حدث بدمشق وكان بالأغدق (من أرض عمان) سير أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دمشق، فبايع ليزيد بن الوليد، فلما علم الوليد بذلك، قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سر إلى حمص فإنها حصينة، ووجه الخيول إلى يزيد بن الوليد فيقتل أو يؤسر.

لم يستجب الوليد إلا لرأيه وسار إلى البخراء[9] فنزل قصر النعمان بن بشير، وسار معه من

---

[1] بعلبك: مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٥٣.

[2] داريا: قرية من قرى دمشق بالغوطة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٣١.

[3] دوما: من قرى غوطة دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٨٦.

[4] حرستا: قرية وسط بساتين دمشق على طريق حمص - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٤١.

[5] دير مران: قرب دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٥٣٣.

[6] جرش: شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٢٧.

[7] الحديثة: من قرى غوطة دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٣٢.

[8] دير زكا: قرية بغوطة دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٥١٣.

[9] البخراء: في طرف الحجاز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٥٦.

ولد الضحاك أربعون رجلاً بدون سلاح، فقابلهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، ومعه منصور بن جمهور، واشتبك الطرفان في قتال شديد علماً أن الوليد كان قد أخرج لواء مروان بن الحكم الذي كان عقده بالجابية عله يجذب الناس إليه.

وكان العباس بن الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى الوليد: إنني في طريقي إليك، فعلم عبد العزيز بمسير العباس إلى الوليد، فأرسل منصور بن جمهور إلى طريقه فأخذه قهراً فقدم به على عبد العزيز، فأمره أن يبايع أخاه يزيد فبايع، ثم نصبوا رايةً وقالوا: هذه راية العباس قد بايع لأخيه يزيد، فتفرق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز.

أرسل الوليد إلى عبد العزيز يبذل له خمسين ألف دينار، وولاية حمص ما يفي ويؤمنه على أن ينصرف عن قتاله فرفض، عند ذلك هرب الوليد فدخل القصر وأغلق الباب، فحاصره عبد العزيز، فطلب الوليد من يتحدث إليه، فتقدم يزيد بن عتبة فأخذ الوليد بعدد ما قدمه من الزيادة في العطاء وإعطاء الفقراء وغير ذلك، فقال له: «إنا ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله»[1]، بعدها دخل الوليد الدار فأخذ مصحفاً وأخذ يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان.

عند ذلك صعد الناس على الجدران وكان أولهم يزيد بن عتبة فنزل إليه، فقال الوليد بن يزيد: الله لا يرتق فتقكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم، ثم نزل بعده عشرة فضربه أحدهم على رأسه، وضربه آخر على وجهه، واحتزوا رأسه وسيروه إلى يزيد بن الوليد فسجد الأخير وأمر أن ينصب رأسه على رمح فطاف به دمشق، ثم أمر به أن يدفع إلى أخيه سليمان، فشهد عليه أخوه أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، وقال: «لقد أرادني في نفسي الفاسق»[2].

قتل الوليد بن يزيد لليلتين[3] بقيتا من جمادى الآخرة سنة (١٢٦هـ - ٧٤٣م)، وقيل قتل

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٨٧.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص٢٨٨.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٩، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٨٨، ابن كثير - البداية والنهاية ج١٠ - ص٩، المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٢٣٤، السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٩٥، البلاذري - أنساب الأشراف - ج٩ - ص١٨٣.

الوليد بالبخراء من تدمر على أميال في التاريخ المذكور سابقاً، واختلف في مدة خلافته، فقيل كانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وقيل سنة وشهرين وإثنين وعشرين يوماً، واختلف في عمره، فقيل مات وعمره اثنان وأربعون سنة، وقيل ثمان وثلاثون سنة، وقيل إحدى وأربعون سنة، وقيل ست وأربعون سنة.

الفصل التاسع

يزيد بن الوليد

الفصل التاسع

يزيد بن الوليد

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد سنة (١٢٦هـ ــ ٧٤٣م) يكنى أبا خالد، سمي يزيد بالناقص[1]، لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطاء الناس ورد العطاء على ما كان عليه في عهد هشام، وقيل : أول من أطلق عليه الناقص مروان بن محمد، كان نقش خاتمه ـ العظمة لله ـ وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد، وكان قدرياً، وصف بأنه كان أسمر، مديد القامة صغير الرأس، وكان جميلاً، وفي فمه بعض السعة، وكان يعرف بالتنسك والتأله والتواضع.

خلاف أهل حمص[2]: بعد مقتل الوليد اضطربت أمور بني أمية، واختلف أمرهم، فوثب سليمان بن هشام بعمان، وكان الوليد قد حبسه بها كما ذكرنا، فأخذ الأموال وتوجه إلى دمشق، في هذه المرحلة كان مروان بن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان عقلاً ونبلاً، فلما قتل الوليد بلغ أهل حمص قتله، فأغلقوا أبوابها، وعلموا أن العباس بن الوليد قد مال إلى عبد العزيز بن الحجاج. عند ذلك وثب أهل حمص، فهدموا دار العباس وانتهبوها، وسلبوا حرمه وأخذوا بنيه فحبسوهم وطلبوه، فهرب إلى يزيد بن الوليد، وكاتبوا الأجناد ودعوهم

---

[1] حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ـ طبع مصر ١٩٦٤ ـ ج١ ـ ص٣٣٥.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٢٦٢، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٩٢، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٣.

إلى الطلب بدم الوليد، فأجابوهم، وقرر أهل حمص ألا يدخلوا في طاعة يزيد، وأمروا عليهم معاوية ابن يزيد بن الحصين بن نمير، واتفق معهم مروان بن عبد الله على ما أقروه.

فلما بلغ يزيد بن الوليد خبرهم وجه إليهم رسلاً، فقال لهم: إنه ليس يدعو إلى نفسه ولكنه يدعو إلى الشورى إلا أنهم لم يتفقوا، فما كان من أهل حمص إلا أن طردوا رسل يزيد بن الوليد، وكان أمر أهل حمص لمعاوية بن يزيد بن حصين، وليس إلى مروان بن عبد الله من أمرهم شيء، وكان معهم السمط بن ثابت وأبو محمد السفياني. وجه يزيد بن الوليد أخاه مسرور بن الوليد، والوليد بن روح في جمع كبير فنزلوا حوارين[1]، بعد ذلك قدم على يزيد، سليمان بن هشام فأكرمه، وتزوج أخته، ورد عليه ما كان الوليد قد صادره من أموالهم، ثم وجه إلى مسرور بن الوليد والوليد بن روح، وأمرهما بالسمع والطاعة له، وكان أهل حمص قد نزلوا قريةً لخالد بن يزيد بن معاوية.

أثناء ذلك قتل أهل حمص مروان بن عبد الله، وقتلوا ابنه لأنه اعترضهم، وكان رأيه التوجه لمحاربة الجيش الذي يقوده مسرور، وكان رأيهم التوجه إلى دمشق، فلما قتل مروان بن عبد الله، ولوا عليهم أبا محمد السفياني، وأرسلوا إلى سليمان بن هشام يعلمونه أنهم قادمون عليه، فتوجهوا إليه بدمشق، فلقيهم سليمان بالسليمانية في مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك، خلف عدرا[2]، عند ذلك دعا يزيد بن الوليد، عبد العزيز بن الحجاج في ثلاثة آلاف، وأمره أن يثبت على ثنية العقاب[3]، ودعا أيضاً هشام بن مصاد، فوجهه في ألف وخمسمائة وأمره أن يثبت على عقبة السلامة[4]، وأمرهم أن يمد بعضهم بعضاً.

كان أهل حمص بالسليمانية قد جعلوا الزيتون على يمينهم، والجبل على شمالهم، والجبال خلفهم، وليس لهم طريق إلا من وجه واحد، ثم تقدم سليمان فعبأ قواته ميمنةً وميسرةً وقلباً، واشتبك الطرفان في قتال عنيف قتل فيه من أهل حمص بحدود مائتي رجل ومن أصحاب سليمان خمسون. أثناء ذلك وصل عبد العزيز من ثنية العقاب كقوة جديدة ودخل المعركة، فكانت هزيمة

---

[1] حوارين: كوره من أعمال دمشق من جهة القبلة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٨٧.

[2] عدرا: قرية بغوطة دمشق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٩١.

[3] ثنية العقاب: مشرفة على غوطة دمشق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٨٥.

[4] عقبة السلامة: قرية من قرى الطائف ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٣٤.

أهل حمص، ثم كفوا عنهم على أن يبايعوا ليزيد بن الوليد، وأخذ أبو محمد السفياني، ويزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية فحبسا، ثم وجه بهما إلى يزيد بن الوليد، فحبسهما في الخضراء، ثم دخل سليمان وعبد العزيز إلى دمشق، واجتمع أمر أهل دمشق وبايعوا يزيد بن الوليد، ثم استعمل يزيد ابن الوليد معاوية بن يزيد بن الحصين من أهل حمص، وأقام الباقون بدمشق، ثم ساروا إلى أهل الأردن وفلسطين.

خلاف أهل الأردن وفلسطين[1]: خلال هذه الأحداث كان سعيد بن عبد الملك عاملاً للوليد على فلسطين، وذلك سنة (١٢٦هـ - ٧٤٣م)، وكان ولد سليمان بن عبد الملك ينزلون فلسطين، فكان أهلها يحبونهم لجوارهم، وبعد قتل الوليد رأس أهل فلسطين سعيد بن روح بن زنباع، فكتب الأخير إلى يزيد بن سليمان يعلمه بقتل الوليد، وطلب منه القدوم لكي يولوه عليهم، وفي الوقت نفسه كتب إلى سعيد بن عبد الملك، وكان ينزل السبع[2] يأمره بالإرتحال، فخرج إلى يزيد بن الوليد.

دعا يزيد بن سليمان أهل فلسطين إلى قتال يزيد بن الوليد، فوجه إليهم سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص، وكانوا أربعة وثمانين ألفاً. كان سليمان بن هشام قد أرسل رسلاً إلى كل من ضبعان، وسعيد ابني روح، وإلى الحكم وراشد ابني جرو من بلقين[3]، يعدهم ويمنيهم على الدخول في طاعة يزيد بن الوليد فوافقوه، وقيل إن يزيد بن الوليد كان قد وجه عثمان بن داؤود الخولاني إلى محمد بن عبد الملك، ويزيد بن سليمان يدعوهما إلى طاعته ويعدهما ويمنيهما، وحدث ضبعان بن روح بمثل ذلك، ووعده بولاية فلسطين، فأجابوا عند ذلك ورحل بأهل فلسطين.

وكان يزيد بن الوليد قد أرسل عيناً له إلى الأردن، وهو محمد بن سعيد بن حسان الأردني فلما اجتمع له ما يريد ولاه خراج الأردن، فلما خالفوا يزيد بن الوليد توجه محمد بن سعيد بن حسان إلى سليمان بن هشام فسأله أن يوجه معه خيلاً فيشن الغارة على طبرية فرفض، فخرج إلى يزيد بن الوليد فأعلمه الخبر، فكتب يزيد إلى سليمان يأمره أن يوجه معه ما أراد فوجه معه مسلم بن

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٦٦، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص ، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٤.

(٢) السبع: وهي في برية أرض فلسطين بالشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٨٥.

(٣) طبرية: من أعمال الأردن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٧.

ذكوان في خمسة آلاف، فخرج بهم حتى قدم البطيحة[1]، فتفرقوا في القرى، ثم توجه في طائفة منهم نحو طبرية. عند ذلك توجه أهل طبرية إلى دار يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك، فانتهبوهما وأخذوا دوابهما وسلاحهما ولحقوا بقراهم ومنازلهم، فلما تفرق أهل فلسطين والأردن، خرج سليمان حتى أتى الصنبرة[2] وأتاه أهل الأردن، فبايعوا يزيد بن الوليد.

ثم إن سليمان بن عبد الملك طلب من يزيد بن الوليد أن يولي ابن سراقة فلسطين، والأسود ابن بلال المحاربي الأردن، ثم بايع أهل الرملة ليزيد، واستعمل يزيد بن الوليد كلاً من إبراهيم بن الوليد على الأردن، وضبعان بن روح على فلسطين، ومسرور بن الوليد على قنسرين، وابن الحصين على حمص.

عزل يوسف بن عمر[3]: عندما استقر أمر الشام ليزيد بن الوليد قرر عزل يوسف بن عمر عن العراق واستعمل عوضه منصور بن جمهور على العراق وخراسان، فلما كان منصور بعين التمر[4] كتب إلى من بالحيرة من قادة أهل الشام يعلمهم قتل الوليد، وتأميره على العراق، ويأمره بأخذ يوسف بن عمر وعماله.

قدم منصور الكوفة في رجب سنة (١٢٦هـ - أبريل٧٤٤م)، أما يوسف بن عمر فسار من الكوفة إلى الشام فنزل البلقاء، فلما بلغ خبره يزيد بن الوليد وجه إليه خمسين فارساً، فكان يوسف بن عمر يهرب منهم وهم يلاحقونه، فوجدوه بين نسوة كن قد ألقين عليه قطيفة قز وجلسن على حواشيها حاسرات، فأخذوه إلى يزيد بن الوليد، فأمر به فحبس بالخضراء، ثم نقله فحبسه مع ابني الوليد.

أما منصور بن جمهور فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء وأطلق من كان بالسجون من العمال وأهل الخراج وبايع ليزيد بالعراق، واستعمل حريث بن أبي الجهم على واسط، وجرير بن يزيد بن جرير على البصرة، ثم توجه إلى الكوفة فدخلها، فأخذ بيوت المال وأخرج العطاء، والأرزاق، وأطلق من بالسجون وبايع ليزيد بن الوليد، ثم ولّي عبيد الله بن العباس الكوفة (وقيل

---

[1] البطيحة: أرض واسعة بين واسط والبصرة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٥٠.

[2] الصنبرة: موضع بالأردن مقابل العقبة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٤٢٥.

[3] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٩٥.

[4] عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٧٦.

وجده والياً فأقره) وولّى شرطته ثمامة بن حوشب، ثم عزله وولى الحجاج بن أرطأة النخعي.

ذكرنا فيما مضى أن يوسف بن عمر كان قد كتب إلى نصر بن سيار بالقدوم، وتباطؤه وما معه من الهدايا، فلما علم نصر بالأحداث رجع إلى عمله ورد الهدايا، وأعتق الرقيق، وقسم الجواري، والآنية في الناس، ووجه العمال، فولى على طخارستان، وعلى خوارزم، وعلى قهستان، وأمرهم بحسن السيرة، ومنع عامل منصور بن جمهور الذي أرسله إلى خراسان من دخولها[1].

اليمامة: أما الأحداث باليمامة[2] بعد مقتل الوليد وعليها علي بن المهاجر، حيث حاول المهير بن سلمى بن هلال إخراجه منها فرفض، فجمع المهير من استطاع جمعه وزحف بهم إليه وهو في قصره بقاع هجر[3] فالتقوا بالقاع فانهزم علي بن المهاجر فدخل قصره ثم هرب إلى المدينة، ثم تأمر المهير على اليمامة.

بعد ذلك استخلف على اليمامة عبد الله بن النعمان[4]، وبعد أن مات المهير، استعمل المندلث ابن إدريس على الفلج[5]، فجمع له بنو كعب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، وأبو الفلج المندلث، وقاتلهم فقتل المندلث وأكثر أصحابه، فسمي هذا اليوم يوم الفلج الأول، فلما علم عبد الله بن النعمان بما حدث جمع ألفاً من حنيفة وغزا الفلج، واستمر أمر اليمامة ما بين سلم وحرب حتى قدم المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على اليمامة من قبل أبيه يزيد بن عمر بن هبيرة حين ولي العراق.

ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز العراق: ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن العراق واستعمل عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز[6]، فلما قدم العراق سلم إليه منصور بن جمهور العمل وانصرف إلى الشام، ففرق عبد الله بن عمر العمال وأعطى الناس أرزاقهم، واستعمل على شرطته عمر بن الغضبان القبعثري، وعلى خراج السواد.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٢٧٧.

[2] اليمامة: معدودة من نجد وقاعدتها هجر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤٤٢.

[3] هجر: مواقع منها هجر البحرين ـ وهجر نجران ـ وهجر جازان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٩٣.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٩٩.

[5] الفلج: قرية من قرى عامر بن صعصعة، وقيل هي لبني تميم ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٧١.

[6] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٠٢.

وفي خراسان ذكرنا أن نصراً كان قد وزع عليهم بعض أعطياتهم ورقاً وذهباً من الآنية التي كان قد قرر إهداءها للوليد، ثم طلبوا منه العطاء، ووثب أهل العراق إلى أسواقهم، فغضب نصر وقال لهم: ما لكم عندي عطاء، في هذا الوقت قدم على نصر بن سيار عهده على خراسان من عبد الله بن عمر.

في هذا الوقت قال الكرماني[1] لأصحابه: الناس في فتنة فانظروا لأموركم رجلاً ولو أمركم عليه، فقيل لنصر بن سيار إن الكرماني يفسد الناس عليك، فعزم نصر على حبسه فأرسل صاحب حرسه ليأتيه به، فسار إلى نصر، فأمر نصر به وحبسه، في رمضان سنة (١٢٦هـ - يونيه٧٤٤م)، ثم إن الكرماني تمكن من الهروب من داخل السجن، عندما هرب الكرماني عسكر نصر بباب مرو الروز، بعد ذلك تصالحا ولزم الكرماني داره ثم بلغه عن نصر ما يغضبه، فخرج ثم أمنه مرة أخرى، ورغبته كانت في إخراجه من خراسان.

عندما عزل منصور بن جمهور عن العراق سنة (١٢٦هـ - ٧٤٣م) خطب نصر فنال من الكرماني، فغضب الكرماني، وأخذ في جمع الرجال والسلاح، وأظهر الخلاف وتهيأ للخروج إلى جرجان.

الحارث بن سريج[2]: ذكرنا فيما سبق أن الحارث بن سريج كان قد ذهب إلى بلاد الترك، ومازال بها إلى أن وقعت الفتنة بخراسان بين نصر بن سيار والكرماني، وخاف نصر من قدوم الحارث عليه في أصحابه والترك، فأرسل إليه من يرده، وفي الوقت نفسه كان يزيد بن الوليد قد كتب له أماناً وأمر نصر بن سيار أن يرد عليه ما أخذ منه ، فأرسل نصر إليه، فرده فأقام بمرو الروز. ثم إن يزيد بن الوليد أمر بالبيعة لأخيه إبراهيم[3]، ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وسبب ذلك كان مرضه وتحريض القدرية له فتم ذلك.

مخالفة مروان بن محمد[4]: كان على الجزيرة عبد الله بن الرباح الغساني عاملاً للوليد، فلما قتل الوليد سار عبد الله إلى الشام، فوثب عبد الملك بن مروان بن محمد على حران

---

(1) سمي الكرماني - لأنه ولد بكرمان، واسمه جديع بن علي الأزدي.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٠٧.

(3) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٠٨.

(4) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٢٨١.

والجزيرة فضبطها وكتب إلى أبيه مروان وهو بأرمينية يعلمه بذلك، ويشير عليه بالقدوم إليه، فأنفذ مروان إلى الثغور من يضبطها ويحفظها، وأظهر أنه يطلب بدم الوليد، وسار ومعه الجنود وسار ومعه ثابت بن نعيم الجذامي.

أثناء ذلك أمر ثابت بن نعيم من كان مع مروان من أهل الشام بالإنضمام إليه والتوجه إلى الشام، فوافقوه فاجتمع إليه ضعف ما بقي مع مروان، ثم إن مروان تمكن من جمعهم وأخذ نعيم وأولاده فحبسهم وضبط الجند، حتى بلغ حران[1] وسيرهم إلى الشام، ثم فرض العطاء لعشرين ألفاً وتجهز للمسير إلى يزيد. عندما علم يزيد بن الوليد بذلك كتب له كي يبايعه على أن يوليه الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فبايعه مروان وولاه ما ذكر.

وكان يزيد بن الوليد قد عزل يوسف بن محمد عن المدينة واستعمل عوضه عبد العزيز بن عمرو بن عثمان فقدمها في ذي القعدة[2] سنة (١٢٦هـ ـ أغسطس٧٤٤م).

وفاة يزيد بن الوليد[3]: ثم إن يزيد بن الوليد توفي لعشر بقين من ذي الحجة، وكانت خلافته ستة أشهر وليلتين، وقيل: كانت ستة أشهر واثني عشر يوماً، وقيل: خمسة أشهر واثني عشر يوماً، وكان موته بدمشق، واختلف في عمره فقيل: كان عمره ستاً وأربعين سنة، وقيل: سبعاً وثلاثين سنة.

خلافة إبراهيم بن الوليد: بعد موت يزيد بن الوليد سنة (١٢٦هـ ـ ٧٤٣م) قام بالأمر بعده أخوه إبراهيم بن الوليد[4] غير أن أمره لم يتم بإجماع المؤرخين، فكان يسلم له تارةً الخلافة وتارةً أخرى بالإمارة فمكث أربعة أشهر، أو قيل أقل حيث سار إليه مروان بن محمد، فخلعه في ربيع الآخر سنة (١٢٦هـ ـ ٧٤٤م).

خلع إبراهيم بن الوليد: ذكرنا كيف بايع مروان بن محمد الوليد وما ولاه من أرمينية والجزيرة والموصل، فلما مات يزيد بن الوليد سار مروان في جنود الجزيرة سنة (١٢٧هـ ـ ٧٤٤م)

---

(1) حران ـ على طريق الموصل والشام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٢٣٥.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣١٩.

(3) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٢ ـ ص ، ابن الأثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٨.

(4) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٣.

بعد أن خلف ابنه عبد الملك في أربعين ألفاً من الرابطة بالرقة[1]، فلما كان بقنسرين لقي بها أميرها بشر بن الوليد، وكان أخوه يزيد قد ولاه إياها، ومعه أخوه مسرور بن الوليد فدعاهم مروان إلى مبايعته، في هذا الوقت مال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية وأسلموا بسراً وأخاه مسروراً، فأخذهما مروان فحبسهما، وسار معه أهل قنسرين فتوجهوا إلى حمص.

وكان أهل حمص قد امتنعوا عن مبايعة إبراهيم بن الوليد، فوجه إليهم الأخير عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وكان ولي عهده وجند أهل الشام فحاصروا مدينة حمص، وعندما اقترب مروان من حمص رحل عبد العزيز عنها، وخرج أهلها إلى مروان فبايعوه وساروا معه، وكان إبراهيم ابن الوليد قد وجه الجيوش من دمشق مع سليمان بن هشام، فنزل عين الحر[2] في مائة وعشرين ألفاً، ونزل مروان في ثمانين ألفاً، ونشب القتال بين الطرفين[3].

كان مروان ذا رأي ومكيدة حيث وجه ثلاثة آلاف فارس وأمرهم أن يناوروا بالحركة، فساروا من نهر هناك، وقصدوا عسكر إبراهيم ليغيروا عليه، فلم يشعر سليمان ومن معه إلا بالخيل والتكبير في مؤخرة عسكره، فكان ذلك سبب هزيمتهم، فقتل وأسر منهم الكثير فأخذ منهم مروان البيعة لإبني الوليد وهرب يزيد بن خالد بن عبد الله القسري مع سليمان بن هشام إلى دمشق، فاجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، ثم قتل ابني الوليد، كما قتل يوسف بن عمر، وتقدم مروان فدخل دمشق.

عندما دخل مروان دمشق كان إبراهيم بن الوليد وسليمان قد هربا منها وثار من دمشق من موالي الوليد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، ونبشوا قبر يزيد بن الوليد فصلبوه على باب الجابية، ثم إن مروان دفن ابني الوليد ويوسف بن عمر. بعد ذلك بويع مروان بالخلافة[4]، فلما استقر الأمر له رجع إلى منزله بحران ثم أمن إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وبايعوا مروان.

---

[1] الرقة: مدينة مشهورة على الفرات - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٥٩.

[2] عين الحر: موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص١٧٧.

[3] ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص٢٣.

[4] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٢٣.

خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[1]: كان عبد الله بن معاوية قد قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إلى الكوفة وهو والي العراق فأكرمه وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم، فبقوا على ماهم عليه إلى أن هلك يزيد بن الوليد، وبايع الناس إبراهيم ابن الوليد، فلما علم عبد الله بن معاوية خبر بيعتهما، علم أيضاً امتناع مروان بن محمد عن البيعة وسيره إلى الشام.

وعندما ظفر مروان بالسلطة انهزم إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة، وافتعل كتاباً على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة، وجمع إليه اليمانية فأجابوه، وامتنع عبد الله بن عمر عليه فقاتله وكان عبد الله بن عمر قد أعطى مضر وربيعة عطايا كثيرة وتغاضى عن غيرهم كجعفر بن نافع بن القعقاع بن ثور الذهلي، وعثمان بن الخيبري وهما من ربيعة فخرجا من عند عبد الله بن عمر وهو بالحيرة إلى الكوفة، ودعوا ربيعة فاجتمعت إليهم، فبلغ عبد الله بن عمر ذلك فأرسل إليهم أخاه عاصماً فتمكن من جمعهم.

أما الشيعة فلما رأت ضعف عبد الله بن عمر طمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية واجتمعوا بالمسجد، وأخرجوا عبد الله بن معاوية وأدخلوه القصر ومنعوا عاصم بن عمر عن القصر، فلحق بأخيه بالحيرة وبايع أهل الكوفة عبد الله بن معاوية، ومن جملة من بايعه إسماعيل بن عبد الله القسري وأتته البيعة من المدائن، ثم خرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة، وخرج عبد الله بن عمر وأمر مناديه من جاء برأس فله خمسمائة فأتي برؤوس كثيرة وانهزم أصحاب عبد الله بن معاوية إلى الكوفة فدخلوا القصر، ثم أخذ عبد الله بن معاوية الأمان، وسار من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة، فخرج بهم فغلب على حلوان[2] والجبال وأصبهان والري..

الحارث بن سريج: ذكرنا أن الحارث بن سريج كان قد عاد إلى نصر بن سيار[3] فعرض عليه نصر أن يوليه ويعطيه ألف دينار فرفض وكتب إليه يطلب منه العمل بكتاب الله وسنة نبيه

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٢٤، الطبري تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٣٠٢.

(2) حلوان: مدينة كبيرة وأهلها أخلاط من العرب والعجم افتتحت أيام عمر بن الخطاب، وهي آخر حدود العراق ـ اليعقوبي ـ البلدان ـ ص٢٧٠.

(3) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٣٠٩، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٢٨.

واستعمال أهل الخير وبفعل هذا يكون إلى جانبه، وفي الوقت نفسه أرسل الحارث إلى الكرماني يقول له: إن أعطاني نصر ما طلبته منه كنت معه، وإن لم يفعل تابعتك عليه إن ضمنت لي العدل والسنة، ثم جمع الحارث بني تميم فاجتمع إليه ثلاثة آلاف، وقال لنصر إن سبب خروجي من هذا البلد منذ ثلاث عشرة سنة كان إنكار الجور وأنت تريدني عليه.

الفصل العاشر

مروان بن محمد

الفصل العاشر

مروان بن محمد

مروان بن محمد: مــروان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبـد شمـس بـن عبـد مناف أبو عبـد الملك الأموي المعروف بالحمار[1]، وأمـه أم ولـد وقيـل أمـه كرديـة أم ولـد، يقـال لها لبابـة جارية إبراهيـم ابـن الأشـتر، وقيـل أمـه أم لمصعـب بـن الزبـير، وداره بســوق الإسكافين.

ولد بالجزيرة سنة اثنتين وسبعين، وقيل ولد سنة سبعين، وقيل ولد سنة ست وسبعين، وصف بأنه كان أبيض مشرباً، أزرق، ضخم الهامة، كبير اللحية، ربعة، ولم يكن يخضب بالحناء، وقيل كان أبيض أشهل شديد الشهلة، وكان عظيم المروءة والكبر يحب اللهو والسماع والحركة والأسفار والنشيد، كان نقش خاتمه رضيت با لله العظيم.

في سنة (١٠٥هـ ـ ٧٢٣م) غزا مروان بن محمد على الصائفة فافتتح مدينة (قونيـة) مـن أرض الروم ناحية كمخ، وفي سنة (١١٤هـ ـ ٧٣٢م) ولي مروان بن محمد أرمينية وأذربيجـان والجزيـرة[2] بدلاً من مسلمة بن عبد الملك وفي سنة (١١٧هـ ـ ٧٣٥م) بعث مروان بعثين فافتتح أحدهما ثلاثة حصون من اللان، ونزل الآخر على تومانشاه فنزل الأخير على حكـم مـروان بـن محمـد، وفي سنة (١١٨هـ ـ ٧٣٦م) غزا مــروان بن محمـد من أرمينية فدخـل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب[3] فقتل

---

[1] سعدي أبو حبيب ـ مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية ـ طبع سوريا ١٩٨٢ ـ ص .

[2] محمد سهيل طقوس ـ تاريخ الدولة الأموية ـ ٤١-١٣٢ هـ ـ ص .

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص١٩٨.

ورنيس، وفي سنة (١١٩هـ - ٧٣٧م) غزا مروان بن محمد من أرمينية، فدخل من باب السلان فخرج منها إلى بلاد الخزر.

اختلف في بيعته فقيل بايع الناس مروان بن محمد يوم الإثنين في النصف من صفر سنة (١٢٧هـ - نوفمبر٧٤٤م) وقيل بويع له في ربيع الأول وتمكن من أخذ الخلافة عنوةً. بعد ذلك وبعد أن أخذ البيعة اختار[1] أهل دمشق زامل بن عمرو الجيراني والياً عليهم، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي، فأخذ مروان على الجميع العهود المؤكدة والأيمان المغلظة على بيعته، واستقر أمر مروان.

نقض أهل حمص: عندما فرغ مروان بن محمد من أهل الشام وعاد إلى حران أقام ثلاثة أشهر فانتفض عليه أهل حمص[2] سنة (١٢٧هـ - ٧٤٤م) حيث دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم، وأرسل أهل حمص إلى من بتدمر من كليب فأتاهم ألف فارس، فعلم مروان بهم، فتوجه إليهم ومعه إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام وقد أمنهما، كما ذكرنا كان أهل حمص قد أغلقوا أبواب المدينة، فحاصرها مروان حتى فتحها، وقتل من أهلها الكثير، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، وهدم أجزاءً من سورها.

خلاف أهل الغوطة[3]: وخالف مروان بن محمد أهل الغوطة[4] سنة (١٢٧هـ - ٧٤٤م)، أيضاً وعليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق، وأميرها زامل بن عمرو، فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم، وخرج عليهم من بالمدينة فانهزموا فاستباح أصحاب مروان بن محمد، وأحرقوا المزة وأخذ يزيد بن خالد فقتل وأرسل رأسه إلى مروان ومازال بحمص.

خلاف أهل فلسطين[5]: وفي فلسطين أيضاً خرج ثابت بن نعيم على مروان بن محمد سنة ١٢٧هـ وتوجه إلى طبرية فحاصرها وعليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم فقاتله أهلها أياماً،

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣١٢.

(2) محمد كرد علي - خطط الشام - طبع سورية - ١٩٢٥ - ج - ص ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٩٢.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣١٩.

(4) الغوطة - الكورة التي منها دمشق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٢١٩.

(5) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٩٤.

فكتب مروان إلى أبي الورد يأمره بالمسير، فلما اقترب منهم خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه واستباحوا معسكره فانهزم إلى فلسطين، فتبعه أبو الورد، ثم التقوا ببعضهم واقتتلوا، فهزم ثابت وتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى مروان.

استعمل مروان على فلسطين الرماحس (الرماجز) بن عبد العزيز الكناني، فظفر بثابت وأولاده، فبعثهم إلى مروان فقتلهم وصلبهم على أبواب دمشق، ثم بايع مروان لابنيه عبيد الله، وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك وجمع بني أمية واستقام له الأمر عدا تدمر فسار إليها فنزل القسطل[1] وكان أهل تدمر قد عوروا المياه، ثم أرسل الأبرش بن الوليد، وسليمان بن هشام إلى تدمر فخوفوهم وحذروهم فأجابوا إلى الطاعة، ورجع الأبرش إلى مروان بعد أن هدم سور مدينة تدمر، وكان مروان قد سير يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لقتال الضحاك الخارجي، وسار مروان إلى الرصافة، فاستأذنه سليمان بن هشام للإقامة أياماً حتى يقوى ويستريح فأذن له، وتقدم مروان إلى قرقيسياء. في هذا الوقت رجع عشرة آلاف ممن كانوا مع مروان من أهل الشام فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان إلى خلع مروان.

خروج سليمان بن هشام[2]: ذكرنا أن مروان بن محمد كان قد توجه من الرصافة إلى الرقة ليوجه ابن هبيرة إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس، أثناء ذلك استأذن سليمان بن هشام مروان في البقاء بالرصافة أياماً، فأذن له ومضى مروان. في هذا الوقت قدم الرصافة نحو من عشرة آلاف ممن كانوا مع مروان، ودعوا سليمان إلى خلع مروان بن محمد ومحاربته، فوافقه وانضم إليه إخوته ومواليه وولده، ثم قاد المجموع إلى قنسرين، فكاتب أهل الشام فوافقوه.

عندما علم مروان بذلك أقبل إليه، وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالثبات في عسكره، واجتمع من كان بالهني[3] منهم إلى سليمان وولد هشام، فدخلوا حصن الكامل بذراريهم وأغلقوا الأبواب دون مروان، فحذرهم اعتراضه إلا أنهم كانوا يغيرون على المؤخرة فيسلبون الخيول والسلاح.

---

[1] القسطل ـ موضع بين حمص ودمشق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٦ ـ ص٢٤٧.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٣١، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٣٢٣.

[3] الهني: نهران بإزاء الرقة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٤٠٩.

كان سليمان بن هشام سنة (١٢٧هـ - ٧٤٤م) قد اجتمع عليه نحو من سبعين ألفاً من أهل الشام والزكوانية وعسكر في قرية يقال لها خساف[1] من قنسرين، ثم وجه مروان بن محمد، عيسى ابن مسلم كمقدمة له قوامها سبعة آلاف، والتقت المقدمات، فهزمت مقدمة مروان وقتل قائدها، وعندما علم بذلك سار بتعبئته إلى سليمان بن هشام الذي كان أيضاً على تعبئة واستعداد تام، واشتبك الطرفان فهزم سليمان ومن معه، وقتل من أصحابه عدد كبير قدره الطبري بثلاثين ألفاً، أما سليمان بن هشام فهرب إلى حمص وهناك انضم إليه من نجا، فأمر ببناء ما كان مروان قد أمر بهدمه من حيطانها وأسوارها، ثم إن مروان وجه بعض قواته إلى حصن الكامل، فحاصره ورمى عليه بالمنجنيقات، فنزل من به على حكمه، ثم توجه إلى حمص.

كان سليمان بن هشام مع أصحابه قد قرروا محاربة مروان فخرجوا إليه على تعبئته، ثم إن سليمان كمن لخصمه مروان في قرية تل منس[2] (من جبل السماق)، وفي الوقت المناسب خرج الكمين، ووضعوا السلاح في خصمهم، ورغم ذلك هزم أصحاب سليمان بن هشام، فخلف أخاه سعيد بن هشام في مدينة حمص، فتوجه إلى تدمر، فأقام بها بينما نزل مروان على حمص، وحاصرها ونصب عليها أكثر من ثمانين منجنيقاً، واستمر الحصار، والقتال مستمر عشرة أشهر، ونظراً لشدة الحصار استسلم أهل حمص لمروان وسلموا له المدينة، فقتل قادة المعارضة، ثم توجه إلى الضحاك، و لم يمض ذو القعدة من سنة (١٢٧هـ - أغسطس٧٤٥م). حتى استقامت الشام لمروان بن محمد.

بعد ذلك دعا مروان بن محمد، يزيد بن عمر بن هبيرة، فولاه على العراق[3]، وضم إليه أجناد الجزيرة، وكان السبب في ذلك الإجراء الصلح الذي جرى بين عبد الله بن عمر والضحاك بن قيس والذي تقرر فيه أن يكون للضحاك ما بلغ عليه من الكوفة وسوادها، ولابن عمر ما كان بيده من كسكر وميسان ودستمسيان وكور دجلة والأهواز وفارس. وتهيأ الضحاك لمقابلة مروان بن محمد. في هذا الوقت قرر النضر بن سعيد التوجه إلى مروان بالشام، فنزل القادسية، وبلغ ملحان الشيباني عامل الضحاك على الكوفة فخرج إليه، فقتله النضر، فلما علم الضحاك بما حدث استعمل على الكوفة المثنى بن عمران، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة سنة (١٢٧هـ - ٧٤٥م).

---

(1) خساف: مكان بين الحجاز والشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٧٠.

(2) تل منس: حصن قرب معرة النعمان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٤.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٢٧.

بعد ذلك توجه المثنى بن عمران بمن معه من الشراة إضافةً لمنصور بن جمهور إلى ابن هبيرة حيث يعسكر بعين التمر، فالتقوا بغزة من عين التمر، فاقتتلوا أياماً متوالية، فقتل المثنى وبعض أصحابه، وانهزمت الخوارج، وهرب منصور بن جمهور فدخل الكوفة، فجمع ما بها من اليمانية والصفرية وغيرهم، فنزل الروحاء[1]، فأقبل ابن هبيرة إليه بمن معه، فقاتلهم أياماً فهزمهم وهرب منصور، بعد ذلك دخل ابن هبيرة الكوفة، فنفا عنها الخوارج، عندما علم الضحاك ما ألم بأصحابه، دعا عبيدة بن سوار التغلبي، فوجه إليهم فنزل الصراة[2]، وقد لحق به منصور بن جمهور، أما ابن هبيرة فولى الكوفة عبد الرحمن بن بشير، ثم توجه إلى واسط وبها عبد الله بن عمر.

مقتل الحارث بن سريج[3]: بعد ولاية يزيد بن هبيرة على العراق كان قد كتب إلى نصر ابن سيار بعهده وأمره أن يبايع لمروان، فقال الحارث بن سريج، لنصر بن سيار: إن يزيد بن الوليد أمنني، ومروان لا يجيز، أمان يزيد فلا آمنه، فخرج الحارث بن سريج. عند ذلك عرض نصر بن سيار على الحارث أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف، فرفض الحارث، وتفرقت قيس وتميم، ثم إن نصراً قال للحارث: إن شئت فابدأ بالكرماني، فإذا قتلته فإني في طاعتك، وإن شئت خل بيني وبينه، فإذا ظفرت به رأيت رأيك، وإن شئت فسر بأصحابك، فإذا جزت الري فإني في طاعتك.

بعد ذلك اتفق الطرفان، أن يحكم بينهما، مقاتل بن حيان، وجهم بن صفوان، فحكما أن يعتزل نصر، ويكون الأمر شورى، فرفض نصر، ووقعت الفتنة بين الطرفين. في هذا الوقت قدم على نصر بن سيار جماعة من خراسان، وانضم للحارث أيضاً جماعة كبيرة يرون رأيه، ثم إن نصراً اتخذ شعاراً هو (هم لا ينصرون) وعلامتهم على الرماح الصوف، وبدأ القتال بين الطرفين فهزم الحارث.

عندما هزم الحارث أرسل ابنه حاكم إلى الكرماني فأرسل الكرماني معه السندي بن عبد الرحمن فدخل السندي المدينة من ناحية باب ميخان، فأتاه الحارث، فدخل مظلة الكرماني، فصلى بهم جميعاً ثم إن الكرماني قاتل نصراً ومن معه عند باب ميدان يزيد، وكان أصحاب الحارث

---

[1] الروحاء: قرية من قرى بغداد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٧٦.

[2] الصراة ـ موضعان الصراة الكبرى والصغرى ـ وهما نهران ببغداد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٣٩٩.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٧ ـ ص٣٣٠، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٤٢.

والكرماني يرمون نصراً وأصحابه بالعرادات، فضرب سرادقة ثم انهزم أصحاب نصر بن سيار ووعده بالكف لأن اليمانية نقموا عليه عونه للكرماني ضد نصر بن سيار، بعد ذلك مضى الحارث إلى باب دوغان وسرخس وعسكر الكرماني في مصلى أسد.

بعدها خرج بشر بن جرموز الضبي بمنطقة خرقان فدعا للكتاب والسنة، وقال الحارث: قاتلت معك طلباً للعدل، واشترك معه خمسة آلاف وخمسمائة (قيل في أربعة آلاف)، وادعوا أنهم على الحق ولا يقاتلون إلا من يقاتلهم، أما الحارث فتوجه إلى مسجد عياض، وأرسل إلى الكرماني يدعوه أن يكون الأمر شورى، فرفض الكرماني طلبه، عند ذلك بعث الحارث ابنه محمد، فحمل أثقاله من دار تميم بن نصر، وكان نصر بن سيار قد أمر عشيرته أن يلزموا الحارث، فنفذوا ذلك وتوجهوا إليه، فقال لهم: أنتم أصل العرب وفرعها، ثم إن الحارث أتى حائطاً فثلم فيه ثلمة ناحية نوبار عند دار هشام بن أبي الهيثم، فتفرق عنه أهل البصائر واتهموه بالغدر.

ودخل الكرماني من باب سرخس، واقتتل مع الحارث، فهزم الحارث وأصحابه، ثم قتل الحارث يوم الأحد لست بقين من رجب سنة (١٢٨هـ ـ مارس٧٤٦م)، وصلب عند مدينة مرو بدون رأس، وقتل معه أخوه وبشر بن جرموز، وعدة من فرسان تميم، وأصبحت مرو لليمانية.

وفي سنة (١٢٨هـ ـ ٧٤٥م) وجه إبراهيم بن محمد، أبا مسلم الخراساني إلى خراسان، وكتب إلى أصحابه أن يسمعوا له ويطيعوا ويقبلوا قوله[1]، ويذكر لهم أنه أمّره على خراسان.

في هذه المرحلة أمر إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قائده في خراسان، أبا مسلم الخراساني، وقد قدم من خراسان يريد الانصراف إلى شيعته بخراسان، وأمرهم بإظهار الدعوة والتسوية وذلك سنة (١٢٩هـ ـ ٧٤٦م)، واجتمعت القبائل من مضر وربيعة وقحطان وتوادعوا على وضع الحرب بينهم، واجتماع كلمتهم ضد أبي مسلم الخراساني وأتباعه من أصحاب الدعوة العباسية.

مقتل الكرماني[2]: بعد أن تمكن الكرماني من قتل الحارث بن سريج استقل بمرو، وتنحى نصر بن سيار إلى أبر شهر، عند ذلك وجه نصر بن سيار إليه مسلم بن أحوز، فلقي أصحاب

[1] مؤلف مجهول ـ أخبار الدولة العباسية ـ ص .

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٣٦٣.

الكرماني، فحدثت معركة قصيرة انهزم فيها سلم بن أحوز، وعاد إلى نصر مع أصحابه، فقيل عند ذلك لنصر بن سيار: «يا نصر شأمت العرب، فأما إذ صنعت ما صنعت فجدّ وشمر عن ساق»[1]، بعدها وجد نصر بن سيار، عصمة بن عبد الله الأسدي لخصمه، فاقتتلوا فهزم عصمة وعاد إلى نصر بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير. عند ذلك أرسل نصر بن سيار، مالك بن عمرو التميمي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم أصحاب نصر، وقتل من الطرفين عدد من المقاتلين.

في هذه المرحلة عظم دور أبي مسلم الخراساني، وأخذ يكتب إلى الكرماني، وإلى نصر بن سيار وأعلمهم أن الإمام إبراهيم هو الذي أوصاه بهم، عند ذلك كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يعلمه بالأخبار، وكتب له مايلي[2]:

أَرى بَيْنَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... فَأَحِجِ بأن يكُونَ لَهُ ضِرامُ
فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذكَى ... وإنَّ الحَربَ مَبْدؤها الكلامُ
فقلتُ من التَّعَجُّبِ: لَيْتَ شِعْري ... أَأَيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيامُ!

فكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول قِبَلك، فقال نصر: أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصر عنده. فكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده، وكتب إليه بأبيات شعر:

أَبلغْ يَزيدَ وَخَيْرُ القَولِ أَصدَقُهُ ... وقد تَبَيَّنْتُ أَلاَّ خَيْرَ في الكذبِ
إنَّ خُراسانَ أرضٌ قد رأَيتُ بها ... بَيضاً لو أَفرخَ قد حُدِّثتَ بالعَجَبِ
فِراخُ عامين إلا أنَّها كَبِرَتْ ... لما يَطِرنَ وقد سُربلنَ بالزَّغَبِ
فإن يَطِرنَ ولَم يُحتَلْ لَهُنَّ بِها ... يُلهبن نيرانَ حرْبٍ أَيَّما لَهَبِ

فقال يزيد: لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل. وكتب نصر إلى مروان يخبره خبر أبي مسلم وظهوره وقوته، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد.

في هذه المرحلة[3] تمكن أصحاب مروان من القبض على أحد رسل أبي مسلم الموجه إلى

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٦٨.

[2] المرجع نفسه - ج٧ - ص٣٦٩ وما بعدها.

[3] الحميمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٠٧.

إبراهيم الإمام، ومعه كتاب من إبراهيم إلى أبي مسلم جواباً لكتابه، وأهم ما في هـذا الكتـاب قولـه لأبي مسلم بمقاومة نصر بن سيار والكرماني، وأمره له ألا يدع بخراسان عربياً إلا يقتله. عنـد ذلـك أمر مروان بن محمد إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك، وهو على دمشق، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء بالتوجه إلى الحميمية، فيأخذ إبراهيم بن محمد ويشد وثاقه، ويبعث به إليه في خيل، فلما وصل إبراهيم إلى مروان أمر به فحبسه، ثم أمر بقتله[1] فيما بعد.

بعد ذلك انضم الكرماني إلى أبي مسلم الخراساني، فأرسل نصر إلى الكرماني يطلب منه الموادعة والصلح، وغايته إبعاده عن أبي مسلم، فوافقه الكرماني واتفقا على الصلح، ثـم وجـه نصر ابن سيار بن الحارث بن سريج إلى الكرماني في ثلاثمائة فارس، فالتقوا في الرحبة بمعركة، فقتل الكرماني، وانضم ابنه الكرماني إلى أبي مسلم وأصبحت الحرب بين نصر بن سيار، وأبي مسلم فتمكن أبو مسلم من دخول مرو وطرد نصر منها.

عبد الله بن معاوية: ذكرنا هزيمة عبد الله بن معاوية في الكوفة، فتوجه إلى المدائن، فبايعه أهلها وقدم عليه بعض أهل الكوفة، فغلب على الجبال وعلى حلوان وقومس وأصبهان والري، وأقام بأصبهان في هذه المرحلة وتمكن محارب بن موسى من أصطخر، وبايع أهلها لابن معاوية، ثم انضم لمحارب القواد، وبعض الأمراء من أهل الشام، فوجه محارب إلى شيراز[2] وبها مسلم ابن المسيب عامل ابن عمر، فقتله سنة (١٢٨هـ - ٧٤٥م) ثم خرج محارب إلى أصبهان، وحول عبد الله ابن معاوية إلى أصطخر، وكان معه منصور بن جمهور، وسليمان بن هشام، وشيبان بن الحلس بن عبد العزيز الشيباني، وبايع سليمان بن حبيب أيضاً عبد الله بن معاوية بعد أن سيطر على سابور.

بعد ذلك خرج محارب بن موسى على عبد الله بن معاوية، فقدم سابور فحاربه يزيد بن معاوية فهزم محارب إلى كرمان، فأقام بها حتى قدم عليه محمد بن الأشعث فسار معه، ثم اختلفا.

إذاً كان مقر قيادة ابن معاوية مدينة أصطخر. فبقي إلى أن أتاه ابن ضبارة مع داؤود بن يزيد ابن عمر بن هبيرة، عند ذلك أمر ابن معاوية بقنطرة الكوفة فكسرت، فوجه ابن هبيرة معن بن زائدة من وجه آخر، واشترك الطرفان في قتال عنيف عند مرو الشاذان حيث هزم ابن معاوية وهرب

---

[1] مؤلف مجهول - تاريخ الدولة العباسية - ص .

[2] شيراز - قضية بلاد فارس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٨٠.

شيبان إلى جزيرة ابن كاوان[1]، وهرب منصور بن جمهور إلى السـن[2]، وعبد الرحمن بن يزيد إلى عمان، وعمرو بن سهل بن عبد العزيز إلى مصر وتوجه ابـن معاوية إلى سجستان وعاد معن بن زائدة إلى ابن هبيرة، ثم إن ابن هبيرة استمر في مطاردة ابن معاوية.

دخل أبو مسلم الخراساني كما ذكرنا حائط مرو، فنزل دار الإمارة يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الآخرة سنة (١٣٠هـ - فبراير٧٤٨م)، فلما دخلها بايع أهلها أبا مسلم فأخذ أبو مسلم يحقق الإنتصارات تلو الانتصارات على خصومه، ومطاردتهم من مكان لآخر، ثم إن أبا مسلم تمكن من قتل ابني جديع الكرماني (علي، وعثمان)، ثم تمكن أبو مسلم من قتل نباتة بن حنظلة عامل يزيد ابن عمر بن هبيرة على جرجان إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً، وكتب مروان بن محمد إلى ابن هبيرة يأمره أن يمد نصر بن سيار، ومات نصر بن سيار في ١٢ ربيع الأول سنة (١٣١هـ - أكتوبر٧٤٨م)، وعمره آنذاك خمس وثمانون سنة[3].

بعدها قتل عامل ابن ضبارة، وتم دخول قحطبة أصبهان بعدها تمكن من أهل نهاوند بعد أن جرت وقعة بجابلق[4] من أرض أصبهان يوم السبت لسبع بقين من رجب سنة (١٣١هـ - مارس٧٤٨م). وتتالت انتصارات أبي مسلم على الأمويين حيث توجه قحطبة بن شبيب. بعد ذلك خرج محمد بن خالد بالكوفة مسوداً، وتم استخلاف أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي[5]. بعد ذلك كانت هزيمة مروان بن محمد بموقعة الزاب سنة (١٣٢هـ - ٧٤٩م) كما سيرد في فصل قادم.

---

(1) جزيرة ابن كاوان - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٧٣.

(2) السن: مدينة على دجلة فوق تكريت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٦٨.

(3) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٤٠٤.

(4) جابلق - رستان بأصبهان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٩١.

(5) مؤلف مجهول - أخبار الدولة العباسية - ص .

القسم الثالث

الثورات في العصر الأموي

الفصل الأول : ثورة الحسين بن علي

الفصل الثاني : الشيعة وحركة المختار

الفصل الثالث : ثورة ابن الزبير

الفصل الرابع : الخوارج

الفصل الخامس : الدعوة العباسية

الفصل السادس : ولاة جند الشام في العصر الأموي

الفصل الأول

ثورة الحسين بن علي

الفصل الأول

ثورة الحسين بن علي

دوافع الثــورة: قدم المغيرة بن شعبة على معاوية بـن أبـي سـفيان، يشـكو إليـه ضعفـه، ويطلب منه أن يعفيه، حيث كان والياً على الكوفة[1] ـ فأعفاه معاوية، وأراد أن يسـتبدله بسـعيد بـن العاص. ورداً من المغيرة على معاوية، دخل المغيرة ـ وهو أحد دهاة العرب ـ على يزيـد بـن معاويـة، وأخذ يعرض له البيعة، ويرغبه فيها. إلا أن يزيد نقل كلام المغيرة إلى أبيه معاويـة، حيـث علـم هـذا الأخير بنوايا المغيرة، وكان أشد دهاءً وحنكةً منه، فرده إلى عمله في الكوفة، حيث بقي واليـاً عليهـا إلى أن توفي.

كتب معاوية إلى زياد بن أبيه يستشيره ببيعة يزيد، فاستدعى زياد عبيداً بن كعب النمـيري[2]، يستشيره في ذلك بقوله له: إن يزيد صاحب رسل وتهاون، مع ما قد أولع به مـن الصيـد. فقـال لـه عبيد بن كعب: لا تفسد لمعاوية رأيه، ولا تمقت إليه ابنه، والرأي أن أجتمع إلى يزيد، فأخبره الخـبر، وأقـول له: إنك ترى له أن يترك ما يؤخذ عليه. ثم قال لزيـاد أن يكتـب إلى معـاويـة بالـصبر، وألا يتعجل في الأمر.

وعندما مات زياد، دعـا معاويـة لابنـه يزيـد، وأخـذ لـه البيعـة إلا خمسـة مـن سـادة العـرب وقاداتها: الحسين بن علي، عبد الله بن عمر، عبد الله بن الزبير، عبد الرحمن بن أبي بكر، عبـد الله ابن عباس، ولتحقيـق البيعـة توجـه معاويـة إلى المدينة، فأرسل إلى الحسين بن علي ليأخذ منه البيعة،

---

[1] قال المغيرة: إن معاوية كان يريد أن يبدله، أي يعزله، فسبقه المغيرة بدهائه وفعل ما ورد، ردع معاوية عن عزله.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٠٢.

لأنه كان يمثل الخطر الأكبر، الذي يتهدد بني أمية، فحدثه بذلك، وحدث البقية حديثه مع الحسين[1]. فوعد الجميع أنه: عندما تتم بيعة الجماعة، سيبايعون.

وعندما توفي معاوية، وولي يزيد، كان همه هؤلاء الذين رفضوا بيعته، لذلك كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عقبة أن يأخذهم أخذاً شديداً، حتى يبايعوا. وقد اجتمع مروان بن الحكم مع الوليد وقال له أن يبعث إليهم جميعاً، ويأخذ منهم البيعة، وإذا رفضوا ضرب أعناقهم، قبل أن يعلموا بموت معاوية. إلا أن الحسين كان قد علم قبل دخوله على الوليد، أن طاغيتهم قد مات[2]. وفي الليل الذي طلب فيه عبد الله بن الزبير، توجه إلى مكة، وتوجه بعده الحسين ببنيه وبني أخيه وجل أهل بيته. ثم إن يزيد عزل الوليد بن عقبة عن المدينة، وولى عليها عمرو بن سعيد الأشدق سنة (٦٠هـ - ٦٧٩م). حيث وجه هذا في السنة نفسها عمرو بن الزبير لحرب أخيه عبد الله، إلا أنه فشل، كما ذكرنا[3].

وكان أهل الكوفة قد كتبوا للحسين أنهم حبسوا أنفسهم عليه، وأنهم لا يحضرون الجمعة مع الوالي، وأنهم ينتظرونه، ويدعونه للقدوم إلى الكوفة.

فبعث الحسين مسلم بن عقيل[4]، لينظر ما كتبه أهل الكوفة إليه. وفي الكوفة تحدث الناس بقدوم عقيل، فجاؤوا إليه، وبايعه اثنا عشر ألفاً. لكن رجلاً من أنصار يزيد، بعث إليه، يخبره[5]. فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد، وكان واليه على البصرة، يخبره أنه ولاه على الكوفة مع

---

[1] أرسل معاوية إلى الحسين بن علي فقال: يا بن أخي! قد استوثق الناس بهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش، أنت تقودهم. يا بن أخي! فما أربك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم؟ قال: أنت تقودهم. قال: فأرسل إليهم، فإن بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا تكن عجلت علي بأمر قال: وتفعل قال: نعم، الطبري - ج٥ - ص٣٠٣.

[2] قال عبد الله بن الزبير للحسين: فما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟ فقال الحسين: أرى طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا، ليأخذنا بالبيعة، قبل أن يفشوا في الناس الخبر. الطبري - ج٥ ص٣٣٩.

[3] كتب يزيد إلى عمرو بن سعيد الأشدق، يأمره: أن يوجه إلى عبد الله بن الزبير جيشاً من أهل العطاء والديوان لمحاربته، ويولي أمرهم رجلاً عارفاً ناصحاً. وكان عمرو بن الزبير - أمه من بني العاص - ناقماً على شرطة عمرو بن سعيد، فسأله: توجيهه على ذلك الجيش، وكان أخوه عبد الله بن الزبير!! البلاذري - أنساب الإشراف - ج٤ - قسم٢ - ص٢٣ وما بعدها.

[4] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٤ - ص٣٧٧.

[5] كتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد بن معاوية: أما بعد، فإن مسلماً بن عقيل، قد قدم الكوفة، فبايعه الشيعة للحسين بن علي فإن كان لك بالكوفة حاجة، فابعث إليها رجلاً قوياً، ينفذ أمرك، ويعمل منك عملك في عدوك، فإن النعمان بن بشر رجل ضعيف، أو هو يتضعف، الطبري - ج٥ - ص٣٥٦.

البصرة[1] وطلب إليه أن يقتل ملسم بن عقيل، إن وجده. فتوجه عبيد الله في أشراف أهل البصرة، فقدم الكوفة متلثماً، وكان لا يمر على مجلس من مجالسهم، ويسلم إلا قالوا: عليك السلام يا بن بنت رسول الله، وهم يظنون: أنه الحسين بن علي عليه السلام. حتى نزل القصر، فدعا مولى له، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وقال له:

اذهب، حتى تسأل عن الرجل، الذي يبايع له أهل الكوفة، فأعلمه: أنك رجل من أهل حمص، جئت لهذا الأمر، وهذا مال، تدفعه، لتتقوى به، فلم يزل، يتلطف به، ويرق له، حتى دل على شيخ من أهل الكوفة، يلي البيعة، فلقيه، فأخبره. فقال له الشيخ: لقد سرني لقاؤك إياي، وقد ساءني، فأما ما سرني من ذلك، فما هداك الله له، وأما ما ساءني، فإن أمرنا لم يستحكم بعد. فادخل إليه، وخذ منه المال، وبايعه، وارجع إلى عبيد الله، فأخبره.

وقد تحول مسلم، حين قدم عبيد الله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانئ بن عروة المرادي، وكتب مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي عليه السلام يخبره: ببيعة اثني عشر ألفاً من أهل الكوفة، ويستقدمه.

قال عبيد الله لوجوه أهل مكة: ما لي أرى هانئاً بن عروة لم يأت، فيمن أتاني[2]؟ وتطورت الأحداث، فأحضر هانئ إلى عبيد الله، وعنده شريح القاضي، فاستفسر عبيد الله من هانئ عن مسلم بن عقيل، وواجهه بالرجل، الذي دفع إليه الدراهم[3]، فلم يجد مفراً من الاعتراف بوجود مسلم في داره.

وعلمت مذحج بخبر هانئ، فخرجوا إلى باب القصر، وأحدثوا جلبة، سمعها عبيد الله فأرسل شريحاً القاضي، يخبرهم: أن صاحبهم بخير، وإنما يسألهم الأمير، فصدقوا القاضي، وقالوا: ليس على صاحبك بأس، فتفرقوا. وأتى مسلم بالخبر، فنادى بشعاره، واجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، فقدم مقدمته، وعبأ ميمنته وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله. وبعث عبيد الله إلى

---

(1) كان يزيد ساخطاً على عبيد الله بن زياد، وقد هم بعزله عن البصرة، إلا أن الأحداث تغيرت فكتب إليه، يسترضيه، وأنه قد ولاه الكوفة مع البصرة، وكتب إليه: أن يطلب مسلم بن عقيل، فيقتله، إن وجده ـ الطبري ج٢ ـ ص٣٤٨.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٤٨.

(3) قال عبيد الله بن زياد: يا هانئ! أين مسلم؟ قال: ما أدري. فأمر عبيد الله مولاه صاحب، فخرج إليه، فلما رآه، قطع به فقال: أصلح الله الأمير! لو كان تحت قدمي، ما رفعتها عنه قال: أدنوه إلي، فأدني، فضربه على حاجبه، فشجه.

وجوه أهل الكوفة، فجمعهم عنده في القصر، فلما سار إليه مسلم، وانتهى إلى باب القصر، أشرفوا على عشائرهم، وأخذوا، يكلمونهم، ويردونهم.

وبدأ أصحاب مسلم يتسللون، حتى أصبح في خمسمائة رجل، فلما اختلط الظلام، وذهب أولئك أيضاً، ورأى مسلم، أنه بقي وحده فريداً في الطرقات، أتى باباً، فنزل عليه، فخرجت إليه امرأة، فقال لها: اسقيني، فسقته[1] ثم أخبر عنه ابنها، فسلمه لعبيد الله، فضرب عنقه، وصلب صاحبه هانئ بن عروة[2].

إن تحليل هذه النصوص التاريخية، التي تروي قصة مسلم بن عقيل، وعبيد الله بن زياد في الكوفة، تعطي تصوراً شبه شامل لممارسة التعبئة العسكرية والسياسية في تلك الحقبة من التاريخ.

فالنصوص التي بين أيدينا، تقدم فريقين: كل منهما يريد الاستيلاء على الحكم في الكوفة، التي هي جزء من كل ما يريد كل من الفريقين السيطرة عليه.

أما الفريق الأول: فهو الفريق الأموي المستولي على السلطة عملياً. وموت معاوية وتولي ابنه يزيد هما اللذان أفسحا المجال لفرصة جديدة للفريق الثاني: الذي هو فريق آل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم. فكيف عبأ كل من الفريقين أصحابه لتحقيق أهدافه؟ لقد استخدم فعل التعبئة مرةً واحدة في النص التاريخي، عندما قال الطبري:

فقدم مقدمته، وعبأ ميمنته[3] وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله.

إن التعبئة هنا من النوع العسكري، تناولت ترتيب قتال الجماعة المجتمعة بصورة جيش منظم في مقدمة، ميسرة، ميمنة، قلب، وذلك شكل تنظيم الجيش في تلك الأيام. لكن هذه التعبئة العسكرية، سبقت بمناداة الشعار[4] الذي من أجله يجتمعون، وهو بمنزلة التعبئة النفسية، لأن الشعار يذكرنا بالمبدأ الذي يوحد الجماعة، ويسوقها باتجاه معين. فلماذا فشلت تعبئة مسلم بن عقيل، وهزم أمام تعبئة عبيد الله؟

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٥٠.

(2) المقريزي ـ النزاع والتخاصم ـ ص١٤، ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ص٣٧٧، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٥٠.

(3) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٥٠.

(4) فأتى مسلم الجند، فنادى بشعاره، فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة الطبري ـ ج٥ ـ ص٣٤٨.

إن سلوك عبيد الله ينطوي على عناصر التعبئة العملية من الوجهة السياسية والنفسية، حيث جاء إلى الكوفة متلثماً[1]، ومعه وجوه أهل البصرة، فظنه الناس الحسين بن علي (ع)، وهذا تكتيك أول رابح من الجولة الأولى. فلم يثر نفوس الناس من أهل الكوفة بالإضافة لاستخدامه الجاسوسية[2] لمعرفة من يبايع له من أهل الكوفة، وقد نجح في اكتشافه.

وعرف أن خصمه مسلم بن عقيل عند هانئ بن عروة المرادي، فحبسه عنده، ثم استخدم القاضي، ليقنع جماعة هانئ: أنه لا بأس عليه[3] لأن القاضي ثقة عندهم، فتفرقوا. وبقي هانئ محبوساً عند عبيد الله بن زياد، الذي استقدم وجوه أهل الكوفة، وجمعهم عنده في القصر، فلما جاءت عشائرهم مع خصمه مسلم، استخدمهم في التأثير على عشائرهم، فانصرفت العشائر من حول مسلم[4] وبقي وحيداً، لا قوة له. وهذا تكتيك سياسي ناجح، لأنه يعتمد على فهم طبيعة الشعوب في التاريخ، فالشعوب تقاد بوجوهها. فلكل عشيرة شيخها، وهذا الشيخ هو المفتاح إلى التأثير عليها.

أما تعبئة مسلم، فكانت قائمة منذ البداية على أهواء، لا على عقيدة راسخة، توجه إرادة أتباعه، البالغ عددهم اثني عشر ألفاً. أخيراً إن المواجهة الحاسمة بين الخصمين، كانت في إلقاء القبض على مسلم بن عقيل، وصاحبه هانئ بن عروة، وهما مجردان من كل قوة، وقتل الاثنين. وفي قتلهما تعبئة جديدة[5] لصالح ابن زياد والأمويين، لأن كلاً منهما تحدثه نفسه بالقيام ضدهم، وبمقتل مسلم وهانئ، يقول شاعرهم بعد مقتلهما:

فإن كنت لا تدرين ما الموت؟ فانظري إلى هانئ في السوق وابن عقيل

---

(1) أقبل عبيد الله في وجوه أهل البصرة، حتى قدم الكوفة متلثماً، لا يمر على مجلس من مجالسهم، فيسلم، إلا قالوا: عليك السلام يا بن بنت الرسول.

(2) قال عبيد الله لأحد مواليه: اذهب، حتى تسأل عن الرجل، الذي يبايع له أهل الكوفة، فأعلمه: أنك رجل من حمص، جئت لهذا الأمر، وهذا مال، تدفعه إليه، ليتقوى، فلم يزل يتلطف، ويرفق به، حتى دل على شيخ من أهل الكوفة، يلي البيعة.

(3) قام القاضي الجبان شريح، فهدأ ثائرتهم، بأن أكد لهم: أن هانئاً حيٌّ، فشكروا الله، وانسحبوا، وكأن كل شيء كان على ما يرام. يوليوس ولهاوزن ـ الخوارج والشيعة ص١٦٤.

(4) **يوليوس ولهاوزن ـ الخوارج والشيعة ـ أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ طبع مصر ١٩٥٨ ـ ص١٦٥.**

(5) يوليوس ولهاوزن ـ الخوارج والشيعة ص١٦٦ ـ ١٦٧.

أصابهمـــا أمـــر الإمـــام فأصبحـــا أحـــاديث مـــن يســـعى بكـــل ســـبيل
أيركـــب أسمـــاء الهمـــاليج آمنـــاً وقـــد طلبتـــه مذحـــج بدخـــول[1]

فالبيت الأخير يشير إلى التعبئة المضادة، التي خلفها مقتل مسلم بن عقيل وهـانئ، وإن طلبت الثأر، لن يسمحوا لقاتليهما أن يعيشوا بأمان. فالتعبئة في الحادثة ذات وجهين: تعبئة النفوس بالخوف من قوة الأمويين الحاضرة، وتعبئة النفوس بالحقد والثأر من الأمويين في المستقبل.

وحين تحول مسلم بن عقيل إلى دار هـانئ بن عـروة المـرادي، وبايعـه اثنـا عشـر ألفاً، حيث أرسل كتاباً إلى الحسين بن علي[2]، يذكر له فيه: أنه قد بايعه اثنا عشر ألفاً من أهل الكوفة، ويطلب منه السرعة في القدوم، مؤكداً له: أن أهل العراق معه، وليس لهم مع بني أمية رأي ولا هوى.

ثم أن مسلم بن عقيل قال لعمر بن سعد[3] ـ عندما أدخله ابن زياد القصر ـ: إن بيني وبينك قرابة، فاسمع، ولي إليك حاجة: إن علي بالكوفة ديناً سبعمائة درهـم، فاقضها عني، وانظر جثتي، فوارها، وابعث إلى الحسين من يرده، لأني كتبت له. فقال عمر بن سعد لابن زياد، ما قاله مسلم، ثم قتل مسلم وهانئ، كما ذكرنا. وقد كتب ابن زياد بمقتلهما إلى يزيد بن معاوية، فرد عليه يزيد: إنه قد بلغني: أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق[4] ثم أمره أن يوزع المقاتلين في مواضع متفرقة في اتجاه تحركه، حيث يرقبون تحركاته.

الثورة ومقتل الحسين: تهيأ الحسين للتوجه إلى الكوفة، وكان ابن عباس قد نهاه عن ذلك، بينما شجعه ابن الزبير، وفي الطريق إلى الكوفة، وبينما كان في منطقة، تسمى: الصفاح[*]، التقى بالشاعر الفرزدق، فقال له الحسين: بين لنا نبأ الناس خلفك، فقال الشاعر: قلوب الناس

(1) المقريزي: النزاع والتخاصم ـ ص١٤، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

(2) كان الرسول الذي أرسله مسلم بن عقيل إلى الحسين هو عابس بن أبي شبيب الشاكري ـ الطبري ـ ج٥ ـ ص٣٧٥.

(3) يوليوس ولهاوزن ـ الخوارج والشيعة ص١٦٦، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٧٦.

(4) قال يزيد بن معاوية: أنه قد بلغني: أن الحسين بن علي، وقد توجه نحو العراق، فضيع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، غير أنه لا تقتل، إلا من قاتلك، واكتب إلي في كل ما يحدث من الأخبار. الطبري ـ ج٥ ـ ص٣٨١.

(*) موضع بين حنين وأنصاب الحرم بسرة الداخل إلى مكة. وصفاح نعمان: جبال بين مكة والطائف ـ الطبري ـ ج٥ ـ ص٣٨٦. ـ بينما يذكر الدينوري ـ ص٢٤٥، قول الفرزدق: خليتهم، وقلوبهم معك وسيوفهم عليك.

معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

وفي طريق الحسين إلى الكوفة وصلته رسالة من عبد الله بن جعفر، يقول له فيها: إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين[1] ثم تابع الحسين مسيره حتى نزل (شراق) ثم (ذو جشم)[2] وهناك أتاه الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، فوقف يقابل الحسين في حر الظهيرة من القادسية[3] علماً أن ابن زياد كان قد بعث الحصين بن تمير التميمي، وكان على شرطته، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يراقب المحاور، عندما بلغه خبر قدوم الحسين.

قدم الحصين الحر بن يزيد بين يديه[4] حتى التقى بالحسين، فخاطب الحسين الجمعين، اللذين معه، ومع الحر بن يزيد مؤكداً: أنه قدم الكوفة، لأن أهلها كتبوا له، وأجمعوا عليه، وكان معه خرجان مملوءان صفحاً[5]، فنشرهما بين أيديهم، ثم اتفقا على: أن يأخذ الحسين طريقاً، لا يدخله الكوفة، ولا يرده إلى المدينة[6] ثم يكتب الحر إلى ابن زياد، بينما يكتب الحسين إلى زياد بن معاوية إذا أرادا.

ثم سار الحسين في أصحابه، والحر بالقرب منه، لا يفارقه، فلما انتهوا إلى عذيب الهيجانات[7]، قدم على الحسين أربعة رجال من الكوفة، فسألهم خبر الناس في الكوفة، فقال له أحدهم، وهو مجمع بن عبد الله العائذي: أما أشراف الناس، فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، يستمال ودهم، ويستخلص من نصيحتهم، فهم قلب واحد عليك، وأما سائر الناس، فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورةً عليك. ثم تابع الحسين طريقه، والحر لا يفارقه، حتى انتهى إلى قرب نينوى[8]، وهناك وصل إلى الحر كتاب من ابن زياد، يقول له فيه: عندما يبلغك

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٨٧.

(2) الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ص٢٤٨.

(3) القادسية: قرية قرب الكوفة من جهة البرية بينها وبين العذيب أربعة أميال.

(4) الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ص٢٤٩.

(5) المرجع نفسه ـ ص٢٤٩.

(6) المرجع نفسه ـ ص٢٥٠.

(7) عذيب: تصغير العذب، ماء على يمين القادسية، بينه وبين القداسية أربعة أميال.

(8) قرية قديمة لا تزال آثارها باقية قبالة مدينة الموصل، يروي: أنها كانت قرية النبي يونس.

كتابي، فازعج الحسين، واحبسه من غير حصن، وعلى غير ماء[1]، وقد أمر رسوله ألا يفارق الحر، حتى تأتيه آخر الأخبار. هذا وقد أخبر الحسين بمحتوى الكتاب، فطلب من الحر: أن يسمح له بالنزول في قرية نينوى، أو إحدى القرى المحيطة بالمنطقة كالغاضرية[2].

فلما كان محرم سنة (٦١ هـ ـ أكتوبر ٦٨٠م) بعث ابن زياد، عمر بن سعد في أربعة آلاف من أهل الكوفة، بعد أن عهد له على الري[3]، وأمره بالخروج، فخرج، وعسكر بحمام أعين، وعندما قدم الحسين، دعا زياد بن أبيه، عمر بن سعد، وقال له: سر إلى الحسين، فإذا فرغنا منه، سر إلى عملك في الري.

توجه عمر بن سعد إلى الحسين بن علي، فلما وصل إليه، وضيق عليه، تلقى كتاباً من ابن زياد، يطلب فيه: أن يحول بين الحسين وأصحابه، وبين الماء، فاشتد العطش على الحسين وأصحابه، علماً أن الحسين وعمر بن سعد كانا يلتقيان. وقد كتب عمر بن سعد إلى ابن زياد: أن الحسين يطلب: أن يسمح له بالتوجه نحو أي ثغر من ثغور المسلمين، أو أن يأتي يزيد بن معاوية، أو أن يعود، من حيث أتى. فقبل ابن زياد ذلك في البداية، إلا أن شمر بن ذي الجوشن حرضه، بألا يدع الحسين، إلا بعد أن ينزل على حكمه هو وأصحابه. وكان شمر بن ذي الجوشن قد حاول أكثر من مرة أن يفسد على عمر بن سعد عند ابن زياد وعن لقائه بالحسين محاولاً التشهير به.

ثم أرسل ابن زياد شمر بن ذي الجوش بكتاب إلى عمر بن سعد، يأمره فيه بحرب الحسين، إذا لم ينزل على حكمه، وإذا لم يحاربه، سيكون شمر هو القائد[4]. قدم شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، فقرأه، وقرر: أن يتولى هو نفسه حرب الحسين مفضلاً الدنيا على الآخرة. ثم حشد قواته، ونادى بشعاره، فركب بالناس، وزحف بهم نحو الحسين. وعند وصوله تقابل الحسين، وعمر بن سعد، واتفقا على: أن يؤجلا القتال إلى صباح اليوم التالي[5].

---

(1) أما بعد فجعجع بالحسين بن علي وأصحابه بالمكان الذي يوافيك كتابي، فلا تنزله إلا بالعراء على غير حصن ولا ماء. الدينوري ـ ص٢٥١.

(2) الغاضرية: قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء.

(3) الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ص٢٥٣.

(4) المرجع نفسه ـ ص٢٥٥.

(5) المرجع نفسه ـ ص٢٥٦.

وفي صباح اليوم التالي (يوم عاشوراء) خرج عمر بن سعد بمن معه، وعبأ أصحابه[1]، حيث جعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير بن سليم الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن ابن أبي سبرة الجعفي، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد.

أما الحسين، فعبأ أصحابه[2]، وكانوا اثنين وثلاثين فارساً، وأربعين راجلاً، حيث كان زهير ابن القين في الميمنة، وحبيب بن مظاهر في الميسرة، ورايته مع العباس بن علي. وجعل مؤخرته في ظهورهم، وأمر بوضع حطب وراء المؤخرة، فحرق مخافةً[3] أن يأتوا إلا من وجه واحد. ثم إن الحسين بن علي خاطب وجوه الكوفة، ممن كتب إليه، يقول لهم: ألم تكتبوا لي قد أينعت الثمار، واخضر الجناب؟ فقالوا: لم نفعل ذلك، فكذبوا بوعدهم.

وعندما زحف عمر بن سعد قال الحر بن يزيد لعمر بن سعد وأصحابه: أما لكم في واحدة من الخصال، التي عرضها عليكم الحسين؟ فقال له عمر بن سعد: إن ابن زياد أبى أي واحدة منها.

ثم إن الحر بن يزيد انضم للحسين[4] عليه السلام، ثم زحف عمر بن سعد نحو الحسين، حيث جرت مبارزةً بين الطرفين، كانت في أكثرها لصالح أصحاب الحسين بن علي، ثم خاطب أحد أصحاب عمر بن سعد أصحابه قائلاً: يا حمقى! أتدرون[5] من تقاتلون؟ إنكم تقاتلون فرسان المصر، قوماً مستميتين، لا يبرز لهم منكم أحد إلا قتله. وأخذت ميمنة عمر بن سعد وميسرته بالهجوم على أصحاب الحسين، فصرع مسلم بن عوسجة بعد مقاومة عنيفة من أصحاب الحسين، لم يتوقعها خصومهم. لذلك قرر عمر بن سعد إرسال الحصين بن تميم مع خمسمائة من الرماة، فلما دنوا من أصحاب الحسين، رشقوهم بالنبال، فبقروا[6] جميع خيول خصومهم، وأصبحوا جميعاً مترجلين،

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٤٢٢.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص٤٢٢.

(3) أمر الحسين أصحابه: أن يضموا مضاربهم بعضهم من بعض، ويكونوا أمام البليوت، وأن يحفروا وراء البيوت أخاديد، وأن يطمروا فيه حطباً كثيراً، لئلا يؤتون من أدبار البيوت، فيدخلونها - الدينوري - ص٢٥٦.

(4) الدينوري - الأخبار الطوال - ص٣٥٦.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٤٣٥.

(6) المرجع نفسه - ج٥ - ص٤٩٢.

واستمر القتال. ثم إن شمر بن ذي الجوشن حمل، حتى بلغ فسطاط الحسين، وأراد إحراقه، إلا أنه دفع عنه بمقاومة عنيفة. واستمر القتال على أشده، فقتل من أصحاب الحسين: حبيب بن مظاهر، الحر بن يزيد، عمرو بن عبد الله الصائدي.

وتتابع قتل أصحاب الحسين الواحد بعد الآخر، حتى أصيب أهل بيته[1]، وكان أولهم علي الأكبر ابن الحسين بن علي، ثم عبد الله بن مسلم بن عقيل، ثم عون بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عقيل وجعفر بن عقيل، والقاسم بن الحسن. كما قتل العباس وعبد الله، وجعفر أبناء علي. وعثمان بن علي، ومحمد بن علي، واشتد عطش الحسين، فدنا ليشرب من الماء، إلا أن خصومه حالوا بينه وبين الماء[2].

وأقبل شمر بن ذي الجوشن، ومعه عشرة من رجال أهل الكوفة، وحالوا بين الحسين وبين المؤخرة (أهل بيته)، وأخذ شمر بن ذي الجوشن، يحرض أصحابه على الحسين، وكان الحسين يقاومهم، وأخيراً تمكن منه شمر، بعد أن حمل عليه سنان بن أنس بن عمرو النخعي، فطعنه بالرمح، فوقع على الأرض. وطلب سنان من خولي بن يزيد أن يحز رأس الحسين، فلم يفعل، فنزل سنان، ففعل[3]، ثم مال الناس على ثقل الحسين ومتاعه أي على المؤخرة.

أمر عمر بن سعد بعض أصحابه: أن يدوسوا جسم الحسين بخيولهم، وسرح برأس الحسين إلى ابن زياد[4] مع خولي بن يزيد، وعاد إلى الكوفة، ومعه بنات الحسين وأخواته، ومن كان معه من الصبيان، وعلى رأسهم علي بن الحسين، وكان مريضاً. كما سير باثنين وسبعين رأساً من آل حسين مع شمر بن ذي الجوشن ومع قيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج، وعزرة بن قيس إلى ابن زياد أيضاً. وسير ابن زياد، زحر بن قيس، ومعه رأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية. فلما دخلوا عليه، قالت زينب بنت علي ليزيد بن معاوية بعد مناقشة: بدين الله ودين أبي وابن أخي وجدي، اهتديت أنت وأبوك وجدك[5].

---

(1) الدينوري - الأخبار الطوال - ص٢٥٧ - وما بعدها.

(2) المرجع نفسه - ص٢٥٨.

(3) المرجع نفسه - ص٢٥٨.

(4) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٤ - ص٣٨٠.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٤٦٢.

فأنكر يزيد عليها ذلك، تمرداًعلى الحقيقة الساطعة، وتمرداًعلى الإسلام ومبادئه مؤكداً عصبيـة الجاهلية.

ثم سأل يزيد علي بن الحسين، فقال له علي قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَـةٍ فِـي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَـى مَـا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]. ثم إن يزيد بن معاوية أرسلهم إلى المدينة. لقد زادت النقمة على يزيد بعد مقتل الحسين، ويؤكد ذلك قوله لابن زياد وغضبه عليه. حيث قال: إن ابن مرجان بغضني بقتله الحسين إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فبغضني الـبر والفاجر، بما استعظم من قتل الحسين، مالي ولابن مرجانة! لعنه الله، وغضب عليه.

[1] سورة الحديد ـ الآية ٢٢ ـ ٢٣.

الفصل الثاني

الشيعة وحركة المختار

الفصل الثاني

الشيعة وحركة المختار

تحـرك التوابيـن: بعـد مقتـل الحسـين سـنة (٦١ هـ ـــ ٦٨٠ م) شـعر الشـيعة بتقصيرهم في الدفـاع عنـه لذلـك أخـذوا يعملـون سـراً في جمـع آلـة الحرب والاستعداد للقتـال، ودعـوا النـاس للطلـب بدمـه"[1] والنـاس يجيبونهـم إلى ذلـك، فلمـا كـانت سـنة (٦٤ هـ ـــ ٦٨٣م) عقـد قـادتهم اجتماعـاً فحـددوا أولاً النخيلـة مكانـاً لاجتمـاعهم والوقـت الـذي يتحركون بـه، ووضعـوا العقـود والعهـود علـى ذلـك.

إذاً اجتمع قادة الشيعة في الكوفة بعد مقتل الحسين، وقد ندموا وأخطؤوا خطـأً كبـيراً لأنهـم دعوه و لم يقدموا له الدعم المادي والعسكري، وتخلوا عنه فقتل، وهـم: سـليمان بـن صـرد الخزاعـي وله صحبة، والمسيب بن نجبية الفزاري، وعبد الله بـن سـعد بـن نفيـل الأزدي، وعبـد الله بـن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي.

اجتمع هؤلاء في منزل سليمان بن صرد، ومعهم بعض أتباعهم فتناقشوا كثيراً حول موضـوع مقتل الحسين، وتكلم كل واحد من الخمسة المذكورين، يذكر تقصيرهم وعدم نصرتهم له والدفـاع عنه حتى بالكلمة ولا عذر لهم في ذلك كما قالوا، ثـم تحدثـوا حـول موضـوع مـن يقودهـم فوقـع اختيارهم في النهاية على سليمان بن صرد وقرروا جمع الأموال للتقـوي بهـا، وبعضهـم وهـب مالـه كله سوى سلاحه من أجل هذه القضية.

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٦٤ ـ ج٤ ـ ص ١٦٢.

بعد ذلك أخذت المراسلات بين هؤلاء النفر، وبين أتباعهم في كل مكان. من ذلك كتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة اليماني، وكان بالمدائن يعلمه بالموقف، فوافقه وقرأ الكتاب على الشيعة هناك فوافقوه على القتال، وأخذوا يعدون العدة لأجل ذلك، ورد سعد بن حذيفة اليماني على كتاب سليمان بن صرد يعلمه بأنهم ينتظرون الأوامر للمسير إليهم، كما كتب سليمان ابن صرد إلى المثنى بن مخرمة العبدي بمثل كتابه إلى سعد بن حذيفة، فكان الرد الموافقة والاستعداد، إذاً استمر الشيعة في استعدادهم حتى كان موت يزيد بن معاوية، وعلى العراق عبيد الله بن زياد وخليفته على الكوفة عمرو بن حريث المخزومي.

بعد موت يزيد بن معاوية قرر قادة الشيعة نشر دعوتهم سراً بين الناس، فاستجاب لهم بعد موت يزيد أكثر مما كان معهم، وقد امتاز قادة الشيعة هؤلاء كعبيد الله بن عبد الله المري، وسليمان بن صرد في الوعظ وكسب الناس وقدرتهم الفائقة على التأثير بقلوب الناس وجذبهم إلى صفوفهم، ولهم أقوال كثيرة يذكرها الطبري تؤكد ذلك. خلال هذه الأحداث وثب الناس بالكوفة على عامل ابن زياد عمرو بن حريث، فأخرجوه من القصر، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الجمحي (دحروجة الجعل) فكان يصلي بالناس، ثم بايع لابن الزبير.

بعد هلاك يزيد بن معاوية قدم المختار بن عبيد في منتصف رمضان من سنة (٦٤هـ ـ ابريل ٦٨٤م) إلى الكوفة، وقدم بعده في شهر رمضان أيضاً عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل عبد الله ابن الزبير أميراً على حرب الكوفة، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله الأعرج أميراً على خراجها، وكان المختار يدعو الشيعة إلى نفسه، والطلب بدم الحسين وقال لهم: إني جئتكم من عند المهدي محمد بن علي بن الحنفية، مؤتمناً مأموناً، منتجباً ووزيراً، فانضمت إليه طائفة منهم. في الوقت نفسه عظم أمر الشيعة بقيادة سليمان بن صرد الذي كان أثقل خلق الله على المختار، وكان المختار يصغّر أمر سليمان بن صرد.

علم والي الكوفة من قبل ابن الزبير بأمر الشيعة، حيث حضه يزيد بن الحارث على قتالهم لكنه رفض القتال إلا إذا هم بدؤوه، ثم صعد المنبر، فقال: بلغني أن طائفةً من الناس أرادوا الخروج، وعلمت أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي، وأشار عليّ بعضهم أن أبدأ بقتالهم، فرفضت إلا إذا هم بدؤوني، وقال: إن هؤلاء آمنون فليخرجوا ظاهرين إلى قتله الحسين، وأنا لهم على قاتله ظهير، وقال

يحرضهم: هذا عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، وقاتل أشرافكم وخياركم.

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة (أمير الخراج): إن هذا أي (والي الكوفة) رجل مداهن وهدّد بقتله إن هو خرج، وهدّد بقتل كل من يخرج، فوثب المسيب بن نجبة، فقال له: يا بن الناكثين أتهددنا وأنت أذل من ذلك، بعد ذلك أخذ أصحاب سليمان بن صرد يخرجون، وهم حاملو السلاح بالإضافة إلى الاستمرار باستعدادهم.

كان مسلم بن عقيل عندما توجه إلى الكوفة قد نزل دار المختار، فبايعه المختار مع من بايع من أهل الكوفة، فلما خرج مسلم كان المختار بقرية له يقال لها (لفغا)، فعلم أن مسلم بن عقيل قد أظهر أمره، وكان ذلك قبل الموعد المتفق عليه، وكان سبب خروجه في ذلك الوقت أن هاني بن عروة المرادي كان قد أخذ وحبس وضرب، فأقبل المختار، فوصل باب الفيل والوقت بعد الغروب. في هذا الوقت مرّ هاني بن حية الوادعي، فقال للمختار: لم وقوفك هنا، فردّ المختار: لقد أصبح رأيي مرتجاً لعظم خطيئتكم.

دخل هاني على عمرو بن حريث ـ عامل عبيد الله بن زياد على الكوفة ـ فأخبره خبره، فاستدعى المختار ووجه به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له عبيد الله: أنت المقبل لنصر ابن عقيل، فرّد عليه المختار، لم أفعل، وكنت تحت راية عمرو بن حريث، وأكد عمرو ذلك، عند ذلك رفع ابن زياد القضيب في وجه المختار، فخبط به عينه فشترها، وقال له: والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك، ثم أمر به فوضع في السجن، فبقي في السجن إلى أن قتل الحسين. بعدها أرسل المختار إلى زائدة بن قدامة، وطلب منه التوجه إلى عبد الله بن عمر[1]، يطلب منه أن يكتب إلى يزيد ابن معاوية بإخلاء سبيله.

توجه زائدة إلى الحجاز وأبلغ ابن عمر رسالة المختار، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يطلب منه إطلاق سراح المختار، وأرسل زائدة إلى الشام، فأمر يزيد عامله ابن زياد بإخلاء سبيل المختار، فتوجه زائدة بكتاب إلى الكوفة فدفعه إلى ابن زياد، فأخرجه بعد أن قال له: أجلتك ثلاثاً، فإن أدركتك بالكوفة بعدها فقد برئت منك الذمة، فخرج المختار إلى الحجاز، وقد عاهد الله على أن يقطع ابن زياد ارباً.

---

[1] كانت زوجة عبد الله بن عمر (صفيّة) أخت المختار.

انطلق المختار إلى الحجاز يريد ابن الزبير، وقال إنه رجل العرب اليوم، فلما قدم مكّة توجّه إلى ابن الزبير، فرحب به الأخير، فسأله عن الكوفة وأهلها، فقال له على سبيل الضحك: ابسط يدك أبايعك، وأعطِنا ما يرضينا، وثب على الحجاز فإن أهلها معك، ثم خرج المختار وغاب بحدود سنة لجأ فيها إلى الطائف.

بعدها قدم المختار على ابن الزبير ليلاً فرحب به ابن الزبير، فقال له المختار: ١ - إني جئتك لأبايعك على ألاّ تقضي الأمور بدوني، ٢ - وعلى أن أكون أول من تأذن له، ٣ - وإذا ظهرت استعنت بي على أن أقضي أعمالك، فقال ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله، وسنة نبيه. ثم وافقه ابن الزبير على شروطه، وبقي معه حتى شهد حصار الحصين بن نمير لمكة، واشترك مع ابن الزبير حتى تم إحراق البيت يوم السبت ٣ ربيع الأول سنة (٦٤ هـ - ٦٨٣ م).

استمر المختار مع ابن الزبير إلى أن هلك يزيد بن معاوية، وانقضى الحصار، ورجع أهل الشام إلى الشام. في هذا الوقت كان أهل الكوفة قد ولوا عليهم عامر بن مسعود، فأرسل إلى ابن الزبير ببيعته، وبيعة أهل الكوفة، وبقي المختار بالحجاز مع ابن الزبير أكثر من خمسة أشهر لا يستعمله. بعد ذلك قدم هاني بن أبي جبة الوادعي مكة فلقيه المختار، فسأله عن الكوفة وأهلها، فأخبره بأن الناس على طاعة ابن الزبير، وأعلمه أن هناك طائفةً منهم لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم لأكل بهم الأرض، فقال له المختار: أنا لهم.

عند ذلك قرر المختار التوجه إلى الكوفة وفي المساء التقى سلمة بن مرثد من همذان فأخبره عن أهل الكوفة، وقال له: هم كغنم ضلت راعيها، فقال المختار: أنا راعيها الذي احسن رعايتها، وأقفل بها إلى نهايتها، ثم قدم المختار إلى بحر الحيرة يوم الجمعة، فاستحم به، ثم سار فمر بمسجد السكون وجبانة كندة، وهو يقول للناس أبشروا بالنصر، وأخذت الشيعة تجتمع إلى المختار، فأعلمهم أن المهدي ابن الوصي محمد بن علي هو الذي بعثه إليهم أميناً ووزيراً ومنتجباً وأميراً، وأمره بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته.

كانت الشيعة خلال هذه المرحلة تجتمع إلى سليمان بن صرد عندما دخل المختار الكوفة، فكان يحاول كسبهم إلى صفه، وقال: إن سليمان بن صرد ليس بذي تجربة ولا علم له بالحروب، وأخذ يحض الناس على أمره فاستمال طائفة منهم، وكان سليمان بن صرد قد قرر الخروج في

الوقت الذي كان فيه المختار لا يريد أن يتحرك ولا يهيج أمراً حتى يرى ما يحل بسليمان بن صرد. في هذا الوقت قبض على المختار وأدخل السجن، فكان يقول:

« أما وربّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبّار، بكل لدن خطار، ومهند بتار في جموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأيت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت بثأر النبيين، ولم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى».

خرج سليمان بن صرد في مستهل ربيع الآخر سنة (٦٥ هـ ـ نوفمبر ٦٨٤ م)، في وجوه[1] أصحابه، فعسكر بالنخيلة ثم بعث الوليد بن غصين الكناني في خيل، وحكيم بن منقذ الكندي في خيل، وأمرهما التوجه إلى الكوفة، وأن يناديا بشعارهم يالثارات الحسين، وفي صباح اليوم التالي التحق به أكثر ممن كان معه، فكان عدد من بايعه ستة عشر ألفاً، علماً أنه لم يلتحق به أكثر من أربعة آلاف، وكان المختار وهو بالسجن يثبط من عزيمة الناس، وإبعادهم عن سليمان بن صرد.

أقام سليمان بن صرد بالنخيلة ثلاثة أيام، وهو يبعث إلى من عاهده وتخلف عنه يذكرهم با لله، وأعطوه من أنفسهم عهداً، فقدم عليه ألف رجل، فأصبح في خمسة آلاف، عند ذلك قال المسيب بن نجبة لسليمان إنه لا ينفعك الكاره، ولا يقاتل معك إلاّ من أخرجته النية. عند ذلك خاطب سليمان بن صرد قواته: إن هدفنا هو رضوان ا لله والتوبة إليه من ذنب اقترفناه، وأجمع على المسير إلى عبيد ا لله بن زياد.

علم عبد ا لله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، بخروج سليمان بن صرد وأصحابه فاجتمعا بسليمان بن صرد، وكانا يعملان لصالح ابن الزبير فعرضا عليه أن يقيم معهما حتى يلقوا جموع أهل الشام على أن يخصاه، وأصحابه بخراج جوخى[2] خاصة لهما دون الناس، فقال لهم: إنا ليس للدنيا خرجنا، فعادا إلى الكوفة.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص ٥٨١ ـ ٥٨٢.

[2] جوخى: اسم نهر عليه كوره في سواد بغداد بالجانب الشرقي منه الراذانان، بين خانقين وخوزستان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص ١٧٩.

تحرك سليمان بن صرد من النخيلة[1] في ٥ ربيع الآخر سنة (٦٥ هـ ــ نوفمبر ٦٨٤م)، فنزل الجميع دير الأعور[2]، ثم تحرك إلى قبر الحسين بن علي، وقد تخلف عنهم بحدود ألف، وهناك قالوا بصوت واحد كما يذكر الطبري: « يا رب إنا خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منّا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، إنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»[3].

بعد ذلك ساروا إلى الأنبار[4] إلى صدودا وعلى مقدمتهم كريب بن يزيد الحميري، ثم تحركوا إلى قرقيسية[5]، وبها تحصن زفر بن الحارث الكلابي، وهو على رأي ابن الزبير وهناك استقبل زفر بن الحارث المسيب بن نجبة، فطلب منه المساعدة المادية فأخرج لهم سوقاً وقدم لهم الأعلاف والطعام، بعد ذلك خرج زفر بن الحارث إليهم، فقال لسليمان بن صرد: إن عدوكم قد أتاكم بعدد وعدة لا قبل لكم فيها، ثم طرح عليهم عدة خيارات[6]، أهمها:

١ ـ إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا واحداً، وأيدينا واحدة.

٢ ـ وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم وكان قتالنا معاً.

لم يوافق سليمان بن صرد على ما ورد، عند ذلك أشار عليهم زفر بن الحارث، فقال:

١ ـ إني للأمويين عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأتمنى لكم العافية وأنا لكم محب وأحب أن يحيطكم الله بالرعاية.

٢ ـ بادروا عدوكم إلى عين الورد، واجعلوا المدينة في ظهوركم، واعملوا على أن يكون الرستاق والماء في أيديكم، وأنتم ما بين مدينتنا ومدينتكم آمنون، وقال: والله لو أن خيولي كرجالي لأمددتكم.

---

[1] النخيلة: موضع قرب الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص ٢٧٨.

[2] دير الأعور: بظاهر الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج ٢ ـ ص ٤٩٩.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص ٥٨٩.

[4] الأنبار: مدينة قرب بلخ، وهي قصبة ناحية جوزجان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج١ ـ ص ٢٥٧.

[5] قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص ٣٢٨.

[6] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص ١٧٩.

٣ ـ أسرعوا السير فإن عدوكم يسير سير العساكر، وأنتم على خيول وأرجو أن تسبقوهم، وتأهبوا من وقتكم هذا.

٤ ـ إن سبقتموهم إلى عين الورد فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم، فإنهم أكثر منكم خوفاً من أن يحيطوا بكم، لأنه ليس لكم مثل عددهم، وقال لهم: لا تلقوهم في الصفوف، لأنه ليس لديكم رجاله، وعدوكم في فرسان ورجاله يحمي كل منهم الآخر، لكن ألقوهم في الكتائب وبثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم.

٥ ـ اجعلوا مع كل كتيبة كتيبةً إلى جانبها، فإن حمل على كتيبة ترجلت الأخرى فنفشت عنها الخيل والرجال.

فيما ورد تعليمات رجل عالم بأمور الحرب، مجرب لها، عالم بجغرافية المنطقة، دقيق في معالمها حريص كل الحرص على تقديم كل ما لديه من وسائل فكرية وعسكرية، والمتطلع للموقف بشكل عامل يلاحظ أن ما من أحد يعمل أكثر مما عمل زفر بن الحارث لعدة أسباب، لأن زفر من الناحية السياسية على رأي ابن الزبير، وكان له دور فعال في الجابية مادياً ومعنوياً وعسكرياً وسياسياً. علماً أن هدف سليمان بن صرد من حركته هذه كان التوبة، والاستغفار من الذنب الذي لحق بهم عندما لم يقدموا للحسين بن علي أي نصيحة، وتخلوا عنه، لذلك خرجوا يكفرون عن ذنوبهم من ذلك سموا التوابين.

سار سليمان بن صرد وأتباعه فجدوا بالمسير، وعبأ قواته كتائب تنفيذاً لتعليمات زفر الواردة الذكر، حتى وصل إلى عين الورد[1]، فنزل غربيها وقد استراح وقواته قبل وصول أهل الشام إليهم، فحدد لهم مهامهم بقوله:

١ ـ أتيتم عدوكم رغبة منكم وغايتكم إظهار التوبة ولقاء الله، إذا لقيتم عدوكم فقاتلوه بكل ما تملكون، وليكن الصبر والعزيمة شعاركم.

٢ ـ أوصاهم بالثبات في القتال، وألاّ يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا أسير إلا إذا كان أحدهم من القتلة الذين خرجوا للأخذ بثأرهم.

---

[1] عين الورد: هو رأس عين المدينة المشــهورة بالمدينة كانت فيها وقعة للعرب ويوم من أيامهم، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص ١٨٠.

٣ ـ حدد الأمير بعده المسيب بن نجبة الفزاري، فإن أصيب فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فعبد الله بن وال، فإن قتل فأمير الناس رفاعة بن شداد.

بعد ذلك بعث سليمان بن صرد المسيب بن نجبة في أربعمائة فارس، وأمره أن يلقى مقدمة العدو فيشن عليها الغارة إذا كان بإمكانه وإلا رجع بمن معه. توجه المسيب لتنفيذ ما أمر به، وبعد أن قطع مسافةً وحل الليل قسم قواته إلى أربعة أقسام، فكان مع أبي الجويرية العبدي قسم من القوات، ومع عبد الله بن عوف بن الأحمر قسم آخر، ومع حنش بن ربيعة أبو المعتمر الكناني قسم ثالث، وبقي المسيب في باقي القوات.

خلال هذه المرحلة التقوا بأعرابي من بني تغلب، فسئل كم بيننا، وبين مقدمة عسكر عدونا قال: إن ابن ذي الكلاع[1] على بعد ميل منكم، فخرجوا مسرعين نحوه، و لم يكن على أهبة الاستعداد ولقد فوجئ، فلم يقاتلوا إلا قليلاً حتى هزم ابن ذي الكلاع بعد أن قتل بعض أصحابه، وجرح بعضهم الآخر، وهزم الباقون، فغنموا معسكرهم، ثم قرروا العودة إلى سليمان بن صرد، فلما علم ابن زياد بما حدث، وجه الحصين بن نمير في اثني عشر ألفاً إلى سليمان بن صرد، وما زال بعين الوردة.

أخذ سليمان بن صرد يعبئ قواته فجعل على ميمنته عبد الله بن سعد بن نفيل، وعلى ميسرته المسيب بن نجبة، وكان هو في القلب، أما الحصين فكان على ميمنته جبلة بن عبد الله، وعلى ميسرته ربيعة بن المخارق الغنوي، فلما تقابل الطرفان طلب أصحاب الحصين من سليمان بن صرد، ومن معه الرجوع إلى الجماعة، والدخول في الطاعة، فطلب سليمان بن صرد منهم ما يلي:

١ ـ تسليم عبيد الله بن زياد لكي يتم قتله.

٢ ـ خلع عبد الملك بن مروان.

٣ ـ ردّ الأمر إلى أهل البيت.

بالطبع رفض أصحاب الحصين هذه الشروط، واشتبك الطرفان في قتال لم يدم طويلاً حتى هزم الحصين، ومن معه إلى معسكرهم. خلال هذه المرحلة كان ابن زياد قد أرسل ثمانية آلاف من

---

[1] كان بين ابن ذي الكلاع والحصين بن نمير خلاف على قيادة القوات، واختلاف وقد أرسلوا إلى ابن زياد يعلموه بذلك ومن هو القائد وأخذا ينتظران الجواب.

المقاتلين إلى ذي الكلاع، وأمره أن يكون تحت قيادة الحصين بن نمير.

في صباح اليوم التالي استمر القتال طيلة اليوم، وفي صباح اليوم الثالث، وكان يوم الجمعة اشتبك الطرفان في قتال شديد كان فيه أصحاب الحصين في عدد كثير، فتمكنوا من الإحاطة بعدوهم من كل جانب، واستمر القتال مع الصبر فيه من قبل أصحاب سليمان بن صرد، عند ذلك أمر الحصين الرجالة أن ترمي النبال، واشتد الأمر فقتل سليمان بن صرد، فأخذ الراية المسيب بن نجبة، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل. في هذه المرحلة قدم ثلاثة فرسان، وكانوا مقدمةً لسعد بن حذيفة اليماني لكي يعلموا سليمان بن صرد بأن سعد بن حذيفة ومن معه في طريقهم إليه، وأن أهل البصرة أيضاً - في طريقهم إليهم - يقودهم المثنى بن مخرمة العبدي.

واستمر القتال بين الطرفين، فقتل عبد الله بن سعد، فاستلم الراية عبد الله بن وال فقاتل حتى قتل، فاستلم الراية رفاعة بن شداد، واستمر القتال حتى حجز الليل بين الطرفين، وفي الليل سار رفاعة بالناس، فعبر الخابور ثم توجه إلى قرقيسية، فبعث إليهم زفر بن الحارث الطعام والعلف، وأرسل لهم الأطباء يداوون جرحاهم، فأقاموا عنده ثلاثة أيام، بعدها زودهم بالطعام والعلف. في هذه المرحلة جاء سعد بن حذيفة فوصل إلى هيت فعلم بما حدث، ولقي المثنى بن مخرمة العبدي بصدودا، فأخبره ثم اجتمع الجميع، ومن هناك تفرقوا، فأهل المدائن إلى المدائن، وأهل البصرة إليها، وأهل الكوفة إلى الكوفة.

نتائج حركة الشيعة (التوابين): لقد أبلى الشيعة بمعركة عين الورد بلاءً حسناً وأظهرت هذه المعركة نتائج مهمة كان من أهمها التالي:

١ - القدرة على قتل عدد كبير من جيش بني أمية رغم فشلهم.

٢ - تخاذل شيعة أهل الكوفة وعدم اشتراكهم جميعاً في الحركة رغم أن أكثر من ستة عشر ألفاً كانوا قد بايعوا سليمان بن صرد حيث لم يشترك منهم إلا أقل من أربعة آلاف.

٣ - أظهروا في الكوفة وغيرها مساوئ الأمويين.

٤ - أثبتوا وبسرية مطلقة وجودهم رغم عدم خبرتهم الحربية، وتمكنوا من إثبات وجودهم.

٥ - كان المختار ضد هذه الحركة، وكان يعمل جاهداً لتفشيلهم وإضعافهم.

٦- جعلت حركة الشيعة أرض الكوفة مسرحاً دائماً لثورات شبه دائمة ضد السلطة الأموية.

٧ ـ ساعدت هذه الحركة على وجود تنظيم شبه دائم للشيعة.

المختار: ذكرنا أن المختار كان قد قدم الكوفة في منتصف رمضان من سنة (٦٤ هـ ـ أبريل ٦٨٤م) بعد ستة اشهر من هلاك يزيد بن معاوية وأخذ يدعو الشيعة إلى نفسه، وإلى الطلب بدم الحسين بن علي، فيردون عليه هذا سليمان بن صرد، فيقول لهم: إني جئتكم من قبل المهدي محمد ابن الحنفية فاستطاع أن يجمع حوله طائفةً من الشيعة إلا أن عددها كان قليلاً، لذلك قرر عدم الخروج حتى يرى ما يصير إليه أمر سليمان بن صرد.

ثم أدخل السجن وضربه عبيد الله بن زياد بقضيب كان في يده فأصاب عينه فشترها، ثم أخرج بوساطة من عبد الله بن عمر، بعد ذلك توجه المختار إلى الحجاز والتقى بابن الزبير وبايعه إلا أنه لم يسلمه أية مهمة فأغضبه ذلك، فعاد إلى الكوفة واستمال طائفةً من الشيعة كما ورد.

وعندما خرج سليمان بن صرد، قال: عمر بن سعد، وشبث بن ربعي، ويزيد بن الحارث، وهم من أنصار ابن زياد، لعبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ـ وهم من أنصار ابن الزبير ـ إن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد، فخرجوا إليه فاستخرجوه من داره، فشدوه كتافاً ووضعوه في السجن، علماً أن المختار كان يثبط الناس عن سليمان بن صرد، وقتل سليمان بن صرد وأصحابه، وكان المختار وهو في السجن على علاقة مع أتباعه فكتب[1] إلى رفاعة بن شداد بعد عودته من عين الورد يقول:

«أما بعد فمرحباً بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا، ورضي انصرافهم حين قفلوا. أما ورب البنية التي بنى ما خطا خاطٍ منكم خطوةً، ولا رتا رتوة، إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا. إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إنني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وأمير الجيش وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا، وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم، وإلى

---

[1] يبدو أن المختار كان قد كتب إلى الشيعة أكثر من كتاب من السجن أي أنه كان على اتصال بهم خلال وجوده في السجن وكانت الرسل تتردد بينه وبينهم.

الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلّين، والسلام»[1].

وكتب إليهم كتاباً آخر، أرسله مع سحبان بن عمرو فأدخله في قلنسوته ـ فأتى به رفاعة ابن شداد، وأصحابه[2]، فبعثوا إليه أحدهم ـ عبد الله بن كامل ـ فقال له: قرأنا الكتاب، ونحن حيث يسرك، وقال له لو شئت أتينا السجن فأخرجناك، فقال له: سأخرج في أيامي هذه. بعد ذلك أرسل المختار رسولاً إلى عبد الله بن عمر يطلب منه المساعدة على إخراجه من السجن، فكتب ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد يطلب إليهما إطلاق سراحه، عند ذلك دعوا المختار، وطلب من يكفله ويضمنه، فأتاهم عدد من أصحابه، فضمنوه ثم أخذوا عليه عهوداً وشروطاً هي:

١ ـ القسم بالله ألا يناصبهما العداء.

٢ ـ ألا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان.

٣ـ إذا أحدث مثل ذلك فعليه أن ينحر ألف بدنة لدى رتاج الكعبة، ومما ليكه كلهم ذكورهم وإناثهم أحرار. بعد إطلاق سراح المختار استهتر بهذه الشروط وأكد أن الذي وضع مثل هذه الشروط أحمق، وأنه لن يبر بها أبداً.

أخذت الشيعة تتردد عليه بعد خروجه واجتمعت عليه، واتفق رأيهم[3] على الرضا به، وأخذ أصحابه يكثرون وأمره يقوى ويشتد حتى عزل ابن الزبير كل من عبد الله بن يزيد، وإبراهيم ابن محمد بن طلحة عن الكوفة، وولى عوضهم عبد الله بن مطيع. في الوقت نفسه كان ابن الزبير قد وجه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة والياً. بعد ذلك قال إياس بن مضارب وكان على شرطة ابن مطيع: إن السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، وأشار عليه أن يرسل للمختار، فليأتينه، ثم يضعه السجن.

أرسل ابن مطيع إلى المختار، زائدة بن قدامة، ومعه حسين بن عبد الله البرسمي من همدان، فدخلا عليه وطلبا منه التوجه إلى ابن مطيع، فلما اجتمعا به قرأ زائدة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[4]،

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص ٦٠٦.

[2] هم المثنى بن مخرمة، وسعد بن حذيفة، يزيد بن انس، أحمر بن شميط، عبد الله بن شداد، عبد الله بن كامل.

[3] السائب بن مالك الأشعري، يزيد بن أنس، أحمر بن شميط، رفاعة بن شداد، عبد الله بن شداد الجشمي.

[4] سورة الأنفال ـ الآية ٣٠.

علم المختار معنى الآية الكريمة، وقال: ما أراني وقد وعكت، ارجعا إلى ابن مطيع فأعلماه حالي، فتوجها إليه فأعلماه بعلته وشكواه وقد اتفقا على ذلك.

أخذ المختار يجمع أصحابه في الدور حوله، وقرر الخروج في محرم. في هذه المرحلة اجتمع بعض أعيان الشيعة في منزل سعد بن أبي سعد الحنفي، فقال لهم: إنا قد بايعنا المختار، وهو يريد الخروج ونحن لا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا، وقرروا التوجه إلى ابن الحنفية وأخذ إذنه وموافقته في الخروج معه أم عدم ذلك، وفعلاً توجهوا إلى الحجاز يرأسهم عبد الرحمن بن شريح، فلما قابلوه سألهم عن أحوالهم وأحوال الناس، فأخبروه خبر المختار بأنه يقول إن أمره من عندك، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه وإلا اجتنبناه، فقال لهم: «أما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فوا لله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه»[1]، ففهموا أنه أذن لهم وعادوا إلى الكوفة وقد علم المختار بهم، ثم دخلوا عليه بعد عودتهم، فقالوا له: قد أمرنا أن ننصرك، فقال المختار: اجمعوا إليّ الشيعة، فجمعهم وخطب فيهم، وأعلمهم بما حدث وأنه مأمور.

فقال أحد الموجودين ومن الذين توجهوا إلى ابن الحنفية: إن ابن الحنفية أمرنا بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعا إليه، واتفقوا أثناء ذلك على دعوة الأشتر للطلب بدم الحسين فوافقهم وأجاب دعوتهم بشرط أن يولوه الأمر، فقالوا له: هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي وهو الرسول والمأمور بالقتال، وقد أمرنا بطاعته. عند ذلك سكت ابن الأشتر و لم يجبهم وتفرقوا. بعد ذلك توجه المختار، ومعه بعض أصحابه إلى إبراهيم بن الأشتر، فاجتمع به في بيته، فتحدث المختار طويلاً، ثم قدم كتاباً للأشتر من ابن الحنفية، وفيه أمر للأشتر أن يقدم العون والمؤازرة ودفع إليه الكتاب فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجيبي الذي أرتضيه لنفسي، وقد أمرته[2] بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص ١٤.

[2] المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص ١٦ -١٧.

ومن أطاعك، فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة، ولك بذلك أعنه الخيل وكل جيش غازٍ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام، على الوفاء بذلك على عهد الله، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله أبداً، والسلام عليك. تشكك الأشتر في البداية بالكتاب، لكن بعض الشيعة شهدوا له أنه من ابن الحنفية. عند ذلك بايع الأشتر المختار، وأخذ يتردد عليه.

علم ابن مطيع - والي الكوفة لابن الزبير - بحركة المختار، فخرج قائد شرطته إياس بن مضارب، فبعث ابنه راشد إلى الكناسة، فأقبل يسير حول السوق في الشرط، وقال لابن مطيع إن الأشتر خارج في إحدى هاتين الليلتين، فلو بعثت في كل جبانة بالكوفة جماعة من أصحابك، لهابك المختار و لم يخرج. عند ذلك وزع ابن مطيع قواته على جبانة السبع، وأوكل قيادة هذه الجهة إلى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس، وأرسل قوةً أخرى إلى جبانة بشر عليها كعب بن أبي كعب، وإلى جبانة كندة زحر بن قيس، وإلى جبانة سالم شمّر بن ذي الجوش، وإلى جبانة الصائدين عبد الرحمن ابن مخنف بن مسلمة، وإلى جبانة مراد يزيد بن الحارث بن رؤيم أبا حوشب، وأمرهم أن يكفي كل منهم قومه، كما بعث شبث بن ربعي إلى السبخة، وأمره أن يتدخل في اللحظة المناسبة.

في هذه المرحلة خرج ابن الأشتر، ومعه جماعة قدر عددها مئة، وكانوا مسلحين يسترون أسلحتهم بالأقبية متوجهاً إلى المختار، وقد علم أن الجبانين ملئت رجالاً، والشرط انتشرت وأحاطت بالأسواق، فالتقى مع إياس قائد الشرطة فاعترضه الأخير فطعنه الأشتر فقتله فتفرق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع، فأرسل الأخير راشد بن إياس بن مضارب مكان أبيه على الشرطة، وأرسل بدل راشد على الكناسة سويد بن عبد الرحمن المنقري.

أما ابن الأشتر فتوجه إلى المختار فدخل عليه، وكان هذا اليوم هو الأربعاء، فقال للمختار: إن موعد خروجنا كان الخميس وخبره بما حدث، وأكد أنه لا بد من الخروج في هذا الوقت من اليوم. عند ذلك وزع المختار أصحابه كلاً منهم إلى عمله ولبس سلاحه، بعد ذلك قال ابن الأشتر للمختار: إن أنصار ابن مطيع يضيقون على أصحابنا، وأرى أن أتوجه إلى قومي، فأجمع من بايعني منهم وأن أسير بهم في شوارع الكوفة، أدعوا بشعارنا واتفق مع المختار على ذلك، وتوجه إلى قومه

فاجتمع إليه من بايعه منهم، وسار في طريق الكوفة متجنباً خصومه حتى كان بمسجد السكون، وهناك هاجم الأشتر من كان بجبانة كندة، فهزم خصومه ثم توجه بمن معه وعاد إلى المختار.

بعد ذلك قرر ابن مطيع جمع قواته، فخرج المختار في ثلاثة آلاف من إثني عشر ألفاً كانوا قد بايعوه، أما ابن مطيع فاجتمع أصحابه في المسجد، فأرسل شبث بن ربعي في نحو ثلاثة آلاف إلى المختار، وبعث راشد بن إياس في أربعة آلاف من الشرط، وعلم المختار بذلك، فسرح ابن الأشتر في قوة اختلف في قوامها، فقيل تسعمائة وقيل ثلاثمائة فارس، وستمائة راجل، وأمره الوقوف في وجه راشد بن إياس، وأرسل نعيم بن هبيرة في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل، وحدد لهم مهمة، وخلف يزيد بن أنس في موضع مسجد شبث في تسعمائة.

توجه نعيم بن هبيرة إلى شبث، فلما التقيا جرى بينهما قتال شديد، وقد عبأ كل طرف قواته فقتل نعيم بن هبيرة، وتشتت أصحابه، وعلم المختار بذلك فكتم الأمر، ثم أحاط شبث بن ربعي بالمختار، فولى المختار يزيد بن أنس الخيل، وخرج هو في الرجالة. أما ابن الأشتر فتوجه إلى راشد ابن إياس فلقيه واشتد القتال بينهما، فقتل راشد بن إياس، وانهزم أصحابه، فارتفعت معنوياتهم بهذا الانتصار، وتتالت انتصارات ابن الأشتر على خصومه، ثم قدم ابن الأشتر على المختار وهو شبه محاصر، والتحم مع خصومه في معركة لم تطل حتى هزم أعداءه إلى صاحبهم ابن مطيع.

خرج ابن مطيع بمن اجتمع إليه، ثم إن ابن الأشتر أشار على المختار التوجه إلى القصر فقدم ابن الأشتر أمامه وعبأ أصحابه. في هذا الوقت كان ابن مطيع قد أرسل عمرو بن الحجاج في ألفي رجل، فأمر المختار أحد قادته بمقابلة عمرو بن الحجاج، وسار المختار في أثر ابن الأشتر، وقد أمره أن يدخل الكوفة من قبل الكناسة، وكان شمر بن ذي الجوشن في ألفين، وهو من أتباع ابن مطيع، فسرح إليه المختار سعيد بن منقذ فواقعه. كان ابن مطيع قد أمر قواته الاجتماع إلى نوفل بن مساحق بن عبد الله، واستخلف على القصر شبث بن ربعي، وخرج هو فوقف بالكناسة، فلما تقابل ابن الأشتر وابن مساحق هزم الأخير وحوصر ابن مطيع في القصر ثلاثة أيام.

تقدم المختار فنزل جانب السوق، وولى حصار القصر ابن الأشتر ويزيد بن أنس، وأحمر بن شميط حيث توزعوا حوله كل منهم في جهة منه. في هذا الوقت استشار ابن مطيع أصحابه في الموقف، فكانت آراؤهم متفاوتة لكنهم استقروا أخيراً على أن يهرب ابن مطيع ليلاً. في الليل تحدث

ابن مطيع إلى أصحابه، وشكرهم وقرر الهروب، فخرج من نحو دروب الروميين إلى دار أبي موسى وخلا القصر، وفتح أصحابه الباب، وخرجوا فبايعوا المختار، فدخل القصر، وفي اليوم التالي بايعه الناس على كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلين، والدفع عن العطاء، وقتال من قاتلهم، ومسالمة من سالمهم، والوفاء ببيعته.

علم المختار بابن مطيع ومكان وجوده فتجاهله وكان له صديقاً، فأرسل له مائة ألف درهم وقال له تجهز واخرج ، وكان المختار قد أصاب في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف، فأعطى أصحابه الخلص كلاً منهم خمسائة درهم، وأعطى بقية أصحابه مائتين مائتين، ثم استعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكري، وعلى حرسه كيسان.

كان المختار يجتمع مع الأشراف يحدثهم ويحدثونه، فقال الموالي لصاحبهم كيسان وهو منهم، أما ترى قد أقبل على العرب ولا يعيرنا اهتماماً ولا ينظر إلينا، فأرسل كيسان إلى المختار هذا الكلام، فقال المختار له: قال لهم : «لا يشقن ذلك عليكم فأنتم مني وأنا منكم»[1]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[2]، فاطمأنت الموالي، وعلموا أن المختار قاتلهم.

بعد سيطرة المختار على الكوفة وزع عماله على الأمصار، فعقد رايةً لعبد الله بن الحارث (أخي الأشتر) ووجهه إلى أرمينية، وأرسل محمد بن عمير بن عطارد على أذربيجان، وعبد الرحمن ابن سعيد بن قيس على الموصل، وإسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جوخى، وقدامة بن أبي عبس بن ربيعة على بهقباذ الأعلى، ومحمد بن كعب على بهقباذ الأوسط، وحبيب بن منقذ الثوري علي بهقباذ الأسفل، وسعد بن حذيفة بن اليمان على حلوان، فكان معه هناك ألفا فارس، ورزقه في كل شهر ألف درهم، وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطرق، وكتب إلى عماله على الجبال يأمرهم أن يحملوا أموال كورهم إلى سعد بن حذيفة.

كان ابن الزبير قبل ذلك قد بعث محمد بن الأشعث على الموصل وأوامره من ابن الزبير مباشرةً دون ابن مطيع والي الكوفة الذي لا سلطة له عليه، فلما قدم عبد الرحمن بن سعد من قبل المختار تنحى له ابن الأشعث عن الموصل ونزل تكريت، واعتزل مع بعض قومه ينتظر ما يكون من

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٣٣.

[2] سورة السجدة - الآية ٢٢.

أمر الناس. بعد ذلك توجه إلى المختار فبايعه.

المختار وقتلة الحسين: ذكرنا أن مروان بن الحكم كان قد بعث عبيد الله بن زياد إلى العراق، وجعل له ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة ويستبيحها إذا غلب عليها ثلاثة أيام، ومرّ معنا حركة الشيعة بقيادة سليمان بن صرد (التوابين) وكيف انتهت لصالح ابن زياد، ثم أن ابن زياد انشغل عن الكوفة بعد ذلك بقيس عيلان، وهم على طاعة ابن الزبير، ثم توجه إلى الموصل فأعلم عاملها عبد الرحمن بن سعيد المختار بتحرك ابن زياد إلى الموصل، وأعلمه أنه انحاز إلى تكريت ينتظر الأوامر.

فكتب إليه المختار: الزم مكانك حتى يأتيك أمري، وكان المختار قد أرسل إلى يزيد بن أنس فدعاه إليه، وأمره بالتوجه إلى الموصل، فانتخب يزيد ثلاثة آلاف فارس، وتوجه إلى عمله فبلغ دير أبي موسى وهناك ودعه المختار، وقال له: إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم، وإذا وجدت الفرصة فلا تؤخرها، وأمره أن يكون على اتصال مباشر ودائم معه، وكتب المختار إلى عامله على الموصل وهو بتكريت أن يخلي بين يزيد وبين البلاد.

خرج يزيد حتى كان بسورا، ومنها توجه إلى المدائن فأقام بها يوماً وليلة، ثم توجه إلى جوخى إلى أرض الموصل، فنزل ببنات تلي. في هذا الوقت بلغ ابن زياد مكان يزيد بن أنس كما علم عدتهم، فقرر إرسال قوة مضاعفة من حيث العدد، فبعث ربيعة بن المخارق الغنوي في ثلاثة آلاف، وعبد الله بن حملة الخثعمي في ثلاثة آلاف، وكان الذي تحرك أولاً ربيعة بن المخارق، وقال لهما: أيكما يسبق فهو الأمير على صاحبه، وإذا انتهيتما معاً فأكبركما سناً هو الأمير، فسبق ابن المخارق فنزل ببنات تلي.

كان يزيد بن أنس في ذلك الوقت مريضاً وكانت قواته أرباعاً، فكان على ربع المدينة النعمان ابن عوف بن أبي جابر الأزدي، وعلى ربع تميم وهمدان عاصم بن قيس بن حبيب الهمداني، وعلى مذحج وأسد، ورقاء بن عازب الأسدي، وعلى ربع ربيعة وكندة، سعر بن أبي سعر الحنفي. عندما تقابل الطرفان كان يزيد بن أنس يحض أصحابه ويشجعهم، وقال لهم إن هلكت فأميركم ورقاء بن عازب، فإن هلك فعبد الله بن ضمرة العذري، فإن هلك فسعر بن أبي سعر وكان قد عبأ قواته، فكان على ميمنته عبد الله بن ضمرة العذري، وسعر بن أبي سعر على ميسرته، وجعل ورقاء ابن عازب على الخيل.

اشتبك الطرفان في قتال عنيف، ويزيد بن أنس مريض، ومع ذلك كان يوجه قواته عندما تتاح له الفرصة، فكانت النهاية انتصار يزيد بن أنس وهزيمة خصمه، وقتل ربيعة بن مخارق. خلال هذه الأحداث كان أهل الشام يدعون أصحاب المختار بأنهم عبيد تركوا الإسلام وخرجوا منه، ولا ينطقون بالعربية، أي أن أكثرهم كان من الموالي وسنعود على هذه النقطة وإيضاحها فيما بعد.

قتل ابن المخارق وانهزم أصحابه فتلقاهم عبد الله الخثعمي فجمعهم إلى جنده، وعندما تقابل الطرفان كان كل منهما على تعبئة إلا أن قوات عبد الله الخثعمي دخلت المعركة طازجة لكن معنوياتهم كانت منهارة فلما تقابل الطرفان هزمت قوات عبد الله الخثعمي بسرعة وعادت إلى ابن زياد. في هذا الوقت مات يزيد بن أنس، وتسلم قيادة القوات ورقاء بن عازب. بعد ذلك علم ورقاء بن عازب أن ابن زياد قد أقبل في ثمانية آلاف من أهل الشام، فأخذ أصحابه يتسللون ويرجعون، عند ذلك دعا ورقاء قادة الأرباع، واستشارهم فكان قرارهم الانسحاب لعدم قدرتهم على مقاومة ابن زياد.

عندما مات يزيد بن أنس ظنّ أشراف الكوفة أنه قتل، فقالوا[1]: « لقد تأمر علينا هذا الرجل (ويعنون به المختار) بغير رضاً منا، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب، وأعطاهم وأطعمهم فيئاً، ولقد عصتنا عبيدنا»، ثم اجتمعوا في بيت شبث بن ربعي، فتحدثوا عما أحدثه المختار وخاصةً أن جعل للموالي فيئاً، فقرر شبث بن ربعي لقاء المختار، فلما اجتمع به ذكر كل ما أنكره أشراف الكوفة، فكان المختار يرد عليه ويرضيه بما يرضيهم، ثم تحدث عن المماليك، فقال له المختار: أرد عليهم عبيدهم، ثم تحدث عن الموالي، فقال له المختار: إن أنا تركت لكم مواليكم أتقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطون الوفاء والعهد على ذلك، عند ذلك خرج شبث بن ربعي إلى أشراف الكوفة وأعلمهم بما حدث، فأجمع رأيهم على قتال المختار.

أخذ أشراف الكوفة يجمعون بعضهم بعضاً، فقال لهم عبد الرحمن بن مخنف، وقد دعوه للخروج ضد المختار: أليس معه فرسانكم وشجعانكم، أليس معه عبيدكم ومواليكم، وكلمة هؤلاء متفقة ومواليكم وعبيدكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم وهو يقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وهو بذلك لا يرغب في الخروج على المختار، إلا أنهم ناشدوه بالانضمام إليهم، فوافق

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص ٤٣

واستعدوا للخروج عليه بعد أن يفارقه ابن الأشتر، فلما فارقه ابن الأشتر ووصل ساباط، وثبوا على المختار، فكان عبد الرحمن بن سعيد في همدان على جبانة السبع، وزحر بن قيس، وإسحاق بن محمد بن الأشعث في جبانة كندة، وتتابع خروج أشراف الكوفة كل منهم إلى جبانة، في النهاية اجتمعوا في جبانة السبع.

علم المختار بذلك، فعبأ قواته وسره اجتماعهم في مكان واحد، وأرسل إلى ابن الأشتر يعلمه الموقف، وكان بساباط ويأمره بالعودة فوراً. في هذه المرحلة لجأ المختار في تعامله مع أشراف الكوفة إلى السياسة، وأرسل يسألهم إلى ماذا خرجوا أو ماذا يريدون، وغايته إطالة الوقت، فكان ردهم:

- أن يعتزلهم.
- أن ابن الحنفية لم يبعثك.
- أرسل المختار إلى أشراف الكوفة يطلب منهم وفداً، ويبعث لهم من قبله وفداً وغايته كما ذكرنا إضاعة الوقت حتى يصل ابن الأشتر، أما ابن الأشتر فسار إلى سورا ومنها إلى الكوفة، فلما وصل عبأ قواته، فقال المختار لابن الأشتر: سر إلى مضر بالكناسة، وعليهم شبث بن ربعي، ومحمد ابن عمر بن عطارد، وأنا أسير إلى أهل اليمن.

سار ابن الأشتر إلى هدفه بالكناسة، والمختار إلى هدفه في جبانة السبع، وأعد المختار قواته على أفواه الطرق والسكك، فوجه أحمر بن شميط وعبد الله بن كامل الشاكري، وأمر أحمر بن شميط الخروج إلى جبانة السبع، وقال لعبد الله بن كامل أن يتوجه إلى المكان نفسه إلا أن لكل منهما طريق غير طريق الآخر، وبلغ من بهذه الجبانة قدوم أنصار المختار، فوقف عبد الرحمن بن سعد واسحاق بن الأشعث، وزحر بن قيس في السكة التي فيها دير مسجد أحمس، ووقف عبد الرحمن بن مخنف، وبشر بن جرير بن عبد الله، وكعب بن أبي كعب، في السكة التي تلي الفرات.

التحم الطرفان في قتال شديد، فانكشف أصحاب المختار الذين يقودهم أحمر بن شميط وأصحابه وهزموا فسأل المختار عن أحمر بن شميط فأخبر أنه نزل عند مسجد القصاص، (مسجد أبي داود) ومعه بعض أصحابه، وتساءل عن ابن كامل، وأرسل نحوه عبد الله بن قراد الخثعمي في أربعمائة من أصحابه فوجده يقاتل فأمده بثلاثمائة، وخرج هو إلى جبانة السبع، فوقف عند مسجد عبد القيس. كان المختار قد أرسل مالك بن عمرو الفهري في مائتي رجل، وبعث عبد الله بن

شريك الفهري في مثل ذلك إلى أحمر بن شميط، وثبت المختار مكانـه، فوصلوا إلى أحمر بـن شميـط وهو يقاتل خصومه.

أما ابـن الأشـتر فلقـي شـبث بـن ربعي، ومـن معـه فهزمهـم، وأرسـل إلى المختــار يعلمــه هزيمة خصومـه، فأرسـل المختـار إلى أحمـر بـن شميـط، وإلى ابـن كـامل يعلمهمـــا وهـــم يقـــاتلون عنـد جبانـة السبع[1] وشـعارهم يالثـارات الحسـين، فقتـل رفاعـة بـن شـداد وقـد انضـم إلى صــف أصحـاب المختـار وقتـل يزيـد بن عمـير بـن ذي مـران، وقتـل النعمــان بـن صهبــان الجرمــي ثــم الراسبي، وقتل الفـرات بـن زحـر بـن قيـس الجعفـي، وارتـث زحـر بـن قيـس، وقتـل عبـد الرحمـن ابن سعيد بن قيس، وقتـل عمـر بـن مخنـف وقـاتل عبـد الرحمـن بـن مخنـف حتـى ارتـث، وكلهـم من أصحاب ابـن زيـاد.

واستخرج من دور الوادعين خمسمائة أسير فقتل منهم كل من شهد مقتل الحسـين وعددهـم مائتان وثمانية وأربعون، وقتل من الباقي عدد دون علم المختار، أخيراً أخلي الباقون من الأسرى بعـد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق على ألا يجامعوا عدواً، أما أشراف الكوفة فلحقوا بالبصرة، ثم أخـذ المختار يلاحق قتلة الحسين بن علي من مكان لآخر فقتل من استطاع قتله وهرب بعضهم إلى أماكن متفرقة.

بعد استقرار المختار في الكوفة، دعا المثنى بن مخرمة العبدي إلى بيعة المختــار بـالبصرة، وكـان المثنى ممن شهد وقعة عين الوردة مع سليمان بن صرد، وكان قد بايع المختار سراً، وأمـره أن يلحـق بالبصرة، فاجتمع إليه قومه عند مدينة الرزق إلا أنه فشل أخيراً. وانهزم فالتجأ هو وأصحابه إلى عبد القيس، ثم شخص في أصحابه إلى المختار بالكوفة.

ذكرنا أن المختار أخرج ابن مطيع من الكوفة فلحق بالبصرة، وكره التوجه إلى ابن الزبير، بعد ذلك أخذ المختار يخادع ابن الزبير ويكتب له، وكل هدفه أن يكف عنه حتى يتجمع له الأمر، علماً أن أصحابه لم يعلموا بشيء من هذه المراسلات وقرر ابن الزبير أن يعلم عـن المختـار أهـو مسـالم أم محارب، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وجهزه إلى الكوفة والياً عليهـا، وأعطاه ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف درهم.

[1] كانت وقعة جبانة الخشب يوم الأربعاء لست ليال بقين من ذي الحجة سنة ٦٦ هـ.

علم المختار بما فعله ابن الزبير، فاستدعى زائدة بن قدامة، وأعطاه سبعين ألف درهم، وأرسل معه مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي في خمسمائة فارس دارع رامح، وأمره أن يعطي عامل ابن الزبير ـ عمر بن عبد الرحمن ـ المال على أن ينصرف عن الكوفة، وهدده فلما التقى زائدة به عرض عليه المال وأظهر خيله، فأخذ المال، وتوجه إلى البصرة فاجتمع بها مع ابن مطيع.

مقتل عبيد الله بن زياد: علم المختار أن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق، وخشي أن يهاجم أهل الشام من جهة الغرب، ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة، من ذلك أخذ يوادع ابن الزبير ويكايده. في هذا الوقت كان عبد الملك بن مروان قد بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، فعلم المختار بذلك فأرسل إلى ابن الزبير وهو مراوغ له ومكايد: إن أحببت أن أمدك أمددتك، فرد عليه ابن الزبير: إذا كنت على طاعتي فابعث جيشاً إلى بلادي، ولتكن وجهته وادي القرى، فليقاتلوا جند عبد الملك.

دعا المختار، شرحبيل بن ورس، فسرحه بثلاثة آلاف وأمره بدخول المدينة، ثم يعلمه، وغايته السيطرة على المدينة، وإرسال والٍ من قبله عليها ثم التوجه إلى مكة لحرب ابن الزبير، أما ابن الزبير فلم يكن يأمن المختار لذلك أرسل إلى المدينة ألفين من المقاتلين عليهم عباس بن سهل، وأمره باستنفار الأعراب، وأمره إذا رأى الناس في طاعته أن يقبل منهم وإلا مكايدتهم وإهلاكهم.

التقى أصحاب ابن الزبير، وأصحاب المختار بالرقيم فكان ابن ورس على تعبئة، و لم يكن أصحاب ابن الزبير على مثل ذلك، فلما اجتمعا سلما على بعضهما بعضاً، فقال عباس لورس: ألست على طاعة ابن الزبير، قال: بلى، فقال له: سر بنا إلى عدونا هذا الذي بوادي القرى، ويقصد بذلك أصحاب عبد الملك بن مروان، واختلفا في ذلك، فعلم صاحب ابن الزبير أن ابن ورس يخادعه.

كان ابن ورس مصمماً على تنفيذ ما أمر به، وهو دخول المدينة وإعلام المختار، وأكد ذلك لعباس بن سهل ونزل الأخير على الماء، وبعث إلى ابن ورس بجزائر ودقيق وغنم، فأهداها له، فأرسل إلى كل عشرة من أصحابه شاة فذبحوها، وكانوا جياعاً فاشتغلوا بها واختلطوا على الماء، وترك الطرفان تعبئتهما، وأمن بعضهم بعضاً، في هذا الوقت جمع عباس بن سهل نحو ألف من أصحابه، وأقبل بهم نحو ابن ورس الذي فوجئ، واشتبك الطرفان فقتل ابن ورس وأكثر أصحابه، ودخل

الكثير منهم في الأمان فقتلوا، وهرب بحدود ثلاثمائة إلى المختار، اهتم لذلك المختار فأرسل رسولاً إلى محمد بن الحنفية يذكر له ما حدث، وأن الذين قتلهم أصحاب ابن الزبير كان قد أرسلهم إليه، فرد عليه ابن الحنفية إن ما آمرك به هو طاعة الله، وفي طاعته الخير كله، والنهي عن الشر كله.

أما ابن الزبير فكان قد حبس ابن الحنفية ومن معه من أهل بيته، ومعهم سبعة عشر رجلاً من أشراف أهل الكوفة بزمزم، لأنهم لم يبايعوه لأنه لم تجتمع عليه الأمة، فهربوا إلى الحرم، وتوعدهم بالقتل والإحراق وحدد لهم أجلاً لذلك.

عند ذلك قرر ابن الحنفية ومن معه إرسال رسل إلى المختار وأهل الكوفة يعلمه حاله وحال من معه، فدفع الرسل الكتاب إلى المختار، فجمع الناس وتلا عليهم كتاب ابن الحنفية، وقرر توجيه القوات لنصرهم، فأرسل القوات يتلو بعضهم بعضاً، وكان أول من أرسل أبا عبد الله الجدلي فدخل مكة وتوجه إلى زمزم، فطردوا الحرس وكسروا أعواد زمزم، ودخلوا على ابن الحنفية، وجرى نقاش مع ابن الزبير في إطلاق سراحهم، وابن الحنفية يأمر أصحابه بعدم الفتنة، وابن الزبير لا يريد إلا بيعتهم وإن لم يفعلوا قتلهم، وتواصل قدوم قوات المختار إلى مكة، فخاف ابن الزبير، عند ذلك خرج ابن الحنفية، ومن معه إلى شعب علي، فاجتمع هناك بحدود أربعة آلاف.

بعد أن استقرت الكوفة وجه المختار ابن الأشتر يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجة سنة (٦٦ هـ ـ يونيه٦٨٦ م) لقتال أهل الشام، ومعه وجوه أصحابه وفرسانهم وكانوا أربع فرق، فخرج المختار مع ابن الأشتر بشيعته. فلما بلغوا دير عبد الرحمن بن أم الحكم، استقبل أصحاب المختار، وقد حملوا الكراسي[1] على بغل أشهب، وصاحب أمر الكراسي حوشب البرسمي. فلما وصل المختار وابن الأشتر إليهم ازدحموا على قناطر رأس الجالوت، عند ذلك أعطى المختار لابن الأشتر تعليماته وهي:

ـ طاعة الله في السر والعلانية.

ـ السرعة في المسير إلى العدو.

ـ الاشتباك مع العدو عند مقابلته وعدم إضاعة الوقت. ثم ودّع المختار ابن الأشتر ورجع، علماً أن موضع عسكر ابن الأشتر كان حمام أعين ومنه قاد قواته إلى عدوه. توجه إبراهيم بن الأشتر

---

[1] اعتبر المختار الكرسي مثل التابوت لآل موسى بن عمران، وقصة الكرسي أنها كانت للآيات واعتبروا أنه من آيات الله وهي قصة مفتعلة من طفيل بن جعدة بن هبيرة وكان جعدة بن هبيرة يرى أن في الكرسي أثر من علم، وذكر أن الكرسي كانت للإمام علي.

إلى حيث أمره المختار، فجعل على مقدمته الطفيل بن لقيط، وكان ابن الأشتر لا يسير إلا على تعبئة، فنزلت المقدمة خازر[1]، وقدم ابن زياد فنزل مقابل قوات الأشتر. في هذه المرحلة أرسل عمير ابن حباب السلمي إلى ابن الأشتر: إني معك وأريد الليلة لقاءك محدداً ساعة اللقاء.

في هذه المرحلة كانت قيس كلها بالجزيرة، وهم على خلاف مع مروان وآل مروان. في الوقت المحدد قدم عمير إلى ابن الأشتر فبايعه، وأعلمه أنه على ميسرة ابن زياد، ووعده عندما يبدأ القتال أنه ينهزم بمن معه، فسأله ابن الأشتر: أأختدق علي وأنتظر؟ فقال له: لا تفعل ولكن ناجزهم فإنهم ملئوا منكم رعباً.

عند ذلك أخذ ابن الأشتر يعبئ قواته ووزع حرسه وكتب كتائبه وأمر أمراءه، فوضع سفيان ابن يزيد بن المغفل الأزدي على ميمنته، وعلي بن مالك الجشمي على ميسرته، وبعث أخاه لأمة عبد الرحمن بن عبد الله على الخيل وكانت قليلة، ووضع الطفيل بن لقيط على الرجالة، ورايته مع مزاحم بن مالك.

في الصباح صف قواته للقتال، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم، ووزع قواده ثم أمرهم بالزحف رويداً رويداً حتى أشرف على تل عظيم مشرف على عدوه فجلس عليه وجعله كمقر لقيادته، ثم أرسل أحد فرسانه ـ عبد الله بن زهير السلولي ـ وأمره أن يأتيه بأخبار عدوهم فلم يبق طويلاً حتى عاد فأخبره أن عدوه خرج على دهش وفشل.

بعد ذلك استعد ابن الأشتر فركب فرسه، وأخذ يحض أصحابه على القتال ويذكرهم بقتلة الحسين. بعد ذلك عاد إلى تحت رايته، أما ابن زياد فعبأ قواته فجعل على ميمنته الحصين بن نمير السكوني، وعلى ميسرته عمير بن الحباب السلمي، وشرحبيل بن ذي الكلاع على الخيل. ثم التحم الطرفان في أوائل سنة (٦٧ هـ ـ ٦٨٦ م)، حيث حمل الحصين بن نمير في ميمنته على ميسرة أهل الكوفة، فقتل قائد الميسرة وهزم أصحابه، فأخذ الراية قرة بن علي فقتل أيضاً، فأخذ الراية عبد الله ابن ورقاء بن جنادة السلولي، حيث استطاع جمع الميسرة، وتوجه بها إلى ابن الأشتر، وقد أمر ميمنته بالهجوم على ميسرة خصمه، وهو يرجو أن ينهزم لهم عمير بن الحباب كما تم الاتفاق معه على ذلك، إلا أن عميراً قاتل وثبت. عند ذلك أمر ابن الأشتر قواته بالهجوم العام، فلم يدم القتال

[1] خازر: قرب قرية يقال لها باريثا، بينها وبين الموصل خمسة فراسخ.

طويلاً، حتى هزم جند أهل الشام. في هذا الوقت أرسل عمير إلى ابن الأشتر يسـأله أن يقـدم عليـه، فأمره أن يأتيه عندما يسكن الناس.

قتل في هذه المعركة عبيد الله بن زياد، قتله كما يروي الطبري ابن الأشتر، وقتل الحصين بن نمير السكوني، وقتل شرحبيل بن ذي الكلاع. وعندما هزم أصحاب ابن زياد بعد أن قتل، وأشراف أصحابه من أهل الشام تبعهم أصحاب ابن الأشتر، فكان من غرق أكـثر ممـن قتـل منهـم، وأصـابوا معسكرهم وما يحويه، ثم توجـه ابـن الأشـتر إلى الموصـل وبعـث عمالـه عليهـا، فأرسـل عـاملاً إلى نصيبين، وغلب على سنجار ودارا وما والاها مـن أرض الجزيـرة، وأعلـم المختـار بهـذا الانتصـار، فخرج إلى ساباط بعد أن استخلف على الكوفة السائب بن مالك الأشعري، ثم عاد إلى الكوفة.

قتل المختار: علم ابن الزبير بالأحداث فعزل القباع عن البصرة وولى عوضه أخاه مصعب ابن الزبير، فخطب الناس ولقب نفسه بالجزار، بعد ذلك قدم عليه شبث بن ربعي، ودخل عليه أيضاً أشراف الكوفة فشكوا له وسألوه النصر، وأعلموه بوثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، كما قـدم عليـه محمد بن الأشعث فأدناه مصعب وأكرمه لشرفه.

قرر مصعب بن الزبير أن لا يتوجه إلى الكوفة لحرب المختار إلا بعد أن يأتيه المهلـب بـن أبي صفرة، فكتب إليه وهو عامله على فارس يأمره بالقدوم عليه، ثم اجتمع مصعـب بقادتـه، وقـد أمـر أصحابه بالتعسكر عند الجسر الأكبر، ودعا عبد الرحمن بـن مخنـف، فأرسـله إلى الكوفـة، وأمـره أن يخذل الناس فيها عن المختار، وأن يدعو الناس إلى بيعة ابن الزبير سراً.

خرج مصعب بقواته وقد قدم أمامه عباد بن الحصـين، وعبـأ قواتـه ميمنـةً وميسـرة، وخمـس الناس وجعل على كل خمس رجلاً من أصحابه، علم المختار بذلك، فجمع أصحابه، وأمر أحمـر بـن شميط أن يعسكر بحمام أعين، وانتدب الناس إليه، ودعا برؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابـن الأشـتر فوجههم إليه، في هذا الوقت كان ابن الأشتر قد أظهر أنه متهاون بأمر المختار.

خرج أحمر بن شميط ومعه جيش كثيف، فبعث على مقدمته ابن كامل الشاكري فوصـل ورد المذار، وهناك عسكر مصعب بن الزبير بالقرب منه، وعبأ كل طرف منهم أصحابه، فكـانت تعبئـة المختار على الشكل التالي:

- الميمنة - أحمر بن شميط.

- الميسرة - عبد الله بن وهب.

- الخيل - رزين بن عبد السلولي.

- الرجالة - كثير بن إسماعيل.

- على الموالي - كيسان أبو عمرة.

عند ذلك جاء عبد الله بن وهب بن أنس الجشمي إلى أحمر بن شميط، فأشار عليه أن الموالي والعبيد: «آل خور عند المصدوقة، وأن معهم رجالاً كثيرة على الخيل، وأنت تمشي فأمرهم فليـنزلوا معك، فإن لهم أسوة، فإني أتخوف إن طوردوا ساعةً وطوعنوا وضوربوا أن يطيروا على متونها ويسلموك، وإنك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بداً[1]».

فيما أشار به وهب على ابن شميط كان غشاً للموالي وغدراً بهم ورغبةً في التخلص منهم، استجابةً لما ورد قال أحمر بن شميط للموالي: انزلوا قاتلوا معي، فنفذوا ما أمروا به ومشوا بين يديه.

أما مصعب فقد جعل عباد بن الحصين على الخيل، فقال لأحمر بن شميط: ندعوكم إلى كتاب الله وبيعة عبد الله بن الزبير، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين وقال أصحاب المختار: ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وبيعة المختار، والأمر شورى في آل الرسول، فاختلفا. عند ذلك هاجم عباد ابن شميط، وحمل المهلب على ابن كامل وكرّ وأصحابه، فثبت ابن كامل مع بعض أصحابه ثم هزموا، ثم هاجم أصحاب مصعب ابن شميط فقاتل الأخير حتى قتل، وانهزم أصحابه فقتل منهم الكثير وقتلوا أسراهم حيث لم ينج منهم إلا بعض أصحاب الخيل.

وأقبل مصعب بقواته فأخرجهم من مجمع الأنهار إلى الفرات، في هذا الوقت علم المختار ما حدث وبقدوم مصعب إليه، فسار ونزل بقواته السيلحين، ونظر إلى مجمع الأنهار، فسكر الفرات على مجمع الأنهار، فذهب ماء الفرات في هذه الأنهار، فبقيت سفن أهل البصرة في الطين، فخرجوا من السفن يمشون وأقبلت خيله تعدو نحو السكر فكسروه وعاد الوضع إلى ما كان عليه. أما المختار فنزل بقواته حروراء فحال بذلك بين خصومه والكوفة، وحصنّ قصره بها، وأدخل فيه عدة الحصار، قدم مصعب إليه وقد عبأ كل طرف قواته، فكانت تعبئة المختار على النحو التالي:

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦٧ هـ - ج٦ - ص ٩٦.

- الميمنة - سليم بن يزيد الكندي.

- الميسرة - سعيد بن منقذ الهمذاني.

- الشرطة - عبد الله بن قراد الخثعمي.

- الخيل - عمر بن عبد الله الهندي.

- الرجال - مالك بن عمرو الهندي.

أما مصعب بن الزبير فعبأ قواته على النحو التالي:

- الميمنة - المهلب بن أبي صفرة.

- الميسرة - عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي.

- الخيل - عباد بن الحصين.

- الرجال - مقاتل بن مسمع البكري.

- على أهل الكوفة - محمد بن الأشعث.

عند ذلك بعث المختار إلى كل خمس من أخماس أهل البصرة رجلاً من أصحابه، بعدها اشتبك الطرفان في قتال عنيف، ومصعب يأمر المهلب بالهجوم، فكان يقول حتى أرى فرصتي، وعندما حانت الفرصة المناسبة هاجم مصعب بكامل قواته، فهزم خصمه هزيمة منكرة، وقاتل المختار قتالاً عنيفاً، ثم تفرق عنه أكثر أصحابه، فاضطر للانسحاب إلى قصره.

تحرك مصعب بن الزبير بمن معه من أهل البصرة، ومن خرج من أهل الكوفة نحو السبخة فنزلها، وبعث عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فنزل الكناسة، وبعث عبد الرحمن بن مخنف إلى جبانة السبع، وبعث عباد بن حصين إلى جبانة كندة، وأمر هؤلاء أن يقطعوا الماء والمادة عن أصحاب المختار في القصر، كما أرسل زحر بن قيس إلى جبانة مراد، وعبيد الله بن الحر إلى جبانة الصائدين.

واجترأ الناس على أصحاب المختار في كل مكان، وكانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام والطف والماء كأنها تريد المسجد للصلاة، أو تريد أهلها، أو تزور ذات قرابة لها، فإن دنت من القصر فتح لها، فتقدّم الطعام للمحاصرين، فبلغ مصعب بن الزبير ذلك فمنع عنهم كل مساعدة مهما كانت، ثم استعانوا بماء البئر الموجود في القصر بعد أن صب فيه العسل ليغير طعمه فشربوا منه.

واشتد الحصار على المختار ومن معه فقال لأصحابه: إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً، وأشار عليهم بالخروج إلى القتال، فضعفوا وعجزوا ورفضوا، بعد ذلك قرر المختار الخروج، فخرج مع تسعة عشر رجلاً، فضارب بسيفه حتى قتل، ونزل باقي أصحابه على حكم ابن الزبير. إلا أن الأخير أمعن في القتل، ثم أمر بكفّ المختار فقطعت، ثم سمّرت بمسمار حديد إلى جنب المسجد، فبقيت حتى قدم الحجاج بن يوسف، فأمر بنزعها، وبعث مصعب عماله على الجبال والسواد، وأعلم أخاه عبد الله بذلك، وكتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته، في الوقت نفسه كتب عبد الملك بن مروان إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته وله العراق ما عاش، فأقبل إلى مصعب بن الزبير بالطاعة، وكان قد وعده بأرض الجزيرة كلها ما بقي سلطان لابن الزبير، ثم وجه مصعب بن الزبير المهلب على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وأقام بالكوفة. وبذلك انتهت حركة المختار.

نتائج حركة المختار: ـ كانت حركة المختار حركة انفصالية طموحة، رغب المختار من خلالها القضاء على أطماع ابن الزبير أولاً والسيطرة على العراق والشرق والجزيرة العربية ثم مناهضة الأمويين.

ـ لم يكن المختار يعمل من أجل الشيعة والتشيع إنما كان بدافع شخصية طموحة.

ـ استطاع كسب الشيعة إلى برنامجه، وخاصةً بعد مقتل ابن زياد وبعض القادة الأمويين.

ـ اختياره الوقت المناسب وهو المرحلة الانتقالية بين السفيانيين والمروانيين، وهي مرحلة انهيار الدولة الأموية وضعفها.

ـ من جهة أخرى كانت حركة المختار كسباً للأمويين لأن صراعه مع ابن الزبير، وهما خصوم الأمويين كسب لهم، أي تدمير قدراتهم بعضهم مع بعض.

ـ إن حركة المختار أضعفت ابن الزبير، وخاصةً عند إخراج بعض العراق من تحت سلطته.

ـ أخيراً كانت حركة المختار من العوامل المساعدة للأمويين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر من حيث لم شمل الأمويين وانتصارهم في النهاية. أي أنه كان حاسماً في إضعاف الزبيريين ونهايتهم.

الفصل الثالث

ثورة ابن الزبير

الفصل الثالث

ثورة ابن الزبير

ذكرنا كيف أن يزيد بن معاوية كتب إلى والي المدينة الوليد بن عتبة يأمره أن يأخذ الحسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً، ولم يكن هم يزيد حين استلم السلطة إلا بيعة هؤلاء، وذكرنا كيف هرب ابن الزبير إلى مكة.

بعد أن تسلم يزيد بن معاوية السلطة كانت الرسل تجري بينه، وبين عبد الله بن الزبير في البيعة، فحلف يزيد ألا يقبل منه حتى يوثق به في جامعة، وكان الحارث بن خالد المخزومي على الصلاة، فمنعه ابن الزبير من ذلك، فكتب الحارث إلى يزيد يعلمه، فكتب إلى عمرو بن سعيد، وقد ولي المدينة في شهر رمضان من سنة (٦٠ هـ - يونيه ٦٨٠ م)، يأمره أن يرسل جيشاً إلى ابن الزبير، وكان عمرو بن سعيد قد ولى شرطته عمرو بن الزبير أخا عبد الله بن الزبير - لعلمه بالكراهية المستحكمة بين الأخوين، فكان في المدينة يضرب كل من يهوى هوى أخيه عبد الله، وكان ممن ضرب أخاه الآخر المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وحبيب بن عبد الله بن الزبير، وغيرهم، وفرّ بعضهم منه إلى مكة.

عندما كلف سعيد، بإرسال جيش إلى مكة لمحاربة ابن الزبير، استشار عمرو بن سعيد، عمرو ابن الزبير، قال: لا يوجد أنكأ له مني. عند ذلك أخرج عمرو لأهل الديوان عشرات، وخرج من موالي أهل المدينة أناس كثيرون، وتوجه معه أنس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة، فوجه الأخير

مقدمةً له، ثم سار فعسكر بالجرف[1]. في هذا الوقت جاء مروان بن الحكم إلى عمرو بن سعيد فقال له[2]: لا تغز مكة، واتق الله، ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر وله بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج، والله لئن لم تقتلوه ليموتن، فرد عليه عمرو بن الزبير: والله لنقاتلنه ولنغزونه في جوف الكعبة.

سار عمرو بن الزبير فنزل الأبطح[3] ونزلت مقدمته بذي طوى[4]. فأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه عبد الله: بر يمين الخليفة، واجعل في عنقك جامعةً من فضة لا ترى، لا يضرب الناس بعضهم بعضاً، واتق الله فإنك في بلد حرام، فقال له أخوه: موعدكم المسجد. عند ذلك دعا ابن الزبير عبد الله ابن صفوان ومعه جماعة ممن نزل حول مكة، فقاتلوا أنيساً بن عمرو، فهزم أنيس أقبح هزيمة، وتفرق عنه أصحابه. ثم إن عبيدة ابن الزبير أجار أخاه عمراً فرفض عبد الله إجارته، وضربه بكل من كان يضربه بالمدينة، وحبسه بسجن عارم[5]، وقيل: مات بالسياط.

ابن الزبير والحسين بن علي: عندما قرر الحسين بن علي التوجه إلى الكوفة قدم عليه عبد الله بن الزبير.

فقال ابن الزبير: «ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم أخبرني ما تريد أن تصنع؟

الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتبت إلى شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله.

ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها، قال: ثم إنه خشي أن يتهمه، فقال: أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر هاهنا ما خولف عليك إنشاء الله، ثم قام فخرج من عنده.

---

[1] الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص ١٢٨.

[2] قيل أن الذي قال مثل هذا الكلام حسب رواية الواقدي هو أبو شريح - الطبري - تاريخه - ج٥ - ص ٣٤٦.

[3] الأبطح: يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينه وبينها واحدة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص ٧٤.

[4] ذي طوى: وادي بمكة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٥.

[5] سجن عارم: حبس فيه محمد بن الحنفية - حبسه عبد الله بن الزبير - لا اعرف موضعه وأظنه بالطائف، ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٦٦.

الحسين: ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوه بي، فود أني خرجت منها لتخلو له»[1].

وخلال لقاء ابن عباس مع الحسين قال ابن عباس للحسين: لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك، وا لله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك. وخرج ابن عباس من عند الحسين بن علي. فمر بعبد ا لله بن الزبير، فقال: قرّت عينك يابن الزبير، ثم قال[2]:

يا لك من قبرة بمعمرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري

ونقّري ما شئتِ أن تُنقّري

هذا حسين يخرج إلى العراق، وعليك بالحجاز، وذكر الطبري حديثاً آخر بين الحسين وعبد ا لله بن الزبير، حيث يقول ابن الزبير للحسين «إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر، فآزرناك، وساعدناك، ونصحنا لك وبايعناك»، فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها، فما احب أن أكون أنا ذلك الكبش، فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى. فقال الحسين: وما أريد هذا أيضاً.

وقال ابن الأثير: إن الحسين بن علي، كان أثقل خلق ا لله على ابن الزبير، لأن أهل الحجاز لا يبايعونه، ما دام الحسين باقياً بالحجاز، وتوجه الحسين إلى العراق، وقتل كما هو معروف. بعد مقتل الحسين بن علي أظهر ابن الزبير الخلاف على يزيد، وبويع له بمكة، فقام فخطب الناس، فعظم قتل الحسين، وعاب أهل الكوفة، ثم هاجم بني أمية. بعد ذلك طالبه أصحابه إظهار بيعته، وكان يبايع له سراً، ويظهر أنه عائذ بالبيت، فكان رده عليهم: لم يحن الوقت. في هذا الوقت كان أمير مكة عمرو ابن سعيد بن الأشدق، وكان شديداً على ابن الزبير.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦٠ هـ - ج٥ - ص ٣٨٣، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ ص ٣٨.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ص٣٩، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٣٨٤.

عندما ثبت ليزيد أن ابن الزبير قد أجمع على الخروج وقد جمع الجموع، فأعطى الله عهداً ليوثقنه بسلسلة، وبعث بسلسلة من فضة مع بعض أتباعه، وبعث معهم برنس خز ليلبسوها عليه كي لا تظهر للناس، وعندما وصلت رسل ابن الزبير المدينة مرّوا بمروان بن الحكم، فأرسل معهم إبنين له، وقال: ليتمثل أحدكم الأبيات[1]:

فخذها فليست للعزيز بخطة وفيها فعال لامرئ متذلّل
أعامر إن القوم ساموك خطة وذلك في الجيران غزل بمغزلِ
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحاً يقال له بالدّلو أدبر وأقبلِ

فرد ابن الزبير على ابنيّ مروان وأمرهما أن يخبرا أباهما بقوله:

أني لمن نبيعة صمّ مكاسرها إذا تناوحت القصباء والعشرُ
فلا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ

وامتنع ابن الزبير من رسل يزيد. عند ذلك وشى الوليد بن عتبة وبعض بني أمية بأمير مكة عمرو بن سعيد، واتهموه بأنه لو أراد لأخذ ابن الزبير إلا أنه تقاعس في عمله، فما كان من يزيد عند ذلك إلا أن عزل عمرو بن سعيد، وولى الوليد بن عتبة الحجاز.

قدم الوليد بن عتبة أميراً على الحجاز سنة (٦٢هـ - ٦٨١م)، وأخذ ينتظر فرصةً سانحة من ابن الزبير ليأخذه، فلا يجده إلا ممتنعاً حذراً. في هذا الوقت ثار نجدة بن عامر باليمامة حين قتل الحسين بن علي، وثار ابن الزبير بالحجاز، وكان كل من الوليد بن عتبة وابن الزبير، ونجدة في الحج كل منهم على حده، إلا أن نجده كان يلتقي ابن الزبير كثيراً، حتى اعتبر الناس أن هذه المقابلات ستؤدي إلى مبايعة ابن الزبير، واشتد أمر الوليد على ابن الزبير، فعمل الأخير بالمكر والخديعة في أمره، فكتب إلى يزيد: «إن عاملك رجل أخرق فلو أرسلت غيره رجلاً سهل الخلق، لكان ذلك أفضل في تسهيل الأمور وأن يجتمع ما يتفرق».

نجحت خطة ابن الزبير، وعزل الوليد عن الحجاز، وولى عوضه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان فتىً غراً حدثاً، لم يجرب الأمور، فلما تولى مهامه كان أول ما فعله أنه أرسل وفداً

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ ص ٤٧٦، الكامل في التاريخ - ج٤ - ص١٠٠.

من أشراف أهل المدينة إلى يزيد فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، فأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم، ومعه ثمانية بنين أعطى كل واحد منهم عشرة آلاف، سوى كسوتهم وأمور أخرى حملوها معهم.

عاد الوفد إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير، وكان يزيد قد أجازه مائة ألف درهم، فتوجه إلى العراق إلى ابن زياد، فلما قدموا المدينة، أظهروا جميعاً شتم يزيد وعيبه، ووصفوه بأنه رجل ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطنابير، وتعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب (اللصوص)، وقال عبد الله بن حنظلة: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلت منه عطاءه إلا لأتقوى به، ثم خلعه وخلعه الناس وبايعوا عبد الله ابن حنظلة على خلع يزيد وولوه عليهم.

وقعة الحرة[1]: ثم إن أهل المدينة بعد أن خلعوا يزيد عملوا على إخراج عامله عن المدينة، وحصارهم من بها من بني أمية، ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش، فكانوا نحو ألف شخص، اجتمع بنو أمية بدار مروان بن الحكم فحصرهم الناس، فكتب بنو أمية كتاباً ليزيد يخبرونه بالأحداث. عند ذلك استدعى عمرو بن سعيد، وأمره أن يسير إلى الحجاز لحربهم، فرفض فبعث إلى ابن زياد كما يذكر ابن الأثير، يأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة ابن الزبير، فقال ابن زياد: لا والله لا أجمعها للفاسق، أقتل ابن بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وأغزو البيت، فرفض أيضاً ذلك.

عند ذلك أرسل إلى مسلم بن عقبة المرّي، وهو شيخ كبير مريض فدخل على يزيد، وحدثه بالمسير إلى الحجاز فوافق، فانتدب إثني عشر ألف رجل، ووزع عليهم أعطياتهم ومعونةً لكل منهم مائة دينار، وقال يزيد لمسلم: إن حدث بك حدث فاستخلف على الجيش الحصين بن نمير. سار الجيش بعد أن أوصى يزيد قائده، بقوله له: ادع القوم ثلاثاً، فإن أجابوك لا تقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، لما بلغ مسلم بن عقبة المدينة اشتد حصار أهل المدينة لبني أمية وما زالوا بدار مروان، ثم أخرجوهم منها بعد أن أخذوا عليهم عهوداً، ومواثيق، واشترطوا عليهم:

---

[1] الحرة: حرة واقم، فيها كانت الوقعة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص ٢٤٩.

- ألاّ يبغوا أهل المدينة غائلة.

- ألاّ يدلوا عليهم بعورة.

- ألاّ يظاهروا عليهم أحداً.

خرج بنو أمية من المدينة فلقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى[1]، فأخذ منهم كل المعلومات التي تفيده في قتال المدينة، ثم توجه بمن معه إلى الحرّة، فنزل بها، فأتاهم من قبل المشرق، فبلغ أهل المدينة تعليمات يزيد، فبلغوا إلى كل ماء بينهم وبين الشام فصبوا فيه زقاً من القطران، وعوروا المياه، وكان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً في جانب المدينة، وتوزعوا أرباعاً:

- ربعاً في الخندق الذي حفر حول المدينة عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف.

- ربعاً ثانياً مع عبد الله بن مطيع في جانب المدينة، وقيل كان على قريش من أهل المدينة.

- ربعاً ثالثاً مع معقل بن سنان الأشجعي في جانب آخر للمدينة، وقيل: كان على المهاجرين في المدينة.

- الأمير عليهم جميعاً، عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وكان في أعظم الأرباع، قيل: كان على الأنصار.

ضرب عقبة بن مسلم فسطاطة على طريق الكوفة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة (٦٣ هـ - أغسطس ٦٨٣ م)، ثم وجه الخيل نحو ابن الغسيل، فكشفهم ابن الغسيل، ثم إن خيل أهل المدينة جمعت إلى الفضل بن العباس، فحمل الفضل على أهل الشام فكشفهم، ثم حمل مسلم بأهل الشام، فقتل الفضل بن العباس، وغيره من أهل المدينة، وأخذ مسلم يحرض أهل الشام، وأمر الخيل أن تهاجم ابن الغسيل وأصحابه، فكان ابن الغسيل يقدم أمام الخيل المعادية رجالاً وبأيديهم الرماح والسيوف، فتنفر الخيل أو تحجم. عند ذلك أمر مسلم أصحابه بالنزول، فنزل الحصين في جند حمص، وقدم مسلم الرماة حتى دنوا من ابن الغسيل فأخذوا يرمونه بالنبال، ثم التقى الطرفان بكامل قواتهم، واشتد القتال. بعد ذلك قتل ابن الغسيل وهزم أهل المدينة، ودخل مسلم وأهل الشام المدينة فأباحها ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال، وفزع الصحابة من هول ما حدث، وخرج بعضهم إلى كهوف الجبال.

---

[1] وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٣٤٥.

ثم إن مسلماً دعا أهل المدينة بقباء[1] إلى البيعة، وبايعه الناس على أنهم خول ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء، وقتل معقل بن سنان، ثم أمر مسلم بعمرو بن عثمان بن عفان، وكان مع أهل المدينة، فنتفت لحيته، وكان مسلم يقول عنه الخبيث بن الطيب، وفي السنة التي جرت فيها وقعة الحرة حج ابن الزبير بالناس، وكان يسمى يومها العائذ، ورأيه الشورى ومن معه، ثم إن مسلماً استخلف على المدينة روح بن زنباع، وقال الواقدي: استخلف عليها عمرو بن محرز الأشجعي.

بعد أن فرغ مسلم من المدينة توجه إلى مكة يريد ابن الزبير، فلما كان مسلم بالمشلل[2]، نزل به الموت، وذلك في محرم سنة (٦٤ هـ ـ أغسطس ٦٨٣ م)، فدعا الحصين، فقال له: «يا بن برذعة الحمار، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليتك هذا الجند، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي، وليس لأمر أمير المؤمنين مرد، خذ عني أربعاً: أسرع السير، وعجل الوقاع، وعمم الأخبار، ولا تمكن قريشاً من أذنك». بعد ذلك مات مسلم ودفن بالمشلل، وقيل: إن الموت نزل بمسلم بمكان يعرف بثنية هرشا[3]، وقيل: إن مسلماً قال للحصين حين أوصاه: عمم الأخبار ولا تعر سمعك قريشاً أبداً، ولا تردن أهل الشام عن عدوهم، ولا تقيمن إلا ثلاثاً، حتى تناجز ابن الزبير الفاسق. بعدها سار الحصين بأهل الشام إلى ابن الزبير، وقد بايعه أهل مكة.

أما ابن الزبير فقدم عليه المنهزمون من أهل المدينة، وقدم عليه أيضاً نجدة بن عامر في أناس من الخوارج يمنعون البيت، ثم قدم الحصين بأهل الشام في ٤ محرم سنة (٦٤هـ ـ أغسطس ٦٨٣ م)، فخرج ابن الزبير إلى لقاء أهل الشام، ومعه أخوه المنذر، فقتل الأول في اليوم الأول للقتال، وتمكن أهل الشام من الظهور على ابن الزبير في البداية، إلا أنه تمكن من إعادة الموقف إلى ما كان عليه في البداية.

واستمر القتال بين الطرفين من أول محرم إلى ٣ ربيع الأول سنة (٦٤هـ ـ أكتوبر ٦٨٣ م)، بعد ذلك رموا البيت الحرام بالمجانيق، وحرقوه بالنار، فاحترقت الكعبة، واحترقت ثياب الكعبة،

---

(1) قباء: اسم بئر هناك عرفت القرية به وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وقباء على يسار القاصد إلى مكة، وهناك مسجد التقوى، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٠٢.

(2) المشلل: جبل يهبط منه إلى حديد من ناحية البحر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص ١٣٦.

(3) ثنية هرشا: في طريق مكة قريبة من الجحفة، يرى منها البحر ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٩٧.

وخشب البيت. في هذه المرحلة كانت وفاة يزيد بن معاوية في ربيع الآخر سنة (٦٤هـ ـ نوفمبر ٦٨٣م)، وقيل: كان مجموع أيام الحصار ٦٤ يوماً، وعن حرق الكعبة قال الطبري: احترقت الكعبة يوم السبت لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول (٦٤ هـ ـ أكتوبر ٦٨٣ م) واستمر الحصين في حصار مكة بعد موت يزيد بن معاوية، كما ذكر أربعين يوماً دون أن يعلم أي من الطرفين بموت يزيد بن معاوية، فعلم ابن الزبير قبل الحصين بموته، فنادى ابن الزبير أهل الشام: إنّ طاغيتكم قد هلك فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل، ومن كره فليلحق بالشام، إلا أن أهل الشام استمروا في القتال، فلما تأكد للحصين موت يزيد بعث[1] إلى عبد الله بن الزبير يرغب الالتقاء به، وحدد الأبطح مكاناً لذلك، فالتقيا وجرت بينهما المحاورة التالية كما يروي الطبري:

الحصين: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم أخرج معي إلى الشام، فإن هؤلاء الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوا لله لا يختلف عليك إثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة.

ابن الزبير: أنا أهدر تلك الدماء، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة.

الحصين: يكلمه سراً.

ابن الزبير: يكلمه جهراً ويقول: لا والله لا أفعل.

الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أديباً كنت أظن أن لك رأياً. ألا أراني أكلمك سراً، وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى الخلافة، وتعدني القتل والهلكة.

عمرو بن سعيد: ما منعه أن يبايعهم، ويخرج إلى الشام إلا تطير، لأن مكة التي منعه الله بها، ولو أن عبد الله بن الزبير سار إلى الشام فدخلها ما اختلف عليه اثنان، ثم ندم ابن الزبير على ما صنع.

ابن الزبير: أما أن أسير إلى الشام فلا وأكره الخروج من مكة، لكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم.

الحصين: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناساً كثيرين من أهل هذا البيت يطلبونها، يجيبهم الناس، فما أنا صانع.

---

[1] قيل إن ابن الزبير هو الذي قال للحصين ادنو مني أكلمك.

ثم إن الحصين بن نمير انسحب وتراجع بأصحابه عائداً إلى المدينـة، فاجـترأ أهلها على أهـل الشام فذلوهم. في هذا الوقت قال بنو أمية للحصين: احملونا معكم إلى الشام، ففعلـوا ومضـى هـذا الجيش، فدخل دمشق علماً أن أهل الحجاز كانوا قد بايعوا ابن الزبير بالخلافة في الوقت الـذي بـايع فيه أهل الشام معاوية بن يزيد، وذلك سنة (٦٤هـ -٦٨٣م).

ثم إن سلمة بن ذؤيب دعا الناس بالبصرة إلى عبد الله بن الزبير، فاجتمع إليه أنـاس يبايعونـه، ثم أرسل إليهم ابن الزبير عمر بن عبيد الله بن معمر فمكث شهراً، ثم قدم الحارث بن عبد الله بـن أبي ربيعة المخزومي[1](القباع)، وقال الطبري: كتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي بعهده على البصرة، وفي الكوفة اجتمع رأي أهلها على عامر بن مسعود فولوه أمرهم، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره، ثم قدم على الكوفة عبـد الله بـن يزيـد الأنصـاري ثـم الخطمي علـى الصـلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله علـى الخـراج، فـاجتمع لابـن الزبـير أهـل الكوفـة، وأهـل البصرة ومن بالقبلة من العرب وأهل الشام إلا أهل الأردن[2]، وقيل إن مـروان بـن الحكـم كـان مـن رأيه أن يرحل إلى ابن الزبير فيبايعه لكن عبيد الله بـن زيـاد ردعـه. أمـا في الشـام فكـان النـاس بهـا قسمين، الضحاك بن قيس يرى رأي ابن الزبير، وحسان بن مالك بالأردن يهـوى هـوى بـني أميـة، وتعصب الناس بدمشق، فقيس تدعو لابن الزبير ونصرة الضحاك، وكلب تدعو إلى بني أمية.

ثم إن بني أمية تعصبوا وساعدهم حسان بن مالك، وقد ولوا عليهم مروان بـن الحكـم كونـه شيخهم وكبيرهم، وبايعوه بالخلافة في الجابية يوم الأربعاء لثلاث خلون في ذي القعدة سنة (٦٤هـ - يونيه ٦٨٤ م)، ثم التقى الأمويون من جهة يقودهم مروان، والضحاك بن قيـس مـن جهـة أخـرى، فقتل الضحاك وأضحت دمشق والأردن تابعةً للأمويين، فوزع مروان عماله على الشـام، ثـم تمكـن مروان من مصر كما هو معلوم، وفي طريق عودته من مصر، بلغه أن ابن الزبير كان قـد وجـه أخـاه مصعباً نحو فلسطين، فوجه له مروان عمـرو بـن سـعيد في جيـش، فـالتقى الطرفـان فهـزم أصحـاب مصعب. في هذه المرحلة تحركت الشيعة بالكوفة مطالبة بـدم الحسين يقودهـم سـليمان بـن صـرد، ودخل المختار الكوفة.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص ٥٢٧.

[2] المرجع نفسه - ج٥ - ص٥٣٠.

ذكرنا اجتماع الخوارج مع ابن الزبير في حربه ضد جيش الشام الذي كان يقوده الحصين بن نمير، فبقوا معه حتى انصرف جيش أهل الشام عن الحجاز. بعد ذلك قرروا مفارقته لأنه لم يكن على رأيهم، فارتدوا عنه وتفرق الخوارج، وكان المختار قد توجه إلى الحجاز واجتمع مع ابن الزبير فبايعه على الشروط التالية:

- ألاّ يقضي ابن الزبير الأمور دون المختار.
- أن يكون أول من يأذن له.
- إذا انتصر ابن الزبير استعان بالمختار على أفضل عماله.

وشاركه في حربه جند أهل الشام، وبقي معه حتى هلك يزيد بن معاوية، ورجع جند أهل الشام، وقيل: بقي المختار مع ابن الزبير خمسة أشهر وأياماً بعد مهلك يزيد، فلما رآه لا يستعمله وثب وخرج إلى الكوفة. خلال هذه المرحلة هدم ابن الزبير الكعبة لأن جدرانها كانت قد مالت لما رميت به من حجارة المجانيق، فهدم بيت الله الحرام حتى سواه بالأرض وحفر أساسه، وأدخل الحجر فيه، وجعل الركن عنده في تابوت في شقائق من الحرير، وجعل ما كان من حلي البيت، وما وجد من ثياب أو طيب عند الحجبة في خزانة البيت، حتى أعادها لما أعاد بناءها.

كان مروان بن الحكم قد وجه حبيش بن دلجة إلى المدينة، فسار إليها وعليها جابر بن الأسود ابن عوف من قبل عبد الله بن الزبير، فهرب جابر من حبيش، فوجه الحارث بن أبي ربيعة عامل ابن الزبير جيشاً من البصرة لحرب حبيش، فلما علم حبيش غادر المدينة، كما وجه ابن الزبير من عنده عباس بن سهل بن سعد الأنصاري على المدينة، وأمره أيضاً أن يسير في طلب حبيش حتى يوافي جند البصرة، فسار عباس مسرعاً فلحق حبيشاً بالربذة فتمكن من هزيمة حبيش وقواته، وقتل حبيش ورجع من انهزم إلى الشام.

كانت الخوارج خطراً متواصلاً على ابن الزبير في العراق، وخاصةً على البصرة، فقدم المهلب ابن أبي صفرة، ومعه عهد على خراسان من قبل ابن الزبير، وكلف المهلب بحرب الخوارج. بعد ذلك وثب المختار بالكوفة طالباً بدم الحسين بن علي، وأخرج منها عامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع، وكان ابن مطيع قد قدم الكوفة في رمضان سنة (٦٥هـ ـ أبريل ٦٨٥ م)، ثم إن المختار حاول المكر بابن الزبير فأظهر أنه وجه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي يقوده شرحبيل

ابن ورس فأمره أن يدخل المدينة، فإذا دخلها أخبره، وغايته إرسال أمير عليها من قبله ثم يمضي إلى مكة فيحاصرها ابن الزبير ويقاتله.

خشي ابن الزبير من المختار وما ينوبه، فأرسل من مكة إلى المدينة عباس بن سهل بن سعد في ألفين، وأمره أن يستنفر الأعراب، وأمره أيضاً إذا رأى شرحبيل بن ورس، ومن معه على الطاعة عدم معارضتهم، وعندما التقى الطرفان، قتل شرحبيل بن ورس وهزم أصحابه.

وكان ابن الزبير قد أخذ محمد بن الحنفية فوضعه في السجن، ومن معه من أهل بيته، وسبعة عشر رجلاً من أشراف أهل الكوفة لأنهم كرهوا بيعته، وكان المختار يدعي أن حركته كانت بأمر محمد بن الحنفية، فوجه المختار من العراق قوات تمكنت من إخراجهم من السجن[1]، ونظراً للظروف المستجدة في العراق والتي أحدثها المختار، فقد قرر ابن الزبير عزل أمير البصرة الحارث ابن عبد الله بن أبي ربيعة (القباع)، وتولية أخيه مصعب بن الزبير، وذلك سنة (٦٧هـ - ٦٨٦ م).

قدم مصعب بن الزبير متلثماً فأناخ على باب المسجد، ثم دخل فصعد المنبر فكشف عن وجهه فعرفوه، فقال: ﴿طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2]، وأشار بيده نحو الشام، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[3]، وأشار بيده نحو الحجاز.

ذكرنا أفعال المختار بأشراف الكوفة، فلما قدم مصعب بن الزبير البصرة قدم عليه بعضهم، فأخبروه بما لحقهم من عار، وبما أصيبوا من عبيدهم ومواليهم ولحق بالبصرة أيضاً مستجيراً من المختار وأصحابه محمد بن الأشعث بن قيس، فحث مصعب الجميع على التوجه إلى الكوفة. كتب مصعب إلى المهلب بن أبي صفرة يأمره أن يأتيه وهو عامله على فارس، فاعتل المهلب وأبطأ لكراهته الخروج، فأمر مصعب محمد بن الأشعث التوجه إلى المهلب يستحثه، ثم إن المهلب خرج فدخل البصرة، ولولا توجه محمد بن الأشعث إليه لما قدم، وكان حسن تصرف من مصعب أن أرسل محمد ابن الأشعث إلى المهلب لأن الأخير يعرف قيمة ابن الأشعث وأهميته. بعد أن جمع مصعب بن الزبير قواته أمر الناس بالتعسكر عند الجسر الأكبر، واستدعى عبد الرحمن بن مخنف، وهو من

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٧٦ - ٧٧.

[2] ٢+٣ سورة القصص - الآية (١-٦).

أشراف الكوفة، وأمره أن يأتي الكوفة وبعض الأمور وهي:

- أن يدعو على إخراج من قدر على إخراجه منها.
- أن يدعوهم سراً إلى ابن الزبير.
- أمره أن يخذل الناس ما استطاع عن المختار.

تحرك مصعب بن الزبير بقواته بعد أن عبأها، فقدم على مقدمته عباد بن الحصين، وعلى ميمنته عمر بن عبد الله بن معمر، وعلى ميسرته المهلب بن أبي صفرة، ووضع على الأخماس[1]، كالتالي:

- خمس بكر بن وائل - مالك بن مسمع.
- خمس عبد القيس - مالك بن المنذر.
- خمس تميم - الأحنف بن قيس.
- خمس الأزد - زياد بن عمرو الأزدي.
- خمس أهل العالية - قيس بن الهيثم.

علم المختار بالكوفة بإجراءات مصعب بن الزبير وحركته ثم انتدب المختار الناس مع أحمر ابن شميط، فعسكر في حمام أعين[2]، ثم دعا المختار رؤوس الأرباع[3]، وهم:

- قيس بن طهفة الهندي - على ربع أهل المدينة.
- عبد الله بن حية الأسدي - على ربع مذحج وأسد.
- الأسود بن جراد الكندي - على ربع كندة وربيعة.
- حبيب بن منقذ النوري من همذان - على ربع تميم وهمذان.

فلما اجتمعوا إليه أمرهم بالمسير بأرباعهم مع أحمر بن شميط، وبعث معه جيشاً قوياً فسار حتى ورد المذار[4]، وجاء مصعب فعسكر بالقرب منه، فعبأ ابن شميط قواته على النحو التالي:

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦٧ - ج٦ - ص٩٥.

[2] حمام أعين: منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٩٩.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٦٦هـ - ج٦ - ص٨١.

[4] المذار: في ميسان بين واسط والبصرة وهي قصبة ميسان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٨٨.

- الميمنة - ابن كامل الشاكري.
- الميسرة - عبد الله بن وهب بن نضلة الجشمي.
- على الخيل - رزين عبد السلولي.
- على الرجالة - كثير بن اسماعيل الكندي.
- الموالي - كيسان (أبو عمرة).

في هذا الوقت قدم على أحمر بن شميط عبدُ الله بن وهب وكان قد جعله على ميسرته، وهو أحد أركانه، فقال له: إن الموالي والعبيد لا يصدقون القتال عند الشدة ومعهم خيل كثيرة، وأنت تمشي فأمرهم فلينزلوا معك، فإن لهم بك أسوة، لأن وجودهم مع الخيل يخشى في حال اشتداد المعركة أن يهربوا عليها، أما وهم رجالة فإنه لا بد لهم من الصبر في القتال.

الحقيقة إن في نصيحة عبد الله بن وهب لابن شميط وهو أحد أشراف الكوفة، كان الغش والغدر

أولاً: ضد الموالي والعبيد، لأن أشراف الكوفة لقوا منهم الاضطهاد والتنكيل، وفي ترجلهم عن الخيل خسر ابن شميط الحرب ولم يبق منهم أحد.

ثانياً: إن مثل هذه النصيحة غش وغدر لمن أعطاه الثقة وجعله أحد أركانه الذين يعتمد عليهم.

ثالثاً: إن أحمر بن شميط تقبّل المشورة من عبد الله بن وهب دون تدقيق ولا مناقشة.

وافق أحمر بن شميط على هذه المشورة، وأمر الموالي أن يترجلوا، ومشوا بين يديه وتحت رايته، ثم تقابل الطرفان حيث تمكن مصعب من تدمير جيش المختار، وقتل قائده أحمر بن شميط وابن كامل، ولم يبق إلاّ القليل منهم، ثم إن مصعباً تحرك بقواته فقطع واسط القصب، وحمل الرجال وأثقالهم وضعفاء الناس في السفن في نهر خرشاد، فخرجوا إلى نهر قوسان ثم أخرجهم إلى الفرات.

عندما بلغ المختار هزيمة قواته، وأن مصعباً قد أقبل نحوه سار بمن اجتمع إليه فنزل بهم السيلحين، ونظر إلى مجتمع الأنهار، نهر الحيرة، نهر السيلحين، نهر القادسية، نهر يوسف، فسكر الفرات على مجتمع الأنهار، فذهب ماء الفرات كله في هذه الأنهار، فوجه أصحاب مصعب الخيل

فتمكنوا من كسر السكر، فعادت الأمور طبيعية، وعاد ماء الفرات إلى وضعه الطبيعي.

تقدم المختار بقواته فنزل حروراء[1]، وقدم مصعب إليه وعبأ كل طرف ما لديه، وبعد قتال مرير كما ورد في فصل سابق خسر المختار وقتل وبددت قواته وانتصر مصعب ودخل الكوفة وأعاد العراق وأمصارها إلى حظيرة ابن الزبير، ووزع العمال. بعد ذلك كتب مصعب إلى إبراهيم ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته وإذا وافق فإن أرض الشام وما غلب عليه من أرض العرب فهو له ما بقي لآل الزبير سلطان. في الوقت نفسه كان عبد الملك بن مروان قد كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إليه ويمنيه بالعراق، فخاف إبراهيم من عبد الملك لأنه هو الذي قتل عبيد الله بن زياد، وأهل الشام ولولا ذلك لدخل في طاعته، ثم انضم الأشتر إلى مصعب بن الزبير. بعدها أرسل المهلب على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة.

عزل مصعب وإعادته: عندما توجه مصعب من البصرة لحرب المختار استخلف على البصرة عبيد الله بن معمر، وبعد أن سيطر على العراق قدم على الحجاز، فعزله أخوه عبد الله، وولى عوضه ابنه حمزة. قدم حمزة البصرة والياً حيث وصف بالجود، إلا أنه أظهر الخفة والضعف، وكثرت الشكاوى منه، فكتب الأحنف بن قيس إلى ابن الزبير بأفعاله، وطلب منه إعادة مصعب، فعزل ابنه حمزة وولى مصعباً أميراً على العراق، وذلك سنة (٦٨هـ ــ ٦٨٧م)، وكان حمزة عندما عزله أبوه ابن الزبير قد احتمل أموالاً كثيرة من أموال البصرة، فتوجه إلى المدينة فأودع هذه الأموال رجالاً فضاعت الأموال ولم يرد عليه منها شيء إلا من رجل واحد.

وجه مصعب بن الزبير، عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس أميراً، وكانت الأزارقة قد لحقت بفارس وكرمان ونواحي أصبهان، بعد أن حاربهم المهلب بالأهواز كما سيرد، حاربهم عمر ابن عبيد الله وظفر بهم، وكان في عهده أيضاً خروج ابن الحر، وانضمامه إلى عبد الملك بن مروان، فتم قتله.

في هذه المرحلة انقسم العالم العربي الإسلامي، وظهر ذلك واضحاً وخاصةً في الحج ففي سنة (٦٨هـ ـ ٦٨٧م) كان بعرفات أربعة ألوية، وكل منهم منقسم منفصل عن الآخر، الأول مع محمد ابن الحنفية، وابن الزبير في لواء، ونجدة الحروري في لواء، وبنو أمية في لواء. عندما استقر عبد الملك

---

[1] حروراء: قرية بظاهر الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص ٢٤٥.

ابن مروان بالشام، قرر تصفية حساباته مع المعارضين له وأهمهم ابن الزبير، وكان قد صالح ملك الروم سنة (٧٠هـ - ٦٨٩م)، على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار[1]، عند ذلك قرر التوجه إلى العراق لحرب مصعب بن الزبير، فمضى حتى كان كما يذكر الطبري ببطنان حبيب، ويخرج مصعب إليه فيهجم الشتاء، فيرجع كل منهم إلى عمله.

أقبل عبد الملك بن مروان إلى مصعب بن الزبير سنة (٧٠ هـ - ٦٨٩م)، ومعه خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال لعبد الملك: إن وجهتني إلى البصرة واتبعتني الخيل رجوت أن أغلب لك عليها فقدم خالد البصرة متخفياً، فنزل على عمرو بن أصمغ، فأرسل الأخير إلى عباد بن الحصين، وهو قائد شرطة مصعب، يخبره أن خالداً استجار به، وكل أمله أن يكون عباد عوناً لهم، فلما علم عباد بذلك تحرك بالخيل نحو عمرو بن أصمغ، وغايته أخذ خالد، وكان عمرو بن الأصمغ قد بلّغ خالداً بالأخبار وأشار عليه بمالك بن مسمع، وأنه غير قادر على حمايته، فتوجه خالد إلى مالك بن مسمع، وطلب منه أن يجيره فوافقه، وأرسل إلى بكر بن وائل، والأزد، فكانت أول راية أتته راية بني يشكر.

ثم قدم عباد بالخيل وكان خالد بن عبد الله قد انضم إليه رجال من بني تميم، وانقسم الناس هناك إلى جفرية وهم أصحاب خالد، وأصحاب والي البصرة ابن معمر زبيرية، وكان المهلب من أصحاب الجفرية، فعلم مصعب بالأحداث، فوجه زحر بن قيس مدداً لأمير البصرة من قبله في ألف، ووجه عبد الملك أحد أتباعه مدداً لخالد إلا أنه فشل في دخول البصرة وعاد.

ثم تقابل الناس في البصرة في قتال استمر عشرين يوماً، ثم جرت سفارة سياسية بينهما انتهت إلى عقد صلح بين الطرفين، وإخراج خالد من العراق. بعد ذلك قدم مصعب إلى البصرة وعزل ابن معمر عنها، وأرسل إلى الجفرية فأنّبهم لخروجهم عليه، ودعاهم واحداً واحداً، ونسب كلاً منهم إلى أصله، وضربهم مائة سوط، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم وعرضهم في الشمس ثلاثة أيام، وحملهم على طلاق نسائهم، وحمل أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألاّ ينكحوا الحرائر، وأرسل خداش بن يزيد، وكان على شرطته في طلب من هرب من أصحاب خالد، وأمر مصعب بدار مسمع بن مالك، فهدمها، وأخذ ما فيها، ولما استقر أمر البصرة

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٧٠ هـ - ج٦ - ص ١٥٠.

عاد مصعب إلى الكوفة.

إن ما فعله مصعب بأهل البصرة كان قاسياً، كما أرى، وهذا أسلوب اعتمده خلال ولايته فعاد عليه بالخذلان في النهاية لأنه كان بإمكانه التصرف معهم بغير هذه الطريقة، لعله يكسب ودهم وفي كسبهم كسب لقبائلهم، على الأقل كان بإمكانه أن يحيدهم عن الأحداث بدلاً من أن يكونوا عوناً عليه كما حدث.

مقتل مصعب: خرج عبد الملك من دمشق فنزل مسكن[1] وغايته مصعب بن الزبير، وكان عبد الملك يحسب لمصعب حساباً كبيراً، لذلك كان همه القضاء عليه، علماً أن مصعباً كان صديقاً لعبد الملك وهو أعلم الناس به. إذاً سار عبد الملك إلى مصعب، وقد عبأ قواته على النحو التالي:

- المقدمة - محمد بن مروان.
- الميمنة - عبد الله بن يزيد بن معاوية.
- الميسرة - خالد بن يزيد.

أما مصعب فقد اعتزله أهل الكوفة كعادتهم، ومع ذلك سار بمن معه إلى باجميرا[2]. في هذا الوقت كتب عبد الملك إلى من كان على رأيه بالعراق، وممن كتب له كان إبراهيم بن الأشتر، فأعلم مصعباً بذلك، وقال لمصعب: لقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل ما كتب لي، فالرأي أن تضرب أعناقهم، فخاف من قبائلهم وتمردها، فقال: أحبسهم فإن غلبت أمرت بضرب أعناقهم، وهمّ العراق بالغدر بمصعب. فلما اقترب المعسكران بدير الجاثليق[3]، اشتبك الطرفان، فقتل فيه جماعة منهم إبراهيم بن الأشتر، وهرب بعضهم مع مصعب، ثم أخذ مصعب يدعو من معه للحرب، فلم يجد أحداً يقبل منه، من ذلك قوله:

مصعب: يا قطن بن عبد الله الحارثي قدّم خيلك.

قطن: ما أرى ذلك.

مصعب: ولم.

---

[1] مسكن: موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص١٢٧.

[2] باجميرا: موضع دون تكريت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص ٣١٤.

[3] دير الجاثليق: دير قديم البناء قرب بغداد في غربي دجلة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص ٥٠٣.

قطن: أكره أن تقتل مدحج في غير شيء.

مصعب: قال لحجار بن أبجر: قدّم رايتك.

حجار: إلى هؤلاء الانتان القذرة.

مصعب: ما تتأخر إليه وا لله لانتم أنتن والأم.

مصعب: قال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس مثل ذلك.

محمد بن عبد الرحمن: ما أرى أحداً فعل ذلك فأفعله.

مصعب: قال: يا إبراهيم ولا إبراهيم.

عند ذلك أدرك مصعب قول إبراهيم بن الأشتر وما قاله له وأنه كان مصيباً، وهو أعرف بأهل العراق منه في مثل هذه المواقف، وأدرك مصعب في النهاية، فأمر ابنه عيسى بالتوجه إلى الحجاز وإعلام عبد الله بن الزبير وهو عليها بأخبار العراق وما كان منهم، واستمر القتال وبقي مصعب صامداً رغم اختلال الموقف، وكان يقول خلال هذا الموقف رغم حدته وخطورته: إن قتلت فلعمري ما السيف بعار، وما الفرار لي بعادة ولا خلق، ثم استمر في القتال، فقاتل حتى قتل في جمادى الآخرة سنة (٧١ هـ - نوفمبر ٦٩٠م)، على نهر يقال له الدجيل عند دير الجاثليق. وبذلك يمكن القول إن هذه المرحلة شهدت مصارع الأبطال[١].

وقيل إن عبد الملك كان قد أرسل إلى مصعب أخاه محمد بن مروان، فقال له محمد بن مروان: إن ابن عمك عبد الملك يعطيك الأمان، فقال مصعب: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً. في النهاية قتل مصعب وابنه عيسى رغم أن محمد بن مروان كان يرغب في أمانهما إلا أنهما أرادا القتل فكان ذلك.

ثم تقدم عبد الملك إلى النخيلة[٢]، فدعا الناس إلى البيعة، ثم ولى الكوفة قطن بن عبد الله الحارثي، ثم عزله وولى بشر بن مروان، ووزع عماله على العراق، وولى خالد بن عبد الله على البصرة وأعمالها، ثم رجع عبد الملك إلى الشام، ولم يبق أمامه إلا عبد الله ابن الزبير.

---

[١] كاظم الظواهي المكتبات في صور الشعر السياسي في العصر الأموي - طبع مصر ١٩٨٧ - ص ١٥ -١٦.

[٢] النخيلة: موضع قرب الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص ٢٧٨.

مقتل ابن الزبير: علم عبد الله بن الزبير بأحداث العراق ومقتل مصعب وابنه فقام فخطب الناس، فكان مما قال في مصعب: «ما مصعب إلا عبيد الله وعون من أعواني إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت في مضاجعنا، كما يموت بنو أبي العيص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام»[1]. بعد ذلك عزل ابن الزبير والي المدينة جابر بن الأسود، واستعمل عوضه طلحة بن عبد الله، فكان آخر والٍ لابن الزبير على المدينة.

كان عبد الملك بن مروان عندما قرر العودة إلى دمشق عاصمة ملكه، كان الحجاج قد قام إليه فسرد عليه مناماً، يذكر فيه أنه أخذ ابن الزبير فسلخه، وطلب منه أن يرسله إليه، فوافقه وبعثه في جيش قوي من أهل الشام إلى الحجاز في جمادى الأولى سنة (٧٢هـ ـ سبتمبر ٦٩١م)، فقدم الحجاج مكة، وكان عبد الملك بن مروان قد كتب لأهلها كتاب أمان إن دخلوا في طاعته.

سار الحجاج من العراق، فلم يسلك طريق المدينة إنما سلك طريق العراق، فنزل الطائف في شعبان سنة (٧٢ هـ ـ ديسمبر ٦٩١م)، فكان كل منهما يرسل بعوثاً إلى عرفة في الخيل، فيحدث قتال فيهزم أصحاب ابن الزبير، وينتظر أهل الشام. بعد ذلك كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم على ابن الزبير، ويسأله أن يمده بالرجال، فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بالحجاج، فسار طارق في خمسة آلاف من أصحابه، فلحق بالحجاج، ثم إن الحجاج رحل في ذي القعدة من الطائف، فنزل بئر ميمون وحصر ابن الزبير، فأقام الحج الحجاج هذه السنة لأن ابن الزبير كان محصوراً وذلك في هلال ذي القعدة سنة (٧٢هـ ـ مارس ٦٩٢م).

في هذا الوقت كان أهل الشام وهم محاصرون لابن الزبير والإمدادات تتوافد عليهم، فكانت العير تأتيهم من الشام تحمل الطعام، والكعك والسويق والدقيق، وكانوا في روح معنوية عالية على عكس ما كان عليه ابن الزبير، ودخلت سنة (٧٣هـ ـ ٦٩٢م)، وابن الزبير محصور، يقول ابن الأثير: واشتد عليه الحصار «حتى ذبح فرسه وقسم أصحابه لحمها بين بعضهم، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم، ومدّ الذرة بعشرين درهماً، حيث بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً، وشعيراً، وذرةً، وتمراً، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، وكان يحفظ ذلك ولا ينفق إلا ما يمسك

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٧١ هـ ـ ج٦ ـ ص١٦٦.

الرمق، ويقول: أنفس أصحابي قوية ما لم يفن»[1].

أرى في هذا الكلام غموضاً فكيف لابن الأثير أن يذكر إصابة الناس بالمجاعة الشديدة حتى ذبح فرسه ووزعها على أصحابه، ويذكر أن بيوت ابن الزبير كانت مملوءة موادّ تموينية، أرى لو كانت البيوت مملوءة كما ذكر لما ذبح فرسه، والعرب كما هو معلوم لا تلجأ إلى ذبح الفرس إلا في الحالات القصوى والعصيبة، كقصة حاتم الطائي وذبحه لفرسه لضيفه الراغب فيها وقصته معروفة، ومن المعلوم أن ابن الزبير استمر حصاره سبعة أشهر، فمهما يكن عنده من تموين في بيوته فإن ذلك سينفد ولن يبقى منه شيء. ثم إن الحجاج نصب المجانيق ورمى بها ابن الزبير وأصحابه، فتفرق عن ابن الزبير أكثر أصحابه وخرج أهل مكة إلى الحجاج يطلبون منه الأمان، وكان ممن خرج إلى الحجاج ابنا ابن الزبير حبيب وحمزة.

قال ابن الأثير: «لما حصر الحجاج ابن الزبير نصب المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة، وكان عبد الملك ينكر ذلك أيام يزيد بن معاوية ثم أمر به، وقال: أول ما رمى بالمنجنيق إلى الكعبة رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد على الحجاز؟ فأعظم ذلك أهل الشام، وأمسكوا أيديهم، فأخذ الحجاج حجر المنجنيق بيده فوضعه فيه، ورمى به معهم»[2]. عندما اشتد الحصار على ابن الزبير، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر، فحاورها كما يذكر المؤرخون:

قال: يا أمه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك.

فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت. فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن. فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها.

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٣٥٢.

[2] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلاّ الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرةً مع بصيرتي. فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عمل بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك، ففي نفسي أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد.

فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل. وذلك التحبب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي اللهم سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين. بعد أن ودع ابن الزبير أمه، رجع إلى موقعه يقاتل وكان الحجاج في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأول سنة (٧٣هـ - سبتمبر٦٩٢ م) قد أخذ الأبواب على ابن الزبير، وشحنت هذه الأبواب، وأسلم أصحاب ابن الزبير المحارس، وأقام الحجاج على كل باب رجالاً، فكان لأهل حمص الذي يواجهه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة.

كان ابن الزبير عندما أخذ الحجاج الأبواب قد بات يصلي عامة ليله، وفي الصباح حمل على أهل الشام، فرمي فأصيب بوجهه، فأرعش، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه قال[1]:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدماء

---

[1] شرح المرزوني - ديوان الحماسة - ج١ - ص١٩٢.

ثم قتل ابن الزبير بعد حصار استمر سبعة أشهر، وعلم الحجاج وطارق بقتله، فبعث الحجاج رأسه وبعض الرؤوس من أصحابه إلى المدينة، فنصبت بها، ثم أرسل بها الحجاج إلى عبد الملك ابن مروان. بعدها دخل الحجاج مكة فبايع من بها لعبد الملك بن مروان. وقيل إن الحجاج أخذ رأس ابن الزبير وأرسلها إلى عبد الملك، وصلب جثته على خشبة، على الثنية اليمنى بالحجون، وأوكل بالخشبة من يحرسها، وأخبر عبد الملك بذلك، وقيل إن عبد الملك أمر الحجاج بن يوسف أن يسلم جثته إلى أمه لدفنها، فأنزلها عن الخشبة وسلمها الجثة، فدفنتها، وقال مسلم في صحيحه إن عبد الله ابن الزبير بعد قتله ألقي في مقابر اليهود.

وذكر ابن الأثير أن الحجاج أمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم، ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً، فأساء إلى أهلها، وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم، كما كان يفعل بأهل الذّمة، منهم: جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد.

ـ لو فكر ابن الزبير عند لقائه مع الحصين بن نمير لما تردد في موافقته، لأنه إذا بايعه أهل الشام أصبح الخليفة دون منازع لأنهم كانوا أيامه هم العقبة الوحيدة، وضاعت هذه الفرصة وكانت الوحيدة، وكان ابن الزبير أيضاً لا يثق في أهل الشام ولا يصدق أنهم هم الذين ينصرونه وهم الذين كانوا يحاربونه لإزالة كل سلطة له والقضاء عليه، الحقيقة كانت أن ابن الزبير خلال هذا الوقت مضطرباً في تفكيره، ويبدو أنها سيطرت عليه طيلة الوقت الذي عاشه فيما بعد. إن الاضطراب الذي عانى منه ابن الزبير جعله يشاهد الأمصار التابعة له تتساقط الواحدة بعد الأخرى.

ـ كان أهل الشام أقرب الناس عهداً بالخلافة فمنحهم الوزراء والقواد والجنود، إذن عرف أهل الشام بني أمية أمراء وملوكاً، لذلك يتشبثون بالخلافة وبقائها في بني أمية.

ـ ثم إن ابن الزبير كان يخشى أهل العراق لتلونهم وعدم استقرارهم على أمير ويعلم أن لا وفاء لهم ولهم تاريخ في الغدر.

ـ كان ابن الزبير بدلاً من هذا الاضطراب والتردي يستطيع أن يجمع الجيوش من مختلف الأمصار فيقودها بنفسه أو يوجهها جيشاً جيشاً لمحاربة الأمويين في دمشق وليس لهم غيرها والأردن. في ذلك تخذيل لأهل الشام واحتقارهم، ولأدرك أهل الشام في هذه الحالة أنهم هم

الخارجون على رأي الجماعة إلا أنه لم يكن بالقائد المقاتل الشجاع الإداري الحاسم في هذه المواقف، ويعود ذلك لقلة تجربته في ميدان السياسة.

- وصف ابن الزبير بأنه كان بخيلاً يده مغلولة إلى عنقه منذ طلبه للسلطة إلى نهايته، فلقد جفاه أهل العراق لذلك، وقبلوا عروض عبد الملك فمالوا إليه وبذلك كانت نهاية أخيه مصعب وخسارة العراق، على العكس كان الأمويون ينفقون مما يجبون من خراج أمصارهم فيكسبون الرجال، وكان خراج مصر والعراق والحجاز واليمن يجبى لابن الزبير إلا أن ذلك لم يستعمل كسلاح ضد الأمويين.

- كان جند ابن الزبير بلا هدف واضح، أي دون رغبة ظاهرة جدية في خلافته وخاصةً في العراق وفي مصر أيضاً التي لم تبد مقاومة تذكر للأمويين، على العكس كانت كفة الأمويين منذ البداية هي الأفضل لأنهم كانوا في جند طائعين وإيمانهم بالقتال قوي لأن في نصرهم إبقاء الحكومة في بلادهم، ولا يمكن لأي منهما الاستغناء عن الآخر.

- كانت الخوارج طعنة في خاصرة أصحاب ابن الزبير في العراق، فلم يوقف الخوارج هجماتهم التي كانت تقض مضاجعهم، حتى أن الخوارج بلغوا سوق الأهواز واشتد خطرهم.

- كان من أخطاء مصعب بن الزبير أن وجه المهلب بن أبي صفرة بجيش لحرب الخوارج وأبعده عن القوة الرئيسية، علماً أن المهلب كان قد رغب البقاء مع مصعب وأكد تلك الحقيقة أن مصعباً لو استعان برأي المهلب واستفاد من مدرسته السياسية والعسكرية لتجنب الكثير من الويلات وأولها ما كان أهل العراق تفرقوا عنه كما حدث بهذا الشكل.

- إذن كان مصعب بين فكي كماشة، في الشرق الخوارج، وفي الغرب عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير قابع في مكة لم يقدم أي دعم، لا مادي ولا عسكري، وكان بإمكانه تقديم الكثير وكان في يده خراج العراق والحجاز.

- ثم أين كان فكر مصعب عندما علم أن عبد الملك يراسل قادته ويمنيهم الوعود، أين كان موقفه من رأي الأشتر عندما أعلمه أن عبد الملك أرسل له بذلك كما أنه أرسل لأكثر قواده بمثل ما

أرسل له.

- لو أن مصعباً جمع كل من كاتبه عبد الملك أو بالعكس وضرب أعناقهم لكان تجنب الفتنة أو لو أنه أخذهم فحبسهم وولى القبائل منافسيهم ووعدهم ومناهم لكان في موقف الأقوى والأفضل.

- ولو أن مصعباً جمعهم وأرسلهم لحرب الخوارج لكان تخلص أولاً من كيدهم حتى أنه كان بإمكانه أن يتجنبهم ويبعدهم عن المعركة فلو فعل لكان في موقف أفضل، ولتأكيد ذلك نستمع لما قاله بعضهم خلال المعركة لمصعب، قال مصعب لقطن بن عبد الله أثناء المعركة: قدم خيلك أبا عثمان فأجابه أكره أن تقتل مذحج في غير شيء وقال لحجار بن أبجر مثل ذلك فأجاب إلى هذين الاثنين فقال له أحدهما إنه لم ير أحداً تقدم حتى يتقدم، وكان هذا وقد قتل ابن الأشتر فكيف لمصعب يقاتل بمثل هؤلاء.

أخيراً كان عبد الملك يدرك من هو قائد العراق بالنسبة لكلا الطرفين، فعبد الملك كان يدرك أنه بالشام وحدها لا يمكنه أن يجبي من الضرائب ما يسد حاجته وحاجة جنده لذلك تحرك بنفسه إلى العراق، وكان يدرك أن الغلبة هناك ستكون النهاية لذلك لم يبعث قادةً ولم يكلف أحداً للقيام بهذه المهمة إنما تناولها هو لأنه أيضاً كان يدرك أن الشام وحدها لا تستطيع الصمود طويلاً بمفردها، ثم أنه كان أعلم من غيره بشعب العراق وكيفية التعامل معهم، وكان يدرك أن أبناء الشعب أينما كانوا في أنحاء الدولة نسوا سياسة الحرص على مال الدولة وعدم صرفه بوجه شرعي، فكان عبد الملك يحسن صرفه والتصرف به لخدمة مصالحه، وفشل ابن الزبير في ذلك فكانت النتيجة كما خطط لها عبد الملك وعندما استقر أمر العراق له لم يتوجه إلى الحجاز لأنه لم يكن له أصل يعتد به ولا خبرةٌ سياسية وعسكرية يفتخر بها، إنما حاز الحجاج بعد مقتل ابن الزبير هذا الشرف من عبد الملك بأن ولاه الحجاز ثم العراق وما تلاها في الشرق.

الفصل الرابع

الخـــوارج

الفصل الرابع

الخوارج

اختلف حول موضوع الخوارج منذ بداية الإسلام، وما زال الاختلاف حتى أيامنا هذه، وما قيل عنهم قديماً وحديثاً لا يشكل معرفةً دقيقة لتاريخهم الحافل بالأحداث المختلفة والآراء الكلامية المتنوعة. وآراؤهم ومعتقداتهم هي التي جعلت لهم كل هذا الوجود والاستمرار فيه، وهذا كما أرى يجعلهم يختلفون عن غيرهم، فمثلاً المرتدون بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ارتدادهم في الأصل خروجاً على الإجماع السياسي من الناحية السياسية لكن دافعهم إلى ذلك كان اقتصادياً، فرفضهم أداء الصدقات لم يكن خروجاً بل له آراء في علم الكلام والفقه أو ما شابه ذلك، وخروج المرتدين على الإجماع الإسلامي كان بسبب واقعهم الاقتصادي المرير.

والمعروف عن الجزيرة العربية فقرها، وتخلفها الاقتصادي لأن أكثر أراضيها صحارى وقفار، وبعض أهلها إذا لم نقل جلهم بدو متنقلون من مكان لآخر حسب مقتضيات حياتهم المعيشية. علماً أن أكثرية المرتدين عبروا عن عدم رغبتهم في التغييرات السياسية التي حدثت بعد الرسول. إلا أن هذا التعبير والرغبة لم يلق آذاناً صاغية، ويبدو أن تدوينها مسح من التاريخ لعدم الجدل فيها هذا من جهة، وأن أصحاب هذه الرغبات والأماني لقوا العنف والقسوة حتى كأنهم لم يكونوا.

وإذا اعتبرنا أن الخوارج كانوا من الفقراء، وكان بعضهم من أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلماذا اتصفت هذه التسمية بالذين خرجوا على الإمام علي، حيث استمر خروجهم بعده ضد الدولة الأموية كما سنرى، وكما أرى أن لمثل هؤلاء الخوارج وجود منذ بداية الإسلام. فإذا

اعتبرنا خروج الخوارج على الإمام علي كان خروجاً على بعض الأعمال التي أنكروها، وحدثت في عهده اعتباراً من رفع المصاحف وإعلانهم التحكيم (لا حكم إلاّ لله). معنى هذا أنهم اعترضوا بالقول والفعل على الإمام علي علماً أن الذين خرجوا هم الذين فرضوا عليه ما اعترضوه عليه، و لم يكن ما حدث صادراً عنه، فمثلاً عند رفع المصاحف على أسنة الرماح لم يرض الإمام علي بقبول وقف القتال. في النتيجة كان خروج الخوارج في ظاهره معارضة للأحداث الجارية حسب وجهة نظر تبنوها.

وبمعنى آخر إن الخوارج شكلوا معارضةً كانت في البداية كلامية[1] ثم انتقلت إلى معارضة شبه منظمة أحدثت لها دوراً في الأحداث المتتالية، والخوارج لم يخرجوا عن الدين الإسلامي و لم يرتدوا إنما كان مثلهم مثل أي معارضة أخرى كما أرى لها رأيها، ولها مقوماتها، ولها بيئتها، ولها ظروفها، ولها تاريخها، ولذلك حاولت بشتى الوسائل إثبات وجودها على الساحة سياسياً وعسكرياً لوقت طويل إذا ما قيست مع أي معارضة أخرى، وإذا لجأ الخوارج إلى تكفير غيرهم، فلم يكونوا آنذاك الوحيدين بين الذين تبنوا هذا الموقف، إنما كان سياسة كل معارضة.

فمثلاً الذين عارضوا الخليفة عثمان كانوا يكفرونه وقد اضطروه حسب رواية الطبري وغيره إلى إعلان التوبة، على العكس كان الخليفة عثمان يعتبرهم، فساقاً وكفرة إلى غير ما هنالك أيضاً خلاف معاوية على الإمام علي، أما كان معاوية يأمر أصحابه في كل مكان بسب الإمام علي وشتمه؟ أما كان معاوية خارجاً على السياسة العامة للدولة؟ أما كان يرغب في قتله وقتل أصحابه؟ وخلافهما أصبح مشكلة أيضاً تعصبت لكل منهما الأقلام، وكل منهما طعن بالآخر، أما حارب الطرفان كل منهما الآخر، وكل منهما يدعي الأحقية؟ وهذا الخلاف كان له آراء كلامية تناولتها الكتب والروايات والأساطير إلى يومنا هذا.

أيضاً خلاف ابن الزبير مع المروانيين، أما كان كل منهما له آراء بالآخر، أما كفّر كل منهم الآخر، أما حارب كل منهما الآخر وخلافهما أيضاً فإن مشكلةً كلامية تناولتها منذ البداية الرواة والفقهاء، وتحدثوا عنها، وكتب كل منهم حسب وجهة نظره أو ما يمليه عليه الواقع، حتى أن صراعهم وصل لمرحلة تجاوزها كل صراع من رمي الكعبة، (بيت الله الحرام) والإباحة، واستحلال

---

[1] عمار الطالبي - آراء الخوارج الكلامية - طبع الجزائر ١٩٧٨ - ص

القتل في مدينة الرسول، وفي مكة المكرمة. أخيراً والصراع والمقاومة قديم قدم التاريخ لن ينتهي، وهو متنوع الأشكال والألوان.

ثم إن المعارضة كانت موجودة منذ بداية الإسلام، أما اعترض بعض الصحابة على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في معركة أحد حول القتلى، وكان الاعتراض وجهة نظر؟ ثم ألم يعترض على الرسول في صلح الحديبية حول الصلح من حيث شرعيته أم عدم شرعيته؟ أما اعترض بعض الصحابة على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند فتح مكة؟ أما اعترض الصحابة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند تقسيم الغنائم التي بعثها الإمام علي من اليمن، إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم[1]؟ أما اعترض الصحابة على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، وهو مريض؟ كل هذه الاعتراضات ألا تحتاج إلى بحث وتدقيق.

ولو انتقلنا إلى عصر الخلفاء الراشدين للاحظنا المعارضة، وبأشكال مختلفة منها. اعترض الصحابة على الخليفة الأول في إرسال بعث[2] أسامة وقدموا مبررات لذلك. أما اعترض بعض مسلمي الجزيرة على الصدقة، أما اعترض بعض الصحابة، والكثيرون من أبناء الجزيرة العربية على الخلفاء الراشدين، هذا منه الكثير وكله يمكن أن ندرجه تحت عنوان المعارضة بأشكالها وألوانها، وكل ذلك يحتاج من الباحثين إلى جهد كبير لإبراز السياسة الداخلية من جهة، والخارجية من جهة أخرى لإيضاح السياسة العربية الإسلامية. والسياسة العربية لم تكن جامدة كما يتصورها بعضهم، ولم تكن مركزية ديكتاتورية كما يتخيلها الآخرون، والحديث في هذا الموضوع لا يعد طعناً بالتاريخ الإسلامي وقادته أبداً، إنما هو إظهار الجوانب السياسية المتصفة بالديمقراطية التي يحاول بعضهم أيضاً طمسها وإخفاءها.

إذاً يجب دراسة الخوارج على أنهم معارضة سياسية للواقع الذي كان المجتمع العربي يعيشه آنذاك، شكلوا ثورة مضادة، حاربوا وشكلوا دولاً صغيرة وطالبوا بمطالب لم تلق آذاناً صاغية، إلا ما كان في بدايتهم، ومحاولة الإمام علي معهم تركهم على ما هم عليه والانخراط في المجتمع الجديد والتخلي عن آرائهم الكلامية، ونظرتهم إلى السياسة بواقعية. و لا ننسى الدور الذي قام به

---

[1] المبرد ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ص٩٥٥ ـ ابن هشام السيرة النبوية ـ ج٢ ص ٤٩٦ ـ صحيح البخاري ـ شرح النووي ـ ج٧ ـ ص١٦٥ وما بعدها.

[2] ابن هشام ـ أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ـ السيرة النبوية ـ طبع دار ابن كثير بيروت ـ بدون تاريخ ـ ج ص .

عمر بن عبد العزيز في محاولاته الاجتماع ببعضهم والاستماع لهم ومحاولاته أيضاً العمل لحل مشكلاتهم.

أخيراً ألم تكن الشورى مبدأً إسلامياً وقد ورد نص في كتابه تعالى يقول لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]؟ والشورى أليست استشارة الصحابة آنذاك؟ أليست آراء لمن تمت مشاورتهم؟ إذاً الشورى هي في استشارة الآخرين، للوصول إلى حقيقة أفضل، وهل يعقل أن يكون رأي أي مجموعة موحداً إذاً لا بد من تفاوت الآراء، وهل يعقل إذا وجد رأي معارض ضمن مجموعة أن يتهم صاحبه بالكفر أو ما شابه ذلك فلو كانت هذه هي الغاية لما كانت الشورى، والمعارضة فيها عبارة عن رأي يعتمده صاحبه، وليست غايته الخروج عن آراء الآخرين لمجرد الخروج.

وفي الجدل والاجتهاد تكون الفائدة وليس العكس، والمعارضة يجب ألاّ تكون مهمتها تكفير الآخرين، إنما يجب أن يكون هدفها الإصلاح ورتق الفتق أينما وجد إذا كان في متناول الأيدي، والمعارضة بعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن مهمتها التشريع لأن التشريع أكمله سيد البشر، يقول الله تعالى على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2]، إنما كانت مهمة الحكام وغيرهم من المعارضة إقامة مجتمع متطور هدفه خدمة الفرد ضمن الدولة والمحاسبة حسب القوانين المتداولة التي انبثقت من عصارة الفكر الإنساني، وقوانين الدولة في أي زمان ليست قوانين إلهية، إنما هي قوانين وضعية، غايتها رفع مكانة الدولة وإثبات وجودها محلياً وعالمياً، ولكل دولة قوانينها الخاصة بها منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

أما القوانين الإلهية فهي عالمية ليست مخصصة بمكان أو دولة دون مكان أو دولة أخرى وهي معنية بكل المخلوقات دون استثناء، والقوانين الإلهية واحدة لا تتغير ولا تتبدل على مدى العصور على عكس القوانين الوضعية التي تحتاج إلى تعديل وتطوير حسب المجتمع، وفي خطبة الوداع التي قالها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثال على ذلك حيث خاطب العالم كله دون استثناء، يقول: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب».

---

[1] سورة آل عمران ـ الآية ١٥٩.

[2] سورة المائدة ـ الآية ٣.

من خلال دراسة تاريخ الخوارج في مجمل المصادر نلاحظ أنهم لم يشكلوا دولةً موحدة ضمنتهم جميعاً، و لم يكن لهم سياسة مجمع عليها بل على العكس كانوا فرقاً شتى، ولهم سياسات متباينة، فعاشوا متفرقين، وأحياناً متحاربين بعضهم مع بعض كما سنرى، و لم تكن لهم علاقات اجتماعية تربطهم مع بعضهم بعضاً و لم يكن لهم قيم، فتارةً يحلون قتل كل مسلم لا يمتثل لآرائهم، وتارةً أخرى يحلون دماء بعضهم بعضاً، وفي كل الحالات كانوا يحلون القتل والتدمير لكل من يعارضهم.

لقد انتشرت فترات الشغب في الدولة العربية الإسلامية وأكثرها انتشاراً كان في العراق وبلاد فارس، وعلى الأخص كرمان، ثم في الجزيرة العربية، فكان لتحركاتهم التي امتازت بالمناورة والسرعة والحركة الدائمة، والانتقال السريع من مكان لآخر أثر واضح في المجتمع، فأينما حلوا زرعوا الخوف والرعب وحتى أحياناً الدمار، فأثر وجودهم على الدولة الأموية، فاستنزف طاقتها الاقتصادية والعسكرية، وأثر على سياستها الداخلية، وأعجزت حركتهم الولاة في كل مكان، وعلى رأسهم الحجاج بالعراق رغم ما عرف عنه من سطوة وعنف، فقد اضطر أمام الواقع الذي وجد فيه نفسه ضعيفاً من مقاومتهم رغم سلطته الواسعة، على رغم ذلك فقد اضطر إلى طلب المساعدة والمدد من الخليفة الأموي عبد الملك الذي أسرع إلى إرسال النجدات إلى العراق لحرب الأزارقة الذين قضّوا مضاجع الدولة سياسياً وعسكرياً.

والخوارج لا ينفصل تاريخهم بعضه عن بعض، إنما هو سلسلة متصلة الحلقات امتدت من عهد الإمام علي واستمرت، وكانت حركاتهم عبارة عن ثورة أو ما شابه ذلك قام بها أفراد قلوا أم كثروا. لكن تاريخ الخوارج يؤكد على أن نشأتهم كانت في معركة صفين، وتحكيمهم ساعد على هذه النشأة العصبية حيث لعب الصراع القبلي عند العرب كغيرهم من الشعوب دوراً بارزاً، وأثر في مجرى الأمور العامة لا سيما السياسية منها، فحافظت القبلية على كيانها الخاص بها، وكيف يعيشون في إطارها، كيف كانوا يعتزون بها، ويدافعون عنها متضامنين متكافلين مع بعضهم بعضاً، وكان شعارهم نصرة بعضهم بعضاً حقاً كان أم باطلاً معتمدين القول: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ومن أشهر الأدلة على ما ورد قول أحد الشعراء، وقد ذكر الطبري ذلك في تاريخه، يقول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت … غويت وإن ترشد غزية أرشد

وعندما جاء الإسلام حاول اقتلاع العصبية الجاهلية من جذورها إلا أن ذلك كان كما أرى مستحيل حيث بقيت العصبية القبلية قائمة في المجتمع العربي، وأكبر دليل على ذلك اعتمادهم مبدأ الخلافة من قريش، وقريش مكة، ومكة سيدة القبائل العربية، إذاً تجلت العصبية القبلية في الكثير من المواقف ابتداءً من سقيفة بني ساعدة إلى نهاية الدولة الأموية، واستمرت فيما بعد حتى انهزم العرب، وسيطر على السلطة السياسية غيرهم.

ما يهمنا هنا هل كان للعصبية دور في وجود الخوارج، بالطبع كان للعصبية والتعصب وعدم التعمق بالدين الجديد دور بارز وأساسي لظهور الخوارج تجلى في مواقف متعددة من ذلك ما قاله أحدهم:«لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة، وقال والله لا يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن يكونا بعض ما تحب في حكمهما وهما مضريان»[1]، ويكفي ما ورد لإثبات العصبية القبلية والتعصب لها.

واختلف حول الخوارج في بدء أمرهم. فالحقيقة هي أن الخوارج في أصلهم وجنسهم منذ البداية عرب لا جدل في ذلك كما أرى، ولو أخذنا قادتهم كلهم لرأيناهم عرباً إلا أن آراءهم الكلامية جعلت بعضهم يعتقدون غير ذلك. إذاً كما أرى كان قادة الخوارج عرباً لكن يمكن القول إن بعض الموالي كانوا قد انضموا إليهم لأجل آرائهم الكلامية وإنما كان انضمامهم إلى الخوارج تعبيراً عن سخطهم على واقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكان تعبيراً لتغيير واقعهم المأساوي في بعض الأحيان.

وهناك من يقول إن الخوارج هم أعراب بدو حفاة إلى آخر ما هنالك كما يذكر ابن خلدون وغيره من المستشرقين الذين أخذوا يرددون كلامه، والأعراب من حيث الجنس هم عرب أولا وأخيراً والملاحظ لتاريخ قادتهم وانتمائهم يجد أن أكثرهم من تميم وغيرها من القبائل العربية الصرفة، والمطلع على تاريخهم يلاحظ أنهم حاربوا فكرة الخلافة من قريش منذ البداية، وهذا بحد ذاته عصبية وتعصب قبلي حتى رأينا الخوارج قد صبوا جام غضبهم على القريشيين، ونلاحظ أن هذه الظاهرة وقد تجلت واضحة عندما تمكن أبو حمزة الخارجي من هزيمة أهل المدينة في وقعة قديد، حيث قتل الأسرى الذين ينتمون إلى قريش[1] بينما كان يخلي سبيل غيرهم.

---

[1] ابن مزاحم ـ وقعة صفين ـ ص٥٠٠.

[1] مؤلف مجهول ـ عيون الحدائق ـ طبع المثنى ـ بغداد بلا تاريخ ـ ج٣ ـ ص١٦٩.

وللرد على من يدعي أنهم حفاة عراة جهلة نقول إن الخوارج اشتهروا بجودة قراءتهم للقرآن الكريم، والذين اعترضوا التحكيم كان بعضهم قراء، وبعضهم سادة قبائلهم وأثرياؤهم، ومن أشهرهم كما هو معلوم مسعد بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، وعبد الله بن وهب الراسبي وغيرهم، وكلهم من أصحاب قبائل، مهما حاول بعضهم التقليل من أهمية الخوارج فهم فرقة إسلامية ذات أصول عربية، وكان لهم أدوار سياسية وحربية واضحة كما يتضح فيما بعد.

وهناك من يحاول أن يربط بين السبئية والخوارج من حيث النشأة، إذ تحدث الكثيرون عن السبئية المنتمية إلى عبد الله بن سبأ ودوره في نشأة الفرق الإسلامية، وكان أكثر المتحمسين لمثل ذلك سيف بن عمر الضبي التميمي الذي يتناول ابن السوداء (ابن سبأ) ودوره في فتنة الخليفة عثمان محاولاً إظهاره كقائد لهذه الفتنة التي كانت نهايتها قتل الخليفة مظهراً دوراً اسطورياً لابن السوداء.

ذكرنا لك في الجزء الأول من كتابنا هذا ولا داعي للإعادة، وأثبتنا أنه كان يشوه التاريخ حسب هواه، وثبت أن سيف بن عمر ليس بثقة في نقل الأخبار كما يذكر كتاب الجرح والتعديل، وأثبت الكثير من الباحثين تزويره للحقائق التاريخية. يقول طه حسين: (إن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً، وإن وجد فلم يكن ذا خطر)[1]، وحتى من أخذ عنهم سيف بن عمر لم يكونوا ثقة، ومن يرجع إلى كتاب الجرح والتعديل يلاحظ ذلك، ولا أدل على ذلك من ذكر سيف بن عمر رواية أم زمل واعتبارها هي صاحبة الحوأب، حيث يروي قصةً عن ذلك شبه أسطورية من أرادها فليرجع إلى الطبري، كي يؤكد ذلك، وسيف بن عمر في تناوله لابن السوداء يذكره تارةً مسلماً وتارةً أخرى يعرض نفسه لكي يسلم ويعرضه تارةً مصرياً، وتارةً أخرى يمنياً، وغير ذلك من الأحاديث المتعارضة.

من ذلك لا يقبل أي مسلم من رجل كابن السوداء، حسب رواية سيف بن عمر أن يؤثر على شخصية أبي ذر الغفاري الذي شهد له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه صادق. كيف يقنع أي مسلم كان بأن أبا ذر الغفاري قد انطوى تحت تأثير ابن السوداء وهو الصحابي المشهود له بالورع والتقوى إذاً يمكن القول إن رواية سيف بن عمر وابن السوداء رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة والمدقق يلاحظ ذلك بوضوح، ومن ذلك أرى أن لا علاقة للسبئية في نشأة الخوارج ولا

---

[1] طه حسين - الفتنة الكبرى - طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٨ - ج٢ - ص٩١.

في تاريخهم إذا لم أقل العكس، فإذا كان هناك من سبئية، فإن الخوارج كانت مناهضة لها، وفي حرب دائمة ضدها كما كانت ضد غيرها.

ثم كيف كان للسبئية دور في نشأة الخوارج يكفرون ويقتلون كل من يخالف آراءهم، حيث يتضح ذلك فيما بعد، والسبئية مخالفة لهم في الرأي وهذا واضح لا يحتاج إلى إثبات، ثم إن الخوارج كفروا الإمام علياً، وطالبوه في أكثر من موقع بالتوبة والإنابة ولو تمكنوا منه لقتلوه، والسبئية عند بعض المؤرخين أنصار للإمام علي شاء أم أبى، فكيف يتم التوافق ما بين الخوارج المكفرين للإمام علي، والسبئية الداعين له، وكتب الملل والنحل تذكر ما يوضح اختلافهم في الأصل والنشأة، وأن كلاً منهما على خلاف الآخر، وهناك من يذكر: « أن قتلة عثمان ومسببي الجمل من السبئية هم من أسلاف الخوارج»[1].

أولاً يجب أن نعرف من هم قتلة عثمان بالتحديد، فإذا عرفناهم كما أرى أنكرنا أنهم خوارج كما إذا عرفنا المشتركين والمحرضين على قتل الخليفة عثمان، أنكرنا أيضاً هذه المقولة، ويكفي أن أذكر أن السيدة عائشة زوج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تقول: « اقتلوا نعثلاً فقد كفر»[2] إذاً كانت السيدة عائشة من الداعين إلى قتل الخليفة، وكان محمد بن أبي بكر أحد المشاركين في قتله[3]، وكذلك الزبير، وطلحة، وعمار بن ياسر من المحرضين على قتله حسب الروايات التاريخية، وكان عمرو بن العاص يقول: كنت أحرض الناس على قتل عثمان، وغيرهم من الشخصيات التي ساعدت أو حرضت، فهل يعقل أن نتهم تلك الشخصيات بأنهم كانوا خوارج، بالطبع لا يمكن ولا في أي حال من الأحوال، السؤال: كيف تم ربط قتلة الخليفة عثمان بالخوارج؟ هل كان للسيدة عائشة أسلاف خوارج؟ هل كان لمحمد بن أبي بكر أسلاف خوارج؟ هل كان للزبير وطلحة وعمار أسلاف خوارج؟ هل كان لعمرو بن العاص أسلاف خوارج؟ الغريب كيف وصل بعضهم لمثل هذا الاستنتاج، وكيف اعتبره أمراً واضحاً؟

---

(1) نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ـ ص٥٥.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٤٥٩.

(3) المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٣٩٢.

أيضاً الإدعاء بأن حركة الخوارج جرفت إلى صفوفها (الكثير من المؤمنين الصادقين من القراء)، أيضاً لا يمكن القبول بهذا القول لأن المؤمنين الصادقين إذا كانوا ولا بد اقتنعوا بآرائهم الكلامية وجرفهم ذلك فإن أفعال الخوارج الخارجة على القيم الإنسانية تجعل هؤلاء المؤمنين الصادقين يبتعدون عنهم ويحاربونهم، ولا أدل على ذلك من حادثة الصحابي عبد الله بن حباب، حيث قتلوه ذبحاً لأنه لم يوافقهم على رأيهم، وبقروا بطن زوجته، وهذا كان أول ظهورهم، وكانت هذه علاقتهم مع المؤمنين الصادقين، فكيف قيل إن الخوارج جرفوا مؤمنين صادقين لا شك أن هذا لا يعقل، وكيف ينجرف المؤمن إلى فرقة مارقة من الدين، أيضاً لا يمكن القبول بهذا الرأي.

وقيل: « إن العلائق الوثيقة الخطيرة بين رؤوس الخوارج الأوائل، وبين ابن سبأ وأنصاره تجعلنا نميل إلى أن حركة الخوارج قد نمت وترعرعت في أحضان السبئية، وأنها إحدى ولائدها التي كانت تعمل في الظلام حتى تهيأت لها الفرصة المواتية، فخرجت إلى ميدان العمل العلني بعد التحكيم»[1].

الحقيقة هنا غير واضحة لأن الباحث نفسه قال في موضع آخر إن عبد الله بن وهب الراسبي هو رجل غامض النسب تحوم حوله الشبهات[2]، وهو الخليفة الأول للخوارج، ويذكر أن هناك تطابقاً وتوافقاً ما بين عبد الله بن وهب الراسبي، وما بين عبد الله بن سبأ، ويحاول أن يجعلها واحدة وهذا بحد ذاته يناقض قوله الأول بأن حركة الخوارج قد نمت وترعرعت في أحضان السبئية، ويقول إنهما كانا في مرحلة واحدة، فكيف تنمو الحركة، في مثل هذا القول، ولو ذكر أن ابن سبأ أقدم من عبد الله بن وهب لجاز له ذلك القول، يقول:« لقد عاش الرجلان كلاهما في الحقبة الزمنية نفسها، وفي الظروف السياسية ذاتها »[3].

إذاً كان الرجلان قد عاشا الفترة الزمنية نفسها، وعبد الله بن وهب خارجي، وابن سبأ رأس السبئية، فكيف يتم التوافق ما بين ما قاله وهذا القول، من أن الخوارج نشأت في أحضان السبئية، والأخيرة تنتمي إلى عبد الله بن سبأ الذي عاش هو وعبد الله بن وهب في فترة زمنية واحدة، هذا

---

(1) نايف معروف ـ الخوارج في العصر الأموي ـ ص٥٩.

(2) المرجع نفسه ـ ص٥٧.

(3) المرجع نفسه ـ ص٥٧.

لا يمكن أن يكون، ومن أين نمت حركة الخوارج في أحضان السبئية وترعرت.

أخيراً إن الشخصيتين لم تكونا وهميتين، بل على العكس كانا شخصين مختلفين، كل منهما ينتمي إلى قبيلة، فعبد الله بن سبأ كما يروي هو يمني، وهو عربي ذمي حسب رأي أكثر المؤرخين، ثم أسلم سنة (٣٣هـ - ٦٥٠م) حسب رواية سيف بن عمر، أما عبد الله بن وهب فهو عربي مسلم وينتمي إلى قبيلة أزد، وهي قبيلة عربية واضحة الأصل، و لم يكن ذمياً كما كان عبد الله بن سبأ.

بعد الذي ورد نعود لذكر الخوارج وحروبهم في العصر الأموي، وما قبله قليلاً لكي يتضح لنا تاريخهم بشكل أفضل، حيث نبدأ بدراستهم اعتباراً من التحكيم إلى نهاية العصر الأموي معتمدين تحركاتهم الحربية فقط، ومن خلال هذه الحركات قد تتضح بعض المفاهيم الأخرى التي قد تكون غامضة لدى بعض الباحثين من خلال الأقوال والأفعال التي أتى على فعلها الخوارج، ويكفي الخوارج جحوداً إنكارهم على أي مسلم كان إسلامه، إلا إذا كان يدين بمعتقداتهم وآرائهم كما سيظهر ذلك واضحاً فيما بعد.

أيضاً لا بد من التأكيد على أنه ليس كل ما كتبه المؤرخون في الماضي عن الخوارج وغيرهم بأنه صحيح ويجب الأخذ به، إذ لا بد للباحث المدقق من أن يبحث عن الحقيقة التاريخية دون سواها، وإلا فإن عمله لم يكن بحثاً وتدقيقاً، إنما سرداً للأحداث دون فائدة، فمثلاً يذكر ابن الأثير الحدث التالي تحت عنوان« ذكر قصد الخوارج سجستان»[1].

« في هذه السنة[2] بعد الفراغ من وقعة الجمل خرج حسكة بن عتاب وعمران بن الفضيل البرجمي في صعاليك من العرب حتى نزلوا زالق من سجستان، وقد نكث أهلها، فأصابوا منها مالاً ثم أتوا زرنج وقد خافهم مرزبانها فصالحهم ودخلوها، فقال الراجز:

بشر سجستان بجوع وحرب   بابن الفضيل وصعاليك العرب

لا فضة تغنيهم ولا ذهب

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٢٦٤.

[2] سنة ٣٦.

فبعث الإمام علي، عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتله حسكة فكتب إلى عبد الله بن العباس يأمره أن يولي سجستان رجلاً ويسيره إليها في أربعة آلاف، فوجه ربعي بن كاس العنبري، ومعه الحصين بن أبي الحر العنبري، فلما ورد سجستان قاتلهم حسكة وقتلوه، وضبط ربعي البلاد، وكان فيروز حصين ينسب إلى الحصين بن أبي الحر هذا، وهو من سجستان»[1].

المدقق في النص يدرك أن ابن الأثير أطلق على اللصوص خوارج، والشاعر أكد أنهم من صعاليك العرب، وليسوا من الخوارج، وبذلك وضع العنوان بخوارج، وأورد القصة كما هي واردة، علماً أن مثل هذا الخبر لم يذكره الطبري، ولا غيره من المؤرخين ولو كانوا خوارج كما يدّعي ابن الأثير المتعصب لجنسيته، لكان أورده الطبري، وغيره من المؤرخين بأنهم خوارج، وأعتقد أن تعصب الرواة والمؤرخين كان له دور كبير في تشويه بعض الأحداث وتزويرها، وخاصةً إذا كان المؤرخ من أصل غير عربي كابن الأثير.

وحركة الخوارج لم تكن وقفاً على فئة اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو اقتصادية مهما كان نوعها، إنما شملت كل الفئات والطبقات، حتى نرى فيما يلي أن بعض أبناء الخلفاء الأمويين، وبعض أفراد هذا البيت كانوا قد انضموا إلى الخوارج وبايعوهم على معتقداتهم، وآرائهم، فمثلاً بايع عبد الله بن الخليفة عمر بن عبد العزيز،، وسليمان بن هشام بن عبد الملك الضحاك سنة (١٢٧هـ ــ ٧٤٤م)، ضد مروان بن محمد، وبايع أيضاً الضحاك من الذين كانوا ولاةً للأمويين منصور بن جمهور وغير ذلك.

إن الخوارج حزب ثوري[2] لم ينشأ عن عصبية العروبة، بل عن عصبية الإسلام. هذا من الناحية الشكلية، أما من الناحية الموضوعية، فالخوارج كانوا يجاهدون في سبيل الله على طريقتهم الخاصة، والخوارج من القراء في الإسلام، كما أنهم مؤمنون بالتقوى، والتقوى في الإسلام كما نعلم، ذات اتجاه سياسي عام، وكذلك هي لدى الخوارج. أي أن عليهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتغيير المنكر واجب على كل فرد منهم بلسانه أو بيده. وهذا مبدأ إسلامي عام، إلا أن تحقيقه بمناسبة وغير مناسبة كان علامة دالة على الخوارج.

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٢٦٤.

[2] يوليوس تولها وزن ـ الخوارج والشيعة ـ ص٢٩.

كما أن مذهب الخوارج مذهب سياسي، هدفه تقرير الأمور العامة، لأوامر الله ونواهيه، لكن سياستهم ليست موجهة نحو أهداف، يمكن تحقيقها وهي معارضة للمدنية، بل كانت قائمة على ابتغاء الفوز بالجنة، فهم انفصاليون معارضون للنظام السائد للجماعة، خصوصاً لجمهور الأمة.

وقد اختلف كثيراً في كيفية خروج الخوارج، فبعضهم قال: هم الذين خرجوا على الإمام علي كرم الله وجهه. فإذا كان هذا الرأي صحيحاً، فذلك يعود للمرحلة التي تلت وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرةً، حيث كان وجود الخوارج في بدايته، لأن العصبية القبلية كانت أقوى عندهم من العقيدة الجديدة، التي قدم بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم، لحداثة عهدهم بها، ولا يمكن اعتبار المرتدين خوارج لأنهم ارتدوا في عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم، ثم أسلموا، وحسن إسلام بعضهم كما نعلم.

أما الخوارج، فلم يرجعوا عن معتقداتهم التي أحدثوها، كما سنرى، وقد استمروا في قتالهم وجهادهم حسب عقيدتهم ضد السلطة الأموية والعباسية، وما زال لهم بقية باقية إلى أيامنا هذه. إذاً فالخوارج هم كل من خرج على الإمام الحقيقي، الذي اتفقت عليه الجماعة، سواء أكان الخروج على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو على الخلفاء الراشدين، أم من تلاهم، فمثلاً كان أول من خرج على الإمام علي أمير المؤمنين، وكان أشدهم خروجاً الأشعث بن قيس، ومسعود بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي.

وقد قالت الخوارج قبل التحكيم، يدعوننا إلى كتاب الله، وانتم تدعوننا إلى السيف، فقال لهم الإمام علي: أنا أعلم بما في كتاب الله، وأمرهم أن ينصرفوا لقتال عدوهم معاوية، فقالت الخوارج للإمام علي: لترجعن الأشتر، وإلا لنعاملنك كعثمان بن عفان، فرد الأشتر، بعد أن تمكن من هزيمة معاوية ومن معه، إلا شرذمة قليلة[1]، وقد حمل الخوارج الإمام علياً على التحكيم، كما حملوه على إرسال أبي موسى الأشعري، علماً أنه كان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس، فرفضه الخوارج، بقولهم للإمام علي: هو منك.

وكان الاتفاق على أن يحكم الحكمان بكتاب الله، إلا أن الأمر جرى على خلاف ذلك. وبنتيجة التحكيم خرجت الخوارج بمقولة (لا حكم إلا لله)، وأول من قال هذه الجملة منهم عروة

[1] المرجع نفسه ص٤.

ابن أودية الحنظلي[1]، فأرسل لهم الإمام علي، ابن عباس، علهم يرجعون عما هم فيه، فلم يرضوا، فتوجه إليهم وكلمهم بنفسه، واجتمعت الخوارج.(بحروراء) من ناحية الكوفة، وكان عليهم آنذاك كل من عبد الله بن كواء، وعتاب بن الأعور، عبد الله بن وهب الراسي، عروة بن جرير، يزيد بن عاصم المحاربي، حرقوص بن سعيد المعروف بذي الثدية.

وكانوا آنذاك في إثني عشر ألفاً من الرجال، فقاتلهم الإمام علي بالنهروان، فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة، وما قتل من أصحاب علي إلا أقل من عشرة، وقد فرّ إثنان من الذين نجوا إلى عمان، وإثنان إلى كرمان، وإثنان إلى سجستان، وإثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل موورون باليمن.

والخوارج أشد الناس بالقياس، ومن آرائهم ألا يكون في العالم إمامان، ومن بدعهم قولهم: أخطأ عليّ في التحكيم إذ حكم الرجال، ولا حكم إلاّ لله. وقد كذبوا على عليّ مرتين:

الأولى: قولهم: إنه حكم الرجال، وهم كاذبون، لأنهم هم الذين حملوه على ذلك.

والثانية: قولهم بحكم الرجال، وهو جائز، والقوم هم الرجال الحاكمون في هذه المسألة هم رجال، لذلك قال الإمام علي: «كلمة حق أريد بها باطل»، ثم كفروا علياً وسبوه، وطعنوا في أصحاب الجمل وصفين.

وقبل مقتل الإمام علي - كرم الله وجهه - كانت الدولة العربية الإسلامية، تنازعها ثلاثة أحزاب، حزب يتزعمه الإمام علي بنفسه، وحزب انشق عنه بعد التحكيم، وسموا بالخوارج وحزب معاوية بن أبي سفيان، ورفض الانضواء تحت زعامته، وهو الخليفة الشرعي للدولة.

وكان الإمام علي قد بعث إلى الخوارج عبد الله بن عباس في مهمة سياسية، علهم يرجعون عن غيهم وظلمهم الآخرين، فرفضوا، فتوجه إليهم علي بنفسه، وقال لهم: «أنشدتكم الله، ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم، فرددتم عليّ رأيي، ولما أبيتم إلا ذلك اشترطنا على الحكمين: أن يحكما بما في القرآن»[2]، وأردف قائلاً لهم:« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مسطور بين دفتين، لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال».

---

[1] أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري - الفصل في الملل والأهواء والنحل - الهامش للشهرستاني - طبعة بيروت - تصوير ١٩٧٥ - ص١٥٦.

[2] حسن ابراهيم حسن - تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - طبعة مصر ١٩٦٤ - ج١ - ص٣٧٧.

ويعتقد الكثيرون أن الخوارج كان أول ظهورهم عندما رفع معاوية المصاحف بمشورة عمرو ابن العاص، وانقسام أصحاب الإمام علي حول ذلك فمنهم من قال نجيب إلى كتاب الله، وكان رفع المصاحف مكيدةً من معاوية، وعمرو بن العاص كما هو معروف، والذين وافقوا كانوا أصحاب رأي ففرضوا وقف القتال والركون إلى التحكيم لأن بعضهم كما يذكر المؤرخون قراء، وبعضهم من الصحابة وغير ذلك.

واضطر الإمام علي أمام الموقف المتشكل الذي زرعه معاوية، وعمرو بن العاص إلى قبول التحكيم، وكتبوا بذلك كتاباً، واختاروا الحكمين، واعتراض الإمام على أبي موسى الأشعري إلاّ أنه فرض عليه و لم يُطع وتدخلت في ذلك العصبية القبلية، وعندما رجع الإمام علي من صفين خالفت الحرورية وخرجت، فكان أول ما ظهرت وأنكرت تحكيم الرجال.

الإمام علي والخوارج: سارت الحرورية مخالفين فجاوزوا النخيلة وأتوا حروراء[1] فنزل بها منهم كما يذكر المؤرخون إثنا عشر ألفاً، فأقروا بأن أمير القتال سيف بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوا اليشكري، والأمر شورى، والبيعة لله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأرسل الإمام علي، عبد الله بن عباس إلى الخوارج، وأمره ألاّ يتعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى يأتيه، فلما قدم ابن عباس إلى الخوارج لم يصبر على كلامهم، وجرت بينه وبينهم المحاورة التالية:

قال ابن عباس: نقمتم من الحكمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[1]، فكيف بأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

الخوارج: أما ما جعل الله حكمه إلى الناس، وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، فالحكم في الزاني مائة جلدة، وفي السارق القطع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا.

ابن عباس: إن الله قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[2].

---

[1] سورة النساء ـ الآية ٣٥.

[2] سورة المائدة ـ الآية ٩٥.

الخوارج قالوا: أتجعل في الصيد والحرث، وبين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين وقالوا له: أعدل عندك عمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا، فإن كان عدلاً فلسنا بعدول، وقد حكم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه، أن يقتلوا أو يرجعوا، وكتب بينكم وبينهم كتاباً تضمن الموادعة، وقد قطع الله الموادعة بين المسلمين وأهل الحرب، فقد نزلت سورة براءة إلا من أقر بالجزية.

ثم إن الإمام علياً قدم عليهم فنزل عند يزيد بن قيس، فأمره على أصبهان والري، ثم توجه إلى الخوارج، وهم في جدل مع ابن عباس، فسأل عن زعيمهم، فقالوا: ابن الكوا، فكانت المحاورة التالية:

الإمام علي: ما أخرجكم علينا؟

الخوارج: حكومتك يوم صفين.

الإمام علي: أنشدكم الله، أتعلمون أنه حيث رفعوا المصاحف، وقلتم نجيبهم، قلت لكم إني أعلم بقومي منكم، إنهم ليسوا أصحاب دين، ثم قال لهم: قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن، فليس لنا أن نخالف وإن أبيا، فنحن من حكمهما براء.

الخوارج: اخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء.

الإمام علي: لم نحكم الرجال إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال.

الخوارج: اخبرنا عن الأجل لما جعلته بينكم.

الإمام علي: ليعلم الجاهل، ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهندسة هذه الأمة، ثم أمرهم أن يدخلوا الكوفة فدخلوها. وقبل التحكيم، وبعد اختيار الحكمين وتأكيد ذلك سنة (٣٧هـ - ٦٥٧م) قدم على الإمام بعض الخوارج فتحاوروا معه.

الخوارج: لا حكم إلاّ لله.

الإمام علي: لا حكم إلاّ لله.

الخوارج على لسان حرقوص بن زهير: تب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتله.

الإمام علي: أردتكم على ذلك، فعصيتموني وقد كتبنا بيننا كتاباً وشرطنا شروطاً وعهوداً وا لله قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

الخوارج: هذا ذنب ينبغي أن نتوب عنه.

الإمام علي: ما هو ذنب، ولكن عجز عن الرأي وقد نهيتكم.

الخوارج عن لسان زرعة بن البرج الطائي: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لنقاتلنّك.

الإمام علي: بؤساً لك ما أشقاك، كأني بك قتيلاً تسفي عليك الرياح. وذكر المؤرخون أن الإمام علياً قام يخطب، فحكم الخوارج في المسجد، فقال: ا لله أكبر، كلمة حق أريد بها باطل، ثم قال للخوارج: إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا.

الأولى: لا نمنعكم مساجد ا لله أن تذكروا فيها اسمه.

الثانية: لا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا.

الثالثة: لا نقاتلكم حتى تبدؤونا.

بعد ذلك اجتمع قادة الخوارج في منزل عبد ا لله بن وهب الراسبي، فقال الأخير: اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى كور الجبال أو غيرها من المدن، ثم قرروا اختيار أحدهم قائداً لهم وبعد التداول في هذا الموضوع رست القيادة والخلافة على عبد ا لله بن وهب، فبايعوه في ١٠ شوال (٣٧هـ ـــ مارس ٦٥٧ م)، وقرروا الخروج إلى النهروان[1]، ومن هناك تتم مراسلة أهل البصرة.

كتب عبد ا لله بن وهب إلى من بالبصرة ممن هم على رأيهم يعلمونهم بما قرروا عليه، فوافقوهم ووعدوهم اللحاق بهم، ثم خرج أهل البصرة إليهم. خلال هذا الوقت أرسل عدي بن حاتم الطائي إلى سعد بن مسعود عامل الإمام علي على المدائن يحذره أمر الخروج، وأخذ أبواب المدائن، فخرج سعد بن مسعود إليهم بعد أن استخلف على عمله ابن أخيه المختار بن أبي عبيد،

---

[1] النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٢٥.

فلحقهم بـالكرخ[1]، فـاقتتلوا ثـم إن الخـوارج خرجـوا ليـلاً، فعـبروا دجلـة إلى أرض جوخـى[2] إلى النهروان. عندما خرج خوارج أهل البصرة كانوا خمسمائة رجل يقودهم مسعر بن فدكي التميمـي، فعلم بهم عبد الله بن عباس فوجه في أثرهم أبا الأسود الدؤلي، فلحقهم بالجسر الأكبر، ثـم لحقـوا بعبد الله بن وهب بالنهروان.

بعد أن علم الإمام علي بالخوارج كتب إليهم كتاباً موجهاً إلى قـادتهم يطلـب منهـم القـدوم عليه، والتوجه إلى العدو المشترك، فردوا عليه: إنك غضبـت لنفسـك لا لربـك، فـإن شـهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا في أمرنا وأمرك، وإلا نابذناك. عنـد ذلـك قـرر تركهـم ومـا هـم عليـه، والتوجه إلى حرب أهل الشام، فخطب في قواته يحضهم على الجهاد، وأخذ يجمع بقية قواته، فكتب إلى ابن عباس، وهو عامله على البصرة، يأمره بجمع الناس، وندبهم لقتال عدوهم، وأن يقـوم مقامـه حتى يأتيه أمره.

ندب ابن عباس أهل البصرة، فانتدب ألفاً وخمسمائة يقودهم الأحنف بـن قيـس، ثـم ندبهـم مرةً أخرى، فخرج ألف وخمسمائة أخرى يقودهم جارية بن قدامة السعدي، ثم وجه ابن عباس من انتدب إليه فكانوا ثلاثة آلاف ومائتين. ذكرنا أن الإمام علياً، ندب الناس للقتال، فرفعوا إليه أربعـين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبنـاء وثمانيـة آلاف مـن مواليهـم وعبيدهـم، فكـان مجمـوع أهـل الكوفة خمسة وستين ألفاً سوى أهل البصرة (ثلاثة آلاف ومائتي رجل)، كما كتب الإمـام علـي إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلين.

في هذا الوقت أخـذ أصحابـه يتكلمـون، ويقولـون لـو سـار بنـا (الإمـام علـي) إلى الخـوارج (الحرورية) فإذا فرغنا منهم توجهنا لقتال أهل الشام، فعلم بذلك فأمر أصحابه بترك ذكـر الخـوارج وأكد عليهم المسير إلى أهل الشام، فوافقوه على ذلك. عند حركة الخوارج من البصرة إلى النهـروان رأى عصابة منهم عبد الله بن خباب صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فقتلـوه ذبحـاً لأنـه لم يوافقهم على رأيهـم، وبقروا بطن زوجته، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، أي أن القتل والتدمير كان

---

[1] الكرخ: بالعراق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٤٧.

[2] جوخى: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد - بالجانب الشرقي منه الراذانات وهو بين خانقين وخورستان - يـاقوت الحمـوي معجم البلدان - ج٢ - ص١٧٩.

أحد أهدافهم الرئيسية لكل من يعارضهم في آرائهم.

بلغ الإمام علياً انتهاك الخوارج حرمة الله وقتل الأبرياء واعتراضهم الناس، فأرسل إليهم الحارث بن مرة، وأمره أن يناظرهم بأفعالهم، فلما اقترب منهم الرسول قتلوه، فعلم الإمام علي بقتله فقرر التوجه إليهم وقتالهم، فعبر الجسر، ثم أرسل إليهم يطلب منهم القتلة، فقالوا: كلنا قتلة، وكلنا مستحل لدمائكم، ودمائهم، وجرت محاولات ومناقشات حول ذلك وكله لم يأت بنتيجة.

ثم إن الخوارج قصدوا الجسر فعبروه وهم في الجهة الغربية منه، عند ذلك قال بعض أصحاب الإمام علي إنهم عبروا النهر، فقال كلمته المشهورة: « والله ما عبروه وإن مصارعهم لدون الجسر، والله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة»[1]، ثم تقدم الإمام علي إليهم فوجدهم لم يعبروا الجسر، فعبأ أصحابه على النحو التالي:

على الميمنة ـ حجر بن عدي الكندي.

على الميسرة ـ شبث بن ربعي أو معقل بن قيس الرياحي.

على الخيل ـ أبو أيوب الأنصاري، ومعه راية الأمان.

على الرجالة ـ أبو عبادة الأنصاري.

على أهل المدينة وهم سبعمائة أو ثمانمائة ـ قيس بن سعد بن عبادة. وفي الوقت نفسه كانت الخوارج قد عبأت قواتها في ترتيب قتالي على النحو التالي:

زيد بن حصين : على الميمنة.

شريح بن أوفي العبسي: على الميسرة.

حمزة بن سنان الأسدي : على الخيل.

حرقوص بن زهير السعدي: على الرجالة.

بعد هذا الاستعداد أمر الإمام علي أبا أيوب، ومعه راية الأمان أن ينادي الناس، فقال أبو أيوب: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل أو يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن، بعد هذا النداء انصرف فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٣٤٥.

فنزل البندنيجين[1] والدسكرة[2]، وخرجت طائفة أخرى فنزلت الكوفة، وانضم إلى صف الإمام علي نحو مائة، فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة، وكان الإمام علي قد أمر أصحابه ألاّ يكونوا هم البادئين بالقتل.

ثم إن الخوارج زحفوا إلى أصحاب الإمام علي، ونادوا بشعارهم الرواح إلى الجنة. في هذا الوقت كانت خيالة الإمام علي قد انقسمت قسمين، فرقة نحو الميمنة، والأخرى نحو الميسرة، فلما التقى الطرفان استقبلت الرماة الخوارج بالنبل، وعُطفت عليهم الخيل من الجانبين، ونهض الرجال بالرماح والسيوف فلم يدم القتال طويلاً حتى صرعوا، فقتل عبد الله بن وهب، وزيد بن الحصين وهم من أكبر قادتهم، وقتل حرقوص بن زهير، ولم يبق منهم إلا سبعة، ولم يقتل من أصحاب الإمام علي إلاّ سبعة[3].

بعد الفراغ من النهروان قرر الإمام علي التوجه إلى أهل الشام، فاعترضه بعض أصحابه بحجة أن أسلحتهم قد صدأت وكلّت سيوفهم، وطلبوا العودة إلى ديارهم، فيستريحوا، ثم يجمعوا جمعهم ويستعدوا بأسلحتهم، وأخذوا يتسللون من المعسكر حتى فرغ إلا قليلاً منهم، فعاد الإمام علي إلى الكوفة.

الخريت بن راشد[4]: بعد النهروان أظهر الخريت بن راشد الخلاف على الإمام علي سنة (٣٨هـ - ٦٥٨م)، وقال: يا علي والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك وإني غداً مفارق لك، ثم خرج هو وأصحابه ليلاً، فقال زياد بن حفصة البكري للإمام علي: أتأذن لي في اتباعهم فأردهم عليك فوافقه على خروجه، وأمره أن ينزل دير أبي موسى فيقيم هناك حتى يأتيه أمره.

خرج زياد بن حفصة ومعه مائة وثلاثون رجلاً، فنزل دير أبي موسى، وأقام هناك ينتظر الأوامر. في هذا الوقت أتت الأخبار أن الخوارج توجهوا إلى نفر[5] وقتلوا رجلاً مسلماً. عند ذلك

---

(1) البندنيجين: بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٩٩.

(2) الدسكرة: قرية كبيرة غربي بغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٥٥.

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٣٤٨.

(4) سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة - طبع سورية ١٩٨٧ - ج - ص.

(5) نفر: بلد أو قرية على نهر الفرس من بلاد الفرس، وقيل هي من نواحي بابل بأرض الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٢٩٥.

أرسل الإمام علي إلى زياد بن حفصة يأمره أن يتبعهم، وأمره أن يكون على اتصال معه. فلما وصل الرسول إلى زياد انضم إليه، وساروا نحو جرجرايا[1] فتبعوا آثارهم، فأدركوهم بالمزار[2] وقد استراحوا.

التقى زياد مع الخريت وتحادثا وكانت رغبة زياد ربح الوقت لكي تستريح قواته من عناء المسير، ثم اجتمع زياد بالخريت فسأله عن سبب خروجه وما نقم، فلم يتوصلا إلى أي اتفاق، ثم حدث قتال بينهم وكثرت الجراح، وفصل الليل بينهم، فسار الخريت ليلاً إلى الأهواز، وهناك انضم إليه عدد ممن يرون رأيه، أما زياد فتوجه إلى البصرة، وكتب إلى الإمام علي يخبره خبره وينتظر أوامره.

ثم سير الإمام علي معقل بن قيس، بعد أن انتدب معه ألفين من أهل الكوفة، كما كتب الإمام علي إلى ابن عباس عامله على البصرة يأمره أن يوجه رجلاً معروفاً في ألفي رجل إلى معقل، وأمره أن يوصيهم أن أمير الجماعة هو معقل، ثم أمر زياد بن حفصة بالعودة.

في الأهواز اجتمع إلى الخريت بالإضافة إلى أصحابه من أراد كسر الخراج ولصوص وطائفة من العرب ترى رأيه، وتمكنوا من إخراج سهل بن حنيف من فارس[3]. في هذا الوقت قال ابن عباس للإمام علي: أنا أكفيك فارس بن زياد بن أبيه، فأمر الإمام علي بإرساله إليها، وأمره بالسرعة في ذلك، فوصل زياد إلى فارس فوطأ البلاد، وأدى أهلها الخراج واستقاموا.

في هذا الوقت وصل معقل الأهواز، وأخذ ينتظر الإمداد من البصرة، فلما أبطأ عليه سار عن الأهواز يطلب الخريت: فأدركه المدد مع خالد بن معدان الطائي، فساروا جميعاً فلحقوا الخوارج قرب جبل من جبال رامهرمز، فعبأ معقل قواته، وصف الخريت قواته وعبأهم، ثم اشتبك الطرفان في قتال لم يدم طويلاً حتى هزم الخريت، فقتلوا من أصحابه الكثير.

التحق الخريت بأسياف البحر وهناك اجتمع عليه أناس، أما معقل فأقام بأرض الأهواز، وأعلم الإمام علياً فاستشار أصحابه، فقرروا أن يلحق معقل بالخريت، فأمره الإمام علي بمطاردته وقتله ومن معه، فسار معقل إلى أسياف البحر، فلما سمع الخريت بمسيرهم إليه، وأصحابه مذاهب

---

[1] جرجرايا: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٢٣.

[2] المزار: في ميسان بين واسط والبصرة وهي قصبة ميسان، ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٨٨.

[3] بعض المصادر تذكر أن سهل بن حنيف كان قد مات سنة ٣٧ هـ.

شتى بعضهم من الخوارج، وبعضهم عثمانية، وبعضهم من منع الصدقة، وبعضهم من كسر الخراج، فخدعهم جميعاً في حضه لهم وجمعهم.

فلما وصل معقل إلى خصمه الخريت أمر، بنصب راية أمان فنادى من أتاها من الناس، فهو آمن إلا الخريت وأصحابه، فتفرق أكثر من كان معه و لم يكن على رأيه، فعبأ كل طرف أصحابه ثم هاجمهم معقل بجمع ممن معه، فقتل الخريت وقتل جل أصحابه وانهزم ما بقي منهم، فتفرقوا وكان قد أسر بحدود خمسمائة، ثم كتب معقل إلى الإمام علي يعلمه بالأحداث.

عاد معقل ومعه الأسرى الخمسمائة، فمر على مصقلة بن هبيرة الشيباني، وكان عامل الإمام علي على أزدشير خره[1]، فبكت النساء والأطفال وصاح الرجال مخاطبين مصقلة: يا أبا الفضل يا حامي الرجال أمن علينا اشترنا واعتقنا، فقرر أن يتصدق عليهم فاشتراهن من معقل بخمسمائة ألف، فدفع بعض المال على أن يدفع الباقي، وأقبل معقل إلى الإمام علي فأخبره. بعد ذلك طالب الإمام علي مصقلة ببقية المال، فما طل وهرب إلى معاوية.

الخوارج بعد النهروان[2]: بعد النهروان خرج أشرس بن عوف على الإمام علي بالدسكرة ومعه مائتان من أصحابه، فسار إلى الأنبار، فوجه الإمام علي إليه الأبرش بن حسان في ثلاثمائة، فوافقه، فقتل أشرس في ربيع الآخر سنة (٣٨ هـ - سبتمبر ٦٥٨م).

هلال بن علقمة[3]: خرج هلال بن علقمة من تيم الرباب، ومعه أخوه مجالد، فقدم ماسبذان، فوجه إليه الإمام علي معقل بن قيس فقتله وأصحابه في جمادى الأولى سنة (٣٨هـ - نوفمبر ٦٥٨م).

الأشهب بن بشر[4]: ثم خرج الأشهب بن بشر(وقيل الأشعث) وهو من بجيلة في مائة وثمانين رجلاً، فأتى إلى المكان الذي جرت فيه المعركة مع هلال فصلى عليهم، ودفن بعضهم فوجه إليه جارية بن قدامة السعدي (وقيل حجر بن عدي الكندي)، فحدث قتال في جرجرايا من أرض

---

(1) أزدشير خره: أجل كور فارس ومنها مدينة شيراز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١- ص١٤٦.

(2) سهيل زكار: - أخبار القرامطة - طبع سوريا ١٩٨٢ - ص .

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٣٧٢.

(4) المرجع نفسه - ج٣ - ص٣٧٢.

جوخى فقتل الأشهب وأصحابه في جمادى الآخرة سنة (٣٨هـ - نوفمبر ٦٥٨م).

سعيد بن قفل التميمي[1]: بعد ذلك خرج سعيد بن قفل التميمي في رجب سنة (٣٨هـ - ديسمبر ٦٥٨م) بالبندنيجين، ومعه مائتا رجل، فقدم درزيجان[2]، فخرج إليهم سعد بن مسعود الثقفي، فقتلهم وشردهم.

أبو مريم السعدي التميمي[3]: بعد ذلك خرج أبو مريم السعدي التميمي، في شهرزور، وأكثر من كان معه من الموالي حتى ذكر أنه لم يكن معه من العرب سوى ستة وهو أحدهم، فاجتمع إليه مائتا رجل (وقيل أربعمائة)، فعاد فنزل قرب الكوفة، فأرسل إليه الإمام علي، يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة فرفض، فوجه إليه شريح بن هانئ في سبعمائة مقاتل، فهاجم الخوارج شريح، فكشفوا أصحابه، وثبت ثم تراجع إلى الكوفة، فخرج الإمام علي بنفسه بعد أن قدم مقدمة عليها جارية بن قدامة فتم قتلهم في رمضان سنة (٣٨هـ - يناير ٦٥٩م)، ولم يسلم منهم إلا من استأمن، وبعض الجرحى أمر الإمام علي بمعالجتهم.

الخوارج في عهد معاوية:

فروة بن نوفل الأشجعي[4]: ذكرنا أن فروة هذا كان قد اعتزل قتال الإمام علي وابنه الحسن، فلما آلت الخلافة إلى معاوية، قالوا: الآن جاء ما لاشك فيه، سيروا إلى جهاد معاوية، فنزلوا النخيلة فكتب معاوية إلى الحسن بن علي يطلب منه قتال الخوارج، فردّ عليه لو أثرت قتال أحد من أهل القبلة لبدأت بقتالك، فإني تركت القتال لصلاح الأمة وحقن دمائها.

عند ذلك أرسل إليهم معاوية جماعة من أهل الشام فهزموا فأمر أهل الكوفة بقتالهم، فخرجوا إليهم، فتمكنوا من فروة بن نوفل، وأخذوه فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي، فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوا الخوارج في ربيع الأول سنة (٤١هـ - يونيه ٦٦١م)، وقتل ابن أبي

---

(١) سهيل زكار - الجامع في أخبار القرامطة - ص .

(٢) درزيجان: قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة بالجانب الغربي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٥٠.

(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص ٣٧٣.

(٤) المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد - الكامل في اللغة والأدب - طبع مصر ١٩٣٧ - ج٢ - ص٩٧٨، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج - ص ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص ، ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج١ - ص٢٥٣.

الحوساء. بعد ذلك قتل فروة بن نوفل بشهر زور.

حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي[1]: بعد مقتل ابن أبي الحوساء اجتمع الخوارج فولوا أمرهم حوثرة المذكور، فسار من براز الروز[2]، فقدم النخيلة في مائتين وخمسين من أصحابه وانضم إليه من نجا من أصحاب أبي الحوساء، عند ذلك دعا معاوية أبا حوثرة وأمره بالخروج إلى ابنه لعله يرجعه عما هو فيه، فلم يوفق، فسير إليه معاوية عبد الله بن عوف الأحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة معه فدعا ابنه إلى البراز، فلم يجبه واشتبك الطرفان بالقتال، فقتل حوثرة، وقتل أكثر أصحابه ومن نجا منهم دخل الكوفة.

شبيب بن بجرة[3]: يذكر أن شبيباً هذا كان مع ابن ملجم حين قتل الإمام علي، فلما دخل معاوية الكوفة ظنّ أنه يتقرب إلى معاوية بذلك فتوجه إليه، وأعلمه بأنه اشترك بقتل الإمام علي مع ابن ملجم، فغضب معاوية ودخل داره، وأمر بإخراج شبيب من الكوفة، وكان شبيب هذا يخرج ليلاً فيقتل كل من يصادفه، فلما ولي المغيرة بن شعبة الكوفة، خرج عليه شبيب بالقفّ[4]، فوجه إليه المغيرة خيلاً عليها خالد بن عرفطة (وقيل معقل بن قيس) فقتل شبيباً.

معين بن عبد الله[5]: وبلغ المغيرة بن شعبة أن معين بن عبد الله يريد الخروج فأخذه وحبسه، وأعلم معاوية بن أبي سفيان بأمره، فأمره الخليفة أن يخلي سبيله إذا شهد أن معاوية خليفة فقال الرجل: أشهد أن الله عزّ وجل حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فأمر المغيرة به فقتل. في معنى هذا الحديث الذي يذكره ابن الأثير أن كل من لم يشهد بأن معاوية خليفة يكون خارجياً يحل قتله، وأضحت الوشاية كافية، لمن يتهم بأنه خارجي، فيكون ذلك سبباً لقتله.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٤١٠.

(2) براز الروز: موضع في سواد بغداد من الجانب الشرقي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٦٤.

(3) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٢.

(4) القف: موضع بأرض بابل قرب باجورا وسورا - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٨٤.

(5) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٤١٢.

أبو مريم[1] : هو أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب خرج ومعه امرأتان، وكان أول من أخرج معه النساء، كما يذكر ابن الأثير، فعاب عليه أبو بلال بن أدية ذلك فردهما، فوجه إليه المغيرة جابر البجلي، فقتل أبا مريم وأصحابه ببادوريا[2]. أيضاً هذا الخبر يحتاج إلى تدقيق لأن أبا مريم كما يذكر كان من أتباع أبي بلال، ولم يكن أحد قاد الخوارج.

أبو ليلى[3]: خرج أبو ليلى ومعه ثلاثون رجلاً من الموالي، فأرسل المغيرة له معقل بن قيس، فقتله بسواد الكوفة سنة (٤٢هـ - ٦٦٢م).

سهم بن غالب[4]: وخرج سهم بن غالب في سبعين من أصحابه على ابن عامر، وكان الأخير عامل معاوية على البصرة، فنزل مع أصحابه بين الجسرين والبصرة، فقتلوا بعض المسلمين، فخرج إليهم ابن عامر بنفسه، فقتل بعضهم وانحاز من بقي منهم إلى أجمة، ثم عرض ابن عامر عليهم الأمان فقبلوه، فأمنهم، بعد ذلك هرب سهم بن غالب والخطيم الباهلي إلى الأهواز، فاجتمعت إليه جماعة فقادهم إلى البصرة، وعامل معاوية بها آنذاك زياد بن أبيه، فأخذ شبيب قوماً فلما عرفهم من اليهود تركهم، فلما قدم البصرة تفرق عنه أصحابه، فاختفى سهم وطلب الأمان من زياد بن أبيه فلم يوافقه وأخذ يبحث عنه، حتى أخذه فقتله[5] وصلبه، أما الخطيم فسيره ابن زياد إلى البحرين ثم أعاده.

ما ورد يؤكد فساد نية الخوارج وآرائهم الكلامية، بتكفيرهم وقتلهم من المسلمين كل من يعتقد بعكس اعتقادهم، علماً أن الخوارج كانوا ذوي عقائد مختلفة، وكل منها تكفر الأخرى، وتستحل دمها ودم أي مسلم آخر لا يرى رأيها.

حيان بن ظبيان السلمي[6]: تجمع من نجا من النهروان، ومن شفي منهم من جراحه، فقادهم حيان بن ظبيان، وتوجهوا إلى الري، فلما بلغهم قتل الإمام علي، قرروا التوجه إلى الكوفة

---

(1) المرجع نفسه - ج٣ - ص٤١٢.

(2) بادوريا: طسوج من كورة الاستان بالجانب الغربي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣١٧.

(3) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٤١٢.

(4) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٢.

(5) قيل الذي قتله هو عبيد الله بن زياد سنة ٥٤هـ.

(6) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٨٢ وما بعدها.

وهم قله (بضعة عشر رجلاً)، فأقاموا بها حتى قدمها معاوية، واستعمل عليها المغيرة بن شعبة، وكان المغيرة يحب الأمان والعامية، فاجتمع الخوارج في عهد المغيرة على ثلاثة نفر هم:

- المستورد بن علقمة التيمي من تيم الرباب.
- معاذ بن جوين الطائي.
- حيان بن ظبيان.

اجتمع الثلاثة وتشاوروا فيمن يولونه أمرهم، وكانوا في أربعمائة، فاتفقوا أن يولوا المستورد فبايعوه في جمادى الآخرة سنة (٤٢هـ ـ سبتمبر ـ ٦٦٢م)، وقرروا الخروج في شعبان سنة (٤٣هـ نوفمبر ـ ٦٦٣م)، فعلم المغيرة باجتماعهم في دار حيان بن ظبيان، فأرسل صاحب شرطته إليهم، فأخذ حيان بن ظبيان، ومعاذ بن جوين وبعض أصحابهما، فوضعهم السجن فبقوا فيه نحو سنة.

أما المستورد فخرج ونزل الحيرة فاجتمعت إليه الخوارج، وبلغ المغيرة خبرهم، وأنهم عازمون على الخروج، فجمع المغيرة رؤساء القبائل، وأمرهم أن يكفيه كل منهم قبيلته، ثم اجتمع الخوارج بسوراء[1] تحت قيادة المستورد، وكانوا بحدود ثلاثمائة، ثم ساروا إلى الصراة[2]، فعلم المغيرة بهم فأرسل معقل بن قيس، ومعه ثلاثة آلاف جلهم من الشيعة. في هذا الوقت كان الخوارج قد ساروا إلى بهرسير، ثم ساروا إلى أرض جوخى، ثم بلغوا المذار فأقاموا بها، وعلم ابن عامر بأمرهم فأمر الأعور بن شريك الحارثي وهو من الشيعة أن يتوجه إليهم، ومعه ثلاثة آلاف فارس كلهم من الشيعة فسار بهم إلى المذار.

أما معقل فسار حتى بلغ المدائن، ثم وجه أبا الرواغ الشاكري مقدمة أمامه في قوة قوامها ثلاثمائة فارس فأدركهم في المذار، واشتبك الطرفان فهزم أبو الرواغ، إلا أنه تمكن من جمع قواته وهاجم الخوارج، فهزموا مرةً أخرى، ثم تجمعوا مرةً أخرى. في هذا الوقت قدم معقل في سبعمائة من قواته، والتحم الطرفان، وعلم الخوارج بقدوم أهل البصرة وعليهم شريك بن الأعور، فقرروا ترك أرض المعركة.

---

[1] سوراء: موضع يقال هو جنب بغداد ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٧٨.

[2] الصراة: نهران ببغداد ـ الصراة الكبرى ـ والصراة الصغرى ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٣٩٩.

بعد ذلك قرر معقل مطاردة الخوارج، فوجه أبا الرواغ كمقدمة له في ستمائة فارس، فسار مسرعاً فأدرك الخوارج بجر جرايا فاقتتلوا، وفي الليل هرب الخوارج، فعبروا دجلة، فنزلوا أرض بهرسير، فتبعهم أبو الرواغ إلى ساباط، فقطع المستورد الجسر وسار إلى معقل وهو بديلمايا وأصحابه متفرقون، فلما رآهم معقل وقد هجموا عليه وأصحابه. في هذا الوقت قدم أبو الرواغ فحمل على الخوارج، ثم تبارز معقل والمستورد، فقتل الإثنان، عند ذلك تسلم الراية بعد معقل عمرو بن محرز، فقتلوا الخوارج أبشع قتلة، حيث لم ينج منهم إلا عدد قليل.

قريب الأسدي[1]: بعد ذلك خرج قريب الأسدي وزحاف الطائي سنة (٥٠هـ ـــ ٦٧٠م)، وزياد بن أبيه بالكوفة، عامله على البصرة سمرة بن جندب، فاشتد زياد في طلب الخوارج، وهدد قادة القبائل بالبصرة إذا لم يقتلوهم لن يكون لهم عطاء، فثار الناس بهم فقتلوهم.

زياد بن خراش العجلي[2]: خرج زياد بن خراش في ثلاثمائة سنة (٥٢هـ ـــ ٦٧٢م)، فقدم أرض مسكن[3] من السواد، فسير إليه زياد بن أبيه خيلاً فقتلوهم.

معاذ الطائي[4]: خرج معاذ فأتى نهر عبد الرحمن بن أم الحكم في ثلاثين رجلاً سنة (٥٢هـ ـ ٦٧٢م)، فوجه زياد بن أبيه إليه من قتله، وبذلك يكون زياد بن أبيه قد شلّ حركة الخوارج من جهة، وشغل الشيعة بحربهم من جهة أخرى، وبذلك أمن خطر الطرفين.

طواف بن علاق[5]: خرج طواف بن علاق وغايته قتل ابن زياد وبايعه الخوارج سنة (٥٨هـ ـ ٦٧٧م) وكانوا سبعين رجلاً، فتوجهوا إلى الجلحاء، فوجه ابن زياد إليهم الشرطة فهزمت الشرطة، فتبعهم الخوارج إلى البصرة فتكاثر الناس عليهم، فقتلوا الخوارج، وقتل طواف بن علاق، فصلب واشتد ابن زياد على الخوارج.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٢٣٧.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٩١.

[3] مسكن: موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١٢٧.

[4] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٤٩١.

[5] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٣ ـ ص٥١٦.

عروة بن أدية[1]: ذكرنا أن ابن زياد اشتد على الخوارج، فقتل الكثير منهم وأودع بعضهم السجن، ومن ضمنهم عروة بن أدية، فقتل عروة بن أدية، وكان أخوه أبو بلال مرداس في السجن، فرأى السجان عبادته، فأذن له كل ليلة الخروج إلى أهله على أن يعود في الصباح، وفي أحد الأيام قرر ابن زياد قتل الخوارج الموجودين في السجن، فعلم أبو بلال وهو عند أهله، ومع ذلك عاد في الصباح إلى السجن، وفي الصباح قتل ابن زياد الخوارج إلا أبا بلال مرداس، حيث تشفع له السجان بعد أن أخبره بخبره.

بعد ذلك خاف أبو بلال فخرج في أربعين من أصحابه إلى الأهواز، فوجه إليهم ابن زياد قوةً قوامها ألفا مقاتل يقودهم أسلم بن زرعة الكلابي، وذلك سنة (٦٠هـ - ٦٧٩م)، فقاتلوا الخوارج فانتصروا عليهم، وعاد أصحاب ابن زياد إلى البصرة.

الخوارج في عهد يزيد بن معاوية:

أبو بلال مرداس بن جدير الحنظلي[2]: ذكرنا خروجه في عهد معاوية وتوجيه ابن زياد العسكر إليه وهزيمة عسكر ابن زياد، فوجه إليهم قوةً أخرى قوامها ثلاثة آلاف يقودهم عباد ابن الأخضر[3]، فتوجه إلى مرداس فلحقه بتوج[4]، واشتبك الطرفان في قتال عنيف، وفي وقت الصلاة وقد اتفق الطرفان على إقامة الصلاة كل منهم على حده، حمل عباد على الخوارج وهم يصلون، فقتلوهم عن آخرهم، وأخذت رأس مرداس، ورجع إلى عباد إلى البصرة فرصده عبيدة بن هلال، فقتل عباد، ثم أمر ابن زياد بالخوارج، فوضعوا في السجون، ثم أمر بقتلهم.

نافع بن الأزرق[5]: ذكرنا أن ابن زياد اشتد على الخوارج، فقرروا بقيادة نافع بن الأزرق التوجه إلى عبد الله بن الزبير في الحجاز، فقدموا عليه فسار بمقدمتهم، فقاتلوا معه أهل الشام، حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام، ثم اختلف الخوارج، وعبد الله بن الزبير، فتفرقوا فأقبل

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٣١٢.

(2) ثريا عبد الفتاح ملحس - حزب الخوارج في أدب العصر الأموي - طبع لبنان ١٩٨٩ - ص٩٩.

(3) هو عباد بن علقمة بن عباد التميمي.

(4) توج: مدينة بفارس - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٥٦.

(5) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٥٦٣ وما بعدها، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص١٦٥ وما بعدها.

نافع بن الأزرق ومعه جماعة من أصحابه إلى البصرة، وانطلق أبو طالوت من بني بكر بن وائل، ومعه بعض أصحابه إلى اليمامة فوثبوا بها، ثم أجمع الخوارج هناك على نجدة بن عامر الحنفي.

في البصرة خرج نافع بن الأزرق وهو يرى رأي أبي بلال مرداس ومعه ثلاثمائة، في الوقت الذي ثار الناس فيه في الكوفة على ابن زياد، وكسر الخوارج باب السجن، ثم لحقوا بنافع. في هذا الوقت اصطلح الناس في الكوفة على عبد الله بن الحارث، أما نافع بن الأزرق، فتوجه إلى الأهواز في شوال سنة (٦٤هـ مايو - ٦٨٤م)، وخرج خوارج البصرة إلى نافع ما عدا بعضهم كعبد الله بن الصفار، وعبد الله بن إباض، وغيرهم، فكان رأي نافع بن الأزرق وبرنامجه الذي أعلنه هو:

- البراءة منهم، وتحريم مناكحتهم، وأكل ذبائحهم.
- عدم قبول شهادتهم.
- تحريم ميراثهم.
- رأى قتل الأطفال.
- إن جميع المسلمين كفار لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

عند ذلك تفرق الخوارج فكان ممن فارقه نجدة بن عامر وسار إلى اليمامة فأطاعه الخوارج وتركوا أبا طالوت، كما ذكرنا كتب نافع بن الأزرق إلى ابن إباض، وابن الصفار يدعوهما ومن معهما فاجتمعت خوارج البصرة فتداولوا أمر نافع، وما جاء في برنامجه، فتفرقوا أيضاً، وقوي ابن الأزرق.

الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان:

قتل نافع بن الأزرق[1]: ذكرنا أن ابن الأزرق كان قد قوي أمره وكثرت جموعه فأقبل نحو الجسر، فبعث إليه والي البصرة (عبد الله بن الحارث) مسلم بن عبيس، فأخرج الخوارج من البصرة إلى الأهواز، فاقتتلوا هناك بعد أن عبأ كل طرف قواته، فقتل نافع بن الأزرق، وقتل مسلم أمير أهل البصرة، فأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري، وأمرت الخوارج عبد الله بن الماحوز فقتل الاثنان، فأمر أهل البصرة ربيعة بن الأجرم، وأمرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز واستمر القتال بين الطرفين، في هذا الوقت قدمت سرية من الخوارج، فدخلت المعركة مما أدى إلى

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص١٩٤ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٦١٣.

هزيمة أهل العراق وقتل أميرهم، وأقبلت الخوارج نحو البصرة، فأرعب ذلك أهلها.

بعد ذلك تسلم المهلب بن أبي صفرة حرب الخوارج بعد أن جعل له ما غلب عليه، اختار المهلب من شجعان وفرسان أهل البصرة اثني عشر ألفاً، فخرج بهم إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر، فحاربهم فانسحبوا إلى الجسر الأكبر، فسار يتبعهم، فنزل الخوارج الأهواز، وكان المهلب قد سيّر الجواسيس إلى معسكر الخوارج لتأتيه بأخبارهم، فعلم بوجودهم بالأهواز، عند ذلك استخلف أخاه المعارك بن أبي صفرة على نهر تيري، وتوجه هو ببعض القوات، فقابلت مقدمته مقدمتهم ثم سار الخوارج إلى مناذر، فسار يريدهم، فلما قاربهم وجه الخوارج فرقةً منهم إلى نهر تيري، فقتلوا المعارك أخا المهلب وصلبوه، فعلم المهلب بذلك، فسيّر ابنه المغيرة إلى نهر تيري، فدفن عمه، ثم استخلف هناك جماعةً، وعاد إلى أبيه المهلب وقد نزل سولاف[1].

في سولاف قاتل المهلب الخوارج، فهزم بعض أصحاب المهلب، وثبت هو ثم عاد إليه أصحابه ثم إن المهلب قطع دجيل، فنزل العاقول حيث لا يؤتى إلا من جهة واحدة، فأقام ثلاثة أيام، ثم توجه إلى الخوارج، وهم بسلى[2] وسليري، فنزل بالقرب منهم، وخندق عليه ووضع المسالح، وأذكى العيون والحرس وعبأ كل طرف قواته.

فكانت الخوارج أحسن عدةً وأكرم خيلاً من أهل البصرة لأنهم حفروا الأرض وجردوها ما بين كرمان إلى الأهواز، والتقى الطرفان وصبروا لبعضهم، لكن تفوق الخوارج جعلهم ينتصرون ويهزمون أهل البصرة إلى البصرة، وكان للمهلب قد استطاع جمع حوالي ثلاثة آلاف منهم، فحضهم على القتال وأمرهم أن يأخذ كل منهم عشرة أحجار، وتوجه بهم إلى الخوارج وكانوا آمنين، وخرجت خيلهم في طلب المنهزمين، ففاجأهم، فرماهم أصحاب المهلب بالحجارة، ثم طعنوهم بالرماح، وضربوهم بالسيوف، فقتل عبد الله بن الماحوز وبعض أصحابه وغنم المهلب معسكرهم، وتوجه الخوارج بعد هزيمتهم إلى كرمان، وجانب أصبهان بعد أن ولوا عليهم الزبير بن الماحوز.

---

(1) سولاف: قرية غربي دجيل من أرض خوزستان قرب مناذر الكبرى - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٨٥.

(2) سلى: جبل بمناذر من أعمال الأهواز -- ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٣٢.

نجدة بن عامر[1]: كان نجدة كما ذكرنا مع نافع بن الأزرق، ففارقه لأحداثه في مذهبه كما ذكرنا، وسار إلى اليمامة، ثم توجه إلى الحضارم[2] فنهبها سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م)، ثم تمكن عيراً تحمل مالاً إلى ابن الزبير، فوزعها على أصحابه. بعد ذلك خلع الخوارج أبا طالوت وولوا عليهم نجدة، وذلك سنة (٦٦هـ - ٦٨٥م)، فتوجه نجدة إلى بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فلقيهم بذي المجاز[3]، فقتلهم ورجع إلى اليمامة، فكثر أصحابه حتى صاروا ثلاثة آلاف، فسار إلى البحرين سنة (٦٧هـ - ٦٨٦م)، فحاربه بنو عبد القيس بالقطيف، فانتصر عليهم وأقام بالقطيف[4] وكان ابنه المطرح قد قتل مع جماعة من أصحابه خلال مطاردتهم المنهزمين.

بعد ذلك أقام نجدة بالبحرين بعد أن أرسل سرية الخط، فظفر بأهله، فلما قدم مصعب بن الزبير سنة (٦٩هـ - ٦٨٨م)، أرسل إليه عبد الله بن عمير في أربعة عشر ألفاً، فقاتلهم طويلاً فهزمهم نجدة هزيمةً منكرة. بعدها أرسل نجدة جيشاً إلى عمان، يقوده عطية بن الأسود الحنفي، وقد غلب عليها عباد بن عبد الله، فقتل عباداً واستولى عطية على البلاد، ثم استخلف عليها أحد أصحابه، وخرج منها فتمكن ابنا عباد من قتل الخوارج في عمان.

ثم إن عطية بن الأسود خالف نجدة، فأتى كرمان وضرب بها دراهم، سماها العطوية، وأقام بها، فوجه إليه المهلب جيشاً فهرب إلى سجستان ثم إلى السند، ثم قتل بقندابيل[*].

أما نجدة فبعث بعد هزيمة ابن عمير إلى أهل البوادي فأخذ من أهلها الصدقة، وسار نجدة إلى صفاء[6]، فبايعه أهلها وأخذ من مخاليفها الصدقة، كما أرسل أبا فديك إلى حضرموت[7]، فجيء بالصدقات منها، بعد ذلك جمع نجدة سنة (٨٨هـ - ٧٠٦م)، ومعهم ثمانمائة وستون رجلاً (وقيل في

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٢٠١.

(2) الحضارم: اسم بلد بحضرموت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٦٧.

(3) المجاز: سوق بعرفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٥٤.

(4) القطيف: مدينة بالبحرين - هي اليوم قصبتها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣٧٨.

(*) قيل قتله الخوارج.

(6) صفاء: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٤١١.

(7) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٧٠.

ألفان وستمائة رجل)، وصالح ابن الزبير على أن يصلي كل منهم بأصحابه خلال الحج، بعد الحج توجه نجدة إلى المدينة إلا أنه رجع عنها[1]، فتوجه إلى الطائف، فأصاب بنتاً لعبد الله بن عمرو بن عثمان فكتب فيها عبد الملك بن مروان إلى نجدة يقول له: والله لئن أحدثت فيها حدثاً لأطأن بلادك.

عندما سار نجدة من الطائف أتاه عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، فبايعه على قومه و لم يدخل نجدة الطائف، بعدها استعمل نجدة عماله، فولى الجاروف على الطائف، ونبالة على السراة[2] وسعد الصلاع على مايلي نجران[3]، ورجع بعد ذلك إلى البحرين، وبقي عماله على عملهم حتى اختلف عليه أصحابه، فطمع فيه الناس، فقتل الجاروف في العقبة بعد أن هرب من الطائف.

اختلف الخوارج على نجدة لأسباب نقموها عليه، ومن الذين خالفوه كان أبو سنان حي بن وائل، وعطية بن الأسود، وفارقه قوم منهم وولوا عليهم أبا فديك بن عبد الله. في هذه المرحلة كتب عبد الله بن مروان إلى نجدة يدعوه إلى طاعته على أن يوليه اليمامة ويهدر ما أصاب من الأموال والدماء. أخذ أبو فديك يعمل في طلب نجدة لأنه قدر إن لم يقتله تفرقت الخوارج الذين معه، فأخذ يلاحقه حتى تمكن من قتله سنة (٦٥هـ - ٦٨٤م)، فلما قتل سخط بعض الخوارج على قتله.

هذا ما يؤكد أن الخوارج لم يكن لهم سياسة أو برنامج ثابت لذلك كانوا يقتلون بعضهم بعضاً لمجرد خلاف مهما كان بسيطاً، و لم أجد للجدل عندهم أي دور في حياتهم السياسية. كان مبدؤهم الرفض لكل رأي أو كلام أو قول يتعارض معهم.

الزبير بن الماحوز[4]: بعد أن ولي مصعب العراق للمرة الثانية ولى عمر بن عبيد الله على فارس وأمره بحرب الأزارقة، وعزل المهلب بن أبي صفرة، فلما علم الخوارج بذلك وكانوا قد ولوا عليها بعد مقتل عبيد الله بن الماحوز الزبير بن الماحوز كما ورد، فقدمت الخوارج إلى

---

[1] تراجع عنها لأنه بلغه أن ابن عمر لبس سلاحه، وأن أهل المدينة سيقاتلونه.

[2] السراة: الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٢٠٤.

[3] نجران: في مخاليف اليمن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٢٦٦.

[4] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٢٨٦.

أصطخر، فقدم عمر بن عبيد ابنه لقتالهم، فقتل وأراد الزبير بن الماحوز قتال عمر، فقتل من فرسان الخوارج تسعون رجلاً، وانهزم الباقون إلى سابور، فلقيهم عمر بها، فهزمهم إلى أصبهان، فأقاموا بها حتى قوي أمرهم واستعادوا عافيتهم، ثم أقبلوا فمروا بفارس إلى الأهواز، فكتب مصعب إلى عامله على فارس يأمره بقتالهم، فسار عمر بن عبيد الله إليهم، في الوقت نفسه خرج مصعب فعسكر عند الجسر الأكبر.

بلغ الخوارج هذه الاستعدادات، فما كان من الزبير بن الماحوز إلا أن قطع أرض جوخى وأتى المدائن، فشنوا الغارة عليها، ثم قدموا ساباط فأخذوا يقتلون الرجال والنساء والولدان، ويشقون أجواف الحبالى وأرسلوا جماعةً منهم إلى الكرخ، فقتلوا بها الكثيرين وأخذوا يفسدون في كل مكان خلوا به.

علم أهل الكوفة بأحداث الخوارج فخرج أمير الكوفة الحارث بن أبي ربيعة (القباع) بقواته، فنزل النخيلة، ثم سار إلى دير عبد الرحمن، ثم بلغ الفرات، فقطع الخوارج الجسر بينهم وبينه، فأمر الحارث أصحابه فعقد الجسر، وعبر الناس فطارد الخوارج إلى المدائن، ثم قدموا الري فأعان أهلها الخوارج. فلما فرغ الخوارج من الري، توجهوا إلى أصبهان وعليها عتاب بن ورقاء، فحاصروها أشهراً، فنفد تموينهم. واشتد عليهم الحصار. بعد ذلك قاتل عتاب ومن معه الخوارج، فقتل الزبير بن الماحوز، فانحازت الأزراقة إلى قطري بن الفجاءة.

قطري بن الفجاءة[1]: بعد قتل الزبير بن الماحوز ولى الخوارج عليهم قطرياً، فسار بالخوارج إلى ناحية كرمان، فاجتمعت عليه جموع كثيرة وقوية، فأقبل إلى أصبهان ومنها إلى الأهواز، فأقام بها. في هذا الوقت كان الحارث بن ربيعة عامل مصعب على البصرة، وكان المهلب على الموصل والجزيرة، أمر مصعب المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج، فانتخب الناس، وسار لحربهم، فالتقوا بسولاف، واستمر القتال بينهم ثمانية أشهر.

بعد مقتل مصعب بن الزبير استعمل عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله على البصرة. في هذا الوقت كان المهلب يحارب الأزارقة، فجعله على خراج الأهواز، ومعونتها، وسيّر أخاه عبد

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص١٢٦، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٢٨٦.

العزيز لقتال الخوارج، فخرج يطلبهم، فأتته الخوارج من كرمان إلى دار أبجرد، وأرسل قطري بن الفجاءة مع صالح بن مخارق تسعمائة فارس، فأقبل يسير حتى استقبل عبد العزيز، وهو على غير تعبئة فهزمهم الخوارج، وقتل مقاتل بن مسمع وكان مع عبد العزيز، وانهزم عبد العزيز، وأخذت امرأته ابنة المنذر ابن الجارود، فأجرى عليها مزاداً، فبلغت قيمتها مائة ألف، ثم إن أحد بني قومها من الخوارج قتلها.

علم المهلب بهزيمة عبد العزيز، فأرسل إلى أخيه خالد بن عبد الله يخبره بهزيمته، فكتب الأخير إلى عبد الملك، فرد عليه عبد الملك، يقبح فعله، وقال: لقد بعثت إلى بشر بالكوفة ليمدك بجيش، فسر معهم، ولا تعمل في عدوك برأي حتى يحضره المهلب، وكان عبد الملك قد كتب إلى أخيه بشر، وهو بالكوفة يأمره بإرسال خمسة آلاف مقاتل مع من يرضاه ليقوده، وأمره بعد إنهاء أمر الخوارج أن يسيروا إلى الري لحرب عدوهم وكانوا مسلحة.

أرسل بشر بن مروان خمسة آلاف يقودهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وكتب له عهداً على الري بعد الفراغ من حرب الخوارج، وخرج خالد بأهل البصرة فقدم الأهواز، وقدمها أيضاً عبد الرحمن بن محمد في أهل الكوفة، وكان هناك يزيد بن المهلب، ودنت الأزارقة من الأهواز، فقال المهلب لخالد أن يضم سفناً كانت هناك خوفاً من أن يحرقها الأزارقة، فلم يمض إلا وقت قصير حتى نفذ الخوارج حرقها.

عبأ خالد قواته فكان المهلب على ميمنته وميسرته، فأقاموا نحو عشرين يوماً، ثم زحف خالد إليهم، فانصرف الخوارج عندما رأوا عجزهم عن المقاومة، فوجه خالد داؤود بن مخذم لمطاردتهم، وعاد خالد إلى البصرة، وسار عبد الرحمن إلى الري، وأقام المهلب بالأهواز، وأعلم عبد الملك بن مروان بذلك، فكتب عبد الملك إلى أخيه بشر يأمره بإرسال أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة، لحرب الأزارقة، وأن يكون داؤود بن مخذم هو الأمير. تنفيذاً لأمر عبد الملك أحضر بشر أربعة آلاف فارس، وجعل عليهم عتاب بن ورقاء، وأمره اللحاق بداؤود، وعندما اجتمع مع داؤود ساروا لمحاربة الخوارج، واستمروا في حربهم حتى هلكت خيولهم، وأصابهم الجوع والجهد، فرجعوا مشاةً إلى الأهواز.

أبو فديك الخارجي[1]: ذكرنا كيف قتل نجدة بن عامر، وأطاع أصحابه أبا فديك وذلك سنة (٧٢هـ ـ ٦٩١م)، فأرسل خالد بن عبد الله أخاه أمية بن عبد الله إلى حرب أبي فديك، فهزمه أبو فديك، فكتب خالد إلى عبد الملك يعلمه بذلك، فأمر عبد الملك بن مروان، عمر بن عبيد بن معمر أن يندب الناس من أهل الكوفة والبصرة ويسير إلى قتال أبي فديك، فانتدب معه عشرة آلاف، فجعل أهل الكوفة على الميمنة يقودهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وأهل البصرة على الميسرة، وعليهم عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وجعل خيله في القلب.

سار عمر بن عبيد الله بقواته إلى البحرين، فالتقوا بالخوارج فهاجمهم أبو فديك وأصحابه، فكشفوا أهل البصرة إلا المغيرة بن المهلب وبعض الفرسان، فقد مالوا إلى أهل الكوفة، وجرح عمر ابن موسى، ثم رجع أهل الميسرة عندما رأوا أن الميمنة لم تهزم وقاتلوا بدون أمير، واشتد القتال فدخلوا عسكر الخوارج، فقتلوا أبا فديك، وحصروا أصحابه حتى نزلوا على حكمهم، ثم عادوا إلى البصرة.

المهلب وحرب الأزارقة[2]: كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر يأمره أن يبعث المهلب إلى حرب الأزارقة في أهل البصرة ووجوههم، وأمره أيضاً أن يبعث من أهل الكوفة رجلاً معروفاً بالبأس والتجربة في جيش إلى المهلب، وأمرهم أن يتبعوا الخوارج حتى يهلكوهم، فأرسل المهلب، فانتخب الناس عن طريق الديوان، ثم إنّ بشراً دعا عبد الرحمن بن مخنف، وأخذ يحرضه على المهلب، خلال هذه المهمة، وأخذ ينتقد المهلب، وأمره ألاّ يقبل له مشورة ولا رأياً، فقال عبد الرحمن: ترك بشر أن يوصيني بالجيش، وقتال العدو والنظر لأهل الإسلام، وأقبل يغريني بالمهلب وهو ابن عمي كأني من السفهاء.

سار المهلب بقواته فنزل رامهرمز فلقي بها الخوارج، فخندق عليه، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة، فنزل قرب المهلب وهناك أتاه بشر بن مروان، وذلك سنة (٧٤هـ ـ ٦٩٣م)، فتفرق الكثير من القوات، وكان بشر قبل أن يموت قد استخلف خالد بن عبد الله على البصرة،

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص ، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٧٤.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص١٩٥ وما بعدها.

وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حريت، واجتمع الذين تفرقوا من أهل الكوفة بالأهواز، فعلم خالد بن عبد الله بذلك فكتب إليهم يهددهم، فرفضوا أوامره وتوجهوا إلى الكوفة فدخلوها ليلاً.

وبعد أن ولي الحجاج العراق وقال خطبته المشهورة وقد علم بما فعله أهل الكوفة من تفرق أهل الكوفة عن المهلب وعودتهم إلى بلادهم، قال: «بلغني رفضكم وإقبالكم على مصركم، عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأنهبت داره»، بعد ذلك دعا الحجاج العرفاء فأمرهم أن يلحقوا الناسَ بالمهلب، وأمرهم أيضاً ألاّ يغلقوا أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى انتهاء المدة، ثم كتب إلى المهلب ومعه ابن مخنف يأمرهما بمناهضة الخوارج.

نهض المهلب بمن معه إلى الخوارج، فقاتلهم فهزمت الخوارج، فنزلوا كازرون[1] فلحقهم وخندق المهلب كعادته، أما ابن مخنف فلم يخندق، فقدم الخوارج فوجدوا ابن مخنف لم يخندق فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه، فقاتل حتى قتل، فدفنه المهلب وصلى عليه، وأعلم الحجاج بذلك، فأعلم الحجاج عبد الملك، ثم إن الحجاج أرسل إلى عسكر عبد الرحمن عتاب بن ورقاء، وأمره أن يسمع ويطيع المهلب ثم إن عتّاباً عاد إلى الحجاج فولى المهلب عوضه ابنه حبيب.

صالح بن مسرح[2]: تحرك صالح بن مسرح من بني تميم وكان يرى رأي الصفرية، وهو أول من خرج منهم، وخرج بدارا[3] وأرض الموصل والجزيرة، وفي الحج سنة (٧٥هـ - ٦٩٤م)، همّ شبيب وهو مع صالح أن يفتك بعبد الملك بن مروان، فعلم بذلك فكتب إلى الحجاج يأمره بطلبهم، ثم اجتمع شبيب وصالح بدارا بعد أن تراسلا، وأخذ صالح موعداً للخروج في هلال صفر سنة (٧٦هـ - مايو ٦٩٥م)، وفي الوقت المتفق عليه خرجوا بدواب لمحمد بن مروان، فأقاموا ثلاث عشرة سنة بدارا وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار.

علم محمد بن مروان بخروجهم، وهو أمير الجزيرة فأرسل إليهم عدي بن عدي الكندي في ألف فارس، فسار من حرّان فنزل دوغان[4]، فكتب إلى صالح يسأله أن يخرج من البلاد وأنه يكره

---

[1] كازرون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٢٩.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٩٣.

[3] دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤١٨.

[4] دوغان: قرية كبيرة بين رأس عين ونصيبين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٨٤.

القتال، فحبس صالح رسوله بعد أن علم أن عدياً لم يوافقه على رأيه، فهاجم صالح ومن معه عديّا وهم على غير تعبئة، فهزموا عدياً وأصحابه، فغنم صالح معسكرهم.

بعد ذلك دعا محمد بن مروان خالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، كما دعا الحارث بن جعونة العامري فبعثه في ألف وخمسمائة، وأمرهما بالتوجه إلى حرب الخوارج والذي يسبق يكون الأمير، فتقابلوا مع صالح وأصحابه، وحدث قتال، ثم خرج صالح وأصحابه ليلاً إلى الدسكرة، فلما علم الحجاج بذلك وجه الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، فسار بهم حتى الدسكرة، أما صالح فخرج حتى أتى قرية يقال لها مدبج على تخوم ما بين الموصل وجوخى ومعه تسعون من أصحابه فالتقوا بالحارث بن عميرة فقتل صالح، ودخل الخوارج أحد الحصون، فحاصرهم الحارث ثم بايع الخوارج شبيب بن يزيد بن نعيم.

شبيب بن يزيد[1]: بايعه الخوارج سنة (٧٦هـ - ٦٩٥م)، والحارث محاصر لهم وقد أحرق باب الحصن فأخذ الخوارج اللبد بعد أن بللوها بالماء، ووضعوها على الجمر، وخرجوا من الباب فلم يشعر الحارث إلا بشبيب يضرب بالسيوف في أصحابه فصرع الحارث فحمله أصحابه وانهزموا نحو المدائن وحوى شبيب عسكرهم.

بعد ذلك انضم شبيب لسلامة بن سنان، فاشترط الأخير على شبيب التوجه إلى عنزة يشفي نفسه منها، لأنهم كانوا قتلوا أخاه فضالة، وكان عبد الملك قد أنزل عنزة بانقيا[2] بعد قتلهم فضالة ومن معه وفرض لهم ولم يكن له قبل ذلك فرائض إلا قليلاً، علماً أن خروج فضالة كان قبل خروج صالح.

ثم توجه شبيب ومن معه ومعه سلامة بن سنان التميمي فوصلوا عنزة فجعل يقتل من يشاهده ثم توجه شبيب نحو راذان[3]، فهربت منه طائفة من بني شيبان فنزلوا دير خرزاد (جرداب أو دير أخريبا)، وهم بحدود ثلاثة آلاف، وشبيب في نحو سبعين رجلاً، فحاصرهم شبيب حتى نزلوا على حكمه.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٩٦، الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٢٤ وما بعدها.

(2) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٣٣١.

(3) راذان: قرية من قرى أصبهان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٣.

توجه شبيب بعد ذلك مع طائفة من أصحابه في أرض الموصل، فكتب الحجاج إلى سفيان بن أبي العالية يأمره بالقفول ومعه ألف فارس يريد أن يدخل بها طبرستان، فصالح صاحب طبرستان ورجع وكان الحجاج قد أمره بالنزول بالدسكرة حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمذاني، وقبل المناظر وعليها سورة بن الحر فيسير إلى شبيب.

خرج الحارث فقدم على سفيان فتعجل في طلب شبيب فلحقه بخانقين، فأخذ شبيب يتنقل أمامهم من مكان لآخر، ثم أمر أخاه مصاد بأن يكْمن بخمسين من أصحابه على طريق خصمه، وأظهر أنه يكره قتالهم، فتبعوه، فلما اجتازوا الكمين رجع إليهم شبيب، وخرج الكمين من ورائهم، فانهزموا بغير قتال، فتوجه سفيان إلى بابل مهروز، فكتب إلى الحجاج بأمره، وأعلمه أن سورة بن الحر لم يشترك بالقتال.

كتب الحجاج إلى سورة بن الحر يأمره أن ينتخب من المدائن خمسمائة فارس فيسير بهم وبمن معه إلى شبيب. سار سورة نحو شبيب، وقد نزل النهروان، فلما علم بمكان تواجد شبيب، اختار ثلاثمائة من خيرة فرسانه، وسار بهم إلى النهروان، وكان شبيب يقظاً، وقد وزّع العيون والحرس يأتونه بالأخبار، فلما اقترب سورة منهم علموا بهم واستعدوا للقائهم، وحدث القتال بينهم فانهزم سورة نحو المدائن، ثم مضى شبيب إلى تكريت[1].

بعد ذلك سير الحجاج الجزل بن سعيد بن شرحبيل الكندي، نحو شبيب في أربعة آلاف فتوجه نحو شبيب، فكان شبيب يتنقل أمام الجزل من مكان لآخر، ولا يقيم وغايته تفريق أصحاب خصمه وكان الجزل لا يسير إلا على تعبئة ولا ينزل إلا خندق على نفسه، عند ذلك جمع شبيب أصحابه وكانوا مائة وستين رجلاً فوزعهم أربع فرق، الأولى مع أخيه مصاد، وفرقة مع سويد بن سليم، وفرقة مع المحلل بن وائل، وبقي شبيب في فرقة رابعة.

علم شبيب أن الجزل بدير يزدجرد، فتوجه نحوه فسار أخوه مصاد إلى دير الخرارة فرأى للجزل مسلحة فقاتلهم فهزمهم، فمنعهم أصحابهم من دخول المعسكر، وكان للجزل مسالح أخرى فرجعت فمنعتهم من دخول الخندق، ثم إن شبيباً حاصرهم من الجهات الأربع. بعد ذلك أمر

---

[1] تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٨.

ابنه مصاد أن يقبل عليه وأن يخلي لهم الطريق، وأخذوا يقاتلونهم من الوجوه الثلاثة الأخرى، إلا أنه لم يتمكن منهم.

عندما لم يجد شبيب أي سبيل لمهاجمة خصمه تركهم وسار إلى جرجرايا، فأقبل الجزل في طلبهم، فلما طال الوقت على الحجاج أنكر على الجزل سلوكه، وأرسل سعيد بن مجالد على جيش الجزل وأمره بالجد في قتال شبيب، وصل سعيد إلى الجزل وما زال بالنهروان، فأخذ سعيد يجمع خيله ويرسلها في طلب شبيب، فلما رأى شبيب تفرقهم جمع أصحابه، وحمل عليهم فهزمهم، وقتل سعيداً فعاد المنهزمون إلى الجزل.

بعد ذلك سار شبيب إلى الكوفة، فنزل عند حمام عمير بن سعد، فوجه إليه الحجاج سويد بن عبد الرحمن في ألفين، فعسكر سويد بالسبخة[1]، ثم سار إلى زرارة، وكان الحجاج قد أمر عثمان بن قطن أن يعسكر بالناس بالسبخة، بعد خروج سويد عنها، ثم حمل شبيب على سويد ومن معه فلم يقدر أن يفعل شيئاً، فتوجه نحو الحيرة فتبعه سويد، وأخذ شبيب يتحرك بالبادية ثم ارتفع إلى أذربيجان، عند ذلك علم الحجاج بإبعاده فسار إلى البصرة بعد أن استخلف على الكوفة عروة ابن المغيرة بن شعبة. في هذا الوقت علم عروة بأن شبيباً قد نزل خانيجار[2] وهو على قصد الكوفة، فأعلم عروة الحجاج، فأقبل الحجاج إلى الكوفة.

كان شبيب في مسيره إلى الكوفة قد نزل قرية حربى[3] وسار منها إلى عفرقوف ومنها أراد التوجه إلى الكوفة، فنزل شبيب السبخة، بعد وصول الحجاج إلى الكوفة بوقت قصير، دخل شبيب وأصحابه الكوفة فبلغوا السوق، ثم اقتحموا المسجد، ثم خرجوا من الكوفة نحو المردمة (الردمة).

كان الحجاج قد بعث بشر بن غالب في ألفي رجل وزائدة بن قدامة في ألفي رجل، وأبا الضريس في ألفي رجل، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، وزياد بن عمرو الفتكي، وكان عبد الملك بن مروان قد استعمل محمد بن موسى على سجستان، فأمر الحجاج أن يسيره ومعه ألف

---

[1] السبخة: من قرى البحرين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص١٨٣.

[2] خانيجار: بليدة بين بغداد واربل قرب دقوقاء عجمي - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٣٤١.

[3] حربى: بليدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٣٧.

رحل في طلب شبيب، ثم يلتحق بعمله وكان الحجاج قد أمر هؤلاء القادة إذا اجتمعوا أن يكون الأمير عليهم زائدة بن قدامة.

كما وجه الحجاج جريدةً من الخيل المنتقاة قوامها ألف وثمانمائة فارس مع زحر بن قيس فخرج زحر إلى السيلحين فالتقى مع شبيب، فهزم زحر وأصحابه وأصيب بجرح، وكان شبيب بارعاً في اقتناص الفرص وعدم إضاعة الوقت، فقرر التوجه إلى الأمراء الذين وجههم الحجاج إليه وهم بروذبار فقصدهم شبيب، فعبأ أصحابه ثلاث كتائب، الأولى مقابل ميمنة خصمه، والثانية مقابل الميسرة والثالثة تحت قيادته مقابل القلب.

واشتبك الطرفان في قتال عنيف انهزم زائدة وقتل، ثم قتل محمد بن موسى، وخرج شبيب بأصحابه، فأتى خانيجار فأقام بها. في هذا الوقت كان الحجاج قد امتلأ رعباً وخوفاً من الخوارج فأرسل عثمان بن قطن أميراً على المدائن.

بعد ذلك دعا الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وأمره أن يختار من الناس ستة آلاف فارس وأمره أن يسير في طلب شبيب، فخرج في طلبه وكان شبيب قد سار إلى دقوقاء[1] وشهرزور، فلما اقترب منه اعتمد شبيب أسلوب المناورة والمماطلة في القتال والانتقال من مكان لآخر حتى أضعف هذا الجيش وأعياه ولقوا منه البلاء.

ومع ذلك استمر عبد الرحمن يطاردهم حتى أقبل إلى قرية من قرى الموصل (البت)، وهي من راذان الأعلى من أرض جوخى، فنزل عبد الرحمن، ثم اتفقا على الموادعة أيام النحر، فكتب عثمان ابن قطن إلى الحجاج بما يجري، واتهم عبد الرحمن بترك حرب الخوارج، فكتب الحجاج إليه بأمرة الجيش، وعزل عبد الرحمن، وبعث الحجاج إلى المدائن المطرف بن المغيرة.

قدم عثمان بن قطن على عبد الرحمن فاستلم مهمته وسار بتعبئة حتى التقى بشبيب، فاستخدم شبيب المناورة بالقوات من خلف العلو فتمت هزيمة هذا الجيش، وقتل عثمان بن قطن.

بعد أن هزم شبيب الجيش وقتل عثمان بن قطن توجه إلى ماه بهراذان فبقي بها ثلاثة أشهر (الصيف)، وهناك التحق به من كان يطلب الدنيا، وممن كان الحجاج يطلبهم بعد ذلك خرج

---

(١) دقوقاء: مدينة بين اربل وبغداد معروفة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٥٩.

شبيب ومعه ثمانمائة فأقبل نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة، وعلم الحجاج بحركة شبيب، فأرسل يطلب عتاب بن ورقاء وكان مع المهلب، فقدم عليه، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يعلمه موقف الخوارج، وعجز أهل العراق عنهم، فما كان من عبد الملك إلا أن وجه جيشاً من أهل الشام قوامه أربعة آلاف يقودهم سفيان بن الأبرد، كما وجه حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ألفين.

ذكرنا أن عتاب بن ورقاء كان قد قدم على الحجاج فبعثه على جيش من أهل العراق فعسكر في حمام أعين، أما شبيب فنزل مدينة بهرسير، فقطع مطرف بن المغيرة الجسر وطلب من شبيب بعض أصحابه لكي يرى رأيهم، فبعث إليه وجوه أصحابه وأعلمهم فبقوا عند مطرف أربعة أيام فلم يتفقوا.

بعد ذلك أمر شبيب بالجسر، فعقد، وأقبل عتاب بقواته وقوامها أربعون ألفاً، وعشرة آلاف من الأتباع والشباب، فكانوا خمسين ألفاً حسب رواية ابن الأثير، فعبأ كل منهم قواته، والتقى الطرفان في قتال عنيف، فقتل عتاب بن ورقاء وهزم أصحابه وحوى ما في معسكرهم، وبايعه من أسر ووجد في المعسكر، ثم إنّ شبيباً توجه نحو الكوفة فنزل بسورا. في هذا الوقت كان جيش الشام قد دخل الكوفة.

سار شبيب من سورا فنزل حمام أعين، فوجه الحجاج، الحارث بن معاوية في أناس من الشرطة ومعه ألف مقاتل، فتمكن شبيب من قتله وهزيمة أصحابه كما تمكن شبيب من موالي الحجاج ومن غلام الحجاج فقتلهم.

بعد ذلك توجه الحجاج بأهل الشام، والتقى الطرفان فثبت أهل الشام وتراجع شبيب والحجاج يتقدم بأهل الشام. وفي هذه المعركة قتل مصاداً أخا شبيب بمناورة قام بها خالد بن عتاب، ثم هزم شبيباً وأصحابه، وعاد الحجاج إلى الكوفة، فأمر حبيب ابن عبد الرحمن على ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام، وأمره أن يتبع أثر شبيب، فخرج في أثره حتى نزل الأنبار فأتاهم شبيب وهم على تعبئة فقاتلهم شبيب حتى يئس من الإنتصار عليهم، فتركهم وتوجه إلى كرمان لكي يستريح بها.

ثم إن الحجاج أمر سفيان وأصحابه بقصد شبيب، فسار نحوه، وكتب أيضاً إلى الحكم بن

أيوب وهو عامله على البصرة يأمره أن يرسل أربعة آلاف فارس من أهل البصرة إلى سفيان، فسيرهم مع زياد بن عمرو الفتكي.

ثم إن سفيان التقى شبيباً بجسر دجيل الأهواز، فعبر شبيب الجسر إلى سفيان وعبأ قواته في ثلاثة كراديس، ونشب القتال فقاتلهم حتى الليل، ثم تراجع شبيب إلى الجسر وأمر أصحابه بالعبور، وأراد هو العبور فسقط في الماء وغرق.

المهلب والخوارج[1]: ذكرنا مسير المهلب إلى حرب الأزارقة، وذكرنا استدعاء الحجاج لعتاب بن ورقاء، وكان مع الحجاج بعد استدعاء عتاب أقام المهلب يقاتل الخوارج نحو سنة، وكانت كرمان بيد الخوارج، وفارس بيد المهلب، ونتيجة المضايقة والحروب المستمرة ضد الخوارج فقد ضاق عليهم مكانهم، واجتمعت الخوارج بكرمان وتبعهم المهلب، فنزل جيرفت[2]، فلما أصبحت بلاد فارس كلها بيد المهلب أرسل الحجاج العمال عليها، وكان عبد الملك بن مروان قد أمر الحجاج أن يترك بلاد فسا ودار أبجرد وكورة أصطخر بيد المهلب لتكون عوناً له على الحرب.

خرج المهلب لحرب الخوارج ومعه البراء بن قبيصة، وقد بعثه الحجاج يراقب الأحداث ويحضّ المهلب على قتال الخوارج، استمر المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهراً، بعد ذلك وقع الاختلاف بين الخوارج، وكان لاختلافهم عدة أسباب:

- أن عاملاً لقطري كان على ناحية كرمان، فقتل رجلاً منهم (الخوارج)، فوثب الخوارج إلى قطري فطلبوا منه أن يقيدهم من عامله، فرفض.

- أن رجلاً في معسكرهم يعمل النصول المسمومة، فيرمي بها أصحاب المهلب، فشكا منها أصحاب المهلب، فقال المهلب: أكفيكموه، فوجه المهلب رجلاً من أصحابه ومعه كتاب أمره أن يلقيه على عسكر قطري، ففعل ولم يره أحد فحمل الكتاب إلى قطري وكان في الكتاب: «أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم»، فأحضر قطري الصانع فقتله، فأنكر عليه عبد ربه الكبير قتله، واختلفوا.

---

(1) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٣٠٠ وما بعدها، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٤٣٧.

(2) جيرفت: مدينة بكرمان - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٩٨.

- أرسل المهلب رجلاً إلى قطري فسجد له، فقالت الخوارج: إن هذا قد اتخذك إلهاً وقتل الرجل الذي سجد وزاد اختلافهم.

إذاً كانت هذه العوامل الثلاثة من الأسباب الرئيسية في اختلاف الخوارج، وكان للمهلب بن أبي صفرة الفضل الأكبر في اختلافهم كما ورد، وكما كان الضغط الذي شكله عليهم، وأجلاهم عن فارس وحصرهم في كرمان من العوامل الحاسمة لأنه منع عنهم الإمدادات من بلاد فارس، وهذا بحد ذاته يشكل عليهم ضغطاً بشرياً ومادياً، فكان اختلافهم.

قتل عبد ربه الكبير[1]: اختلف الخوارج كما ورد وفارق أكثرهم قطريّاً، فولوا عليهم عبد ربه الكبير، وخلعوا قطرياً وجرى قتال فيما بينهم استمر وقتاً. بعدها خرج قطري بمن معه نحو طبرستان وأقام عبد ربه الكبير بكرمان. أثناء حربهم وقتالهم لبعضهم بعضاً تركهم المهلب يقتل بعضهم بعضاً. لكن بعد رحيل قطري حاصرهم المهلب بجيرفت، وعندما اشتد الحصار عليهم خرجوا منها بأموالهم وحرمهم، وقاتلوا قتالاً مريراً، فتركهم المهلب، ودخل جيرفت. بعد ذلك لحقهم فقاتلهم واشتد القتال وقرر الخوارج الاستمرار في القتال فكانت النهاية انتصار المهلب، وقتل عبد ربه الكبير، وأكثر أصحابه، وأخذ عسكرهم، وسبي ما فيه. بعد ذلك استعمل المهلب ابنه يزيد على كرمان.

قتل قطري[2]: ذكرنا أن قطرياً سار إلى طبرستان، فبلغ الحجاج خبره فسيّر إليه سفيان بن الأبرد، وأمره الحجاج بإسحاق بن محمد بن الأشعث، فطلبوا قطرياً ولحقوه في أحد شعاب طبرستان، فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع هو عن دابته ثم رمى عليه أحدهم حجراً فأصابه، فأوهنه ثم قدم عليه بعض أهل الكوفة فقتلوه، فأرسل سفيان رأسه إلى الحجاج، فسيّره الأخير إلى عبد الملك بن مروان.

أما باقي الخوارج فحصرهم سفيان حتى أكلوا دوابهم، فخرجوا إليه، فقاتلوه، فقتلهم وأرسل رؤوسهم إلى الحجاج، وقيل انقرضت الأزارقة بعد قطري، وكان أولهم نافع بن الأزرق وآخرهم قطري، حيث استمروا عشرين سنة في حرب متواصلة مع الدولة الأموية.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٤٣٩.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٣٠٨ وما بعدها.

الخوارج في عهد عمر بن عبد العزيز:

في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز خرج شوذب (بسطام) من بني يشكر في جوخى ومعه ثمانون رجلاً، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة أن يتركهم ما لم يسفكوا دماءً ويفسدوا في الأرض، فسير والي الكوفة قوةً قوامها ألفان يقودها محمد بن جرير بن عبد الله البجلي، وأمره بما كتب به الخليفة عمر بن عبد العزيز. في الوقت نفسه كتب عمر بن عبد العزيز إلى بسطام يسأله عن مخرجه، فوصل كتابه إليه في الوقت الذي كان فيه محمد بن جرير بإزائه لا يتحرك.

كان كتاب عمر بن عبد العزيز يتضمن قوله: «بلغني أنك خرجت غضباً لله ورسوله ولست أولى بذلك منك، فهلم إلي أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك»[1]، فكتب إليه بسطام: «قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك»، أرسل بسطام إلى عمر بن عبد العزيز رجلين فقدما عليه وهو بخناصرة فدخلا عليه، وجرت بينهما هذه المحاورة التي يرويها ابن الأثير وغيره من المؤرخين.

عمر بن عبد العزيز: ما أخرجكما وما الذي نقمتم.

الخارجي: ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر عن رضى من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم.

عمر بن عبد العزيز: ما سألتهم الولاية وما غلبتهم عليه، عهد إليّ رجل كان قبلي فقمت ولم ينكر علي أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

الخارجي: بيننا وبينك أمر واحد.

عمر: ما هو؟

الخارجي: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم، فإن كنت على هدىً وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم.

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ أحداث سنة ١٠٠هـ ـ ج٥ ـ ص٤٥.

عمر: علمت أنكم لم تخرجوا طلباً للدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة، فأخطأتم طريقها وا لله تعالى لم يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - لعاناً، وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم الخليل ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وقد سميت أعمالهم مظالم، وكفى بذلك ذماً ونقصاً، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعوناً.

الخارجي: لا علم لنا متى لعناه.

عمر: أيسعكم ألا تلعنوا فرعوناً وهو أخبث الخلق وأشرهم، ولا يسعني ألا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صاغون.

الخارجي: أما هم كفار بظلمهم.

عمر: لا لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد.

الخارجي: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده.

عمر: لا أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم، لكنهم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم.

الخارجي: ابرأ مما خالف عملك، ورد أحكامهم.

عمر: أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق.

الخارجي: بلى.

عمر: هل تعلمون أن أبا بكر حين قتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الزراري وأخذ الأموال.

الخارجي: بلى.

عمر: أتعلمان أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية.

الخارجي: نعم.

---

[1] سورة إبراهيم - الآية ٣٦.

عمر: فهل يرى عمر من أبي بكر.

الخارجي: لا.

عمر: أفتبرؤون أنتم من واحد منهما.

الخارجي: لا.

عمر: أخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً، و لم يأخذوا مالاً، وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته حامل.

الخارجي: نعم.

عمر: برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض.

الخارجي: لا.

عمر: أفتبرؤون أنتم من واحد من الطائفتين.

الخارجي: لا.

عمر: أيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر، وأهل البصرة وأهل الكوفة، وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد، فاتقوا الله، فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وتردون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده، فأنتم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكان من فعل ذلك، عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله، وأنتم تقتلونه، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم.

الخارجي: أرأيت قوماً ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون، أتراه أدى الحق الذي يلزمه لله عز وجل، أو تراه قد سلم.

عمر: لا.

الخارجي: أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه الحق.

عمر: إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي.

الخارجي: أفترى ذلك من صنع ولاه حقاً.

عمر: بكى وقال انظراني ثلاثاً.

خرج الخوارج من عند الخليفة عمر، ثم عاد إليه فقال الخارجي: أشهد أنك على حق.

عمر للخارجي الآخر: ماذا تقول أنت.

الخارجي: ما أحسن ما وضعت ولكني لا أفتأت على المسلمين بأمر أعرضه عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم.

بعد ذلك أقام أحد الخوارج عند الخليفة عمر، وأمر له بالعطاء، ثم توفي بعد خمسة عشر يوماً، فكان عمر بن عبد العزيز يقول: «أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه، فأستغفر الله». عند ذلك خاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد، فوضعوا له من سقاه سماً فمات بعد ثلاثة أيام.

بعد موت عمر بن عبد العزيز واستخلاف يزيد بن عبد الملك، كتب أمير الكوفة إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة الخوارج، فلما رأوا الاستعداد للحرب أرسل شوذب إلى محمد بن جرير ما أعجلكم قبل انقضاء المدة، أليس موعدنا رجوع الرسولين، فقال محمد بن جرير: لا يسعنا ترككم على ما أنتم عليه، فقالت الخوارج: مات الرجل الصالح.

والتقى الطرفان فهزم أهل الكوفة وجرح محمد بن جرير، فدخل الكوفة وأصحابه والخوارج يطاردونهم حتى بلغوا الكوفة بعد ذلك تولى يزيد إرسال البعوث لحرب الخوارج، فوجه من عنده تميم بن الحباب في ألفين، فأخبرهم أن يزيد لا يفارقهم على ما فارقه عليه عمر، فلعنوه ولعنوا يزيد وحاربوه وقتلوه وأصحابه، فأرسل يزيد إليهم نجدة ابن الحكم الأزدي في جمع فقتلوه وهزموا أصحابه فوجه إليهم السماج بن وداع في ألفين فقتلوه وهزموا أصحابه، وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة شوذب وخوفوه منه.

أرسل مسلمة من عنده سعيد بن عمرو الحرشي في عشرة آلاف، فقاتلوا الخوارج، فكانت البداية لصالح الخوارج، إلا أن أهل الكوفة استعادوا جمعهم وحاربوا الخوارج، فقتل شوذب وأصحابه، في عهد يزيد بن عبد الملك سنة (٨٤هـ - ٧٠٣م).

الخوارج في عهد يزيد بن عبد الملك:

خروج عقفان[1]: خرج عقفان في ثمانين رجلاً فأشير على يزيد بن عبد الملك أن يبعث إلى كل رجل من أصحابه رجلاً من قومه يكلمه ويرده ففعل، وتمّ رجوعهم بهذه الطريقة وبقي عقفان وحيداً، فبعث إليه يزيد أخاه، فاستعطفه فرده، وفي عهد هشام ولى والد عقفان أمر العصاة، فقدم ابنه خراسان غاضباً فشد وثاقه وبعث به إلى الشام، فأطلقه لأبيه كما استعمل هشام عقفان على الصدقة، فبقي عليها إلى أن توفي هشام.

مسعود بن أبي زينب العبدي[2]: خرج مسعود بالبحرين على الأشعث بن عبد الله بن الجارود، ففارق الأشعث البحرين، فسار مسعود الخارجي إلى اليمامة وعليها سفيان بن عمرو العقيلي من قبل عمر بن هبيرة، فخرج إليه سفيان فاقتتلوا بالخضرمة قتالاً شديداً، فقتل مسعود فقام بأمر الخوارج بعده هلال بن مدلج، فقاتلهم يومه، ثم تفرق عنه أصحابه، فدخل قصراً وتحصن به ومعه نفر قليل من أصحابه، فنصبوا عليه السلالم، فقتلوه واستاء من أصحابه، علماً أن بعضهم قال إن مسعوداً غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتل سفيان بن عمرو العقيلي.

مصعب بن محمد الوالبي[3]: كان مصعب من رؤساء الخوارج فغلبهم عمر بن هبيرة فاجتمعوا بالخورنق[4] وأمروا عليهم مصعباً ومعه أخته آمنة، فلما ولي هشام استعمل على العراق سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م)، خالد القسري فسير إليهم خالد جيشاً، وكان الخوارج قد وصلوا أعمال الموصل فقتل الخوارج.

الخوارج في عهد هشام بن عبد الملك:

صبيح الخارجي[5]: كان صبيح هذا غلاماً يرى رأي الخوارج، اشتراه سوار بن الأسعد المازني من سبي الأزارقة ثم أعتقه عندما أصبح رجلاً، فخرج في حاجة لسوار ومعه رجل من طيء فلما

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١١٨.

(2)

(3) المرجع نفسه - ج٥ - ص١١٩.

(4) الخورنق: قرية على نصف فرسخ من بلخ - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٠١.

(5) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٩ - ص٧.

كان وقت الصلاة صلى صبيح و لم يصل الطائي، فقتله صبيح وحكّم ثم اجتمع إليه بعض من يرى رأيه وخرج إلى هراة، وهناك أغار على ما حوله فقتل وأخذ إبلاً لبني سعد.

توجه السعديون إلى ضرار بن الهلقام بن نعيم التميمي عامل الجنيد بن عبد الرحمن على بعض خراسان، فخرج ضرار إليهم فلقيه صبيح في أربعمائة من أصحابه فانتصر صبيح ورجع إلى سجستان عند ذلك كتب خالد بن عبد الله إلى عبد الله بن بردة يأمره بطلب صبيح رجاءً أن يظفر به دون الجنيد عامل خراسان، في هذا الوقت كان صبيح قد نزل قرية فتمكن أهلها من أخذ صبيح أسيراً وقدموا به أسيراً على ابن أبي بردة وسلموه له بعد أن اشترطوا عليه حط الأتاوة عنهم، توجه به إلى خالد بالعراق فأرسله الأخير إلى هشام بن عبد الملك، فأراد قتله وصلبه فقيل له: إذا تتخذ الخوارج الرصافة دار هجره، فرده إلى خالد بالعراق فقتله وصلبه ثم قتل الجنيد باقي الخوارج التابعين له.

ويذكر البلاذري خبر خارجي آخر اسمه خالد في منطقة هراة وكان في جمع فمضى إلى مرو الروز وعليها ضرار بن الهلقام فأراد أن يعطيه شيئاً وينصرف فرفض عامة الناس هذا الرأي وجنبوه. بعد ذلك هاجمهم خالد بمن معه فقتل ضراراً وأكثر من كان معه، بعد ذلك مات خالد الخارجي بجراحه، وقيل مات حتف أنفه.

أرى أن هذا الحدث مرتبط بالذي سبقه، وأن خالداً تسلم قيادة الخوارج بعد قتل صبيح وقاد القوات، وكانت نهايته كما ورد في الخبر.

بهلول بن بشر (كثارة)[1] : كان سبب خروجه أن أراد الحج فأمر غلامه أن يبتاع له خلاً بدرهم فأتاه بخمر، فأمره برده وأخذ الدرهم فلم يجبه صاحب الخمر فجاء بهلول إلى عامل القرية وهي من السواد، فعرض عليه أمره فقال العامل: الخمر خير منك ومن قومك فغضب وعزم على الخروج، وتوجه للحج فلقي هناك من كان على رأيه، فانتقوا قريةً من قرى الموصل للاجتماع بها، فاجتمعوا بها وكانوا أربعين رجلاً، فأمروا عليهم بهلولاً وكتموا أمرهم، وكانوا يقولون إنهم قدموا من عند هشام بن عبد الملك على بعض الأعمال، فأخذوا البريد، ثم أتوا القرية التي رفض فيها الرجل أن يرجع الخمر فقتلوه، علماً أن هدف خروجهم كان قتل خالد القسري الذي كان يهدم الجوامع ويبني الكنائس ويولي المجوس على المسلمين، وينكح أهل الذمة المسلمات.

---

[1] البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ج٩ ـ ص١٥.

عندما علم خالد بخروجهم خرج من واسط إلى الحيرة، وبها جند قدموا من الشام مدداً لعامل فأمرهم خالد بقتال بهلول، ووعدهم ومناهم وكانوا ستمائة رجل، فالتقوا مع بهلول وأصحابه فهزم أهل الشام، وعلم خالد بهزيمة أهل الشام، فوجه إليهم قوةً من أهل الكوفة فهزمت، أما بهلول فارتحل إلى الموصل فكتب عامل الموصل إلى هشام بن عبد الملك يعلمه بخبرهم. ثم إن بهلولاً قرر التوجه إلى قتال هشام بن عبد الملك، فسير خالد القسري جنداً من العراق، وسير عامل الجزيرة جنداً من الشام، فاجتمعوا بدير بين الجزيرةً والموصل، فكانوا بحدود عشرين ألفاً، وأقبل بهلول إليهم، فالتقوا دون الموصل في مكان يعرف بالكحيل[1] فطعن بهلول ومات، وقتل نائبه، وقد استلم السلطة بعده وانتهى أمره.

البختري صاحب الأشهب[2]: خرج على خالد القسري ومعه ستون من أصحابه، فوجه إليه خالد السمط بن مسلم البجلي في أربعة آلاف فالتقوا بناحية الفرات فانهزمت الخوارج، فتلقاهم عبيد أهل الكوفة فرموهم حتى قتلوهم.

وزير السختياني[3]: خرج على خالد في نفر من أصحابه فكان يحرق القرى التي يمر بها، ويقتل من يمر به، فغلب على ما حوله، فوجه إليه خالد جنداً، فقتل عامة أصحابه وأتي به أسيراً إلى خالد فوعظه الأخير و لم يقتله، بل حبسه عنده، وكان يخرجه من السجن فيحادثه لأنه أعجبه، فعلم هشام بذلك، فأمر خالداً بقتله وإحراقه.

الصحارى بن شبيب[4]: خرج الصحارى بناحية حيل، وكان سبب خروجه أن قدم على خالد يسأله الفريضة، فمنعه، فسار الصحارى حتى قدم حيل، فدعا قوماً هناك فوافقوه وكانوا ثلاثين رجلاً فبلغ خبره خالداً، فوجه إليه جنداً فلقوه بناحية المناذر، فقتلوه وأصحابه.

عباد المعافري[5]: خرج باليمن سنة (١٠٦هـ - ٧٢٤م)، فقابله مسعود بن عوف الكلبي

---

(١) كحيل: موضع بالجزيرة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٤٣٩.

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص .

(٣) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص .

(٤) المرجع نفسه - ج٥ - ص .

(٥) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٩ - ص١١.

فلم يظفر به، فبقي باليمن إلى أن ولي يوسف بن عمر اليمن فقتله، كما خرج على يوسف بن عمر نفسه خارجي آخر اسمه زخاق بن عباد الحميري الأباضي، فبعث إليه يوسف قوةً تمكنت من قتله. كما خرج خوارج في ناحية البصرة عند منطقة اسمها موقوع[1] وكانوا تسعة عشر رجلاً وامرأة، وعامل البصرة آنذاك كما يذكر البلاذري القاسم بن محمد القاسمي فقتلوا وأسرت الامرأة، ويبدو أن خروج هؤلاء كان في آخر عهد هشام وبداية عهد الوليد بن يزيد. وخرج أيضاً خارجي آخر بالموصل في ثلاثة عشر رجلاً فوجه إليه المر بن يوسف بن محي بن الحكم قوة يقودها المستنير بن عجلان العنزي، فقاتلهم فظهر عليهم.

الخوارج في عهد مروان بن محمد:

الضحاك بن قيس الشيباني[2]: بعد مقتل الوليد خرج بالجزيرة حروري يقال له سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك، فاغتنم مقتل الوليد، وانشغال مروان بن محمد بالشام، فخرج بأرض كفرتوثا، وخرج بسطام البيهسي وهو مفارق لرأيه في مثل عدتهم من ربيعة، فسار كل واحد منهم إلى صاحبه، فتمكن سعيد من قتل بسطام وجميع من معه، ثم مضى سعيد إلى العراق وفي الطريق مات سعيد واستخلف الضحاك، فأتى أرض الموصل، ثم شهرزور، فاجتمعت عليه الصفرية حتى صار في أربعة آلاف مقاتل، ثم هلك يزيد بن الوليد، وعامله على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ومروان بالحيرة. في هذا الوقت اختلف أهل الكوفة، وكان الخلاف بينهم وبين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكان مروان على الحيرة، فكتب مروان إلى النضر ابن سعيد الحرشي بولاية العراق فلم يسلم عبد الله بن عمر.

فبقي ابن عمر بالحيرة، وشخص النضر إلى الكوفة فتحاربا أربعة أشهر، فلما سمع الضحاك باختلافهم أقبل نحوهم وقصد العراق سنة (١٢٧هـ - ٧٤٤م)، فاجتمع ابن عمر والنضر على قتال الضحاك الذي نزل النخيلة، بعد ذلك التقوا، وعاد ابن عمر إلى واسط، وعادت الحرب بينه وبين النضر من أجل ولاية العراق.

---

(1) البلاذري - أنساب الأشراف - ج٩ - ص١٣.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٧١٦ ومابعدها، ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٣٤.

أما الضحاك فانتقل من الكوفة إلى واسط بعد أن استخلف عليها ملحان الشيباني فقرر ابن عمر والنضر الإجتماع على قتاله مرةً أخرى، واستمر القتال بينهم أشهراً. في هذا الوقت قال منصور بن جمهور لابن عمر: لماذا نحاربهم ونشغلهم عن مروان أعطهم الرضا واجعلهم بينك وبين مروان، فرد ابن عمر: لا تعجل حتى تنظر، فلحق منصور بن جمهور بالضحاك وبايعه، بعد ذلك خرج ابن عمر إلى الضحاك أيضاً فبايعه في شوال سنة (١٢٧هـ - يوليو٧٤٥م)، معه سليمان بن هشام بن عبد الملك.

ثم إن أهل الموصل كاتبوا الضحاك ليقدم عليها، فسار حتى انتهى إليها وعليها لمروان أحد أصحابه، فلما وصل الضحاك فتح أهل الموصل أبوابها فدخلها الضحاك واستولى عليها وعلى كورها. في هذا الوقت كان مروان بن محمد محاصراً لحمص، فكتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين لمنع الضحاك من توسط الجزيرة، فسار عبد الله بن مروان في سبعة آلاف أو أكثر وسار الضحاك إلى نصيبين، فحصر عبد الله بها، كما وجه الضحاك قائدين من قواده إلى الرقة في أربعة آلاف، إلا أنهم فشلوا وعادوا. بعد ذلك سار مروان إلى الضحاك فالتقوا بنواحي كفرتوثا، فقاتله وحاصره مروان فتمكن من قتله وهزم عسكره.

الخيبري[1]: عندما قتل الضحاك بايع الخوارج الخيبري، وعاد القتال، فهزم مروان، ودخل الخيبري معسكره، ودخل خيمة مروان، علماً أن ميمنة مروان وميسرته لم تهزم، عند ذلك هاجمته الميمنة يقودها عبد الله بن مروان، فقتلوا الخيبري وهزمت الخوارج، فبلغ مروان هزيمة الخوارج فعاد إلى معسكره، أما الخوارج فولوا عليهم شيبان، فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف منذ ذلك.

أبو حمزة الخارجي[2]: اسمه المختار بن عوف الأزدي السلمي البصري وأصله من الخوارج الأباضية، وكان كل سنة يقدم مكة فيدعو الناس لخلع مروان وخلافه، واستمر على ذلك حتى التقى مع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق، فقال له: انطلق معي فإني رجل مطاع في قومه، فخرج من ورد حضرموت، فبايعه أبو حمزة على الخلافة، والعمل على خلاف مروان وآل مروان.

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٥٠.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٧ - ص٣٤٨.

ثم إن أبا حمزة الخارجي، توجه إلى الحج فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلا بمجموعة عليهم العمائم السود، فعلم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ عامل على مكة والمدينة، فطلب منهم الهدنة، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون على بعضهم بعضاً حتى ينفر الناس النفر الأخير، ونزل عبد الواحد بمنى ونزل أبو حمزة بقرى الثعالب، فأرسل عبد الواحد وفداً من قبله إلى أبي حمزة يبحثان معه أمر العهد والهدنة، فأخبرهم أنه لا ينقض العهد، ولكن تنقضي الهدنة بيننا وبينكم، فأعلموا عبد الواحد بذلك.

عند ذلك رحل عبد الواحد عن مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، ومضى عبد الواحد فدخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة عشرة، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، ثم التقى أبو حمزة مع أهل المدينة بقديد[1]، فهزم أهل المدينة ودخلها أبو حمزة في صفر سنة (١٣٠ هـ - أكتوبر ٧٤٧م)، أما عبد الواحد فمضى إلى الشام، وأقام أبو حمزة في المدينة ثلاثة أشهر.

بعد ذلك سار أبو حمزة إلى الشام، وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، وأمره أن يقاتل الخوارج، وأمره إذا انتصر عليه أن يتوجه إلى اليمن لقتال عبد الله بن يحيى طالب الحق. التقى جند أهل الشام مع الخوارج في وادي القرى، فانتصر جند أهل الشام، وانهزم أصحاب حمزة، وقتل أبو حمزة وأكثر أصحابه.

سار جند الشام بقيادة عبد الملك بن محمد إلى المدينة، فأقام بها شهراً ثم توجه إلى اليمن بعد أن استخلف على المدينة الوليد بن عروة بن محمد بن عطية، واستخلف على مكة، فلما علم عبد الله بن يحيى بذلك توجه بمن معه، فالتقى مع جند الشام، فقتل ابن يحيى وحمل رأسه إلى مروان، ومضى بجند الشام إلى صنعاء، فدخلها وأقام بها، فكتب إليه مروان يأمره أن يسرع إليه ليحج بالناس، فسار في إثني عشر رجلاً، فنزل الجرف[2]، فأتاه ابنا جهانة المراديان في جمع كثير، فقاتل عبد الملك بن محمد حتى قتل.

---

[1] قديد: اسم موضع قرب مكة - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٣١٣.

[2] الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص١٢٨.

شيبان الحروبي[1]: ذكرنا أن الخوارج كانوا قد بايعوه قبل قتل الخيبري، فأقام يقاتل مروان، ثم أشار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك أن ينصرفوا إلى الموصل، فارتحلوا إليها وتبعهم مروان، وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مروان يقاتلهم.

كتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قرقيسية بمن معه من أهل العراق وكان على الكوفة المثنى بن عمران العائذي وهو خليفة الخوارج عليها، فلقي ابن هبيرة فهزمهم أكثر من مرة، وتمكن من العراق.

ذكرنا أن منصور بن جمهور كان مع الخوارج، فانهزم وغلب على الماهين، وعلى الجبل أجمع أما ابن هبيرة فسار إلى واسط، فأخذ ابن عمر فحبسه، وسيطر على الأهواز، بعد ذلك كتب مروان إلى عمر بن هبيرة يأمره أن يرسل له عامر بن ضبارة المري، فسيره في سبعة آلاف، فعلم شيبان بذلك، فأرسل أحد قواده في جمع من الخوارج، فلقوا عامراً بالسن فهزموه ومن معه، فدخل السن وتحصن به، وجعل مروان يمده حتى كثر جمعه. في الوقت نفسه كان منصور بن جمهور يمد الخوارج. عندما كثر من مع عامر نهض إلى الخوارج فقاتلهم فهزمهم، وسار إلى الموصل، عندما علم شيبان بالأحداث خاف أن يقع بين معسكرين، فارتحل بمن معه، ثم قدم عامر على مروان بالموصل، فسير مروان عامراً في جمع في أثر شيبان، فوصل شيبان إلى جيرفت، وأقبل عامر، فاقتتلوا، فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم ومضى شيبان إلى سجستان فهلك بها سنة (١٣٢هـ - ٧٤٩م).

أخيراً نستنتج من دخول الأمويين في صفوف الخوارج كسليمان بن هشام وعبد الله بن عمر ابن عبد العزيز، وبعض ولاتهم كمنصور بن جمهور وغيرهم، أن الخوارج وحركاتهم كانت ضد الظلم من جهة، والدفاع عن آرائهم من جهة أخرى، يضاف لذلك نظرتهم للفوارق الطبقية التي ازدادت هوةً في العصر الأموي، كما كان للفوقية التي تعامل فيها الأمويون مع بقية الناس دور في الثورة ضدهم.

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣٥٣.

الفصل الخامس

الدعوة العباسية في العصر الأموي

الفصل الخامس

الدعوة العباسية في العصر الأموي

أصل الدعوة: أوصى عبد الله بن عباس أبناءه، أن يلحقوا بعبد الملك بن مروان في دمشق بعد وفاته، وإذا خيرهم[1] المكان، أوصاهم أن ينزلوا البلقاء في جنوب بلاد الشام. وبعد وفاة ابن عباس سنة (٦٨ هـ - ٧٠٥م) قدم ابنه علي إلى عبد الملك، فخيره عبد الملك، فاختار علي البلقاء، ومنها اختار الشراة، فالحميمة.

وبقي عبد الملك يكرمه حتى نهاية ولايته. وفي ولاية الوليد بن عبد الملك لم يكن لعلي الإكرام نفسه والتقدير الذي لقيه من عبد الملك. ثم إن علي بن عبد الله هلك في الشام أيام الوليد الثاني[2]، بعد أن عهد علي لابنه محمد، وأعطاه أسراره. فقام محمد داعياً، إلا أنه لم يبادر إلى الفرقة والانقسام، ولا نازع في فتنة، وكتم سره، وأخفى أمره، وأخذ يترقب الفرصة السانحة والوقت الملائم.

في ذلك الوقت، كان أهل خراسان يختلفون إلى أبي هاشم[3]، فلما مرض أمر أتباعه أن يتبعوا

---

[1] يذكر: أنه توفي سنة ١٧ هـ أيام هشام بن عبد الملك.

[2] تذكر بعض المصادر: أن علي بن عبد لله أراد أن يوصي لابنه محمد، فرفض محمد هذا، فأوصى لابنه سليمان. وقد قالت به الكيسانية، وهم منسوبون إلى المختار بن عبيد الله، وكان يلقب بكيسان. وهو أول من قال بإمامة محمد بن علي، وأن أباه أوصى له، بينما يذكر آخرون: أن الإمامة كانت للعباس عم النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم لابنه عبد الله ثم لابنه علي ثم لمحمد بن علي ثم لإبراهيم بن محمد، ثم لأبي العباس أول الخلفاء العباسيين ثم لأبي جعفر المنصور، ثم للمهدي... إلخ.

[3] هو أبو هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، ولم يكن له ولد ذكر.

محمداً هذا، علماً أن أبا هاشم كان قد دخل السجن من قبل الوليد بن عبد الملك، لتخاصمه مع زيد ابن الحسن بن علي، عندما اتهمه بالوشاية، وبأن له شيعة بالعراق وخراسان، إلا أنه أخلى سبيله لوساطة علي (زين العابدين) بن الحسين، وأمره بالمقام في بلاد الشام.

وقدم محمد بن علي إلى دمشق، فاجتمع عند فضالة بن معاذ، وكان هذا تاجراً ينزل دمشق باستمرار. ثم توجه أبو هاشم ومحمد بن علي إلى البلقاء، في الوقت الذي خلف فيه أبو هاشم سلمة ابن بجير في حاجة له بدمشق، وأمره أن يتبعه إلى البلقاء. وفي منزل محمد بن علي بالحميمة[1] توفي أبو هاشم[2]، ومعه بعض أتباعه[3]، وكان معه صحيفة صفراء[4]، دفعها إلى محمد بن علي. أما ابن بجير، فتوجه نحو البلقاء بعد انتهاء عمله، فوجد صاحبه قد توفي. ودعا محمد بن علي أصحاب أبي هاشم وابن بجير معهم، فبايعوه، ثم أخذ محمد يدون أسماء أصحابه[5]، وكان بعضهم من بني مسلية، حيث يذكر: أنهم تولوا أمر الدعوة في بدايتها.

ترك أصحاب الدعوة البلقاء، فمرض ابن بجير، وهو رئيسهم، ومات، فتسلم قيادتهم أبو رباح ميسرة النبال. أما إبراهيم بن سلمة، فبقي عند محمد بن علي، بينما توجه الآخرون نحو الكوفة، حيث كان اجتماعهم في بني مسلية عند سالم وأصحابه. وستروا أمرهم حتى كانت سنة مائة للهجرة، وعددهم في الكوفة لا يبلغ ثلاثين رجلاً.

ثم إن أبا رباح مرض، ومات، فتولى أمرهم سالم، فكتبوا إلى محمد بن علي يخبرونه بأحوالهم، وأرسلوا كتبهم مع بكير بن ماهان.

توجه بكير إلى دمشق بصفة تاجر عطر، حتى وصل الحميمة، ودخل على محمد بن علي، بعد أن رآه إبراهيم بن سلمة ـ وكان يعرفه ـ فأخذ محمد الكتب، وقرأها. وعلم: أن عدد أتباعه

---

(1) يذكر: أنه توفي بالسراة.

(2) يذكر: أن الوليد دس إليه بشخص من دمشق، فسقاه شربة لبن مسموم، فكان موته بذلك (أخبار الدولة العباسية ـ ص١٨٨).

(3) أبو رباح ميسرة النبال، أبو عمرو البزار، محمد بن خنيس، أبو بسطام مصقلة الطحان، حيان العطار، إبراهيم بن سلمة.

(4) مؤلف من القرن الثالث الهجري ـ أخبار الدولة العباسية ـ طبعة بيروت ١٩٧١ ـ ص١٨٤.

(5) سجل في ديوانه: سالم بن أبجر، أبا هاشم بكير بن ماهان ـ حفص بن سليمان، أبا سلمة الخلال، وهم من بني مسلبة، ثم رهط عامر ابن إسماعيل هم: ميسرة الرجال، موسى بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني، معن بن يزيد الهمداني، منذر بن سعيد الهمداني وغيرهم.

ثلاثون رجلاً، فدفع إليه مالاً، قدره مائة وتسعون ديناراً، جمعها من أهل الكوفة، وطوقاً من ذهب، وثوباً، فكان ذلك أول مال، تحمله شيعة بني العباس له.

واتفق محمد بن علي مع بكير بن ماهان على أن يكون فضالة بن معاذ واسطة، ترد عليه كتبهم وكتبه، فيوصلها إلى الطرفين، أي أن يكون بمنزلة بريد بين الطرفين. ثم أخبر بكير بن ماهان محمد بن علي عن بعض أصحابه في خراسان[1]، عندما كان يحارب مع المهلب في فتح جرجان، ومن هؤلاء: قيس بن السري، وأبو عامر إسماعيل وبشر بن النهيد، وقد بايعوه على مثل هذه الدعوة، كما أخبره: أنه التقى مع سليمان ابن كثير، وقد بايعه أيضاً.

توجه بكير نحو العراق، بعد أن أوصاه محمد بن علي بكتم أسرار الدعوة، بينما توجه محمد إلى الصائفة، وكان ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز. وقدم بكير الكوفة، فلقي سالماً وأصحابه، وأبلغهم رسالة محمد بن علي في إنفاذ كتبهم ورسلهم إلى فضالة بن معاذ. وبعد ذلك توجه بكير إلى خراسان، ومعه سعيد الحرشي، ومنها إلى السند فسجستان، ثم انحدر نحو السند، حتى وصل إلى صاحبه سليمان بن كثير. وكان سليمان أول من عرف الدعوة بخراسان، ثم يزيد بن النهيد، وقيس ابن السري، كما بايعته جماعة من خزاعة.

ثم إن بكير بن ماهان جمع شيعة بني العباس، مع سليمان بن كثير، وقال لهم: إنه يريد أن يختار دعاته منهم، كما فعل موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وقال: إن النقباء إنما هم على من بمرو، ومن أتاها مجيباً لمن فيها من دعاتكم. وأما سائر الكور، فلكل داعية فيها نصيب، يختار لنفسه أمناء من أهلها، ثم إنهم أجمعوا على اختيار النقباء الاثني عشر من أهل مرو[2].

---

[1] كان محمد بن علي قد قال لبكير: ما ترى في فضالة؟ أخبره، علماً بيني وبينكم، تردد عليه كتبكم، فينفذها إلي، وترد عليه كتبي إليكم، فينقلها. ثم إن محمد بن علي جمع بين بكير وبين فضالة، وقال له: إذا أتاك رسوله أو رسول أصحابه أو كتبهم، فانقلها إلي، ومتى كتبت إليهم بشيء، فعجل نقله إليهم.

قال بكير بن ماهان: لقيت رجلاً، يقال له قيس بن السري بجرجان، ومعي قيس بن السري، وأبو عامر إسماعيل، وهما يريدان الحج، فلما قدما الري، خرج منهم قوم من خراسان، ومنهم سليمان بن كثير، فبايعه على ما بايعه ابن النهيد، وكان هذا قد بايعه على دعوة بني العباس وأمرهم.

[2] أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي - أبو التميم عمران بن إسماعيل، أبو محمد سليمان بن كثير، أبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، أبو منصور طلحة بن زريق أبو الحكم عيسى، أبو حمزة عمرو بن أعين، أبو داوود خالد بن إبراهيم الربعي، أبو علي بن طهمان، أبو عتبة موسى بن كعب، أبو جعفر لاهز بن قريظ أبو سهل بن مجاشع.

ثم اختاروا باقي السبعين[1] دعاة، منهم أربعون رجلاً من أهل مرو، ومن أهل نسا ستة رجال، وسبعة من أهل أبيورد، ورجلان من أهل بلخ، ورجل من أهل مرو الروز ومن أهل خوارزم رجل، ومن أهل أمل رجل. فيكون بمجموعهم سبعين[2]. هذا ويذكر: أن الدعاة غير النقباء، وكان عددهم سبعين دون النقباء، ثم اختاروا نظراء للنقباء، ويقال: إن عددهم عشرون[3]، واختاروا أيضاً دعاة الدعاة، حيث يروى أن عددهم سبعة وثلاثون رجلاً.

ثم إن بكير بن ماهان أخذ البيعة على من حضر، ثم جمعوا مالاً كثيراً، وقدم بكير على إمامهم محمد بن علي، ومعه بعض أصحابه[4]، حيث خلف على شيعتهم سليمان بن كثير، فتوجه هذا نحو الكوفة، ومنها إلى الحميمة مقر الدعوة المركزية السري، وكان بصحبته أبو سلمة، فلدفع لمحمد بن علي ما قدم به، وأخبره بما هو عليه، واختياره للنقباء والدعاة وغيرهم.

حذر محمد بن علي بكيراً من أمر زيد بن علي وأنصاره، ومضى بكير وأصحابه نحو خراسان، فبدأ بجرجان، ثم توجه إلى مرو، فنزل على كامل بن المظفر، وأتته شيعة بني العباس، حيث تحدث إليهم عن أخبار إمامهم. وأتت عيون نصر بن سيار، فأخبروه بمكان بكير. وقال نصر لمن حضر مجلسه: من يأتيني بخبر الرجل؟ فقال عبيد الله بن بسام: أنا آتيك بصحة خبره[5].

فانطلق بأمر نصر بن سيار، بعد أن أوفد أمامه رجلاً إلى بكير، يأمره بالتنحي عن مكانه، لأن نصراً أميرهم قد وجهه في طلبه. في الوقت نفسه أرسل نصر أحد أتباعه يترقب أعمال عبيد الله، ويكون عيناً عليه.

فتوجها، حتى قدما منزل كامل بن مظفر، وكان بكير قد تركه إلى منزل خالد بن عثمان، فدخل عبيد الله بن بسام، وأمين نصر، فنزلا منزلاً كاملاً، وفتشاه فلم يجدا فيه أحداً، ثم مضى عبيد الله بن بسام إلى الصيد، بينما انصرف الآخر إلى نصر بن سيار، فأخبره: بأن قضية بكير كاذبة وباطلة، وليست بصحيحة.

---

[1] مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري - ص٢١٦.

[2] نقباء ١٢، بقية الدعاة ٤٠ من مرو + ٦ + ٧ + ٢ + ١ + ١ + ١ + ١ = ٧٠.

[3] مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري - ص٢٢٠.

[4] من أهل مرو: أبو حميد، أبو إسماعيل، صبيح، الأزهر بن أشعب، ثم أبو سلمة.

[5] كان قد أجاب دعوة بني العباس، وكان على علاقة وطيدة بنصر، وكان من ثقاته.

أما بكير، فأقام هناك شهراً، ووجه دعاته إلى الأمصار، ثم انصرف إلى العراق، ومنها إلى صاحب دعوتهم. وقد قال محمد بن علي لبكير بن ماهان يوصيه: (هذا إبراهيم ابني، لكم فيه خلف صدق) ثم مرض محمد بن علي، وتوفي سنة (١٢٤ هـ - ٧٤١م)[1].

بعد ذلك توجه بكير بن ماهان إلى خراسان ماراً بالكوفة، ومعه كتاب إبراهيم الإمام إلى شيعتهم هناك، ينعي فيه محمد بن علي، وبطاعة بكير بن ماهان، وتابع بكير مسيره، فوصل إلى جرجان، وفيها اجتمعت الشيع عليه، فنعاهم محمد بن علي، وأخبرهم: أن ابنه إبراهيم هو زعيم الدعوة بعده، ودفع لهم كتاب إبراهيم الإمام، وأقام معهم شهرين، ثم عاد، وبصحبته بعض أصحابه[2] فقدموا الكوفة، وفيها بلغهم موت هشام واستخلاف الوليد سنة (١٢٥ هـ - ٧٤٢م).

ثم توجهوا إلى مكة، ومعهم أبو سلمة، فاجتمعوا مع إبراهيم الإمام، ودفعوا له مالاً، ثم توجهوا معاً إلى منزل إبراهيم بالسارة، ثم مضى بكير، فلقي أصحاب الدعوة، وحدثهم عن فضل إبراهيم الإمام. وكان إبراهيم قد أوصى بكيراً: أنه إذا دخلت السنة المئة والثلاثون للهجرة، فمعنى ذلك ظهور الدعوة، وأن السواد هو لبس رجال الدولة وشعارهم.

توجه بكير، ومعه أبو سلمى إلى الكوفة، فلما قدمها، تعلق به دائنون له، وحبسوه في دين، كان لهم عليه، بعث أبا سلمى إلى خراسان، ودفع له ثلاث رايات سوداً، وأمره أن يعطي واحدة إلى أصحابه بمرو، وواحدة إلى من بجرجان، وأخرى إلى من وراء النهر.

توجه أبو سلمى إلى خراسان، فكان أول من قدمها بالرايات السود، ثم دفع الراية في جرجان إلى أبي عون، وبعث براية إلى سليمان بن كثير في مرو، وأرسل إلى ما وراء النهر بالراية الثالثة، وأقام هو بمرو.

تمكن أبو سلمى من نشر الدعوة، وبث دعاته ورسله، حتى قويت الدعوة هناك، ثم قدم إلى الكوفة، فلقي بكيراً محبوساً[3]، فدفع المال إلى دائنيه، وأخرجه من السجن، حيث مرض، ومات. ثم أوكل أمر الدعوة ودعاتها إلى أبي سلمى، وفي أيام سجن بكير كان أبو سلمى قد تعرف على أبي

---

[1] يذكر: أن بكير بن هامان توجه إلى منزل أبي الحكم عيسى بن أعين، عندما ترك منزل كامل بن مظفر.

[2] يذكر: أنه توفي سنة ١٢٥ هـ في أرض الشراة في أرض الشام، وهو ابن ست وستين سنة، ويذكر: أنه توفي سنة ١٢٢ هـ.

[3] كان أبو سلمى زوج بنت بكير بن ماهان.

مسلم الخراساني، وعرفه بالدعوة، واختلط أبو مسلم بأهل الدعوة، وكان أبو مسلم قد ولد في منزل عيسى بن معقل العجلي في إمارة خالد بن عبد الله القسري، حيث حبس خالد عيسى بن معقل بالكوفة، لأن بيته كان معقلاً للصوص، وكان أبو مسلم معه آنذاك يخدمه"[1].

كما كان خالد قد وضع في السجن بعض شيعة أهل العباس من الكوفة، وبعضهم الآخر من خراسان، حيث بعث إليه بهم أسد بن عبد الله. ويذكر أيضاً أن: أبا سلمى اشترى أبا مسلم من إدريس بن معقل الأصبهاني بسبع مائة درهم.

قدم أبو سلمى على إبراهيم الإمام، وبصحبته أبو مسلم، حيث وصى إبراهيم بأبي مسلم خيراً، ثم توجه أبو سلمى إلى خراسان، ومعه أبو مسلم، فنزل جرجان، واجتمع بأصحابه فيها، وأمرهم أن يستعدوا، وأن يظهروا دعوتهم سنة (١٣٠ هـ ــ ٧٤٧م)، وأن يجعلوا ثيابهم وراياتهم سوداً.

ثم توجه إلى مرو ماراً بنساء، ومنها وفد إلى أبيورد، ثم إلى مرو، حيث أمرهم بالاستعداد، وانصرف بعد أن وكل بهم سليمان بن كثير، وبعث أبا مسلم إلى بلخ، أما هو، فتوجه إلى العراق.

فقدم الكوفة، وغلب الضحاك الخارجي، الذي كان والياً عليها، ثم توجه إلى الحميمة، حيث يسكن إبراهيم الإمام، وطلب إبراهيم من أبي سلمى أن يترك له أبا مسلم، فتركه عنده، ثم توجه أبو سلمى نحو العراق، ومنها: تتابعت الكتب إلى سليمان بن كثير وأصحابه بخراسان بالاستعداد، أما إبراهيم الإمام، فوجه أبا مسلم إلى خراسان بكتاب، يأمر فيه أبا سلمى بالإقامة بالكوفة، وجعل له ولاية ما دون عقبة همدان من أرض العراق فالجزيرة فالشام. وجعل ولاية أبي مسلم ـ إن ظهر ـ ولاية خراسان وسجستان وكرمان وجرجان والري وأصبهان وهمدان، وأمره بمكاتبة أبي سلمى.

---

[1] كان أبو مسلم يسمع الشيعة، وهم في السجن، يتذاكرون بالدعوة، كما كان من في السجن يرسلونه في حوائجهم، ويبلغ أهل الكوفة رسائلهم، فعظم قدرهم، ثم وجهوا إلى إبراهيم الإمام رسولاً، فلما قدم عليه، أعجبه، فسماه عبد الرحمن، وكناه بأبي مسلم. وكان قبل ذلك قد سمي:، ويكنى أبا إسحاق. ثم كتب إبراهيم الإمام، وأرسل معه إلى شيعته، أنه قد سماه، وكناه، وأمرهم: أن يجعلوه رسولهم إليه، وألا يرسلوا غيره.

توجه أبو مسلم، حتى دخل مرو سنة (١٢٩ هـ ـــ ٧٤٦م)، فاجتمع عليه النقباء ورجال الشيعة في منزل سليمان بن كثير، حيث وضع كتاب إبراهيم الإمام نصب أعينهم.

حينئذ ضرب سليمان بن كثير أبا مسلم، فجرح جبينه، وكان النقباء والدعاة وبقية أتباعهم يرغبون أن تضعف مكانة سليمان بن كثير، فاجتمعوا هناك، واتفقوا على أن يكون أبو مسلم قائدهم، وبذلك خذلوا سليمان بن كثير، ثم بايع أبا مسلم النقباء وأصحابهم وبايع سليمان مثل أصحابه[1].

ثم اجتمع أبو مسلم مع سليمان بن كثير، وقرأ له ما كتب به إليه من قبل الإمام إبراهيم: «إن قبل سليمان بن كثير بأمر الدعوة، ونصب نفسه لذلك، فسلم له، وإن كره قبول القيام، فلا تعص لسليمان أمراً».

إظهار الدعوة وانتصارها:

ثم اتفق أبو مسلم مع سليمان على إرسال الكتب إلى الدعاة، ليتأهبوا، ويستعدوا وذلك سنة (١٣٠ هـ ـ ٧٤٧م)، ثم عقدا مجلساً، قررا فيه المكان، الذي يجب أن تبدأ به الدعوة، وكان قرارهما أن تظهر بمرو. ثم اجتمعت شيعة بني العباس، فكثر سوادهم عند أبي مسلم، وهم في قرية، يقال لها: شفير، وهي قرية سليمان بن كثير.

بلغ نصر بن سيار اجتماعهم، وهو يحارب علي بن الكرماني، فحاول نصر وقف الحرب بينهما بالوسائل السياسية أكثر من مرة، إلا أنه فشل في جميع محاولاته، لأن أبا مسلم كان قد استمال علي بن الكرماني وأتباعه. ثم جرت مراسلات بين نصر بن سيار وبين أبي مسلم، انتهت جميعها إلى الفشل، علماً أن نصراً كان يحاول الإساءة للدعوة[1].

واجتمعت شيعة بني العباس من كل مكان حول أبي مسلم، عند ذلك كتب نصر إلى مروان ابن محمد يخبره بذلك. ثم وقعت الحرب بين أبي مسلم وبين نصر، حيث لم تجد أية وساطة سياسية. وكانت كتب أبي مسلم إلى نصر، فيها تكريم في البداية، إلا أنه عندما رأى منه شدةً ونكراناً تغيرت لهجته، ثم كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يقول:

---

[1] مؤلف مجهول في القرن الثالث الهجري ـ ص٢٧٢.

[1] كقوله وأتباعه وخصوم الدعوة العباسية: (إن أصحاب الدعوة لا يصلون، وأنهم يعبدون السنانير وغيرها من دعاوى باطلة).

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب: ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام؟

ووصف نصر إلى مروان أمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وجعل اليمانية وربيعة أمرهم إليه، فكتب مروان إلى نصر يقول له: إني قد وجهت عامر بن ضباره، ونباتة بن حنظلة للحاق بك، وأكد له توقع القوة والإمداد. أما أبو مسلم، فقدمت عليه وجوه اليمن وربيعة ومضر ممن في عسكر نصر، ثم اجتمع أبو مسلم مع علي بن الكرماني تأكيداً على اتفاقهما معاً ضد بني مروان، أينما كانوا. فازداد أبو مسلم قوةً ونشاطاً، وارتفعت الروح المعنوية لديه، بينما ازداد نصر وهناً وضعفاً، وانهارت الروح المعنوية لدى مقاتليه، ثم أمر أبو مسلم على مرو شبيب بن طهمان.

وأمر دعاته أن ينتشروا في البلاد، ويدعوا الناس إلى الدعوة، وعلم نصر بن سيار باستفحال أمرهم، فكتب إلى مروان بن محمد يظهر له حاله وضعفه، وكيف أصبح، لا مال ولا رجال، ولا مكيدة. فجمع نصر وجوه أصحابه لمجلس حرب، إلا أن مجلسه انفض دون قرار، ثم كتب نصر إلى مروان يقول:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم ... ليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تنصبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أطاف بكم ... فأين غاب الحجا والرأي والأدب؟
ذروا التفرق والأحقاد، واجتمعوا ... ليوصل الحبل والأصهار والنسب

كانت مرو أثناء ذلك قد انقسمت قسمين، أحدهما: مع أبي مسلم، والآخر: مع نصر بن سيار. بعد ذلك ملك أبو مسلم دار الإمارة، ومعه علي بن الكرماني، وبايعه الناس، فبلغ نصراً ذلك، فقال لأصحابه من وجوه وأشراف مضر: هذا اليوم نعيت إليكم فيه أنفسكم، كونوا مع الناس، ثم هرب. أما أبو مسلم، فركب في طلبه، عندما علم بهروبه، إلا أنه لم يستطع اللحاق به، وكتب أبو مسلم إلى أبي سلمى باستيلائه على مرو، كما كتب بذلك إلى إبراهيم الإمام.

أما نصر، فقدم نيسابور، حيث انضم إليه من هرب من أبي مسلم، ولم يبايعه، وكتب إلى ابن هبيرة، وهو على العراق، وكان يختلف معه، وكان ابن هبيرة يكره تأمير نصر بن سيار، كتب نصر إلى هذا يعلمه بموضعه، ويطلب منه الإمداد والعون. علم أبو مسلم بموضع نصر بن سيار، فوضع له عيوناً وجواسيس، يلاحقون أخباره، وأخبار جماعته، أثناء ذلك وصلت رسالة من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم، يأمره فيها بتولية قحطبة بن شبيب الطائي[1]، والمسير بالجنود إلى العراق.

خرج قحطبة، فأقام في منطقة الواتحان من أبيورد، فخندق على من معه، حتى انتهى فصل الشتاء، وأصبحت الطرق سالكة، ثم بعث إليه أبو مسلم الجنود والسلاح والمؤن، وأمره: أن يرسل بسام بن إبراهيم، ومعه حازم بن خزيمة فيمن معهم إلى سرخس كمقدمة له.

وتمكن قحطبة من سرخس، بعد أن وقعت معركة بينه وبين شبيب بن سلمة الحروري، ومعه ما يقارب ثلاثة آلاف، حيث قتل، وهزم أصحابه. ثم أرسل قحطبة بكتاب إلى أبي مسلم، يعلمه بفتح سرخس، فكتب له أبو مسلم: أن يأتي طوس من أعلاها. كما كتب إلى القاسم بن مجاشع: أن يأتيها من أسفلها، وكان في طوس النابي بن سويد العجلي، الذي كتب إلى نصر بن سيار مستنجداً، فوجه إليه ابنه تميماً، كما كتب إليه: أنه شاخص إليه بنفسه، ومن كان معه.

أما نباتة بن حنظلة، فكان قد قدم الري، وعلم: أن قحطبة موجود بطوس، وهناك جرت معركة بين تميم بن نضر، والنابي، وبين قحطبة على خصومه، فهزمهم، وقتل تميم في المعركة، ثم كتب قحطبة إلى أبي مسلم يعلمه بذلك. وخلت نيسابور من جند بني أمية، فخرج نصر منها، وتوجه إلى قرية، يقال لها: موروشك.

أثناء ذلك كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد يطلب منه العون والمدد، فكتب له مروان بأنه: قد أرسل له جمعاً كثيراً من أهل الشام. وجه قحطبة العكي إلى نيسابور، فقدمها، ثم كتب إلى أبي مسلم، يذكر له دخوله نيسابور، أما نباتة بن حنظلة، فتوجه إلى جرجان من الري. أثناء ذلك أمر أبو مسلم قحطبة أن يمضي إلى نصر، إلا أنه توجه نحو نباته بن حنظلة، لأن خطره كان أكبر.

---

[1] كان قحطبة الذي أخذ كتاب أبي مسلم إلى إبراهيم الإمام يعلمه فيه الاستيلاء على مرو، وانتصار الدعوة العباسية وقوتها. وهو أحد النقباء أيضاً، وله مكانته بين قومه، التي ساعدته على نشر الدعوة وانتصاره.

وكتب بذلك إلى أبي مسلم، فتمكن منه ومن الاستيلاء على جرجان، ثم وجه قحطبة ابنه الحسن من جرجان على مقدمته نحو قومس، فنزل بسطام مدينة قومس، فتمكنوا منها أيضاً. وكان قحطبة كلما فتح بلداً، استخلف عليه أسيد بن عبد الله الخزاعي، ثم أرسل أبو مسلم عاملاً عليه، بدلاً من أسيد الذي التحق بقحطبة فوراً.

وتوالت انتصارات العباسيين، فتم فتح طبرستان والري.

ثم مات نصر بن سيار، فاستخلف ابنه سيار بن نصر بعده.

أما قحطبة فتمكن من فتح أبهر وهمدان، ثم فتح قم وأصبهان، حيث وقعت معركة جابلق، وكان فيها على ميمنة قحطبة العكي، وعلى ميسرته أبو غانم عبد الحميد بن ربعي، كما جعل عامر ابن إسماعيل على المؤخرة، مع شراحيل ليكون رداء له، ووقف قحطبة مع أصحابه في القلب على هذه التعبئة. أما ابن ضبارة، فقد صف أصحابه، وجعل على ميمنته محمد بن نباتة، وعلى ميسرته عطيف بن بشر، وكانت راياتهم صفراء.

كانت نتيجة المعركة انتصار قحطبة، وهزيمة ابن ضبارة، ثم تابعوا زحفهم، فدخلوا نهاوند، ومنها إلى قرماسين ثم إلى شهرزور، وكانت خصومهم تخسر المعركة تلو الأخرى. أمر أبو سلمة قحطبة التوجه نحو الكوفة، وأخبره: أن خالد بن أسيد القسري خلع بني أمية، وخرج بالكوفة مع أبي سلمة. ثم إن قحطبة التقى مع أهل الشام، فانتصر عليهم، إلا أنه قتل، ويذكر بعضهم: أنه غرق، وتسلم ابنه الحسن قيادة الجند.

وبعد ذلك تم فتح الكوفة، حيث ظهر أبو سلمة فيها، وألقى خطبة ووزع عماله، كما يلي: أبو الجهم: تسلم ديوان الجند، عبيد الله بن بسام: ديوان الحرس، وتسلم أبو غانم: الشرطة، عمرو ابن الزيات: حجابته، المغيرة بن الريان: الخراج. ثم نقله إلى ديوان الرسائل. يوسف بن ثابت: ديوان الخراج، الصوافي والخزائن: عبد السلام بن عبد الرحمن الغامدي، ثم بعث أبا سلمى إلى بيت المال، فوزع ما فيه على العسكر، وأعطى الجند جميعاً على ما رسم لهم. وكان أول من أعطى فيضاً من ديوان بني العباس، وهو فرض، فرضه للجند، حيث جعل رزق الرجل في الشهر ثمانين درهماً. وأجرى للخاصة كبراء القواد، وأهل الغنى من النقباء وغيرهم ما بين ألف إلى ألفين، وخص

من دونهم ما بين مائة إلى ألف درهم.

وبعث أبو سلمة عمال الخراج إلى كل كورة، فجيء بالخراج، أثناء ذلك كان إبراهيم الإمام قد قتل في سجن مروان، وكانت له وصية إلى أبي العباس السفاح، الذي توجه إلى الكوفة، وكان أول خلفائها وبداية للدولة العباسية.

أخيراً تكمن عوامل قوة الدعوة العباسية في ضعف بني أمية. فعند اغتيال الوليد، استخلف يزيد فلم يلبث إلا طويلاً، فهلك، ووثب على أمرهم مروان بن محمد، فأخذ السلطة غصباً.

أما العوامل الأخرى فتكمن في: انتفاضة البلاد على بني أمية، وتفتت أمرهم ووثوب بعضهم على بعض، ثم خلاف اليمانية وغيرهم من القبائل على نصر بن سيار بخراسان، والحروب بين نصر والخوارج، وحروب مروان بن محمد لأهل حمص وأهل فلسطين، والخوارج، ثم ظهور الدعوة العباسية، وميل الناس إليها، وازدياد قوتها، بالإضافة لمخالفة سليمان حبيب بن المهلب بالأهواز، وغلبة عبد الله بن معاوية على فارس وأصبهان والري، وغلبة منصور بن جمهور الكلابي على الجبل، وأخيراً ظهور أبي مسلم الخراساني، وانتصار الثورة العباسية.

الفصل السادس

ولاة جند الشام في العصر الأموي

الفصل السادس

ولاة جند الشام في العصر الأموي

بلاد الشام: كانت بلاد الشام في العهد الأموي وحدة متراصّة، إلا أنها من الناحية الجغرافية كانت مقسّمة إلى أجناد: دمشق ـ حمص ـ الأردن ـ فلسطين، ثم كانت قنسرين.

دمشق: لم يشتهر ولاتها أي في الأحداث الداخلية، ومن خلال البحث والتدقيق استطعت الحصول على بعض الولاة لكن بدون تسلسل زمني، إلا أني استطعت معرفة كل وال منهم في عهد أي خليفة كان، والمصادر والمراجع حول هذا الموضوع لا تفي بحاجة الباحث للوصول إلى قائمة دقيقة مرتبة، أما فما استطعت الحصول عليه هو على النحو التالي:

أولاً ـ ولاة دمشق:

في عهد معاوية:

١ـ يزيد بن نبيشة العامري القرشي[1]: أمّره معاوية على دمشق في بعض خرجاته عنها.

٢ـ خالد بن الحجاج بن علاط السلمي[2] ـ كان أميراً على دمشق في عهد معاوية.

٣ـ قيس بن حمزة[3] بن مالك بن سعد بن حمزة: من عمال معاوية على شامات الأردن، يزيد

---

(1) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص١١٥.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١٦ ـ ص١١.

(3) المرجع نفسه ـ ج٤٩ ـ ص٣٧٨.

ابن الحر العبسي ـ عمل على شرطة معاوية.

٤ـ الضحاك بن قيس الفهري[1]: كان على دمشق عندما مات معاوية، ـ سفيان ابن مجيب الأزدي[2] ـ استعمله معاوية على بعلبك.

في عهد يزيد بن معاوية:

١ـ الضحاك بن قيس الفهري[3]: أعتقد أنه بقي أميراً لدمشق طيلة حياة يزيد بن معاوية.

٢ـ عبد الله بن مسعدة الفزاري[4]: كان أميراً على جند دمشق عندما وجه يزيد بن معاوية مسلمة بن عقبة إلى حرب ابن الزبير.

مروان بن الحكم:

١ـ الضحاك بن قيس[5]: كان أميراً على دمشق، قتل في مرج راهط من قبل مروان بن الحكم، وكان يدعو لابن الزبير.

٢ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان[6]: أبو مطرف الثقفي ـ المعروف بابن الحكم ـ يذكره الصفدي بأنه تغلب على دمشق لما خرج عنها الضحاك إلى مرج راهط ودعا لمروان بن الحكم. أعتقد أن الصفدي أخطأ في ذلك لأن كل المؤرخين يذكرون يزيد بن أبي النمس في مثل هذا الحدث. وابن الحكم كان على دمشق عندما خرج عمرو بن سعيد الأشدق على عبد الملك بن مروان وقتل.

٣ـ يزيد بن أبي النمس[7]: يذكر الطبري أن يزيد بن أبي النمس الغساني لم يشهد الجابية، وكان مختبئاً في دمشق، فلما نزل مروان مرج راهط ثار يزيد بن أبي النمس بأهل دمشق في عبيدها، فغلب عليها، وأخرج عامل الضحاك منها، وغلب على الخزائن وبيت المال، وبايع لمروان، وأمده

---

(1) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٦٥، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص٢٨٩.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢١ ـ ص٣٥٢، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص١٨٩ ـ ج٢٥ ـ ص٢١٩.

(3) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥١.

(4) الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص٥٣١، اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥٥.

(5) المرجع نفسه ـ والصفحات نفسها.

(6) الصفدي ـ أمراء دمشق في الإسلام ـ ص٧٢.

(7) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٥٣٧.

بالأموال والرجال والسلاح.

٤ـ عمرو بن سعيد الأشدق[1]: ولي أمرة دمشق في عهد مروان، وكانت قد رسمت له في مؤتمر الجابية، وعلى أن يلي الخلافة بعد خالد بن يزيد الذي عين ولي العهد.

عبد الملك بن مروان:

ـ عبد الرحمن بن أم الحكم[2]، استخلفه عبد الملك على دمشق عندما توجه إلى العراق.

ـ عمرو بن سعيد الأشدق[3]: ثار على عبد الملك، واحتلّ دمشق وطرد منها عامل عبد الملك عبد الرحمن بن أم الحكم.

وفي عهده كان محمد بن عمر الثقفي[4] على البلقاء، وكان سحيم بن المهاجر[5] والياً على طرابلس.

الوليد بن عبد الملك:

١ـ خالد بن برز العبسي[6] ولاّه الوليد بن عبد الملك دمشق.

٢ـ عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك[7] (أبو الأصبغ القرشي الأموي)، ولي امرة دمشق في عهد أبيه، وبقي والياً إلى أن مات الوليد.

في عهده ولي أبو خراسان بن تميم الفارسي[8] غزو البحر في خلافة الوليد، وكان يكون ببيروت وطرابلس من ساحل دمشق، فبيروت كان عليها أبو خراسان، وقيل: كان سفيان الفارسي على سفن حمص بمدينة اللاذقية، وأبو خراسان على سفن دمشق بمدينة طرابلس، وسفن الأردن، وفلسطين بعكا.

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٥٣٧.

(2) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٩٦.

(3) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٩، خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٢٩٩.

(4) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٢٩٨، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢ ـ ص١٤٤.

(5) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١ ـ ص١٤٤، ابن العديم ـ بغية الطلب ـ ج٩ ـ ص٤١٨٧.

(6) المرجع نفسه ـ ج١٦ ـ ص٢، ابن حزم الأندلسي ـ جمهرة أنساب العرب ـ ص٢٥٠.

(7) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٤، خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٣١١.

(8) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٦ ـ ص١٥٩.

سليمان بن عبد الملك:

١ـ محمد بن سويد بن كلثوم[1] بن قيس الفهري: كان أميراً على دمشق من قبل سليمان بن عبد الملك، وقال ابن عساكر كان أميراً لدمشق سنة ٩٦هـ، وبقي والياً عليها إلى أن استخلف عمر ابن عبد العزيز، وقيل في سنة ٩٦هـ ولي محمد بن سويد على دمشق وأرضها، وبقي والياً عليها إلى أن مات سليمان بن عبد الملك.

٢ـ مسلمة بن حبيب بن مسلمة الفهري[2]: كان أميراً على جند دمشق مع مسلمة بن عبد الملك في حصار القسطنطينية.

عمر بن عبد العزيز:

١ـ عثمان بن سعيد العذري[3]: يذكره الصفدي، وقد ولي دمشق من قبل عمر بن عبد العزيز.

٢ـ عبد بن الخسحاس العذري[4]: يذكره خليفة بن خياط أميراً على دمشق.

٣ـ محمد بن سويد الفهري[5] يذكره ابن سعد والياً على دمشق.

٤ـ عمير بن هاني أبو الوليد العنسي[6]: ولي جباية خراج دمشق أيام عمر بن عبد العزيز.

٥ـ الضحاك بن عبد الرحمن[7] بن عرزب (عرزم) أبو عبد الرحمن الأشعري: استعمله عمر بن عبد العزيز على دمشق، مات عمر بن عبد العزيز وهو على دمشق، وقال ابن عساكر: ولي دمشق لعمر بن عبد العزيز، وليزيد بن عبد الملك.

---

(1) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٩٤، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٣ ـ ص١٥٣؛ تهذيب الكمال ـ ج١٦ ـ ص٣٢١، تهذيب التهذيب ـ ج٥ ـ ص١٣٧.

(2) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٨ ـ ص٢١.

(3) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٣٨ ـ ص٣٦٠؛ الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٢، تاريخ أبي زرى الدمشقي ـ ج١ ـ ص٣٨٦، الطبري ـ تاريخه ـ ج٦ ـ ص٢٧٧.

(4) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ج ـ ص٣٢٣.

(5) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ج٥ ـ ص٣٤١.

(6) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤٦ ـ ص٤٩٦.

(7) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٩٥، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص٢٧٠.

وفي عهده أيضاً كان الحارث بن عمرو الطائي على البلقاء[1]، وولى سراقة بن عبد الرحمن أميراً على الثغور[2] بعد خروج مسلمة بن عبد الملك.

يزيد بن عبد الملك:

١ـ الضحاك بن عبد الرحمن بن عزرب[3]: يذكره ابن عساكر، وقد أقرّه يزيد بن عبد الملك على دمشق، وكان عليها في عهد عمر بن عبد العزيز.

٢ـ عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة[4] بن إياس الفهري: ولي دمشق من قبل يزيد بن عبد الملك، وكان قبل ذلك والياً على الصدقات في عهد عمر بن عبد العزيز.

وفي عهده كان إسماعيل بن معدى كرب على بعلبك[5].

هشام بن عبد الملك:

١ـ كلثوم بن عياض[6] بن وضوح بن قيس الأعور بن قشير بن كعب القشيري: ولى دمشق لهشام بن عبد الملك.

٢ـ الوليد بن تليد[7]: ولى دمشق لهشام بن عبد الملك، وفي عهده كان سعيد بن معاوية[8] عاملاً على أرض بعلبك، ثم عزله هشام وولى عبد الله بن نافع.

الوليد بن يزيد:

١ـ عبد الصمد بن محمد الحجاج[9] بن يوسف: ولاّه الوليد بن يزيد دمشق.

---

(1) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٣٢٣.

(2) ابن العديم ـ بغية الطلب ـ ج٨ ـ ص٤١٩٨.

(3) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص٢٧٠.

(4) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٠.

(5) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١٥ ـ ص٣٠٣.

(6) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٩٠، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٠ ـ ص٢١٧، ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج٣ ـ ص٢٧٦.

(7) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٣ ـ ص١١٥، الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص١١٥.

(8) المرجع نفسه ـ ج٢١ ـ ص٣٠٣.

(9) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٣، ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٣٦ ـ ص٢٥٥، ابن حزم الأندلسي ـ جمهرة أنساب العرب ـ ص٢٦٧.

٢ـ عبد الملك بن محمد بن الحجاج[1]: ولي دمشق للوليد بن يزيد.

٣ـ عثمان بن عبد الأعلى[2] بن سراقة الأزدي القاضي: ولي دمشق أيام الوليد بن يزيد. ووليها في آخر الدولة الأموية، وبدراسة الدولة العباسية بعد دخول عبد الله بن علي دمشق.

٤ـ عمر بن عبد الملك بن مروان[3]: ولى دمشق للوليد بن يزيد، وقال ابن عساكر استخلفه عبد الملك بن محمد بن الحجاج على امرة دمشق عندما خرج يزيد بن الوليد عنها.

٥ـ الحكم بن الوليد[4]: ولى امارة دمشق.

٦ـ محمد بن سعيد بن عقبة[5] المري الطبراني: كان من كبار أمراء دمشق في عهد الوليد، وذكره الرازي في تسمية أمراء دمشق.

يزيد بن الوليد:

١ـ عبد العزيز بن الحجاج[6] بن عبد الملك بن مروان: ولي دمشق في عهد يزيد بن الوليد الناقص.

٢ـ الوليد بن تليد المري[7]: ولى إمرة دمشق ليزيد بن الوليد.

مروان بن محمد:

١ـ زامل بن عمرو السكسكي الحراني[8]: ولي دمشق سنة ١٢٧ من قبل مروان بن محمد.

٢ـ يزيد بن خالد[9] بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري البجلي: كان أهل دمشق قد وثبوا

---

(1) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٤، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٠ ـ ص٣٩ ـ ج٤٥ ـ ص٢٧٩ ـ ج٣٧ ـ ص٩٥.

(2) المرجع نفسه ـ ص٧٦، يذكره ابن عساكر أميراً لدمشق في عهد الوليد بن عبد الملك، وأعتقد أن الوليد هو بن يزيد، ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ـ ج٣٨ ـ ص٤٢٩.

(3) المرجع نفسه ـ ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤٥ ـ ص٢٧٩، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١١.

(4) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤ ـ ص٤١.

(5) المرجع نفسه ـ ج٥٣ ـ ص٩٠.

(6) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٧٣، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٣ ـ ٢٥

(7) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٦٣ ـ ص١٥٥، الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص١١١.

(8) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٥٥.

(9) المرجع نفسه ـ ص١١٣، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٥.

على زامل بن عمرو عامل مرون، وولوا عليها يزيد بن خالد، فتمكن زامل من قتل يزيد بن خالد.

٣ـ كوثر بن الأسود[1] بن عبيد الغنوي: غلب على دمشق لمروان بن محمد.

٤ـ الوليد بن معاوية[2] (بن مروان) وقيل ابن عبد الملك: كان أميراً على دمشق في آخر دولة بني أمية، وقتل أثناء ذلك.

ثانياً ـ أمراء حمص:

تحتوي المصادر والمراجع بعض المعلومات عن ولاة حمص إلا أنها في الوقت نفسه لا تفي بالغرض أيضاً لترتيبها وتبويبها بشكل منظّم ودقيق زمنياً، فلقد اعتمدت الطريقة السابقة في ولاة دمشق، ومن أهم الولاة الذين تمّ الحصول عليهم من المصادر ما يلي:

معاوية بن أبي سفيان:

١ـ حصين بن نمير بن نائل[3]: كان أميراً على جند حمص في معركة صفّين، هذا ويذكر كامل الغزي[4] في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب ولاة حمص في عهد معاوية في جدول متسلسل زمني على النحو التالي:

١ـ مالك بن عبد الله	سنة (٤٦هـ ـ ٦٦٦م).
٢ـ بشر بن أرطأة	سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠م).
٣ـ سفيان بن عوف الأزدي	سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠م).
٤ـ فضالة بن عبيد	سنة (٥١هـ ـ ٦٧١م).
٥ـ بشر بن أرطأة (ثانية)	سنة (٥١هـ ـ ٦٧١م).
٦ـ سفيان بن عوف الأزدي (ثانية)	سنة (٥٢هـ ـ ٦٧٢م). توفي هذه السنة
٧ـ عبد الله بن سعيد الفزاري	سنة (٥٢هـ ـ ٦٧٢م).

---

(1) الصفدي ـ أمراء دمشق ـ ص٩١.

(2) المرجع نفسه ـ ص١١١.

(3) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١٤ ـ ص٣٨٢.

(4) الغزي ـ كامل الغزي ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ ج٣ ـ ص٢٢ـ٢٤.

٨ـ محمد بن عبد الله الثقفي	سنة (٥٢هـ - ٦٧٢م).
٩ـ عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي	سنة (٥٣هـ - ٦٧٣م).
١٠ـ محمد بن مالك	سنة (٥٤هـ - ٦٧٣م).
١١ـ معين بن يزيد السلمي	سنة (٥٤هـ - ٦٧٤م).
١٢ـ سعيد بن عوف	سنة (٥٥هـ - ٦٧٤م).
١٣ـ جنادة بن أمية	سنة (٥٦هـ - ٦٧٥م).
١٤ـ عبد الله بن قيس الفزاري	سنة (٥٧هـ - ٦٧٦م).
١٥ـ مالك بن عبد الله الخثعمي	سنة (٥٨هـ - ٦٧٧م).
١٦ـ عمرو بن مرّة	سنة (٥٩هـ - ٦٧٨م).

٢ـ مالك بن هبيرة[1]: يذكره السيوطي والياً على حمص سنة ٥٢هـ ـ ٦٧٢م، وهو يتعارض مع الغزي، انظر الجدول السابق مع التاريخ نفسه، ويذكر ابن عساكر[2] أيضاً أن مالك بن هبيرة كان والياً على حمص سنة ٥٦هـ ، وعزل عنها سنة ٥٧هـ، وكان أميراً لمعاوية[3] على الجيوش في غزو الروم.

٣ـ الحجاج بن علاط السلمي[4]: استعمله معاوية على حمص.

٤ـ عبيد الله بن الحجاج بن علاط السلمي: كان أبوه الحجاج قد استعمله على حمص.

٥ـ النعمان بن بشير[5] الأنصاري: استعمله معاوية على حمص، نقل إليها من الكوفة ويبدو أنه استمر على ولايتها إلى أن كان الصراع الدائر بين ابن الزبير ومروان بن الحكم. وفي عهد معاوية ولى النعمان بن بشير[6] عبيد الشرعبي الحمصي جبل لبنان وهو من أعمال دمشق.

(١) السيوطي ـ حسن المحاضرة ـ ج١ ـ ص٩٧.

(٢) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٥٦ ـ ص٥٠٨.

(٣) ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب ـ ج٣ ـ ص٤١٧.

(٤) الاصابة في معرفة الصحابة ـ ج١ ـ ص٣٢٨.

(٥) ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ج٤ ـ ص٦١.

(٦) ابن عساكر تاريخ دمشق ـ ج٣٨ ـ ص١٦٠.

يزيد بن معاوية:

١ـ النعمان بن بشير[1]: أقره يزيد على حمص، فلما مات يزيد بن معاوية صار زبيرياً فخالفه أهل حمص، فأخرجوه منها.

٢ـ أوسط بن إسماعيل البجلي[2]: ولي إمرة حمص ليزيد بن معاوية، وذكره ابن سعد بأنه في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام.

٣ـ الحصين بن نمير السكوني[3]: ولي الصائفة ليزيد بن معاوية، وكان أميراً على جند حمص، وهو الذي حاصر ابن الزبير بمكة سنة ٦٢هـ.

مروان بن الحكم:

١ـ النعمان بن بشير الأنصاري[4]: كان والياً على حمص، قتل في سنة ٦٤هـ.

٢ـ خالد بن يزيد بن معاوية[5]: كانت له حمص حسب اتفاق الجابية، وكان وليّ العهد لمروان ابن محمد.

عهد عبد الملك بن مروان:

يذكر الغزي[6] قائمة من ولاة حمص، مرتبه على الشكل التالي:

١ـ محمد بن مروان[6] سنة (٧٣هـ ـ ٦٩٢م).

٢ـ الوليد بن عبد الملك[7] سنة (٧٥هـ ـ ٦٩٤م).

---

(1) الزركلي ـ الاعلام ـ ج١ ـ ص١٣٤، ابن سعد ـ الطبقات ـ ج٧ ـ ص٤٤١.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٤٩٠، اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥١، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٠٢ ـ ١٠٣، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٢١، ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب ـ ص٦١ ـ ٦٢.

(3) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٤٩٠، اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥١، ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٠٢ ـ ١٠٣، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٢١، ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب ـ ص٦١ ـ ٦٢، ابن العديم ـ بغية الطلب ـ ج٦ ـ ص٢٨١٨.

(4) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥٥، ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب ـ ج٥ ـ ص٦٢، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٢٤٣، ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٢ ـ ص١١٢ وما بعدها، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٥٣١، ابن عبد البر القرطبي ـ الاستيعاب ـ ج٤ ـ ص٦١.

(5) الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص٥٣٧.

(6) الغزي ـ تاريخ حلب ـ ج٣ ـ ص٢٣.

(7) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٣.

٣ـ عبيد الله بن عبد الملك[1] سنة (٨١هـ ـ ٧٠٠م).

٤ـ محمد بن مروان (ثانية)[2] سنة (٨٢هـ ـ ٧٠١م).

٥ـ مسلمة بن عبد الملك[3] سنة (٨٥هـ ـ ٧٠٤م).

٦ـ صفوان بن عمرو الكلاعي[4]: ولي حمص لعبد الملك بن مروان.

٧ـ أبان بن عقبة بن أبي معيط[5]: كان والياً على حمص في عهد عبد الملك.

الوليد بن عبد الملك:

١ـ هشام بن عبد الملك[6]: يذكره الغزي والياً على حمص لأخيه الوليد سنة ٨٧هـ.

٢ـ العباس بن الوليد[7]: كان يسكن حمص، استعمله أبوه عليها، وولاه المغازي، كان يطلق عليه فارس بني مروان، وذكر خليفة بن خياط[8] أنه بقي والياً على حمص حتى مات الوليد.

سليمان بن عبد الملك:

١ـ يزيد بن حصين بن نمير[9]، ولي إمرة حمص لسليمان بن عبد الملك.

عمر بن عبد العزيز:

١ـ يزيد بن حصين السكوني[10]: يبدو أنه استمر في عهد عمر بن عبد العزيز.

---

(1) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٢٩٨، الغزي ـ تاريخ حلب ـ ص٢٢.

(2) الغزي ـ ج٣ ـ ص٢٣.

(3) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٣.

(4) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢١ ـ ص٢٤٤.

(5) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج ـ ص ، الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج ـ ص .

(6) الغزي ـ تاريخ حلب ـ ج٣ ـ ص٢٤.

(7) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٦ ـ ص٤٣٨.

(8) خليفة بن خياط ـ تاريخه ـ ص٣١١.

(9) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢٤ ـ ص٢٧٣، خليفة بن خياط ـ ص٣٢٣.

(10) المرجع نفسه ـ ج٢٤ ـ ص٢٧٣ ـ ابن خياط ـ ص٣٢٣.

هشام بن عبد الملك:

١- عبد الملك بن القعقاع[١]: استعمله هشام بن عبد الملك على حمص.

الوليد بن يزيد:

١- عبد الملك بن القعقاع[٢]: كان والياً على حمص يبدو أنه استمر من عهد هشام وأقره الوليد على عمله في حمص، مات في عذاب ابن هبيرة له.

٢- مروان بن عبد الله بن عبد الملك[٣]: كان عاملاً للوليد بن يزيد على حمص.

٣- عثمان بن الوليد[٤]: ولي امارة حمص.

٤- العباس بن الوليد[٥]: كان والياً على حمص أيام الوليد بن يزيد قبل مقتله.

يزيد بن الوليد:

١- العباس بن الوليد[٦]: كان على حمص ثم خرج على يزيد بن الوليد.

٢- مروان بن عبد الله[٧] بن عبد الملك: كان نائباً لحمص، قتله أهل حمص، وولوا عوضه معاوية بن يزيد.

٣- معاوية بن يزيد[٨] بن الحصين بن نمير السكوني: ولاّه يزيد بن الوليد حمص.

٤- عبد الله بن شجرة الكندي[٩]: قتله أهل حمص.

٥- السفياني.

---

(١) الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٣٧.

(٢) المرجع نفسه - ج٧ - ص٢٣٧.

(٣) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٥٧ - ص٣٠٧، الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٦٢، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٢.

(٤) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٤ - ص٤١.

(٥) الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٣٧.

(٦) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٣٣٥، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٢.

(٧) ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٢.

(٨) الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٦٨، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٢.

(٩) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٣٣٥، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٢.

يزيد بن الوليد:

١ـ العباس بن الوليد[1]: كان والياً على حمص سنة ١٢٦هـ للوليد بن يزيد، ثم قتل الوليد وهو والٍ عليها، فهرب من حمص بعد قتله، ولحق بيزيد بن الوليد.

٢ـ عبد الله بن شجرة الكندي[2]: قتله أهل مصر سنة ١٢٦هـ.

٣ـ مروان بن عبد الله بن عبد الملك[3]: كان نائباً لحمص في عهد يزيد بن الوليد، سنة ١٢٦هـ قتله أهل حمص أيضاً.

٤ـ معاوية بن يزيد بن حصين[4]: ولي حمص سنة ١٢٧هـ بعد قتل مروان بن محمد من قبل أهلها، قد يكون وليها أكثر من مرّة.

٥ـ أبو محمد السفياني[5]: ولي حمص سنة ١٢٦هـ.

٦ـ عبد العزيز بن الحجاج[6]: كان والياً على حمص سنة ١٢٧هـ.

مروان بن محمد:

١ـ عبد الله بن شجرة[7]: ولي حمص سنة ١٢٧هـ في الوقت الذي انتفض فيه مروان بن محمد على إبراهيم بن الوليد، فكان عبد الله بن شجرة أول من بايعه سنة ١٢٧هـ، وعبد الله هذا إما كانت ولايته استمراراً على حمص، أم كانت ولايته الثانية؟.

٢ـ زامل بن عمر السكسكي[8]: ولي إمرة دمشق وحمص لمروان بن محمد.

---

(1) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٣، اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢، ص٣٣٥.

(2) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٣٣٥، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٣.

(3) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٣٣٥، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٣.

(4) الطبري ـ تاريخه ـ ج٧ ـ ص٢٦٨، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٣.

(5) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٣.

(6) المرجع نفسه ـ ج١٠ ـ ص٢٣.

(7) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٥، ابن عساكر ـ ج٢٩ ـ ص١٣٩.

(8) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج ـ ص .

٣ـ سعيد بن هشام[1]: آخر ولاة حمص في عهد الأمويين، خلفه أخوه سليمان بن هشام على حمص أميراً عندما حاصر مروان حمص سنة ١٢٧هـ.

ثالثاً ـ ولاة الأردن:

هناك صعوبة في الحصول على الولاة بشكل منسق ومرتبين زمنياً في العصر الأموي، لكن نستعرض ما وصلنا إليه حسبما ورد في دمشق وحمص.

معاوية بن أبي سفيان:

١ـ حبيش بن دلجة[2]: ولي الأردن لمعاوية بن أبي سفيان.

يزيد بن معاوية:

١ـ حبيش بن دلجة[3]: كان على جند الأردن عندما وجه يزيد بن معاوية مسلمة بن عقبة إلى المدينة.

٢ـ حسان بن بحدل[4]: كان أميراً على الأردن في عهد يزيد بن معاوية، وبقي عليها إلى أن مات يزيد.

مروان بن الحكم:

١ـ حسان بن بحدل[5]: كان أمير الأردن في أحداث الجابية ومعركة مرج راهط.

عبد الملك بن مروان:

١ـ أبو عثمان بن مروان بن الحكم[6]: ولي الأردن لأخيه عبد الملك.

٢ـ سليمان بن سعد[7]: ولي إمرة الأردن لعبد الملك بن مروان، وهو الذي عرب الدواوين في

---

(1) الطبري ـ تاريخه ـ ج٧ ـ ص٣٢٥، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٣٠.

(2) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥١.

(3) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٢٥١.

(4) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ص٢٥٥، الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص٥٣١، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٢١.

(5) المرجع نفسه ـ ص٢٥٥، الطبري ـ تاريخه ـ ج٥ ـ ص٥٣١، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٢١.

(6) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٦٧ ـ ص٧٧، خليفة بن خياط ـ ص٢٩٨.

(7) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج ـ ص .

بلاد الشام لعبد الملك وجعل له خراج الأردن لمدة سنة.

الوليد بن عبد الملك:

١ـ عمر بن الوليد بن عبد الملك[1]: كان أميراً لـلأردن في عهـد الوليـد، وقـال ابـن عسـاكر: استعمله الوليد على الأردن طيلة حياته.

عمر بن عبد العزيز:

١ـ عبادة بن نسي[2]: كان أميراً على الأردن في عهد عمر بن عبد العزيز.

٢ـ اسحاق بن مسلم الكاتب[3]: ولي خراج الأردن في عهد عمر بن عبد العزيز.

هشام بن عبد الملك:

١ـ حميد بن أبي المخارق الأزدي[4]: كان على ديوان الجند، وعمِـلَ علـى خـراج الأردن أيـام هشام بن عبد الملك.

يزيد بن الوليد:

١ـ عمر بن الوليد[5]: كان أميراً على الأردن أيام يزيد بن الوليد.

٢ـ محمد بن عبد الملك[6]: بايعه أهل الأردن.

مروان بن محمد:

١ـ الوليد بن معاوية بن مروان[7]: كان والياً على الأردن من قبل مروان سنة ١٢٧هـ.

٢ـ ثعلبـة بن سلامة العاملي[8]: كان عاملاً لمروان على الأردن سنة ١٣٢هـ عندما هزم إلى

---

(١) خليفة بن خياط ـ ص٣١١، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٤ ـ ص٣٥٤.

(٢) المرجع نفسه ـ ص٣٢٣، المرجع نفسه ـ ج٢٤ ـ ص٢٧٣.

(٣) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٨ ـ ص٢٨٠.

(٤) المرجع نفسه ـ ج١٥ ـ ص٣٠١.

(٥) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٣٣٥.

(٦) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص١٤.

(٧) المرجع نفسه ـ ج١٠ ـ ص٢٥.

(٨) الطبري ـ تاريخه ـ ص٤٣٨.

مصر وتوجه معه.

رابعـاً - ولاة فلسـطين:

معاوية بن أبي سفيان:

١- مسلم بن عقبة[1]: ولي خراج فلسطين لمعاوية بن أبي سفيان.

٢- ناتل بن قيس[2]: يذكر الطبري أن ناتل بن قيس كان قد غلب على فلسطين، وأخذ مالهـا، كان ذلك قبل أن يلي معاوية الخلافة، واعتقد أن ذلك كان قبل معركة صفين.

٣- حسان بن مالك[3]: كان عاملاً لمعاوية على فلسطين.

يزيد بن معاوية:

١- حسان بن مالك[4]: استمر في عهد يزيد بن معاوية على فلسطين، وكان يهوى هـوى بـني أمية، وكان سيّد فلسطين.

٢- روح بن زنباع[5]: استخلفه حسان بن مالك على فلسطين.

مروان بن الحكم:

١- روح بن زنباع[6]: كان أميراً على فلسطين، وكان يدعو للأمويين.

٢- ناتل بن قيس الجذامي[7]: أخرج روح بن زنباع عـن فلسـطين، ودعـا لابـن الزبـير، وبعـد معركة مرج راهط هرب إلى ابن الزبير.

٣- حسان بن مالك[8]: ولي فلسطين لمروان بن الحكم.

---

(1) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٥٨ - ص١٠٣.
(2) الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٣٣٤.
(3) المرجع نفسه - ج٥ - ص٥٣١.
(4) المرجع نفسه - ج٥ - ص٥٣١.
(5) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٥١ - ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج١٨ - ص٢٣، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٦ - ص٢٢١.
(6) الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٥٤٠.
(7) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٦١ - ص٣٧٨، اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٥٥، ابن كثير - البداية والنهاية - ج٩ - ص٢٤٣.
(8) المرجع نفسه - ج١٢ - ص٤٤٨ - الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٥٣١.

عبد الملك بن مروان:

١- سليمان بن عبد الملك[1]: ولي فلسطين من قبل أبيه، وبقي والياً عليها حتى مات عبد الملك.

٢- عمارة تميم اللخمي[2] (ويقال القتبي) - ولي امارة فلسطين لعبد الملك بن مروان.

الوليد بن عبد الملك:

١- سليمان بن عبد الملك[3]: أقرّه الوليد في عمله على فلسطين، وكان ولي العهد.

سليمان بن عبد الملك:

١- يزيد بن المهلب[4]: يذكر ابن عساكر أن سليمان بن عبد الملك كان قد ولاه فلسطين.

عمر بن عبد العزيز:

١- النضر بن يريم بن أبرهة بن الصباح[5]: ولاّه عمر بن عبد العزيز فلسطين.

الوليد بن يزيد:

١- سعيد بن عبد الملك بن مهران[6]: كان عاملاً للوليد بن يزيد على فلسطين، وهو نهر سعيد.

يزيد بن الوليد:

١- يزيد بن سليمان[7]: ولي فلسطين ليزيد بن الوليد بعد قتل الوليد على أن سعيد بن روح بن زنباع هو الذي دعاه إلى أن يتولى فلسطين، وطرد سعيد بن عبد الملك.

---

(١) خليفة بن خياط - تاريخه - ص٢٩٨.

(٢) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٤٣ - ص٣٠١.

(٣) خليفة بن خياط - تاريخه - ص٣١١.

(٤) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٦٠ - ص٩٢.

(٥) خليفة بن خياط - تاريخه - ص٣٢٣، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٢٤ - ص٢٧٣، ابن كثير - البداية والنهاية - ج١٠ - ص١٤.

(٦) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٢١ - ص٢١٣، الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٦٦.

(٧) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٣٧٥، الطبري - تاريخه - ج٧ - ص٢٦٦.

٢ـ ابن سراقة: ولي فلسطين من قبل سليمان بن هشام، إلا أن أمره لم يتم.

٣ـ ضبعان بن روح[1]: ولي فلسطين من قبل يزيد بن الوليد.

مروان بن محمد:

١ـ ثابت بن نعيم الجذامي[2]: كان على جند فلسطين سنة ١٢٧هـ في خلافة مروان بن محمد، ثم خرج على مروان، وقتِلَ هو وأولاده.

٢ـ الرماحس بن عبد العزيز[3]: ولي فلسطين سنة ١٢٧هـ بعد ثابت بن نعيم، بقي والياً عليها إلى أن هزم مروان، وقتِل.

خامساً ـ ولاة قنسرين

يزيد بن معاوية:

١ـ زفر بن الحارث الكلاعي[4]: كان والياً على قنسرين في عهد يزيد بن معاوية.

٢ـ سعيد بن مالك بن بحدل[5] بن أنيف بن دلجة: ولي إمرة قنسرين في أيام يزيد بن معاوية.

٣ـ طريف بن الحسحاس الهلالي[6]: كان على أهل قنسرين في جيش مسلم بن عقبة في الجهاز.

مروان بن الحكم:

١ـ زفر بن الحارث الكلابي[7]: كان على قنسرين في عهد مروان بن الحكم.

عمر بن عبد العزيز:

---

(1) الطبري ـ تاريخه ـ ج٧ ـ ص٢٦٨، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١١ ـ ص١٤٤.

(2) المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٣١٢، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٥، ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج١١ـ ص١٤٤.

(3) المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٣١٤، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج١٠ ـ ص٢٥.

(4) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥١.

(5) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢١ ـ ص٢٩٠.

(6) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص٢٢١.

(7) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٢٥٥، ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٨ ـ ص٢٤٣.

١- الوليد بن هشام[1] بن الوليد بن عقبة: كان والياً على قنسرين في عهد عمر بن عبد العزيز.

هشام بن عبد الملك:

١- الوليد بن القعقاع بن خليد العبسي[2]: ولي إمرة قنسرين لهشام بن عبد الملك.

٢- سالم بن وابصه بن معبد[3]: ولي إمرة الرقة في عهد هشام بن عبد الملك.

الوليد بن يزيد:

١- يزيد بن عمر بن هبيرة[4]: ولي قنسرين للوليد بن عبد الملك، وولي العراق لمروان بن محمد.

يزيد بن الوليد:

١- مسرور بن الوليد بن عبد الملك[5]: استعمله يزيد بن الوليد على قنسرين.

٢- بشر بن الوليد[6]: كان والياً على قنسرين في عهد يزيد بن الوليد.

سادساً - ولاة الجزيرة:

معاوية بن أبي سفيان قبل الخلافة:

عندما جمعت الشام والجزيرة لمعاوية سنة ٢٦هـ ولي الجزيرة كل من:

١- حبيب بن مسلمة.

٢- الضحاك بن قيس: بقي والياً عليها حتى قتل الخليفة عثمان في ذي الحجة سنة ٣٥هـ.

ولاة الإمام علي:

١- مالك بن الأشتر النخعي: حارب الضحاك بن قيس بين الرقة وحران، ثم عاد مالك بن الأشتر إلى الموصل.

---

(1) خليفة بن خياط - تاريخه - ص٣٢٣، ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٦٣ - ص٣٠٩.

(2) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٢٤ - ص٢٧٣.

(3) ابن العديم - بغية الطلب - ج٩ - ص٤١٦٨.

(4) المرجع نفسه - ج٩٥ - ص٣٢٤.

(5) المرجع نفسه - ج٥٧ - ص٣٩٥.

(6) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٣٣٥.

٢ـ شبيب بن عباس: ولي الجزيرة بعد وقعة صفّين وأمر التحكيم.

معاوية بعد الخلافة:

١ـ النعمان بن بشير: بقي والياً على الجزيرة طيلة حكم معاوية سنة ٦٠هـ، وأقره يزيد إلى أن كانت سنة ٦٢هـ.

يزيد بن معاوية:

١ـ النعمان بن بشير: استمر والياً على الجزيرة إلى سنة ٦٢هـ.

٢ـ سعد بن مالك بن بحدل الكلبي: ولي بعد النعمان بن بشير سنة ٦٢هـ.

٣ـ زفر بن الحارث الكلابي: بقي والياً إلى أن مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، استمر زفر في ولايته في عهد معاوية بن يزيد.

مروان بن الحكم:

١ـ زفر بن الحارث: استمر في ولايته، ودعا لابن الزبير، فتمكن عبيد الله بن زياد منه وطرده من قنسرين إلى الجزيرة...

المختار:

١ـ يزيد بن أنس الأسدي: ولي الجزيرة من قبل المختار.

٢ـ إبراهيم بن الأشتر: تمكن من قتل الحصين بن نمير وعبيد الله بن زياد، وذلك سنة ٦٧هـ، وأقام إبراهيم بالموصل، ووجه عماله إلى مدن الجزيرة.

ابن الزبير:

١ـ مصعب بن الزبير.

عبد الملك بن مروان[1]:

١ـ محمد بن مروان بن الحكم: ولي قنسرين والجزيرة وأذربيجان، بقي والياً عليها إلى أن مات عبد الملك.

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٥٥ ـ ص٢٣٧.

الوليد بن عبد الملك:

١ـ محمد بن مروان بن الحكم: أقرّه الوليد، ثم عزله سنة ٩٠هـ.

٢ـ مسلمة بن عبد الملك: بقي والياً عليها إلى أن مات الوليد وله بحران.

سليمان بن عبد الملك:

١ـ وجّه أخاه مسلمة إلى حصار القسطنطينية، وقد استخلف على الجزيرة.

عمر بن عبد العزيز:

١ـ عدي بن عدي: ولي الجزيرة بعد مسلمة.

٢ـ يزيد بن عقيل السلمي: لم يزل والياً عليها إلى أن توفي عمر بن عبد العزيز. وقيل لم يكن والياً على الجزيرة.

٣ـ عمر بن هبيرة[1]: وجهه عمر بن عبد العزيز ـ عاملاً على الجزيرة سنة (١٠٠هـ ـ ٧١٨م)، عزل عن الجزيرة[2] سنة (١٠٤هـ ـ ٧٥٢م).

يزيد بن عبد الملك:

١ـ يزيد بن عقيل السلمي.

٢ـ عمر بن هبيرة: ولي بعد يزيد بن عقيل، ثم عزله.

٣ـ مروان بن محمد: ولي عوضاً عن عمر بن هبيرة، وبقي والياً إلى أن توفي يزيد.

هشام بن عبد الملك:

١ـ مروان بن محمد: أقرّه هشام على عمله، وأضاف إليه أرمينية وأذربيجان سنة ١١٤هـ، بقي والياً على عمله إلى أن توفي هشام سنة ١٢٥هـ.

٢ـ مالك بن شبيب الباهلي: كان أميراً لهشام على ملطية.

---

(١) الطبري ـ تاريخ الطبري ـ ج٦ ـ ص٥٥٦.

(٢) المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص١٥.

الوليد بن يزيد:

١ـ مروان بن محمد: أقرّه الوليد على عمله وبقي إلى أن استخلف.

مروان بن محمد:

١ـ سعيد بن مسلمة بن أمية بن هشام الأموي: كان نائباً لمروان على الجزيرة.

٢ـ ابان بن يزيد بن محمد بن مروان بن الحكم: استمر والياً على الجزيرة إلى أن قتل مروان.

فهـرس
المصادر و المراجع

أولاً- المصـادر:

- ابـن أعثـم الكـوفي: - أبي محمد أعثم الكوفي - **كتاب الفتوح** - طبع بيروت ١٩٨٦.

- ابـن الأثـير: - علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.

١- **الكامل في التاريخ** - طبع بيروت - ١٩٦٤.

٢- **أسد الغابة في معرفة الصحابة** - طبع بيروت - بلا تاريخ.

- ابـن الجـوزي: - جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي بن الجوزية.

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** - طبع دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧- نسخة مصورة عنها.

- ابـن الجـوزي: - سبط بن الجوزي - شمس الدين أبي المظفر يوسف قزواغلي.

١- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** - السفر الأول - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت ١٩٨٥.

٢- **مرآة الزمان** - مخطوط.

- ابـــــن الخطيـــــب: - لسان الدين الخطيب.
- **الإحاطة في أخبار غرناطة** - تحقيق محمد عبد الله عنان - طبع مصر ١٩٧٣.
- ابـــــن الخيـــــاط: - خليفة بن خياط.
- **تاريخ خليفة بن خياط** - تحقيق أكرم ضياء العمري - طبع ١٩٧٧.
- ابـــــن الطقطقـــــي: - محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي.
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** - طبع بيروت - دار صادر - بلا تاريخ.
- ابـــــن العـــــبري: - غريغوس الملطي المعروف بابن العبري.
- **تاريخ مختصر الدول** - تحقيق أنطون صالحاني - طبع بيروت ١٩٥٨.
- ابـــــن القوطيـــــة: - أبي بكر محمد بن عمر بن القوطية.
- **تاريخ افتتاح الأندلس** - تحقيق إبراهيم الايباري - طبع بيروت ١٩٨٢.
- ابـــــن الكلـــــبي: - هشام أبو المنذر محمد السائب الكلبي.
- **مثالب العرب** - تحقيق نجاح الطائي - طبع بيروت ١٩٩٨.
- ابـــــن أيبـــــك: - صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي.
١- **كتاب الوافي بالوفيات** - تحقيق مجموعة - طبع المعهد الفرنسي بدمشق.
٢- أمراء دمشق.
- ابـــــن بـــــدران: - **تهذيب تاريخ مدينة دمشق**.
- ابـــــن حـــــزم: - أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
١- **جمهرة أنساب العرب** - تحقيق عبد السلام هارون - طبع

مصر ١٩٧٧.

٢ـ **الفصل في الملل والأهواء ـ النحل** ـ طبع بيروت ١٩٧٥.

ـ ابـــــن خلــــــدون: ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المقري.

١ـ **مقدمة ابن خلدون** ـ طبع بيروت ١٩٩٣.

٢ـ **تاريخ ابن خلدون** ـ تحقيق خليل شحادة ـ طبع بيروت ١٩٨١.

ـ ابـــــن خيـــــاط: ـ أبو عمرو خليفة بن خياط الملقب بشباب.

ـ **تاريخ خليفة بن خياط** ـ تحقيق أكرم ضياء العمري ـ طبع بيروت ١٩٧٧.

ـ ابـــــن ســـــعد: ـ محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري.

ـ **الطبقات الكبرى** ـ طبع بيروت ١٩٦٠.

ـ ابـن عبـد الـبر القرطـبي: ـ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القرطبي.

ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ـ تحقيق علي محمد معوض ـ عادل أحمد عبد الموجود ـ طبع بيروت ١٩٩٥.

ـ ابـــن عبـــد الحكـــم: ـ أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري.

ـ **فتوح مصر وأخبارها** ـ طبع ليدن ١٩٣٠.

ـ ابـــن عبـــد ربـــه: ـ أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.

ـ **كتاب العقدة الفريدة** ـ تحقيق أحمد أمين ـ أحمد الزين ـ إبراهيم الإبياري ـ طبع مصر ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥.

ـ ابـــن عســـاكر: ـ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي.

ـ **تاريخ مدينة دمشق** ـ تحقيق مجموعة ـ طبع دار الفكر بيروت ١٩٩٦ وما بعدها.

ـ ابـــن قتيبـــة: ـ أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.

١ـ **عيون الأخبار** ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ

بلا تاريخ.
٢ـ **المعارف** ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ طبع مصر ١٩٩٢.
٢ـ **الإمامة والسياسة** ـ تحقيق طه محمد الزيني ـ طبع بيروت ـ دار المعرفة ـ بلا تاريخ.
ـ ابـــن كثـــير: ـ الحافظ بن كثير الدمشقي.
ـ **تاريخ ابن كثير** ـ البداية والنهاية ـ تحقيق أحمد أبو ملحم وغيره ـ طبع بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بلا تاريخ.
ـ ابـــن مزاحـــم: ـ نصر بن مزاحم المنقري.
ـ **وقعة صفين** ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبع مصر ١٩٦١.
ـ ابـــن منظـــور: ـ أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور.
١ـ **لسان العرب** ـ طبع بيروت دار صادر ـ بلا تاريخ.
ـ ابـــن واصـــل الحمـــوي: ـ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل.
ـ **تجريد الأغاني** ـ تحقيق طه جسين ـ إبراهيم الإبياري ـ طبع مصر ١٩٥٥.
ـ ابـــن هشـــام: ـ أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب.
ـ **السيرة النبوية** ـ طبع دار كثير ببيروت ـ بدون تاريخ.
ـ ابـــن يزيـــد: ـ أبي عبد الله محمد بن يزيد.
ـ **تاريخ الخلفاء** ـ مروان أبي بكر السدوسي ـ تحقيق مطيع الحافظ ـ طبع بيروت ١٩٧٩.
ـ أبـــو الفـــداء: ـ الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل.
ـ **المختصر في أخبار البشر** ـ طبع بيروت ـ دار المعرفة ـ بلا تاريخ.
ـ أبـــي هـــلال العســـكري: ـ (ت٣٩٥هـ).
ـ **الأوائل** ـ تحقيق محمد المصري ـ وليد القصاب ـ طبع سوريا ١٩٧٥.

- أحمد عبد الوهاب الغساني: - رحلة الوزير في افتكاك الأسير.
- أحمد زين دحلان: - الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية - طبع دمشق ١٩٩٨.
- الإسحاقي: - محمد بن عبد الله المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغني بن علي الإسحاقي.
- كتاب أخبار الدول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول - نسخة مصورة عن الطبعة المصرية ١٣٠٠هـ.
- الأصفهاني: - أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني.
- كتاب الأغاني - نسخة مصورة عن دار الكتب - بلا تاريخ.
- البلاذري: - أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري.
١- جمل من أنساب الأشراف - تحقيق سهيل زكار وآخرين - طبع لبنان ١٩٩٦..
٢- فتوح البلدان - تحقيق عبد الله أنيس الطباع - عمر أنيس الطباع - طبع بيروت ١٩٨٧.
- البغدادي: - محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي.
- كتاب الطبيخ - تحقيق فخري البارودي - طبع دار الكتب الجديدة ١٩٦٤.
- البيهقي: - إبراهيم بن محمد البيهقي.
- المحاسن والمساوئ - طبع بيروت - دار صادر - بلا تاريخ.
- التلمساني: - محمد بن أحمد المغربي التلمساني.
- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت ١٩٦٨.
- الثعالبي: - أبي منصور عبد الملك ابن محمد بن اسماعيل الثاعلبي.
- ثمار القلوب في المضاق والمنوب - ويليه التزيمل المرغوب من ثمار

القلوب ـ تحقيق إبراهيم الإيباري ـ طبع دمشق ١٩٩٤.

ـ الجـــــــاحظ: ـ أبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ.

١ـ **البيـان والتبيين** ـ تحقيق عبد السلام هـارون ـ طبع مصر ١٩٧٥.

٢ـ **كتاب التاج في أخلاق الملوك** ـ تحقيق أحمد زكي باشا ـ طبع المطبعة الأميرية ١٩١٤.

الجهشـــــياري: ـ أبي عبد الله محمد بن عبدوش الجهشياري.

ـ **كتاب الـوزراء والكتـاب** ـ تحقيق مصطفى السقا ـ إبراهيم الإيباري ـ عبد الحفيظ شبلي ـ طبع مصر ١٣٨.

ـ الحلـــــــــبي: ـ علي بن برهان الدين الحلبي.

ـ **السيرة الحلبية ـ من أنساب العيون في سيرة الأمين والمـأمون** ـ طبع بيروت ـ بلا تاريخ.

ـ القلقشـــــندي: ـ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد عبد الله القلقشندي.

ـ **صبح الأعشى في صناعة الأنشى** ـ طبع مصر ـ نسـخة مصـورة عن الطبعة الأميرية.

ـ الحمـــــــيري: ـ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري.

ـ **كتاب الروض المعطار في خبر الافطار** ـ تحقيق إحسان عبـاس ـ طبع مصر ١٩٩٨.

ـ الحنبلـــــــي: ـ ابن العماد أبي الكلاع عبد الحي الحنبلي.

ـ **شـذرات الذهـب في أخبـار مـن ذهـب** ـ تحقيـق أحمـد رافـع الطنطاوي ـ طبع بيروت ـ بلا تاريخ.

ـ الديـــار بكـــري: ـ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري.

ـ **تاريخ الخميس في أحـوال أنفـس نفيـس** ـ طبـع بـيروت ـ دار صادر ـ بلا تاريخ.

ـ الدينــــــوري: ـ **الأخبـار الطـوال** ـ تحقيـق عبد المنعم عامـر ـ طبـع بغـداد ـ

بلا تاريخ.
- الذهـــــــــــي: - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
١- **العبر في خبر من عبر** - تحقيق صلاح الدين المنجد - طبع الكويت ١٩٦٠.
٢- **تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام** - تحقيق بشار عواد معروف وآخرين.
٣- **سير أعلام النبلاء** - تحقيق شعيب أرناؤوط وآخرين - طبع بيروت ١٩٨٥.
- الســــــيوطي: - جلال الدين السيوطي.
- **تاريخ الخلفاء** - تحقيق إبراهيم صالح - طبع دمشق ١٩٩٧.
- الصــــــولي: - أبي بكر محمد بن يحيى الصولي.
- **أدب الكتاب** - شرح وتعليق أحمد حسن سبح - طبع بيروت ١٩٩٤.
- الضــــــــبي: - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي.
- **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس** - طبع مدينة مجريط ١٨٨١.
- الطــــــــبري: - محمد بن جرير الطبري.
- **تاريخ الرسل والملوك** - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبع دار المعارف بمصر ١٩٧١.
- القــــــــالي: - أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي.
- **كتاب الأمالي والذيل على الأمالي** - طبع بيروت ١٩٩٦.
- القرطـــــــبي: - أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب القرطبي.
- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** - تحقيق محمد علي ملي - طبع مصر ١٩٧١.

- القرمـــــاني: - أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي الشهير بالقرماني.
- **أخبار الدول** - طبع بيروت بلا تاريخ.

- القلقشـــــندي: - أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** - طبع مصر - نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.

- الكتـــــبي: - محمد بن شاكر الكتبي.
- **فوات الوفيات والذيل عليها** - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت ١٩٧٣.

- الكنـــــدي: - أبو عمر محمد بن يوسف الكندي.
- **ولاة مصر ويليه كتاب تسمية قضاتها** - طبع بيروت ١٩٨٧.

- المـــــاوردي: - محمد بن حبيب البصري الماوردي.
- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** - تحقيق محمد علي الرجائي - طبع مصر ١٩٧٨.

- المـــــبرد: - أبي العباس محمد بن يزيد المبرد.
- **الكامل** - تحقيق محمد أحمد الدالي - طبع بيروت ١٩٩٧.

- المراكشـــــي: - أبو عبد الله محمد المراكشي بن عذارى.
- **البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب** - تحقيق كولان وليفي بروفغال - طبع باريس ١٩٤٨.

- المـــــزي: - جمال الدين أبي الحاج يوسف المزي.
- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** - تحقيق بشار معروف عواد - طبع بيروت ١٩٨٣.

- المســـــعودي: - أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي.
١- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** - تحقيق عبد الأمير مهنا - طبع بيروت ١٩٩١.
٢- **التنبيه والأشراف** - تحقيق عبد الله اسماعيل - طبع مصر -

بلا تاريخ.

- المقدســـــــــي: - المطهر بن طاهر المقدسي.

- **كتاب البدء والتاريخ** - تحقيق حكمان هوار - طبع باريس ١٨٩٥.

- المقريـــــــزي: - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي.

١- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية** - طبع بيروت - دار صادر - بلا تاريخ.

٢- **النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم** - تحقيق حسين مؤنس - طبع مصر ١٩٨٨.

٣- **النقود الإسلامية المسماة بشذور العقود في ذكر النقود** - تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم - طبع طبع إيران ١٩٦٧.

- النويـــــــري: - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري.

- **نهاية الأرب في فنون الأدب** - نسخة مصورة عن دار الكتب ١٩٦٣.

- الواقـــــــدي: - محمد بن عمر بن واقد.

- **فتوح الشام** - طبع بيروت - دار الجيل - بلا تاريخ.

- اليعقوبـــــــي: - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي.

- **تاريخ اليعقوبي** - طبع بيروت - دار صادر - بلا تاريخ.

- ديـــــوان جريـــــر: - شرح محمد حبيب - تحقيق نعمان محمد أمين - طبع مصر ١٩٨٦.

- ديـــــوان عبيـــــد: - تقديم كرم البستاني - طبع بيروت ١٩٦٤..

- قدامـــة بـــن جعفـــر: - **الخراج وصناعة الكتابة** - تحقيق محمد حسين الزبيري - طبع العراق ١٩٨١.

- مؤلف مجهول: - أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس و ولده، تحقيق عبد العزيز الدوري - عبد أسامة - بلا تاريخ.

- ياقوت البغدادي: - جمال الدين ياقوت بن عبد الله المستعصي البغدادي.
- كتاب أسرار الحكماء - تحقيق إبراهيم صالح - سميح صالح - طبع سوريا ١٩٩٤.

- ياقوت الحموي: - شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي.
- **معجم البلدان** - طبع بيروت - دار صادر - بلا تاريخ.

ثانياً - المراجع:

- إبراهيم أحمد العدوي: - **الأمويون والبيزنطيون** - البحر المتوسط بحيرة إسلامية - طبع - بلا تاريخ.

- أحمد أمين: - **ظهر الإسلام** - طبع بيروت ١٩٦٩.

- أحمد علي اسماعيل علي: - **تاريخ بلاد الشام** - صدر الإسلام - طبع دمشق ١٩٩٧.

- الباز العريني: - **الدولة البيزنطية** - طبع مصر ١٩٦٥.

- السيد عبد العزيز سالم: ١- **تاريخ الدولة العربية - تاريخ العرب من عصور الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية** - طبع بيروت ١٩٧١.
٢- **التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية** - طبع بيروت - بلا تاريخ.

- أنور الرفاعي: - **تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني** - طبع بيروت - دار الفكر - بلا تاريخ.

- جرجي زيدان: - **تاريخ التمدن الإسلامي** - تقديم حسين مؤنس - بلا تاريخ.

- جواد علي: - **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** - طبع بيروت ١٩٧٦.

- حسن إبراهيم حسن: - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي - طبع مصر ١٩٦٤.
- حسين عطوان: ١- الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٨٦.
٢- الشورى في العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٩٠.
- حسين مؤنس: ١- فجر الأندلس - طبع مصر ١٩٥٩.
٢- تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر - طبع بيروت ١٩٩٢.
- سالم عبد العزيز فرج: - العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية - طبع مصر ١٩٨١.
- سعد زغلول عبد الحميد: - تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال - طبع مصر ١٩٩٥.
- سهيل زكار: - إبراهيم بيضون - الجامع في أخبار القرامطة - طبع سوريا ١٩٨٧.
- سيدي أبو حبيب: - مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية - طبع سوريا ١٩٨٢.
- شحادة الناطور: - تجديد الدولة الأموية في عهد عبد الملك - طبع الأردن ١٩٩٦.
- شكري فيصل: - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - نشأتها - مقوماتها - تطورها البنيوي الأدبي - طبع بيروت ١٩٨١.
- شوقي ضيف: - العصر الإسلامي - طبع مصر ١٩٨٠.
- صادق أحمد داؤود جودة: - مدينة الرملة نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ - طبع بيروت ١٩٨٦.
- طه حسين: - الفتنة الكبرى - طبع مصر ١٩٦٨.
- عارف عبد الغني: ١- تاريخ أمراء مكة المكرمة - طبع سوريا ١٩٩٢.

٢ـ أمراء المدينة ـ طبع سوريا.
ـ عبد الأمير حسين دكسن: ـ الخلافة الأموية ـ (أعوام ٦٥ـ٨٦هـ، ٦٨٤ـ٧٠٥م).
ـ دراية سياسية ـ طبع بيروت ١٩٧٣.
ـ عبد الرحمن رأفت باشا: ـ الصيد عند العرب.
ـ عبد الرحمن علي الحجي: ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ـ طبع سوريا ١٩٩٧.
ـ عبد السميع سالم الهراوي: ـ لغة الإدارة في صدر الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦.
ـ عبد المنعم ماجد: ـ التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ـ طبع بيروت ١٩٨٢.
ـ عمار الطالبي: ـ آراء الخوارج الكلامية ـ طبع الجزائر ١٩٧٨.
ـ غوستان لوبون: ـ حضارة العرب ـ ترجمة عادل زعيتر ـ طبع مصر ١٩٦٩.
ـ فيليب حتي: ـ ادوار جرجي ـ تاريخ العرب المطول ـ طبع بيروت ١٩٩٥.
ـ كي لا سترنج: ـ بلدان الخلافة الشرقية.
ـ ترجمة بشير فرنسيس ـ كوركيس عواد ـ طبع بغداد ـ ١٩٥٤.
ـ محمد السيد الوكيل: ـ الأمويون بين الشرق والغرب ـ دراسة وصيغة تحليلية للدولة الأموية ـ طبع دمشق ١٩٩٥.
ـ محمد باقر المجلس: ـ بحار الأنوار ـ طبع بيروت.
ـ محمد حسن شراب: ـ المدينة في العصر الأموي ـ دراسة سياسية وإدارية وإجتماعية وإقتصادية وفكرية ـ طبع سوريا ١٩٨٤.
ـ محمد حلمي محمد أحمد: ـ الخلافة والدولة يف العصر الأموي ـ طبع مصر مكتبة الشباب ـ بلا تاريخ.
ـ محمد سعيد عمران: ـ معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ـ مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي ـ طبع بيروت ١٩٨١.

- محمد سهيل طقوس: - تاريخ الدولة الأموية - طبع بيروت ١٩٩٦.
- محمد ضيف الله البطاينة: - الحياة الإقتصادية في العصور الإسلامية الأولى - طبع الأردن - بلا تاريخ.
- محمد عمارة: - الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية - طبع بيروت ١٩٧٧.
- محمد كامل علوي: - الرياضة البدنية عند العرب - طبع مصر ١٩٤٧.
- محمد كرد علي: - خطط الشام - طبع سوريا ١٩٢٥.
- محمد مختار باشا: - كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية - دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة - طبع مصر ١٩٨٠.
- مصطفى الرافعي: - حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة - طبع دار الكتب اللبناني ١٩٦٨.
- منير العجلاني: - عبقرية الإسلام في أصول الحكم - يبحث في تاريخ الحكومة النبوية الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى آخر العهد العباسي - طبع مطبعة النضال بدمشق - بلا تاريخ.
- نايف معروف: - الخوارج والشيعة في العهد الأموي نشأتهم تاريخهم عقائدهم - طبع بيروت ١٩٨٦.
- نجيب زبيب: - الموسوعة العامة لتاريخ المغرب الأندلسي - طبع بيروت ١٩٩٥.
- وسام عبد العزيز فرج: - العلاقات بين الإمبراطورية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثاني الهجري - طبع سوريا ١٩٨١.
- يوسف العش: - الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها إبتداءً من فتنة عثمان - طبع دمشق ١٩٨٦.
- يوليوس ولهاوزن: - الخوارج والشيعة - ترجمة عبد الرحمن - بدون تاريخ - طبع مصر ١٩٥٨.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث
معاوية وولاية العهد

الفصل الرابع
السياسة الداخلية

الفصل الخامس
السياسة الخارجية

الفصل السادس
السفيانيون بعد معاوية

القسم الثاني
المروانيون
الفصل الأول
مروان بن الحكم

الفصل الثاني
عبد الملك بن مروان

الفصل السادس
يزيد بن عبد الملك

الفصل السابع
هشام بن عبد الملك

الفصل الثامن
الوليد بن يزيد

الفصل التاسع
يزيد بن الوليد

الفصل العاشر

مروان بن محمد

القســـم الثالث

الثورات في العصر الأموي

الفصل الأول

ثورة الحسين بن علي

الفصل الثاني

الشيعة وحركة المختار

الفصل الثالث

ثورة ابن الزبير

الفصل الرابع

الخــوارج

الفصل الخامس

الدعوة العباسية في العصر الأموي

الفصل السادس

ولاة جند الشام في العصر الأموي

رقم التداول / ٤٥٧٤٢ /
١٩٩٩/٨/٢١

وليست قراءة التاريخ حصراً على الاختصاصين، بل العكس فقراءة التاريخ ضرورة لكل مواطن، لأن من يجهل تاريخه يجهل حق الوطن عليه، ويكون ارتباطه بأرضه وأمته ناقصاً، وتاريخ أمتنا العربية ابتداءً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى نهاية العصر الأموي فيه الكثير من المغالطات والتشويهات، وفيه الكثير من التزوير، والوضع والمبالغة، فيه التمجيد للحكام لدرجة أن بعضهم وصفوا بأنهم خلفاء الله على الأرض.

من المعروف أن تدوين التاريخ بدأ بشكله الأساسي والرئيسي بعد العصر الأموي، وبدأ هذا التدوين من أساسه على أنه تاريخ الدولة الإسلامية، أي أنهم تناسوا جنسية الدولة، ونسبوها إلى الدين متجاهلين بقصد أم غير قصد، أن العرب هم الشعب الوحيد الذي تكونت منه الدولة العربية من القمة إلى القاعدة، واستمرت حتى الوقت الحاضر، أضف على ذلك أن الذين دونوا التاريخ ركزوا على الجوانب السلبية في تاريخ العرب منذ بدايته، وأقصد بذلك تلك الأحداث التي وجد المتكلمون فيها مرتعاً خصباً لآرائهم، فكثر الحديث فيها وكثرت الآراء وتشعبت، فكان لذلك أثر سلبي على أبناء الأمة عانوا منه وما زالوا يعانون أكثر.



دمشق

١٩٩٩